



أ. د إسرائيل فنكلشتاين

فيل أشرسيلبرمان

# التوراة اليهودية

## مكشوفة على حقيقتها

THE BIBLE UNEARTHED

رؤية جديدة لإسرائيل القديمة

وأصول نصوصها المقدسة

على ضوء اكتشاف علم الآثار



ترجمة : سعد رُستم



التَّوْرَةُ الْيَهُودِيَّةُ  
مَكشُوفَةٌ عَلَى حَقِيقَتِهَا  
رُؤْيَا جَدِيدَةً لِإِسْرَائِيلَ الْقَدِيمَةِ  
وَأَصُولَ نُصُوصِهَا الْمُقَدَّسَةِ  
عَلَى ضَوْءِ اِكْتِشَافَاتِ عِلْمِ الْأَثَارِ

نيل إشر سيلبرمان  
Neil Asher Silberman  
مؤرخ وباحث أمريكي

و

د. إسرائيل فنكلشتاين  
Israel Finkelstein  
بروفيسور ورئيس قسم علم الآثار  
في جامعة تل أبيب

التَّورَةُ اليَهُودِيَّةُ  
مَكشُوفَةٌ عَلَى حَقِيقَتِهَا  
رؤية جديدة لإسرائيل القديمة وأصول نصوصها المقدسة  
على ضوء اكتشافات علم الآثار  
**THE BIBLE UNEARTHED**  
ARCHAEOLOGY'S NEW VISION OF ANCIENT ISRAEL  
AND THE ORIGIN OF ITS SACRED TEXTS  
ترجمه عن الإنكليزية، وقدم له، وعلق عليه  
سعد رستم



- 66 ..... بعض المفارقات التاريخية الواضحة :
- 68 ..... خريطة حية للشرق الأدنى القديم :
- 71 ..... شعوب الصحراء والإمبراطوريات الشرقية :
- 74 ..... مصير يهوذا :
- 78 ..... سفر التكوين كمقدمة تمهيدية؟
- 80 ..... الفصل (2): هل حدث الخروج الجماعي؟
- 81 ..... بنو إسرائيل في مصر: القصة التوراتية :
- 85 ..... سحر مصر: .....
- 88 ..... صعود الهكسوس وانهارهم :
- 90 ..... تعارض التاريخ والملوك :
- 93 ..... هل كان حدوث خروج جماعي محتملاً - أصلاً - في عهد رمسيس الثاني؟
- 96 ..... الهائمون الشبثيون؟
- 100 ..... عودة إلى المستقبل: الدلائل التي تشير إلى القرن السابع ق. م.:
- 105 ..... تحدي الفرعون الجديد: .....
- 108 ..... الفصل (3): غزو كتعان
- 109 ..... خطة معركة يشوع: .....
- 112 ..... كتعان من نمط مختلف: .....
- 116 ..... على خطى يشوع؟
- 119 ..... هل أدت الأبواق حقاً؟
- 121 ..... عالم البحر الأبيض المتوسط في القرن الثالث عشر ق. م.:
- 125 ..... الثورة العظيمة: .....
- 130 ..... ذكريات في حالة تحول:
- 132 ..... عودة للمستقبل مرة ثانية؟
- 134 ..... غزو جديد للأرض الموعودة؟
- 137 ..... الفصل (4): من كان الإسرائيليون؟
- 138 ..... وراثة الأرض الموعودة: .....

- 141.....مهاجرون من الصحراء؟
- 144.....فلأحون مُشردّون من أرضهم؟
- 147.....حلُّ مُفاجئ يُقدِّمه علم الآثار:
- 149.....الحياة على حُدود المُرتفعات:
- 153.....مفاتيح جديدة حول أصول الإسرائيليين:
- 156.....دورات كنعان المكفّية:
- 162.....بأي معنى كانت إسرائيل القديمة فريدة؟
- 164.....سفر القضاة ودولة يهوذا في القرن السابع ق. م:
- 167.....الفصل (5): ذكريات عصر ذهبي؟
- 168.....سُلالة ملكية لإسرائيل:
- 172.....هل داود وسليمان وُجداً؟
- 174.....نظرة جديدة لمملكة داود:
- 177.....البحث عن أورشليم:
- 179.....كم كان اتّساع فتوحات داود؟
- 182.....إسطبلا، ومُدُن، ويوآبات الملك سليمان:
- 184.....أروع من أن يُصدّق؟
- 187.....مُشكلات في التّاريخ:
- 189.....التّراث النّاودي: من رئيس عشيرة في العصر الحديدي إلى أسطورة السُلالة الملكيّة:
- 193.....[ القسم الثّاني ]: صُعود وسُقوط إسرائيل القديمة
- 195.....الفصل (6): دولة واحدة وأمة واحدة وشعب واحد؟ (930 . 720 ق . م).
- 196.....قصة اثنتي عشرة قبيلة ومملكيتين:
- 198.....الشّمال مُقابل الجنوب خلال الأنبياء:
- 201.....عالمان في المُرتفعات:
- 204.....تشكيل الدّولة في عالم الكتاب المُقدّس العبري:
- 206.....ابتداء تاريخ إسرائيل:
- 208.....أربع بُنوءات حقيقيّة:

213	قصّة حذرة جدّاً: .....
215	الفصل (7): مملكة إسرائيل الأولى المنسيّة (884 - 842 ق . م) .....
216	صعود وسقوط بيت "عمرى": .....
221	الحدود البعيدة والقوة العسكرية: .....
227	قصور، إسطبلات، ومدن مخازن: .....
233	نقطة تحول منسيّة في تاريخ الإسرائيليين: .....
238	نصب معماري منسي للحكم "العمرى"؟ .....
240	قوة التنوع: .....
243	الأوغاد النهائيون: .....
245	الفصل (8): في ظل إمبراطوريّة (842 - 720 ق . م) .....
246	الكفران، والرّحمة الإلهيّة، وسقوط إسرائيل النهائي: .....
249	نظرة أقرب إلى تاريخ إسرائيل المتأخّر: .....
251	أرام في إسرائيل: .....
255	عودة الإمبراطوريّة الآشوريّة: .....
257	جوائز النظام العالمي الجديد: .....
260	لغز "مجدو" يطرح بقوة مرّة ثانية: .....
263	أصوات الاحتجاج الأولى: .....
265	الام احتضار إسرائيل: .....
267	تذويب الشّمال بالدولة الآشوريّة، وطبّعه بطابعها: .....
269	نهاية المملكة: .....
273	المبعدون والباقون على قيد الحياة: .....
275	الدرس القاسي والمروع لمملكة إسرائيل: .....
279	[ القسم الثالث ]: يهوذا وصناعة التاريخ التوراتي .....
281	الفصل (9): تحول يهوذا (930 - 705 ق . م) .....
283	ملوك جيّدون وملوك سيّئون: .....
287	الوجه المخفي ليهوذا القديمة: .....

- 291 دولة المدينة البعيدة في التلال : .....
- 293 الدِّينُ التَّقْلِيدِي لِيَهُودًا : .....
- 296 بُلُوغُ مُفَاجِئٍ لِعَصْرِ الرُّشْدِ وَالْكَمَالِ : .....
- 300 ولادة دين وَطَنِي جديد : .....
- 303 إصلاحات الملك "حَزَقِيَّا"؟ .....
- 305 الفُصْلُ (10): بَيْنَ الْحَرْبِ وَالْبِقَاءِ (705 - 639 ق . م).....
- 306 مُعْجِزَةٌ عَظِيمَةٌ وَخِيَانَتُهَا : .....
- 309 الاستعداد لتحديِّ إمبراطوريَّةِ عالميَّة : .....
- 314 ما الذي حَدَّثَ حَقِيقَةً؟ انتقام "سَنَحَارِب" العنيف : .....
- 318 منظور توراتي آخر : .....
- 319 كَمُ الْقَطْعِ الْمُنْتَاثِرَةِ : .....
- 322 القوافل العربيَّةُ وزيت الزيتون : .....
- 325 الأقدار المُتَغَيِّرَةُ : .....
- 329 الاقتراب من الذُّرَّة : .....
- 331 الفُصْلُ (11): إِصْلَاحُ كِبِيرٍ (639 - 586 ق . م) .....
- 333 اكتشاف غير مُتَوَقَّعٍ فِي الْهَيْكَلِ (المعبد) : .....
- 336 ماذا كان "سُفْرُ الشَّرِيعَةِ"؟ .....
- 338 فرعون صاعد وإمبراطوريَّةُ آيلةٍ لِلسُّقُوطِ : .....
- 339 غزوٌ جَدِيدٌ لِلأَرْضِ الْمَوْعُودَةِ : .....
- 341 ثورة فِي الرِّيفِ : .....
- 344 عِلْمُ الْآثَارِ وَالْإِصْلَاحَاتِ الْيُوشِيَّةِ : .....
- 345 إِلَى أَيِّ حَدِّ ذَهَبَتْ ثَوْرَةُ يُوشِيَّا بَعِيداً ؟ .....
- 346 مُوَاجِهَةٌ فِي "مَجْدُو" : .....
- 349 آخِرُ الْمُلُوكِ الدَّأُودِيِّينَ : .....
- 353 الفُصْلُ (12): النِّفْيُ وَالْعَوْدَةُ (586 - 440 ق . م).....
- 354 من الدَّمَارِ إِلَى الْإِحْيَاءِ : .....

- 359 ..... من الكارثة إلى التصحيحية التاريخية :
- 364 ..... أولئك الذين بقوا :
- 367 ..... من الملوك إلى الكهنة :
- 369 ..... إعادة تشكيل تاريخ إسرائيل :
- 373 ..... الخاتمة: مستقبل إسرائيل التوراتية .....
- 379 ..... الملحق أ: نظريات تاريخية عهد الآباء .....
- 379 ..... القرصية العمورية: .....
- 382 ..... الآباء في العصر البرونزي الأوسط: .....
- 384 ..... الآباء في العصر الحديدي المبكر: .....
- 386 ..... الملحق 'ب': بحث عن سيناء .....
- 388 ..... الملحق 'ج': النظريات البديلة للغزو والفتح الإسرائيلي .....
- 388 ..... التسرب السلمي: .....
- 393 ..... ثورة فلاحين: .....
- 399 ..... الملحق 'د': لم كان علم الآثار التقليدي حول الفترة الداودية والسليمانية خاطئاً؟ .....
- 399 ..... الفتوحات الداودية: سراب خزفي<sup>٤</sup> .....
- 401 ..... إعادة النظر بشأن 'مجدو': التواريخ، الفخاريات، وأماط الفن المعماري .....
- 404 ..... الملحق 'هـ': تمييز عصر 'منسى' في السجل الآثاري .....
- 406 ..... الملحق 'و': كم كانت سعة مملكة 'يوشيا'؟ .....
- 413 ..... الملحق 'ز': حدود محافظة 'يهودا' Yehud .....
- 415 ..... ثبت المراجع والمصادر .....
- 437 ..... المؤلفان والترجم في سطور .....



## مقدمة المترجم

بسم الله الرحمن الرحيم، نحمد الله - تعالى - أن هدانا لدينه القويم، وأكرمنا بقرآنه الكريم، كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، تكفل الله - تعالى - نفسه بحفظه من كل تحريف وتبديل، أو زيادة، أو نقصان. ونُصَلِّي، ونُسلِّم على خاتم النبيين، وصفوة البشر أجمعين؛ سيدنا محمد بن عبد الله، الصادق الأمين، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

أما بعد؛ فيقول الحق عزَّ شأنه:

﴿ قَوْلِ الَّذِينَ يُكْتَبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلِ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ البقرة / 79.

ويقول عن اليهود:

﴿ وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونُ السِّتْرَ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ آل عمران / 78.

أجل؛ كتَّبَ أhabar اليهود قديماً كُتُباً وأسفاراً أضافوها للتوراة، ونسبوا لها، وحرَّفوا الكلم عن مواضعه. . ثمَّ جاء من بعدهم، وبنى على ما سبق، وعدَّ كلَّ أسفار ما يُسمَّى بالكتاب المقدَّس العبري The Hebrew Bible إلهامية من الله، وكلمة الله الحقَّة، رغم اعترافهم أن مؤلَّفي كثير من تلك الأسفار كُتَّابٌ مجهولون، وأن كثيراً من تلك الأسفار أُلِّفَ على مراحل، وجمِّع من عدَّة مصادر، واستند مؤلَّف كلِّ مصدر فيه إلى مصادر خارجيَّة متعدِّدة!

وكانت الطامة أن استندت الحركة الصهيونية الاستعمارية في القرنين الأخيرين إلى نصوص التوراة العبرية المحرقة لتبرير احتلالها لما اعتبرته الأرض الموعودة الممنوحة لها من الله، وأخذت تبيح ظلماً وقسداً وقتلاً وهدماً، مُستندة لنصوص توراتية، ما أنزل الله بها من سلطان، كما أخذت تُهدد ببناء المسجد الأقصى قبلة المسلمين الأولى؛ بحجة البحث عن الهيكل السلیماني الكبير المزعوم . . .

منذ عصر النهضة والتنوير في أوروبا، وضعت الكتب المقدسة اليهودية والمسيحية على بساط البحث، وصارت تُشرح، وتُدرس دراسة موضوعية علمية، تعتمد على العلم اللغوي لدراسة النصوص، وعلى مكتشفات علم الآثار، وبدأت تظهر نتائج تتفق وتتسجم مع تلك الحقيقة التي قالها الإسلام منذ أكثر من ألف عام؛ من أن الكتب المقدسة التي بأيدي اليهود والنصارى تتضمن المُنزّل الأصيل والدخيل المضاف، وبالتالي؛ تتضمن الحق والخرافة، والتاريخ والأسطورة.

لكن؛ أن يأتي مثل هذا الإقرار على لسان مُحققين يهوديين؛ أحدهما إسرائيلي، والآخر أمريكي، صاحبي خبرة طويلة في التنقيبات الأثرية وعلم الآثار، فإن هذا - بلا شك - يعطي لإقرارهما وزناً كبيراً، لا يعادله شيء؛ لأن شائبة التحامل والإغراض بريئة منه تماماً.

ومن هنا؛ تأتي أهمية هذا الكتاب الذي قام بتأليفه رائدان من رواد علم الآثار والتحقيق في الكتب المقدسة على ضوء المكتشفات الأثرية: الأول: اليهودي الإسرائيلي الدكتور في علم الآثار إسرائيل فنكلشتاين Israel Finkelstein رئيس قسم علم الآثار في جامعة تل أبيب، ومدير بعثة التنقيب في موقع 'مجدو' Megiddo (أرمجدون القديمة)، وصاحب خبرة تقارب الثلاثين عاماً في الحفريات الأثرية في أرض فلسطين المحتلة، والثاني: اليهودي الأمريكي 'نيل إشر سيلبرمان' Neil Asher Silberman، مؤلف سلسلة الكتب الناجحة والثيرة عن الأبعاد السياسية والثقافية لعلم الآثار. قدم المؤلفان في كتابهما الذي سميها: 'The Bible Unearthed' - وترجمناه بعبارة: 'التوراة اليهودية (العبرية) مكتشفة على حقيقتها' - دراسة نقدية مُصلة للروايات والفصوص التاريخية التوراتية، التي تحدثت عن نشأة شعب إسرائيل، وقيام دويلة له في جزء من أرض فلسطين قبل حوالي ألف عام من ولادة المسيح،

مُسْتَنْدِينَ لنتائج العشرات من أعمال التقيب والحفريات الآثارية في أرض فلسطين، ومصر، والأردن، ولبنان، ليُعدّما قهماً وتصوراً جديداً جريئاً عن فترة الحُكم اليهودي القصيرة تلك، بالإضافة إلى رؤية جديدة بشأن القَصَص التاريخية التوراتية الأساسية المشهورة.

وكان كتابهما مثيراً جداً، واستغزانياً لليهود؛ لأنه يتحدّى الفكرة السائدة لدى عامتهم بأنّ التوراة (العبرية)، أو الكتاب المقدّس العبري Hebrew Bible، هو كلمة الله التي دونها رجال ومؤلفون ملهمون من الله؛ حيث أظهر الكتابُ -بشكل واضح- أنّ التوراة العبرية -بشكلها الحالي- كان قد كُتبتْ كهنة يهود في عهد حُكم الملك المُستقيم يوشيا ملك يهوذا في القرن السابع قبل الميلاد؛ أي بعد فترة طويلة من الزمن، الذي يُفترض أنّها أنزلت فيه، في محاولة بطولية أخيرة من قبل بعض كهنة دولة يهوذا الجنوبية الصغيرة لإبقاء إيمانهم حياً، بعد فناء المملكة الأغنى والأكبر لإسرائيل في الشمال، وأنهم أوردوا فيها ما يُحقّق أغراضاً دينية إصلاحية معينة، ويعتمد الطُموحات الإقليمية للملك يوشيا، الذي كان يسعى لتوحيد شعب إسرائيل، وضمّ أراضي مملكة إسرائيل الشماليّة السابقة -التي فتحتها الآشوريون- إلى مملكته الجنوبية.

يركّز هذا الكتاب -إذن- على التحقيق في ما تُخبرنا به نتائج وبيانات علم الآثار عن التوراة العبرية ومحتوياتها، فبدأ كلُّ فصلٍ من فصوله بعرض الرواية التوراتية، ثمّ يعقبُ بذكر ما تقتضيه المكتشفات الآثارية؛ ليقارنَ بينها وبين الرواية التوراتية، فتُفصّل الأسطورة عن الحقيقة التاريخية.

وكانت النتائج التي توصل إليها المؤلّفان العلمانيان في هذا الكتاب طعنة في صميم المعتقدات اليهودية التقليدية، وتحطيماً للرؤى الدينية التقليدية لليهود؛ حيث استخدم الباحثان نتائج الأبحاث الآثارية الأخيرة لتقديم صورة جديدة بشكلٍ مثير ومُحطم لكلِّ الأفكار المشهورة المعروفة حول إسرائيل القديمة وجيرانها.

لقد استدلاً بأنّ الأدلّة الحاسمة (أو نقص الأدلّة المؤيدة) الذي تُعيده الحفريات والتقبينات الآثارية في كُلِّ من فلسطين، ومصر، والأردن، ولبنان، تقترح أنّ العديد من القَصَص الأكثر شهرة في التوراة العبرية -رحلات الآباء إبراهيم، وإسحق، ويعقوب، والخروج الجماعي من

مصر، غزو بني إسرائيل بقيادة يشوع (تلميذ موسى) لأرض كنعان، الحُكْم الملكي المُتحد لداود وفُتوحاته في كنعان، وإمبراطورية سُلَيْمَانَ الواسعة - إنَّما تعكس - في الواقع - عالمَ المؤلفين التَّالِينَ للتُّوراة بِشَكْلِها النَّهائِي، بَدَلًا من عكسها لِحَفَائِقِ تاريخية أصيلة ودقيقة.

وَيُمْكِن تلخيص الاستنتاجات التي ادَّعاهَا المُولَّفَانِ كالتَّالِي:

1- ليس هناك دليل علمي على الوجود الحقيقي لشخصيات مثل إبراهيم، أو أي من الآباء كإسحق، ويعقوب، ورحلاتهم من أور، إلى حاران، إلى حبرون (الخليل)، والأمر نفسه بالنسبة لشخصية موسى، وقصة الخروج الجماعي من مصر؛ والأمر نفسه بالنسبة للفترة الكاملة للقصة، والحُكْم الملكي المُتحد لداود وسُلَيْمَانَ. في الحقيقة؛ يُحاول المؤلفان إثبات أنه من غير المُمكن علمياً إثبات الكثير من كُلِّ ما يتعلَّق بإسرائيل القديمة قبل القرن السابع قبل الميلاد؛ أي حوالي عهد الملك يُوشيا، الذي كُتِبَ في عهده قصة التُّوراة العبرية بِشَكْلِ يتناسب - بنحو فريد - مع هدف تقوية الإصلاح الديني، وتحقيق الطُمُوحات الإقليمية لدولة "يهودا" تحت حُكْم يُوشيا.

2- لا تُؤيِّد الأدلَّة الأثارية رواية الخروج الجماعي من مصر، بالشكل والأعداد والطريقة التي تذكرها الرواية التوراتية العبرية، بل حتَّى لا يُوجد دليل علمي أكيد على وجود شخصية موسى الموصوفة في التُّوراة العبرية، ولا على كُلِّ قصة التَّجَوُّل في البرية، والعجل الذهبي، والصَّعود إلى سيناء . . . بل الأرجح - في نظرهما - أنه لم تكن هناك أصلاً فترة عبودية في مصر في تاريخ شعب إسرائيل<sup>(1)</sup>.

(1) ممَّا يجدر التَّنبُّه إليه في هذا المقام أنَّ المؤلفين إنَّما يريدان تلك القِصَص التُّوراتية نظراً لما تحتويه من تفاصيل عدديَّة أو تاريخية أو جغرافية أو نفاصيل في أسماء أعلام أشخاص . . . إلخ، لا تتناسب مع الزَّمن المُتَّرض أنها أُلِّت فيه، ولا مع الحقائق التاريخية التي أثبتتها علم الآثار، لكنَّ هذا لا يُبيح لهم إنكار أصل القِصَص من أساسها جملةً وتفصيلاً؛ إذ قد تكون من أصل صحيح، ثمَّ أقمحت فيها - مع الزَّمن - تلك التفاصيل. أمَّا القرآن؛ فإنَّه في روايته لتلك القِصَص لا يذكر أي تفاصيل جغرافية أو عدديَّة أو تاريخية مُحدَّدة أو أسماء أعلام. فليس فيه أي شيء يتناقض مع المُعطيات الأثارية. وقد بحثَ الطَّبيب الجراح الفرنسي موريِس بوكاي هذه النُقطة في كتابه "التُّوراة والإنجيل والقرآن: دراسة الكُتُب المُتَّسِّة في ضوء المعارف الحديثة"، وتوصَّل إلى وجود تحريف وأخطاء في التُّوراة والإنجيل الحاليين، بعكس القرآن الذي لم يجد فيه أي خطأ تاريخي أو علمي واستند بذلك على بُرْهَانِ مُحَمَّدٍ وكون القرآن كتاباً منزَّلاً من عند الله ليس ظلُّوه من أي خطأ علمي أو تاريخي أو جغرافي فحسب، بل لاحتوائه إشارات لأمر علميِّ لم يُكتَشَف إلا حديثاً.

3- لم يَقم 'يشوعُ بن نُون' بِحَمَلَةِ غزواتِ مُوحَّدةٍ لفتحِ أرضِ كَنْعَانَ، بل العبرانيون (اليهود) / الإسرائيليون، إمَّا كانوا مهاجرين انتقلوا من مصر إلى كَنْعَانَ، أو كانوا مجموعة ثقافية غامضة، أو طبقة من الناس من أهالي كَنْعَانَ نفسها، ليس لها أصلٌ، أو جدٌ واحدٌ تحدَّرتُ منه، ففكرة وُجودِ عرقٍ خاصٍ باسمِ بني إسرائيلِ فكرةٌ مُختَرَعَةٌ في رأيِ الكاتبين، وأنَّ العبرانيين / الإسرائيليين إمَّا ارتفع شأنهم في ظُرُوفٍ مُعيَّنة بِشكَلٍ تدريجي، حتَّى وصلوا للهِيمَةِ على جُزءٍ من أرضِ فلسطينِ لفترةٍ من الزمن، أمَّا قُتُوحاتِ كَنْعَانَ المذكورة في أسفارِ التَّوراة، مثل سفرِ يشوعِ والقضاة . . ؛ فهي ليست حقيقيَّة، بل كُتِبَتْ فيما بعد؛ لتبريرِ قُتُوحاتِ يوشياَ الشماليَّة.

4- داود وسليمان وُجداً تاريخياً، لكنَّهما كانا أقرب إلى رئيسيَّ عشيرةٍ منهما إلى ملكين بالمعنى الحقيقي للكلمة، ولم يَقوموا بأيِّ من الأعمالِ العظيمةِ المرويةِ في التَّوراةِ العبريةِ، فلا داود فتحَ كَنْعَانَ، ولا ما جاورها، ولم يَقمِ بقُتُوحاتِ أصلاً، بل كانت دولته - إن صحَّ التعبير - مجموعة قَرَى جليليةٍ مُنعزلةٍ نائيةٍ، لا وزن لها، ولا يؤيِّم بها في منطقة التلالِ والمُرتفعاتِ الوُسطى في أرضِ كَنْعَانَ، كما أنَّ سليمان لم يَبنِ أيَّ هيكل (معبد) هائل، وحتَّى المعبدِ العادي الذي بناه انهدم كلياً في الغزواتِ المُتلاحقةِ ضدَّ أُورشليم (القُدس)، وما تبعها من هدمٍ وحرقٍ مُحَت آثاره تماماً، لا سيما أنَّها اختلطتِ بخرائبِ الأبنيةِ المُتعدِّدة التي بُنيتْ - فيما بعد - في مكانه، وخرُبتْ - أيضاً - عدَّةُ مرَّاتٍ، وصار الكلُّ أثراً بعد عَيْنٍ.

فالأوصاف التي نجدُها في التَّوراةِ العبريةِ للملكِ داود وإمبراطوريَّةِ سليمان، وقُتُوحاتهما، وقُصُورهما كُلُّها مبالغات لا أساس تاريخي علمي لها. أمَّا القُصُور التي وُجِدَت في التَّبقِيَّاتِ الأثريَّة، ونُسبت إلى سليمان؛ فهي - في الواقع - أُلُوكِ إسرائيلِ الفسقةِ المُرتدِّون إلى الوثنيَّةِ من بيتِ 'عُمري'.

5- لم يكن هناك دين يهوديٌ مُوحَّد في أغلبِ تاريخِ يهودا / إسرائيلِ القديمة، بل كانت هناك مناطقُهما المُختلفة، خاصَّةً الرِّيفيَّةُ منها، آلهةٌ أُخرى عُبِدتْ سويَّةً مع يَهُوه.

وبعد؛

فَقَنِيَّ عَنْ الْقَوْلِ ، أَنَّا كَمُسْلِمِينَ ، لَا نَشْكُ ، وَلَا نَرْتَابُ ذَرَّةَ رَيْبٍ فِي حَقِيقَةِ قَصَصِ أَبِي  
الْأَنْبِيَاءِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ ، وَابْنَيْهِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ، وَقِصَّةَ يَعْقُوبَ (إِسْرَائِيلَ) ، وَأَوْلَادِهِ  
الْأَسْبَاطِ الْإِثْنَيْ عَشَرَ ، وَقِصَّةَ يُوسُفَ ، وَقِصَّةَ اسْتِعْبَادِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي مِصْرَ ، وَقَتْلَ أَبْنَائِهِمْ ،  
وَاسْتِحْيَاءِ نِسَائِهِمْ ، ثُمَّ انْقِضَادِ مُوسَى لَهُمْ ، وَخُرُوجِهِ بِهِمْ عِبْرَ الْبَحْرِ ، وَإِغْرَاقِ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ  
بِمُعْجَزَاتٍ صَنَعَهَا اللَّهُ الْقَدِيرُ ، وَتَكْلِيمِ اللَّهِ تَعَالَى لِمُوسَى عَلَى الْجَبَلِ ، وَإِنزَالِ الْوَصَايَا وَالشَّرِيعَةِ ؛  
أَيَّ التَّوْرَةِ ، وَاخْتِيَارِ اللَّهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَتَفْضِيلِهِمْ عَلَى الشُّعُوبِ الْوَكَيْتِيَّةِ الْمَجَاوِرَةِ ، وَأَمْرِهِمْ  
بِالدُّخُولِ لِلْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُمْ ، وَاجْتِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى لِدَاوُدَ ، وَإِنزَالِهِ الزَّبُورِ عَلَيْهِ ،  
وَمَنْحِهِ سُلَيْمَانَ قُوَّةً وَمُلْكًا عَظِيمَيْنِ . وَيَنْطَلِقُ إِيمَانُنَا بِهَذِهِ الْحَقَائِقِ مِمَّا أَخْبَرَنَا بِهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ ،  
الَّذِي قَامَتْ كُلُّ الدَّلَائِلِ الْعَلْمِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ وَالْوُجْدَانِيَّةِ عَلَى أَنَّهُ الْوَيْقِيَّةُ الْإِلَهِيَّةُ النَّقِيَّةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي  
حَفِظَهَا اللَّهُ تَعَالَى كَمَا أُنزِلَتْ ، وَبِحَفِظِهَا حُفَظَ ذَلِكَ التَّرَاثُ النَّبَوِيُّ ، الَّذِي لَوْلَاهُ لَمَا كَانَ هُنَاكَ  
سَبِيلٌ عِلْمِيٌّ آخَرَ لِإِبْرَاهِيمَ تَفَاصِيلِ تِلْكَ الْحَقَائِقِ :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى  
وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ  
الشَّاهِدِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَكِنَّا أُنزَلْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ  
تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءآيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٨﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً  
مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَأْتَنَهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ الْقِصَصُ / 43 - 46 .  
﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ اتَّخَفُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَحْمُرُونَ ﴾  
يُوسُفَ / 102 .

وبالتالي؛ فمن البديهي أننا لا نتفق مع المؤلفين في كثير من آرائهما واستنباطاتهما التي  
لا يخفى على القارئ أن فيها الكثير من التَّحْكُمِ وَالْمَزَاجِيَّةِ ، أَوْ بِتَعْبِيرِ أَدَقِّ ؛ التَّأَثُّرِ بِالْخَلْفِيَّةِ  
الْإِيدِيُولُوجِيَّةِ الْمَادِّيَّةِ الَّتِي تَنْفِي - جُمْلَةً وَتَفْصِيلاً - عَالِمَ الْغَيْبِ وَمَا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ الْمَادِّيَّةِ ، بَلْ حَتَّى  
الْمُؤَلِّفِينَ نَفْسَهُمَا لَا يُخْفِيَانِ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ اقْتِرَاحَاتِهِمَا هِيَ مُجَرَّدُ تَخْمِينَاتٍ وَاحْتِمَالَاتٍ ، لِذَلِكَ

نجدهما يكثران جداً من استعمال ألفاظ مثل: 'على ما يبدو'، 'والظاهر أنه'، 'يبدو أنه'، 'احتمالاً'، 'في الغالب'... هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ فإنَّ عدم العثور على أثر مادّي على شيء لا يكفي وحده دليلاً على القَطع بنفي وجود ذلك الشيء، وإنَّما أقصى ما يُعديه أنه ليس لدينا الدليل المادّي المرثي لإثباته حالياً.

إذن؛ فعلى القارئ لهذا الكتاب - كما عليه عند قراءته لأي كتاب - أن يُحكّم عقله، ويقرأ بحدَرٍ وتنبُّه، ويُميز - دائماً - بين الدليل العلمي، والآراء، والفرضيات القابلة للتَّقْض، أو الإثبات . .

إنَّ ما يُعيدنا من هذا الكتاب هو بطلان الدعاوي الصهيونيَّة في أرض فلسطين؛ استناداً لتواجدهم القديم فيها، أو أنَّها أرض اليعاد، على لسان اثنين من كبار علماهم أنفسهم، اللذَّين أكَّدا أنَّ فلسطين كانت - وظلَّت دائماً - مسكونة من عدَّة شعُوب، تناولوا عليها، أو تجاوروا فيها: البيوسيون، الكنعانيون، الفلسطينيون، العماليق، العرب . . وأنَّ الإسرائيليين لم يكونوا إلاَّ مجموعة هامشيَّة فوضويَّة نَمَتْ وسيطرت لفترة قصيرة على منطقة محدودة من المرتفعات والتلال المركزيَّة في فلسطين، في حين كانت بقية فلسطين مسكونة من الكنعانيين والفلسطينيين، وغيرهم، وأنَّ لا صحَّة لتلك الفتوحات الإقليمية والتوسعية المنسوبة لداود وسليمان، ولا لبناء ذلك الهيكل الكبير المزعوم.

أمَّا كون الله وعَدَ بني إسرائيل تلك الأرض؛ فإنَّ هذا الوعد كان مشروطاً باتِّباع أنبيائه، والعمل بوصاياهم، ومادام أنَّ اليهود كذَّبوا أنبياءه، وقتلوا عدداً منهم، وخانوا وصاياهم، وحرَّفوا دينه، وكذَّبوا بأخر نبيِّين عظيمين كبيرين: عيسى المسيح، ومُحمَّد المصطفى، عليهما الصلَاة والسلام، بل حاولوا - أيضاً - قتلهم، فما عادوا مُستحقِّين لهذا الوعد على الإطلاق، بل أصبح الوعد كمن أصغى إلى كلمة الله، واتَّبَع كُلَّ أنبيائه؛ وهُم المسلمون، فإِنَّ الله عادل، وليس عنده مُحاباة أبدية لشعب من الشعُوب، بل شعبه وأحبَّاءهُ هُم المتَّبَعون لوصاياهم وأوامرهم، المُصدِّقون بجميع أنبيائه . . ففلسطين أمانة الله لشعب الله: المسلمون المؤمنون المُوحِّدون المُصدِّقون بجميع أنبيائه ورُسُلِهِ؛ لا سيما خاتمهم وأفضلهم سيِّدنا مُحمَّد المبعوث رحمة للعالمين، والإسلام - اليوم - هو الدِّين الوحيد الذي يعترف بجميع الأنبياء، ولا يُكذِّب

بأحد منهم، وهو الوحيد الذي يستوعب سائر الأديان، ويعترف بوجُودها، ويأمر باحترام أتباعها، والبرّ بأهلها، والتسامح معهم، ويؤمن بحُرِّيَّة العقيدة، وأن لا إكراه في الدين، بعكس الأديان المُحرِّفة، التي تُضطهد مُخالفِيها، وتسعى لاستئصالهم، وطردهم من الأرض. بهذا أختتم هذه المُقدِّمة؛ آملاً أن يُعيد الله العزَّة والمجد للأُمَّة الوَسَطَ: أُمَّة الإسلام، ويُعيد الأراضي والحقوق المُنتصبة لأصحابها في فلسطين وسائر بلدان المُسلمين، إنَّه وليّ الإجابة، القويّ، المتين.

سعد رُستُم

ملاحظة: لتمييز الحواشي التي في أصل الكتاب عن الحواشي التي أضافها راقم السُّطور (المُترجم) تمّ تذييل الحواشي التي كُؤلفِي الكتاب بعبارة (المؤلف)، والحواشي التي أضفْتُها من عندي بعبارة (المُترجم).



## شُكْرٌ وَتَقْدِيرٌ

وكِدَّتْ فكرة هذا الكتاب قبل ثمانية سنوات تقريباً، أثناء عطلة نهاية أسبوعٍ صيفيَّةٍ هادئةٍ مع عائلتنا على ساحل 'مين' Main<sup>(1)</sup>. أخذ النقاش حول الثقة التاريخية للكتاب المقدس (العبري)، يجذب - من جديد - انتباه الكثيرين خارج الدوائر العلميَّة، وأدركنا أنَّ هناك حاجة لكتابٍ جديدٍ ومُحدَّثٍ حول هذا الموضوع، يُقدِّم للقارئ العُموميِّين (غير المتخصصين)، سنعرِّض فيه ما نعتقد أنَّه أدلَّةٌ آثاريَّةٌ وتاريخيَّةٌ ملزِّمةٌ لفهمٍ جديدٍ لبروزٍ ونشأة إسرائيل القديمة، وظهور نُصُوصها التاريخيَّة المُقدَّسة.

في السنوات السَّنيَّة، ازدادت حدَّةُ معركة علم الآثاريَّة حول التوراة. وتحوَّلت - في بعض الأزمات والأمكنة - إلى هجماتٍ شخصيَّةٍ واتِّهَاماتٍ ذات دوافعٍ سياسيَّةٍ خفيَّةٍ. هل حَدَثَ الخُرُوجُ الجماعيُّ (لبنى إسرائيل من مصر)؟ هل كان هناك غزوٌ لكَنْعَانَ؟ هل حَكَّمَ داود وسليمان - حقيقةً - إمبراطوريَّةً واسعةً؟ أثارت مثل هذه التساؤلات انتباه صُحَّفيِّين ومُعلِّقين في جميع أنحاء العالم.

وفي أغلب الأحيان؛ ابتعدت المناقشة العامَّة لكُلِّ هذه التساؤلات بعيداً عن حُدُود علم الآثار الأكاديمي والنقْد العلمي التوراتي، إلى حقل النزاعات العقائديَّة الدينيَّة والأهوتيَّة المحمومة.

على الرَّغم من العواطف التي يُثيرها البحث في مثل هذا الموضوع، فإننا نعتقد أنَّ إعادة تقييم الاكتشافات، الناجمة عن التنقيبات الأخيرة، والاكتشافات المُستمرَّة، الناتجة من أعمال الحفر الجديدة، قد أوضحت للعلماء - بشكلٍ بيِّن - أنَّ عليهم أن يُقارِبوا مسائل أصول التوراة، أو الكتاب المقدس (العبري)، وأصول المجتمع الإسرائيلي القديم، من منظورٍ جديدٍ تماماً.

(1) 'مين' Main: ولاية أمريكيَّة تقع في أقصى شمال الساحل الشرقي للولايات المتحدة على الحدود مع كندا. (المترجم)

في الفصول التالية، سنقدم أدلة لتعزيز ذلك الزعم، وإعادة بناء تاريخ مختلف جداً لإسرائيل القديمة. وعلى القراء أن يحكموا لأنفسهم إذا تلاءمت إعادة بنائنا للتاريخ، مع الأدلة المذكورة.

ولكن؛ قبل أن نبدأ، يجب أن نُشير إلى بضعة موادٍ بخصوص المصادر والترجمات الصوتية. لقد استقينَا كُلَّ اقتباساتنا المباشرة من النصِّ التوراتي من نسخة الترجمة القياسية المُراجَعة للكتاب المقدس العبري "Revised Standard Version of the Hebrew Bible". وبالرغم من أننا اتبعنا تلك الترجمة القياسية المُراجعة، إلا أننا في إحالاتنا لأسماء إله إسرائيل، ضمن الاقتباسات، استخدمنا في نُصوصنا الاسم "يهوه" المُؤلف من أربعة حُرُوف YHWH للإشارة إلى الاسم الواضح لله: أمَّا في النسخة القياسية المُراجَعة؛ فإن كلمة يهوه عبر عنها بكلمة "الرب" Lord، بينما كلمتا إيلوهيم Elohim، أو إيلوهي Elohei؛ فقد تُرجمت بكلمة "الله".

أمَّا بالنسبة للجدول التاريخي للأحداث التوراتية، بكلِّ شكوكه ومطباته (مخاطره)، فقد قررنا أن الجَمْع بين عدة أنظمة تاريخ سيزودنا بأفضل موافقة أو تطابق مع الحقائق الأثارية البارزة: بالنسبة للفترة من بداية الحكم الملكي لإسرائيل إلى وقت "أخاب" Ahab، اتبعنا التواريخ المذكورة في كتاب "الجدول الزمني للملوك إسرائيل ويهوذا" The Chronology of the Kings of Israel and Judah، طبع ليدن، (1996) لمؤلفه: "غيرشون غاليل" Gershon Galil. أمَّا بالنسبة لتواريخ العهد اللاهقة للملوك إسرائيل ويهوذا؛ فقد اتبعنا مقالة "موردخاي كوجن" Mordecai Cogan حول تاريخ الأحداث في قاموس مُرتكز (أو سَدَد) الكتاب المقدس Anchor Bible Dictionary (طبع نيويورك، 1992).

لا شك أنه قد بقيت العديد من الشكوك في تلك الجداول الزمنية التاريخية (كالتى تتعلّق بالتواريخ الدقيقة للملوك الأوائل، أو اشتراك أكثر من وصي على العرش في الحكم بنحو مُتزامن، أو التناقضات ضمن المادة التوراتية)، لكننا نشعر أنه - بشكل عام، بالنسبة لأغراض مثل هذا الكتاب العام - فإن ذلك المُخطَّط الزمني التاريخي يُعدُّ موثوقاً.

قدّمت التّفتيات المُجدّدة في تلّ "مجدو" Megiddo . التي قامت بها جامعة تلّ أبيب بالمشاركة مع جامعة ولاية بنسلفانيا<sup>(1)</sup> - فرصة فريدة للتّفكير، والتأمّل ملياً، ومناقشة المادّة التي يحتويها هذا الكتاب، مع الزملاء. لذا؛ نودُ أن نتقدّم بشكرنا الخاصّ إلى المديرين المشاركين الآخرين في بعثة "مجدو" الأثاريّة: الأساتذة ديفيد أوسيشكين David Ussishkin ، وباروخ هالبرن Baruch Halpern ، وإلى العديد من أعضاء فريق وموظّفي بعثة "مجدو"، الذين لعبوا - على مرّ السّنين - مثل هذا الدّور المهمّ في التّقيب والعمل العلمي الأوسع لعلم الآثار التّوراتي.

قام بالبحث والكتابة الأويّبة لهذا الكتاب كُلاًّ من إسرائيل فنكلشتاين Israel Finkelstein أثناء سنة تفرّغه في باريس، ونيل أشر سيلبرمان Neil Asher Silberman في مدينة "نيو هفن" New Haven<sup>(2)</sup>. وقد ساعد الصّديق الزميل البروفسور "بيير دي ميروشدجي" Pierre de Miroschedji في جعل أوقاتنا في باريس مثمرة وممتعة. أثناء كتابة هذا الكتاب، قدّمت لنا كُلاًّ من مكتبة معهد علم الآثار في جامعة تلّ أبيب؛ ومكتبة المعهد الكاثوليكي، ومكتبة مركز علم الآثار الشرقي في السوربون، ومكتبة قسم الدّراسات السّامية في "معهد فرنسا" في باريس؛ وفي جامعة "ييل" Yale<sup>(3)</sup>: المكتبة التذكارية الممتازة، ومكتبة "مدرسة ييل للأهوت"، تسهيلات ممتازة للبحث.

كما نعرّب عن تقديرنا العميق لـ "جوديث ديكل" Judith Dekel من معهد علم الآثار في جامعة تلّ أبيب، الذي هيأ الخرائط، والمخطّطات، والرّسوم التي تظهر في هذا الكتاب.

(1) بنسلفانيا Pennsylvania : ولاية أمريكيّة شرق الولايات المتّحدة، تقع بمباشرة -غرب ولاية نيو يورك، عاصمتها مدينة "نيولادبلفيا". (المترجم).

(2) "نيو هفن" New Haven : ميناء جنوب ولاية "كوننكتيكت" Connecticut الأمريكيّة التي تقع شمال السّاحل الشرقي للولايات المتّحدة بين ولايتي ماساتشوسيت ونيو يورك. (المترجم).

(3) إحدى أشهر الجامعات الأمريكيّة العريقة في ولاية "كوننكتيكت" Connecticut شمال شرق الولايات المتّحدة، يعود تاريخ تأسيسها لعام 1701 م. وسُمّيت على اسم التاجر البريطاني المحسن "إيليهو ييل" Elihu Yale الذي تبرّع بمصرفها. (المترجم).

أَكْرَمَنَا الأساتذة "باروخ هالبرن" Baruch Halpern، و"نداف نعمان" Nadav Naaman، و"جاك ساسون" Jack Sasson، وديفيد أوسيشكين David Ussishkin بنصائحهم ومعرفتهم. لقد ساعدتنا كثيراً تلك الأسئلة، وإجاباتها التي كُنَّا نقوم بها من خلال مكالمات هاتفية في آخر الليل مع "نداف نعمان" Nadav Naaman، و"باروخ هالبرن" Baruch Halpern، اللذين ساعدانا على حلّ المشاكل المُعقّدة لتفسيحات النُصوص التوراتية والتاريخ التوراتي. وقد قرأ "باروخ" وناقش معنا - أيضاً - المُسودات الأولى لعديد من فُصول الكتاب. إننا نُعبر عن شُكرنا لأولئك الأساتذة، ولجميع الأصدقاء والزُملاء الآخرين، الذين استشرناهم، على الرّغم من أننا نعتزف أنّ المُسؤولية عن النتيجة النهائية المطروحة في الكتاب تقع بكاملها على عاتقنا فقط.

في نيويُورك، أَرَشَدَ وكيلنا الأدبي "كارول مان" Carol Mann المشروع من فكرته الابتدائية حتّى النُشر. في المطبعة الحرّة، نوذُ أن نشكر المُحرّر المُساعد "دانييل فريدبرغ" Daniel Freedberg لكفاءته ومُساعدته المُستمرّة في كُلِّ مراحل العمل. كما كان المُحرّر الكبير بروس نيكولز Bruce Nichols مُؤيداً مُتحمّساً لا يعرف الكلال، لتأليف هذا الكتاب، مُنذُ البداية، بِفُضْل بصيرته النافذة ومهارته التحريرية، تحسّنت مخطوطتنا الناشئة بنحوٍ لا يُمكن تقديره.

وأخيراً؛ يستحقُّ أفرادُ أُسرتنا - "جويل" Joelle و"آدار" Adar وسارة فنكلشتاين، و"الين" Ellen و"مايا" Maya سيلبرمان سهماً عظيماً من التقدير والشّاء، لحُبهنّ، وصبرهنّ، واستعدادهنّ بِكُلِّ رحابة صدرٍ للتخلّي عن سفّرات عطلة نهاية الأسبوع والمُناسبات العائلية أثناء تحرير صفحات هذا الكتاب. لا يسعنا إلا أن نتمنّى أن تُبرّر نتيجة جُهدونا، نقتهنّ فينا، وفي فكرتنا عن كتابٍ حول علم الآثار والتّوراة، فكرة أخذت شكلها - لأول مرةٍ - في حُضُورهنّ، قبل بضع سنوات فقط.

I. F. إسرائيل فنكلشتاين

N. A. S. نيل أشر سيلبرمان

## تمهيد

في أيام الملك يُوشيا:

لم يكن العالم الذي حُلقت فيه "التوراة" Bible (أو الكتاب المقدس)<sup>(1)</sup> عالماً أسطورياً مُدُن عظيمة وأبطال قديسين، وإنما كان مملكة واقعية صغيرة جداً لأناس كافحوا من أجل مستقبلهم ضدّ جميع المخاوف الإنسانيّة، من الحرب، والفاقة، والظلم، والمرض، والمجاعة، والجفاف. لم تكن تلك القصة التاريخيّة التي ترويها "التوراة"، بدءاً من لقاء إبراهيم مع الله، ورحلته إلى كنعان، إلى تخليص موسى لبني إسرائيل من العبوديّة، وحتىّ صعود وانهار مملكتيّ إسرائيل ويهوذا، وحيّاً إعجازياً، بل كانت نتاجاً رائعاً للخيال الإنساني الخصب. لقد تمّ تصوّرها - حسبما نستنتج من الاكتشافات الأثريّة الأخيرة - على مدى جيّلين أو ثلاثة أجيال، قبل حوالي ستّة وعشرين قرناً من الآن.

---

(1) الترجمة الأدقّ لكلمة ال Bible هي "الكتاب المقدس"، وليس "التوراة"؛ لأنّ كلمة Bible أصلها "بيلوس" اليونانيّة، وتعني الكتاب، وهي كلمة أصبحت علماً على "الكتاب المقدس" لدى اليهود والمسيحيين، والذي يضمّ أسفار العهد القديم والعهد الجديد (بالنسبة للمسيحيين) أو أسفار العهد القديم - فقط - بالنسبة لليهود، لكنّ بعض المترجمين يترجمون كلمة Bible بـ "التوراة" من باب تسمية الشيء باسم أهمّ جزء منه، لأنّ "التوراة" - في الواقع - هي الجزء الأوّل والأهمّ من كتاب ال Bible الأوسع. وسألجأ لاستخدام اللقّظتين على نحوٍ تبادلي في ترجمتي لكلمة ال Bible حسبما يقتضيه المقام.

هذا، ومن الجدير بالذكر أنّ التوراة هنا هي غير التوراة التي ترد في القرآن الكريم، والتي تُشير - فقط - إلى الشريعة التي أنزلها الله - تعالى - على النبيّ موسى؛ كليم الله عليه السّلام، والتي تتضمّن الوصايا العشر، وأحكام الشريعة الموسويّة؛ كاحكام العبادات والقرابين والمحرّمات والمعاملات والحُدود والذبيّات . . . إلخ، والتي كانت موجودة بأيدي يهود المدينة زمن بعثة النبيّ عليه الصّلاة والسّلام. ويؤكد هذا أنّ المعنى اللّغوي - بالعبريّة - للتوراة: هو التأموس أو الشريعة، ثم صارت علماً للشريعة الموسويّة. أمّا "التوراة" الاصطلاحية - عند اليهود والنصارى -؛ فلها مفهوم آخر؛ حيثّ دُرِج إطلاقها على الأسفار (أيّ الفُصول) الخمسة الأولى من "الكتاب المقدس" Bible؛ وهي: سفر التكوين، والحُرُوج، واللاويين (أو الأحبار)، والعَدَد، والثبّيّة (أو تثنية الاشتراع). (المترجم).

كان مسقط رأس تلك القصة مملكة 'يهودا'، التي كانت عبارة عن منطقة حلت فيها بشكل متناثر - مجموعات من الرعاة والمزارعين، يخضعون لحكم مدينة ملكية خارج الطريق، توطنت - بدون ثبات - في قلب منطقة التلال، على الحواف الضيقة لوديان صخرية حادة.

خلال بضعة عقود استثنائية من التخمر الروحي والهيجان السياسي نحو نهاية القرن السابع قبل الميلاد؛ قام في مملكة يهوذا تحالفٌ، غير مؤكد، من القضاة، والكتاب، والكهنة، والفلاحين، وجاء الأنبياء معهم، ليشنوا حركة جديدة. كان في لب تلك الحركة، ذلك الكتاب المقدس الذي تضمّن عبقرية أدبية وروحية فذة. كانت روايته قصة ملحمية سُجت من مجموعة غنية، بشكل مدهش، من الكتابات التاريخية، والمذكرات، والأساطير، والقصص الشعبية، والحكايات، والدعايات الملكية، والنبوءات، والشعر القديم. خضعت تلك القطعة الأدبية النادرة - التي تكوّن جزء منها من نصوص ومصادر أصلية حقيقية، والجزء الآخر كان تأليفاً جديداً - خضعت من جديد لعمليات تنقيح وتحريّر وتفصيلٍ أخرى؛ لتصبح مركزاً روحياً ليس لأحفاد وذرية أهالي يهوذا فحسب، ولكن لمجتمعات وجاليات متناثرة في جميع أنحاء العالم.

وكد الجواهر أو اللب التاريخي للكتاب المقدس (التوراة) في نشاط الشوارع المزدهمة لأورشليم (القدس)، في بلاط قصر الأسرة المالكة من آل داود، في هيكل (معبد) إله إسرائيل. وفي تناقض شديد مع المعابد الأخرى القديمة التي لم تكن تُخصّص في الشرق الأدنى، والتي كانت معروفة باستعدادها العالمي لإقامة علاقات دولية مع المعابد المجاورة، من خلال تعظيم آلهة الخلفاء ومروّضهم الدينية، وقف هيكل (معبد) أورشليم (القدس)، بشكل مُصرّ، وحده. وكرّد فعل على سرعة ووسعة مجال التفسيرات التي كانت ترد إلى مملكة يهوذا من الخارج؛ أعلن زعماء القرن السابع ق.م، في أورشليم (القدس)، برئاسة الملك يوشيا (السليل السادس عشر للملك داود) أنّ جميع آثار العبادة الأجنبية تُعتبر لعتة، وأنها - في الحقيقة - السبب الكامن وراء الشقاء الذي تُعاني منه مملكة يهوذا الحالية. وانطلقوا في حركتهم هذه بحملة تطهيرية دينية نشطة في الريف، تُنادي بدمار مراكز العبادة الريفية، معلنة أنّها مصدر للشر. ومنذ ذلك الحين، أصبح هيكل (معبد) أورشليم (القدس)، بحرمة

الداخلي، ومدّبحه، وفناءاته المحيطة في قمة المدينة، المكان الشّرعي الوحيد للعبادة لشعب إسرائيل. وفي ذلك الإبداع، وكّد التوحيد العصري أو الحديث<sup>(1)</sup>. وفي الوقت نفسه، ارفقت طمّوحات زعماء يهودا السياسيّة، الذين طمّحوا لجعل هيكل (معبد) أورشليم والقصر الملكي فيها، مركز مملكة إسرائيليّة واسعة، كتحقيق لإسرائيل المتّحدة الأسطوريّة لداود وسليمان.

كم هو غريب (على اليهود) التّصوّر بأنّ أورشليم (القُدس) برزت إلى مركز الوعي الإسرائيلي فجأة وفي زمن متأخّر فقط!. والسبب في غرابة هذا التّصوّر هو أنّه يصدّم ذلك التّصوّر الشائع الذي استطاعت أسفار الكتاب المقدّس (التوراة)، بقوّة تأثيرها القصصيّة الخاصّة، أن تُنقح به العالم من أنّ أورشليم مثلت - دائماً - مقاماً مركزياً لتجربة جميع الإسرائيليين، وأنّ ذريّة ونسل داود كانوا مباركين دائماً بقداسة خاصّة، بدلاً من واقع الأمر، وهو أنّهم كانوا مجرد واحدة من العشائر الأرستقراطيّة التي حاربت لأجل البقاء في الحُكم، على الرّغم من النزاعات الداخليّة الأهليّة، والتهديدات التي لم يسبق لها مثيل من الخارج.

كم ستبدو مدينتهم الملكيّة الواقعيّة صغيرة جداً في أنظار المراقبين العصريين! أجل، لقد كانت المنطقة المينيّة لأورشليم (القُدس) في القرن السابع قبل الميلاد تمتدّ على مساحة لا تزيد عن مئة وخمسين هكتاراً فحسب؛ أيّ حوالي نصف حجم المدينة القديمة الحاليّة لأورشليم (القُدس). ولم يُشكّل سكّانها، الذين كانوا حوالي خمسة عشر ألف نسمة، أكثر من مدينة سوق شرق أوسطيّة صغيرة تكوّمت وراء الأسوار والأبواب، ذات أسواق ومنازل تجمّعت حول غرب وجنوب القصر الملكي البسيط ومجمّع الهيكل. الحقيقة هي أنّ أورشليم (القُدس) - فعلاً - لم يسبق لها أن كانت أكبر من ذلك. وقد بدأت تلك المدينة تتوسّع وتنفجر - في القرن السابع - بتزايد سكّانها من المسؤولين الملكيين، والكهنة، والأنبياء، واللّاجئين، والفلاحين

(1) قصد بالتوحيد الإسرائيلي ما دعا إليه الكتاب المقدّس من لزوم عبادة الإله الواحد في مكان واحد - هيكل (معبد) أورشليم (القُدس) - الذي كان محاطاً بقداسة خاصّة. وقد كُفّمت الدراسات الأكاديميّة الحديثة عن وجود طيف واسع من أنماط العبادة التي يوجد في مركزها إله واحد، ولكنّه ليس فرداً انحصاريّاً (يعني أنّه كان مصحوباً بألهة ثانويّة وكائنات سماويّة مختلفة). ونترف بأنّه أثناء الفترة الملكيّة المتأخّرة، ولدّة طويلة تالية، كانت عبادة الله الإسرائيليّة مصحوبة - بشكل منظم - بتبجيل مُراقفين قسبيين وكائنات سماويّة أخرى. ولكننا نقرّح بأنّ التّحرّك الحامس نحو التوحيد الحديث إنّما حصل في عهد الملك يوشيا<sup>Josiah</sup>، مُستنداً لأفكار سفر تثنية الاشرع Deuteronomy. (المؤلّف).

المرحلين، أو التآحين. لا يوجد سوى بضع مدُن أخرى، في كُـلِّ العُصُور التاريخيَّة، كانت واعيَّة ذاتيًّا. على هذا النحو الشَّدِيد. بتاريخها، وهويَّتها، وقَدَرها، وعلاقتها المباشرة مع الله.

تعود هذه التَّصوُّرات الحديثة عن أورشليم القديمة والظُّروف التاريخيَّة التي وكَّد فيها "الكتاب المقدَّس" Bible - في جزء كبير منها - إلى الاكتشافات الأخيرة لعلم الآثار. لقد أحدثت تلك المكتشَفات ثورة في دراسة إسرائيل القديمة، وألقت شكوكاً جديَّة على الأساس التاريخي لمثل تلك القِصص التَّوراتيَّة المشهورة؛ كرحلات الآباء، والخروج الجماعي من مصر، وغزو كنعان، والإمبراطوريَّة المجيدة لداود وسليمان.

يسعى هذا الكتاب لرواية قصَّة إسرائيل القديمة<sup>(1)</sup> وولادة كُتُبها المقدَّسة من منظور آثاري جديد. هدفنا هو محاولة فَصَّل التاريخ الواقعي عن الأسطورة، من خلال الأدلَّة التي أثبتَّتها الاكتشافات الأخيرة، سنبنِّي تاريخاً جديداً لإسرائيل القديمة، ستلعب فيه بعض أشهر الأحداث والشخصيَّات المذكورة في مسرحيَّة "الكتاب المقدَّس العبري" أدواراً مُختلفة، بنحو يُمَاجئ الكثيرين. ورغم ذلك؛ فإنَّ غرضنا - في النهاية - ليس مُجرد التَّقَدِّم والهدم، وإنما هو أن نُشرك القراء في معرفة أحدث البصائر والرؤى التي قدَّمتها لنا علم الآثار - والتي ماتزال مجهولة - بنحو واسع - خارج الدوائر الأكاديميَّة، والتي لا تُوضِّح لنا متى كُتبت التَّوراة فحسب، بل تُوضِّح - أيضاً - لماذا كُتبت، ولماذا بقيت قويَّة مؤثِّرة إلى اليوم.

---

(1) في كاتبة أنحاء هذا الكتاب نستعمل الاسم "إسرائيل" في معنيتين مُتميِّزين وبدليَّين: الأوَّل هو اسم المملكة الشماليَّة، والثاني هو اسم جماعي لجلالية كُـلِّ الإسرائيليين. وفي أغلب الحالات؛ تُشير إلى المملكة الشماليَّة كـ"مملكة إسرائيل" وإلى الجماعة الأوسع كـ"إسرائيل القديمة" أو "شعب إسرائيل". (المؤلِّف).



## المُقدِّمة

علم الآثار والتَّوراة:

ترتبط القصة التي تشرح كيف ولماذا كُتِبَ الكتاب المقدَّس (العبري) ("التَّوراة")، وكيف ينطبق على التاريخ الاستثنائي لشعب إسرائيل - ارتباطاً وثيقاً بقصة مثيرة وفاتنة من الاكتشافات الحديثة. لقد تركَّز البحث على أرض صغيرة جداً، مُحاطة من جانبيْن بالصحراء، ومن جهة أخرى بالبحر الأبيض المتوسط. أرضٌ أصابَتْها - على مرِّ ألف عامٍ - موجاتٌ مُتكرِّرةٌ من القحط والجفاف والحُرُوب، التي لم تتوقَّف تقريباً. كانت مُدُن تلك الأرض وسُكَّانها صغيرة، بالمُقارنة مع الإمبراطوريَّات المُجاورة في مصر، وبلاد ما بين النَّهرين. وكانت حضارة سُكَّانها - كذلك - سيئةً، وحالتهم الماديَّة ضعيفةً، بالمُقارنة مع عظمة وقُحْخُحة الإمبراطوريَّات المُجاورة. ورغم ذلك؛ كانت هذه الأرض مسقط رأس قطعة أدبيَّة نادرة، مارست تأثيراً فريداً على الحضارة العالميَّة؛ سواء ككتابٍ مقدَّس، أو كتاريخٍ مقدَّس.

لقد مكنتنا أكثر من مئتي سنة من الدِّراسة المُفصَّلة للنُّص العبري للكتاب المقدَّس، والاكتشافات الأثريَّة التي يتَّسع نطاقها بشكْل مُستمرٍّ، في كُلِّ الأراضِي الواقعة بين النَّيل ونهرَي دجلة والفُرات، من فُهم: متى، ولماذا، وكيف، ظهر "الكتاب المقدَّس العبري" إلى عالم الوُجُود.

لقد قاد التحليل المُفصَّل للغة والأنواع الأدبيَّة المُتميِّزة للكتاب المقدَّس العُلَماء إلى تمييز المصادر الشَّفهية والمكتوبة التي استند إليها النُّص التَّوراتي الحالي. وفي الوقت نفسه؛ أنتج علم الآثار - بتحوُّ مدهل - معرفة موسوعيَّة للظُّروف الماديَّة، وللُغات، والمُجتمعات، والتطوُّرات التاريخيَّة، في القُرُون التي تبلورت - خلالها - تقاليد وسُنن إسرائيل القديمة بشكْل تدريجي، وهي قُرُون تمتدُّ على فترة ستمئة عامٍ تقريباً، بدءاً من حوالي سنة 1000 ق.م. إلى سنة 400

ق. م، وأهمُّ ما في الأمر، أنَّ التحليلات النَّصِّيَّة، جنباً إلى جنب الشواهد الأثرية، مكنتنا من التمييز بين القوَّة والشعر القصصي للكتاب المقدس، وبين الأحداث الأكثر واقعية لتاريخ الشرق الأدنى القديم.

لقد أصبح الوُصُول إلى عالم "الكتاب المقدس العبري"، واستكشافه كلياً، مُمكنًا وسهلاً اليوم، بنحو لم يسبق له مثيل، منذ قُرُون مُتَمَادِيَّة. قَبِضُ عملِيَّات التنقيب الأثرية، أصبحنا نعرف -تماماً- ماذا كان يزرع الإسرائيليون من حُوب وثمار، وماذا كانوا يأكلون، وكيف كانوا يبنون مدُنهم، ومع مَنْ كانوا يتاجرون. ولقد تمَّ اكتشاف عشرات المدُن والبلدات المذكورة في "الكتاب المقدس العبري".

واستُخدِمَت طُرُق تنقيب حديثة، وتشكيلة واسعة من الفُحُوص والاختبارات المخبرية، لتحليل تاريخ وحضارة الإسرائيليين القُدماء، وحضارة جيرانهم الفلسطينيين، والفينيقيين، والآراميين، والعمونيّين، والموآبيّين، والفدوميتيين. ونمَّ -في عدد من الحالات- اكتشاف أختام توافيق، وثقوش، يُمكن أن ترتبط بأفراد ذُكروا في النصِّ التوراتي بنحو مباشر. ولكن هذا لا يعني أن علم الآثار أثبت صحَّة القصَّة التوراتية بكلِّ تفاصيلها، بل على العكس، أصبح واضحاً الآن -أنَّ العديد من أحداث التاريخ التوراتي لم تحدث لا في المكان، ولا بالطريقة والأوصاف التي رُويت في "الكتاب المقدس العبري"، بل بعض أشهر الحوادث في الكتاب المقدس العبري لم تحدث مطلقاً أصلاً.

إذن؛ لقد ساعد علم الآثار على إعادة بناء التاريخ الحقيقي الكامن خلف نُصوص التوراة، سواء على صعيد الملوك والممالك العظيمة، أو على صعيد أسلوب الحياة اليومية. وكما سَنُوضِّح في الفُصُول التالية، أصبحنا نعرف -اليوم- بأنَّ الأسفار أو الفُصُول المبكرة من "الكتاب المقدس العبري" وقصصه المشهورة حول التاريخ المبكر لبني إسرائيل، تمَّ تصنيفها أولاً (وأعدت في نواحيها الرئيسية) في مكان ووقت مُميَّزين: أورشليم (القدس) في القرن السابع قبل الميلاد.

لنذكر - أولاً - بعض التعريفات الأساسية . عندما نتكلم عن "الكتاب المقدس" *The Bible* فإننا نُحيل - أوكياً - إلى مجموعة الكتابات القديمة التي دُوِّنت على مدى مُدَّةٍ طويلة ، والتي أصبحت تُعرَف - فيما بعد - باسم أسفار "العهد القديم" *The Old Testament* ، ويُسمِّيها العلماء الدارسون - الآن - بـ "الكتاب المقدس العبري" *The Hebrew Bible* ، وهو مجموعة من الأساطير ، والقوانين ، والأشعار ، والنبيوءات ، والفلسفة ، والتاريخ ، كُتِبَتْ كُلُّها - تقريباً - باللغة العبرية (باستثناء بعض الفُصول القليلة التي دُوِّنت ببعض اللهجات السامية المختلفة التي تُدعى الآرامية : والتي أصبحت لغة التفاهم المشتركة بين شعوب منطقة الشرق الأوسط بعد 600 ق .م) . ويشتمل هذا الكتاب المقدس *The Bible* على تسعة وثلاثين كتاباً ، قُسمت - في البداية - حسب موضوعها ، أو حسب مؤلفها ، أو في حالة الكُتب الأطول ؛ مثل سفرَي صموئيل الأوَّل والثاني ، وسفرَي الملوك الأوَّل والثاني ، وسفرَي أخبار الأيام الأوَّل والثاني ، قُسمت حسب الطول القياسي للكَات ورق البردي ، أو رقِّ الكتابة . ويمثِّل "الكتاب المقدس العبري" الكتاب الديني المقدس المركزي لليهودية ، والجزء الأوَّل من الكتاب المقدس القانوني للمسيحية ، كما يُمثِّل المصدر الغني لكثير من التلميحات ، والتعاليم الأخلاقية في الإسلام ، والتي انتقلت إليه عبر نص القرآن . أمَّا تقليدياً ؛ فقد تمَّ تقسيم "الكتاب المقدس العبري" إلى ثلاثة أجزاء رئيسية (انظر الشكل رقم (1) في الصفحة التالية).

يتضمَّن القسم الأوَّل "التوراة" *Torah* - والتي يُطلق عليها - أيضاً - اسم كُتب موسى الخمسة ، أو البنتاتوك *Pentateuch* (وهي كلمة يونانية الأصل تعني "خمس كُتب") - الأسفار الخمسة الأولى للكتاب المقدس ، وهي : سفر التكوين ، ثم سفر الخروج ، ثم سفر اللاويين (وبعض الترجمات تُترجمه بسفر الأحبار) ، ثم سفر العدد ، وأخيراً ؛ سفر التثنية (ويُسمى كذلك تثنية الاشتراع) . وتُروى هذه الأسفار الخمسة قصة شعب إسرائيل منذ خلق العالم ، وعبر فترة الطوفان والآباء ، وحتى الخروج الجماعي من مصر ، ثم رحلات التيه في الصحراء ، وإعطاء الشريعة لموسى في سيناء ، وتنتهي التوراة بوداع موسى لبني إسرائيل .

## التوراة

(1) التكوين  
(2) الخروج  
(3) اللاويون  
(4) العدد

(5) التثنية

## الأنبياء

الأنبياء السابقون (القدماء)

القضاة  
يشوع  
صموئيل الثاني  
صموئيل الأوّل  
الملوك الثاني  
الملوك الأوّل

الأنبياء اللاحقون

إشعيا  
إرميا  
حزقيال  
هوشع  
يوئيل  
عاموس  
عويديا  
يونان  
ميخا  
نحوم  
حبقوق  
صفنيا  
حجاي  
زكريّا  
ملاخي

## الكتابات

الأشعار

المزامير  
الأمثال  
أيوب

الأسفار الخمسة

نشيد سليمان  
راعوت  
المراثي  
الجامعة  
استير

النُبوءة

دانيال

التاريخ

أخبار الأيام الأوّل  
أخبار الأيام الثاني

نحميا

عزرا

النشكّل 1: أسفار الكتاب المقدّس العبري The Hebrew Bible

أما القسم التالي، أي "الأنبياء"؛ فينقسم إلى مجموعتين رئيسيتين من الكتُب المقدّسة: المجموعة الأولى هي: الأنبياء السابقون، وتتضمّن أسفار: يشوع، والقضاة، وسموئيل 1، و2، والملوك 1 و2، وتحكي هذه المجموعة من الأسفار قصة شعب إسرائيل منذ عبورهم نهر الأردن وعزّوهم لأرض كنعان، ومروراً بصعود وانهيار المملكتين الإسرائيليتين، وحتى هزيمة الإسرائيليين ونفيهم على أيدي الآشوريين والبابليين. أما المجموعة الثانية، أي مجموعة الأنبياء المتأخرين أو اللاحقين؛ فتتضمّن إلهامات الوحي، والتعلّمات الاجتماعية، والإدانات المرّة، والتوقّعات أو التنبؤات المسيحانية التي كان يُعلنها مجموعة متنوّعة من الأفراد المُلهَمين، يمتدّ زمنهم عبر فترة حوالي ثلاثمئة وخمسين سنة، من مُتّصف القرن الثامن ق. م، حتى نهاية القرن الخامس ق. م.

وأخيراً؛ يتضمّن قسم "الكتابات" مجموعة من المواعظ، والقصائد، والصلوات، والابتهالات، والأمثال، والمزامير، التي تُمثّل أقوى وأبرز التعبيرات الخالدة عن تقوى ووَعر الإسرائيلي العادي في أوقات البهجة، أو الأزمات، أو العبادة، والتأمّلات الشخصية. ومن الصّعب جداً. في أكثر الحالات. ربط تلك "الكتابات" بأيّ حَدثٍ خاص، أو مؤلّفٍ تاريخيٍّ مُعيّن، بل هي حصيلة عمليّة مُستمرّة من التّأليف، امتدّت على مدى مئات السّنوات. وبالرّغم من أنّ المادّة الأسبق في هذه المجموعة (المزامير والمرثي) ربّما يكون قد تمّ جمعها في أواخر العهد الملّكي، أو بعد دمار أُورشليم (القُدس) عام 586 ق. م، مُباشرة، إلّا أنّ أغلب الكتابات أُعدت. على ما يبدو. لاحقاً، وبعد مُدّة طويلة؛ أي من القرن الخامس، وحتى القرن الثاني قبل الميلاد؛ أي في الفترات الفارسيّة والهيلينيّة.

يفحص كتابنا هذا الكتابات "التاريخيّة" الرئيسيّة للكتاب المقدّس العبري، فيستعرض -أولاً- التّوراة وأسفار الأنبياء السابقين، التي تروي قصّة شعب إسرائيل من بداياتها، إلى دمار هيكل (معبد) أُورشليم (القُدس) عام 586 ق. م.

سنُفّارن هذه القصّة بثروة البيانات الأثاريّة التي جُمعت خلال العُهود القليلة الماضية. وسيظهر للقارئ أنّ النتيجة هي اكتشاف علاقة مُثيرة ومُعقّدة بين الذي حَدثَ في الحقيقة

والواقع في أرض الكتاب المقدس العبري أثناء الفترة التوراتية (بأفضل ما يمكن تحديده)، وبين الروايات التاريخية المفصلة بنحو متقن، التي يحكيها الكتاب المقدس العبري.

من عدن إلى صهيون:

جوهر الكتاب المقدس العبري عبارة عن قصة ملحمية، تصف بؤرؤز شعب إسرائيل، وعلاقتهم المستمرة مع الله. وعلى خلاف أساطير الشرق الأدنى القديم الأخرى، مثل حكايات أوزيريس، وإيزيس، وهوروس المصرية، أو ملحة جلعاميش في بلاد ما بين النهرين، فإن حكايات الكتاب المقدس العبري ذات رصيد أرضي راسخ، وتاريخ دنيوي فعلي.

إنه دراما إلهية يتم عرضها أمام أعين البشرية. وأيضاً؛ على خلاف التواريخ والسجلات الملكية لأمم الشرق الأدنى القديمة الأخرى، لا يحتفي هذا الكتاب بقوة التقليد والسلالات الحاكمة فقط، بل يعرض رؤية معقدة وواضحة بالوقت نفسه، تُبين لماذا ارتبط تاريخ شعب إسرائيل - بل تمام العالم في الواقع - بشكل مباشر مع أوامر ووعود الله. شعب إسرائيل هو الممثل المركزي في هذه الدراما. سلوكه وتمسكه بوصايا الله هما اللذان يقرران الاتجاه الذي يسير فيه تاريخه. وهكذا يعود تقرير مصير العالم لشعب إسرائيل، ومن خلالهم، لكل قراء الكتاب المقدس العبري.

تبدأ حكاية "الكتاب المقدس العبري" في جنة عدن، وتستمر خلال قصص قاييل وهابيل، وطوفان نوح، ثم تركز - أخيراً - على مصير عائلة واحدة هي أسرة إبراهيم. اختار الله إبراهيم ليكون أباً لأمة عظيمة، وليتبع - بكل إخلاص - أوامر الله. رحل إبراهيم مع عائلته من موطنه الأصلي في بلاد ما بين النهرين إلى أرض كنعان؛ حيث تجول - عبر مسيرة حياتية طويلة - كقريب بين السكان الأصليين لتلك المناطق، ثم أنجب - عبر زوجته سارة - ابناً هو إسحاق، سيرت الوعود المقدسة التي كانت قد أعطيت - أولاً - إلى إبراهيم، وأصبح يعقوب ابن إسحاق - الجيل الثالث من الآباء الكبار - أباً لاثنتي عشرة قبيلة متميزة. وبعد مسيرة حياتية فوضوية متنوعة من الترحال والتجوال، وإنشاء عائلة كبيرة، وتأسيس مذابح في جميع أنحاء الأرض، يتصارع يعقوب مع الملاك، ويتلقى اسم "إسرائيل" (و التي معناها بالعبرية: "الذي تصارع مع

الله)، وهو الاسم الذي صار يُعرف به كلُّ أبنائه وذُرِّيَّته من بعده. وتروي التوراة العبرية كيف تقاتل أبناء يعقوب الاثنا عشر مع بعضهم البعض، وعملوا مع بعضهم البعض، وفي النهاية؛ غادروا موطنهم، باحثين عن ملجأ في مصر زمن الجماعة والقحط الشديدين. ويُعلن الأب يعقوب في وصيته الأخيرة أن قبيلة ابنه يهوذا هي التي تحكم بقية القبائل الاثنتي عشرة جميعاً (التكوين 49/8-10).

ثمَّ تنتقل القصة العظيمة من الدراما العالمية إلى المشهد التاريخي، حين يكشف إله إسرائيل عن قُوَّته الرهيبة بعرضٍ قويٍّ ضدَّ فرعون مصر، الحاكم الأقوى على وجه الأرض آنذاك. وكان بنو إسرائيل قد نموا حتَّى أصبحوا أمةً عظيمة، ولكنهم استعبدوا كأقليةٍ مُحترَرة، وشُغِّلوا ببناء النصب العظيمة للنظام المصري. ونجَّلت إرادة الله أن يُعلن نفسه للعالم عبر اختياريه لمُوسى كوسيط له في تحقيق إرادته في تحرير بني إسرائيل؛ لكي يُمكنهم من أن يبدؤوا قَدْرهم الحقيقي. وربما في أكثر سلاسل الأحداث حيويةً في أدب العالم الغربي، تصف أسفار الخروج واللاويين والعدد كيف قاد إله إسرائيل - من خلال الآيات والمعجائب - بني إسرائيل خارج مصر، نحو البرية. ويكشف الله في سيناء هويته الحقيقية كـ **يَهْوَه** (الاسم المقدس التي يتألف من أربعة حُرُوفٍ عبرية)، ويُعطيهم قانوناً يوجِّه حياتهم كجماعة وكأفراد.

وأصبحت البُنى المقدسة للعهد والميثاق بين بني إسرائيل ويَهْوَه، والتي كُتبت على ألواح حَجْرية، وحُفِظت في تابوت العهد، أصبحت معيار معركتهم المقدسة، وهم يزحفون نحو الأرض الموعودة.

في بعض الثقافات الأخرى؛ كان من الممكن أن تتوقَّف الأسطورة المكتوبة عند هذه النقطة؛ أي بيان كيفية ظُهُور شعبٍ بشكْل استثنائي وإعجازي وحَسْب، لكن التوراة كان ما يزال أمامها مهمةٌ سرِّد ورواية تاريخ قُرُونٍ طويلةٍ أخرى، تاريخ حافلٍ بالعديد من الانتصارات، والمعجزات، والنكسات غير المتوقَّعة، والكثير من المعاناة الجماعية. وتلا الانتصارات الكبيرة التي حقَّقتها الإسرائيليون في غزوهم لأرض كنعان، وتأسيس الملك داود لإمبراطوريةٍ عظيمة، وبناء سُلَيْمَانَ لهيكل (معبد) أُورشليم (المقدس)، تلاها وقُوع الانشقاق الديني، والارتداد المُكرَّر إلى عبادة الأصنام، وفي النهاية؛ النَّفْي. وهكذا تصف التوراة

انفصال القبائل الشماليّة العشرة، من طرف واحد، عن الحُكْم الملكي المُتَّحد، بعد موت سُلَيْمَان مُباشرة، لاستيائهم ورَفْضهم الاستمرار في الخُضُوع للملُوك من ذُرِّيَّة داود في أورشليم، ممَّا خَلَقَ بالإجبار مَمْلَكَتَيْن مُتَنافِسَتَيْن: مَمْلَكَة إِسْرَائِيل، في الشَّمال، ومَمْلَكَة يَهُودَا، في الجنوب.

عاش الشَّعب الإِسْرَائِيلِي، في السَّنَوَات المُتَتِيَّة التَّالِيَّة، في مَمْلَكَتَيْن مُتَفَصِّلَتَيْن، مُستَسلماً - على ما ترويه التَّوراة - مراراً وتكراراً لسحر الآلهة الأجنبيَّة. تصفُ التَّوراة زُعماء المَمْلَكَة الشماليَّة بأنَّهم كانوا - جميعاً - عَصاة أَثْمِين بَنَحُوا لا يقبل التَّسامح، وتذكر - كذلك - أنَّ بعض ملُوك يَهُودَا - أيضاً - ابتعدوا عن طريق الطَّاعة والولاء الكَلْبِي لِلَّهِ. ويمُرُّ الوقت؛ يرُسل اللهُ الفَزَاة الخارجيِّين والمُحتلِّين والمُضطَّهدين لمُعايَبة شعب إِسْرَائِيل؛ لذُنُوبهم. فأوَّلاً؛ يقوم آرَامِيو سُوريا بإبذاء ومُضايَقة مَمْلَكَة إِسْرَائِيل، ثُمَّ تُوقَعُ الإمبراطوريَّة القويَّة والعظيمة للأشُوريِّين خراباً لم يسبق له مثيل في مُدُن المَمْلَكَة الشماليَّة، وتُنزل بجزء هامٍّ من قبائلها العشرة المصير المرُّ للدمار والنَّفْي سنة 720 ق. م، أمَّا مَمْلَكَة يَهُودَا في الجنوب؛ فإنَّها تستطيع أن تُواصل حياتها لأكثر من قرنٍ آخر، إلاَّ أنَّ شعبها - في النهاية - لم يستطع أن يتفادى حُكْم اللهُ الحَتْمِي عليه، عندما قامت الإمبراطوريَّة البابليَّة الصَّاعدة والتَّوحِشَّة، سنة 586 ق. م، بتحتيم أرض إِسْرَائِيل، وإحراق وتدمير أورشليم (القُدس)، وهيكلها (معبدها) دماراً تاماً.

برواياتها لتلك المأساة العظيمة، تتميَّز القِصَّة التَّوراتيَّة، وتبتعد - مرَّةً ثانية - عن التَّمط الطَّبيعي للملاحم الدِّينيَّة القديمة. ففي الكثير من مثل تلك القِصَص، تُؤدِّي هزيمة إله من قبَل جيش مُنافس إلى نهاية طائفته أيضاً. أمَّا في "الكتاب المُقدَّس العبري"؛ فإنَّ قُوَّة إله إِسْرَائِيل تجلَّت وظهرت بِشَكْلٍ أعظم وأقوى بعد سُقُوط يَهُودَا ونَفْي الإِسْرَائِيلِيِّين. كان إله إِسْرَائِيل أبعد ما يكون عن الذَّلِّ بسبب خراب معبده، بل، لقد تجلَّى كإله قويٍّ لا يُقَهَّر؛ لأنَّه - في النهاية - هو الذي سحرَ الأشُوريِّين والبابليِّين واستعملهم كوكلائه - دُونَ أن يشعروا - في مُعايَبة لبني إِسْرَائِيل؛ لكُفْرانهم، وخيانتهم.

ومن الآن فصاعداً، ومُنذُ عودة بعض المُنْفِيِّين إلى أورشليم، وإعادة بنائهم الهيكل (المعبد)، لم تعد - أبداً - مَمْلَكَة إِسْرَائِيل إلى الوجود، بل أصبح بنو إِسْرَائِيل مُجرَّد جالية، أو



جماعة دينية فحسب، تُوجهها شريعتها المقدسة، وتُكرس نفسها للعمل الدقيق بالطقوس الميَّنة في نُصُوصها المقدسة. الآن - بدلاً من سلُوك مُلُوك شعب إسرائيل أو صُعود وانهباء الإمبراطوريات العظيمة - أصبح الاختيار الحرُّ لرجال ونساء بني إسرائيل في احترام واتباع الوصايا والأوامر الإلهية، أو عصيانها وانتهاكها، هو الذي يقرِّر المصير اللاحق لذلك الشعب، وفُصول تاريخه.

إنَّ قوَّة تأثير "الكتاب المقدَّس العبري" الكبيرة إنَّما تكمن في هذا التركيز الاستثنائي على المسؤولية الإنسانية. وإذا كانت الملاحم القديمة الأخرى تَبْهتُ بِمُرُورِ الوقت، فإنَّ تأثير قصَّة "الكتاب المقدَّس العبري" على الحضارة الغربيَّة - على العكس من ذلك - زاد ونما باستمرار.

مَنْ كَتَبَ أسفار التَّوْرَة الخمسة؟ ومتى؟

لقرُّون عديدة؛ عدَّ قراء "الكتاب المقدَّس العبري" - كأمر مفروغ منه - أنَّ الكُتُب المقدَّسة كانت وحيًا مُقدَّسًا، وتاريخًا دقيقًا بالوقت نفسه، أوحى الله بها - مباشرة - إلى عدد كبير واسع من الحكَّماء، والأنبياء، والكهنة من بني إسرائيل. وافترضت المراجع الدينيَّة الرِّسميَّة، سواء اليهوديَّة، أو المسيحيَّة - بشكلٍ طبيعي - بأنَّ كُتُب موسى الخمسة إنَّما أنزلت عليه، وأنَّه قام بكتابتها بنفسه، وذلك قُبيل موته مباشرة، وهو على جبل نيبو، كما يروي كتاب سفر التثنية. أمَّا كُتُب (أسفار) يشوع، والقضاة، وسموئيل؛ فعدَّت - جميعاً - سجلاتٍ مُقدَّسة، احتفظ بها النبي الجليل صموئيل في "شيلوه" Shiloh، وعدَّ سفر المُلُوك (الأوَّل والثاني) مُدوَّنين بقلم النبي إرميا. وعلى المتوال نفسه؛ ساد الاعتقاد بأنَّ الملك داود هو مؤلِّف المزامير، وأنَّ الملك سُلَيْمَان هو مؤلِّف سفر الأمثال، وسفر نشيد سُلَيْمَان. ولكن؛ مع بُزُوغ فجر العصر الحديث، في القرن السَّابع عشر، وجد العلماء - الذين كرسوا أنفسهم للدراسة الأدبيَّة والأُغويَّة المُفصَّلة للكتاب المقدَّس - أنَّ الأمر ليس بتلك البساطة أبداً. لقد أبرزت الحُجج القويَّة للعقل والمنطق - عند تطبيقها على نُصُوص الكُتُب المقدَّسة - تساؤلاتٍ مُثيرة ومزعجة جداً حول الثقة التاريخيَّة للكتاب المقدَّس العبري.

كان السُّؤال الأوَّل: هل من المُمكن أن يكون موسى هو - حقاً - مؤلِّف كُُلِّ الأسفار الخمسة الأولى من الكتاب المقدَّس العبري المعروف بِكُتُب موسى؟ كيف ذلك، والسفر الأخير

منها - أي سفر التثنية - يصف - بتفصيل دقيق - ظُروف موت موسى، ووقت وفاته بالضبط . وليس هذا فحسب ، بل سرعان ما ظهرت تناقضات أخرى أيضاً: النصُّ التوراتي مليء بالتعليقات الجانبيَّة الأديَّة ، التي تُوضِّح الأسماء القديمة لبعض الأماكن ، ويُلاحَظ كثيراً بأنَّ أدلَّة الأحداث التوراتيَّة المشهورة مازالت مرثيَّة إلى يومنا هذا . لقد أقنعت هذه العوامل بعض علماء القرن السَّابع عشر أنَّ أسفار الكتاب المقدَّس العبري الخمسة الأولى - على الأقل - قد كُتبت ، ثُمَّ وَسَّعت ، وَزِيَّنت لاحقاً ، من قِبَل مُحَرِّرين مجهولين ، ومُراجعين متعدِّدين ، على مدى عدَّة قُرُون .

مع نهاية القرن الثَّامن عشر ، وبدرجة أكبر في القرن التَّاسع عشر ، بدأ العديد من العلماء التَّالدين المُختصِّين بالكتاب المقدَّس يشكُّون في أنَّ يكون لموسى أيُّ يدٍ - على الإطلاق - في كتابة أسفار التَّوراة ؛ وأتجه عديدٌ منهم إلى الاعتقاد بأنَّ التَّوراة كانت - حصراً - من عمل كُتَّابٍ تالين . وقد أشار هؤلاء العلماء إلى ما يبدو أنَّه نُسخٌ مُختلفةٌ لِنَفْسِ القَصَصِ ضمن الأسفار الخمسة للتَّوراة ، فاقترحوا بأنَّ النصَّ التَّوراتي كان نتاجاً لعدَّة أيدي يسهل التَّمييزُ بينها . فأيُّ قراءةٍ حذرةٍ لسفر التَّكوين - على سبيل المثال - تكشف عن نُسخَتَيْن مُتعارضَتَيْن لقِصَّة الخلق (1/ 2-3 و 2/ 254) ، فهناك سلسلتان نَسَبٌ مُختلفتان جداً لنَسْلِ آدم (4/ 17-26 و 5/ 1-28) ، وهناك قِصَّة طُوفان مُنفصلتان ، ثُمَّ مرثيتان ثانية مع بعضهما (6/ 5-9 و 17) . بالإضافة إلى أنَّ هناك العشرات من نماذج التكرار المُضاعف ، وأحياناً المُثلث لِنَفْسِ الأحداث في قِصَصِ رحلات الآباء ، والخُرُوج الجماعي من مصر ، وإنزال الشَّريعة .

رغم ذلك ؛ كان هناك ترتيب واضح في هذا الذي بدا أنَّه تكرار فوضوي . فقد بدأ يُلاحَظ - منذُ وقت مُبكرٍ في القرن التَّاسع عشر ، (كما شَرَحَ ذلك - بوضوح - العالم التَّوراتي الأمريكي ريتشارد إليوت فريدمان Richard Elliott Friedman في كتابه مَن كَتَبَ الكتاب المقدَّس ؟) . ، بأنَّ التكرار المُضاعف الذي يظهر لأوَّل وهَلَكَة في سفر التَّكوين ، وسفر الخُرُوج ، وسفر العدد ، لم يكن مُجرد روايات مُختلفة مذكورة بِنَحْوِ اعتباطي ، أو تكرار ثانٍ لِنَفْسِ القِصَصِ . لقد أبَّقت كُلُّ روايةٍ بعض الخصائص ، التي يُمكن تمييزها بسُهولة ، بواسطة الاصطلاحات Terminology ، والتركيز الجغرافي المُعيَّن ، وخاصَّة - وبشكل واضح جداً - تَمييزُ الأسماء

المختلفة المستعملة عند وصف إله إسرائيل. فنجد مجموعة من الروايات تستخدم - أثناء روايتها التاريخية - الاسم الرباعي 'يهوه' بشكل مستمر (والذي يفترض أكثر العلماء أنه يلفظ بكسر الواو؛ أي 'يهوه' Yahweh)، وتبدو مهتمة أكثر بكثير بقبيلة يهوذا ودولتها الجنوبية في رواياتها المختلفة، في حين تستخدم المجموعة الأخرى من القصص، الاسم 'إيلوهيم' Elohim، أو إيل في حديثها عن الله، وتبدو مهتمة - بشكل خاص - ورئيس - بالقبائل والأراضي التي تقع في شمال البلاد؛ مثل قبائل أفرايم، ومنسى Manasseh، وبنامين. وعزور الوقت؛ أصبح واضحاً أن التكرار اشتق من مصدرين متميزين كُتباً في أوقات مختلفة، وأماكن مختلفة. وقد أعطى العلماء الاسم 'جيهي' J للمصدر اليهودي Yahwist (تُهجى Jahvist في الألمانية)، والاسم 'إيهي' E للمصدر الإلهوي Elohist، لذئك المصدرين على الترتيب.

وقد أفتعت الاستعمالات التُميزة للمصطلحات الجغرافية والرؤوس الدينية والأدوار التي كانت القبائل المختلفة تلعبها في المصدرين العلماء أن النص 'جيهي' J كُتب في أورشليم (القدس)، ومثل وجهة نظر الحكم الملكي المتحد، أو مملكة يهوذا، وافتراضاً أن كتابته تمت - مباشرة - بعد عهد الملك سليمان (970 - 930 ق.م). وعلى النوال نفسه، بدأ أن النص 'إيهي' E قد كُتب في الشمال، ومثل وجهة نظر مملكة إسرائيل، وأنه من الممكن أن يكون قد أعد أثناء الحياة المستقلة لتلك المملكة (930 - 720 ق.م). هذا؛ في حين بدأ سفر التثنية - في رسالته التُميزة وأسلوبه الخاص - وثيقة مستقلة سميت 'دي' D. ويوجد بين أقسام التوراة - التي لا يمكن أن تُنسب إلى 'جيهي' J، أو 'إيهي' E، أو 'دي' D، عدد كبير من الفصول التي تتعامل مع الأمور الطقسية. وأتجه العلماء - مع الزمن - لاعتبار هذه الأجزاء اقتباساً من مصدر طويل دُعي 'بي' P، أو المصدر الكهنوتي Priestly، الذي يركّز - باهتمام خاص - على أمور الطهارة، والعبادات والطقوس، وأحكام تقديم القرابين.

وبكلمة أخرى؛ لقد أتجه العلماء - بشكل تدريجي - إلى النتيجة الحتمية القائلة بأن الكتب الخمسة الأولى للكتاب المقدس العبري - كما نعرفها الآن - هي حصيلة عملية تحريرية معقدة، تمّ - خلالها - تجميع الوثائق المصدرية الرئيسة الأربع - 'جيهي' J، و'إيهي' E، و'بي' P، و'دي' D - ودمجها بشكل ماهر، وتمّ الربط بينها بشكل حاذق من قبل النساخ أو المنقحين، الذين ظهرت

آثار تنقيحاتهم الأدبية وجُمِلَ رِطْطُهُم (دعاها بعض علماء المقاطع 'Ar') بِشَكْلِ جُمْلٍ انْتِزَالِيَّةٍ وتعليقاتٍ جانبيةٍ تحريريةٍ . وقد حَدَّثَتْ آخِرُ هَذِهِ التَّنْقِيحَاتِ فِي فِتْرَةٍ مَا بَعْدَ النَّفْيِ .

تفاوتت آراء العلماء . في العُقُودِ القليلةِ الماضية . حول تواريخ ومؤلفي هذه المصادر القرديَّةِ اختلافًا بَينًا وكبيرًا . فبينما رأى بعضهم أن تلك النُصُوصَ أُعِدَّتْ وحرِّرتْ خلال عهد الحُكْمِ الملكيِّ المُتَّحِدِ وَمَمْلَكَتَيْ يَهُوذَا وإِسْرَائِيلِ (1000- 586 ق . م) ، أصرَّ آخرون على أنَّها تَأْلِيفَاتٌ مُتَأَخِّرَةٌ ، تَمَّ جَمْعُهَا وتحريرها من قِبَلِ الكَهَنَةِ والكَتَّابِ أثناء النُفْيِ البابلي ، والعودة منه (في القرنين السَّادسِ والخامسِ قبل الميلاد) ، أو حتَّى في وقتٍ مُتَأَخَّرٍ أَكْثَرَ يَصِلُ إِلَى الفِتْرَةِ الهيلينيَّةِ (القرُون من الرَّابِعِ إلى الثَّانِي ق . م) .

وأيًّا كان الأمر؛ فقد أصبح الكلُّ يُجمَعُ على أن الأسفار الخمسة (التوراة) ليست تأليفًا قُرْدِيًّا واحدًا (كُتْلَةٌ واحدة) ، بل تجميعٌ وترقيعٌ لمصادرٍ مُختلفةٍ ، كُلٌّ منها كُتِبَ تحت ظُرُوفٍ تاريخيةٍ مُختلفةٍ ؛ لإبداءِ وُجْهَاتٍ نَظَرٍ دينيةٍ ، أو سياسيةٍ مُختلفةٍ .

روايتان لتاريخ إسرائيل التَّالِي:

بَدَتِ الأَسْفَارُ (أَيُّ الكُتُبِ أَوْ المُفْصُولِ) الأربعةِ الأوَّلَى مِنَ الكِتَابِ المُقَدَّسِ - التَّكْوِينِ ، الخُرُوجِ ، اللاوِيِّينَ ، العَدَدِ - نَتَاجَ دَمَجٍ بَارِعٍ بَيْنَ المَاصِدِ 'جِي' ، 'إِي' ، 'بِي' (أَيُّ المَصدِرِ البِهَوِيِّ ، والإيلوهِمي ، والكَهَنُوتِيِّ) ، فِي حِينِ كَانِ وَضَعِ الكِتَابِ الخَامِسِ - أَيُّ سَفَرِ التَّثْنِيَةِ - مُخْتَلَفًا تَمَامًا ؛ لِأَنَّهُ حَمَلَ مُصْطَلِحَاتٍ مُمَيَّزَةً (لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا أَيُّ مِنَ المَاصِدِ الأُخْرَى) ، كَمَا تَضَمَّنَ إِدَانَةً شَدِيدَةً لِعِبَادَةِ الأَلِهَةِ الأُخْرَى ، وَطَرَحَ تَصَوُّرًا جَدِيدًا لِلَّهِ ، كَكَائِنٍ مُتَعَالٍ جَدًّا ، وَنَصَّ عَلَى التَّحْرِيمِ المُطْلَقِ لِتَقْدِيمِ أَيِّ قَرَابِينٍ لِإِلَهِ إِسْرَائِيلِ ، فِي أَيِّ مَكَانٍ سِوَى الهَيْكَلِ فِي أُورُشَلِيمِ . وَقد اعترف العلماء - منذُ عهد بعيد - بِارتباطِ مُحتَمَلٍ بَيْنَ هَذَا السَّفَرِ ، وَكِتَابِ غَامِضِي آخِرِهِمْ : 'سَفَرِ الشَّرِيعَةِ' ، الَّذِي اكْتَشَفَهُ الكَاهِنُ الأَكْبَرُ 'حَلْقِيَاءُ' ، أثناءِ إِعَادَةِ بِنَاءِ الهَيْكَلِ فِي عَهْدِ حُكْمِ المَلِكِ 'يُوشِيَا' Josiah سنة 622 ق . م . وَقد أَصْبَحَتِ هَذِهِ الوَثِيقَةُ - كَمَا يَرَوِي سَفَرُ المُلُوكِ الثَّانِي 22 / 8 - 23 / 24 - مَصدِرَ إِلهَامٍ لِإِصْلَاحِ دِينِيٍّ ذِي شِدَّةٍ لَا نَظِيرَ لَهَا مِنْ قَبْلُ .

إن تأثير سفر التثنية على الرسالة النهائية للكتاب المقدس العبري أبعد بكثير من أحكامه القانونيّة الصارمة. إن القصة التاريخيّة المترابطة التي ترويها الأسفار التي تلي أسفار التوراة الخمسة - أي أسفار يشوع، والقضاة، وصموئيل 1 و2، والملوك 1 و2 - ذات صلة وثيقة جداً بسفر التثنية لغويًا ولاهوتيًا، إلى حدّ أن أصبح العلماء - منذ منتصف أربعينات القرن الماضي - يطلّعون عليها عبارة "التاريخ التثنوي Deuteronomistic History". ويُعدّ هذا العمل الأدبيّ العظيم العمل التاريخيّ الثاني الذي يقصّ تاريخ إسرائيل في الكتاب المقدس العبري؛ حيثُ توّصل تلك الأسفار قصةً مصير شعب إسرائيل منذُ غزوه للأرض الموعودة، وحتىّ المنفى البابلي، وتُعبّر عن عقيدة حركة دينيّة جديدة برزت بين بني إسرائيل في وقت متأخر نسبيًا. وقد حرّز هذا العمل أكثر من مرّة أيضًا. ويرى بعض العلماء بأنّ هذا التاريخ تمّ تأليفه أثناء فترة النفيّ في محاولة للمحافظة على تاريخ، وثقافة، وحضارة، وهويّة الأمة المهجورة، بعد كارثة دمار أورشليم، في حين يقترح علماء آخرون بأنّه - بشكل رئيس - تمّت كتابة التاريخ التثنوي Deuteronomistic History في أيام الملك يوشيا، لخدمة عقيدته الدينيّة، وطموحاته الإقليميّة، وبأنّه أنهى وحرّز بعد عقود قليلة في المنفى.

أمّا كتابا أخبار الأيام الأوّل والثاني - اللذان يُشكّلان التاليف التاريخي الكبير الثالث في الكتاب المقدس العبري، الذي يُعالج تاريخ شعب إسرائيل قبيل عهد النفي؛ فقد تمّ وضعهما في القرن الخامس أو الرابع ق. م؛ أي بعد عدّة قرون من الأحداث التي يصفانها. ويميل المنظور التاريخي للكتابين - بشدّة - لمصلحة الأدعاءات التاريخيّة والسياسيّة لسلالة داود وأورشليم؛ ويهملان الشمال كليًا تقريباً.

يعكس كتابا أخبار الأيام - بأساليب عديدة، بشكل فردي - عقيدة وحاجات أورشليم المعبد (أو الهيكل) الثاني؛ حيث يُعيد تشكيل الجزء الأكبر من القصة التاريخيّة، التي كانت مدوّنة ومكتوبة من قبل. لهذه الأسباب لن نرجع في كتابنا هذا - إلا قليلاً - لكتابين أخبار الأيام، في حين سيبقى تركيزنا على أسفار التوراة الخمسة المبكّرة، وعلى التاريخ التثنوي

. Deuteronomistic History

وكما سنرى في الفصول القادمة؛ لقد زودنا علم الآثار بأدلة كافية لدعم الاعتقاد الجديد بأنَّ اللَّبَّ والجوهر التاريخي للتوراة والتاريخ التثوي، إنما تمَّ تدوينه جوهرياً في القرن السابع ق. م.، لذا؛ سنلقي الضوء على مملكة يهوذا في القرنين الثامن والسابع ق. م.، وهو الزمن الذي بدأت فيه هذه العملية الأدبية بجديّة، وسنثبت - بالأدلة - أنّ الأسفار الخمسة للتوراة - في معظمها - إنما هي خلقٌ ملكيٌّ متأخّر، يهدف إلى الدّعوة إلى عقيدة وحاجات مملكة يهوذا، ولذا؛ فهي وثيقة الصّلة بالتاريخ التثوي. وسنؤيّد العلماء الذين يرون أنّ التاريخ التثوي جُمع - بشكلٍ رئيس - في عهد الملك "يوشيا" Josiah، بهدف تقديم تبرير إيديولوجي لطموحات سياسية خاصّة، ولإصلاحات دينيةٍ مُعيّنة.

تاريخ، أو، ليس تاريخاً؟

لعب علم الآثار - دائماً - دوراً حاسماً في النقاشات المتعلّقة بتأليف الكتاب المقدّس العبريّ ووثاقة أخباره التاريخيّة. وقد بدا علم الآثار - في بادئ الأمر - داحضاً لزعم النقاد الأكثر راديكاليّة، الذين كانوا يرون أنّ الكتاب المقدّس العبريّ كان تأليفاً متأخراً، وأنّ معظمه غير موثوق به من الناحية التاريخيّة. فمتنّ نهاية القرن التاسع عشر؛ ومع بدء الاكتشافات الأثريّة الحديثة لأراضي الكتاب المقدّس العبري، أثبتت سلسلة الاكتشافات المدهشة وعقود من التنقيب عن الآثار والتفسير الأثري المتواصل الذي قام به كثير من الباحثين، أنّ روايات الكتاب المقدّس العبريّ جديرة بالثقة، بشكلٍ أساسي، من حيث ما يتعلّق منها بالخطوط العامّة الرئيسيّة لقصة إسرائيل القديمة. وظهر أنّه حتّى ولو كان نصّ الكتاب المقدّس قد كُتب بعد فترة طويلة من وقوع الأحداث التي يصفها، إلّا أنّه لا بُدّ أن تكون كتابته قد استندت في جزء كبير منها على ذكريات محفوظة بدقّة. وقد استند هذا الاستنتاج على عدّة أنواع جديدة من الأدلّة الأثريّة والتاريخيّة.

المطابقات الجغرافيّة:

بالرغم من أنّ الحُجّاج والمستكشفين الغربيين طالما تجوّلوا في أرض الكتاب المقدّس العبريّ منذ العهد البيزنطي، إلّا أنّه - فقط - بعد تقدّم الدراسات التاريخيّة والجغرافيّة الحديثة في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، تمكّن العلماء المتبحرون في الكتاب

المقدس العبري، وفي المصادر التاريخية الأخرى، من البده بإعادة بناء المشهد الطبيعي لإسرائيل القديمة، على أساس علم الطوبوغرافيا، والإشارات التوراتية، والبقايا الأثرية، بدلاً من الاعتماد على التقاليد الإكليريكية (الكَنسِيَّة) المتعلقة بالاماكن المقدسة المختلفة. وكان رائد هذا الميدان القس البروتستانتي الأمريكي الجماعي<sup>(1)</sup> إدوارد روبنسن الذي قام بعملية استكشاف طويلتين في فلسطين العثمانية عامي 1838 و1852، في محاولة منه لدحض نظريات نقاد الكتاب المقدس العبري بتحديد اماكن المواقع المذكورة في الكتاب المقدس العبري، والتحقق من الصحة التاريخية لوجودها.

وإذا كانت بعض المواقع الرئيسية للتاريخ التوراتي لم تُنسَ أبداً، وبقيت نفسها إلى يومنا هذا، مثل أورشليم (القدس)، وحبرون (الخليل)، ويافا، وبيت شان، وغزة. . فإن مئات الاماكن الأخرى التي ذُكرت في الكتاب المقدس العبري بقيت مجهولة، ولكن؛ بالاستفادة من المعلومات الجغرافية التي يحتويها الكتاب المقدس العبري، ومن الدراسة الدقيقة والثابتة للأسماء العربية الحديثة للمواقع والأمكنة في البلاد، وجد روبنسن أنه من الممكن التعرف على عشرات التلال والخرابات القديمة التي تمثل المواقع التوراتية التي كانت منسبة سابقاً.

استطاع روبنسن وخلفاؤه التعرف على الآثار الواسعة في اماكن مثل الجيب el-Jib، وبيتين Beitin، وسيلون Seilon، وكلها شمال أورشليم (القدس)، على أنها هي المواقع نفسها المحتملة لجبعون Gibeon، وبيت إيل Bethel، وشيلوه Shiloh التوراتية. وكانت هذه العملية ذات تأثير وفعالية. بشكل خاص. في المناطق التي كانت قد سُكنت. بشكل مستمر. على مدار القرون؛ وحيث تمت المحافظة على اسم الموقع نفسه. وقد أدركت أجيال لاحقة من العلماء بأن في الاماكن الأخرى؛ حيث لا تحمل الأسماء الحديثة أي علاقة أو ارتباط بالمواقع التوراتية التي كانت تقع على مقربة منها؛ فإنه ثمة معايير أخرى؛ مثل حجم وأنواع البيانات الفخارية يمكن استعمالها للتعرف على المنطقة. وهكذا أضيفت مواقع مجدو Megiddo، و"حاصور" Hazor، و"لخيش" Lachish، وعشرات المواقع التوراتية الأخرى. بشكل تدريجي. إلى البناء المعاد تأسيسه جغرافياً "الكتاب المقدس العبري".

(1) أي الذي ينتمي لطائفة الجماعيين Congregationalist وهي إحدى الطوائف البروتستانتية. (المترجم).

في أواخر القرن التاسع عشر؛ أخذ مهندسو الجيش البريطاني العاملون في صندوق استكشاف فلسطين على عاتقهم القيام بهذا العمل بطريقة منظمة جداً، وقاموا برسم وتأليف خرائط طوبوغرافية دقيقة وكاملة التفصيل لجميع أنحاء البلاد، من منابع نهر الأردن في الشمال، إلى بئر سبع في النقب في الجنوب.

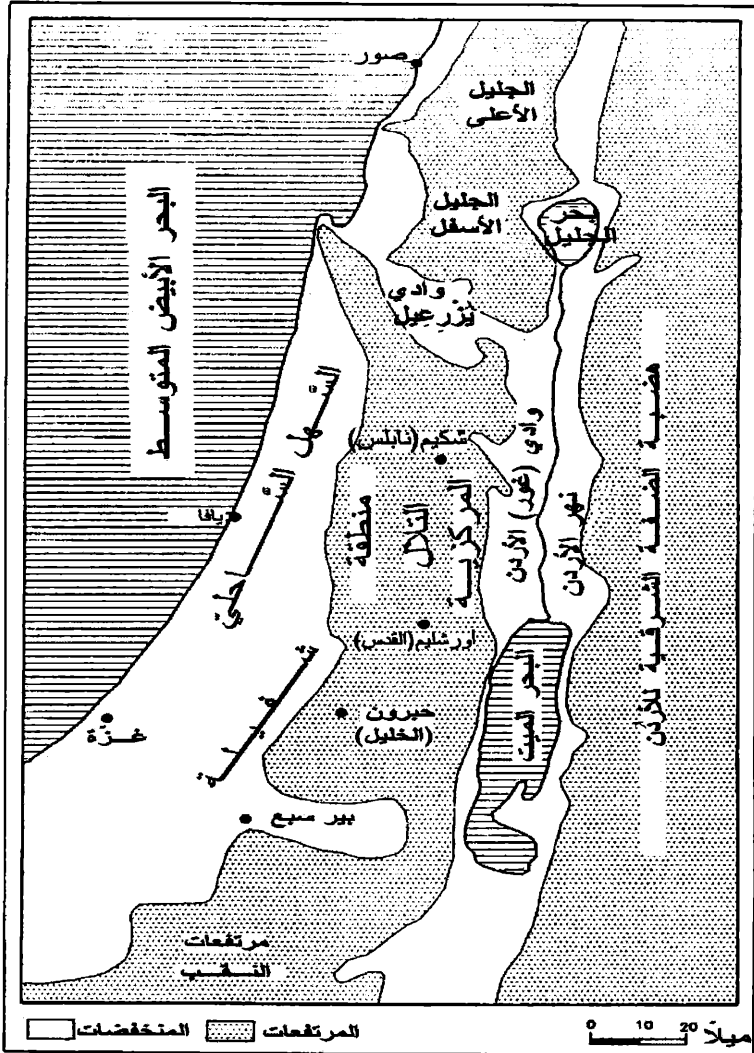
وكان الأمر الأكثر أهمية، حتى من التعرف الخاص على بعض المواقع، هو حصول الألفه المتزايدة بالمناطق الجغرافية الرئيسية لأرض "الكتاب المقدس العبري" (انظر الشكل رقم 2 في الصفحة التالية): السهل الساحلي الواسع والخصب للبحر الأبيض المتوسط، تلال "شفيلة" Shephelah التي ترتفع لتصل إلى تلال البلاد المركزية في الجنوب، صحراء النقب القاحلة، منطقة البحر الميت وادي الأردن، منطقة التلال الشمالية؛ والوديان الواسعة في الشمال. كانت الأرض التوراتية لإسرائيل منطقة ذات تناقضات مناخية وبيئية صارخة. كما أنها عملت أيضاً - كجسر أرضي طبيعي بين حضارتين عظيمتين؛ أي حضارة مصر، وحضارة بلاد ما بين النهرين. وقد أثبتت مناظرها الطبيعية المميزة وظروفها المناخية تلاؤماً دقيقاً تماماً، مع ما تعكسه القصة التوراتية وتذكره من أوصاف في كل حالة وحادة.

آثار وسجلات من مصر وبلاد ما بين النهرين:

بذلك - أثناء العصور الوسطى وعصر النهضة - محاولات متكررة لتأسيس جدول تاريخي قياسي للأحداث الموصوفة في "الكتاب المقدس العبري"، لكن أغلب تلك المحاولات كانت حرفية بشكل طبع جداً. من هنا؛ برزت الحاجة إلى مصادر خارجية لتحقيق الجدول التاريخي لداخل "الكتاب المقدس العبري"، وقد وجدت تلك المصادر - في النهاية - في العاديات والأوابد الأثرية لاثنتين من أكثر الحضارات أهمية وأكثرها ثقافة في العالم القديم.

منذ أواخر القرن الثامن عشر، بدأت مصر تُصبح - بآثارها التاريخية الهائلة، وكثورتها الواسعة من النقوش الهيروغليفية - حقلاً خصباً لدراسات العلماء المستكشفين الأوروبيين. لكن؛ لم تظهر أهمية القيمة التاريخية للآثار المصرية في التعرف على أزمنة الأحداث التاريخية للكتاب المقدس، وربما تحقيقها وتثبيتها، إلا بعد فك رموز اللغة الهيروغليفية المصرية (على





الشكل 2: المناطق الجغرافية لأرض فلسطين

أساس حجر الرّشيد ثلاثي اللّغة) من قِبَل العالم الفرنسي "جان فرانسوا شامبلون" Jean- Francois Champollion في العشرينات من القرن التّاسع عشر (1820). وعلى الرّغم من بقاء الهويّة الحقيقيّة للفراعنة الخاصّين، المذكورين في قصّة يُوسُف وقصّة الخروُج في التّوراة، مُبهِمة، أو غير أكيدة، إلاّ أنّ هناك ارتباطات أخرى أصبحت واضحة تماماً. فقد ذكّرت المسألة<sup>(1)</sup> التي أقامها الفرعون منفتح Merneptah سنة 1207 ق. م، نصراً عظيماً على شعبٍ سُمّي إسرائيل. وفي عصرٍ بعده بقليل، تمّ التّعرف على الفرعون "شيشانق" Shishak (الذي يذكر سفر الملوك الأوّل: 14 / 25 أنّه هاجم أورشليم مُطالباً ملكها بدفّع جزية باهظة، أثناء السّنة الخامسة من عهد حكّم ابن سلیمان) أنّه هو نفسه الفرعون شيشنق الأوّل Sheshonq I من السّلالة الملكيّة الثّانية والعشرين؛ الذي حكّم من سنة 945 إلى 924 ق. م، وقد ترك وصفاً لحملته تلك على حائط في معبد آمون Amun في الكرنك، في مصر العليا.

وجاء المصدر الفني الآخر للاكتشافات المُفيدة لكتابة جدول الأحداث الزّمني والمطابقات التاريخيّة، من السّهول الواسعة الواقعة بين نهريّ الفُرات ودجلة؛ أيّ المنطقة القديمة في بلاد ما بين النّهريّن. فبدءاً من أربعينات القرن التّاسع عشر (1840)، بدأت بعثات علميّة آثاريّة من إنجلترا، وفرنسا، وفيما بعد؛ من الولايات المتّحدة وألمانيا، باكتشاف المُدن، والقُصور الواسعة، والأرشيات المسامريّة للإمبراطوريّتين العظيمتين الآشوريّة والبابليّة. وللمرّة الأولى، منذ عهد الكتاب المقدّس العبري، تمّ اكتشاف أهمّ الآثار والأوابد الرئيسيّة والمُدن لتينك الإمبراطوريّتين الشّرقيتين القويّتين. لقد اكتشفوا أنّ مُدنًا مثل نينوى وبابل، المعروفة سابقاً في الكتاب المقدّس العبري، كانت - في الواقع - عواصم لإمبراطوريّات قويّة وعدوانيّة، قام فنّانوها وكتّابها بتوثيق حملاتها العسكريّة وأحداثها السياسيّة - التي كانت تقع في زمنهم - كليّاً وبتحوش شاملٍ.

(1) المسألة: عمود طويل مرّح مُدبّب الرّاس، كان يستخدمه المصريّون القُدماء وغيرهم من الأمم المُجاورة، وينقشون على جوانبه كتابات تُسجّل أحداثاً تاريخيّة مُعيّنة كتواريخ مُلوكهم أو معاركهم وانتصاراتهم، وما إلى ذلك. (المترجم).

وهكذا تمَّ التعرف على عدد من الملوك التوراتيين المهمين في الأرشيفات المسماوية لبلاد ما بين النهرين، مثل ملوك مملكة إسرائيل: عمري Omri، وأحاب Ahab، وباهو Jehu، وملوك مملكة يهوذا: حزقيا Hezekiah ومنسى manasseh، من بين آخرين.

وسمحت هذه الإشارات الخارجية للعلماء برؤية تاريخ الكتاب المقدس العبري من منظور أوسع، وبمزامنة عهود الملوك التوراتيين مع أنظمة تاريخية أكثر كمالاً في الشرق الأدنى القديم. وبدأت تقام الارتباطات، شيئاً فشيئاً، وتُحدَّد بدقة. تواريخ حكم ملوك مملكتي إسرائيل ويهوذا، وتواريخ حكم الحكام الآشوريين، والبابليين، والفراعنة المصريين، وترتّب لأول مرة - ترتيباً تاريخياً دقيقاً جداً -

وبالإضافة لذلك؛ فقد سلّطت السجلات الأقدم بكثير، لحضارات ما بين الرافدين ومصر، في العصر البرونزي المتوسط والمتأخر (2000-1150 ق. م)، والتي تمَّ اكتشافها في مواقع قديمة مثل ماري، وتلّ العمارنة، وتوزي، أضواء مهمة على عالم الشرق الأدنى القديم، موصحة البيئة الثقافية التي خرج من رحمتها - في النهاية - الكتاب المقدس العبري.

كما وجدت - أيضاً - نقوش متفرقة في المناطق الأقرب إلى أرض إسرائيل [يقصد فلسطين المحتلة (الترجم)]، قدّمت ارتباطات مفيدة ومحددة أكثر. ففي وصف الانتصار الذي دوّنه الملك 'ميشا' Mesha الموابي Moabite، والذي تمَّ اكتشافه في القرن التاسع عشر في الضفة الشرقية لنهر الأردن، ذُكر انتصار الملك 'ميشا' على جيوش إسرائيل، معطياً شهادة خارجية على حرب وقعت بين إسرائيل وموآب، رواها سفر الملوك الثاني: 3/4 - 27. وفي عام 1993؛ تمَّ اكتشاف نقش فريد ذي أهمية بالغة في التوثيق والتحقق التاريخي في موقع تلّ دان Tel Dan في شمال إسرائيل [فلسطين المحتلة]، يُسجّل - على ما يبدو - انتصار الملك الآرامي 'حزائيل' Aramean Hazael على ملك إسرائيل وملك 'بيت داود' في القرن التاسع ق. م، وهكذا زدنا هذا النّقص - مثلما فعل النّقص الموابي - بسند هام لتاريخ إسرائيل القديمة.

## تنقيب المواقع التوراتية:

حتى اليوم، جاءت أهم مصادر الشواهد المتعلقة بالسياق التاريخي للكتاب المقدس، من أكثر من مئة سنة من عمليات التنقيب الأثرية الحديثة في إسرائيل [فلسطين المحتلة]، والأردن، والمناطق المجاورة. وبشكل يرتبط - بنحو وثيق - بالتقدم في تقنيات الحفريات الأثرية على مستوى العالم، تقدم علم الآثار التوراتي - أيضاً - بنحو؛ استطاع معه العلماء أن يميزوا سلسلة طويلة من أنماط الفن المعماري سهلة التمييز، والأشكال الفخارية، والمصنوعات اليدوية الأخرى، بنحو؛ مكن أولئك العلماء - حتى الآن - من تحديد تواريخ مستويات وقبور المدن المدفونة تحت الأرض بدرجة عالية من الدقة.

وقد ركز هذا الفرع من علم الآثار - الذي كان رائده العالم الأمريكي وليام إف أولبرايت و William F Albright - في أوائل القرن العشرين - في الغالب - على تنقيب هضاب المدن الكبيرة (تدعى التلال في العربية، وتل في العبرية)، التي تتكون من مستويات متداخلة لعدة مدن، يمكن تتبع تطور المجتمع، والنمو الحضاري فيها على مدى ألف عام.

بعد عقود من التنقيب؛ استطاع الباحثون أن يعيدوا بناء السياق الأثري الواسع الذي يجب أن يوضع فيه التاريخ التوراتي (انظر الشكل رقم 3). بدءاً من أول شاهد على وجود الزراعة والمجتمعات البشرية المستوطنة في المنطقة في نهاية العصر الحجري، واصل علماء الآثار تحديد صعود الحضارة الحضرية في العصر البرونزي (3500 - 1150 ق.م).

### أزمة علم الآثار<sup>(\*)</sup>

العصر البرونزي المبكر	3500 - 2200 ق.م
العصر البرونزي الأوسط	2200 - 2000 ق.م
العصر البرونزي المتوسط	2000 - 1550 ق.م

(\*) تتبع هذه التواريخ نظام هذا الكتاب. تُعد التواريخ المذكورة من العصر البرونزي المبكر، وحتى العصور البرونزية الوسطى تقريبية، وتعتمد بشكل أساسي - على اعتبارات ثقافية - أما التواريخ من العصر البرونزي المتأخر إلى العصر الفارسي؛ فهي تعتمد بشكل أساسي - على الأحداث التاريخية.

1150-1550 ق. م	العصر البرونزي المتأخر
900-1150 ق. م	العصر الحديدي الأوّل
900-586 ق. م	العصر الحديدي الثاني
538-538 ق. م	العصر البابلي
538-533 ق. م	العصر الفارسي

### ملوك إسرائيل ويهوذا<sup>(\*)</sup>

إسرائيل	يهوذا	
صموئيل 1025-1005 ق. م.		
داود 1005-970 ق. م.		
سليمان 970-931 ق. م.		
931-909	931-914	رجيمام
909-908	914-911	أيام
908-885	911-870	آسا
885-884	870-846 <sup>(**)</sup>	يوشافاط
884	851-843 <sup>(**)</sup>	يورام
884-880 <sup>(***)</sup>	843-842	أحزيا
884-873	842-836	عتليا
873-852	836-798	يواش
852-851	836-798	أمصيا
851-842	798-773 <sup>(**)</sup>	عزريا
842-851	773-743 <sup>(**)</sup>	يوتام
842-814	743-727 <sup>(**)</sup>	أحاز
814-800 <sup>(**)</sup>	727-727	حزقيا
800-784 <sup>(**)</sup>	727-698	منسي
784-778	698-642	
		ياربعام الثاني

(\*) طبقاً لـ Anchor Bible Dictionary ؛ أي: قاموس مُرتكز (أو سَند) الكتاب المقدس، المجلد الأوّل، الصفحة

1010 ، وكتاب الجدول الزمني لملوك إسرائيل ويهوذا، لـ غاليل .

(\*\*) يشتمل على اشتراك أكثر من وصي على العرش في الحكم بنحو متزامن.

(\*\*\*) حكم مناسف.

747	زكريا الأزل	640-641	أمون
747	شلوم	609-639	يوشيا
737-747	منحيم	609	يوأحاز
735-737	فقحيا	598-608	يوياقيم
732-735	فأح	597	يوياكين
724-732	هوشع	586-596	صدقيا

الشكل 3: الجدول الزمني ملوك يهوذا وإسرائيل.

وتحولها إلى ولايات إقليمية في الفترة اللاحقة: العصر الحديدي (1150 - 586 ق.م)؛ حيث من المفترض أن تكون قد حدثت أغلب الأحداث التاريخية الموصوفة في الكتاب المقدس العبري.

وفي نهاية القرن العشرين؛ أظهر علم الآثار أن هناك ببساطة الكثير من التطابقات المادية بين الاكتشافات الأثرية في إسرائيل [فلسطين المحتلة] وكامل الشرق الأدنى، والعالم الموصوف في الكتاب المقدس العبري، مما لا يعطي مجالاً أبداً للزعم بأن الكتاب المقدس العبري كان أدباً كهنوتياً متأخراً وخيالياً، كتب بدون أي أساس تاريخي قاعدة تاريخية مطلقاً؛ لكن؛ في الوقت نفسه؛ كان هناك الكثير من التناقضات. أيضاً - بين الاكتشافات الأثرية والقصاص التوراتية، مما يمنع القول بأن الكتاب المقدس العبري يزودنا بوصف دقيق - عاماً. لما حدث في الحقيقة والواقع.

من التوضيحات التوراتية إلى علم الأجناس البشرية لإسرائيل القديمة:

طالما حافظ النقاد الناصيون للكتاب المقدس وعلماء آثار الكتاب المقدس العبري على مواقفهم المتعارضة. أساساً - حول الثقة التاريخية للكتاب المقدس، فإنهم سيواصلون العيش في عالمين ثقافيين منفصلين. وقد واصل النقاد الناصيون نظرتهم للكتاب المقدس كموضوع للتحليل والدراسة النقدية المفصلة، وأنه يمكن تقسيمه إلى مصادر أصغر، وأصغر، وكل منها إلى مصادر ثانوية أخرى صغيرة، وذلك طبقاً للأفكار الدينية أو السياسية المتميزة، التي يفترض أن كل قسم يقوم بإبدائها. وفي الوقت نفسه؛ غالباً ما أخذ علماء الآثار القصاص التاريخية

للكتاب المقدس على معناها الظاهري . وبدلاً من استخدام المعطيات الناتجة عن الحفريات الأثرية كصُدر مُستقل لإعادة بناء تاريخ المنطقة، واصلوا الاعتماد على قِصص الكتاب المقدس العبري - خاصةً؛ الموضوع التقليدي حول صُعود ونشأة شعب إسرائيل - لتفسير اكتشافاتهم .

بالطبع؛ كان هناك - دائماً - فهم جديدٌ لقصة نشأة وتطور إسرائيل كلما تقدمت التقييات والاستطلاعات . وقد طرحت تساؤلات حول الوجود التاريخي للآباء، وحول تاريخ وحجم الخروج الجماعي لبني إسرائيل من مصر . وطوّرت نظريات جديدةً - أيضاً - تقترح أن يكون الغزو الإسرائيلي لأرض كنعان لم يتم بشكلٍ حَمَلَة عسكرية جماعية، خلافاً لما يُصرّ سفر يشوع على روايته، لكن؛ بالنسبة للأحداث التوراتية التي تبدأ من عهد داود حوالي 1000 ق. م، فإن علماء الآثار يُجمعون - بلا خلاف، على الأقل - حتى التسعينيات - على أنه يُمكن قراءة الكتاب المقدس العبري كوثيقة تاريخية موثوقة بشكلٍ أساسي .

ولكن؛ على أية حال، منذُ السبعينات، بدأت اتجاهاتٌ جديدةٌ تُؤثر على منهج ومسيرة علم الآثار التوراتي، وتُغيّر - في النهاية - تركيزه الرئيسي، وتقلب - رأساً على عقب - تلك العلاقة التقليدية بين ما هو من صنع الإنسان، وبين النص التوراتي .

للمرة الأولى؛ لا يسعى علماء الآثار، الذين يعملون في أراضي التوراة، لاستخدام الاكتشافات الناتجة عن التقييات في إيضاح نصوص الكتاب المقدس العبري؛ بل يتحوّلون - بشكلٍ قوي - إلى أسلوب ومنهج العلوم الاجتماعية، ويتجهون إلى فحص ودراسة الحقائق الإنسانية الكامنة وراء النصّ .

في تنقيب المواقع القديمة، لم يعدّ التأكيد مُتصّباً - فقط - على صلة الموقع بالأمكنة المذكورة في الكتاب المقدس العبري، بل أصبحت المصنوعات اليدوية المُستخرجة من الحفريات الأثرية، والنماذج المعمارية، وأنماط المُستوطنات البشرية، بالإضافة إلى بقايا العظام الحيوانية، والبُثور، والتحليلات الكيميائية لعينات التربة، والنماذج الأثرولوجية (علم أصل الإنسان) المُستخرجة - على مدى زمنٍ طويل - من العديد من الثقافات العالمية، أصبحت كُلُّ هذه المعلومات تُستخدم كمفاتيح لإدراك التغيرات الأوسع في الاقتصاد، والتاريخ السياسي،

والممارسات الدينية، والكثافة السكانية، والتركيبة السكانية ذاتها للمجتمع الإسرائيلي القديم. وأصبح هناك عدد متزايد من العلماء يحاولون - عبر تبيينهم نفس الطرق المستخدمة من قبل علماء الآثار وعلماء الإنسانيات في المناطق الأخرى - أن يفهموا كيف أثير التفاعل الإنساني مع المحيط الطبيعي المعقد والمتنوع لأرض إسرائيل على تطور نظامها الاجتماعي الفريد، ودينها، وتراثها الروحي الخاص.

### رؤية جديدة للتاريخ التوراتي:

لقد سمحت التطورات الحديثة في علم الآثار لنا - أخيراً - بتجسير الفجوة بين دراسة النصوص التوراتية والاكتشافات الأثرية. يمكننا - الآن - أن نرى أن الكتاب المقدس العبري - جنباً إلى جنب الأشكال الفخارية المتميزة، وأنماط الفن المعماري، والنقوش العبرية - يمثل نتاج براعة إنسانية مميزة، وأنه يخبرنا بأشياء كثيرة عن المجتمع الذي أنتج فيه.

ذلك لأنه أصبح من الواضح - اليوم - أن ظواهر مثل حفظ السجلات، والمراسلات الإدارية، واليوميات الملكية، وتأليف كتاب مقدس وطني - خصوصاً؛ إذا كان مثل الكتاب المقدس (التوراة) في عمقه وتطوره البالغ - كل ذلك مرتبط بمرحلة معينة من التطور الاجتماعي.

لقد قام علماء الآثار وعلماء الإنسانيات - الذين يعملون في جميع أنحاء العالم - بدراسة السياق الذي تظهر فيه أنواع متطورة من الكتابة، التي تكون - في كل حالة تقريباً - دليلاً على تشكيل دولة، تركز السلطة فيها في مؤسسات وطنية مثل شخصيات رسمية، أو حكم ملكي.

من السمات الأخرى التي تدل على هذه المرحلة من التطور الاجتماعي نذكر الأبنية التذكارية، والتخصصات الاقتصادية، وحضور شبكة كثيفة من المجتمعات البشرية المتشابكة، تتراوح في الحجم من المدن الكبيرة، إلى المراكز الإقليمية، إلى البلدات المتوسطة الحجم، والقرى الصغيرة.

حتى فترة قريبة؛ كان كلا: العلماء النصابون وعلماء الآثار يفترون بأن إسرائيل القديمة وصلت إلى مرحلة التشكيل الكامل للدولة في عهد الحكم الملكي المتحد لداود وسليمان.



في الحقيقة؛ ما يزال العديد من الاختصاصيين في الكتاب المقدس يعتقدون أن أقدم مصادر أسفار التوراة الخمسة هو الوثيقة 'جي'، أو الوثيقة 'يهوية' Yahwist، وبأنها كُتبت في دولة يهوذا، في عصر داود وسليمان، في القرن العاشر ق.م، أما نحن؛ فسنثبتُ في كتابنا هذا - أن مثل هذا الاستنتاج بعيدٌ جداً عن الواقع.

إن تحليل الشواهد الأثرية يبين أنه لا يوجد أي دليلٍ - مطلقاً - على وجود معرفة شاملة للقراءة والكتابة، أو أي خواصٍ أخرى من خواص الدولة الكاملة في مملكة يهوذا. وبشكل خاص؛ في أورشليم - حتى أكثر من قرنين ونصف تالين؛ أي نحو نهاية القرن الثامن ق.م.

بالطبع؛ لا يوجد عالم آثار يمكنه أن ينكر بأن الكتاب المقدس العبري يحتوي على أساطير، وأشخاص، وأجزاء لقصاص تعود لعهد قديم جداً، لكن؛ يُمكن لعلم الآثار أن يُظهر بأن التوراة والتاريخ التثنوي Deuteronomistic History يحملان بصمات واضحة، تدلُّ على أن تأليفها وجمعها إنما تمَّ - لأول مرة - في القرن السابع ق.م، لماذا الأمر كذلك؟ وماذا يعني هذا الأمر بالنسبة لفهمنا للقصة التوراتية العظيمة؟ هذا هو الموضوع الرئيس لهذا الكتاب.

سنرى كم من قصص وروايات الكتاب المقدس العبري هو من نتاج آمال، ومخاوف، وطموحات مملكة يهوذا، التي بلغت أوجها في عهد الملك يوشيا في نهاية القرن السابع ق.م، وستثبت بأن الجوهر التاريخي للكتاب المقدس إنما ظهر للوجود، انطلاقاً من ظروف روحية واجتماعية وسياسية واضحة، وشكلته خلافةً وبصيرة نساء ورجال استثنائيين. معظم ما أخذ عموماً على أنه تاريخ صحيح ودقيق مُسلم به - كقصص الآباء، والخروج، وغزو كنعان، وحتى قصة الحكم الملكي المتحد المجيد لداود وسليمان - ليس - في الواقع - سوى تعبيرات خلافة أبدعتها حركة الإصلاح الديني القوية التي ازدهرت في مملكة يهوذا في العصر الحديدي المتأخر. وبالرغم من أن هذه القصص ربما كانت تستند إلى بعض الوقائع التاريخية، إلا أنها تعكس - بشكل أساسي - عقيدة كاتبها وتصورها للعالم.

سوف يُبين كيف أن قصة الكتاب المقدس العبري قُصت - تماماً - لتناسب تقوية الإصلاح الديني والطموحات التوسعية الإقليمية لمملكة يهوذا أثناء العقود الحثامية البالغة الأهمية للقرن السابع ق.م.

هذا؛ ولكن القول بأن أشهر قصص الكتاب المقدس العبري لم تحدث على النحو الذي وصفت به فيه، لا يقصد به - أبداً - التلميح إلى أن إسرائيل القديمة ليس لها تاريخ أصيل.

ستُعيد في الفصول التالية بناء تاريخ إسرائيل القديمة على أساس الأدلة الأثرية، التي تُشكل مصدر المعلومات الوحيد، حول الفترة التوراتية، الذي لم يُصحح على نطاق واسع، ولم يُحرر، أو يخضع للرقابة، فيُحذف من قبل أجيال عديدة من نساخ وكتاب الكتاب المقدس العبري. وبمساعدة الاكتشافات الأثرية والسجلات الإضافية على الكتاب المقدس العبري، سنرى كيف أن قصص الكتاب المقدس العبري هي نفسها جزء من القصة الحقيقية، وليست الإطار التاريخي المؤكّد والقطعي الذي يجب أن يتفق معه كلُّ اكتشاف مُعين، أو نتيجة مُحددة. ستبتدع قصتنا - بشكلٍ مثير - عن القصة التوراتية المألوفة. إنها ليست قصة مملكة واحدة، بل مملكتين مُختارتين، يُشكلان مع بعضهما الجذور التاريخية لشعب إسرائيل.

وكدت إحدى المملكتين - مملكة إسرائيل - في الوديان الخصبة والتلال المُتحرّجة لشمال إسرائيل [فلسطين المحتلة]، وتمدّت لتصبح واحدة من بين أغنى الممالك وأكثرها عالمية، وأقواها في المنطقة. وهي مملكة منسيةٌ كلياً - تقريباً - اليوم، ماعدا الدور الحسيس الذي لعبته حسب وصف سفرَي الملوك الأوّل والثاني من الكتاب المقدس العبري. أما المملكة الأخرى - مملكة يهوذا -؛ فقد ظهرت في بلاد التلّ الجنوبية القاسية الصخرية، وبقيت حيةً بفضل حفاظها على عزلتها وولائها العنيف لمعبدها ولسلالتها الملكيّة.

تُمثل هاتان المملكتان جانبين لتجربة إسرائيل القديمة، ومُجمعتين مُختلفتين جداً ذوي مواقف مُضادة وهويّة وطبّية مُختلفة. سنتبّع - خطوةً خطوةً - المراحل التي اندمج فيها بقوّة: تاريخ، وذاكرة، وأمال كلتا المملكتين، في كتاب مقدس واحد، شكّل - ويواصل تشكيل - وجه المُجتمع الغربي، أكثر ممّا فعلته أيُّ وثيقة مكتوبة أخرى في التاريخ.

# [ القسم الأول ]

الكتاب المقدس العبري  
كتاريخ ؟

## الفصل (1):

### البحث عن الآباء

في البدء؛ كانت هناك عائلة واحدة، ذات علاقة خاصة مع الله. وبمرور الزمن؛ تكاثر أفراد تلك العائلة، وتضاعف عددهم كثيراً، ونموا؛ ليصبحوا شعب إسرائيل. تلك هي القصة المحمية الأساسية الأولى للكتاب المقدس، قصة أحلام مهاجرة، وعود إلهية عملت كتمهيد متنوع الصور، ومُلهم للتاريخ اللاحق لأمة إسرائيل. كان إبراهيم أول الآباء، ومُستلم الوعد الإلهي بالأرض والثروة الوفيرة، والذي حَمَلَهُ - عبر الأجيال - ابنه إسحاق، ثم ابنه يعقوب ابن إسحاق، المعروف - أيضاً - باسم إسرائيل. من بين أولاد يعقوب الإثني عشر، الذي غدا كُلُّ واحد منهم أباً ورأساً لقبيلة من قبائل بني إسرائيل، أُعطي يهوذا الشرف الخاص للسيادة عليهم جميعاً.

إن رواية الكتاب المقدس العبري لحياة الآباء، قصة رائعة لكُلِّ من العائلة والأمة معاً. وتشقُّ قوتها العاطفية من كونها سجل كفاح إنساني عميق، لآباء، وأمهات، وأزواج، وزوجات، وبنات، وبنين. فهي - بنحو ما - قصة مثالية لعائلة، بكلِّ أفراحها وأحزانها، وحبها وكرامتها، وخذاعها ومكرها، ومجاعاتها وازدهارها. وهي - كذلك - قصة فلسفية عالمية عن العلاقة بين الله والبشرية؛ عن الإخلاص والطاعة؛ عن الحق والباطل؛ وعن الإيمان والتقوى، والفسق والفجور. هي قصة الله الذي اختار أمة، وأعطاهَا وعدهُ الأبدي بالأرض، والازدهار، والنمو.

تعدُّ قصة الآباء إنجازاً أدبياً قوياً على جميع المستويات: تاريخياً، ونفسياً، وروحياً، لكن السؤال هو: هل هي - فعلاً - تسجيل موثوق لقصة ولادة شعب إسرائيل؟ هل هناك أي دليل على أن آباء مثل إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وريأت أسر مثل سارة، وريبيكا، وأيلة، وراحيل، وُجدوا، وعاشوا حقيقة؟

## قصة بطولية لأربعة أجيال:

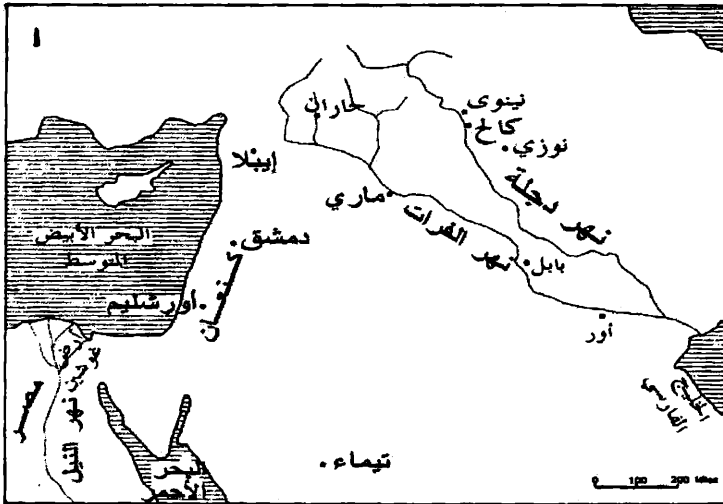
يصف سفر التكوين إبراهيم كأمّودج لرجل الإيمان، وأب الأسرة، ويذكر أنه قدّم من مدينة أور في جنوب بلاد ما بين النهرين، واستوطن من جديد، مع عائلته، بلدة حاران Haran، على إحدى روافد الفرات الأعلى (الشكل رقم 4). وَظَهَرَ اللهُ لَهُ هُنَاكَ، وَأَمْرُهُ قَاتِلًا: [اذهب من أرضك، ومن عشيرتك، ومن بيت أبيك، إلى الأرض التي أريك. فأجعلك أمة عظيمة، وأباركك، وأعظم اسمك، وتكون بركة.] (تكوين 12/1-2). أطاع أبرام (كما أصبح يُسمّى) كلمات الله، وأخذ زوجته سارة وابن أخيه لوط، وغادر إلى أرض كنعان. تجول بقطعانه في أنحاء منطقة المرتفعات والتلال المركزية، وتحرك بشكل رئيسي - بين شكيم (نابلس) في الشمال، وبيت إيل Bethel (قرب أورشليم)، وحيرون (الخليل) في الجنوب، لكنه تنقّل - أيضاً - في النقب، بعيداً في الجنوب (الشكل رقم 5).

بنى أبرام - خلال أسفاره - المذابح لله، في عدة أماكن، وشيئاً فشيئاً؛ اكتشف الطبيعة الحقيقية لقدّره. وَعَدَّ اللهُ أَبْرَامَ وَذُرِّيَّتَهُ كُلَّ الْأَرْضِ بَيْنَ النَّيْلِ وَالْفُرَاتِ، فَقَالَ: [لنسلك أعطي هذه الأرض، من نهر مصر، إلى النهر الكبير نهر الفرات.] (تكوين 15/18). ولتبيين دوره كأب رُوحِي لشعوب عديدة، غيّر الله اسم أبرام إلى إبراهيم: [فَلَا يُدْعَى اسْمُكَ - بَعْدَ - أَبْرَامَ، بَلْ يَكُونُ اسْمُكَ إِبْرَاهِيمَ؛ لِأَنِّي أَجْعَلُكَ أَبَا جُمْهُورٍ مِنَ الْأُمَمِ.] (تكوين 17/5). كما غيّر اسم زوجته - أيضاً - من ساراي Sarai إلى سارة؛ لتبين أن منزلتها تغيرت أيضاً.

كانت عائلة إبراهيم مصدر كل الأمم في المنطقة. أثناء فترة ترحالهم وتجوالهم في أرض كنعان؛ بدأ رعاة إبراهيم ورعاة لوط يتنازعون فيما بينهم. وتفادياً لمزيد من الصراع ضمن الأسرة، قرّر إبراهيم ولوط تقاسم الأرض. بقي إبراهيم وشعبه في المرتفعات الغربية، بينما ذهب لوط وعائلته شرقاً إلى وادي الأردن، واستقروا في سدوم Sodom قرب البحر الميت. كان أهالي سدوم Sodom والمدينة القريبة منها: عمورة Gomorrah منغمسين في الفسق والفجور والخيانة، فأمطر الله كبريتاً وناراً على المدينتين الفاسقتين، فدمرهما تماماً. وخرج لوط قبيل ذلك، متخذاً لنفسه طريقاً باتجاه التلال الشرقية؛ ليصبح جد الشعوب التي استوطنت عبر الأردن (الضفة الشرقية)؛ أي شعوب موآب Moab وعمون Ammon. كما

أصبح إبراهيم جَدًّا لعدة شُعُوبٍ أُخرى قديمة أيضاً. ولَمَّا كانت زوجته سارة غير قادرة على الإنجاب، وولَّقت من العُمر تسعين عاماً؛ اتَّخذ إبراهيم من أمة زوجته سارة - الجارية المصرية "هاجر" - خليلاً؛ ليُنجب منها طفلاً؛ سَمَّاه إسماعيل، الذي أصبح - مع الزَّمن - جدَّ كُُلِّ الشُّعُوبِ العَرَبِيَّةِ في الصَّحراءِ الجَنُوبِيَّةِ.

أهمُّ شيءٍ بالنسبة للرواية التوراتية هو أنَّ الله وَعَدَّ إبراهيمَ بولدٍ آخر، فأنجبت زوجته المحبوبة سارة - بشكلٍ إعجازيٍّ - ابناً هو إسحاق، وذلك عندما بَلَغَ إبراهيمُ المئةَ من عُمره. وتظهر إحدى أقوى الصُّورِ في التوراة عندما يُواجه اللهُ إبراهيمَ بالاختبار النهائي لإيمانه، فيأمره بالتضحية بابنه المحبوب إسحاق على جبلٍ في أرض مُوريا. ويستجيب إبراهيم، لكنَّ الله يُوقف التضحية، ويكافئ إبراهيمَ على طاعته ووفائه بتجديد عهده له. لن تنمو ذُرِّيَّةُ إبراهيمَ ليُصبحوا أُمَّةً عظيمةً كبيرةً كعدد النُجُومِ في السَّمَاوَاتِ والرَّمْلِ في شاطئِ البحرِ فحسب، بل إنَّ كُُلَّ أُمَمِ العالمِ - في المُستقبل - ستبارك بواسطتهم أيضاً.



الشكل 4: مواقع في بلاد ما بين النهرين، ومناطق أخرى من الشرق الأدنى القديم ذات صلة بقصص الآباء.

بَلَّغَ إِسْحَاقُ سَنَ الرَّثْدِ، وبدأ يتجوَّلُ بقطعانه الخاصَّة حول مدينة بئر سبع الجنوبيَّة، وتزوَّجَ - في نهاية الأمر - من "رييكا"، الشَّابَّة التي جاءت من وطن أبيه بعيداً إلى الشمال. وبمرور الزمن؛ كانت العائلة تضرب جُدورها في أرض الميعاد بِشَكْلِ أعمق. اشترى إبراهيم مغارة "مكفيلة" Machpelah في حبرون (الخليل)، في منطقة التلال الجنوبيَّة؛ ليدفنَ فيه زوجته المحبوبة سارة. ثُمَّ دُفِنَ هو - أيضاً - هناك.

واستمرَّت الأجيال. وفي مُعسكرهم في النَّقْب؛ وكَدَّت ربييكا - زوجة إسحاق - توأمين، كان لكلُّ منهما طبعٌ ومزاجٌ مُختلف تماماً عن الآخر، وبالتالي؛ وقَعَ التَّصارعُ بينَ نسليهما، واستمرَّت لثلاث السَّنوات. كان "عيسو" - الصَّياد البارِع - الابن الأكبر، والمحظيُّ أكثر في عينيِّ والده إسحق، بينما كان يعقوب - الابن الأصغر - حسَّاساً، ومُرَهف الشُّعور، وكان محبوباً أكثر من قِبَلِ أمه. وبالرَّغم من أنَّ عيسو كان الولد البكر، والوارث الشَّرعيُّ للوعد الإلهي، إلَّا أنَّ ربييكا قامت بإخفاء وجه ابنتها المُحَبَّب يعقوب بعباءة مصنوعة من جلد الماعز القاسي، وقدمته إلى إسحاق، الذي كان يحتضر في سريره، لكي يخطبُ الأب الأعمى والضعيف، فيحسب أنَّ يعقوب هذا هو عيسو، فيمنحه. دُونَ أن يشعر - البركة التي كانت من حقِّ الابن الأكبر حسب قاعدة حقِّ البُكُورِيَّة.

لدى عودته إلى المُخيم؛ اكتشف عيسو الحيلة والبركة المسروقة، لكنَّه لم يعد قادراً على فعل شيء. وكلُّ ما فَعَلَهُ أبوه إسحق ليعوِّضه عن تلك الخسارة، هي وَعْدُهُ إياه أنَّه سيُصبحُ جَدًّا لكلِّ ساكني الصَّحراء؛ أي شعب الإيدوميِّين Edomites: [هُوَذَا بِلَا دَسَمِ الأَرْضِ يَكُونُ مَسْكُنُكَ، وَبِلَا نَدَى السَّمَاءِ مِنْ قَوْقُ]. [تكوين 27/39].

وبهذا؛ تأسَّس شعب جديد في المنطقة، وفيما بعد - كما يروي سفر التكوين 28/9 - تزوَّجَ عيسو من عائلة عمه إسماعيل وأنجب ابناً صار جَدًّا لقبيلةٍ أُخرى من القبائل التي تقطن في الصَّحراء. وكانت هذه القبائل على صراع دائم مع الإسرائيليين؛ يعني: أحفاد أخيه يعقوب، الذي احتفظَ منه حقُّ البُكُورِيَّة الإلهي.

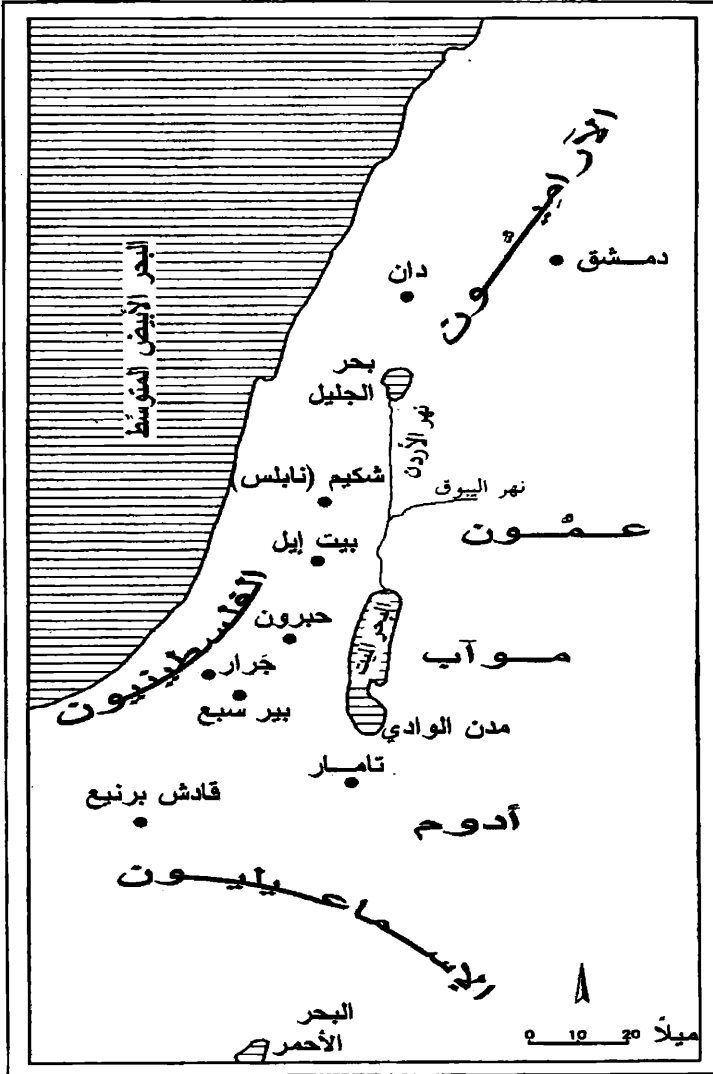
وسرعان ما هرب يعقوب من غضب أخيه الحزين ، وسافر بعيداً إلى الشمال ، إلى بيت عمه لابان Laban في حاران Haran ، لإيجاد زوجة له . وفي طريقه نحو الشمال ؛ ثبت الله ميراث يعقوب . وتوقّف يعقوب ليلاً في بيت إيل Bethel للاستراحة ، فحلم بسلم فوق على الأرض ، يصل في قمته إلى السماء ، ورأى ملائكة الله تصعد وتنزل ، ومن فوق السلم ، جدّد الله وعده الذي أعطاه لإبراهيم قائلاً :

[ أنا الربُّ إلهُ إبراهيمَ أبِيكَ وإلهُ إسحاقَ . الأرضُ التي أنتُ مُضطَّجعٌ عَلَيْهَا أُعْطِيهَا لَكَ وَكُنْسَلَكَ . 14 وَيَكُونُ نَسْلُكَ كَثْرَابَ الأَرْضِ ، وَتَمْتَدُّ غَرْباً وَشَرْقاً وَشَمَالاً وَجَنُوباً . وَيَبَارِكُ فِيكَ وَفِي نَسْلِكَ جَمِيعِ قِبَاثِلِ الأَرْضِ . 15 وَهَآ أَنَا مَعَكَ وَأَحْفَظُكَ حَيْثُمَا تَذْهَبُ ، وَأُرْثُكَ إِلَى هَذِهِ الأَرْضِ ؛ لِأَنِّي لَا أَتْرُكُكَ حَتَّى أَفْعَلَ مَا كَلَّمْتُكَ بِهِ ] (تكوين 28 / 13 - 15) .

واصل يعقوب مسيره نحو الشمال ، إلى حاران ، وبقي مع لابان عدّة سنوات ، وتزوَّج من ابنتيه ليثة Leah ، وزاحيل Rachel (ومن خادمتهما الجاريتين) ، وأصبح أباً لأحد عشر ابناً ؛ هُم : رَؤبِينُ (بَكَرُ يَعْقُوبَ) ، وَشَمْعُونُ ، وَلاوي ، وَيَهُوذَا ، وَدَانُ ، وَنَفْتَالِي ، وَجَادُ ، وَأَشِيرُ ، وَسَاكْرُ ، وَزَبُولُونُ . وَيُوسُفُ (انظر التكوين 35 / 25.23) ، ثُمَّ أَمَرَ اللهُ يَعْقُوبَ بِالْعُودَةِ إِلَى كَنْعَانَ مَعَ عَائِلَتِهِ .

وفي طريقه - بينما كان يعبر نهر ييوق في عبر الأردن - أجبر يعقوب على مُصارعة شخصيّة غامضة . وسواء كانت تلك الشخصيّة ملاكاً ، أو الله ، فإنّ هذه المُصارعة غيّرت اسم يعقوب إلى اسم جديد هو إسرائيل (الذي معناه الحُرْفِي : "الذي تصارع مع الله") ، [ لا يُدْعَى اسْمَكَ . فِي مَا بَعْدُ - يَعْقُوبُ ، بَلْ إِسْرَائِيلُ ؛ لِأَنَّكَ جَاهَدْتَ مَعَ اللهِ وَالنَّاسِ ، وَقَدَرْتَ ] (تكوين 32 / 28) ، ثُمَّ عاد يعقوب إلى كنعان ، ونصب مُخيمًا قُرْبَ شَكِيم (نابلس) ، وبنى مذبحاً في بيت إيل Bethel في المكان نفسه الذي كَشَفَ اللهُ فِيهِ لَهُ نَفْسَهُ ، عندما كان في طريقه إلى حاران Haran . وأثناء سيرهم أكثر نحو الجنوب ؛ ماتت زاحيل أثناء ولادتها لـ "نيامين" ، آخر أبناء يعقوب . ومباشرة - بعد ذلك - تُوفِّي أبو يعقوب - إسحاق - ، ودُفِنَ في مغارة "مكفيلة" Machpelah في حبرون (الخليل) .





الشكل 5: أهم المواقع والشعوب في كنعان المذكورة في رواية قصص الآباء.

رُويدياً رُويدياً؛ تحوّلت العائلة إلى عشيرة، بل بدأ طريق التحوّل إلى أمة. رغم ذلك؛ كان بنو إسرائيل - في هذه المرحلة - مازالون يُشكّلون عائلة يتشاجر فيها الإخوة، ومن ذلك؛ ممّت وحسد أولاد يعقوب لأخيم يوسف، ابن يعقوب المُفضّل، بسبب أحلامه الغريبة، التي تنبأت بأنه سيسود على كل أفراد عائلته. ورغم أن أغلب الإخوة أرادوا قتله؛ إلا أن راوبين ويهوذا أنقياهم عن ذلك. بدلاً من أن يذبحوا يوسف؛ قام إخوة يوسف بيّعه إلى مجموعة من التجّار الإسماعيليين (من ذرّة إسماعيل)، الذين كانوا في طريقهم إلى مصر، يسوقون قافلة من الجمال. وتظاهر الإخوة بالحزن والبكاء، وأوضحوا لأبيهم الشيخ يعقوب بأن وحشاً برياً مقرّساً افترس يوسف، وتذبّ يعقوب ابنه المحبوب.

لكنّ القدر العظيم كان بانتظار يوسف، ولم يستطع حسد إخوته له أن يحولوا بينه وبين ذلك القدر المحبّب له. استقرّ يوسف في مصر، وسرعان ما علا شأنه في الثروة والمنزلة، بفضل ملكاته الاستثنائية. ويعد تفسيره لحلم فرعون؛ مُبيناً أنه يُبنى عن مجيء سبع سنوات جيّدة، تعقبها سبع سنوات سيّئة، عينه فرعون وزيره الكبير، فاستطاع - بالاستفادة من هذا المنصب الرفيع - أن يعيد تنظيم اقتصاد مصر بخزّن الغذاء الفائض من السنوات الجيدة؛ لتتم الاستفادة منه خلال السنوات السيّئة الآتية. وهذا ما حصل بالفعل؛ فعندما حلّت السنوات السيّئة أخيراً، كانت مصر مُستعدة بشكل جيّد جداً.

وفي كنعان القريبة؛ عانى يعقوب وأبناءه من المجاعة، وأرسل يعقوب عشرة من أبنائه الأحد عشر الباقين إلى مصر، لأجل شراء الطعام. وفي مصر؛ ذهبوا لرؤية الوزير يوسف، الذي كان قد بلغ سن الرشد آنذاك. لم يعرف أبناء يعقوب أخاهم المفقود منذ زمن طويل، كما أن يوسف - في بادئ الأمر - لم يكشف هويته لهم، ثمّ - في مشهد مؤثّر - كشف يوسف لهم أنه أخوهم، الذي احتقروه، وباعوه بعيداً إلى العبودية.

وأخيراً؛ توحد بنو إسرائيل من جديد، وجاء الشيخ العجوز يعقوب للعيش مع كامل عائلته قُرب ابنه العظيم، في أرض غوشين [شمال مصر]. وعلى فراش موته؛ بارك يعقوب أبنائه وأحفاده، وابني يوسف منسى وأفرايم. ومن بين أنواع الشرف، نال يهوذا شرف حقّ البكورية الملكي:

[يهودا] إِيَّاكَ يَحْمَدُ إِخْوَتَكَ . يَدُكَ عَلَى قَعَا أَعْدَانِكَ . يَسْجُدُ لَكَ بَنُو آيِكَ . يَهُودَا جَرَوْا

أَسَد . مِنْ قَرِيَسَةٍ صَعَدَتْ يَا ابْنِي . جَنَّا وَرِيضٌ كَأَسَدٍ وَكَلْبَوَةٌ . مَنْ يَنْهَضُهُ؟ لَا يَزُولُ قَضِيبٌ مِنْ يَهُودَا وَمُشْتَرَعٌ مِنْ بَيْنِ رَجُلَيْهِ حَتَّى يَأْتِيَ شَيْلُونُ ، وَلَهُ يَكُونُ خُضُوعٌ شُعُوبٍ . [تكوين: 49/ 8-10] .

بعد موت يعقوب؛ استرد جسمه إلى كنعان - الأرض التي سئصبح - يوماً ما - الميراث العشايري ليهودا - ، وقام أبناؤه بدفنه في مغارة "مكفيلة" Machpelah في حبرون (الخليل) ، ثم مات يوسف أيضاً ، وبقي بنو إسرائيل في مصر؛ لبيدوا صفحات الفصل التالي من تاريخهم كأمة .

البحث بلا نتيجة عن إبراهيم التاريخي:

قبل أن تُبَيَّنَ الزَّمانُ وَالظُّروفُ التَّاريخيةُ المُحتملةُ التي نَمَّتَ فيها عَمَليةُ تَجْميعِ وَنَسْجِ قِصَّةِ الآبَاءِ التَّوراتيةِ لأوَّلِ مرَّةٍ مِنْ عَدَّةِ مِصادرٍ سَابِقةٍ ، لِأَبْدَأَنَّ نُوضِّحُ سَبَبَ اقْتِناعِ العَدِيدِ مِنَ العُلَماءِ خِلالَ المِئةِ سَنَةِ المَاضِيَةِ بِأَنَّ قِصَصَ الآبَاءِ كَانَتْ . عَلَى الأَقْلَ . مِنْ نَاحِيَةِ خُطُوطِهَا العَرِيبَةِ ، صَادِقَةٌ تَاريخياً . لَقَدْ بَدَأَ أَسْلُوبُ الحَيَاةِ الرَّعويِّ لِلآبَاءِ مُتَوافِقا . بَنَحُو كَبيرٌ ، فِي شَكْلِهِ العامِ - مَعَ ما لَاحِظَهُ عُلَماءُ آثارِ أوائلِ القَرْنِ العِشرينِ حَولَ الحَيَاةِ البَدَويَّةِ المُعاصِرَةِ فِي الشَّرْقِ الأوسَطِ . مَنَحَتِ الفِكرَةَ العِلْمِيَّةَ القائِلَةَ بِأَنَّ طَريقَةَ الحَيَاةِ البَدَويَّةِ بَقِيَتْ بَدُونِ تَغْيِيرِ جِوَهريِّ طِوالِ الألفِ عامٍ جِواً مِنَ التَّشابهِ مَعَ القِصَصِ التَّوراتيَّةِ ، الَّتِي تَتكَلَّمُ عَنِ السَّوَةِ ، الَّتِي تُقاسُ بِعَدَدِ الخِرافِ وَالعِزِزاتِ (التَّكوين 30/ 30-43) ، وَالصَّراعَتِ العِشائِريَّةِ مَعَ أهاليِ القَرَى عَلَى سَقايَةِ الآبَارِ (التَّكوين 25/ 25-33) ، وَالتَّزاعِاتِ عَلَى المِراعِي (التَّكوين 53/ 5-52) . بِالإِضافةِ لذلِكَ ؛ بَدَتِ الإِشاراتُ الواضِحَةُ إِلى بِلادِ ما بَينَ النَهْرَيْنِ وَالمواعِ السُّوريَّةِ مِثلَ مَسقطِ رَأْسِ إِبراهيمَ : أور ، وَحارانَ عَلَى أَحَدِ رِوافِدِ الفُرَاتِ (حِثُّ وَاصِلَتْ أَغلبَ عائِلَةُ إِبراهيمَ العِيشَ بَعدَ هِجرَتِهِ إِلى كَنعَانَ) ، مُتَباكِةً - تَماماً - مَعَ نَتائِجِ التَّحْقِيقِ الأَثاريَّةِ فِي القُوسِ الشَّرقيِّ لِلهلالِ الخَصبِ ؛ حَيْثُ كَانَتْ تُوجَدُ بَعْضُ المِراكِزِ القَدِيميَّةِ جِداً لِحضارةِ الشَّرْقِ الأَدنى القَدِيمِ .

رغم ذلك؛ كان هناك شيء أكثر عمقاً، ومرتبط بنحو وثيق جداً بالمعتقد الديني الحديث، حفز البحث العلمي عن الآباء التاريخيين .

لقد كان العديد من علماء الآثار التوراتيين الأوائل قد تدرّبوا - في البداية - كرجال دين ،  
 أو لاهوتيين . كانوا مُتَمَنِّين بإيمانهم بأنَّ وعدَ الله لإبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، الذي أعطى  
 حقاً خاصاً يحمله كلُّ فرد من الشعب اليهودي مع ولادته ، وهو حقُّ انتقل - فيما بعد - إلى  
 المسيحيين ، كما يوضّحه القديس بولس في رسالته إلى الغلاطيين <sup>(1)</sup> ، كان وعداً حقيقياً . وإذا  
 كان الأمر كذلك ؛ فإنّه من الواضح أنّه تمَّ منحُ هذا الوعد الإلهي لأناس حقيقيين ، وليس  
 لمخلوقات خيالية اخترعها قلمُ كاتبٍ قديمٍ مجهول .

لاحظ العالم التوراتي وعالم الآثار الفرنسي الدومنيكي 'رولاند دي فو' Roland de Vaux  
 - على سبيل المثال - أنّه إذا لم يكن للإيمان التاريخي لإسرائيل أساس تاريخي ، فإنَّ مثل  
 هذا الإيمان سيكون خاطئاً ، وبالتالي ؛ إيماناً - أيضاً - سيكون باطلاً . وقد ردّد هذا الشعور  
 عميدُ علم الآثار التوراتية ، الأمريكي 'وليام إف . أولبرايت' William F. Albright ، مُصرّاً  
 على أنّ الصورة في سفر التكوين هي - من الناحية الكلية - صورة تاريخية حقيقية ، وليس هناك  
 ما يدعو للشكِّ في الدقّة العامة للتفاصيل المتعلقة بسيرة (الأباء) .

في الحقيقة ؛ منذُ العقود الأولى للقرن العشرين ، ومع الاكتشافات الأثرية المظيمة في  
 بلاد ما بين النهرين ، وتكثّف النشاط الآثاري في فلسطين ، افتتح العديد من المؤرّخين وعلماء  
 الآثار التوراتيين بأنَّ تلك الاكتشافات الجديدة يُمكن أن تجعل من المحتمل - إنَّ لم تُثبت  
 بالكامل - أنّ الأباء كانوا شخصيات تاريخية حقيقية .

لقد حاولوا إثبات أنّ القصص التوراتية ، حتّى وإن كانت قد أُلِّفت في تاريخ متأخّر  
 نسبيّاً ؛ مثل فترة الحُكم الملكي المُتحد لبني إسرائيل ، إلّا أنّها أُنشئت - على الأقلّ - الحُطوط العامة  
 الرئيسية ، لحقائق تاريخية قديمة أصيلة .

(1) يُشير إلى ما جاء في رسالة بولس إلى أهل غلاطية ، ونصّه : [ 7 اعلموا - إذا - أنّ الذين هم من الإيمان أولئك هم  
 بنو إبراهيم . 8 والكتاب إذ سبق قرأى أنّ الله بالإيمان يبرّر الأمم ، سبق قبش إبراهيم أنّ فيك تتبارك جميع الأمم . 9  
 إذا ؛ الذين هم من الإيمان يتباركون مع إبراهيم المؤمن . . . . 14 لتصير بركة إبراهيم للأمم في المسيح يسوع ،  
 لتنال بالإيمان موعد الروح . . . 16 . وأما المواعيد ؛ فليقتل في إبراهيم وفي نسله . لا يقول وفي الأناسال كأنه عن  
 كثيرين ، بل كأنه عن واحد . وفي نسلك الذي هو المسيح . [ الإصحاح 3 / 7 و 9 و 14 و 16 . (الترجم) .

في الواقع؛ نُزودنا التوراة بالكثير من المعلومات الزمنية المحددة التي قد تُساعدنا - قبل أي شيء - على تحديد الزمن الذي عاش فيه الآباء، بالضبط وعلى وجه الدقة. تروي التوراة تاريخ بني إسرائيل القديم بترتيب زمني مُتسلسل، بدءاً من الآباء، وحتى مصر، ثمَّ حادثة الخروج، ثمَّ التيه في الصحراء، إلى غزو كنعان، ثمَّ فترة القضاة، وحتى مؤسسة الحكم الملكي. ونُزودنا التوراة بمفاتيح تُمكننا من إجراء حسابات زمنية وتاريخية دقيقة ومُحددة. أهمُّ تلك المفاتيح ما يذكره سفر الملوك الأول 1/6 من أنَّ حادثة الخروج حَدثت قبل أربعمئة وثمانين سنة من بناء الهيكل (المعبد) في أورشليم (القدس)، الذي بدأ في السنة الرابعة من عهد الملك سُلَيْمَان. ومن الجهة الأخرى؛ يذكر سفر الخروج 12/40 أنَّ بني إسرائيل عانوا العبودية في مصر لمدَّة أربعمئة وثلاثين سنة قبل الخروج. فإذا أضفنا لذلك مدَّة قصيرة؛ وهي مدَّة مِثِّي سنة للفترة المتداخلة لحياة الآباء في كنعان، قبل توجُّه بني إسرائيل إلى مصر، فنصل إلى تاريخ توراتي يضع زمن مُغادرة إبراهيم لموطنه الأصلي باتجاه كنعان في حوالي سنة 2100 ق. م.

بالطبع؛ كان هناك بعض المشاكل الواضحة في قبول مثل هذا التاريخ في عمليَّة إعادة البناء التاريخيَّة الدقيقة، ليس أقلها العُمُر الطويل جداً لحياة إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، الذي يتجاوز بالنسبة لكلِّ منهم عُمُر المئة سنة بمُدَّة مديدة. بالإضافة إلى ذلك؛ كانت سلاسل الأنساب المتأخِّرة التي تُبيِّن أحفاد يعقوب مُشوَّشة، إنَّ لم تكن تحتوي على تناقضات واضحة. على سبيل المثال: عدُّ موسى وهارون أحفاداً من الجيل الرابع لـ "ليفي" ابن يعقوب، بينما عدُّ "يشوع" - المعاصر لموسى وهارون - الحفيد من الجيل الثاني عشر ليوسف، الذي هو ابن يعقوب أيضاً! من الواضح أنَّه لا يُمكن أن نعدَّ هذا مجرد تناقض بسيط.

رغم ذلك؛ حاول العالم الأمريكي إثبات أنَّ بعض التفاصيل الفريدة في قصص الآباء في سفر التكوين قد تحمل مفاتيح دلالية تُفيد في تحقيق أساسها التاريخي. يُمكن مُطابقة عناصر مثل أسماء شخصيات مُعيَّنة، وعادات زواج غير مألوفة، وقوانين شراء الأراضي، مع سجلات تعود للآلفية الثانية ق. م لمُجتمعات بلاد ما بين النهرين، التي يُفترض أنَّ الآباء قدموا منها. ولا يقلُّ أهمية عن ذلك، وصف الآباء - بنحو واقعي - بأنَّهم كانوا يعيشون حياة بدويَّة، يرتحلون بقطعانهم في جميع أرجاء بلاد التلُّ المركزية لكنعان، بين شكيم (نابلس)، وبيت

إيل ، ويشر سيع ، وحيرون (الخليل) . لقد أقنعت كُلُّ هذه العناصر أولبرايِتَ أنَّ عهد الآباء كان عهداً حقيقياً . وبدأ هو وزملاؤه بالبحث عن دليل يُثبت وجود مجموعات رعويَّة من أصول ما بين نهرايَّة تتجول في كافَّة أنحاء أرض كنعان حوالي سنة 2000 ق . م . .

ولكنَّ البحث عن الآباء التاريخيِّين بقي بلا نتيجة ، وأثبت - في النهاية - إخفاقه ؛ حيث لم تزودنا أيُّ من الفترات الزمنيَّة - المقترحة توراتياً - بخلفيَّة متوافقة . بنحو جيد - مع القَصَص التوراتيَّة . (انظر الملحق 1 لمزيد من التفاصيل) .

لقد ثبت - علمياً - أنَّ الهجرة الغربيَّة المقترضة لمجموعات من بلاد ما بين النهرين نحو كنعان ، والتي سُميت بالهجرة العموريَّة ، والتي وصَّحَ أولبرايِت - ضمنها - هجرة إبراهيم وعائلته إلى أرض كنعان ، لم تعد كونها فكرة خادعة وهميَّة ؛ إذ فُتد علماء الآثار - بشكل كامل - الزعم بأنَّ نمَّة حركة انتقال سُكاني جماعي ومُغايب حَدثت في مثل ذلك الوقت .

والتشابهات الظاهرة بين قوانين بلاد ما بين النهرين وعادات الألفيَّة الثانية ق . م ، مع تلك الموصوفة في قَصَص الآباء كانت عامَّة جداً ؛ بحيث يُمكن أن نجد لها نظيراً في أيِّ فترة من فترات تاريخ الشرق الأدنى القديم .

إذن ؛ استخدام ورقة التواريخ لا يُقدِّم أيُّ مساعدة في المسألة . كما أخفقت - أيضاً - جميع المُحاولات اللاحقة ؛ سواء من قِبَل "دي فو" لوَضَع قَصَص الآباء في العصر البرونزي المُتوسِّط (2000 - 1550 ق . م) ، أو من قِبَل العالِمين الأمريكيِّين سبايزر ، وجوردن ، لوَضَعها في خلفيَّة تعود للقرن الخامس عشر ق . م ، استناداً لأرشيف وُجد في "توزي" Nuzi في شمال العراق ، أو من قِبَل المؤرِّخ التوراتي الإسرائيلي بنيامين مازار Benjamin Mazar لوَضَعها في العصر الحديدي المُبكر ، أخفقت في تأسيس أيِّ صلة أو دليل مُقنع . لقد كانت التشابهات التي يتمُّ إبرازها عامَّة جداً ؛ بحيث يُمكن أن يُوجد نظير لها في العديد من الفترات .

مشروع البحث كُلُّه أنتج ما يُشبه الحلقة المُفرَّقة . التَّنظُّرات العلميَّة حول عهد الآباء (الذين لم يتطرق الشكُّ - أبداً - إلى وجودهم التاريخي الفعلي) تغيَّرت - بشكل مُتواصل ، طبقاً للاكتشافات - من مُنتصف الألفيَّة الثالثة ق . م ، إلى أواخر الألفيَّة الثالثة ، إلى أوائل الألفيَّة

الثانية، إلى منتصف الألفية الثانية، إلى أوائل العصر الحديدي. كانت المشكلة الرئيسية تكمن في أن العلماء الذين قبلوا الروايات التوراتية على أنها روايات موثوقة اعتقدوا - خطأً - أن عهد الآباء يجب أن يُرى - بشكل أو بآخر - كمرحلة أسبق في التاريخ المتسلسل لإسرائيل.

### بعض المفارقات التاريخية الواضحة:

أصر علماء نقد النصوص - الذين ميزوا عدة مصادر متميزة لنص سفر التكوين - على أن قصص الآباء كُتبت في تاريخ متأخر نسبياً، في وقت الحكم الملكي (القرون من العاشر إلى الثامن ق.م)، أو حتى في وقت أكثر تأخراً؛ أي في فترة النفي وفترة ما بعد النفي (القرنان السادس والخامس ق.م).

دلل العالم التوراتي الألماني يوليوس فيلهاوزن<sup>1</sup> Julius Wellhausen على أن قصص الآباء في كلا المصدرين السوي والإيلوهي إنما عكست مخاوف الحكم الإسرائيلي الملكي المتأخر، التي تم إسقاطها على حياة الآباء الأسطوريين في ماضي أسطوري بشكل كبير. وبناء عليه؛ يجب النظر إلى القصص التوراتية كأساطير وطنية لا يزيد أساسها التاريخي على الأساس التاريخي لاسفار أوديسوس<sup>2</sup> في ملحة هوميروس<sup>3</sup> أو قصة تأسيس "أينياس" لمدينة روما في ملحة فيرجيل<sup>4</sup> Virgil.

في العقود الأكثر حداثة؛ تحدى العالمان التوراتيان الأمريكيان "جون فان سترز" John Van Seters و"توماس طومسن" Thomas Thompson الدلائل الأثرية المفترضة على تعيين زمن وجود الآباء التاريخيين في الألفية الثانية ق.م. . لقد جادلوا بأنه حتى إذا احتوت النصوص التالية بعض التقاليد المبكرة، فإن اختيار القصص وترتيبها كان تعبيراً عن رسالة واضحة أراد محررو التوراة أن يوصلوها عندما قاموا بجمعها وتدوينها، أكثر من كونه محافظة منهم على روايات تاريخية موثوقة.

لكن؛ متى حدث ذلك التجميع والتدوين؟ يكشف النص التوراتي عن بعض المؤشرات الواضحة التي يمكن أن تضيق الفترة الزمنية لوقت تأليفها النهائي. خذ مثلاً الذكر المتكرر للجمال. إن قصص الآباء مكتظة بذكر الجمال، وعادة؛ تذكر قطعان الجمال؛ لكن؛ كما في

قصة يبع أخوة يوسف، إياه عبداً (التكوين 37 / 25)، وُصفت الجمال - أيضاً - كدواب تُستخدم لحمل الأثقال في تجارة القوافل . ونحن نعرف - الآن - من خلال الأبحاث الأثرية أن الجمال لم يتبدئ استخدامها كدواب لحمل الأثقال قبل أواخر الألفية الثانية، ولم يتشتر استعمالها إلى ذلك الحد الكبير في الشرق الأدنى إلا بعد فترة لا بأس بها من سنة 1000 ق.م. . والتفصيل الأكثر دلالة في قصة يوسف هو ما ذكر فيها من أن قافلة الجمال كانت تحمل كمثيرة وكثيرة وبكثارة ولذاتاً، الأمر الذي يكشف ألفة واضحة بالمنتجات الرئيسية للتجارة العربية المربحة، التي ازدهرت تحت إشراف الإمبراطورية الآشورية في القرنين الثامن والسابع ق.م. .

في الحقيقة؛ لقد كُشف التقيب في موقع تل جمة Tell Jemmeh في السهل الساحلي الجنوبي لإسرائيل (يقصد: فلسطين المحتلة). والذي كان يُشكل مخزناً مهماً جداً على طريق القوافل الرئيسي بين الجزيرة العربية والبحر الأبيض المتوسط. كُشف عن زيادة مثيرة في عدد عظام الجمال في القرن السابع ق.م. . كانت العظام كلها - تقريباً - لحَيوانات بالغة، مما يُفيد بأنها كانت من الدواب المستخدمة لحمل الأثقال في الأسفار، وليست من القطعان التي يتم تربيتها محلياً، (وإلا لوجد بينها عظام حيوانات صغيرة أيضاً).

في الحقيقة؛ بالضبط في هذا الوقت، تصف مصادر آشورية الجمال بأنها تُستعمل كحيوانات حمل في القوافل. في الواقع؛ لم تُصبح الجمال جزءاً شائعاً جداً من المنظر الطبيعي للحياة - بحيث يتم تضمينها كتفصيل عرضي في قصة أدبية - إلا في ذلك الزمن فقط.

ثم هناك قضية الفلسطينيين. نسمع عنهم عند الحديث عن لقاء إسحاق مع أبيمالك ملك الفلسطينيين في مدينة جِرارَ Gerar (تكوين 1 / 26). لم يُؤسس الفلسطينيون - الذين كانوا مجموعة من المهاجرين من بحر إيجة أو من شرق البحر الأبيض المتوسط - مستوطناتهم على طول السهل الساحلي لكنعان إلا بعد مُضي مُدة من عام 1200 ق.م. . ثم ازدهرت مُدنهم في القرنين الحادي عشر والعاشر ق.م، وواصلت السيطرة على المنطقة - بشكل جيد - حتى الفترة الآشورية. إن ذكر مدينة جِرارَ كمدينة فلسطينية في قصة إسحاق، وذكر المدينة (بدون الصفة الفلسطينية) في قصة إبراهيم (تكوين 1 / 20) يُفيد بأنه كانت لها في ذلك الحين



أهمية خاصة، أو على الأقل؛ أنها كانت معروفة على نحو واسع في وقت تأليف قصص الآباء. اليوم يطابق علماء الآثار "جرار" على تل حرور Haror في المنطقة الشمالية الغربية لمدينة بئر سبع؛ حيثُ أظهرت التنقيبات الأثرية هناك بأنه في العصر الحديدي الأول. أي المرحلة المبكرة من التاريخ الفلسطيني. لم تكن "جرار" أكثر من قرية صغيرة وتافهة جداً. ولكنها أصبحت. في نهاية القرن الثامن وفي القرن السابع ق. م. حصناً ومَعْقلاً إدارياً آشورياً قوياً في الجنوب، وبالتالي؛ أصبحت معلماً واضحاً.

هل كانت تلك التفاصيل المتعارضة مجرد إقحامات متأخرة في تقليد نصيٍّ مبكر، أم أنها مؤشرات تدلُّ على أن كلا القصة نفسها وتفاصيلها كانا متأخرين؟ عدَّ العديد من العلماء، خصوصاً أولئك الذين دعموا فكرة تاريخية الآباء، تلك التفاصيل عَرَضِيَّة، لكن؛ كما بين ثوماس طومسن منذ السبعينات، الإشارات المعينة في النصِّ إلى مدُن، وشُعوب مجاورة، وأماكن مألوفة هي. بالضبط. السمة التي تُميز قصص الآباء عن القصص الشعبية الأسطورية بشكل كامل. لذلك فهي ذات أهمية حاسمة جداً في تمييز تاريخ ورسالة النصِّ. وبكلمة أخرى؛ إن "المُتَارِقَاتِ التَّارِيخِيَّةِ" ذات أهمية، في فهم المعنى والسياق التاريخي لقصص الآباء، أكثر بكثير من البحث عن البدو القدماء، أو من الحسابات الرياضية لأعمار الآباء وسلاسل أنسابهم.

هذه المؤشرات. إذا وضعت إلى جانب بعضها البعض؛ أي: ذكر الجمال، والسَّلْعِ العَرَبِيَّةِ، والفلسطينيون، ومدينة جرار، بالإضافة للأماكن والأسم الأخرى التي وردَّ ذكرها ضمن قصص الآباء في سفر التكوين. تُعطي مغزى ودلالة هاميين جداً. إنها تشير إلى أن زمن تأليف تلك القصص إنما يقع في زمن متأخر بعدة قرون عن الزمن الذي تُحدِّد التوراة عيش الآباء فيه. هذه المؤشرات وغيرها من المُتَارِقَاتِ التَّارِيخِيَّةِ تقترح أن الفترة الزمنية المركزية لتدوين قصص الآباء إنما تقع في القرنين الثامن والسابع ق. م..

خريطة حية للشرق الأدنى القديم:

عندما نبدأ بقصص سلاسل أنساب الآباء والأسم العديدة التي نشأت عن لقاءاتهم، وزيجاتهم، وعلاقاتهم العائلية، يظهر لنا. بوضوح. أنها تُقدِّم خريطة إنسانية ملونة للشرق

الأدنى القديم من وجهة نظرٍ - لا يمكن أن نُخطئها - لمملكتي "إسرائيل" و"يهوذا" في القرنين الثامن والسابع ق. م. . . تُقدّم هذه القصص تفسيراتٍ متطورةً جداً عن الشؤون السياسية في هذه المنطقة في الفترتين - الآشورية، والبابلية - الجديدة.

يُمكن إرجاع العديد من المصطلحات الإثنية (العرقية)، وأسماء الأماكن إلى تلك الفترة، وليس هذا فحسب، بل إن أوصاف وخصائص تلك الأعراق والأماكن تنطبق - بشكلٍ مثاليٍّ - على ما نعرفه اليوم من طبيعة العلاقات التي كانت بين مملكتي "يهوذا" و"إسرائيل" والشعوب المجاورة لها.

دعنا نبدأ بالآراميين، الذين يُهيمنون على قصص زواج يعقوب بـ "ليثة" و"زاحيل"، وعلاقة يعقوب مع خاله "لابان". لم يُذكر الآراميون كمجموعة عرقيةٍ متميزة في أي نصٍّ من نصوص الشرق الأدنى القديم قبل سنة 1100 ق. م. . . وقد أصبحوا عاملاً مهمماً على الحدود الشمالية للإسرائيليين في أوّل القرن التاسع ق. م، عندما برزت عدّة ممالك آرامية في كافة أنحاء منطقة سوريا الحديثة، كانت إحداها مملكة آرام دمشق، التي كانت حليفةً لمملكة إسرائيل تارةً، وطوراً منافسةً لها على السيطرة على الأراضي الزراعية الغنيّة التي تقع بين مراكزهما الرئيسيّة، في أعلى وادي الأردنّ والجليل.

في الحقيقة؛ تعكس دورة قصص يعقوب ولابان - بنحو استعاريٍّ - العلاقات المعقّدة، والعاصفة - في أغلب الأحيان - بين آرام وإسرائيل عبر قرونٍ عديدة.

من جهة؛ كانت مملكتنا إسرائيل وأرام - في كثير من الأوقات - نديين عسكريين متصارعين. ومن الجهة الأخرى؛ كان معظم سكّان الأراضي الواقعة شمال مملكة إسرائيل من أصولٍ آرامية. لذا؛ فقد ذهب سفر التثنية إلى أبعد من ذلك، عندما وصّف يعقوب نفسه بأنّه كان "آرامياً نائها" (سفر التثنية: 5/26). تُعبّر قصص العلاقات بين الآباء القرديين وأبناء عموماتهم الآراميين - بشكلٍ واضح - عن وعي بأصول عرقيةٍ مشتركة.

إنّ الوصف التوراتي للعلاقات المتوتّرة بين يعقوب ولابان وقيامهما - في النهاية - بتأسيس حدودٍ حجريةٍ شرقي الأردنّ لرسم الحدود بين شعبيهما (تكوين 31 / 51 - 54، مصدر إيلوهي

بشكل ملحوظ، أو قصة "شمالية") يعكسان التقسيم الإقليمي بين آرام وإسرائيل في القرنين التاسع والثامن ق. م. .

انعكست علاقات إسرائيل ويهوذا مع جيرانها الشرقيين - أيضاً، بشكل واضح - في قصص الآباء. كانت علاقاتها مع مملكتي عمون وموآب - خلال القرنين الثامن والسابع ق. م، في أغلب الأحيان - علاقات عداوية.

في الواقع؛ لقد سيطرت إسرائيل على موآب في أوائل القرن التاسع ق. م. . لذا؛ فإن الاستخفاف والتحقير الذي نلاحظه في عرض شجرة نسب أجداد أولئك الجيران الشرقيين له مغزى كبير ومضحك بالوقت نفسه. يُخبرنا سفر التكوين (19 / 30-38) (يُلاحظ أنه نص يهوي) بأن هذه الأمم وكُدت نتيجة علاقة زنا بين المحارم؛ حيث يُذكر أنه - بعد أن دمر الله مدينتي سدوم وعمورة - لجأ لوط وابتاه إلى مغارة في أحد التلال. ولما لم تكن البنتان قادرتين على أن تجدوا زوجاً مناسباً في هذا المكان المنعزل، قامت كل واحدة منهما بتقديم الخمر لبيها، حتى سكر، فضاجعتاه؛ لتلد ابنتين: موآب وعمون<sup>(1)</sup>.

لاشك أن أي يهودوي (أي فرد من أهالي يهوذا) في القرن السابع قبل الميلاد، لا يمكنه - عندما ينظر عبر البحر الميت إلى المملكتين المعاديتين اللتين تقعان شرقه - أن يخفي اغتباطه، لسماح مثل هذه القصة الفاضحة عن نسب أجدادهما.

تقدم قصة الأخوين - يعقوب وعيسو في التوراة - حالة أكثر وضوحاً - أيضاً - عن تصورات القرن السابع، التي تسم عرّضها بلباس قديم. يُخبرنا سفر التكوين: الإصحاحان 25 و27

(1) النص التوراتي لهذه القصة هو التالي: [ صعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابتاه معه لأنه خاف أن يسكن في صوغر. فسكن في المغارة هو وابتاه. 31 وقالت البكر للصغيرة: ألبوا قد شاخ وليس في الأرض رجل يدخل علينا كمادة كل الأرض. 32 هلم نسعي أبانا خمرًا ونضطجع معه فنحبي من ابنا نسلا. 33 فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. 34 وحدث في القدر أن البكر قالت للصغيرة: ألي قد اضطجعت البارحة مع أبي. نسفه خمرًا الليلة أيضا فادخلي اضطجعي معه فنحبي من ابنا نسلا. 35 فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة أيضا وقامت الصغيرة واضطجعت معه ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها 36 فحبلت ابنتا لوط من أبيهما. 37 فولدت البكر ابنا ودعت اسمه موآب - وهو أبو الموآبيين إلى اليوم. 38 والصغيرة أيضا وكُدت ابنا ودعت اسمه بن عمي - وهو أبو بني عمون إلى اليوم. ] سفر التكوين: 19 / 30-38. (المترجم).

(نصّ جنوبي، يَهْوي) عن التّوأم عيسو ويعقوب، اللّذين أوشكا أن يُولدا لإسحاق و"ريبيكا". يقول الله لريبيكا الحُبلى: في بطنك أُمَّتان، ومن أحشائك يَفْتَرِقُ شَعَبان: شَعْب يَهْوي عَلى شَعْبٍ، وكبيرٌ يُسْتَعْبَدُ لِصَغِيرٍ (تكوين 25/ 23). عندما تجلّى الأحداث، نتعلّم بأنّ عيسو كان هُوَ الكبير، ويعقوب كان الأصغر. وبهذا؛ يُستخدَم هذا الوَصْفُ للأخوين اللّذين يُمثّلان جَدَيّ أدوم وإسرائيل، لإضفاء مشروعيّةٍ مُقدّسة على العلاقة السّياسيّة بين الأُمّتين في أواخر الفترة الملكيّة. يعقوب-إسرائيل-حسّاس ومُتّقف، بينما عيسو-أدوم-صيّاد أكثر بدائيّة، ورجل النّزهات خارج المنزل. ولكن أدوم لم تنشأ-ككَيّانٍ سياسيٍّ مُتميّز- حتّى فترة متأخّرة نسبياً.

تُفيد المصادر الآشوريّة أنّه لم يكن هناك مُلوك حقيقيّون، ولا دولة لأدوم قبل أواخر القرن الثامن ق. م. . ولا تظهر أدوم في السّجلات القديمة ككَيّانٍ مُتميّزٍ إلاّ بعد غزوة الإمبراطوريّة الآشوريّة للمنطقة، كما أنّها لم تُصبح مُنافساً جدّياً لدولة يهوذا إلاّ في بداية التّجارة العرَبيّة المُرِحة.

إنّ الدّلائل الأثاريّة واضحة أيضاً: كانت أوّل موجة واسعة النّطاق من الاستيطان في أدوم، والتي كانت مصحوبة بتأسيس مُستوطنات وقلاع كبيرة، لربّما بدأت في أواخر القرن الثامن ق. م، ووصّلت إلى ذروتها في القرن السّابع وأوائل القرن السّادس ق. م. . أمّا قبل ذلك؛ فلم تكن المنطقة مأهولة إلاّ بشكّل ضعيف ومُتناثر. وكشّفت أعمال التّقيب في بصرى-عاصمة أدوم، في أواخر العصر الحديدي الثّاني- أنّها لم تُصبح مدينة كبيرة إلاّ في الفترة الآشوريّة.

وهكذا؛ فهنا. أيضاً- عُثِرَ صياغة قصّة يعقوب: الابن الحسّاس، وعيسو: الصيّاد العنيف- بشكّل ماهر- لتبدو كقصّة أسطوريّة قديمة؛ لتعكس تناقُسات الفترات الملكيّة المتأخّرة.

شُعوب الصّحراء والإمبراطوريّات الشّرقيّة:

خلال القرنين الثّامن والسّابع ق. م، كانت التّجارة المُرِحة، لقوافل التوابل والبُخور النّادر، بين جنوب بلاد العرَب (الجزيرة العرَبيّة) وموانئ البحر الأبيض المُتوسّط، مُروراً بالصّحاري والحُدود الجنوبيّة ليهوذا، عاملاً هاماً في الحياة الاقتصاديّة لكُلّ المنطقة. بالنّسبة

لاهالي يهوذا؛ كان وجود عدد من الناس ذوي الأصول البدوية أمراً حاسماً في هذا النظام التجاري البعيد المدى.

تقدم لنا سلاسل الأنساب المتعددة المذكورة في قصص الآباء (في سفر التكوين) صورة مُصَلِّة عن شعوب الصحاري الجنوبية والشرقية خلال الفترة المتأخرة من العهد الملكي، وتشرح - مرة ثانية من خلال استعارة علاقات عائلية - الدور الذي لعبته في تاريخ يهوذا المعاصر. يصف سفر التكوين - بشكل خاص - إسماعيل، الابن المُحتَقَر لإبراهيم وهاجر، على أنه جدُّ العديد من القبائل العربية التي سكنت الأراضي الواقعة على الحافة الجنوبية ليهوذا. إن الصورة أبعد ما تكون عن الصورة الجذابة. يُوسف في سفر التكوين بأنه هائم (جوال في الصحاري) بشكل دائم، [وإنه يكون إنساناً وخشياً يده على كلِّ واحد (أي ضدَّ كلِّ واحد)، ويَدُّ كلِّ واحد عليه، وأمامَ جميع إخوته يسكن] (تكوين 16 / 12)، (لا عجب أن يكون النصُّ وثيقة يهووية). وكان من بين أبنائه العديدين، تلك القبائل الجنوبية المختلفة التي أقامت اتصلاً جديداً مع يهوذا في الفترة الآشورية.

مثلاً؛ أحد أحفاد إسماعيل الذين أدرجوا في سفر التكوين 12 / 25، هم بنو قيدار (من ذرية ابنه قيدار)، وهؤلاء نجد لهم ذكراً لأول مرة في سجلات آشورية، تعود لأواخر القرن الثامن ق. م.، ونجد إحالات متكررة إليهم في عهد حكم الملك الآشوري آشورنيريبل في القرن السابع ق. م. . أما قبل ذلك الوقت؛ فكان بنو قيدار يعيشون في منطقة بعيدة عن اليهودية، وعن اهتمام إسرائيل المباشر؛ إذ كانوا يحتلون الحافة الغربية للسهل الخصيب. على النمط نفسه، يمثل أبناء إسماعيل أدبيل Adbeel ومبسأم Nebaioth مجموعات عربية شمالية، تُذكر - أيضاً - في نقوش آشورية، تعود لأواخر القرن الثامن، وأوائل القرن السابع.

وأخيراً؛ من المحتمل جداً أن يرتبط ابن إسماعيل تيمًا Tema بواحة القوفل العظيمة لتيماء في شمال غرب جزيرة العرب، والتي تذكرها المصادر الآشورية والبابلية المائدة للقرن من الثامن إلى السادس ق. م.؛ حيث كانت أحد المركزين الحضريين الرئيسيين في شمال جزيرة العرب منذ عام 600 ق. م.، وحتى القرن الخامس ق. م. . ومن المجموعات الأخرى التي

ذُكرت في سفر التكوين - أيضاً - (التكوين 3/25) قبيلة 'شبا'، التي كانت تعيش - أيضاً - في شمال بلاد العرب. بما أنه لم يكن لأي من تلك الأسماء المحددة للشعوب أو الجماعات البشرية أهمية، بل حتى لم يكن لها وجودٌ - أصلاً - في تجربة شعب إسرائيل قبل الفترة الآشورية، لذا؛ لن يُوجد أدنى شك بأن فقرات سلاسل الأنساب هذه إنما أُلّفت في زمن يقع بين أواخر القرن الثامن والقرن السادس ق. م. (1).

تُفيد أسماء أماكن أخرى وُزِدَ ذكرها في قصص الآباء تتعلق بالصحراء والبرية المحيطة في التأكيد الإضافي على تاريخ تأليف أسفار التوراة. تكوين 14، تُعدُّ قصة الحرب الكبرى التي شنها غزاة من الشمال (تحت القيادة الغامضة لـ "كَدْرَكَوَمَر" Chedorlaomer ملك عيلام في بلاد ما بين النهرين) مع ملوك مُدُن السهل - الوارد ذكرها في الإصحاح 14 من سفر التكوين - مصدرًا فريدًا في ذلك السفر، ربما يعود تاريخه للفترة التي سبقت النَّفي، أو التي تلتها، لكنه يُزوّدنا بمعلومات جغرافية هامة، لا يمكن أن يكون لها معنى إلا في القرن السابع ق. م. .

تُشير عبارة: "عين مشقّاط (التي هي قادش)"، الواردة في سفر التكوين 7/14 - على الأغلب - إلى "قادش برنيع"، الواحة العظيمة في الجنوب التي تلعب دورًا مهمًا في قصة الحُرُوج. ولقد طابقتها علماء الآثار مع "أم القديرات" الواقعة في شرق سيناء، وهو موقع تمّ تنقيبه، وتبين أنه كان قد سكن لأول مرة، في القرن السابع، وأوائل القرن الثامن قبل الميلاد. وعلى المنوال نفسه؛ الموقع المدعو (تامار) في الآية التوراتية نفسها، ينبغي - على الأغلب - مطابقتها مع "عين حسيما" في وادي عربة الشمالي؛ حيث كُشِّفَت التقيّبات الأثرية عن حصن كبير، كان يُؤدّي وظيفته - بشكل رئيسي - في العصر الحديدي المتأخّر.

(1) من المهم أن نلاحظ أن بعض مواد سلاسل الأنساب في سفر التكوين، مثل قائمة أبناء إسماعيل، تعود للمصدر الكهنوتي الذي يعود تاريخه - بشكل رئيسي - إلى الفترة التالية للنفي. بينما يُجادل بعض العلماء بأن المصدر الكهنوتي طبقة ملكية متأخرة، قد تعكس - فعلاً - اهتمامات وحقائق يهودًا في القرن السابع قبل الميلاد، بل من المحتمل أن تكون بعض التلميحات تعكس حقائق للقرن السادس ق. م. . ولكن؛ لا يُوجد - بشكل من الأشكال - أي دليل مُتّبع يُفسّر ذكر كل تلك الشعوب المتجولة في الصحراء في سلاسل الأنساب الأبوية سوى أن يكون ذكرها محاولات أدبية متأخرة لدمجها على نحو منظم في تاريخ إسرائيل المبكر]. (المؤلف).

وبناءً عليه؛ فإنَّ الجغرافيا - وحتَّى الحالة الأساسية للصِّراع المُخيف مع غازٍ من بلاد ما بين النهرين - كانت ستبدو مألوفة على نحو الإنذار بالخطر والسُّوء، بالنسبة لشعب مملكة يهوذا في القرن السابع ق. م.

وليس هذا كلُّ شيء، بل تكشف قِصص سفر التكوين عن معرفة واضحة جداً بمواقع وشهرة الإمبراطوريتين الآشورية والبابلية في القرون من التاسع إلى السادس قبل الميلاد؛ حيثُ جاء ذكر الإمبراطورية الآشورية تحديداً بعلاقة مع نهر دجلة، وذلك في سفر التكوين 14/2، كما ذُكرت اثنتان من العواصم الملكيّة للإمبراطورية الآشورية - أي نينوى (المعروف أنّها عاصمة الإمبراطورية خلال القرن السابع قبل الميلاد) وكالا (سلفها) - في سفر التكوين 11/10، (وكلاهما وثيقة يهويّة). كما تلعب مدينة حاران دوراً مهمّيناً في قِصص الآباء. ويقع هذا الموقع - والذي ما يزال حتّى يومنا هذا يُسمّى 'إسكي حاران' (أي حاران القديمة) - في جنوب تركيا، على الحدّود مع سوريا، وقد ازدهر هذا الموقع في أوائل الألفية الثانية قبل الميلاد، ثمَّ ازدهر - مرّة ثانية - في العهد الآشوري الجديد.

وأخيراً؛ تذكر النصوص الآشورية مدناً في منطقة حاران تحمل أسماء تُشبه - حدّ كبير - أسماء أجداد إبراهيم؛ مثل: 'تارح' و'تأحور' و'سروج' (سفر التكوين: 11/22-26، مصدر كهنتوتي). ويُحتمل أنّهم كانوا الأسلاف الرّمزيين لتلك البلدات.

مصير يهوذا:

دُلل العالم التوراتي الألماني مارتن نوث Martin Noth - منذ زمن بعيد - على أنّ قِصص أحداث الفترة الباكّة من تاريخ بني إسرائيل - أي قِصص الآباء، والحُرُوج، والّتيه في صحراء سيناء - لم تُؤلّف دفعةً واحدةً، بل حاول أن يُبيّن أنّها كانت - بدايةً - تقاليد متّصلة لقبائل فردية، ثمَّ تمَّ تجميعها ضمن قصة واحدة، لتخدم هدفاً سياسياً؛ هو توحيد الجماعات الإسرائيليّة المتناثرة، وغير المتجانسة.

في رأيه؛ تُقدّم البُرة الجغرافيّة لكلِّ دورة من دورات القِصص، وخاصةً قِصص الآباء، مؤشراً مهمّاً على مكان تأليفها، وليس - بالضرورة - على المكان الحقيقي لوقوع أحداثها. تمَّ

تأليف كثير من القصاص المرتبطة بإبراهيم، في الجزء الجنوبي من المنطقة المرتفعة (منطقة التلال أو الهضاب) لا سيما منطقة حبرون (الخليل) جنوب يهوذا.

أما إسحق؛ فيرتبط بحافة الصحراء الجنوبية لليهوذا؛ وخاصةً بمنطقة بير سبع. وعلى العكس من ذلك؛ تقع نشاطات يعقوب. في أغلبها. في منطقة الهضبة الشمالية والضفة الغربية لنهر الأردن، وهي مناطق كانت. دائماً. موضع اهتمام خاص من قبل مملكة إسرائيل الشمالية. وعليه؛ فقد اقترح ثوث بأن الآباء كانوا. في الأصل. أسلافاً إقليميين منفصلين عن بعضهم تماماً. ثم. في النهاية. تم الجمع بينهم ضمن سلسلة أنساب واحدة، في محاولة لخلق تاريخ موحد.

لقد أصبح من الواضح. الآن. أن اختيار إبراهيم. ذي الارتباط الوثيق بمنطقة حبرون (الخليل)، المدينة الملكية الأولى لمملكة يهوذا، وبأورشليم (القدس) (أو مدينة سالم كما في سفر التكوين 13/ 18). إنما كان الهدف منه التأكيد على سيادة وأولوية مملكة يهوذا، حتى في أبكر أيام تاريخ مملكة إسرائيل. إن هذا يشبه. إلى حد كبير. أن يقوم كتاب أمريكي، أثناء وصفه للتاريخ قبل الكولومبي لأمريكا، بإيلاء "جزيرة مانهاتن" أو "المنطقة التي ستصبح. فيما بعد. ولاية واشنطن دي سي" اهتماماً خاصاً واستثنائياً. إن المعنى السياسي المشار إليه لإقحام مثل هذا التفصيل في قصة طويلة، أقل ما يقال فيه أنه يضع علامة سؤال على مصداقيتها التاريخية.

كما سنرى. بتفصيل أكبر. في الفصول القادمة، كانت مملكة يهوذا مملكة منعزلة وقليلة السكّان حتى القرن الثامن قبل الميلاد، وكانت ضعيفة، ولا تُقارن من ناحية الأراضي، أو الثروة، أو القوة العسكرية بمملكة إسرائيل. كان عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة في مملكة يهوذا قليلاً جداً، ولم تكن عاصمتها أورشليم سوى قرية نائية وصغيرة في منطقة هضبية. ولكن؛ عندما قام الآشوريون بتصفية مملكة إسرائيل سنة 720 ق. م، نمت يهوذا. بشكل كبير. في عدد سكّانها، وطوّرت مؤسسات حكومية معقدة، وبرزت كقوة ذات أهمية في المنطقة. كان يحكم مملكة يهوذا سلالة قديمة، كما كانت تمتلك أهم وأقدم هيكل (معبد) لإله إسرائيل بقي حياً إلى حينه. وبناءً عليه؛ طوّرت مملكة يهوذا، في القرن الثامن والسابع ق. م، شعوراً



فريداً بأهميتها ورسالتها الإلهية المقدسة. لقد رأت في بقائها نفسه شاهداً على إرادة الله، منذ عهد الآباء، أن تحكم يهوذا كل أرض إسرائيل (يقصد: فلسطين الحالية المحتلة)، لقد رأت يهوذا نفسها - ككيان إسرائيلي وحيد بقي على قيد الحياة، ويشعور أكثر أرضية أو دنيوية - الوريث الطبيعي للأراضي الإسرائيلية، ولسكان إسرائيل، الذين نجوا، ويقوا أحياء، بعد المذبحة الآشورية. وبناءً عليه؛ كانت هناك - إذن - حاجة ملحة لتعبير يتم بطريقة قوية عن هذا، ويُقدّم لشعب يهوذا، ولسائر الجماعات الإسرائيلية المتناثرة الخاضعة للحكم الآشوري؛ من هنا؛ ولدت فكرة الجامعة الإسرائيلية (أو القومية الإسرائيلية) التي تقع مملكة يهوذا في مركزها.

بهذا؛ تُصورُ قصصُ الآباء أسلافاً موحدين للشعب الإسرائيلي، يصلون - في نهايتهم - إلى 'إبراهيم': أكثر الآباء يهودوية (أي انتساباً إلى دولة يهوذا). ومع ذلك؛ ورغم أن قصص سفر التكوين تدور - بشكل رئيسي - حول يهوذا، إلا أنها لا تهمل تشريف التقاليد الإسرائيلية الشمالية. وفي هذا الإطار؛ نفهم مغزى قيام إبراهيم ببناء مذابح لتقديم القرابين ليهوه في شكيم (نابلس)، وبيت إيل (تكوين 7/12 - 8)، وهما أهم مركزين للعبادة في المملكة الشمالية (13/18)، وكذلك في حبرون (الخليل) (تكوين 13/18)، وأهم مركز في دولة يهوذا بعد أورشليم (القدس).

إذا؛ تُؤدّي شخصية إبراهيم وظيفته الموحدين التقليديين الشمالي والجنوبي، والمنسحق لجزر يصل الشمال بالجنوب. حقيقة أن إبراهيم يُقدّر لتأسيسه المذابح في بيت إيل وشكيم، يُعدّ شهادة واضحة على الادعاء اليهودوي أنه حتى أماكن العبادة التي تلوّنت بعبادة الأصنام أثناء حكم الملوك الإسرائيليين، كانت - في الأصل - أماكن مقدّسة بنحو شرعي، ومرتبطة بالأب الجنوبي<sup>(1)</sup>.

(1) مثال آخر على توحيد التقاليد الشمالية والجنوبية تحت السيادة اليهودية؛ موقع قبور الآباء. يقع هذا المكان المقدس الذي دُفن فيه إبراهيم وإسحق (بطلان جنويان) وكذلك يعقوب (بطل شمالي) في مدينة حبرون (الخليل)، وهي - تقليدياً - ثاني أهم مدينة في منطقة الهضاب ليهوذا. إن قصة شراء قبر الآباء تُنسب - عموماً - إلى مصدر كهنتي، والذي يبدو أنه يتضمن أكثر من طبقة تاريخية واحدة. وإذا كان هذا النص التقليدي ملكياً متأخراً في أصله (رغم أن روايته النهائية جاءت في وقت لاحق)، فإنه تعبير واضح عن مركزية يهوذا وعلوّها على الشمال. صفة الأرض الخاصة المذكورة في القصة لها مؤازرات قوية في الفترة البابلية الجديدة، وهذا مؤشر آخر على الحقائق المتأخرة التي تكمن وراء قصص الآباء.. (المؤلف).

من الممكن جداً، بل من المحتمل أن تكون الحوادث الفردية في قصص الآباء مستندة إلى تقاليد محلية قديمة، إلا أن طريقة توظيفها وترتيبها تحولها إلى تعبير قوي عن أحلام القرن السابع اليهودية.

في الحقيقة؛ لم يكن من الممكن تأكيد تفوق دولة يهوذا على كل الدول الأخرى بنحو أكثر قوة من البركة الأخيرة التي أعطاها يعقوب لابنيه، كما سبقت الإشارة إليه. ورغم أن الأعداء يضغطون من كل جانب، فإن يهوذا موعودة بأنها لن يطاح بها، أو لن تسقط أبداً.

لذا؛ يجب اعتبار تقليد قصص الآباء نوعاً من التاريخ السابق "الديني" لإسرائيل، لعبت فيه مملكة يهوذا دوراً حاسماً. إن تلك القصص تصف التاريخ المبكر جداً للأمم، وتحدد حدودها العرقية، وتؤكد بأن الإسرائيليين كانوا غرباء، وليسوا جزءاً من السكان الأصليين لكنعان، وتعتنق كلا تقليدي الشمال والجنوب، مع التشديد - في النهاية - على تفوق يهوذا<sup>(1)</sup>.

في الشواهد - التي تقبل أنها متجزئة، للرواية الإيلوهية لقصص الآباء، والتي من المفترض أن يكون تأليفها قد تم في المملكة الشمالية لإسرائيل قبل دمارها عام 720 ق.م - لا تلعب قبيلة يهوذا أي دور تقريباً، لكن؛ في نهاية القرن الثامن، وبالتأكيد في القرن السابع ق.م، أصبحت يهوذا مركز ما تبقى من الأمة الإسرائيلية. في ضوء ذلك؛ يجب أن نعدّ الرواية اليهودية لقصص الآباء محاولة أدبية لإعادة تعريف وحدة شعب إسرائيل، بدلاً من النظر إليها على أنها سجل دقيق لحياة أشخاص تاريخيين عاشوا قبل أكثر من ألف سنة.

كانت القصة التوراتية للآباء ستبدو مألوفة - بشكل كبير - لشعب يهوذا في القرن السابع ق.م. . في تلك القصص، الشعوب المألوفة والأعداء المهددون بالخطر في الزمن الحاضر، تمّ رصفها حول معسكرات ومراعي إبراهيم وذريته. إن "بانوراما" (أو المنظر الكلي) لقصص

(1) [لما كان المصدر الكهنوتي للتوراة يؤرخ من قبل أكثر العلماء إلى فترة ما بعد النبي، والتفتح النهائي للتوراة يفترض أنه حدث في تلك الفترة أيضاً، فإننا نواجه - هنا - سؤالاً جديداً حول ما إذا كنا نستطيع أن نتعرف على طبقة تنتمي لمرحلة بعد النبي في قصص سفر التكوين؟ من عدة نواح، كانت حاجات الجماعة اليهودية في فترة ما بعد النبي مشابهة تماماً لضرورات الدولة الملكية المتأخرة، لكن؛ رغم ذلك، كما نحاول أن نثبت هنا، فإن الإطار الأساسي والتدوين الابتدائي لقصص الآباء يشير - بشكل واضح - إلى أصل ينتمي للقرن السابع ق.م. ] (المؤلف).

الآباء يُشبه رؤية رومانسية كحلّم، للماضي الرَّعوي، تلاثم- بشكّل خاصّ- الحلقية الرَّعوية  
نسبة كبيرة من سكّان يهوذا<sup>1</sup>. لقد تمّ حبكها من الذّكرة، مع نصف من العادات القديمة، ومن  
أساطير ولادة شعوب، ومن المخاوف التي كانت تُثيرها النزاعات المعاصرة<sup>(1)</sup>.

تدلّ المصادر والأحداث العديدة جدّاً- التي دُمجت مع بعضها- على غنى التقاليد، التي  
استندت إليها القصة التوراتية، وعلى تنوع المُخاطبين- من أهالي يهوذا وإسرائيل- الذين قُصد  
[سماحهم تلك القصص.

### سفر التكوين كمقدمة تمهيدية؟

رغم أنّ قصص سفر التكوين تدور حول يهوذا- وإذا كانت قد كُتبت في القرن السابع  
ق. م، أيّ قريباً من وقت تأليف التاريخ التثني- فكيف تسنّى أن تكون تلك القصص بعيدة  
إلى هذه الدرّجة عن أفكار سفر التثنية، مثل مركزية العبادة، ومركزية أُورشليم (القدس)؟ بل  
تبدو قصص سفر التكوين مُروّجةً لأماكن العبادة الشماليّة؛ مثل بيت إيل وشكيم (نابلس)  
وتصف تأسيس مذابح تقديم القرابين في الكثير من المناطق عدا أُورشليم (القدس). ربّما  
يجب أن نرى هنا محاولة لتقديم تقاليد الآباء كنوع من التاريخ السّابق التثوي، قبل أُورشليم

(1) [تتمكّن مطّوحات يهوذا الإقليميّة، في القرن السابع ق. م. لاسترداد الأراضي الإسرائيليّة التي استولى عليها  
الآشوريّون، في قصة إبراهيم أيضاً. في قصة الحرب الكبرى المذكورة في سفر التكوين 14، يُلاحق إبراهيم ملوك بلاد  
ما بين النهرين الذين أسروا ابن أخيه "لوط"، ويطاردهم على طول الطريق المؤدّي إلى دمشق ودان (14/14-15). في  
هذا الفعل؛ يُحرّر قريبه من عبودية بلاد ما بين النهرين، ويتردّد قوأت أجنبيّة من الحُدود التي ستصبح- لاحقاً- الحُدود  
الشماليّة لمملكة إسرائيل.

ومما له علاقة- أيضاً- بطّوحات يهوذا الإقليميّة في هذه الفترة، التركيز الخاصّ على قبيلتيّ يُوسف: "أفرايم"  
ومنتى، والرّسالة القويّة لافتراق الإسرائيليين عن الكنعانيين في قصص الآباء. كان أولّ بند في جدول أعمال يهوذا  
بعد سقوط المملكة الشماليّة هو التوسّع نحو الأراضي الإسرائيليّة السّابقة في المرتفعات التي تقع شمال يهوذا مباشرة،  
يعني أراضي قبيلتيّ "أفرايم" و"مناسى". ومن جهة أخرى؛ قام الآشوريّون، بعد تدميرهم لمدينة السّامرة، بإحلال  
مُبعدين من بلاد ما بين النهرين في أراضي المملكة الشماليّة المقهورة. وقد حلّ البعض في منطقة بيت إيل، القرية من  
الحُدود الشماليّة ليهوذا. من هنا؛ كان على فكرة الجامعة (أو القوميّة) الإسرائيليّة أن تأخذ بعين الاعتبار هذه الحالة من  
"الكنعانيين" الجُدّد الذين يعيشون في الأراضي التي تراها يهوذا كميّراته الشرعيّة. لذا؛ نجد قصص الآباء، التي تضع  
تأكيداً قوياً على أهميّة الزّواج من الأقرباء وتجنّب الزّواج من شعوب الأرض الأخرى، ملامة- بشكل مثالي- لهذه  
الوضعيّة الجديدة. [المؤلّف].

(القدس)، وقيل الحُكم الملكي، وقيل الهيكل (المعبد)، عندما كان آباء الأمة موحدين لله، رغم أنه كان مازال مسموحاً لهم بتقديم القرابين في الأماكن الأخرى. في الحقيقة؛ ربما قصد من تصوير الآباء كُرعاة أو مُربي ماشية، إعطاء جوٍّ من العراقة العظيمة لمراحل التشكُّل الأولى التي تطوّرت - في الفترة الأخيرة فقط - إلى وعي قومي واضح.

إن معنى كلِّ هذا بأن كلا التوراة اليهودية والتاريخ التنوي كُتبا في القرن السابع ق. م، في يهوذا، في أورشليم (القدس)، عندما لم يكن لمملكة إسرائيل الشمالية أيُّ وجود أصلاً بعدُ. في الغالب؛ كانت الأفكار، والقصص الأساسية، وحتى الشخصيات، الكامنة خلف كلا التاليفين (قصص الآباء، وسفر التثنية) معروفة على نحو واسع. يصف المصدر اليهودي التاريخ المبكر جداً للأمة، بينما يتعامل التاريخ التنوي مع أحداث الفُرُون المتأخرة أكثر، مع تأكيد خاص على فكرة القومية الإسرائيلية الجامعة، وعلى الحماية الربانية للذرية الداودية، وعلى مركزية العبادة في الهيكل (المعبد) في أورشليم (القدس).

لقد تجلّت العبقرية العظيمة لمؤلفي تلك الملحمة الوطنية في القرن السابع بالطريقة الرائعة التي جمعوا فيها القصص الأولية إلى بعضها البعض، دون أن يُعرِّوها من إنسانيتها، أو تمايزها الفردي. بقي كلُّ من إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب شخصيات رُوحية حيّة، مع كونهم بالوقت نفسه، الأسلاف المجازيين لشعب إسرائيل. وتمَّ جلبُ الأبناء الإثني عشر ليعقوب إلى التقليد، كأعضاء أصغر في سلاسل الأنساب الأكثر كمالاً في المهارة الفنية للقصّة التوراتية، التي جعلت أبناء إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب عائلة واحدة حقيقة. كان الذي وحدهم - في الواقع - هو قوّة الأسطورة، التي استطاعت أن تقوم بهذا التوحيد بطريقة أكثر قوّة، وأبقى خلوداً بما كان يُمكن أن تعمله مُجرد قصص مُغامرات عابرة لبضعة أفراد تاريخيين كانوا يراعون الخراف في مُرتفعات كنعان.

## الفصل (2):

### هل حَدَثَ الخُرُوجُ الجماعي؟

مَثَلَتِ الشَّخْصِيَّةُ البُطُولِيَّةُ لِمُوسَى الَّذِي واجه فرعون الطَّاغِيَّةَ ، والآفات العشر التي حلَّتْ بالمصريِّين ، والخُرُوجُ الجماعي الشَّامِلُ لبني إسرائيل من مصر ، مشاهد رئيسيَّةٌ لا تُمَحَى - عِبْرَ العُصُورِ - من ذاكرة التَّاريخ التَّوراتي .

انتقل بنو إسرائيل ، تحت قيادة زعيم ربَّاني - ليس مُجرَّد أب رُوحِي ، بل زعيم قَدَمٍ شعبه إلى الله ، وقَدَّمَ اللهُ إلى شعبه - ذلك الانتقال الذي كان - بالنسبة إليهم - شبه مُستحيل ، من حالة العِبُودِيَّة اليائسة إلى الاقتراب من حُدُود أرض الميعاد نفسها .

لقد كان لقِصَّةِ محرُّر بني إسرائيل من نير العِبُودِيَّة في مصر ذلك المقدار البالغ من الأهميَّة الذي جَعَلَ أربعةً من أسفار التَّوراة : أي سفر الخُرُوج وسفر اللاوِيِّين (الأخبار) ، وسفر العدد ، وسفر التَّنْبِيَةِ ، التي تُشكِّلُ - في الواقع - أربع أخماس التَّوراة ، مُخصَّصةً للحديث عن تلك الأحداث بالغة الأهميَّة ، التي واجهها ذلك الجيل الواحد من بني إسرائيل خلال مُدَّة تزيد قليلاً على الأربعين عاماً . خلال تلك الأربعين سنة ؛ كانت مُعجزات الأجمة التي تشتعل ناراً ، ولا تحترق ، (الوسيلة التي استدعى اللهُ - من خلالها - موسى إلى الجبل ؛ ليكلِّمهُ) ، والآفات العشر (التي حلَّتْ بالمصريِّين بسبب رَفُض فرعون وآله دعوة موسى) ، وشقَّ البحر الأحمر فلقَّتَيْن ، ظُهُور المنِّ في صحراء سيناء ، وإيحاء الله شريعته ووصاياهُ لمُوسَى في جبل سيناء ، كانت كُلُّهَا ظُهُورات عمليَّة ومَرَبُوتة لهيمنة الله وحُكْمه المُطلق على الطَّبيعة وبني الإنسان . وهكذا كَشَفَ اللهُ - الذي عَرَفَهُ الآباء عِبْرَ وحيه الخاصِّ إليهم فقط - عن نفسه لكلِّ الأُمَّة كِإله عالمي .

لكن ؛ هل تُمثِّلُ تلك الأحداث تاريخاً واقعيّاً؟ هل يُمكن لعلم الآثار أن يُساعدنا في عمليَّة التَّحديد الدقيق للعصر الذي قام به زعيم كبير اسمه موسى بتعبئة شعبه ، والسَّير به نحو

عَمَلِيَّةُ التَّحَرُّرِ العَظِيمَةِ تلكَ ؟ هل بالإمكان أن نَتَّبِعَ المَسِيرَةَ والطَّرِيقَ الَّذِي سَلَكَهُ بنو إِسْرَائِيلَ فِي خُرُوجِهِمُ الجَمَاعِي (من مِصْرَ)، وطريقَ تِيهِمِمْ فِي الصَّحْرَاءِ ؟ بل ؛ هل يُمكننا أن نُثَبِتَ (أثَارِيًّا) أن حَادِثَةَ الخُرُوجِ الجَمَاعِي - كما تصفها التَّوْرَةُ - حَدَثَتْ مِنَ الأَصْلِ أساساً ؟ !

لقد قَدَّمَتْ لَنَا مِثْنَا سَنَةَ مِنَ التَّنْقِيَّاتِ والحَفْرِيَّاتِ الأَثَرِيَّةِ ودراسة وتحليل آثار الحضارة الفرعونية القديمة، جدولاً تاريخياً مُفَصَّلاً مِنَ الأَحْدَاثِ، والشَّخْصِيَّاتِ، والأَمَاكِنِ، خِلالَ الحَقْبَةِ الفرعونية القديمة، إلا أن قِصَّةَ الخُرُوجِ الجَمَاعِي عِلْوَةٌ - أَكْثَرَ بِكثِيرٍ مِنَ قِصَصِ الآبَاءِ - بِشَرُوءِ كَبِيرَةٍ مِنَ الإِشَارَاتِ الجُغْرَافِيَّةِ المُفَصَّلَةِ والمُحَدَّدَةِ.

فهل يُمكنُ لِنَلكِ التَّفَاصِيلِ أن تُزَوِّدَنَا بِخَلْفِيَّةٍ تاريخيةٍ موثوقةٍ لِلْمَلْحَمَةِ العَظِيمَةِ لِهَرُوبِ الإِسْرَائِيلِيِّينَ مِنْ مِصْرَ، وتلقِّيهِمْ شَرِيعَةَ اللَّهِ فِي سِينَاءِ ؟ !

بنو إِسْرَائِيلَ فِي مِصْرَ: القِصَّةُ التَّوْرَاتِيَّةُ:

تَصِفُ قِصَّةَ الخُرُوجِ تَحْوِيلَيْنِ عَظِيمَيْنِ ذَوِي ارْتِبَاطِ حَاسِمٍ بِالقُصُورِ اللَّاحِقَةِ لِلتَّارِيخِ الإِسْرَائِيلِي:

*التَّحْوِيلُ الأَوَّلُ* : هُوَ نَمُوُّ وَتَكَاثُرُ أبنَاءِ يَعْقُوبَ (إِسْرَائِيلَ) الأَثْنِي عَشَرَ - الَّذِينَ كَانُوا يَعيشُونَ حَيَاةَ النَّمْيِ فِي مِصْرَ - وَتَحْوِيلُهُمْ لِأُمَّةٍ عَظِيمَةٍ، هَذَا مِنْ جِهَةٍ، وَمِنْ الجِهَةِ الأُخْرَى ؛ مُرُورُ تِلْكَ الأُمَّةِ بِتَجْرِبَةِ عَمَلِيَّةِ تَحَرُّرٍ كَبِيرَةٍ وَالتَّزَامِ بِشَرِيعَةِ إلهيَّةٍ، كَانِ مِنَ المُسْتَحِيلِ حَدُوثِهَا قَبْلَ ذَلِكَ.

وبالتَّالِي ؛ كَانَتِ رِسَالَةُ الكِتَابِ المُقَدَّسِ العِبْرِيِّ هِيَ التَّأَكِيدُ عَلَى القُوَّةِ الكَامِنَةِ لِأُمَّةٍ مُتَوَحِّدَةٍ وَمُتَدَيِّنَةٍ، بَرَزَتْ عِنْدَمَا بَدَأَتْ تُطَالَبُ بِحُرِّيَّتِهَا حَتَّى مِنْ أعْظَمِ مَمْلَكَةِ عَلَى الأَرْضِ آنَذَاكَ.

لقد تَمَّ الإِعْدَادُ لِهَذِهِ المَرِحَلَةِ المُسْتَعْمَدَةِ لِهَذَا التَّحْوِيلِ الرُّوحِيِّ المُثِيرِ فِي آخِرِ سَفَرِ التَّكْوِينِ، عِنْدَمَا وَصَفَتِ الحَيَاةَ الأَمَنَةَ الَّتِي عَاشَهَا أبنَاءُ يَعْقُوبَ، فِي ظِلِّ حِمَايَةِ أُخِيهِمْ يُوسُفَ فِي مِصْرَ، بِفَضْلِ ارْتِقَاءِ يُوسُفَ إِلَى مَنَصَبِ مَسْئُولِ هَامٍ وَرَفِيعِ المُسْتَوَى فِي هَيْكَلِيَّةِ الحُكْمِ فِي مِصْرَ، بِأَنَّهَا كَانَتِ حَيَاةَ مُوَفَّقَةٍ وَنَاجِحَةٍ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا رَاضِينَ عَنِ حَيَاتِهِمْ فِي مُدُنِ دَلْتَا النِّيلِ الشَّرْقِيَّةِ، وَيَتَمَتَّعُونَ بِحُرِّيَّةِ التَّنَقُّلِ ذَهَاباً وَإِيَاباً إِلَى وَطَنِهِمُ الأَصْلِي كَنْعَانَ. قَامَ أَوْلَادُ يَعْقُوبَ - بَعْدَ مَوْتِ

أبيهم . بنقل جثمانه إلى القبر، الذي أُعدَّ سابقاً . لهذا الغرض، ودفنوه إلى جانب أبيه إسحاق وجده إبراهيم في مغارة "مكفيلة" Machpelah في مدينة حبرون (الخليل).

على مدى أربعمئة وثلاثين عاماً؛ تكاثر أحفاد وذرية أبناء يعقوب الاثني عشر، ونموا ليصبحوا أمة عظيمة . تماماً كما وعدَّ الله . وصار المصريون يعرفونهم باسم "العبرانيين" : [ وأما بنو إسرائيل؛ فأنتموا، وتوالدوا، ونموا، وكثروا كثيراً جداً، وامتلات الأرض منهم. ] الخروج: 1 / 7 .

لكن الزمن تغير، وجاء للحكم . في نهاية الأمر . فرعون جديد : لم يكن يعرف يوسف، ولخوفه من قيام العبرانيين بخيانة مصر لصالح أحد أعدائها، قام الفرعون الجديد باستبعاد العبرانيين، وتحويلهم إلى مجموعات من عمال البناء، ليقوموا - مكرهين - ببناء وتشيد المدن الملكيّة "فيثوم" Pithom ورمسيس : [ فَجَعَلُوا عَلَيْهِمْ رُؤُوسًا تَسْخِيرَ ؛ لَكِي يُدَلُّوهُم بِأَنْقَالِهِمْ ، فَبَنُوا لِفِرْعَوْنَ مَدِينَتِي مَخَازِنَ : فَيُثْوَمُ وَرَعْمَسِيسَ ، وَلَكِنْ ؛ بِحَسَبِ مَا أَذَلُّوهُمُ هَكَذَا نَمُوا ، وَامْتَدَّوْا . فَاسْتَشْتُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ . ] الخروج: 1 / 11 - 12 .

ويوماً بعد يوم؛ ازدادت شدة الظلم والاضطهاد للعبرانيين، الذين أصبحوا يكرهون على الأعمال الشاقة : [ فَاسْتَعْبَدَ الْمِصْرِيُّونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِعَنْفٍ ، وَمَرَرُوا حَيَاتَهُمْ بِعِبُودِيَّةٍ قَاسِيَةٍ فِي الطِّينِ وَاللِّبْنِ ، وَفِي كُلِّ عَمَلٍ فِي الْحَقْلِ . كُلُّ عَمَلِهِمُ الَّذِي عَمَلُوهُ بِوَأَسْطَنَهُمْ عُنْفًا . ] الخروج: 1 / 13 - 14 .

ولخوفه من الازدياد السكاني الكبير لأولئك العمال المهاجرين الخطرين، أمر فرعون بإغراق كل أولاد العبرانيين الذكور في نهر النيل، ولكن وسيلة تحرير العبرانيين جاءت من نفس هذا الإجراء المستमित الذي مورس ضدهم . وُضِعَ طفلٌ رضيعٌ من قبيلة "ليفي" (اللاويين) في سلة من البردي في نهر النيل، لتلتقطه إحدى بنات فرعون، وتبتّاه، وأعطته اسم "موسى" الذي معناه بالعبرانيّة : "السَّحْبُ" من الماء، ونشأ موسى، وتربّى في البلاط الملكي .

بعد سنوات؛ عندما بلغ موسى سن الرشد، رأى رئيساً مصرياً متعسفاً يجلد عبداً عبرانياً، فاستيقظت مشاعر موسى العميقة، وهجمَ على ذلك الرئيس المصري المتعسف، وصربه، فقتله، وأخفيا جثته في الرمل .

وخوفاً من نتيجة فعلته هذه؛ هَرَبَ مُوسَى بِاتِّجَاهِ الصَّحْرَاءِ إِلَى أَرْضِ مَدْيَنَ؛ حَيْثُ تَبَنَّى هُنَاكَ حَيَاةَ جَدِيدَةٍ هِيَ حَيَاةُ الْبَدْوِ الرَّحَّلِ فِي الصَّحْرَاءِ. وَأَثْنَاءَ تَجَوُّلِهِ كَرَاعٍ وَحِيدٍ؛ تَلَقَّى مُوسَى الْوَحْيَ الْإِلَهِيَّ، الَّذِي سَيُغَيِّرُ الْعَالَمَ.

من خلال وميض النَّارِ فِي أَجْمَةِ صَحْرَائِيَّةٍ، كَانَتْ تَلْتَهَبُ دُونَ أَنْ تَحْتَرِقَ، كَشَفَ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ نَفْسَهُ لِمُوسَى كَمُخَلَّصٍ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ. وَوَعَدَ بِأَنَّهُ سَيُحَرِّرُهُمْ مِنْ مُسْتَعْبِدِيهِمْ، وَيَأْتِي بِهِمْ لِحَيَاةِ الْحُرِّيَّةِ وَالْأَمْنِ، فِي الْأَرْضِ الْمَوْعُودَةِ. وَعَرَفَ اللَّهُ نَفْسَهُ لِمُوسَى كَالِهَ إِبْرَاهِيمَ، وَإِسْحَاقَ، وَيَعْقُوبَ، كَمَا أَوْحَى - أَيْضاً - لِمُوسَى اسْمَهُ الرَّمَزِيَّ الْبَاطِنِيَّ: «يَهُوَهْ»؛ أَيُّ «أَنَا هُوَ أَنَا». وَكَلَّفَ اللَّهُ مُوسَى - بِجَدِّيَّةٍ - أَنْ يَعودَ إِلَى مِصْرَ، بِرَفْقَةِ مُسَاعِدِهِ، وَأَخِيهِ هَارُونَ، لِيُؤَاخِهُ فِرْعَوْنَ بِمُعْجَزَاتِهِ الْبَاهِرَةِ، وَيُطَالِبُهُ بِعَقْدِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ، وَحُرِّيَّتِهِمْ.

لَكِنَّ قَلْبَ فِرْعَوْنَ أَزْدَادَ قَسْوَةٍ، وَأَجَابَ مُوسَى بِتَشْدِيدِ آلامٍ وَمُعَانَاةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَأَمَرَ اللَّهُ مُوسَى أَنْ يُهْدِدَ مِصْرَ بِسِلْسَلَةٍ مِنَ الْأَفَاتِ الْفِطْرِيَّةِ، إِذَا اسْتَمَرَ فِرْعَوْنَ فِي رَفْضِهِ الْإِنْصِياعَ لِلأَمْرِ الْإِلَهِيِّ: [ وَتَقُولُ لَهُ: الرَّبُّ إِلَهُ الْعِبْرَانِيِّينَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ قَائِلاً: أَطْلُقْ شَعْبِي لِيَعْبُدُونِي فِي الْبَرِّيَّةِ. ] الْخُرُوجُ: 16/7.

وَلَمَّا يَسْتَجِبُ فِرْعَوْنَ. فَتَحَوَّلَ النَّيْلُ إِلَى دَمٍ، وَعَجَبَتْ الضَّفَادِعُ، ثُمَّ الْبَعُوضُ، ثُمَّ الذُّبَابُ، فَعَلَاتِ أَنْهَاءُ الْبِلَادِ. وَانْتَشَرَ وَبَاءُ غَامِضٍ أَهْلَكَ مَاشِيَةَ الْمِصْرِيِّينَ. وَطَفَّحَتْ اللَّتَامِلُ وَالقُرُوحُ الْجَلْدِيَّةُ عَلَى جُلُودِ الْمِصْرِيِّينَ وَجُلُودِ مَا بَقِيَ حَيًّا مِنْ حَيَوَانَاتِهِمْ، ثُمَّ انْهَارَ الْبَرْدُ مِنْ السَّمَاوَاتِ عَلَى الْأَرْضِ كَالْحِجَارَةِ، مُسَبِّبًا هَلَاكَ الْحَرِثِ وَدِمَارَ الْحَاصِيلِ. وَمَعَ ذَلِكَ؛ رَفَضَ فِرْعَوْنَ الْإِسْتِسْلَامَ، ثُمَّ أَجْتَاكَ مِصْرَ مَوْجَاتُ مِنَ الْجَرَادِ وَالظَّلَامِ، وَأَخِيرًا؛ حَلَّ بِهِمْ طَاعُونٌ مُرِيحٌ، قَتَلَ كُلَّ بَكْرٍ مِنَ الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ فِي كُلِّ أَرْضِ النَّيْلِ.

وَلَكِي يَحْمِي اللَّهُ أَوْلَادَ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ الْأَبْكَارَ، أَمَرَ اللَّهُ مُوسَى وَهَارُونَ أَنْ يُهَيِّئَا تَجْمَعًا إِسْرَائِيلِيًّا لِتَضْحِيَّةٍ خَاصَّةٍ لِلْحَمْلَانِ، وَأَنْ يُلَطِّخُوا بِدَمِهِمْ إِطَارَ بَابِ مَسْكَنِ كُلِّ إِسْرَائِيلِيٍّ؛ لَكِي يَمُرَّ الْبَلَاءُ فَوْقَهُ فِي لَيْلَةٍ قَتَلَ أَبْنَاءَ الْمِصْرِيِّينَ. كَمَا أَمَرَهُمْ بِتَهْيِئَةِ مَوْئِنَةٍ مِنْ خُبْزِ الْفَطِيرِ (أَيُّ الْخُبْزِ الْخَالِي مِنَ الْخَمِيرَةِ) لِأَجْلِ الْخُرُوجِ الْجَمَاعِيِّ الْعَاجِلِ. وَعِنْدَمَا شَهِدَ فِرْعَوْنَ عِدَدَ الْحَسَائِرِ الْمُرُوعِ



للطاعون العاشر، وقتل الأبقار، بمن في ذلك ابنه البكر أيضاً، لأن أخيراً، وطلب من الإسرائيليين أن يأخذوا قطعانهم ومواشيهم، ويرحلوا.

وهكذا [ارتحل بنو إسرائيل من رعمنسيس إلى سكوت نحو ست مئة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد] (الخروج 12 / 37)، وانطلقوا من مدن الدلتا الشرقية نحو صحراء سيناء. لكن؛ [لما أطلق فرعون الشعب، فإن الله لم يهدهم في طريق أرض الفلستينيين، مع أنها قريبة؛ لأن الله قال: لتلا يتدم الشعب إذا رأوا حرباً، ويرجعوا إلى مصر. فأدار الله الشعب في طريق برية بحر سوف (أي البحر الأحمر) . . .] (الخروج 13 / 17-18). وبعد هروب بني إسرائيل؛ أسف فرعون لقراره، وأرسل قوة مؤلفة من ستمائة عربة مكنقة، وكُل العربات الأخرى لمصر، فانشق البحر الأحمر للسماح للإسرائيليين بالعبور إلى اليابسة؛ أي سيناء. وحالما انتهوا من العبور، ابتلعت المياه الشاهقة المصريين الذين كانوا يلاحقون الإسرائيليين، في معجزة غير منسبة أحييت في الأنشودة التوراتية للبحر (الخروج 15 / 1-18).

عبرت جموع بني إسرائيل إلى البرية (صحراء سيناء)، يقودهم موسى، وأتبعا خط سير دقيق، يمر بإمكانة ويقاع محددة، ثم أصابهم الجوع والعطش، فبدؤوا يظهرن تمللمهم واستياءهم، ولكن تدخل موسى ودعائه الله لأجلهم هدأ من استيائهم؛ حيث أنزل الله عليهم ما يغذيهم. وفي النهاية؛ عندما وصلوا لجبل الله الذي كان موسى قد تلقى فيه أوّل وحي عظيم من عند الله، تجمع بنو إسرائيل عند الجبل، في حين صعد موسى لقمته ليتلقى الشريعة، التي ستمثل القانون الذي سيكون على الإسرائيليين المحررين أن يلتزموا به إلى الأبد.

و على الرغم من أن عبادة بني إسرائيل للعجل الذهبي عندما كان موسى على قمة الجبل، أفسدت ذلك التجمع في سيناء، (وقد غضب موسى لذلك، وألقى الألواح الحجرية، فحطمها)، إلا أن الله أبلغ الشعب - مع ذلك - عبر موسى الوصايا العشر، وتشريعات العبادة المفصلة والمعقدة، وأحكام الطهارات والأطعمة. ومنذ ذلك الحين؛ أصبح تابوت العهد المقدس الذي يحتوي على ألواح الشريعة المقدسة أكثر الرموز الوطنية قداسة وأهمية في المعارك، يحمله بنو إسرائيل معهم في كل رحلاتهم. وانطلاقاً من معسكرهم في برية فاران، أرسل بنو إسرائيل الجواسيس لاستطلاع الأخبار عن شعب كنعان (سفر العدد/13)، لكن

أولئك الجواسيس عادوا بتقارير مُرعبة جداً حول قُوَّة الكنعانيين والتحصينات الشاهقة المُدُنهم؛ ممَّا ألقى الرعبَ في قلوب بني إسرائيل، وأفقدَهُم رباطة جأشهم، فثاروا ضدَّ موسى، راجين منه العودة بهم إلى مصر؛ حيثُ يُمكنهم. على الأقلّ. أن يضمنوا سلامة أجسامهم. وعندما رأى الله منهم ذلك، قرَّر أن لا يبقى الجيل الذي عرَّفَ العبوديةَ في مصر أحياءَ حتَّى يَرثوا أرض الميعاد، بل قدرَّ عليهم التَّيه والهيام في الصحراء لأربعين سنةً أُخرى. لذا؛ لم يدخلوا أرض كنعان مباشرة، بل سلكوا طريقاً مُتعرِّجاً عبر "قادش برنيع" نحو "عربة" عبر أرض أدوم وموآب شرقي بحر الميت.

وكان آخر الأحداث في قصَّة الخُرُوج، هو ما تمَّ على سهول موآب في عبر الأردن (أي ضفَّته الشرقية)، على مرأى من الأرض الموعودة؛ حيثُ كَشَفَ موسى -الذي أصبح حينذاك مُسنّاً- للإسرائيليين، الأحكام الكاملة للشرعية، التي لا بُدَّ لهم من اتِّباعها إذا أرادوا -حقاً- أن يكونوا ورثةَ أرض الميعاد. وقد تمَّ تضمين هذا القانون الجديد أو الثاني، في الشريعة، في سفر "التثنية" (الذي أخذ اسمه من الكلمة اليونانية deuteronion التي تعني القانون الثاني). وقد فصلَّ هذا السفرُ الأخطار المميتة لعبادة الأصنام، ووَضَعَ تقيماً للمناسبات والاحتفالات الدينيَّة، وأدرج تشكيلة واسعة من التشريعات الاجتماعيَّة، وكلَّفهم بأنَّه عندما يتمُّ فتحُ الأرض، فإنَّ إله إسرائيل سيُعبُدُ في حَرَمٍ مُقدَّسٍ وحيدٍ [المكان الذي يختاره الرَّبُّ إلهك؛ ليحلَّ فيه اسمه] (التثنية: 2/26).

وبعد تعيين يشوع بن نون ليقود بني إسرائيل في حملتهم ذات الغزو الخاطف والسريع؛ صعد موسى الذي بَلَغَ عمره 120 عاماً إلى قَمَّةِ جبل "ثبو"، ومات هناك. وبهذا؛ اكتمل الانتقال من العائلة إلى الأُمَّة، وأصبحت الأُمَّة في مُواجهة التَّحدِّي الرهيب لإنجاز قدرها الإلهي.

سحرُ مصر:

ثمة شيء واحد مُؤكَّد؛ الحالة الأساسيَّة التي تصفها قصَّة الخُرُوج -ظاهرة المهاجرين الذي هبطوا من كنعان إلى مصر، واستقرُّوا في مناطق الحُدُود الشرقية للِدِّنا- أمرٌ أكَّدته الاكتشافات الأثريَّة، والنصوص التاريخيَّة الوافرة. فمتنُّ أقدم السجِّلات، وغير العُصُور القديمة، تمَّت

الإشارة إلى مصر كملجأ وملاذ آمن لشعب كنعان، في زمن كان الجفاف والمجاعة والحُرُوب قد جَعَلَت الحياة في أرض كنعان حياة لا تُطاق، وصعبة للغاية.

ترجع هذه العلاقة التاريخية المتبادلة بين مصر وكنعان إلى التباين البيئي والمناخي بين هاتين الأرضين المتجاورتين، اللتين تفصل بينهما صحراء سيناء. تمتلك كنعان مناخاً بحري-مُوسطياً مُعْزِجاً، جافاً في الصيف، ولا ينال المطر إلا في الشتاء، وتتفاوت كمية سُقوط الأمطار في أيّ سنة بنحو واسع.

ولما كانت الزراعة في كنعان مُعتمدة جداً على المناخ؛ كانت السنوات ذات المطر الوفير تجلب ازدهاراً، في حين تُؤدّي - عادةً - السنوات ذات المطر المُنخفض إلى الجفاف والمجاعة. وهكذا كانت حياة شعب كنعان متأثرة - بشكل كبير - بالتقلّبات بين سنوات جيّدة الأمطار، وأخرى مُوسطة، وأخرى سيّئة، الأمر الذي انعكس - مباشرةً - بسنوات من الازدهار، وسنوات صعبة وصَلَت - أحياناً - إلى حدّ المجاعة التامة. وفي أوقات المجاعة الحادة كان هناك حلٌّ واحد فقط: الهبوط إلى مصر، مصر التي لم تكن تعتمد على المطر، بل تحصل على مائها من النيل.

في مصر - أيضاً - كانت هناك سنوات جيّدة، وسنوات سيّئة، حسب المستوى المُقلّب للنيل في فصل الفيضان، وذلك بسبب الاختلاف الشديد في نسبة هطول الأمطار في مناطق منابع النيل في وسط أفريقيا والرُتفعات الأثيوبية، ولكن حُدُوث مجاعات حقيقية في مصر كان أمراً نادراً للغاية؛ فالتيل - حتى عندما ينخفض منسوب مياهه - كان مايزال مصدرراً قابلاً للاعتماد عليه لِمياه الرّي، وفي الأحوال كُلّها؛ كانت مصر دولة مُنظمة بشكل جيّد، ومُستعدةً للسنوات الجيدة والسنوات السيّئة، عن طريق خَزَن الحبوب في مخازن الحبوب الحكومية. وبشكل خاص؛ كانت دلتا النيل في العصر القديم تُقدّم منظراً طبيعياً رائعاً، أكثر بكثير ممّا هي عليه اليوم. فاليوم - بسبب الطمي والتغير الجيولوجي - أصبح النيل مُنشقاً إلى فرعين رئيسيين فقط - شمال القاهرة، ولكن أنواعاً مُختلفة من المصادر القديمة، من جُمَلتها تلك الخريطتان الباقيتان من الفترة الرومانية البيزنطية، تُبينان أنّ النيل - في ذلك العهد - كان ينشطر إلى حوالي سبعة أفرع، ويخلق منطقة أكبر جداً من الأرض المُسقية بشكل جيّد. لقد كان آخر تفرّع - من

ناحية الشرق - للنبيل ، يمتدُّ في ذلك الوقت إلى ما هو - الآن - مجرد منطقة قاحلة مالحة مُستنقِية شمال غرب سيناء . وكانت مياه النيل العذبة تتدفَّق عبر قنوات الريِّ الصنَّاعية ؛ لتنتقل المياه إلى كامل المنطقة ، التي هي - في يومنا هذا - مجردُ مُستنقعات مالحة قاحلة لمنطقة قناة السويس ، مُحوكة إياها - آنذاك - إلى أرض خصبة خضراء ، ذات كثافة سكانية عالية . لقد كَشَفَتْ الدِّراسات الجيولوجية والطوبوغرافية في السنوات الأخيرة عن وجود كلا الفرع الشرقي للنبيل ، والقنوات الصنَّاعية في الدلتا الشرقية والصَّحراء الواقعة شرقها .

هُناك سبب قويٌّ للاعتقاد بأنَّه في أوقات المجاعة في كَنْعَانَ - كما نحكي القصة التوراتية - كان الرِّعاة والمزارعون - على حدِّ سواء - يذهبون إلى مصر للاستقرار في الدلتا الشرقية ، ويتمتعون بخصوصيتها الموثوقة . ورغم ذلك ؛ فإنَّ علم الآثار يُزوِّدنا بصورة أكثر تلوُّناً من ذلك بكثير؛ حيثُ يكشف عن قُدوم جاليات كبيرة من السَّاميين كانت تأتي منذُ العصر البرونزي من جنوب كَنْعَانَ ؛ لتستقر في الدلتا الشرقية للنبيل لأسباب مختلفة ، وكانت تُحقِّق مُستويات مُختلفة من النِّجاح . كان يتمُّ تجنيد بعض هؤلاء كعمال لا يملكون أرضاً خاصَّة بهم ، ليقوموا بأعمال بناء الأبنية العامَّة . وربما جاؤوا في فترات أخرى - بكلِّ بساطة - ؛ لأنَّ مصر كانت تُقدِّم لهم فرصاً جيِّدة للتجارة ، ولتحسين أوضاعهم الاقتصادية . يُشير قبر "بني حسن" المشهور - الذي اكتُشف في مصر الوُسْطى ، والذي يعود تاريخه إلى القرن التاسع عشر ق . م - إلى مجموعة من الكنعانيين هبطوا من عبر الأردن إلى مصر برفقة حيواناتهم وسلعهم على الأغلب كنجار ، لا كعمال مسخَّرين ، وقسم آخر من الكنعانيين في الدلتا ، قد يكون تمَّ جلبُهُم كأسرى حرب من قِبَل جيوش الفراعنة ، خلال حملاتهم التآديبية التي كانوا يشتونها ضدَّ دول المِدُن العاصية لكَنْعَانَ . ونعرف بأنَّ البعض منهم خُصِّصوا كعبيد لزراعة أراضي عقارات المعابد . وقد وجدَّ البعض الآخر من أولئك الكنعانيين طريقهم صُعُوداً في السَّلْم الاجتماعي ؛ ليصبحوا - في النهاية - مسؤولين حُكوميين ، أو جنُوداً ، وحتى كَهَنَةً .

لم تكن هذه التماذج السكانية (الديموغرافية) على طول الدلتا الشرقية - لأناس آسيويين يُهاجرون إلى مصر ، ويتمُّ استخدامهم في أعمال إجبارية في الدلتا - مقصورة على العصر البرونزي ؛ بل كانت تعكس - في الواقع - الإيقاعات القديمة في المنطقة ، والتي شملت - كذلك -

القرُون التَّالِيَة فِي العَصْر الحَدِيدِي ؛ أَي العَهْد القَرِيب مِنَ الفَتْرَة الَّتِي كُتِبَتْ فِيهَا قِصَّة الحُرُوج التَّوْرَاتِيَّة .

صُعُود الهِكْسُوسُ وَاِنْهِيَارِهِمْ :

تُعَدُّ حِكَايَة اِرْتِقَاء يُوْسُفَ إِلَى مَنْزَلَة هَامَةَ فِي مِصْر - كَمَا يَرِيهَا سَفَر التَّكْوِين - أَكْثَر قِصَص المَهَاجِرِينَ الكِنْعَانِيِّينَ - الَّذِينَ يَصْعَدُونَ إِلَى السُّلْطَنَة فِي مِصْر - شُهْرَةً ، وَلَكِنْ ؛ هُنَاكَ مِصَادِر أُخْرَى تَعْرِض - جَوْهَرِيًّا - الصُّوْرَة نَفْسَهَا ، وَلَكِنْ ؛ مِنْ وَجْهَة نَظَر مِصْرِيَّة ، أَهْمُهَا هِيَ القِصَّة الَّتِي كَتَبَهَا المُوَرِّخ المِصْرِي "مَانِيثُو" Manetho فِي القَرْنِ الثَّالِثِ ق . م ؛ حَيْثُ سَجَّلَ قِصَّة هِجْرَة نَاجِحَة بِنَحْوِ اسْتِنَائِي ، رَغْم أَنَّهَا تُعَدُّ - مِنْ وَجْهَة نَظَر مُوَاطِنِيهِ المِصْرِيِّينَ - مَآسَاةً وَطَنِيَّةً . يَذْكَر "مَانِيثُو" - مُسْتَنَدًا إِلَى مِصَادِرٍ مُقَدَّسَة مِجْهُولَة اِلِاسْم ، وَإِلَى حِكَايَاتٍ وَأَسَاطِيرٍ شَعْبِيَّة - قِصَّة قِيَامِ أَجَانِبٍ مِنَ الشَّرْقِ - أَطْلَقَ عَلَيْهِمُ اسْمَ الهِكْسُوسُ - بِغَزْوٍ وَحْشِيٍّ هَائِلٍ لِمِصْر ، وَكَلِمَة الهِكْسُوسُ شَكْلٌ يُونَانِيٌّ مَبْهُمٌ لِكَلِمَة مِصْرِيَّةٍ تَرَجَمَتْهَا بِـ "المُلُوكِ الرِّعَاة" ، لِكِنَّهَا - فِي الحَقِيقَة - تَعْنِي "حُكَّامِ الأَرَاضِي الأَجْنَبِيَّة" . وَذَكَرَ "مَانِيثُو" Manetho بَأَنَّ الهِكْسُوسُ اسَّسُوا لِنَفْسِهِمْ مَدِينَة فِي الدَّلْتَا اسْمَهَا "أَفَارِيس" Avaris ، وَأَسَّسُوا هُنَاكَ سُلَالَة مَلِكِيَّة حَكَمَتْ مِصْرَ بِوَحْشِيَّةٍ بَالِغَة ؛ لِأَكْثَرِ مِنْ خَمْسِمِئَةِ سَنَة .

فِي السَّنَوَاتِ الأُولَى لِلدِّرَاسَاتِ العَصْرِيَّةِ الحَدِيثَةِ ؛ طَابِقَ العُلَمَاءُ "الهِكْسُوسُ" مَعَ مُلُوكِ السُّلَالَةِ الخَامِسَةِ عَشْرَةَ لِمِصْر ، الَّذِينَ حَكَمُوا مِنْ حِوَالِي 1670 إِلَى 1570 ق . م . . قَبْلَ العُلَمَاءِ الأَوَائِلِ تَقْرِيرِ "مَانِيثُو" حَرْفِيًّا ، وَيَحْتَوِي عَنِ أَدَلَّةٍ عَلَى أُمَّةٍ أَجْنَبِيَّةٍ قَوِيَّةٍ ، أَوْ مِجْمُوعَةٍ عَرَفِيَّةٍ جَاءَتْ مِنْ بَعِيدٍ لِنَزْوٍ وَفَتْحِ مِصْر . أَظْهَرَتِ الدِّرَاسَاتُ الأَحْقَة أَنَّ النُّقُوشَ وَالأَخْتِمَاتِ الَّتِي تَحْمَلُ اسْمَاءَ حُكَّامِ الهِكْسُوسُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا سَامِيَّينَ غَرِيبِيَّينَ ، وَبِكَلِمَة أُخْرَى ؛ كِنْعَانِيَّوْنَ . وَأكَّدَتِ التَّفْتِيحَاتِ الأَثَرِيَّةُ الأَخِيرَة فِي دِلْتَا النِّيلِ الشَّرْقِيَّةِ هَذَا الاسْتِنَاجَ ، وَأَثْبَتَتْ أَنَّ غَزْوَ الهِكْسُوسُ كَانَ عَمَلِيَّةً تَدْرِيجِيَّةً لِلهِجْرَةِ مِنْ كِنْعَانَ إِلَى مِصْر ، بِدَلَالَةٍ مِنْ كَوْنِهِ حَمَلَةً عَسْكَرِيَّةً خَاطِفَةً .

وَكَانَ التَّفْتِيحُ الأَثَرِيُّ الأَكْثَرُ أَهْمِيَّةً هُوَ مَا قَامَ بِهِ مَانْفْرِيدُ بِييْتَاك Manfred Bietak ، مِنْ جَامِعَةِ فِينَا ، فِي تَلِّ الدُّبَا ؛ حَيْثُ حَدَّدَ مَوْقِعًا فِي الدَّلْتَا الشَّرْقِيَّةِ ، طَابَقَهُ عَلَى مَدِينَةِ "أَفَارِيس" ، عَاصِمَةِ الهِكْسُوسُ (الشُّكْلُ 6) .

ويُنْتِ التَّنْبِيَّاتِ هُنَاكَ زِيَادَةً تَدْرِجِيَّةً مِنَ التَّأثيرِ الكَنْعَانِيِّ فِي أسَالِيبِ الفَخَّارِيَّاتِ ،  
والهندسة المعماريَّة ، والقُبورِ من حوالي 1800 ق. م . . في عهد السُّلَالَةِ الخَامِسَةِ عَشْرَةَ ؛ أَيْ  
بعد حوالي 150 سنة ، صارت التَّنَاقُفَةُ الحضاريَّةُ للموقع ، الذي أصبح - في النِّهَايَةِ - مَدِينَةً  
ضخمة ، ثقافَةً كَنْعَانِيَّةً بِشكْلِ كَبِيرٍ . إنَّ اكْتِشَافَاتِ تَلِّ اللَّبَا تَدُلُّ عَلَى تَطَوُّرٍ طَوِيلٍ وَتَدْرِجِيٍّ مِنَ  
الحَضُورِ الكَنْعَانِيِّ فِي الدَّلْتَا ، وَعَلَى سَيْطَرَةِ سَلْمِيَّةٍ عَلَى السُّلْطَنَةِ هُنَاكَ . إِنَّهُ وَضِعَ مُمَاتِلٌ بِنَحْوِ  
غَيْرِ دَقِيقٍ ، عَلَى الأَقْلِ فِي خُطُوهِ العَامَّةِ الواسعة ، لِقَصَصِ زِيَارَاتِ الأَبَاءِ إِلَى مِصْرَ ،  
وَتَوَطَّنِهِمُ النَّهَائِيَّ هُنَاكَ . أَمَّا أَنْ "مَانِيثُو" - الَّذِي كَتَبَ تَارِيخَهُ هَذَا بَعْدَ مِثَّةٍ وَخَمْسَةِ عَشْرٍ سَنَةً  
تَقْرِيْباً ، وَوَصَفَ فِيهِ حُكْمَ الهِكْسُوسِ بِأَنَّهُ كَانَ نَتِجَةَ احتِلالِ وحشيٍّ ، بَدَلًا مِنْ هِجْرَةِ سَلْمِيَّةٍ  
وَتَدْرِجِيَّةٍ ، فَيَجِبُ - فِي الاحْتِمَالِ الغالبِ - أَنْ يُفْهَمَ عَلَى خَلْفِيَّةِ زَمَانِهِ الخَاصِّ ؛ حَيْثُ كَانَتْ  
ذِكْرِيَاتُ غَزَوَاتِ مِصْرَ مِنْ قَبْلِ الأَشُورِيِّينَ ، وَالبَابِلِيِّينَ ، وَالفَرَسِ ، فِي القَرْنَيْنِ السَّابِعِ وَالسَّادِسِ  
ق. م. ، مَا تَزَالُ حَيَّةً - بِشكْلِ مُؤَلِّمٍ - فِي الوَعْيِ المِصْرِيِّ .

لَكِنَّ هُنَاكَ تَشَابَهُاً أَكْثَرَ صَدَقَائِيْنِ قِصَّةِ الهِكْسُوسِ وَالقِصَّةِ التَّوْرَاتِيَّةِ للإِسْرَائِيلِيِّينَ فِي مِصْرَ ،  
عَلَى الرَّغْمِ مِنْ اِخْتِلَافِ القِصَّتَيْنِ الحَادِثِيْنِ فِي اللَّحْنِ . يَصِفُ "مَانِيثُو" انْتِهَاءَ احتِلالِ الهِكْسُوسِ  
لِمِصْرَ بِأَنَّهُ تَمَّ - آخِرًا - مِنْ قِبَلِ مَلِكِ مِصْرِيِّ مُسْتَقِيمٍ هَاجِمِهِمْ ، وَ [ هَزَمَ الهِكْسُوسِ ] ، "وَقَتَّلَ  
العَدِيدَ مِنْهُمْ ، وَتَابَعَ قُلُوبَهُمْ إِلَى حُدُودِ سُورِيَا" .

فِي الحَقِيقَةِ ؛ ذَكَرَ "مَانِيثُو" بِأَنَّ الهِكْسُوسَ - بَعْدَ طَرْدِهِمْ مِنْ مِصْرَ - ، قَامُوا بِتَأْسِيسِ مَدِينَةٍ  
أُورَشَلِيمَ ، وَبَنَوْا هُنَاكَ مَعْبَدًا . هُنَاكَ مِصْدَرُ مِصْرِيِّ يَعُودُ لِلقَرْنِ السَّادِسِ عَشْرَ قَبْلَ المِيلَادِ ،  
مَوْثُوقٌ أَكْثَرَ بِكثِيرٍ مِنْ كُلِّ مَا سَبَقَ ، يَقْصُ مَآثِرَ الفِرْعَوْنَ "أَحْمُوسَ" Ahmose ، مِنْ السُّلَالَةِ  
الثَّامِنَةِ عَشْرَةَ ، ذَاكِرًا أَنَّهُ اسْتَبَاحَ مَدِينَةَ "أَفَارِيسَ" Avaris ، وَطَرَدَ مِنْهَا قُلُوبَ "الهِكْسُوسِ" إِلَى  
حِصْنِهِمُ الرِّئِيسِيِّ "شَارُوحِين" Sharuhen فِي جَنُوبِ كَنْعَانَ قُرْبَ غَزَّةَ ، ثُمَّ اقْتَحَمَهَا ، وَفَتْحَهَا  
- أَيْضًا - بَعْدَ حِصَارٍ طَوِيلٍ . وَفِي الحَقِيقَةِ ؛ حَوَالِي مُنْتَصَفِ القَرْنِ السَّادِسِ عَشْرَ ق. م. ، هَجَرَ تَلِّ  
الدَّلْبَا ، مُسْجَلًا نِهَآيَةَ مُعَاجِزَةٍ لِلتَّأثيرِ الكَنْعَانِيِّ هُنَاكَ .

إِذْنُ ؛ فَالمِصَادِرُ الأَثَارِيَّةُ وَالتَّأريخِيَّةُ المُسْتَعْمَلَةُ تُخْبِرُنَا عَنْ هِجْرَاتِ لِسَامِيِّينَ مِنْ كَنْعَانَ إِلَى  
مِصْرَ ، وَعَنْ قِيَامِ المِصْرِيِّينَ بِطَرْدِهِمْ بِالقُوَّةِ . هَذِهِ الخُلَاصَةُ الأَسَاسِيَّةُ لِلهِجْرَةِ ، وَالعُودَةِ العَنيفَةِ

إلى كنعان تتوازي مع القصة التوراتية للخروج الجماعي . ويبقى هنا سؤالان رئيسيان : الأول :  
من هم هؤلاء المهاجرون الساميون؟ والثاني : كيف يتطابق تاريخ زيارتهم لمصر مع الترتيب  
التاريخي الزمني للأحداث التوراتية؟

تَعَارُضُ التَّوَارِيخِ وَالْمُلُوكِ:

يُورِخُ طَرْدُ الْهَكَسُوسِ - عُمُومًا - عَلَى أَسَاسِ السَّجَلَاتِ الْمِصْرِيَّةِ وَالذَّلَائِلِ الْأَثَارِيَّةِ لِلْمُدُنِ  
الْمُحَطَّمَةِ فِي كَنْعَانَ ، بِحَوَالِي 1570 ق.م. . كما ذَكَرْنَا فِي الْفَصْلِ الْأَخِيرِ فِي مَنَاقِشَةِ تَارِيخِ  
عُصْرِ الْأَبَاءِ ، يُخْبِرُنَا سَفَرُ الْمُلُوكِ الْأَوَّلِ (1 / 6) بِأَنَّ بِنَاءَ الْهَيْكَلِ (الْمَعْبَدِ) الَّذِي بَدَأَ فِي السَّنَةِ  
الرَّابِعَةِ مِنْ عَهْدِ حُكْمِ سَلِيمَانَ إِنَّمَا حَدَثَ بَعْدَ 480 سَنَةٍ مِنْ حَادِثَةِ الْخُرُوجِ الْجَمَاعِيِّ .

طَبَقًا لِلرَّابِطِ بَيْنَ التَّوَارِيخِ الْمَلَكِيَّةِ لِلْمُلُوكِ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ مَعَ تَوَارِيخِ مَصَادِرٍ خَارِجِيَّةٍ مِصْرِيَّةٍ  
وَأَشُورِيَّةٍ ؛ يُمَكِّنُ وَضْعَ تَارِيخِ الْخُرُوجِ الْجَمَاعِيِّ فِي سَنَةِ 1440 ق.م. . أَيَّ أَنَّهُ بَعْدَ أَكْثَرِ مِنْ مِثَّةِ  
سَنَةٍ بَعْدَ تَارِيخِ الطَّرْدِ الْمِصْرِيِّ لِلْهَكَسُوسِ ، حَوَالِي 1570 ق.م. . لَكِنْ ؛ هُنَاكَ إِشْكَالٌ أَكْثَرُ  
جَدِيدٌ أَيْضًا .

تَتَكَلَّمُ التَّوْرَةُ - بِشَكْلٍ وَاضِحٍ - عَنْ مَشَارِعِ الْعَمَلِ الْإِجْبَارِيَّةِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَعَنْ إِشَارَاتٍ  
- بِشَكْلٍ خَاصٍّ - لِبِنَاءِ مَدِينَةِ رَعْمِيسِ (رَمِيسِ) (الْخُرُوجِ 1 / 11) . فِي حِينٍ ؛ أَنَّهُ فِي الْقَرْنِ  
الْخَامِسِ عَشَرَ ق.م. ، لَا يُمَكِّنُ تَصْدِيقَ مِثْلِ هَذَا الْأَسْمِ ؛ لِأَنَّ أَوَّلَ فِرْعَوْنَ اسْمُهُ رَعْمِيسِ  
اعْتَلَى الْعَرْشَ سَنَةَ 1320 ق.م. ، فَقَطْ ؛ أَيُّ بَعْدَ أَكْثَرِ مِنْ قَرْنٍ مِنَ التَّارِيخِ التَّوْرَاتِيِّ التَّقْلِيدِيِّ .  
وَكَتَيْبَةٌ لِدَلِّكَ ؛ مَالُ الْعَدِيدِ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى رَفْضِ الْقِيَمَةِ الْحَرْفِيَّةِ لِلتَّارِيخِ التَّوْرَاتِيِّ ، مُقْتَرِحِينَ  
بِأَنَّ الرَّقْمَ 480 لَمْ يَكُنْ أَكْثَرَ مِنْ طُولِ رَمْزِي لِلوَقْتِ ، يُمَثِّلُ فِتْرَاتِ حَيَاةِ اثْنَيْ عَشَرَ جِيلًا ، كُلُّ  
وَاحِدٍ مِنْهَا يَدُومُ مَدَّةَ الْأَرْبَعِينَ سَنَةَ التَّقْلِيدِيَّةِ . يَضَعُ هَذَا التَّسْلُسُ الزَّمَنِي - الْمُخَطَّطُ بِشَكْلٍ عَالٍ -  
لِتَارِيخِ الْأَحْدَاثِ ، بِنَاءَ الْهَيْكَلِ (الْمَعْبَدِ) ، فِي زَمَنِ يَقَعُ فِي نِصْفِ الطَّرِيقِ بَيْنَ نِهَايَةِ النَّفْيِ الْأَوَّلِ  
(فِي مِصْرَ) ، وَنِهَايَةِ النَّفْيِ الثَّانِي (فِي بَابِلَ) .

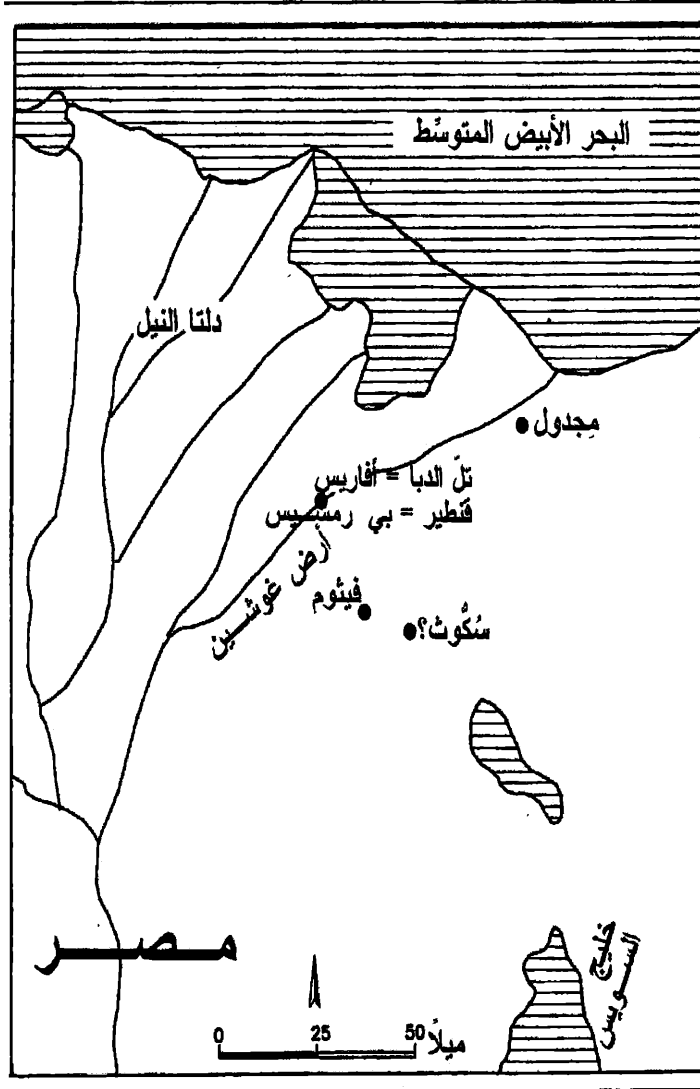
عَلَى أَيَّةِ حَالٍ ؛ رَأَى أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ فِي الْإِشَارَةِ التَّوْرَاتِيَّةِ الْخَاصَّةِ الْمُحَدَّدَةِ لِاسْمِ رَعْمِيسِ  
تَفْصِيلًا أَحْفَظْ بِذَاكَ تَارِيخِيَّةً أُصِيلَةً . وَبِكَلِمَةٍ أُخْرَى ؛ حَاوَلُوا إِثْبَاتَ أَنَّ حَادِثَةَ الْخُرُوجِ

الجماعي لأبد وأن تكون قد حَدَّتْ في القرن الثالث عشر ق. م. . وكان هناك تفاصيل مُعيَّنة أخرى في قصة الحُرُوج الجماعي التوراتية تُشير إلى العصر نفسه ؛ أولاً: تذكر المصادر المصرية بأنَّ مدينة نبي رعمسيس\* (نبت رعمسيس\*) بُنيت في الدلتا في أيام الملك المصري العظيم رعمسيس الثاني، الذي حَكَمَ في الفترة بَينَ 1279-1213 ق. م، والذي استُخدِمَ السَّامِيُّونَ - على ما يبدو- في بنائه ؛ ثانياً: وربما الأكثر أهميَّة، أوَّلُ ذَكرٍ لإسرائيل في نصٍّ خارجٍ توراتي، إنَّما وُجِدَ في مصر في المسألة التي نُقِشَ عليها وَصَفَ حَمَلَةَ الفرعون منفتح بن رعمسيس الثاني في أرض كَنْعَانَ في نهاية القرن الثالث عشر ق. م نفسه. . يُخبر النُقش عن حَمَلَةَ مصريةٍ تدميريةٍ في كَنْعَانَ، تمَّ خلالها تحطيم شعب يُسمَّى إسرائيل تحطيماً تاماً؛ لدرجة أنَّ فرعون تباهى بأنَّ بذرة إسرائيل مُحييت من الوجود. ووضح أنَّ هذا التَّماخر كان تفاخراً فارغاً، لكنَّه يبيِّن أنَّ بعض المجموعات المعروفة باسم إسرائيل كانت تُوجد- فعلاً- في كَنْعَانَ في ذلك الوقت .

في الحقيقة ؛ لقد ظهرت عشرات المُستوطنات ذات الارتباط مع الإسرائيليين الأوائل في منطقة التلال والمُرْتفعات في كَنْعَانَ في ذلك الوقت تقريباً. إذن- يقول العلماء- لو أنَّ حادثة الحُرُوج الجماعي حَدَّتْ تاريخياً، فلا بُدَّ وأنَّ تكون قد حَدَّتْ في أواخر القرن الثالث عشر ق. م. .

تحتوي مسألة منفتح على أوَّلَ ظُهورٍ لاسم إسرائيل في أيِّ نصٍّ قديمٍ باقٍ على قَيْد الحياة. هذا يطرح- مرَّةً ثانية- الأسئلة الأساسية نفسها: مَنْ كان السَّامِيُّونَ في مصر؟ هل يُمكن أن يُعدُّوا إسرائيليين بأيِّ نحوٍ من المعاني المقبولة؟ لا يوجد أيُّ ذَكرٍ لاسم إسرائيل في أيِّ من النُقُوش أو الوثائق المرتبطة بفترة الهكسوس، ولا ذَكرٍ لإسرائيل في النُقُوش المصرية التالية، ولا في الأرشيف المسماري الذي يعود للقرن الرابع عشر ق. م، والذي تمَّ اكتشافه في تلِّ العمارنة في مصر، والذي تصف حوالي أربعمئة رسالة فيه- بالتفصيل- الظُّروف السُّكَّانية والسياسية والاجتماعية في كَنْعَانَ في ذلك الوقت. كما سنُثبت في فصل لاحق؛ بدأ ظُهور الإسرائيليين- بشكلٍ تدريجي، كمجموعة مُتميِّزة في كَنْعَانَ- في نهاية القرن الثالث عشر ق. م، فقط، وليس هناك أيُّ دليلٍ آثاريٍ مقبولٍ يثبت حُضُورَ الإسرائيليين في مصر مباشرة قبل ذلك الوقت .





الشكل رقم 6 : دلتا النيل: أهم المواقع المذكورة في قصة الخروج.

هل كان حَدُوثُ خُرُوجِ جماعي مُحتملاً - أصلاً - في عهد رعمسيس الثاني؟

نحنُ نعرف - اليوم - أنْ مشكلةَ حادثةِ الخُرُوجِ الجماعي لا تُحلُّ - ببساطة - برَصفِ مجموعةٍ من التواريخ والمُلوكِ إلى جانب بعضها، وانتهى الأمرُ! إنَّ طَرْدَ الهكسوس من مصر عام 1570 ق.م، إمَّا حَصَلَ عندما أصبحَ المصريون حذرين جدًّا من تغلغلِ الغُرباءِ في أراضِيهم. كما أنَّ التَّأثيرَ السَّلبي الذي تركتهُ ذكريات عهد الهكسوس مثل حالة عَقْلِيَّةٍ يجب ملاحظتها في البقايا الأثاريَّة. لقد أصبحَ واضحاً - في السَّنوات الأخيرة فقط - أنَّه منذُ عهد المملِكة الجديدة فما بعد، أي ابتداءً من عهد طَرْدِ الهكسوس، شدَّدَ المصريون رَقابَتَهُم على الحُدُودِ الشَّرقيَّة؛ ليمنعوا تدفُّقَ المهاجرين من كُتَّانِ إلى الدلتا. لقد أسَّسوا نظاماً من الحُصُونِ على طُولِ حُدُودِ الدلتا الشَّرقيَّة، زوَّدوها بقوَّاتٍ ومُدبِري حامية. تذكرُ سجلَّاتُ أوراقِ البردى - التي يعودُ عهدُها إلى أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد - شدَّةَ مُراقَبةِ قادة الحُصُونِ لتحركاتِ الأجنبي: [ أكملنا دُخُولَ قبائلِ شاسو الأدميَّة Edomite Shasu ] ومعنى آخر: البدو [ عبَّرَ قلعةَ مفتاح - المُحتوى - مع - الحقيقة، الواقعة في تحكيو Tjkw، إلى برككات (أحواض مياه) بر إيتم Pr Itm الموجودة في تحكيو Tjkw لمعيشة قطعانهم ].

لهذا التقرير أهمية من ناحية أخرى: إنَّه يُسمَّى أهمَّ موقعين مذكورين في الكتاب المُقدَّس العبري عند الحديث عن الخُرُوجِ (الشُّكْل 6)، فكلمة "سُكُوت Succoth" (سفر الخُرُوجِ 12 / 37؛ وسفر العدد: 33 / 5) من المُحتمل أن تكون الشُّكْل العبري للكلمة المصريَّة تحكيو Tjkw، والذي يُشير إلى مكان أو منطقة في الدلتا الشَّرقيَّة بدأت تظهر في النُصوص المصريَّة منذُ أيَّام السُّلالة التاسعة عشرة؛ أي سُلالة رعمسيس الثاني، وكلمة "فيثوم Pithom" (خُرُوجِ 11 / 1) هي الشُّكْل العبري لكلمة بيت "بر إيتم" pr itm | والتي تعنى معبد | الإله أتوم Atum. يظهر هذا الاسم للمرَّة الأولى في أيَّام المملِكة الجديدة في مصر.

في الحقيقة؛ هناك اسمان آخران يظهران في قصَّة الخُرُوجِ التوراتيَّة يبدوان مُلائمين للحقيقة في دلنا الشَّرقيَّة في عهد المملِكة الجديدة؛ الأول: الذي سَبَقَ وأشرنا إليه أعلاه، هُوَ المدينة التي سُمِّيت رعمسيس - بي - رعمسيس Pi-Raamses، أو "بيت رعمسيس" في اللُغة

المصرية . بُنيت هذه المدينة في القرن الثالث عشر ق . م ، كعاصمة للفرعون رعمسيس الثاني في الدلتا الشرقية ، وهي تقع على مقربة شديدة من بقايا آثار مدينة آفارس Avaris . كانت الأعمال الشاقّة في صناعة الطابوق ، كما أتى وصفها في القصص التوراتية ، ظاهرة شائعة في مصر ، وتُصوّرُ رسومات فنية رُسمت على قبر مصري يعود تاريخه إلى القرن الخامس عشر ق . م ، تجارة البناء الخاصة هذه بالتفصيل ، وأخيراً : الاسم 'مَجْدَلَا Migdol ، الذي يظهر في قصة الخروج (سفر الخروج 2 / 14) ، هو اسم شائع في المملكة الجديدة للحصون المصرية على الحدود الشرقية للدلتا ، وعلى طول الطريق الدولي من مصر إلى كنعان في شمال سيناء .

وهكذا كانت الحدود بين كنعان ومصر مرآبة عن كُتب . إذا عبرت جماعة عظيمة من الإسرائيليين الفارين من خلال تحصينات حدود النظام الفرعوني تلك ، فلا بُدَّ أن يكون هناك توثيق وتسجيل لمثل هذا الحدث الخطير ، ولكن ؛ ليس هناك في أي من المصادر المصرية الوفيرة التي تصف زمن المملكة الجديدة عموماً أو القرن الثالث عشر قبل الميلاد بشكل خاص أي إشارة إلى الإسرائيليين ، وليس حتى مجرد كلمة واحدة . نعرف أن هناك مجموعات بدوية من أدوم دخلت مصر من الصحراء . تُشير مسألة منفتح إلى إسرائيل كمجموعة من الناس تعيش سابقاً في كنعان ، ولكن ؛ ليس لدينا أي فكرة ، ولا حتى كلمة واحدة ، حول الإسرائيليين الأوائل في مصر : لا في النقوش التذكارية على حيطان المعابد ، ولا في نقوش القبور ، ولا في أوراق البردي . إسرائيل غائبة - سواء كخصم مُحتمل لمصر ، أو كصديق ، أو كأمة مُستعبدة .. وببساطة ؛ لا توجد هناك أي اكتشافات في مصر يُمكن ربطها بفكرة مجموعة عرقية أجنبية متميزة (في مقابل فكرة تركز العمال المهاجرين القادمين من أماكن عديدة) تعيش في منطقة متميزة من الدلتا الشرقية ، كما يفهم . ضمناً . من القصة التوراتية ، التي تتكلم عن بني إسرائيل ، الذين يعيشون سوياً في أرض 'جاسان' (سفر التكوين 47 / 27) <sup>(1)</sup> .

هناك شيء أكثر : إن هروب أكثر من مجموعة صغيرة جداً من السيطرة المصرية في عهد رعمسيس الثاني يبدو أمراً مُستبعداً جداً ، مثله مثل عبور تلك المجموعة للصحراء ودخولهم

(1) نص الآية : [ وسكن إسرائيل في أرض مصر في أرض جاسان وتملكوا فيها وانمروا وكثروا جداً . ] (الترجم) .

إلى كَنْعَانَ؛ لأنَّ مصرَ. في القرن الثالث عشر. كانت في قَمَّة سُلْطَها، بل كانت القوَّة المهيمنة في العالم. وكانت القبضة المصريَّة على كَنْعَانَ قويَّة؛ وكانت الحُصُونُ المصريَّة مبنية في أماكن مُختلفة في البلاد، وكان المسؤولون المصريون يُديرون شُؤون المنطقة. في رسائل العمارنة، التي يعود تاريخها إلى قرن قبل ذلك، ذُكر لنا أنَّ وحدة من خمسين جندياً مصرياً كانت كبيرة بما فيه الكفاية لقمع أي اضطراب في كَنْعَانَ. وخلال كُلِّ فترة المملَكَة الجديدة، زَحَفَتْ الجيُوشُ المصريَّة الكبيرة - أكثر من مرَّة - عبر أراضي كَنْعَانَ إلى الشَّمال، إلى حُدُود نهر الفُرات في سُوريا. لذلك؛ كان الطَّرِيقُ البرِّي الرَّئيسي، الذي يذهب من الدلتا على طُول السَّاحل الشمالي لسيناء، وإلى غزَّة، وبعد ذلك إلى قلب كَنْعَانَ، ذا أهميَّة بالغة بالنسبة للنَّظام الفرعوني.

كان الامتداد الأكثر ضعفاً، أو بتعبير آخر؛ الأكثر عُرضة للاستفادَة منه، من الطَّرِيق الذي يعبر الصَّحراء القاحلة والخطرة شمال سيناء، بين الدلتا وغزَّة، كان هو الأكثر حمايةً. فكان هناك نظام مُتطور من الحُصُونُ المصريَّة، ومخازن القمح، والآبار أُسِّست على مسافة مسيرة يوم على طُول الطَّرِيق، الذي دُعيَ طريق حورس Horus. وقد مكَّنت محطات الطَّرِيق هذه الجيشَ الإمبراطوريَّ المصريَّ من عبُور شبه جزيرة سيناء بشكلٍ مُلائم وكُفء، كُلَّمَا عُنَتْ الضَّرورة. تُخبرنا سجلات الفاتح المصري العظيم "تحتَّمس الثالث" بأنَّه زَحَفَ بقُوَّاته من الدلتا الشَّرقيَّة إلى غزَّة، وهي مسافة تبلغ حوالي 250 كيلومتراً، في عشرة أيَّام. تُظهر تضاريس أَرْضِيَّة في عهد والدرع ميسس الثاني، الفرعون سيتي الأول Seti I (حوالي 1300 ق.م)، خزانات الماء والحُصُونُ على شكل خريطة قديمة تتبَّع الطَّرِيق من الدلتا الشَّرقيَّة إلى الحُدُود الجنوبيَّة الغربيَّة لكَنْعَانَ (الشَّكُل رقم 7). تمَّ اكتشاف بقايا هذه الحُصُونُ أثناء التَّحقيقات الأثاريَّة في شمال سيناء من قِبَل "إليعازر أورين" Eliezer Oren من جامعة بن غُورْيُون، في السبعينات من القرن الماضي. اكتشف "أورين" بأنَّ كُلَّ واحد من محطات الطَّرِيق هذه، والذي يتوافق - بشكلٍ كبير جداً مع خريطة التُّضاريس المصريَّة القديمة المذكورة - كان يشمل ثلاثة عناصر: حصن قوي مصنوع من الطَّابوق على النَّمط التَّموجي المعروف للهندسة المعماريَّة العسكريَّة المصريَّة، وتجهيزات خزن للتَّموينات الغذائيَّة، وخزَّان للماء.



الشكل 7: نُقش نافر يعود لعهد الفرعون سيتي الأول (Seti I 1300 ق.م)، نُقش على حائط في معبد آمون في الكرنك، تُصور الخريطة الطريق الدولي من مصر إلى كنعان على طول الساحل الشمالي لشبه جزيرة سيناء. تمت الإشارة إلى الحصون المصرية وخزانات الماء في أسفل السجل.

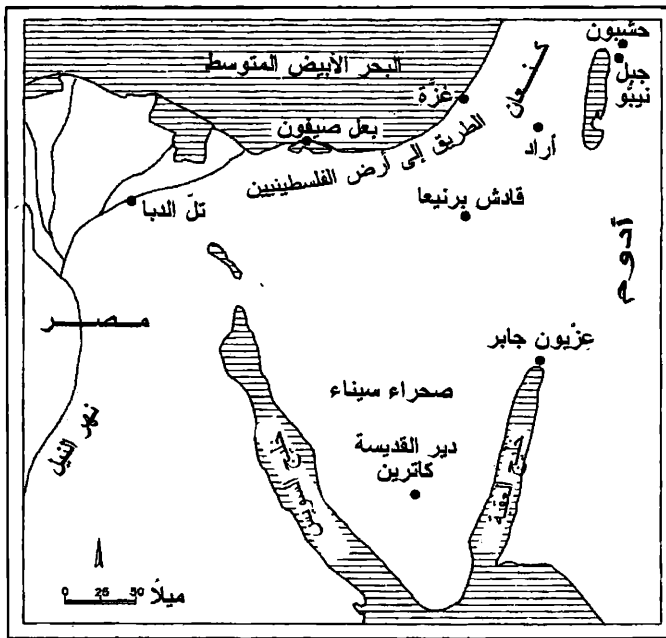
إذا وضعنا جانباً إمكانية المعجزات الإلهية، فإنه من الصعب جداً تقبل فكرة هروب مجموعة كبيرة من العبيد من مصر، عبر التحصينات الخدودية الشديدة، إلى الصحراء، وبعد ذلك؛ إلى كنعان أثناء مثل هذا الحضور المصري الهائل؛ أي مجموعة تحاول الهروب من مصر ضد إرادة فرعون، كانت ستعقب بسهولة، ليست فقط بواسطة جيش مصري يطاردها من الدلتا، ولكن؛ أيضاً من قبل الجنود المصريين المتمركزين في الحصون المصرية في شمال سيناء، وفي كنعان.

في الحقيقة؛ يوجد في القصة التوراتية ما يلمح إلى خطر محاولة الهروب بسلوك الطريق الساحلي. لذا؛ كان البديل الوحيد هو التحول إلى البقاع المقفرة لشبه جزيرة سيناء، لكن إمكانية تجوّل وهيام مجموعة كبيرة من الناس في شبه جزيرة سيناء تتناقض أيضاً مع علم الآثار.

### الهائمون الشبحيون؟

طبقاً للقصة التوراتية؛ هام بنو إسرائيل في صحراء وجبال شبه جزيرة سيناء، وتحركوا بسهولة فيها، وأقاموا المخيمات في أماكن مختلفة، لمدة أربعين سنة (الشكل رقم 8). وحتى لو كان عدد الإسرائيليين الهارين (الذي يذكر النص التوراتي أنه كان ستمئة ألف) عدداً مبالغاً فيه بشدة، أو يمكن أن يُترجم بأنه يُمثل في الواقع - وحدات أصغر من الناس، فإن النص التوراتي يصف بقاء عدد ضخم من الناس أحياء من الناس تحت أكثر الظروف الحياتية صعبة. لا بد أن تظهر هناك بعض البقايا الأثرية لتجوّلهم - على مدى جيل كامل - في سيناء، ولكن؛

ما عدا الحُصُونِ المِصرِيَّةِ على طُولِ السَّاحِلِ الشَّمَالِي، لم يتمَّ -أبداً- التَّعرُّفُ على أيِّ أثرٍ لآيِّ تَخْيِيمٍ مُمَيِّزٍ في سِيْنَاءِ، أو أيِّ إشارَةٍ ولو واحدةٍ لاحتلالِ أيِّ مَنْطِقَةٍ من صحرائها منذُ عهدِ رَعْمِيسِ الثَّانِي، وأَسْلَافِهِ المُبَاشِرِينَ، أو خُلَفَائِهِ. وليس هذا نَاجِماً عن نَقْصٍ في مُحَاوَلَةِ كَشْفِ مِثْلِ هَذِهِ الأَثَارِ، بل إنَّ الاستِطْلَاعَاتِ الأَثَارِيَّةَ المُتَكَرِّرَةَ في كُلِّ مَنْطِقٍ شَبِهَ الجِزِيرَةِ، بما في ذلكِ المَنْطِقَةُ الجَبَلِيَّةُ حَوْلَ المَوْجِعِ التَّقْلِيدِي لِجَبَلِ سِيْنَاءِ، قُرْبَ دِيْرِ القُدَيْسَةِ كَاتَرِينِ (انظُرْ المُلْحَقَ ب)، لم تُؤدِّ إِلاَّ إلى نَتِيجَةٍ سَلْبِيَّةٍ فَحَسْبِ، فليس هُنَاكَ حَتَّى شِقْفَةٌ فَخَّارِيَّةٌ وَحِيدَةٌ، ولا بِنَاءٌ، ولا بَيْتٌ وَاحِدٌ، ولا أثرٌ لَعَسْكَرٍ قَدِيمٍ. وقد يُجَادَلُ البَعْضُ بِأَنَّهُ لا يُمَكِّنُ أَنْ تُتَوَقَّعَ مِنْ فِرْقَةٍ صَغِيرَةٍ نَسِيًّا مِنَ الإِسْرَائِيلِيِّينَ التَّائِهِينَ أَنْ يَتْرَكُوا خَلْفَهُمْ بَقَايَا مَادِيَّةٍ هَامَّةً تَبْقَى عِبْرَ القُرُونِ.



الشكل 8: شبه صحراء سيناء، يظهر فيها أهم المواقع المذكورة في قصة الخروج.

لكنَّ التَّقْنِيَّاتِ الأَثَرِيَّةِ الحَدِيثَةِ قَادِرَةٌ تَمَاماً عَلَى اقْتِضَاءِ آثَارِ، حَتَّى أَدْنَى البَقَايَا الضَّئِيلَةِ جَدّاً لمجموعة من الصيادين، أو البدو الرعاة في جميع أنحاء العالم.

في الحقيقة؛ السَّجَلُ الأَثَرِي لِشِبْهِ جَزِيرَةِ سِينَاءِ يَكْشِفُ عَنِ أَدَلَّةِ لِلنَّشَاطِ الرَّعَوِيِّ فِي مِثْلِ تِلْكَ العُصُورِ؛ كَالأَلْفِيَّةِ الثَّالِثَةِ ق. م، وَفِي الفتراتِ الهِيلِنِيَّةِ، وَالبِيْزَنْطِيَّةِ، وَلَكِنْ؛ وَبِيسَاطَةِ؛ لَا يُوجَدُ مِثْلَ هَذَا الدَّلِيلِ فِي الوَقْتِ المُفْتَرَضِ لِلخُرُوجِ الجَمَاعِيِّ فِي القَرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ ق. م. .

إنَّ الأَسْتِنَاجَ -بأنَّ الخُرُوجَ الجَمَاعِيِّ لَمْ يَحْدُثْ، لَا فِي الوَقْتِ، وَلَا حَسَبِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي تَذَكِّرُهَا التَّوْرَةُ- يَبْدُو غَيْرَ قَابِلٍ لِلدَّخْضِ، عِنْدَمَا نَبْحُثُ عَنِ الشَّوَاهِدِ فِي المَوَاقِعِ المُعَيَّنَةِ الَّتِي قِيلَ إنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ خِيَمُوا فِيهَا فِي الفَتْرَةِ الزَّمَنِيَّةِ المُتَمَدِّدَةِ أَثْنَاءَ هِيَامِهِمْ وَتِيهِمِهِمْ فِي الصَّحْرَاءِ (سَفَرُ العَدَدِ: 33)، وَالَّتِي كَانَ لِأَبْدَانِهَا أَنْ تُوجَدَ فِيهَا بَعْضُ المُكْتَشَفَاتِ، أَو البَقَايَا الأَثَرِيَّةِ المُؤَيَّدَةِ. طَبَقاً لِلقِصَّةِ التَّوْرَاتِيَّةِ، خِيَمَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي قَادِشِ بَرْنَيْعَ لثَمَانِيَةِ وَثَلَاثِينَ مِنَ السَّنَوَاتِ الأَرْبَعِينَ مِنْ رِحْلَاتِهِمْ.

إنَّ التَّحْدِيدَ العَامَّ لِهَذَا المَوْقِعِ يَظْهَرُ -بوضوح- مِنْ وَصْفِ الحُدُودِ الجَنُوبِيَّةِ لِأَرْضِ إِسْرَائِيلَ المَذْكُورِ فِي سَفَرِ العَدَدِ: 34. وَقَدْ تَمَّ التَّعَرُّفُ عَلَيْهِ مِنْ قِبَلِ عُلَمَاءِ الأَثَارِ بِأَنَّهُ الوَاحَةُ الكَبِيرَةُ وَالمَسْفِيَّةُ بِشَكْلِ جَيِّدٍ لِأَمِّ القَدِيرَاتِ فِي شَرْقِ سِينَاءِ، عَلَى الحُدُودِ بَيْنَ إِسْرَائِيلِ الحَدِيثَةِ [فِلَسْطِينِ المَحْتَلَّةِ] وَمِصْرَ. وَيَبْدُو أَنَّ الأَسْمَ قَادِشَ تَمَّ الاحتفاظُ بِهِ عِبْرَ القُرُونِ بِشَكْلِ اسْمِ نَبْعِ صَغِيرٍ مِنَ المَاءِ يُسَمَّى حَالِيّاً "أمّ قادس" Em Qadis. وَتُوجَدُ اليَوْمَ فِي مَرَكِزِ هَذِهِ الوَاحَةِ كَوْمَةٌ (أَوْ تَلٌّ) فِيهِ بَقَايَا حِصْنِ صَغِيرٍ يَعودُ للعَصْرِ الحَدِيدِيِّ المُتَأَخَّرِ، وَلَكِنْ كُلُّ التَّقْنِيَّاتِ وَالاسْتِطْلَاعَاتِ الأَثَرِيَّةِ المُتَكَرِّرَةِ -لِحَدِّ الآنَ، فِي كَافَّةِ أُنْحَاءِ المِنطَقَةِ- لَمْ تُفْلِحْ فِي تَزْوِيدِنَا حَتَّى بِدَلِيلٍ وَاحِدٍ -عَلَى الأَقْل- لِنَشَاطِ حَيَاتِي فِي العَصْرِ البرُونْزِيِّ المُتَأَخَّرِ، فَلَمْ يَتَمَّ اكْتِشَافُ حَتَّى مُجَرَّدِ شَقِيقَةِ فِخَّارِيَّةٍ وَحِيدَةٍ تَرَكَّهَا وَرَاءَهَا جَمَاعَةٌ صَغِيرَةٌ جَدّاً مِنْ مِنَ الأَجَائِيْنَ الحَافِظِينَ الهَارِيِّينَ.

أحد الأماكن الأخرى التي تُحاول بعض التقارير أن تجعلها مكاناً يُعتقد أن بني إسرائيل أقاموا فيه مُخِيْمَاتٍ هُوَ "عزيون" Ezion geber. وَقَدْ قَادَ ذَكَرَهُ فِي مَوَاضِعٍ أُخْرَى مِنَ الكِتَابِ المُقَدَّسِ (العِبْرِيِّ) كَعِيْنَاءَ لِاحِقِ عَلَى الرَّأْسِ الشَّمَالِيِّ لِحَلِيجِ العَقِبَةِ، عُلَمَاءُ الأَثَارِ إِلَى مُطَابَقَتِهِ مَعَ التَّلِّ الوَاقِعِ عَلَى الحُدُودِ الحَدِيثَةِ بَيْنَ إِسْرَائِيلِ وَالأُورْدُنِّ، عَلَى مُتَمَتِّصِ الطَّرِيقِ بَيْنَ بِلْدَتَيْ إِيلَاتِ وَالعَقَبَةِ. وَقَدْ كَشَفَتِ التَّقْنِيَّاتِ الأَثَرِيَّةُ هُنَا فِي السَّنَوَاتِ 1938-1940 عَنِ وُجُودِ بَقَايَا هَامَةٍ تَعودُ

للفترة المتأخرة من العصر الحديدي، لكن؛ لا أثر مطلقاً لوجود استيطان في هذه المنطقة خلال الفترة المتأخرة من العهد البرونزي. من بين القائمة الطويلة للمخيمات في البرية، يُعدُّ قادش برنيع وعزبون- جبر 'Ezion geber' الموقعين الوحيدين اللذين يُمكن التعرف عليهما بنحو سليم ومضمون، ولكن؛ لم يتم اكتشاف أي أثر لإسرائيليين تائهين في أي من هذين الموقعين!

وماذا عن الشعوب والمستوطنات الأخرى في قصّة تيه وتحوال الإسرائيليين؟ تروي القصّة التوراتية كيف أنّ الملك الكنعاني عراد Arad، الساكن في الجنوب، حارب إسرائيل، وسبى منهم سبيّاً، ممّا أغضبهم بشدّة، لدرجة أنهم دعوا الربّ أن ينصرهم على هؤلاء القوم؛ لكي يقوموا بتدمير جميع المذن الكنعانية (سفر العدد 21 / 1-3).

كشفتُ عشرون سنة - تقريباً - من التقيب المُركّز في موقع تلّ عراد، شرق نير شبع (بئر سبع)، عن بقايا مدينة كبيرة تعود للفترة المبكّرة من العصر البرونزي، وتمتدُّ على رقعة كبيرة؛ مساحتها حوالي خمسة وعشرين هكتاراً، وعن حصن يعود للعصر الحديدي، ولكن؛ لم يتمّ اكتشاف أيّ آثار أو بقايا من العصر البرونزي المتأخّر - على الإطلاق - فيما يبدو دليلاً على أنّ المكان كان مهجوراً تماماً في تلك الحقبة الزمنية. والأمر نفسه - تماماً - ينطبق على كُله وادي بئر سبع. وهذا يبيّن - بكلّ بساطة - أنّ عراد لم يكن لها أيّ وجود في العصر البرونزي المتأخّر.

الوضع نفسه نجده - بوضوح - في الضمّة الشرقيّة لنهر الأردن؛ حيثُ اضطرّ الإسرائيليون التائهون للاشتباك في مدينة 'حشبون' عاصمة سيحون مع ملك الأموريين، الذي حاول منع الإسرائيليين من المُرور عبر أرضه في طريقهم إلى كنعان (سفر العدد 21 / 21-25، سفر التثنية 2 / 24-35، سفر القضاة 11 / 19-21).

فقد أظهرت التقيبات الأثرية في تلّ حسيبان Hesban جنوب عمّان؛ أي الموقع القديم لمدينة 'حشبون'، أنّه لم تكن هناك مدينة تعود للفترة المتأخرة من العصر البرونزي؛ بل؛ ولا حتّى قرية صغيرة هناك، بل هناك ما هو أكثر من ذلك. طبقاً للتوراة؛ عندما تحرك بنو إسرائيل على طول هضبة الضمّة الشرقيّة للأردن، اجتمعوا، وواجهوا مقاومة ليس - فقط - في مواب؛ ولكن؛ أيضاً، من قبل الدول الكاملة لادوم وعمون. رغم ذلك؛ نعرف - الآن - بأنّ هضبة الضمّة الشرقيّة للأردن إنّما سكنت - بشكل متناثر جداً - في العصر البرونزي المتأخّر.



في الحقيقة؛ أكثر أجزاء هذه المنطقة - بما في ذلك أدم، التي تروي التوراة أنها كانت دولة كاملة يحكمها ملك - لم تكن - في ذلك الوقت - مسكونة من قِبَل سُكَّانٍ مُقِيمِينَ فِيهَا بِشَكْلٍ دائم. بعبارة واضحة وبسيطة؛ إنَّ علم الآثار يبيِّن لنا أنه لم يكن هناك مَلُوكٌ لأدم، يُمكن للإسرائيليين أن يلتقوا بهم، أو يجتمعوا معهم.

يجب أن يكون قد اتَّضح نَمَطُ الأُمُور حَتَّى الآن. المواقع التي ذُكرت في قِصَّة الخُرُوج التوراتية مواقع حقيقية، بعضها كان مشهوراً ومسكوناً - على ما يبدو - في الفترات السابقة بزمنٍ قديم جداً على تأسيس مملكة يهوذا، أو في الفترات الزمنية التالية بوقت متأخر جداً لتأسيس تلك المملكة؛ أي عندما بدأت كتابة نص القصة التوراتية للمرة الأولى. لسوء حظ أولئك الذين يبحثون عن حادثة خُرُوج تاريخية، لم تكن تلك المواقع مسكونة - بالتحديد - في ذلك الوقت الذي - يُروى - أنها (أي تلك المواقع) لعبت فيه دوراً في أحداث تيه وتجوال بني إسرائيل في البرية.

عودة إلى المستقبل: الدلائل التي تُشير إلى القرن السابع ق م:

إذن؛ أين يَضَعُنا ما تقدَّم كلُّهُ؟ هل يُمكننا أن نقول بأنَّ الخُرُوج الجماعي، والتيه، والأهم من ذلك - إعطاء الشريعة في سيناء، لا تمتلك أيُّ مُستوى من الحقيقة؟!

لقد تمَّ تضمين قصة الخُرُوج عديداً من العناصر التاريخية والجغرافية في فترات زمنية عديدة جداً بنحو أصبح من الصعب معه تصوُّر وُفُوع مثل هذه الحادثة في فترة فريدة ووحيدة. هناك الإيقاع المُستمرُّ (أو غير المُحدَّد بزمن مُعين) للهجرات إلى مصر في العصر القديم. وهناك الحادثة المُعيَّنة لهيمنة الهكسوس على الدلتا في العصر البرونزي المتوسَّط. هناك عناصر توححي بوجُود مُشابهات في العصر الرعمسيس في مصر، مُترافقة مع أوَّل ذُكر لبني إسرائيل (في كَنْعَانَ، وليس مصر). كثير من أسماء الأماكن في سفر الخُرُوج؛ مثل البحر الأحمر (في العبرية: يام سوف)، ونهر الشيحور في الدلتا الشرقية (سفر يشوع 13 / 3)، ومحطَّات توقُّف الإسرائيليين في نبي - ها - هيروث، تبدو أسماء ذات أصولٍ لُغويةٍ مصرية، كلُّها مُعلَّقة بجغرافية الخُرُوج الجماعي، لكنَّها لا تُعطي أيَّة إشارة واضحة لكونها تعود لفترة مُعيَّنة في التاريخ المصري.

يتضمن الغموض التاريخي لقصة الخروج الجماعي حقيقة أنه لا توجد هناك أي إشارة بالاسم لأي ملك معين للمملكة المصرية الجديدة (بينما تذكر مواد توراتية لاحقة الفراعنة بأسمائهم، على سبيل المثال "شيشانق" Shishak و"نكا (نخاو)" Necho). أما تعريف رععميس الثاني كفرعون الخروج؛ فقد جاء كنتيجة لقرضيات علمية حديثة مستندة على مطابقة المكان الذي اسمه (بي-رععميس) على الفرعون رععميس (سفر الخروج 1 / 11؛ 12 / 37)، لكن؛ هناك بضع صلات غير قابلة للجدل مع القرن السابع ق.م. ما عدا الإشارة المهمة إلى خوف الإسرائيليين من سلوك الطريق الساحلي، لا يوجد هناك أي ذكر للحصون المصرية في شمال سيناء، أو لمعاقلهم في كتعان. قد تعكس التوراة حقيقة وجود مملكة جديدة في مصر، لكنها قد تعكس - بالدرجة نفسها - طرؤفاً تالية في العصر الحديدي، أقرب إلى الوقت الذي تم تدوين قصة الخروج فيه.

وذلك بالضبط - ما اقترحه عالم الآثار المصرية دونالد ريدفورد. أكثر التفاصيل الجغرافية ثباتاً وتذكيراً في قصة الخروج إنما جاءت من القرن السابع ق.م، أثناء العصر العظيم لازدهار مملكة يهوذا؛ أي بعد ستة قرون من الزمن المُتَرَض لحدوث حادثة الخروج الجماعي. لقد أظهر ريدفورد - بوضوح - كم من التفاصيل في قصة الخروج يمكن أن توضح في هذا الإطار الزمني، الذي كان - أيضاً - آخر فترات السلطة الإمبراطورية لمصر، تحت حكم السلالة السادسة والعشرين.

اتجه الملوك العظماء لتلك السلالة، "بسناتيك الأول" (Psammetichus 1) 610-640 ق.م، وابنه نكا (أو نخاو) (595-610) Necho ق.م، بنحو متعمد وواع، منهج وقالب فراغة مصر القدامى جداً. فكانوا نشيطين في بناء المشاريع في كافة أنحاء الدلتا، في محاولة لإعادة الأجداد الزائلة لدولتهم، وزيادة قوتها الاقتصادية والعسكرية. أسس "بسناتيك الأول" عاصمته في سيس Sais في الدلتا الغربية (من هنا؛ جاء اسم سيت للسلالة السادسة والعشرين). أما "نكا (أو نخاو)؛ فقد انشغل في مشاريع أكثر طموحاً في الدلتا الشرقية؛ حيث حفر قناة عبر برزخ السويس؛ لكي يربط بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر من خلال آخر روافد النيل الشرقية. وقد كشفت التنقيبات الأثرية في منطقة الدلتا الشرقية بعض تلك النشاطات العمرانية الاستثنائية التي قامت بها السلالة السيتية Saite Dynasty، وحضور أعداد كبيرة من المستوطنين الأجانب هناك.

في الحقيقة ؛ يُزودنا عصر السلالة السيتية بأحد أفضل الأمثلة التاريخية عن ظاهرة استقرار أجناب في دلتا النيل . بالإضافة إلى المستعمرات التجارية اليونانية ، التي أُسست هناك منذُ النصف الثاني للقرن السابع ق .م ، كان العديد من المهاجرين من يهودا مقيمين في الدلتا ، مُشكّلين جالية كبيرة في أوائل القرن السادس ق .م (سفر أرميا 44 / 1 ؛ 46 / 14) . علاوة على ذلك ، تتوافق الأشغال العامّة التي بدأت في تلك الفترة - بشكل كبير - مع التفاصيل المروية في قصة الخروج التوراتية . وعلى الرّغم من أن الموقع الذي يحمل الاسم 'فيثوم' Pithom مذكور في نص قديم يعود للقرن الثالث عشر ق .م ، إلا أن مدينة 'فيثوم' المشهورة والأكثر بُروزاً إنّما بُنيت في أواخر القرن السابع ق .م . . لقد قادت النقوش التي وُجدت في تل مسخوطة Tell Maskhuta في الدلتا الشرقية ، علماء الآثار إلى مطابقة هذا الموقع مع 'فيثوم' Pithom التي وُجدت في وقت تال . كَشَفَتِ التّحقيقات الأثرية هناك بأنّه - باستثناء فترة استيطان قصيرة حَدَثَتْ في العصر البرونزي المتوسّط - لم تُصبح المدينة مأهولة - بشكل كامل - بالسكّان إلا في وقت السلالة السادسة والعشرين ، عندما تطوّرت مدينة هامة هناك .

على المنوال نفسه ؛ اسم 'مجدل' Migdol (الذي ذُكر في سفر الخروج 14 / 2) هو عنوان مُشترك لحصن وُجدَ في عهد المملّكة المصرية الجديدة ، لكنّه - في الوقت نفسه - اسم خاصٌّ ومهمٌّ جداً ، ومعروف في الدلتا الشرقية في القرن السابع ق .م . . وليس مُصادفة أن النبي أرميا ، الذي عاش في أواخر القرن السابع وأوائل القرن السادس ق .م ، يُخبرنا (44 / 1 ؛ 46 / 14) عن يهود يعيشون في الدلتا ، ويذكر اسم 'مجدل' Migdol بشكل مُحدّد .

/خير/ ؛ الاسم 'جاسان' - الذي ذُكر كاسم للمنطقة التي استقرّ فيها الإسرائيليون في الدلتا الشرقية (التكوين 45 / 10) - ليس اسماً مصرياً ، بل اسم سامي . منذُ بدايات القرن السابع ق .م ؛ توسّع العرب القيداريون إلى حواف الأراضى الشرقية ، وفي القرن السادس ق .م ، وصلوا إلى الدلتا ، ثم أصبحوا - لاحقاً ، في القرن الخامس - عاملاً مهميناً في الدلتا . طبقاً لريدفورد ، يُشتق الاسم 'جاسان' من 'جيسيم' Geshem اسم الأسرة الملكيّة القيدارية .

تتجلى خلفيّة القرن السابع ق .م - بنحو واضح ، أيضاً - في بعض الأسماء المصرية الغربية التي ذُكرت في قصة يوسف التوراتية . كلُّ الأسماء الأربعة : صَفَنَات قَعْنِيح Za phenath

paneah) (الوزير الكبير للفرعون)، و"فوطيفار" Potiphar (الضابط الملكي)، وفوطي فارَ P o t i p h e r a (اسم كاهن)، وأسَنَات A senath (بنت فوطي فارَ Potiphara الكاهن)<sup>(1)</sup>، رغم أنها استُخدمت من حين لآخر في الفترات السابقة من التاريخ المصري، إلا أنها لم تُصبح أسماء شعبية جداً إلا في القرنين السابع والسادس ق.م. . ومثال آخر على تفاصيل تبدو عَرَضِيَّة في القصة، وتُثبت ما نحنُ بصددَه من أن القصة التوراتية قد تمَّ تكميلها وإحكام العديد من التفاصيل - التي تنتمي لفترة زمنية مُعيَّنة - فيها: الإشارة إلى الخوف المصري من غزو مُحتمَل من جهة الشرق. لم تتعرض مصر - أبداً - للغزو من جهة الشرق قبل هجمات الإمبراطورية الآشورية في القرن السابع ق.م. . رغم ذلك؛ نجد في قصة يوسف، تصعيداً لتوتر مُفاجئ عندما يتهم يوسف إخوته، الذين كانوا قد وصلوا لتوهم من كنعان، بأنهم: [جواسيس أنتم! لتروا عورة الأرض جثم! ] (تكوين 42/9). وفي قصة الخروج الجماعي؛ يخاف فرعون من أن يتعاون الإسرائيليون المغادرون مع العدو. هذه اللّمسات الخاصة، لا يمكن أن يكون لها معنى مفهوم إلا بعد مضي العهد العظيم للقوة المصرية في الفترة الرَّعسميسية؛ حيث يُمكن فهمها على خلفيّة الغزوات المتعددة، التي أصبحت تتعرض لها مصر - التي ضعفت قوتها العسكرية حدّ كبير - من قِبَل الآشوريين، والبابليين، والفرس، في القرنين السابع والسادس ق.م. .

أخيراً؛ كلُّ الأماكن الرئيسيّة التي لعبت دوراً في قصة تيه الإسرائيليين، إنما سُكنت في القرن السابع ق.م؛ وفي بعض الحالات؛ لم تُستوطن إلا في ذلك الزمان فقط. كان هناك حصن كبير قد تمَّ إنشاؤه في قادش برنيع في القرن السابع ق.م. . هناك خلاف بين علماء الآثار حول هوية بُناة الحصن، فمنهم من يرى أنه كان مخفراً أمامياً في أقصى جنوب مملكة يُداب Judab على طُرُق الصحراء في أواخر القرن السابع ق.م، في حين يراه آخرون حصناً بُني في أوائل القرن السابع ق.م، تحت رعاية آشورية. وعلى كلا الرأيين فإن ذلك الموقع البارز جداً في قصة الخروج الجماعي كمكان إقامة المُخيمات الرئيسي للإسرائيليين، كان مهمماً. وربما مخفراً صحرائياً أمامياً مشهوراً - في الفترة الملكية المتأخرة. وكذلك؛ لم يزدهر الميناء

(1) انظر سفر التكوين: 41/45. (المترجم).

الجنوبي 'عزيون جبر' Ezion geber إلا في هذه الفترة. وعلى النوال نفسه، لم تُصبح ممالك الضمّة الشرقية للأردن مواقع مشهورة وأهلة - بشكل جيد - بالسكّان إلا في القرن السابع ق. م. . . وأكثر تلك الممالك أهميّة في ذلك الموضوع حالة مملكة 'أدوم'. - تروي التوراة كيف أرسل موسى مبعوثين من 'قادش برزيع' إلى ملك 'أدوم'، طالباً منه السّماح بعبور أراضيه في الطريق إلى كنعان. وقد رفض ملك أدوم منحه الرخصة للإسرائيليين الذين اضطروا لتجاوز أرضه. إذن؛ طبقاً للقصة التوراتيّة؛ كان هناك مملكة في أدوم في ذلك الوقت. هذا؛ في حين تُشير التحقيقات الأثاريّة إلى أنّ أدوم لم تصل إلى حالة دولة إلا تحت الرعاية الآشوريّة في القرن السابع ق. م. . . أمّا قبل تلك الفترة؛ فلم تكن أدوم سوى منطقة هامشيّة مسكونة بشكل متناثر، يقطنها - بشكل رئيسي - جماعات من البدو الرعاة. ولا يقل أهميّة عن ذلك، أنّ مملكة أدوم تمّ تدميرها من قبل البابليين في القرن السادس ق. م، ولم تعاف من هذا الدمار وتعود لنشاطها الاستيطاني إلا في العهد الهلانيّ.

تترجح كلّ هذه الإشارات بأنّ قصة الخروج الجماعي أخذت شكّلها النهائي في عهد السّلالة السادسة والعشرين؛ أي في النصف الثاني من القرن السابع والنصف الأوّل من القرن السادس ق. م. . . تُبين العديد من الإشارات - المذكورة في تلك القصة التوراتيّة - والتي تتحدّث عن أماكن وأحداث مُعيّنة لم تُوجد إلا في تلك الفترة الزمّنيّة، تُبين - تماماً، وبشكل واضح - أنّ مؤلّفيها أقصّوا العديد من التفاصيل المعاصرة في تلك القصة. (يُشبّه ذلك - بنحو كبير جداً - ما نجده في بعض المخطوطات الأوروپيّة، التي يعود زمنها إلى القرون الوسطى، والتي تتحدّث عن الشرق الأوسط في العصور الوسطى، فتُصوّر مدينة أورشليم (القُدس) كمدينة أوروپيّة ذات أبراج وشرفات، وذلك لكي تُصعّد من تأثيرها المباشر على القراء المعاصرين).

كان من الممكن أن تكون هناك قصص أقدم، وأقلّ أسطوريّة، تتحدّث عن التحرّر من مصر، ثمّ نسجها بشكل ماهر؛ لتُصبح ملحمة قويّة، استعارت مناظر طبيعيّة معروفة، وأثار باقية، ومناطق مالوفة.

لكن؛ هل هو مجرد تصادف أن تكون التفاصيل الجغرافيّة والعربيّة لكلا قصص الآباء في سفر التكوين وقصة الخروج في سفر الخروج، علامات واضحة على إعدادها في القرن السابع

ق. م؟ هل تم تضمين تلك القصص لنا وجوهراً من الحقيقة التاريخية الأقدم زماناً؟ أم كانت القصص الأساسية قد تم تأليفها - لأول مرة - في ذلك الوقت؟

تحديّ الضرعون الجديد:

من الواضح أنّ قصة التحرير من مصر لم تعد كعمل جديد مبتكر من أساسه في القرن السابع ق. م، بل إن الخطوط العامة الرئيسية للقصة قد عرفت - بالتأكيد - قبل فترة طويلة من ذلك الوقت، كما نلاحظ ذلك مثلاً في التلميحات إلى الخروج الجماعي والتيه في البرية التي تضمها كلٌّ من وحي سفر النبي عاموس (2/10، 3/1 و 9/7)، وسفر النبي هوشع (11/1، و 13/4)، قبل قرن كامل. كلاهما يشتركان في ذاكرة حدّث تاريخي عظيم، يتعلّق بالتحرر من مصر، ووقع في الماضي البعيد، لكنّها أي نوع من الذاكرة كانت؟

يرى عالم الآثار المصريّة دونالد ريدفورد Donald Redford أنّ الأحداث العظيمة لاحتلال الهكسوس لمصر، ثم طردهم العيف من الدلتا، بقيت أصدواها تدويّ لعدّة قرون في أذهان الكنعانيين، حتّى أصبحت ذكرى مركزية مشتركة لدى كلّ شعب كنعان. هذه القصص لمستعمرين كنعانيين استقروا في مصر، حتّى وصلوا إلى السيطرة على منطقة الدلتا، ثم أجبروا بعد فترة على العودة إلى وطنهم، كان يمكن توظيفها كوسيلة للتضامن ومقاومة السيطرة المصريّة على كنعان التي تعاطمت أثناء العصر البرونزي المتأخّر. كما سنرى، مع الاستيعاب النهائي للجماعات الكنعانية العديدة، في الأمة المتبلورة لإسرائيل، ربّما تكون تلك الصورة القويّة قد نمت لما تمثله من أهميّة بالنسبة لحريّة تلك الجماعات الآخذة بالانتعاش بشكل مطّرد. وفي هذا الإطار؛ لا بدّ أن تكون قصة الخروج، في عهد مملكتي إسرائيل ويهوذا، قد ثبتت، وتواصلت، ونمت، وتطوّرت، لتصبح قصة وطنيّة: نداء إلى الوحدة الوطنيّة في وجه التهديدات المستمرة للإمبراطوريات العظيمة.

إنّه من المستحيل الجزم بصحّة أو خطأ القول بأنّ القصة التوراتيّة كانت توسّعاً وإسهاباً لذكريات مهمّة لهجرة كنعانيين إلى مصر، ثم طردهم من الدلتا في الألفية الثانية ق. م، إلّا أنّه من الواضح أنّ القصة التوراتيّة للخروج الجماعي، اشتقت قوتها ليس من التقاليد القديمة

والتفاصيل الجغرافية والسكانية المعاصرة فحسب، بل اشتقت قوتها - بدرجة أكبر مباشرة - من الحقائق السياسية المعاصرة.

كان القرن السابع عهد إحياء عظيم في كلا مصر ويهوذا. في مصر، بعد مدة طويلة من الانحطاط، وسنوات صعبة من الخضوع للإمبراطورية الآشورية، استولى الملك 'بسناتيك' Psammetichus على السلطة، وحوّل مصر إلى قوة دولية رئيسية من جديد. وعندما بدأت الإمبراطورية الآشورية بالانهيار، تحرّكت مصر لملء الفراغ السياسي، فاحتلت أراضي آشورية سابقة، وأسست فيها حكماً مصرياً دائماً، بين 640 - 630 ق.م، وعندما سحب الآشوريون قوتهم من: 'فلسطينيا' Philistia و'فينيقيا' Phoenicia، ومنطقة مملكة إسرائيل السابقة، سيطرت مصر على أغلب تلك المناطق، وبهذا؛ حلت الهيمنة السياسية لمصر محلّ النير الآشوري.

أمّا في يهوذا؛ فوافق ذلك الزمان عهد حكم الملك 'يوشيا'. في ذلك الزمن، كانت عقيدة أن 'يهوه' سينجز - في النهاية - وعودته التي أعطاها للآباء، ولؤوسى، وللملك داود، بتحويل شعب إسرائيل لشعب كبير وموحد يعيش آمناً في أرضه، عقيدة سياسية وروحية قوية لدى رعايا الملك 'يوشيا'. من هنا؛ بدأ 'يوشيا' محاولة طموحة لتوحيد كلّ الإسرائيليين تحت حكمه، مستفيداً من الانهيار الآشوري. كان برنامجه أن يتوسّع إلى المناطق الواقعة شمال يهوذا؛ حيث كان الإسرائيليون مايزالون يعيشون بعد مضي قرن على سقوط دولتهم؛ مملكة إسرائيل، بيد الآشوريين، وذلك ليحقق حلم إقامة حكم ملكي موحد ومجيد؛ تحت ظل دولة كبيرة وقوية لكلّ الإسرائيليين الذين يعبدون إلهاً واحداً في معبد واحد في عاصمة واحدة - أورشليم (القدس) - يحكمها ملك واحد من ذرية داود.

وبناء على ما سبق؛ كان هناك تعارض مباشر بين طموحات مصر الكبيرة؛ لتوسيع إمبراطوريتها وطموحات دولة يهوذا الصغيرة جداً؛ لضمّ أراضي مملكة إسرائيل السابقة ليهوذا، وتحقيق الاستقلال التام لها. لذلك؛ وقعت مصر السلالة السادسة والعشرون - بتطلعاتها الإمبراطورية - في وجه تحقيق 'يوشيا' لأحلامه. هنا؛ أصبحت صور وذكريات الماضي ذخيرة هامة في ذلك الامتحان الوطني لصمود وإرادة بني إسرائيل في وجه فرعون وقواد عجلاته الحربية.

بناءً على ما تقدم؛ يُمكننا أن ننظر لتأليف قصة الخروج الجماعي من منظور جديد تماماً، لحدّ مدهش . تماماً؛ كما تمّت كتابة قصص الآباء بدمج عدّة تقاليد نصّية قديمة متفرّقة مع بعضها البعض، لتزوّد وظيفة إحياء وطني في يهوذا القرن السابع ق. م. كذلك خدّمت القصة الموسّعة جدّاً للنزاع مع مصر- وللقوّة العظمى لإله إسرائيل في إنقاذه الإعجازي لشعبه- في تادية هدف سياسي وعسكري مباشر وفوري بدرجة أكبر. لا بدّ أن تكون القصة العظيمة لبداية جديدة وفرصة ثانية لتحقيق ذلك المجد قد رنّت في وعي قراء القرن السابع، مُذكّرة إياهم بصعوباتهم الخاصّة، ومانحة إياهم الأمل في المستقبل.

كان موقف دولة يهوذا من مصر، في أواخر العهد الملكي، على الدوام، موقفاً تختلط فيه الرهبة مع الاشمئزاز. من جهة، وفرت مصر دائماً ملاذاً لكتفان في أوقات المجاعة، وملجأً أمناً يلجأ إليه الهاريون، كما كان ينظر إلى مصر كحليف محتكم ضدّ الغزوات من الشمال. وفي الوقت نفسه؛ كان هناك- دائماً- شكٌ وعداوة تجاه الجار الجنوبي الكبير، الذي كانت طموحاته، منذ قديم الزمان، السيطرة على المعبر البري الحثوري التمثّل بأرض إسرائيل شمالاً نحو آسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين. والآن؛ هناك في يهوذا زعيم شابٌ مستعدٌ لمواجهة فرعون العظيم، لذلك؛ فقد تمّت صياغة ملخمة شاملة فريدة، انطلاقاً من تقاليد قديمة ومصادر مختلفة متعدّدة، بغرض تعزيز ودعم أهداف الملك يوشيا السياسية.

لا بدّ أن هناك طبقات أخرى جديدة أضيفت إلى قصة الخروج الجماعي في القرون اللاحقة أثناء النفي في بلاد بابل، وما بعده. لكن؛ يُمكن أن نرى- الآن- كيف جاء التأليف المدهش سويةً تحت ضغط نزاع متصاعد مع مصر في القرن السابع ق. م. . . وعليه؛ فليست قصة خروج بني إسرائيل بشكل جماعي من مصر حقيقة تاريخية، ولا هي خيال قصصي محض. إنّها تعبير قوي عن الذّاكرة، وعن الأمل، ولذا في عالم يعيش وسط تغيّرات مهمّة. عكست المُجابهة بين موسى وفرعون، المُجابهة بالغة الأهميّة بين الملك الشاب يوشيا وفرعون المتوجّج حديثاً نخاو Necho. إنّ تجميد تلك الصورة التوراتية في تاريخ مُحدّد وحيد، هو- في الواقع- خيانة للمعنى الأعمق للقصة. لقد أثبت عيد الفصح أنه ليس حدكاً وحيداً، بل هو تجربة مستمرة للمقاومة الوطنيّة ضدّ قوى مُعترّضة.



## الفصل (3):

### غزو كنعان

لم يكن لقدّر إسرائيل الوطني أن يتحقّق إلاّ في أرض كنعان فقط. يحكي لنا سفر 'يشوع' قصة حملة عسكرية خاطفة، هُزِمَ - خلالها - ملوك كنعان الأقوياء؛ لترث القبائل الإسرائيلية أراضيهم. كانت قصة انتصار شعب الله على وتنين متغترسين، وكانت ملحمة خالدة لفتحت حدود جديدة، واحتلال مدُن جديدة، كان على المهزّمين فيها أن يعانون من العقوبات النهائية للطرد، وفقدان الممتلكات، والموت. إنّها قصة حرب مثيرة، قصة البطولة، والحدعة، والثأر المرّ، روت - كبعض أكثر قصص التوراة حيوية - سقوط جدران أريحا، وقوف الشمس عن الحركة في 'جبعون'، واحتراق المدينة الكنعانية العظيمة 'حاصور'. والقصة تُمثل - كذلك - مقالة جغرافية مفضّلة حول المنظر الطبيعي لكنعان، وتفسيراً تاريخياً لكيفية حلّول كلّ قبيلة من قبائل بني إسرائيل الاثنتي عشرة في ميراثها الإقليمي التقليدي ضمن الأرض الموعودة.

ولكن؛ إذا كان خروج الإسرائيليين الجماعي لم يحدث بالشكل الموصوف في التوراة، كما رأينا، فماذا عن غزو كنعان نفسه؟ الواقع؛ أنّ الإشكالات هنا أعظم وأكبر؛ إذ كيف أمكن لجيش مُمزّق، يرمحل أفراده مع نساء وأطفال وشيوخ، قد قدّم - بعد عقود من التيه في الصحراء - أن يرتقي لإمكانية القيام بغزو فعّال؟ كيف أمكنّ لمثل هذا الرعاع الفوضوي غير المُنظّم أن يتغلّب على القلاع العظيمة لكنعان، وجيوشها المحترفة، وفياق عرّباتها المدرّبة جيّداً؟

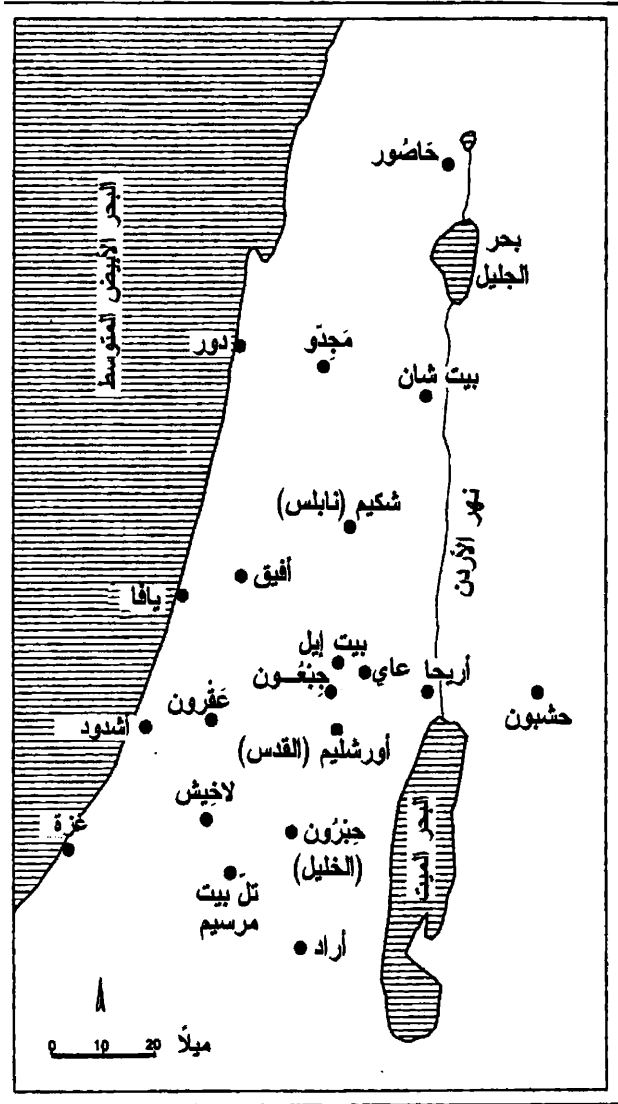
هل حدّث غزو لكنعان حقّاً؟ هل هذه القصة المركزية للتوراة وتاريخ إسرائيل اللاحق، تُمثل تاريخاً واقعياً، أم أسطورة؟ على الرّغم من حقيقة أنّ المدُن القديمة مثل 'أريحا'، 'عاي'، 'جبعون'، 'لخيش'، 'حاصور'، وتقريباً؛ كلّ المدُن الأخرى المذكورة في قصة الغزو قد تمّ - فعلاً - تحديد مكانها، وتنقيها، إلاّ أنّ الدليل على حصول الغزو التاريخي لكنعان من قبل

الإسرائيليين - كما سنرى - دليل ضعيف . هنا أيضاً ، يُمكن للدلّة الأثاريّة أن تُساعدنا على تمييز أحداث التاريخ الحقيقيّة من الصُّور القويّة للقصّة التوراتيّة الباقية .

### خُطّة معركة يشوع:

تبدأ قصّة الغزو في آخر أسفار موسى الخمسة ؛ أي سفر التثنية ، عندما نعلم أن موسى - الزعيم العظيم - لن يعيش ليقود بني إسرائيل - بنفسه - إلى كنعان ، بل كان على موسى - كأحد أفراد الجيل الذي عانى شخصياً مرارة الحياة في مصر - أن يموت هو - أيضاً - دُون دُخُول الأرض الموعودة . قبل موته ودَفَنه على جبل نيبو في مُوآب ؛ أكّد موسى على أهميّة مُراعاة قوانين الله كمفتاح للنصر في الغزو القادم ، وطبقاً لأوامر الله ؛ أوصى لمُساعدته القديم يشوع بن نون بقيادة الإسرائيليين . بعد أجيال من العبوديّة في مصر ، وأربعين سنة من التيه في الصحراء ؛ وكفّ الإسرائيليون - الآن - على حُدُود كنعان ذاتها ، يفصلهم النهر عن الأرض التي عاش فيها أسلافهم : إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقُوب . في هذا الوقت ؛ أمر الله أن تُظهِر الأرض من كلِّ أثر لعبادة الأوثان ، وكان هذا يستلزم إبادة الكنعانيين بشكل تامّ .

زحف الإسرائيليون - بسرّعة - تحت قيادة يشوع - الجنرال الرائع الذي كان يتمتّع بذكاء المُفاجأة التكتيكيّة - من نصر إلى آخر في سلسلة مُذهلة من الحصارات ومعارك الحُقُول المفتوحة . تمّت السيطرّة - فوراً - على مدينة أريحا القديمة في الضفّة الغربيّة للأردن ، وهو موقعٌ كان لأبَد للإسرائيليين أن يستولوا عليه ، حتّى يتمكّنوا من تأسيس رأس جسر . فيما كان الإسرائيليون يستعدّون لعبور الأردن ؛ أرسل يشوع جاسوسين إلى أريحا ؛ لاستطلاع أخبار استعدادات العدو وقوّة تحصيناته . عاد الجاسوسان بأخبار مُشجّعة (زوَدتْهُمَا بها عاهرة تُسمّى "راحاب") تُفيد بأنّ السكّان استولى عليهم الخوف ، من الآن ، بسبب أخبار اقتراب الإسرائيليين . عبّرَ شعب إسرائيل نهر الأردن فوراً ، يتقدّمه تابوت العهد الذي يقود المُعسكر . إنَّ قصّة الغزو للأحقّة لأريحا مشهورة ومعروفة لدرجة تُغنيننا عن إعادة روايتها هنا: أتبع الإسرائيليون أوامر الله ، التي بلّغهم إياها يشوع ، وزحفوا بجديّة ، حتّى أحاطوا بأسوار المدينة العالية ، وفي اليوم السّابع ، مع انفجار أبواب حرب الإسرائيليين التي تُصيب بالصّمم ، تساقطت الأسوار الهائلة لأريحا (يشوع 6) .



شكّل 9: أهمّ المواقع ذات العلاقة بقصص الغزو.

وكان الهدف القادم هو مدينة 'عاي'، التي تقع قُرب 'بيت إيل'، في مُرتفعات كَنْعَانَ، في مكان استراتيجي، على أحد الطُرُق الرئيسيَّة التي تقود من وادي الأردن إلى بلاد التِّل. هذه المرَّة؛ لم يتمَّ الاستيلاء على المدينة بِقُصْل مُعجزة، بل بِقُصْل وسائل يَشُوْع الرائعة، التي تُدكَّر ببراعة المُحارِبين اليونانيِّين في قَتْحهم لحصن طرودة. يَنْبُعا صفَّ يَشُوْع مُعظم قُوَّاته في العراء إلى شرق المدينة؛ سَخَر من المُدافعين عن 'عاي'، عندما بيَّتهم، بِنَحْو سُرِّي، بِكَمين من الجانب الغربي. وعندما اندفع مُحاربو 'عاي' خارج المدينة لمُواجهة الإسرائيليين ومُلاحقتهم إلى الصَّحراء، دَخَلت وحدة الكمين المُخفية المدينة، التي بقيت بلا مُدافعين، وأشعلت النَّار فيها، ثمَّ عكس يَشُوْع تراجعهم، وعاد إلى 'عاي'، وذبح كُلَّ أهاليها، وأخذ كُلَّ ما فيها من الماشية وأسلاب المدينة كَغَنيمة حربيَّة، وشنق ملك 'عاي' بِشكْل مُخزٍ على شجرة. (يشوع 1/8 - 29).

بدأ الرُّعب يَنْتشر. الآن. بيِّن أهالي المُدُن الأخرى في كَنْعَانَ. لَمَّا سمع 'الجبعونيُّون'، الذين كانوا يَقطنون أربعة مُدُن شمال أورشليم (القُدس)، ما حلَّ بأهالي 'أريحا' و'عاي'، أرسلوا مبعوثين إلى يَشُوْع، مُلتَمسين منه الرِّحمة. ولأنَّهم أَكْدوا ليشوع. بِكُلِّ إصرار. أنَّهم أجنب في هذه البلاد، وليسوا من مواطنيها الأصليِّين (الذين أمر الله بإبادتهم جميعاً)، وافق يَشُوْع على السَّلام معهم، لكن؛ عندما تبيَّن أنَّ أهالي 'جبعون' قد كذبوا، وأنَّهم كانوا. في الواقع. من سُكَّان الأرض الأصليِّين، عاقبهم يَشُوْع بإعلان أنَّهم سيعملون دائماً كـ مُحْتَطبي حطَب، ومُسْتغني مَاءٍ لِلجَمَاعَة (أي للإسرائيليين)، (يشوع 9/27).

أدَّت الانتصارات الأولى للإسرائيليين الغزاة في أريحا، وفي بلدات ريف التلال المركزيَّة، إلى استيلاء القلق على المُلُوك الأكثر قُوَّة في كَنْعَانَ. وسُرَّعا ما أقام 'أدوني صادق' ملك أورشليم (القُدس)، تحالفاً عسكرياً مع ملك حبرون (الخليل) في المُرتفعات الجنوبيَّة، ومع مَلُوك 'يزموت'، و'لخيش'، و'عجلون' في مُرتفعات 'شفيلة' Shephelah إلى الغرب. سار المُلُوك الكنعانيُّون بِقُوَّاتهم المُشتركة، وعسكروا حول 'جبعون'، لكن يَشُوْع. الذي ظلَّ يزحف طوال الليل من وادي الأردن. فاجأ جيش تحالف أورشليم (القُدس) بِحركة خاطفة، فَهَرَبت القُوَّات الكنعانيَّة مذعورة على طُول الحافَّة الحادَّة لِ بَيْت حُورُونَ إلى الغرب. وأثناء هُرُوبهم؛ ضربهم الله بِمطر من الحجارة العظيمة المُتساقطة من السَّماء.

في الحقيقة؛ تُخبرنا التوراة بأن: "الذين ماتوا بحجارة البرد هم أكثر من الذين قتلهم بنو إسرائيل بالسيف" (يشوع 10/11). رغم أن الشمس مالت إلى المغيب، إلا أن عمليات القتل التي كان يُجزها الأتقاي لم تنته بعد، لذا؛ اتجه يشوع إلى الله في حضور كامل جيشه الإسرائيلي، ودعا ربه أن يوقف غروب الشمس، ويجعلها تقف بلا حراك، حتى يتم إنجاز الإرادة الإلهية:

[ قَدَامَتِ الشَّمْسُ، وَوَقَفَ القَمَرُ، حَتَّى انْتَقَمَ الشَّعْبُ مِنْ أَعْدَائِهِ. أَلَيْسَ هَذَا مَكْتُوباً فِي سَفَرِ يَأْسَرُ؟ فَوَقَّتْ الشَّمْسُ فِي كَيْدِ السَّمَاءِ، وَكَلِمٌ تَعْجَلُ للغُرُوبِ لِنَحْوَيْومٍ كَامِلٍ. 14 وَلَمْ يَكُنْ مِثْلَ ذَلِكَ اليَوْمِ قَبْلَهُ، وَلَا بَعْدَهُ، سَمِعَ فِيهِ الرَّبُّ صَوْتَ إِنْسَانٍ؛ لِأَنَّ الرَّبَّ حَارَبَ عَنِ إِسْرَائِيلَ. ] (يشوع 10: 13-14).

في النهاية؛ تم أسر الملوك الهارين، وقتلوا بحد السيف. ثم واصل يشوع حملته، ودمر تدميراً كاملاً المذنب الكنعانية في الأجزاء الجنوبية من البلاد، فاتحاً تلك المنطقة لشعب إسرائيل.

العمل الأخير حدث في الشمال. قام تحالف لعدة ملوك كنعانيين يرأسهم "يابين" ملك "حاصور": [ فخرجوا هم وكل جيوشهم معهم، شعباً غفيراً كالرمل الذي على شاطئ البحر في الكثرة، بخيل ومركبات كثيرة جداً. ] (يشوع 4/11)، واشتبكوا مع الإسرائيليين في معركة حقل مفتوحة في الجليل، انتهت بالدمار الكامل للقوات الكنعانية. وفتحت "حاصور"، المدينة الأكثر أهمية في كنعان، بل [ كانت قبلاً رأس جميع تلك الأممات ] (يشوع 10/11)، وأشعلت فيها النيران، فأحرقت. وهكذا؛ بهذا النصر، وقعت كل الأرض الموعودة بكاملها، من الصحراء الجنوبية إلى القمة الثلجية لجبل حرمون في الشمال، في قبضة الإسرائيليين. وتحقق - فعلاً - الوعد الإلهي. وأبديت القوات الكنعانية، واستعد بنو إسرائيل لتقسيم الأرض بين القبائل، باعتبارها ميراثهم الذي وهبهم الله إياه.

كنعان من نمط مختلف:

كما هو الحال في قصة الخروج الجماعي، كشف علم الآثار عن تناقض مُثير بين المعلومات التي يقدمها الكتاب المقدس العبري وبين الحالة الحقيقية لكنعان، في زمن الغزو

(الإسرائيلي) المقترح؛ أي بين عامي 1230 و1220 ق. م. .<sup>(1)</sup> فبالرغم من أننا نعرف بأنه كان هناك جماعة تُسمى إسرائيل في مكان ما في كنعان في سنة 1207 ق. م.، إلا أن الأدلة الدليل الموجودة المنظر السياسي والعسكري لكنعان يُفيد بأن قيام تلك المجموعة بمثل ذلك الاحتلال الخاطف لم يكن من الممكن عملياً، واحتمال حدوثه بعيد كل البعد.

هناك عدد وافر من الأدلة في النصوص المصرية التي تعود للعصر البرونزي المتأخر (550-1150 ق. م) حول الشؤون في كنعان، وذلك على شكل رسائل دبلوماسية، وقوائم للمدن المفتوحة، ومشاهد الحصارات، نجدها منقوشة على حيطان المعابد في سجلات الملوك المصريين، والأعمال الأدبية، والترانيل. وكانت رسائل تل العمارنة أكثر مصادر مثل تلك المعلومات تفصيلاً حول كنعان في تلك الفترة. تُمثل هذه النصوص جزءاً من المراسلات الدبلوماسية والعسكرية لاثنتين من فراعنة مصر الأقوياء: "أمنحتب الثالث"، وابنه "أخناتون"، اللذين حكما مصر في القرن الرابع عشر ق. م. .

تتضمن حوالي أربعمئة من ألواح تل العمارنة، المتفرقة - الآن - في عديد من المتاحف حول العالم، رسائل أرسلت إلى مصر من قبل حكام الدول القوية، مثل الحيثيين في الأناضول وحكام بلاد بابل، لكن أكثر تلك الرسائل كانت تلك التي أرسلت من قبل حكام دول المدن في كنعان، الذين كانوا توابع لمصر أثناء تلك الفترة. اشتمل المرسلون على حكام المدن الكنعانية الذين اشتهروا لاحقاً في التوراة، مثل ملوك: أورشليم (القدس)، "شكيم" (نابلس)، "مجدو"، "حاصور"، و"لخيش". وأهم ما في الأمر أن رسائل تل العمارنة كشفت أن كنعان كانت مقاطعة مصرية، واقعة مباشرة تحت سيطرة الإدارة المصرية. وكانت العاصمة الإقليمية تقع في غزة، لكن الحاميات المصرية تركزت في المواقع الرئيسية في كافة أنحاء البلاد، مثل "بيت شان" جنوب بحر الجليل، وفي ميناء يافا (التي أصبحت اليوم - جزءاً من مدينة تل أبيب).

(1) هذا التاريخ، كما رأينا في الفصل الأخير، اقترح بناءً على الإشارات المتفرقة إلى الفراعنة الرعمسيسيين في قصص الخروج الجماعي، وبناءً على التاريخ المذكور في مسألة "منفتاح"؛ أي عام 1207 ق. م.، والذي أشار إلى وجود شعب إسرائيل في كنعان في ذلك الوقت. (المؤلف).

لا يُوجد في التوراة أيُّ خبر عن مصريين خارج حُدود مصر، ولا شيء فيها مذكور عن المصريين في أيِّ من المعارك التي كانت تقع داخل كَنْعَانَ. هذا؛ في حين تُشير النُصوص المُعاصرة والاكتشافات الأثرية إلى أنَّ المصريين كانوا يُدبرون ويحرسون شُؤون البلاد الكَنْعانية بعناية. كان أمراء المُدُن الكَنْعانية (الذين وُصفوا في كتاب يشوع كأعداء أقوياء). في الواقع - ضعيفين بنحوٍ مثيرٍ للشفقة. أظهرت التقييات بأنَّ مُدُن كَنْعَانَ في هذه الفترة لم تكن مُدُنًا مُنظمةً من النوع الذي نعرفه في التاريخ التالي. كانت تلك المُدُن - بشكُلٍ رئيسي - معاقل إدارية خاصةً بالنخبة، لإسكان الملك، وعائلته، وحاشيته الصغيرة من الموظَّفين الإداريين، مع جماعات من الفلاحين يعيشون - بشكُلٍ مُتناثر - في قرى صغيرة في أنحاء الريف المُحيط بتلك المعاقل. كانت المدينة المثالية تتضمَّن قُصراً، ومُجمَع الهيكَل، وبضعة صُرُوحٍ عامَّةٍ أُخرى، هي - في الغالب - مساكن للموظَّفين الكبار، وحانات، وبنائات إدارية أُخرى، فقط؛ لا غير. فلم يكن هناك أسوار للمُدُن. ولم تكن المُدُن الكَنْعانية الرَّائعة - التي تصفها قِصص الغزور الإسرائيلي لكَنْعَانَ في الكتاب المُقدس - مَحْمِيَّة - في الواقع - بأية تحصينات دفاعية!

وكان السَّبب - على ما يبدو - هو أنَّه طالما كانت مصر هي التي تأخذ على عاتقها - بشكُلٍ صارم - مهمَّة الحفاظ على أمن جميع المُقاطعة، لذلك؛ لم تكن هناك حاجة للأسوار الدفاعية الهائلة. كان هناك - أيضاً - سبب اقتصادي آخر لقلة التَّحصينات في أغلب المُدُن الكَنْعانية؛ بسبب الضَّرَاب الباهظة التي كان فرعون يفرض دَفْعَهَا على الأمراء الكَنْعانيين، لم يكن أولئك الحُكَّام المحليون الضُّعفاء - في الغالب - يملكون الوسائل (أو السُّلطة) للقيام بأعمال إنشاء صُرُوح تذكارية عامَّة.

في الحقيقة؛ كانت كَنْعَانَ، في أواخر العصر البرونزي، مُجرَّد ظلٍّ لذلك المُجتمع النَّاجح المُزدهر الذي كانت عليه قبل عدَّة قُرُونٍ؛ أي في العصر البرونزي المُتوسِّط. كانت العديد من المُدُن قد هُجرت، ومُدُن أُخرى قد انكمش حَجْمُهَا، ولم يكن مجموع عدد السُّكَّان المُستقرِّين في ربوعها يتجاوز كثيراً المئتين ألف نسمة. أحد البراهين على صغر حجم ذلك المُجتمع هو ما نجده في أحد رسائل الواح تلِّ العمارنة، أرسلها ملك أورشليم (القُدس) إلى فرعون، يطلب منه أن يمدَّه بخمسين رجل "لحماية الأرض". رسالة أُخرى، أرسلها ملك "مجدو"، تُوكِّد - أيضاً -

صغر حجم القوّات في تلك الفترة؛ حيثُ طَلَبَ فيها من فرعون إرسال مئة جنّدي لحراسة المدينة من هُجُومٍ مُحتمَلٍ لجاره العُدواني، ملك "شكيم" (نابلس).

تصف رسائل تلّ العمارنة الحالة أثناء القرن الرابع عشر ق.م، وذلك قبل مئة سنة، أو ما يُقاربها، قبل التاريخ المُتَرض للغزو الإسرائيلي. ليس لدينا مثل مصدر المعلومات المُفصّل هذا حول الشُؤون في كُتُبان أثناء القرن الثالث عشر ق.م. . رغم ذلك؛ كان من المُستبعد أن يتباطأ الفرعون رمسيس الثاني، الذي حَكَمَ مصرَ أغلب القرن الثالث عشر، عن إشرافه العسكري على كُتُبان. لقد كان ملكاً قوياً، بل ربّما كان أقوى الفراعنة، وكان مُهتماً جداً في الشُؤون الخارجيّة.

تبدو عديد من الإشارات الأخرى - سواء الأدبيّة أو الأثريّة - مُشيرة إلى أنه في القرن الثالث عشر ق.م، كانت قبضة مصر على كُتُبان أقوى بكثير من أيّ وقت مضى. عندما كانت تصل لمصر أخبار القلاقل في كُتُبان، كان الجيش المصري يعبر صحراء سيناء على طول ساحل البحر الأبيض المُوسَط، ويسير نحو المُدن المُتمرّدة، أو الناس الثائرين. كما ذكرنا سابقاً، كان الطريق العسكري في شمال سيناء مُحميّاً بواسطة سلسلة من الحُصُون المُجهّزة بمصادر الماء العذب. بعد عبوره الصحراء، كان الجيش المصري قادراً على أن يدحر - بسهولة - أيّ قوّات ثائرة، ويفرض إرادته على السُكّان المحليين.

كشَفَ علم الآثار عن أدلّة مُثيرة تُبيّن مدى الحُضور المصري في كُتُبان نفسها. في العشرينات من القرن الماضي؛ تمّ اكتشاف مَعقلٍ مصري أثناء التنقيب في موقع "بيت شان" إلى جنوب بحر الجليل، احتوت أبنيته المُختلفة وفناءاته على تماثيل وأنصاب كُتب عليها بالهروغليفية، تعود لعهد الفراعنة "سيتي الأول" (1294 - 1279 ق.م)، ورمسيس الثاني (1279 - 1213 ق.م)، ورمسيس الثالث (1184 - 1153 ق.م). بل كُشِفَت المدينة الكُتُبانيّة القديمة "مجدو" عن دليل على حُضور مصري القوي حتّى في فترة متأخّر كأيام رمسيس السادس، الذي حَكَمَ نَحْوَ نهاية القرن الثاني عشر ق.م؛ أيّ بعد فترة طويلة من غزو الإسرائيليين المُتَرض لِكُتُبان.



من المُستبعد جداً أن تبقى الحاميات المصريّة في كافّة أنحاء البلاد مكتوفة الأيدي، وهي تُشاهد مجموعة من الأَجين (من مصر) يعيشون خراباً وفساداً في كافّة أنحاء مقاطعة كَنْعان، كما لا يُمكن تصديق أن لا يترك دمار العديد من المُدن التابعة الموالية، على أيدي غزاة مُحتلين أي أثر في السجّلات الشّاملة آنذاك للإمبراطوريّة المصريّة. الذّكر المُستقلّ الوحيد، الذي نجدّه في هذه الفترة، لاسم إسرائيل، - في مسلّة النّصر التي أقامها 'منفتاح' - يُعلن - فقط - أن أولئك النّاس - الغامضون عادةً، الذين يعيشون في كَنْعان - قد تعرّضوا لهزيمة ساحقة. هناك شيء من عدم الانسجام والتناقض، نلاحظه - بوضوح - عندما نضع الرّواية التوراتيّة، والأدلة الأثريّة، والسجّلات المصريّة جنباً إلى جنب.

### على خُطى يشوع؟

هناك، مع ذلك - أو على الأقلّ، كان هناك - أدلّة مُعاكسة ومُضادّة للدّليل المصري: أولاً؛ لقد كان من الواضح أن سفر يشوع لم يكن خُرافة خياليّة تماماً، بل لقد عكس - بدقّة - جغرافيّة أرض إسرائيل، كما أن مسيرة حَمَلَة يشوع اتّبعَت ترتيباً جغرافياً منطقيّاً. في بداية القرن العشرين؛ اختار عدد من العلماء بعض المواقع التي يُمكنهم أن يفتحوا - تماماً - أنها تتطابق مع مواقع تقدّم الغزو الإسرائيلي، وبدؤوا بالتحفر بحثاً عن شواهد على أسوار ساقطة، أو روافد خشبيّة مُحترقة، أو آثار دمارٍ شاملٍ.

الشّخصيّة الأبرز في هذا المسعى كان - مرّة ثانية - العالم الأمريكي 'وليام فوكسويل أولبرايت' William Foxwell Albright، من جامعة 'جون هوبكنس' Johns Hopkins في بالتيمور Baltimore، اللّغويّ اللّامع، والمُؤرّخ، والعالم التوراتي، وعالم الآثار الميداني، الذي حاول إثبات أن الآباء كانوا شخصيّات تاريخيّة أصيلة. لقد اعتقد - مُرتكزاً على قراءته للشواهد الأثريّة - بأن أعمال يشوع البُطوليّة كانت تاريخيّة أيضاً. أكثر تنقيبات أولبرايت شهيرة تمّ إنجازها بين عاميّ 1926 و1932 في تلّ يُسمّى: 'تلّ بيت مرسيم'، يقع في التلال التي تقع جنوب غرب مدينة حبرون (الخليل)، (انظر الشّكل رقم 9). رُبط أولبرايت ذلك الموقع - استناداً لموقعه الجغرافي - بالمدينة الكنعانيّة 'ذبير'، التي وردَ ذكْرُ غزو الإسرائيليين لها في ثلاثة مواضع من 'الكتاب المقدّس العبري'، مرتين في سفر يشوع (10 / 38 - 39، 15 / 15 - 19)،

ومرة في سفر القضاة (11/1 - 15). ورغم أن مطابقة الموقع مع مدينة "ديبر" قد تعرض للنتقد العلمي والتشكيك بصحته، إلا أن هذا لم يغير من حقيقة أن الاكتشافات الأثرية في تل بيت مريم بقيت ذات أهمية مركزية بالنسبة للبحث التاريخي.

كشفت التنقيبات هناك عن بلدة صغيرة، وسيئة نسبياً، وغير مُحاطة بأسوار، تم تدميرها بنار كارثية هائلة مفاجئة في حوالي نهاية العهد البرونزي المتأخر، وطبقاً لرأي أولبرايت، في حوالي سنة 1230 ق.م. . على رماذ هذه المدينة المحترقة، حصل أولبرايت على ما اعتقده دليلاً على وصول مستوطنين جدد: الفخاريات الخشننة متبعثرة، تُشابه تلك التي عرفها في المواقع الأخرى في المرتفعات، والتي ميزها بحدسه على أنها إسرائيلية. بدأ هذا الدليل برهاناً على تاريخية قصص الكتاب المقدس: مدينة كنعانية (ذكرت في الكتاب المقدس) أحرقتها الإسرائيليون، ثم ورتوها، واستقروا على خرابها.

في الواقع؛ بدأ أنه تم إعادة تقديم نتائج أولبرايت في كل مكان. فقد كشفت التنقيبات في التل القديم للقرية العربية بيتين Beitin، التي تم مطابقتها على المدينة التوراتية بيت إيل، والتي تقع حوالي تسعة أميال شمال أورشليم (القدس)، كشفت عن مدينة كنعانية سكنت في العصر البرونزي المتأخر، وقد تم تدميرها بالنار في أواخر القرن الثالث عشر ق.م. ثم سكنتها من جديد على ما يبدو مجموعة مختلفة، في العصر الحديدي الأول. لقد تطابقت مع القصة التوراتية التي تتحدث عن مدينة "لوز" الكنعانية، التي استولى أفراد من بيت يوسف عليها، فسكنوها، وغيروا اسمها إلى بيت إيل (القضاة 1/22-26). أكثر جنوباً، وجد في التل البارز المسمى بتل الدوير Tell ed Duweir في منطقة شفيلا Shephelah موقع تمت مطابقتها مع المدينة التوراتية المشهورة "لخيش" (يشوع 10/31-32)، كشفت بعثة بريطانية في الثلاثينات من القرن المنصرم عن بقايا مدينة كبيرة أخرى تعود للعصر البرونزي المتأخر، الأخرى تم تدميرها بحريق كبير.

استمرت الاكتشافات في الخمسينات، بعد قيام دولة إسرائيل [يقصد الكيان الصهيوني الغاصب (المترجم)]؛ حيث ركز علماء الآثار الإسرائيليون على قضية غزو وقّح الأرض الموعودة.

في عام 1956؛ بدأ عالم الآثار الإسرائيلي البارز "يغائيل يادين" Yigael Yadin، التنقيب في المدينة القديمة "حاصور"، التي وصفها سفر يشوع بأنها كانت: [رأس جميع تلك

العَمَالِك [يشوع 10 / 11]. لقد كانت أرض اختبار مثالية للبحث الأثري المتعلق بالغزو الإسرائيلي. لقد ثبت آثارياً أن مدينة "حاصور"، التي تُمثِّم مطابقتها على التلّ الضخم المعروف باسم "تلّ الوقاص" في الجليل الأعلى، استناداً لموقعه وأهميته، كانت - فعلاً - أكبر المُدن الكنعانية في العصر البرونزي المتأخّر. كانت تمتدُّ على مساحة ثمانين هكتاراً؛ أي أكبر بثماني مرّات من نظرائها من المواقع البارزة الأخرى؛ مثل "مجدو" و"لخيش".

اكتشف "يادين" Yadin بأنه على الرغم من أن "حاصور" بَلَغَت ذروة ازدهارها في العصر البرونزي المتوسّط (2000 - 1550 ق. م)، إلا أنها استمرّت في ازدهارها حتّى العصر البرونزي المتأخّر. كانت مدينة رائعة، ذات معابد وقصر ضخم. منذ التسعينات في القرن الماضي؛ تواصلت الاكتشافات بفضل أعمال التنقيب المُجدّدة في "حاصور" تحت قيادة "عمون بنطور" Amnon Bentor من الجامعة العبرية، دالّة على ثراء ذلك القصر في غمط فنّه المعماري، وفرنّ النحت، مع اكتشافات صغيرة أخرى. سبق أن لَحِث إليها نتائج تنقيبات "يادين" Yadin.. يُشير وجود عدد من الألواح المسماة إلى وجود أرشيف ملكي. يحمل أحد الألواح - الذي أُعيد تأهيله - اسماً ملكياً هو "ابني"، كما أن ملكاً لـ "حاصور" اسمه "ابن أدو" ذُكر في أرشيف الرجل. رغم أن كلا الاسمين يعود تاريخه إلى أزمنة سابقة بكثير (العصر البرونزي المتوسّط)، إلا أنهما قد يكونان مرتبطين بنحو إيتيمولوجي (اشتقائي - لغوي) باسم ملك "حاصور": "يابين"، المذكور في الكتاب المقدّس العبري. التكرار الإيحائي لهذا الاسم قد يُشير إلى أنّه كان يُمثّل اسم سلالة ملكية على صلة استمرّت عدّة قرون بمدينة "حاصور"، فبقي الناس يذكرونه حتّى بعد فترة طويلة من تدمير المدينة.

أظهرت أعمال التنقيب في "حاصور" انتهاء عظمة تلك المدينة الكنعانية، بنحو فجائي وقاسٍ في القرن الثالث عشر ق. م، مثلها مثل العديد من المُدن الأخرى في أجزاء مختلفة من بلاد كنعان. فجأة؛ وعلى الظاهر، بدون سابق إنذار، أو أي إشارة صغيرة لسير نحو الانحطاط، هوجمت "حاصور"، ودمّرت، وأحرقت بالنار. مازال جدران القصر - المصنوعة من الطابوق المطبوخ من الطين، والتي طبّخت بحرارة حريق مهيب، حتّى أصبحت حمراء - مازال باقية إلى اليوم بارتفاع ستة أقدام. بعد فترة من ترك المدينة؛ تم تأسيس مستوطنة فقيرة

في أحد أجزاء خراباتها الواسعة. وقد شابهت فخارياتها الفخاريات التي اكتشفت في المستوطنات الإسرائيلية المبكرة في بلاد التلّ المركزيّة نحو الجنوب.

هكذا؛ في معظم القرن العشرين، بدأ علم الآثار مؤكداً لرواية الكتاب المقدّس العبري، لكن؛ لسوء الحظّ، سرعان ما انفرط - في النهاية - ذلك الإجماع العلميّ.

هل أذنت الأبواق حقاً؟

في وسط الفرح العارم - تقريباً في اللحظة ذاتها التي بدأ فيها أن معركة الغزو مالت لصالح يشوع - ظهرت بعض التناقضات المزعجة. حتّى لو أُكِّدَت كلُّ الصحافة العالميّة خبَرَ انتصار يشوع، بقيت العديد من قطع أعبه ألغاز البزل Puzzle الأثاريّة، الأكثر أهميّة، دُون أن نجد - ببساطة - مكانها الملائم في الصوِّرة.

كانت أريحا من بين الأجزاء الأكثر أهميّة في الصوِّرة.

كما لاحظنا؛ كانت مدُن كنعان غير مُحصّنة، ولم يكن لها أسوار يُمكنها أن تسقط. في حالة أريحا، ما كان هناك أيُّ أثر لأيِّ مُستوطنة من أيّ نوع في القرن الثالث عشر ق. م، وكانت المُستوطنة الأقدم - والتي تعود للعصر البرونزي المتأخّر؛ أي القرن الرابع عشر ق. م - مُستوطنة صغيرة وفقيرة، وتافهة تقريباً، وغير مُحصّنة. لم يكن هناك - أيضاً - أيُّ علامة تدلُّ على حدوث عمليّة تدمير. لذا؛ فإنّ المشهد المشهور للقوِّات الإسرائيليّة التي رَحَّفتْ حول البلدة، وأحاطت بها، يتقدّمها تابوت العهد، ثمّ إحداث انهيار لأسوار أريحا الهائلة بواسطة نفخ أبواق حرب الإسرائيليين، لم يكن - ببساطة - سوى سراب رومانسيّ.

وُجدَ تناقض مُماثل آخر، بين علم الآثار والكتاب المقدّس العبري، في موقع 'عاي' القديمة، حيثُ نفَّذَ يشوع كميّته الذكي، طبقاً لرواية الكتاب المقدّس. لقد طابَق العلماء هضبة 'خربة التلّ' الكبيرة الحاليّة، التي تقع في الحافة الشرقيّة للمنطقة الشماليّة الشرقيّة لهضبة أورشليم (القُدس)، على الموقع القديم لمدينة 'عاي'، وذلك لكون الموقع الجغرافيّ لذلك التلّ، إلى الشرق مباشرة من مدينة 'بيت إيل'، يتطابق - بشكل كبير - مع وصف الكتاب المقدّس لمدينة 'عاي'. الاسم العربيّ المعاصر لهذا الموقع هو 'التلّ' والذي يعني 'البايا'، أو 'الخرائب'،

وهو معنى يتفق - بنحو ما - مع الاسم العبري 'عاي' المذكور في الكتاب المقدس ، خاصة أنه لا يوجد أي موقع بديل يعود للعصر البرونزي المتأخر ، على أي موقع قريب من تلك المنطقة . بين عامي 1933 و1935 ، قام عالم الآثار الفلسطيني اليهودي الذي تدرّب في فرنسا : 'جوديث ماركت كروز' Judith Marquet Krause ، بتنفيذ أعمال تنقيب واسعة النطاق 'النقل' ، ووَجَدَ بقايا كثيرة جداً لمدينة قديمة وضخمة من العصر البرونزي المبكر ، أرخ تاريخها بنحو ألف سنة قبل انهيار كنعان في العصر البرونزي المتأخر .

لم يتم اكتشاف حتى شقفة فخارية واحدة ، أو أي إشارة أخرى تدلّ على وجود استيطان هناك في العصر البرونزي المتأخر . وأنتجت التنقيبات المجدّدة ، التي أعيد إجراؤها جرت في الموقع في الستينات ، الصورة نفسها . مثل أريحا ، لم يكن هناك استيطان في 'عاي' ، وقت غزوها المقترَض من قبل بني إسرائيل .

وماذا عن قصة الجبعونيين والتماسهم الحماية؟ لقد كَشَفَتِ التنقيبات في التلّ الواقع في قرية 'الجب' شمال أورشليم (القدس) والذي أجمع العلماء على أنه هو موقع 'جبعون' التوراتي ، عن بقايا من العصر البرونزي التوسّط ومن العصر الحديدي ، لكن ؛ لا شيء يرجع للعصر البرونزي المتأخر . وقد أنتجت التحقيقات الأثرية في مواقع لثلاثة قرى جبعونية أخرى ، هي : 'شفيرة' و'بيروت' و'كريات جياريم' الصورة نفسها ؛ فلم يوجد في أي من تلك المواقع أي آثار أو بقايا تعود للعصر البرونزي المتأخر . والأمر نفسه يصدق على القرى أو البلدات الأخرى المذكورة في قصة الغزو ، وفي القائمة المختصرة للملوك كنعان (يشوع 12) ، ومن بينهم 'عراد' (في النّقب) و'حشبون' (في الضمّة الغربية) ، اللّذين ذكرناهما في الفصل الأخير .

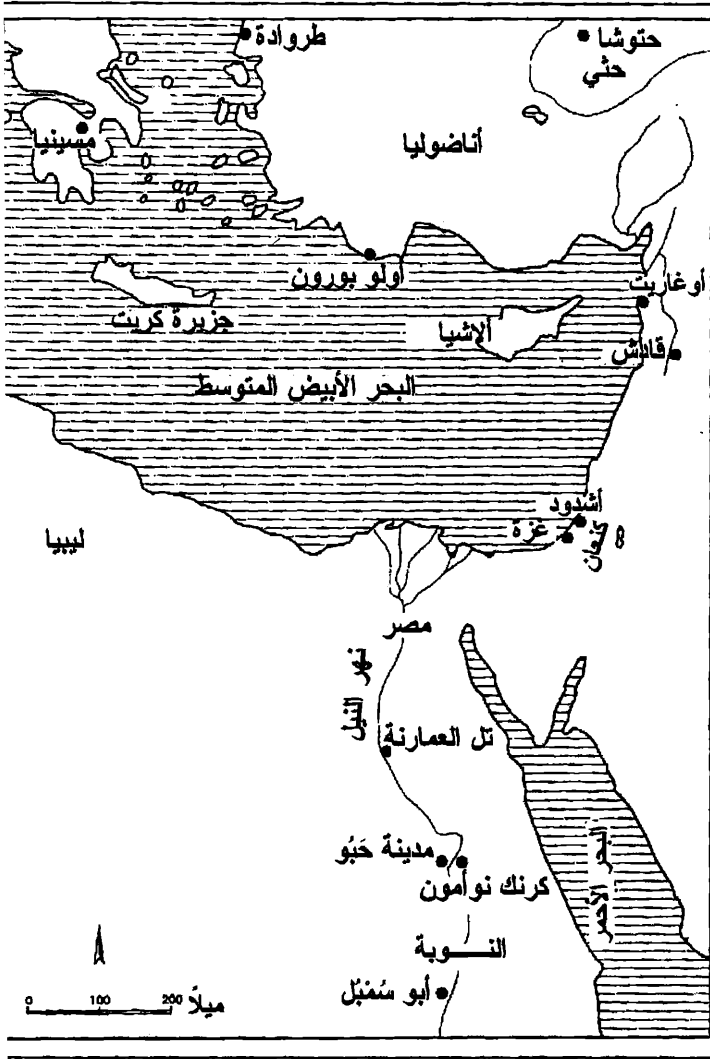
لم تتأخّر التفسيرات العاطفية والعقلانية المعقّدة كثيراً في الحجيء ؛ لأنّ هناك الكثير الذي أصبح في خطر الضياع . بالنسبة لـ'عاي' ، اقترح أولبرايت أن تكون قصة فتحها إنّما قصد بها في الأصل فتح بيت إيل المجاورة ؛ حيث إنّهُ لما كانت بيت إيل وعاي قريتان جداً من بعضهما ، تمّ الجُمع والمشاركة بينهما جغرافياً وتقليدياً . أمّا بالنسبة لأريحا ؛ فقد بحث بعض العلماء عن تفسيرات بيئية . لقد اقترحوا أن تكون كامل الطبقة التي تمثّل أريحا في وقت الغزو - بما في ذلك التحصينات - قد تمّ إزالتها بفعل عوامل الحتّ الطبيعيّة .

لم ينفرد الإجماع بشأن قصة الغزو، ولم يُترك إلا مؤخراً. أما بالنسبة إلى دمار بيت إيل، "لخيش"، "حاصور"، ومُدُن كَنْعَانِيَّة أُخْرَى؛ فإنَّ الشواهد التي تمَّ الحُصُولُ عليها من مناطق أُخْرَى من الشَّرْقِ الأوسَطِ وشرقي البحر الأبيض المُتوسِّط تُفيد بأنَّ الذين قاموا بعمليَّات التدمير ليسوا - بالضرورة - إسرائيليين .

عالم البحر الأبيض المُتوسِّط في القرن الثالث عشر ق.م:

إنَّ البُورَةَ الجغرافيَّة لَقَصَصَ الكتاب المُقدَّس العبري تتركزُ كُلِّياً - تقريباً - في أرض إسرائيل [ بل، فلسطين المُحتلَّة (الترجم) ]، ولكن؛ لكي نفهم الحجم الحقيقي للأحداث التي حَدَثَتْ في نهاية العصر البرونزي المُتأخِّر، علينا أن ننظر إلى ما هو أبعد من حُدُود كَنْعَانَ؛ أي إلى كامل منطقة شرقي البحر الأبيض المُتوسِّط (انظر الشُّكْل رَقْم 10). كَشَفَتْ الحفريات في اليونان، وُتْرِكِيَا، وسُورِيَا، ومصر، قصةً مُذهلة لثورة، وحرب، وتوقُّف اجتماعي واسع الانتشار. في السَّنَوَاتِ الأخيرة من القرن الثالث عشر ق.م، وبداية القرن الثاني عشر، مرَّ كامل العالم القديم بتحوُّلات قويَّة مُثيرة؛ حيثُ عصفت أزمة مُدمِّرة بممالك العصر البرونزي، وبدأ عالم جديد بالظهور. كانت هذه الفترة إحدى أكثر فترات التاريخ إثارة وفوضويَّة، سقطت خلالها إمبراطوريَّات قديمة؛ لتحلَّ محلَّها قوى جديدة صاعدة.

سابقاً - في مُنتصف القرن الثالث عشر ق.م - كانت هناك إمبراطوريتان تحكمان المنطقة. في الجنوب؛ كانت مصر في ذروة عظمتها، يحكمها رمسيس الثاني، وتُسيطر على كَنْعَانَ بما في ذلك أراضي بُتَّان الحديث وجنوب غرب سُورِيَا. كما كانت تُسيطر في الجنوب على النَّوْبَة، وفي الغرب؛ كانت تحكم ليبيا. كانت الإمبراطوريَّة المصريَّة مشغولة ببناء الأبنية التذكريَّة الضخمة، وكانت تُشارك في التجارة المربحة في شرقي البحر الأبيض المُتوسِّط. كانت هناك بعثات وتُجار يتردُّون على مصر، قادمين من جزيرة كريت، وقبرص، وكَنْعَانَ، وبلاد الحثيين، جالبين معهم هدايا لفرعون. وكانت هناك بعثات مصريَّة تقوم باستغلال مناجم النحاس والفيروز في سيناء والنَّقب. لم يسبق أن وُجدت في مصر - أبداً - إمبراطوريَّة بمثل تلك القوَّة والاتساع. ليس على أحدنا إلا أن يقف اليوم أمام معبد أبو سُنْبُل في النَّوْبَة أو المعابد المشهورة في الكرنك والأقصر؛ ليشعر بالعظمة التي كانت عليها مصر في القرن الثالث عشر ق.م.



الشكل 10: الشرق الأدنى القديم: مواقع أثرية مُنتخبة من القرن الثالث عشر ق.م.

أما الإمبراطورية الكبيرة الأخرى في المنطقة؛ فقد تركّزت في الأناضول؛ إنها كانت الدولة الحيثية، التي كانت تحكم انطلاقاً من عاصمتها "حتوشا" التي تقع شرق أنقرة، عاصمة تركيا الحديثة. كان الحيثيون يسيطرون على آسيا الصغرى وشمال سوريا، وكانوا قد بلغوا شأواً رفيعاً في العمارة، والأدب، وفن الحرب. تُعطي مدينة "حتوشا" الواسعة - بتحصيناتها الهائلة ومعبدها المحفور في الصخر - الزوّار المعاصرين إحساساً بعظمة الحيثيين.

كانت الحدود بين الإمبراطوريتين - المصرية والحيثية - تقع في سوريا. وقد وقعت بينهما الحرب التي كان لأدبها في بداية القرن الثالث عشر ق.م؛ حيث التقى الجيشان العظيمان في قادش على نهر العاصي غربي سوريا. كان في أحد الطرفين "موطاليس" Muattalis ملك الحيثيين، وفي الطرف الآخر، وكفّ رمسيس الثاني، الملك المصري الشاب، وضعيف الخبرة في الحرب. لدينا سجلات عن الحرب تعود لكلا الطرفين، وكلٌّ منهما يدعي فيها النصر. الحقيقة كانت في مكان ما وسط بين الادعاءين. فالظاهر أن الحرب انتهت، دون حصول أي من الطرفين على نصر حاسم، لذا؛ كان على القوتين العظميين أن يتوصلا إلى تسوية. سرعان ما وقع الملك الحيثي الجديد، "حاتوسيليس الثالث" Hattusilis III، ورمسيس الثاني، الذي أصبح الآن أكثر ترمساً في الحرب، معاهدة سلام، أعلنت صداقة بين الدولتين، وترك العداوات بينهما إلى الأبد، وختمت الاتفاقية بعمل رمزي، كان زواج رمسيس من أميرة حثية.

أعطى العالم الذي أوجده هذا الموقف المصري - الحيثي - فرصاً متزايدة لقوة عظيمة نائمة أخرى في الغرب، لم تكن قوتها ناتجة عن القوة العسكرية، بل كانت تتجلى بالمهارات البحرية؛ إنها العالم الميسيني (نسبة لمدينة ميسينا القديمة في جنوب اليونان)، الذي أنتج الحصون والقلاع الشهيرة لمدينة ميسيني Mycenae، وتيرينس Tiryns، والقصور الغنية ليليلوس Pylos، وطيس Thebes. إنه كان الذي أعطى - على ما يبدو - الخلفية الرومانسية للإلياذة هوميروس والأسفار الطويلة لأوديسي؛ كما كان العالم الذي أنتج الشخصيات المشهورة لـ "أغاميمنون" Agamemnon، و"هيلين" Helen، و"بريام" Priam، و"أوديسوس" Odysseus.

لا نعرف اليوم - على وجه التأكيد - فيما إذا كان "العالم الميسيني" يُدَار ويُحكّم من مركز واحد، مثل مدينة ميسيني Mycenae. من المحتمل أكثر؛ أن ذلك العالم كان نظاماً من عدة



مراكز، كلُّ واحد منها يحكم أراضٍ كثيرة، شيءٌ يشبه دُولَ المُدُن في كُتْعَان، أو نظامٌ بُوليسٌ في اليونان التقليدي، ولكن؛ على نطاق، أو مقياسٍ أوسع بكثير.

بدأ العالم المسيحي، -الذي تمَّ اكتشافه لأول مرةً بفضل التنقيحات الأثرية المثيرة التي قام بها هنريخ شلايمان Heinrich Schliemann في مدينتي مسيني Mycenae، وتيرينس Tiryns، في أواخر القرن التاسع عشر- بدأ يكشف لنا أسراره بعد سنوات، عندما تمَّ فكُّ شفرة المخطوطة 'ب' الخطية. أثبتت الألواح التي وُجدت في القصور المسيئية أن المسيئين كانوا يتكلمون اللغة اليونانية. جاءت قوتهم وثروتهم -على ما يبدو- من التجارة في شرقي البحر الأبيض المتوسط.

لعبت جزيرة قبرص -التي كانت تُعرف في ذلك الحين باسم 'الاشيا' Alashiya- دوراً مهماً -أيضاً- في عالم القرن الثالث عشر ق. م، هذا؛ حيث كانت المنتج الرئيسي للتحاس في شرقي البحر الأبيض المتوسط، وكانت بوابةً للتجارة في المشرق. تُبين الأبنية الرائعة التي بنيت بكُتل الحجر المأخوذة من 'الاشيا' مدى الازدهار الذي وصلت إليه الجزيرة في ذلك الوقت.

تميّز عالم العصر البرونزي المتأخر بالقوة العظمى، والثروة، والتجارة النشطة. يبيّن حطام السفينة المشهورة: 'أولو بورون' Ulu Burun، التي وُجدت في أيامنا خارج ساحل جنوب تركيا، لمحةً إلى أيام الازدهار تلك. كانت سفينةٌ مَحْمَلَةٌ بشحنة تجارية من عدة بضائع مثل: قوالب التحاس والقصدير، قطع أشجار الأبنوس، الراتنج الحادّ، عاج الفيل، وقرّس النهر، فُشُور بيض النعامة، التوابل، وبضائع أخرى، وكانت تُبحر على طول ساحل آسيا الصغرى، في وقت ما حوالي 1300 ق. م، عندما غرقت -على ما يبدو- بسبب عاصفة هوجاء.

أظهرت التنقيحات التي أُجريت تحت الماء على حطام السفينة، واستعادة شحنتها التجارية الغنية، بأن هذه السفينة الصغيرة -والتي لم تكن بالتأكيد استثنائية في ذلك الزمن- كانت تجوب جميع الطرق المربحة للتجارة في كامل شرقي البحر الأبيض المتوسط، حاملة المصنوعات اليدوية الفاخرة، والسلع الاستهلاكية الملتصقة من كلِّ مرفأ توقّف فيه.

من المهمّ التذكير بأن ذلك العالم لم يكن مجرد نسخة قديمة لسوقٍ مشتركة حديثة فحسب، تقوم فيه كلُّ أمةٍ بالتجارة الحرّة مع سائر الأمم. بل كان -أيضاً- عالمًا تديره، وتُسيطر عليه -بكلِّ إحكام- مجموعة من الملوك والأمراء، كلُّهم في منطقته السياسية الخاصة به، وكان

محروساً - بعناية - من قِبَل مصر وسائر القوى العظمى الأخرى في ذلك الزمن . في مثل ذلك العالم المنظَّم والمزدهر لِنُخب العصر البرونزي ، كان السُّقُوط السَّريع والمُفاجئ والعنيف سيبترك - بالتأكيد - أثره الدائم في الذاكرة ، والأساطير ، والشعر .

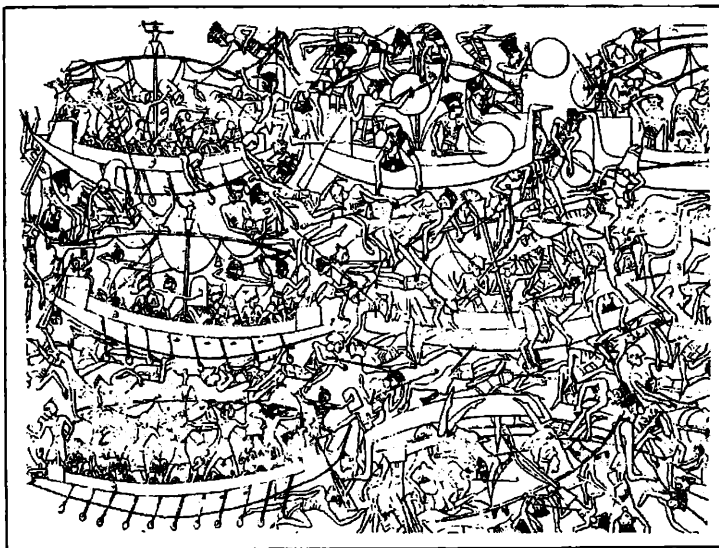
### الثورة العظيمة:

ربما بدا المنظر من قُصور دُول مُدُن كُنْعَان منظراً سلميًّا ، ولكن؛ كانت هناك مشاكل جمة في الأفق ، مشاكل ستسبب انهياراً كاملاً لكُلِّ الاقتصاد والبنية الاجتماعية للعصر البرونزي المتأخِّر . مع حُلُول سنة 1130 ق . م ، نرى عالماً مُختلفاً تماماً ، مُختلفاً إلى درجة أن أياً من سُكَّان مدينة Mycenaes ، أو نُوْ أمُون "No Amon" (عاصمة مصر آنذاك ، وهي مدينة الأقصر اليوم) ، أو حتُّوشا "Hattusha" (عاصمة الحثيِّين) ، قبل مئة سنة ؛ أي في العام 1230 ق . م ، لن يستطيعوا التَّعرُّف عليه . لم تكن مصر - حينذاك - سوى ظلُّ باهت لماضيها المجيد ، كانت قد قَدَّتْ أغلب أراضيها الأجنبية . مَمْلَكَة الحثيِّين انقرضت من الوجود ، وكانت عاصمتها "حتُّوشا" أنقاضاً خاوية على عُرُوشها . لم يكن العالم المسيحي سوى ذكرى خافية ، مراكزه الواسعة مدمرة . كانت قُبْرُص قد تحوَّلت ؛ وتوقَّفت فيها تجارة النحاس والسِّلَع الأخرى . كانت العديد من الموانئ الكنْعانيَّة الكبيرة على طُول السَّاحل الشَّرقي للبحر الأبيض المُتوسِّط ، بما في ذلك الميناء التجاري البحري العظيم "أوغاريت" في الشَّمال ، مُحترقة كُلياً . كما كانت عديد من المُدُن الداخليَّة الرائعة ، مثل "مجدو" و"حاصور" أكواماً من الخرابات المهجورة .

ما الذي حَدَثَ؟ لماذا اختفى العالم القديم ؟ لقد اقتنع العُلَماء الذين عملوا على حلِّ هذه المُشكلة أن السَّبب الرَّئيسي لها كان الفزوات التي شتَّتْها مجموعات غامضة وعنيفة سُمِّيت بـ "شُعُوب البحر" ، كانوا مهاجرين قدموا من الغرب ، من البرِّ والبحر ، وقاموا بتدمير كُلِّ شيء وكَفَّ في طريقهم . جاء ذِكر أولئك اللُّصوص في سجلات أوغاريتية ومصرية تعود لأوائل القرن الثاني عشر ق . م . . يُزودنا نصٌّ وُجِدَ في خرابات ميناء أوغاريت بشهادة مثيرة عن الوضع حوالي سنة 1185 ق . م . . كان ذلك النَّصُّ رسالة أرسلها : أمُورابي "Amurapi" ، آخر ملوك أوغاريت ، إلى ملك آلاشيا (قُبْرُص) ، يصف - بشكل مسعور - كيف وَصَلَتْ مراكب العدو ، وأشمل العدو النَّارَ في المُدُن ، ودمر ، وعاث فساداً . كانت قُوَّاتي في بلاد الحثيِّين ، ومراكبي في لسيا Lycia ، والبلاد تُرُكت لأدواتها الخائصة . وعلى المنوال نفسه ؛

أعرب الملك العظيم الحثي - في رسالة أرسلها - في تلك الفترة نفسها ، إلى حاكم أوغاريت - عن قلقه بشأن حُضُور مجموعة من "شعب البحر" تُدعى "شيقالايا" الذين يعيشون على المراكب".

بعد عشر سنوات ، في سنة 1175 ق. م ، عمّ هذا الوضع في جميع أنحاء الشمال : كانت حثي ، وآشيا ، وأوغاريت مدمرة . لكن مصر مازالت قُوَّة هائلة ، مُصمَّمة على القيام بدفاع مُستमित . تحكي النقوش التذكارية لرمسيس الثالث في معبد مدينة هابو Medinet Habu في مصر العليا ، أن "شعوب البحر" دبّروا مؤامرة مزعومة لتدمير الأراضي المستقرة الواقعة شرقي البحر الأبيض المتوسط : " حاكت البلدان الأجنبية مؤامرة في جزرها ، أنه لا يُمكن لأي أرض أن تقف أمام أسلحتهم . . . كانوا يتقدمون باتجاه مصر ، بينما كان اللهب قد تمّ إعداده أمامهم . ضمّ اتحادهم الفلسطينيين ، التجكريين Tjeker ، الشكيليشيين Shekelesh ، الدنييين Denyen ، والوشيشيين Weshesh ، الذين أتحدت أراضيهم . لقد وضعوا أيديهم على الأراضي بقلر ما تُسمع له دائرة الأرض ، وقالوا - بقلوب واثقة ومطمئنة :- "حُططنا ستّجح".



الشكل 11: نقش نافر(بارز) في معبد مُستودع الجُثث الخاص برمسيس الثالث في مدينة هابو في مصر العليا ، يبيّن المعركة البحرية مع شعوب البحر.

على جدارٍ خارجي للمعبد رُسِمَت رُسُومات واضحة وحيوية، تصف المارك المتتالية (الشكل رقم 11). في أحدها؛ يظهر تشابك للسفن المصرية مع الأجنبية في وسط اشتباك بحري فوضوي، مع صورة لرماة يستعدون لضرب سفن أعدائهم بالنبال، ومحاربون ميئون يسقطون في البحر.

يظهر الغزاة البحرليون بأشكال تختلف كثيراً عن أشكال المصريين، أو عن أشكال الشعوب الآسيوية في الفن المصري. أكثر ما يُميز مظهرهم هو غطاء رأسهم المميز؛ بعضهم كان يلبس الخوذ، في حين كان آخرون يضعون على رؤوسهم غطاء رأس غريباً مرمشاً. على مقربة من ذلك الرسم، يوجد رسم آخر، يُصور معركة برية عنيفة، يشترك فيها المصريون مع محاربي شعوب البحر، بينما عائلات الرجال، من النساء، والأطفال، يركبون عربات الثيران الخشبية للهجرة عبر الأرض، وينظرون للمعركة بلا حيلة.

بحسب الفرعون رمسيس الثالث؛ كانت نتيجة المارك البرية والبحرية حاسمة: [أولئك الذين وصلوا لحُدُودي، لم تنته بذرتهم فحسب، بل انتهت قلوبهم، وأرواحهم، إلى أيد الأبدن. أولئك الذين تقدّموا مع بعضهم عبر البحر، كان اللهب الكامل أمامهم. . سحّبوا، وأحيط بهم، وطرحوا على الشاطئ، ثم قتلوا، وجعلوا أكواماً من ذيلهم لرؤوسهم].

مَن كان "شعوب البحر" المهذّبون أولئك؟

هناك نقاش علمي مستمرّ حول أصلهم، والعوامل التي حرّكتهم نحو الجنوب والشرق. يرى البعض أنهم كانوا إيجيبيين؛ في حين؛ يتلمس آخرون أصلهم في جنوب الأناضول، لكن؛ ما الذي دكّع بالآلاف الناس المُشرّدين من أوطانهم إلى السير في طُرُق البحر والبر، بحثاً عن منازل، أو أوطان جديدة؟ هناك احتمال أنهم كانوا اتحاداً ضعيفاً من قراصنة، وبحارة، بدون جدور، وفلاحين مُعدّمين، شرّدوا من أوطانهم؛ بسبب المجاعة، أو الضغط السكاني، أو ندرت الأراضي الزراعيّة. بتحوّلهم نحو الشرق وتحطيمهم للشبكة الهشة للتجارة الدوليّة في شرقي البحر الأبيض المُوسّط، أوقعوا الفوضى في اقتصاديات العصر البرونزي، وأرسلوا الإمبراطوريات العظيمة في ذلك العصر إلى عالم التسيان.

عَرَضَتْ نَظَرِيَّاتٌ أَكْثَرُ حَدَاثَةٍ تَفْسِيرَاتٍ مُخْتَلَفَةً بِشَكْلِ مُثِيرٍ. يُشِيرُ الْبَعْضُ إِلَى تَغْيِيرِ مَنَاخِي مُفَاجِئٍ دَمَّرَ الزَّرَاعَةَ، وَسَبَبَ مَجَاعَةً وَاسِعَةَ الْإِنْتِشَارِ. يَفْتَرِضُ آخَرُونَ انْحِلَالاً وَتَعَطُّلاً كَامِلاً لِلْمُجْتَمَعَاتِ فِي كَافَّةِ أَنْحَاءِ شَرْقِي الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ الْمُتَوَسِّطِ، بَنَحُوا أَصْبَحَ مَعَهُ مِنَ الْعَسِيرِ تَحْمَلُ أَيَّ تَغْيِيرٍ اِقْتِصَادِيٍّ، أَوْ ضَغْطِ اجْتِمَاعِيٍّ. فِي كَلَا السِّيْنَارِيُوتِيِّينَ الْمُحْتَمَلِينَ الْآخِرِينَ، لَمْ تَكُنِ الْهَجْرَاتُ الْمُفَاجِئَةُ لِشُعُوبِ الْبَحْرِ هِيَ السَّبَبُ، بَلْ كَانَتْ الْمُسَبَّبُ. بِكَلِمَةِ أُخْرَى؛ أُرْسِلَ انْحِلَالٌ وَتَوَقُّفٌ اِقْتِصَادِيَّاتٍ الْقَصْرَ لِلْعَصْرِ الْبَرُونِزِيِّ الْمُتَأَخَّرِ حُشُوداً مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ شَرَدُوا مِنْ أَوْطَانِهِمْ، لِيَهْمُوا فِي شَرْقِي الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ الْمُتَوَسِّطِ؛ بَحْثاً عَنْ أَوْطَانٍ، وَمَعَايِشٍ جَدِيدَةٍ.

الحقيقة هي أننا لا نعرف - على وجه الدقة - سبب انهيار العصر البرونزي المتأخر في كافة أنحاء المنطقة. رغم ذلك؛ فإن الشواهد الأثرية - التي تدلُّ على نتيجة ذلك الانهيار - واضحة. يأتي الدليل الأكثر إثارة من من "فيلسطينيا" Philistia في جنوب إسرائيل؛ أي أرض الفلسطينيين، الذين كانوا أحد شعوب البحر، الذين ذُكروا في نقش رمسيس الثالث. كَشَفَتِ التَّقْيِيَّاتُ الْاَثْرِيَّةُ فِي اثْنَيْنِ مِنَ الْمَرَاكِزِ الْفِلَسْطِينِيَّةِ الرَّيْسِيَّةِ: "أَشْدُودُ" وَ"عَقْرُونُ" شَوَاهِدَ مُفِيدَةٍ حَوْلَ سِنُونِ الْاضْطِرَابَاتِ تِلْكَ.

فِي الْقَرْنِ الثَّلَاثِ عَشَرَ ق. م؛ كَانَتْ "أَشْدُودُ" بِشَكْلِ خَاصٍّ. مَرَكِزاً كُنْعَانِيَّاً نَاجِحاً، يَعِيشُ تَحْتَ التَّأَثِيرِ الْمِصْرِيِّ. بَقِيَتْ كِلْتَا "أَشْدُودُ" وَ"عَقْرُونُ" حَتَّى أَيَّامِ رَمْسِيْسِ الثَّلَاثِ عَلَى الْأَقْلَى، ثُمَّ دَمَّرَتْ وَاحِدَةً مِنَ الْمَدِينَتَيْنِ، عَلَى الْأَقْلَى؛ أَيَّ "أَشْدُودُ"، بِحَرْقِهَا بِالنَّارِ.

أَسَّسَ الْمُهَاجِرُونَ الْفِلَسْطِينِيُّونَ مُدُنَهُمْ عَلَى الْخِرَابِ. وَفِي الْقَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ ق. م؛ كَانَتْ "أَشْدُودُ" وَ"عَقْرُونُ" قَدْ أَصْبَحَتَا مَدِينَتَيْنِ مُزْدَهَرَتَيْنِ، مَعَ ثِقَافَةٍ مَادِيَّةٍ جَدِيدَةٍ. اسْتَبْدَلَتِ الْمَظَاهِرُ الْقَدِيمَةَ لِلْهَنْدَسَةِ الْعِمَارِيَّةِ وَالسِّيْرَامِيكِ الَّتِي كَانَتْ مَزِيْجاً مِصْرِيَّاً كُنْعَانِيَّاً بِشَيْءٍ جَدِيدٍ تَمَاماً فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنَ الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ الْمُتَوَسِّطِ: هَنْدَسَةٌ عِمَارِيَّةٌ وَأَنْمَاطٌ فِخَارِيَّةٌ إِيْجِيَّةٌ.

وَفِي أَجْزَاءٍ أُخْرَى مِنَ الْبِلَادِ؛ انْحَلَّ، وَتَعَطَّلَ النِّظَامُ فِي الْعَصْرِ الْبَرُونِزِيِّ الْمُتَأَخَّرِ؛ بِسَبَبِ اِنتِشَارِ عَنَفٍ لَمْ يَتَّضِحْ مِصْدَرُهُ. بِشَكْلِ كَامِلٍ - حَتَّى الْآنَ. بِسَبَبِ الْفِتْرَةِ الزَّمْنِيَّةِ الطَّوِيلَةِ - حِوَالِي قَرْنٍ - لَانْهِيَارِ نِظَامِ "دَوْلِ الْمُدُنِ الْكُنْعَانِيَّةِ"، مِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنْ تَكُونَ الْأَزْمَةُ الشَّدِيدَةُ قَدْ أَدَّتْ إِلَى

حُصُول نزاعات بَيْن المَدُن الكَنَعَانِيَّة المُتجاوِرة من أَجل السَّيْطَرَة على الأراضِي الزراعيَّة الحَيَوِيَّة، وعلى قُرَى الفلَّاحِين . في بعض الحالات ؛ لربَّما قام الفلَّاحون - الذين يَمُرُّون بصُعُوبات بالغة - والسُّكَّان الرِّعَاة، بِمُهاجمة المَدُن الغنيَّة في وسطهم . سقطت المراكز الكَنَعَانِيَّة القديمة ؛ واحداً بعد الآخر، في حرائق مُثيرة ومُماجئة، أو دَخَلتْ في مرحلة انحدار وانحطاط تدريجي .

في الشَّمال، أُحْرِقتْ 'حاصور'، وقَطَعَت رُؤُوس تماثيل الآلهة في قَصْرِها الملكي، وَجَعَلتْ حطاماً .

وعلى السَّهْل السَّاحلي ؛ دُمِّرَت مدينة 'أفيق' بنايَرِهيَّة ؛ تَمَّ العُثور على لوح مسماري، يتعلَّق بصفحة حنطة حَيَوِيَّة بَيْن 'أوغاريت' ومصر في حُطام الدَّمَار السَّميك . وإلى الجنوب أكثر ؛ أُحْرِقتْ المدينة الكَنَعَانِيَّة البارزة 'لخيش'، وهُجِرَت .

وفي وادي 'يزرعيل' الغني، تُرِكَتْ 'مجدو' لِقَمَّة سائفة لآلسنة اللَّهَب، ودُفِن قَصْرُها تحت سِتَّة أَقدام من حُطام الطابوق المُحترق .

يجب التَّأكيد على أنَّ هذا التَّحوُّل العظيم لم يكن فُجائياً في كُلِّ مكان . تُشير الأدلَّة الأثاريَّة إلى أنَّ دمار المُجتمع الكَنَعاني كان عمليَّةً طويلة وتدرجيَّةً نسبيًّا . الأنواع الفخاريَّة التي وَجِدَتْ في أنقاض 'حاصور' العصر البرونزي المُتأخِّر، فاقدة للأشكال المُميِّزة لأواخر القرن الثالث عشر ق . م، لذا ؛ لا بُدَّ أن تكون قد دُمِّرَت في زمن أسبق بعض الشيء . في مدينة 'أفيق'، يحمل اللُّوح المسماري - في أحد طبقات الدَّمَار - أسماء مسؤولين من أوغاريت ومصر معروفة من مصادر أُخرى ؛ وبالتالي ؛ يُمكن تأريخها إلى حوالي 1230 ق . م . يُمكن أن يكون المعقل المصري هناك قد دُمِّر في أيِّ وقت، في العقدَيْن أو الثلاثة التي تَلَت . وَجَدَ المُتقبِّون في 'لخيش' في طبقة الدَّمَار، جزءاً معدنيًّا، من المُحتمل أن يكون مُلائماً للباب الرئيسي للمدينة، يحمل اسم الفرعون رمسيس الثالث .

هذا الاكتشاف يُخبرنا بأنَّ 'لخيش' يجب أن تكون قد دُمِّرَت في وقت ليس أبكر من عهد هذا الملك، الذي حَكَمَ بَيْن 1184 و 1153 ق . م .

اخيراً؛ في خرابات "مَجْدُو"، تمَّ اكتشاف قاعدة معدنيّة لتمثال يحمل اسم رمسيس الرابع (1143- 1136 ق.م)، ممَّا يشير إلى أنَّ ذلك المركز الكنعاني العظيم لوادي "يزرعيل" قد تمَّ تدميره -احتمالاً- في النصف الثاني من القرن الثاني عشر.

ملوك كُُلِّ هذه المَدُن الأربع "حاصور"، "أفيق"، "لخيش"، و"مَجْدُو"، ذُكِر بأنهم قد هزموا على أيدي الإسرائيليين تحت قيادة يشوع، لكنَّ الأدلَّة الأثاريَّة تُظهر بأنَّ دمار تلك المَدُن حَدَثَ على مدى أكثر من قرن. الأسباب المُحتملَّة لذلك الدمار هي: إمَّا عمليَّات غزو، أو انحلال اجتماعي، أو حُرُوب أهليَّة؛ أيُّ أنَّه لم تقم بذلك الدمار قُوَّة عسكريَّة وحيدة، وبالتأكيد؛ لم يتمَّ ذلك الدمار خلال حملَّة عسكريَّة واحدة.

ذكريات في حالة تحوُّل:

حتَّى قبل أن توضع نتائج الاكتشافات الأثاريَّة علامات سؤالٍ كبيرة حول الأساس التاريخي لغزو وفتوحات يشوع في كنعان، كانت هناك دائرة صغيرة من العلماء بالكتاب المقدَّس الألمان تتأمَّل في تطوُّر التقليد الأدبي الإسرائيلي، بدلاً من التأمُّل في استراتيجيَّات ساحة المعركة. كورنَّة للأنجاء التَّقدي القوي الذي تميَّز به القرن التاسع عشر، أشار ذلك الفريق من العلماء إلى وجود تضاربات داخلية في النصِّ التوراتي، الذي يحتوي -على الأقلُّ- على روايتين متميَّزتين ومُتناقضتين -بشكل مُتبادل- لقصة غزو الإسرائيليين لكنعان.

طالما عدَّ العلماء الألمان كتابَ يشوع مجموعةً مُركَّبةً من: أساطير، وقصص أبطال، وحكايات محليَّة، أخذت من مناطق مُختلفة من البلاد، تمَّ تأليفها مع بعض عبر القُرُون. لقد حاول العالمان بالكتاب المقدَّس "البريخت الت" و"مارتن ثوث" -بشكلٍ خاصُّ- إثبات أن عديداً من القصص التي أُبقيت ضمن كتاب يشوع لم تكن أكثر من تقاليد، كان يُصار إليها بنحوٍ يُشابهه -لحدِّ كبير- منهج "علم أسباب الأمراض"؛ أي بمعنى آخر، أنَّها كانت أساطير تُحاول أن تفسَّر كيفية حصول المعالم المشهورة، أو أنَّها ناتجة عن الفضول الطبيعي لدى الإنسان. مثلاً؛ لا شكَّ أنَّ النَّاس الذين كانوا يعيشون في قرية بيت إيل -في العصر الحديدي- وما حولها، قد لاحظوا التلَّ الضَّخَم للخرابات أو الآثار العائدة للعصر البرونزي المُبكر إلى الشرق منهم. كانت تلك

الخرابات والآثار أكبر عشرة مرّات - تقريباً - من بلدتهم الخاصّة، وكانت بقايا تحصيناته مازال رائعة، لذا؛ حاول 'البرخت الت' و'مارتن ثوث' إثبات أنّه ربّما كانت الأساطير قد نَمَتْ حول تلك الخرابات، وَتَمَتْ قَصَصُ انتصار الأبطال القُدّماء، التي وضّحت كيف كان من المُمكن لثل تلك المدينة الكبيرة أن تُدمَّر.

في منطقة أُخرى من البلاد، ربّما كان النَّاس الذين يعيشون في تلال شفيلة Shephelah قد أعجبوا بالحجم الكبير للصخرة التي تسدُّ مدخل مغارة سرّية غامضة قُرب بلدة 'مقيّدة'، لذا؛ ربّما تكون قد نشأت قَصَصُ تربط بين الحجارة الضخمة والأفعال البُلُوّية في ماضيهم الخاصّ الخافت: لقد سدّت الصخرة فَمَ المغارة، التي كان خمسة من الملوك القُدّماء قد اختصوا فيها، ثُمَّ دَفَنُوا فيها فيما بعد، كما يوضّحه سفر يشوع 16/10 - 27. طبقاً لوجهة النّظر هذه، القَصَصُ التّوراتية التي انتهت بملاحظة أنّ بعض المعالم كان مايزال يُمكن رؤيتها إلى يومنا هذا، كانت - احتمالاً - أساطير من هذا النوع. وفي وقت ما؛ تمّ تجميع هذه القَصَصُ الفرديّة، وربّطها مع بعض؛ لتُشكّل حَمَلَةً فَتَحَ واحدة، يقودها زعيم أسطوري عظيم.

على العكس من إعطائهما سفر يشوع صفة الأسطورية بشكل كبير؛ نَظَرَ 'البرخت الت' و'مارتن ثوث'، إلى الإصحاح الأوّل من سفر القضاة على أنّه يمتلك - احتمالاً - نواة موثوقة يُمكن الاعتماد عليها لانتصارات قديمة، حَقَّقَتْهَا ميليشيات جبليّة مُتناثرة على نطاق واسع، على مُختلف المُدن التي كانت تُهيمن عليهم.

في الحقيقة؛ الحالة الفوضويّة لدمار المُدن الكنعانيّة في بعض الأماكن، وبقائها في أماكن أُخرى يُتَقَدَّرُ أكثر مع الدلائل الأثاريّة. مع ذلك؛ ليس هناك سبب يُسرُّ لماذا لا يُمكن أن تشتمل قصة الغزو في سفر يشوع على ذكريات شعبيّة. أيضاً - وعلى أساطير كانت تُحَيِّي ذلك التحوّل التاريخي. إنّها يُمكن أن تُقدِّم لنا لمحات مُتناثرة ومُتفرّقة جدّاً عن العُنف، والعاطفة، والغبطة عند دمار المُدن، والذّبْحُ المُروِّع لسكّانها، الذي حَدَثَ بشكل واضح. مثل هذه التجارب المُولَّة، من البعيد أن يتمّ نسيانها كليّاً، وفي الحقيقة؛ ربّما تكون ذكرياتها الواضحة سابقاً، والتي نَمَتْ، وتوسّعت، بنحو مُبهم وتدرجي عبر القُرُون، لتُصبح المادّة الخامّ لإعادة رواية



القصة بنحو أكثر إتقاناً بكثير . وبناءً على ذلك ، فليس هناك سبب لافتراض أن احتراق "حاصور" لم يحدث على أيدي قوَّات مُعادية مثلاً ، لكنَّ الذي كان - في الواقع - سلسلة فوضويَّة من الثورات ، سببها العديد من العوامل المُختلفة ، وتقدَّتها العديد من المجموعات المُختلفة ، أصبح - بعد عدَّة قُرُون لاحقة - قصة مُصاغَة - بشكْل مُبدع - لفتح أراضٍ ، بُبَّاركة الله ، وقيادته المباشرة . لقد تمَّ الإنتاج الأدبي لتلك القصة لأغراض مُختلفة - تماماً - عن إحياء أساطير محلِّيَّة . لقد كان - كما سنرى - خطوة هامة نحو إيجاد الهويَّة الإسرائيليَّة الجامعة .

### عودة للمستقبل مرَّةً ثانية؟

هذه الصورة الأساسية للتراكم التدريجي للأساطير وقصص - واندماجها النهائي في قصة مُتماسكة ووحيدة ذات رؤية لاهوتيَّة مُحدَّدة - كانت من نتاج تلك الفترة المُبدعة بنحو مُدهش ، التي تميَّزت بالإنتاج الأدبي لمملكة يهوذا في القرن السابع ق . م . . لعلَّ أكثر مؤسَّر مفتاحي يدلُّنا على أن سفر يشوع إنَّما تمَّ تأليفه في ذلك الوقت هو قائمة البلدات في أرض قبيلة يهوذا ، والتي ذُكرت - بالتفصيل - في سفر يشوع 15 / 21 - 62 . تتطابق هذه القائمة - بالضبط - مع حدود مملكة يهوذا في عهد الملك يُوشيا . علاوة على ذلك ، تتطابق أسماء الأماكن المذكورة في القائمة - لحدِّ كبير - مع أسماء نماذج القرى المأهولة في المنطقة نفسها ، في القرن السابع ق . م . ، بل إنَّ بعض المواقع لم تُسكن إلا في العقود الأخيرة من القرن السابع ق . م . .

لكنَّ الجغرافيا ليست الصلَّة الوحيدة بين النصِّ وعصر الملك يُوشيا ، بل نجد ملامح عقيدة الإصلاح الديني والتطلُّعات الإقليميَّة التي تميَّز ذلك العصر واضحة - أيضاً - في النصِّ . رأى العلماء المُختصُّون بالكتاب المُقدَّس - منذُ مُدَّة طويلة - أن سفر يشوع هو جزء من ما سمَّوه بالتاريخ الشنوي Deuteronomistic History ، الذي يجمع سبعة أسفار (من الكتاب المُقدَّس) تبدأ من سفر الشنتية ، وتنتهي بسفر الملوك الثاني ، والتي تمَّ تأليفها جميعاً في عهد الملك يُوشيا . يعود التاريخ الشنوي - مراراً وتكراراً - إلى الفكرة التي ترى أنَّه يجب أن تُحكَّم جميع أرض إسرائيل من قِبَل زعيم يختاره الله ، يحكمُ كاملَ شعب إسرائيل ، مُتبعاً في حكمه - بدقَّة - شريعة الله التي أنزلها في سيناء ، ومُراعياً التحذيرات الأكثر صرامة ضدَّ عبادة الأصنام ، التي

بَلَّتْهَا مَوْسَى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي كِتَابِ سَفَرِ التَّنِيَّةِ . إِنَّ لُغَةَ سَفَرِ التَّنِيَّةِ ، وَأَسْلُوبَهُ ، وَالرَّسَائِلَ الَّلَاهُوتِيَّةَ الصَّارِمَةَ الَّتِي يَتَضَمَّنُهَا ، مَجْدَهَا نَفْسَهَا - بِشَكْلٍ وَاضِحٍ - فِي كَافَّةِ أُنْحَاءِ سَفَرِ يَشُوعَ ، خُصُوصاً ؛ فِي الْفَقَرَاتِ الَّتِي تَمَّ فِيهَا نَسْجُ قِصَصِ الْمَعَارِكِ الْفَرْدِيَّةِ مَعَ بَعْضٍ ؛ لِإِنْتِاجِ قِصَّةِ الْغَزْوِ ، وَفَتْحِ كَنْعَانَ الْكَبِيرَةِ ، وَثَلَاثِمِ خَطَّةِ الْمَعْرَكَةِ الْعَامَّةِ فِي سَفَرِ يَشُوعَ حَقَائِقَ الْقَرْنِ السَّابِعِ ق. م. ، أَكْثَرَ بِكَثِيرٍ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ الْحَالُ فِي الْعَصْرِ الْبَرُونِزِيِّ الْمَتَأَخَّرِ .

إِنَّ الْمَعْرَكَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ فِي كِتَابِ يَشُوعَ ، ضِدَّ أَرِيحَا وَ"عَاي" (أَي: مَنْطِقَةُ بَيْتِ إِيْلَ) ، وَقَعَتَا فِي الْأَرَاضِي نَفْسَهَا ، الَّتِي كَانَتْ الْهَدَفَ الْأَوَّلَ لِتَوْسِعِ الْمَلِكِ "يُوشِيَا" شِمَالاً ، عَقِبَ انْسِحَابِ الْإِمْبْرَاطُورِيَّةِ الْأَشُورِيَّةِ مِنْ مَحَافِظَةِ السَّامِرَةِ . كَانَتْ أَرِيحَا تُمَثِّلُ الْمَخْفِرَ الْأَمَامِي فِي أَقْصَى الْجَنُوبِ الشَّرْقِيِّ لِلْمَمْلَكَةِ الشَّمَالِيَّةِ لِإِسْرَائِيلَ ، وَكَانَتْ الْمَحَافِظَةُ الْأَشُورِيَّةَ التَّالِيَةَ ، تَقَعُ مُقَابِلَ ذَلِكَ الْمَعْبَرِ الْاسْتِرَاتِيجِيِّ فِي نَهْرِ الْأُرْدُنِّ . كَانَتْ "بَيْتِ إِيْلَ" - مَرْكَزَ الْعِبَادَةِ الرَّئِيسِيِّ ، وَالْمَكْرُوهِ جِداً فِي الْمَمْلَكَةِ الشَّمَالِيَّةِ - مَرْكَزَ التَّوْطِينِ الْأَشُورِيِّ لِلْأَقْوَامِ غَيْرِ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ <sup>(1)</sup> . كِلَا الْمَكَائِنِ كَانَا . فِيمَا بَعْدَ - أَهْدَافاً لِنَشَاطِ الْمَلِكِ "يُوشِيَا" : لَقَدْ ازْدَهَرَتْ أَرِيحَا وَمَا حَوْلَهَا بَعْدَ السَّيْطَرَةِ الْيَهُودِيَّةِ عَلَيْهَا ، وَتَمَّ تَدْمِيرُ الْمَعْبَدِ الشَّمَالِيِّ فِي بَيْتِ إِيْلَ بِشَكْلٍ كَامِلٍ .

وَأَيْضاً ؛ تَوَازِي قِصَّةَ غَزْوِ "شَفِيلَةَ" Shephelah ، التَّوَسَّعَ الْيَهُودِيُّ الْمَجْدَّدُ فِي تِلْكَ الْمَنْطِقَةِ الْمُهَمَّةِ وَالخَصْبَةِ جِداً . هَذِهِ الْمَنْطِقَةُ الَّتِي تُعَدُّ الْمَنْطِقَةَ التَّقْلِيدِيَّةَ لِإِنْتِاجِ الْحُبُوبِ لِيَهُودَا ، فَتَحَهَا الْأَشُورِيُّونَ قَبْلَ عُمُودِ قَلِيلَةٍ ، وَأَعْطَيْتِ إِلَى مَدُنِ فِيلِسْطِيَا Philistia .

فِي الْحَقِيقَةِ ؛ يُخْبِرُنَا سَفَرُ الْمُلُوكِ الثَّانِي : 1 / 22 بِأَنَّ "يُوشِيَا" جَاءَتْ مِنْ بِلْدَةِ تُسَمَّى "بُصْقَةَ" . لَمْ تَذْكَرْ هَذِهِ الْبِلْدَةَ إِلَّا مَرَّةً ثَانِيَةً . قَطَطَ - فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ فِي قَائِمَةِ بِلْدَاتِ قَبِيلَةٍ

(1) قِصَّةُ الْجَمْعُونِيِّينَ ، الَّلَّذِينَ 'جَالَوْا مِنْ أَرْضِ بَعِيدَةٍ وَأَرَادُوا عَقْدَ مِيثَاقٍ مَعَ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ الْغَزَاةِ (يَشُوعَ 9 / 3-27) ، يُمَكِّنُ أَنْ تَمَكِّنَ - أَيْضاً - تَبَيُّنًا لِحَقِيقَةِ مَنِ حَقَائِقِ الْقَرْنِ السَّابِعِ ق. م. - يَتَمَّ إِظْهَارُهَا بِتَوْبِ قِصَّةٍ قَدِيمَةٍ . عِنْدَمَا تَوْسَّعَ الْمَلِكُ "يُوشِيَا" شِمَالاً إِلَى مَنْطِقَةِ بَيْتِ إِيْلَ بَعْدَ انْسِحَابِ الْإِمْبْرَاطُورِيَّةِ الْأَشُورِيَّةِ ، وَاجَهَتْ دَوْلَةَ يَهُودَا مُشْكَلَةً إِدْمَاجِ أَحْفَادِ الْمُبْعَدِينَ الَّلَّذِينَ جَلَّوهُمْ الْأَشُورِيُّونَ مِنْ بَعِيدٍ ، وَوَطَّنُوهُمْ هُنَاكَ قَبْلَ عُمُودِ قَلِيلَةٍ . ذَكَرَ "الْعَوِيمُ" Avvim فِي هَذِهِ الْمَنْطِقَةِ فِي يَوْشِعَ 18 / 23 بِسَدْعِي الَّلذَّاكِرَةِ الْاسْمِ : "عَوَا" Avva - أَحَدَ أَمَاكِنِ الْمُبْعَدِينَ الْمَذْكُورَةِ فِي سَفَرِ الْمُلُوكِ الثَّانِي 17 / 24 . كَانَتْ الْمَشْكَلَةُ الْعَوِيسِيَّةُ - بِشَكْلِ خَاصٍّ - فِي عَهْدِ الْمَلِكِ "يُوشِيَا" هِيَ كَيْفَ يُمَكِّنُ امْتِصَاصَ أَوْلَادِكَ الَّلَّذِينَ كَانُوا مُعَاظِمِينَ مَعَ دَوْلَةِ يَهُودَا فِي الْمَجْتَمَعِ . يُمَكِّنُ لِقِصَّةِ الْجَمْعُونِيِّينَ الْقَدِيمَةِ أَنْ تُزَوِّدَنَا بِسِيَاقٍ تَارِيخِيٍّ يَبْرَحُ فِيهِ سَفَرُ التَّنِيَّةِ كَيْفَ كَانَ يُمَكِّنُ عَمَلَ مِثْلِ ذَلِكَ الْأَمْرِ . (الْمَوْلُفُ) .

يهودًا، التي يعود زمنها إلى عهد الملك 'يوشيا' (يشوع 15 / 39)؛ حيث تُظهر هناك بُصقةً بين 'لخيش' و'عجلون'، المدينتين الكنعانيتين اللتين تلعبان دوراً رئيسياً في قصة غزو يشوع لـ 'شفيلة' Shephelah.

تتجه قصة حملة يشوع - بعد ذلك - نحو الشمال، تعبيراً عن رؤية القرن السابع ق. م، لفتوحات إقليمية مستقبلية. إن الإشارة إلى 'حاصور' تستدعي إلى الذهن ليس سمعتها في الماضي البعيد كأبرز دول المذنب الكنعانية فحسب، بل تستدعي - كذلك - حقائق قرن واحد قبل ذلك أيضاً، عندما كانت 'حاصور' المركز الأكثر أهمية لمملكة إسرائيل، في الشمال، وبعد فترة وجيزة تالية، أصبحت مركزاً إقليمياً هاماً للإمبراطورية الآشورية (السورية)، بقصرها الرائع، وقلعتها المثيرة للإعجاب. كذلك لا يقل أهمية في مغزاه - عما سبق - ذكر 'نافوت دور' Naphot Dor، مُلمحاً - احتمالاً - إلى الأيام التي كانت مدينة 'دور' فيها عاصمة محافظة آشورية.

في المجموع؛ تنطبق الأراضي الشمالية المذكورة في سفر يشوع على أراضي مملكة إسرائيل المقهورة، والتي صارت - فيما بعد - محافظات آشورية، تلك الأراضي التي كانت يهودًا تعتقد أنها ميراثها الموهوب من الله لشعب إسرائيل، والتي كانت ستستردُّ قريباً - من قبل يشوع 'جديد'.

### غزو جديد للأرض الموعودة؟

عندما توجَّ 'يوشيا' ملكاً عام 639 ق. م، كانت فكرة قداسة ووحدة أرض إسرائيل - ذلك المفهوم الذي أكد عليه سفر التثنية بعاطفة قوية جداً - ماتزال بعيدة عن الإدراك. باستثناء الوسط الصغير جداً لمملكة يهودا (الحق التقليدي لقبائل يهودا وسميون والشريط الضيق إلى الشمال منه، والذي يُمثل الحق التقليدي لبنيامين)، كانت الأغلبية العظمى لأرض الميعاد خاضعة لسيطرة قوة أجنبية، هي الإمبراطورية الآشورية، وبقية كذلك لمدة قرن تقريباً، بل كانت يهودًا - أيضاً - تابعة لأمر الإمبراطورية الآشورية.

كان تفسير الكتاب المقدس العبري لهذه الحالة الحزينة مُتجهماً شديداً، بقدر ما كان بسيطاً. في الأوقات الأخيرة؛ لم يف شعب إسرائيل بالترامه بقوانين الميثاق، التي كانت

الشرط الأساسي لامتلاكهم الأرض الموعودة. لم يتناصلوا كلٌّ أثر للعبادة الوثنيّة. لم يتوقّفوا عن تقديم النّساء لألهة الشّعوب الأخرى في مُحاولتهم لكسب الثروة من خلال التحالفات التجاريّة أو السياسيّة، لم يتبعوا شرائع الطّهارة في الحياة الشخصيّة بإخلاص، لم يهتموا حتّى بتقديم أدنى إغاثة لإخوانهم الإسرائيليين، الذين وجدّوا أنفسهم مُستعبدين، أو مُعدّمين، أو مُتحمّلين لدنّيون باهظة.

باختصار؛ توقّفوا عن كونهم جماعة مُقدّسة. كان الطريق الوحيد للتّغلب على ذنوب الأجيال السّابقة، والسّماح للإسرائيليين باستعادة امتلاك كامل أرض إسرائيل، هو التّمسك الدقيق جداً (لحدّ الوسوسة) بالتّشريع المنصوص عليه في كتاب "سفر الشريعة"، الذي تمّ اكتشافه مؤخّراً.

بعد سنوات قليلة؛ انسحب الآشوريّون، وبدا توحد جميع الإسرائيليين مُمكناً. عرّض سفر يشوع ملخمة غير منسيّة، مع درس واضح مفاده أنّه: عندما أتبع شعب إسرائيل شريعة الميثاق، الذي أخذه الله عليهم أتباعاً حرفياً، لم يحلّ بينهم وبين الانتصار في أيّ معركة.

هذه النّقطة تمّت صياغتها بواسطة أكثر القصص الشعبيّة قوّة. سقوط أسوار أريحا، وقوف الشمس بلا حراك في جبعون، اندحار الملوك الكنعانيين إلى الأسفل نحو المرتقى الضيق في بيت حورون.؛ حيث دُمجت تلك القصص، وصبّت في ملخمة واحدة ذات خلفيّة قرن سبعة ق. م، مألوفة وإيحائيّة جداً، وأجريت المعارك في الأماكن ذات الأهميّة الخاصّة بالنسبة للعقيدة التثنويّة. كان أهالي يهوذا في أواخر القرن السابع ق. م. بقراءتهم وتلاوتهم لتلك القصص - سيرون فيها تعبيراً قوياً عن أعمق آمالهم ومعتقداتهم الدنيّة.

بهذا المعنى؛ يَدُّ سفر يشوع تعبيراً أدبياً كلاسيكياً عن حنين وتخيّلات شعب في زمن ومكان مُعيّنين. وقد استُخدمت الشخصيّة الرّفيعة لبشوع لاستدعاء صورة مجازيّة لـ"يوشيا"، المُنفذ المُنتظر لكلّ شعب إسرائيل.

في الحقيقة؛ برهن العالم التّوراتي الأمريكي ريتشارد دي. نيلسن كيف وصفت شخصيّة يشوع في أسفار التّاريخ التّثنوي بعبارات تخصّ - عادةً - الملك. لقد تمّ تأطير نصّب الله

ليشوع، عند توليه القيادة (يشوع 1/1 - 9) بأسلوب كلامي يخصص عادةً التنصيب الملكي. وتذكرنا بيعة الناس على الطاعة الكاملة ليشوع كخليفة موسى (يشوع 1/16 - 18) بعبادة السجود العام للملك الذي يتم تبرجه حديثاً. قاد يشوع مراسم تجديد الميثاق (يشوع 8/30 - 35)، وهو دور أصبح امتيازاً خاصاً للملك يهوذا. والأكثر دلالة من كل ما سبق تلك الفقرة التي يأمر الله فيها يشوع: [أَنْ لَا يَبْرَحَ سَفْرَ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ مِنْ فَمِكَ، بَلْ تَلْهَجُ فِيهَا نَهَاراً وَلَيْلاً] (يشوع 1/8 - 9)، في تشابه غريب مع وصف الكتاب المقدس العبري لـيوشيا كملك مُهْتَمٌ فقط - بدراسة الشريعة، وأنه شخصٌ [قَدْ رَجَعَ إِلَى الرَّبِّ بِكُلِّ قَلْبِهِ، وَكُلِّ نَفْسِهِ، وَكُلِّ قُوَّتِهِ، حَسَبَ كُلِّ شَرِيعَةِ مُوسَى] (سفر الملوك الثاني: 23 / 25).

ليس هذا مجرد تشابهات عادية بين شخصيات مُستقيمة في الكتاب المقدس العبري، لكنه تشابه مباشر في أسلوب الكلام، وفي العقيدة، بالإضافة للأهداف الإقليمية المتماثلة لكل من "يشوع" و"يوشيا". بالطبع؛ توسع يوشيا، ورغبته بضم أراضي مرتفعات المملكة الشمالية، أتعش آمالاً عظيمة، لكنه في الوقت نفسه - طرح صعوبات عملية حادة. كان هناك التحدي العسكري المطلق. كانت هناك حاجة لأن يُبْنَى للسكان المحليين للمرتفعات الشمالية بأنهم كانوا - في الحقيقة - جزءاً من شعب إسرائيل العظيم، الذي قاتل - جنباً إلى جنب - شعب يهوذا لوراثة أرض الميعاد. وكان هناك - أيضاً - مشكلة التزواج بالنساء الأجنبية (غير الإسرائيليات)، التي أصبحت ممارسة شائعة بين الإسرائيليين، الذين بقوا في أراضي المملكة الشمالية، والذين قام الآشوريون بتوطین أجانب مُبْعَدِينَ بين ظهرانيهم.

إنه الملك يوشيا الذي يقف وراء قناع "يشوع" في إعلانه بأن شعب إسرائيل يجب أن يبقى منفصلاً - تماماً - عن السكان المحليين للأرض. هكذا يبرز سفر يشوع - بشكل واضح - أعمق مخاوف القرن السابع ق.م، وأكثرها ضغطاً. وكما سنرى - لاحقاً - كانت قوة هذه الملحة هي تمكنها من البقاء حتى بعد زمن طويل من الفشل المأساوي لحطة الملك يوشيا - الطموحة والدينية والتقوية لإعادة احتلال أرض كنعان.

## الفصل (4):

### مَن كان الإسرائيليون؟

لم يترك الكتاب المقدس أي مجال للشك أو الإبهام حول الأصل الواحد لشعب إسرائيل. فقد عدت قبائل إسرائيل الاثنا عشر: الذرية البيولوجية، عبر عديد من الأجيال، لأبناء يعقوب الاثني عشر؛ أي النسل المباشر للأباء: إبراهيم، وإسحق، ويعقوب. وعلى الرغم من مرحلة العبودية في مصر التي امتدت لمدة 430 سنة، وُصف الإسرائيليون أنهم لم ينسوا - أبداً - جدورهم في كنعان، أو ميراثهم المشترك.

يُشدّد الكتاب المقدس - في الواقع - على أنّ محافظة شعب إسرائيل على طريقته الخاصة في الحياة، وعلاقته الخاصة مع الله، كانت مفتاح مستقبل ذلك الشعب. في سفر التثنية؛ كان موسى قد وعدّ الأمة الإسرائيلية بأنها إذا تمسكت - بقوة - بشريعة الميثاق، وامتنعت عن التزاوج مع جيرانها (غير الإسرائيليين)، واجتنبت - بشدة - الوقوع في شرك الطرق الوثنية لكنعان، فإنها ستعيش في أمن وسلام، مُتلكة أرض الميعاد للأبد. يروي سفر يشوع - بتفصيل كبير - أنه فور انتهاء الغزو الكبير لكنعان - قام الزعماء الإسرائيليون بتقسيم الأرض - التي طهرت في أغلبها - من سكّانها الكنعانيين الأصليين - بين القبائل الإسرائيلية المتصرة، كميراث أبدي لها.

ولكن؛ تُوجد في سفر يشوع، وفي سفر القضاة الذي يليه، بعض التناقضات الهامة، التي تتعارض مع هذه الصورة لوراثة القبائل لكل أرض إسرائيل. فعلى الرغم من أن سفر يشوع يعلن في موضع منه أن الإسرائيليين استولوا على كل الأرض التي وعدّهم الله، وهزموا كل أعدائهم (يشوع: 21 / 43 - 44)، فإن هناك فقرات في سفر يشوع وسفر القضاة تبين أن كثيراً من الكنعانيين والفلسطينيين كانوا يعيشون إلى جوار الإسرائيليين بنحو مباشر، وأن التزاوج مع الأمم الأخرى كان وارداً، كما في حالة 'شمشون'، كما أنه كانت هناك أيضاً -

مشاكل ضمن العائلة الواحدة، ففي سفر القضاة؛ تنفق القبائل الإسرائيلية على الاتحاد لأجل شن الحرب على قبيلة 'بنيامين'، قاطعين على أنفسهم عهداً أن لا يتزوّجوا منهم، ولا يزوّجهم أبداً (القضاة 19 / 21). وأخيراً؛ يبدو أن القبائل المختلفة تركت لتحل مشاكلها المحلّة الخاصّة تحت قيادة زعمائها الفاتنين، حتّى إن أغنيّة 'دبوره' (القضاة: 5) تُعدّد أيّ القبائل الخاصّة كانت وفيّة، واستجابت، واهتمّت لنداء التضامن في سبيل كلّ إسرائيل، وأيّ القبائل فضّلت أن تبقى في أوطانها الخاصّة.

إذا كانت قصص الآباء والخروج - كما يقترح علم الآثار - أساطير تمّ تأليفها في أزمنة متأخّرة، وإذا لم يكن هناك أيّ دليل مُقنع على وجود غزوٍ موحدٍ لكنّمان تحت قيادة يشوع، فماذا سنفعل بالادّعاءات الإسرائيلية بشأن القومية القديمة التي تجمعهم؟ من كان أولئك الناس الذين أعادوا تقاليدهم إلى الوراثة لأحداث تاريخية وعبادية مشتركة؟ مرّة ثانية؛ يُمكن لعلم الآثار أن يزودنا - هنا - ببعض الأجوبة المفاجئة. يُمكن للنتقيبات الأثرية في القرى الإسرائيلية القديمة، وما تُقدّمه من فخاريّات، ومنازل، وحبّوب السيلوس Silos أن تُساعدنا على إعادة بناء حياة الإسرائيليين اليومية، ومعرفة صلاتهم الثقافيّة.

يكشف علم الآثار - بنحوٍ مُدهش - أن الناس الذين كانوا يعيشون في تلك القرى إنّما كانوا - هم - السكّان الأصليين لكنّمان، الذين طوّروا - بشكّل تدريجيّ فقط - هويّة عرقيّة، أصبح بالإمكان إطلاق اصطلاح: 'الإسرائيليّين' عليها.

#### وراثة الأرض الموعودة:

يُخبرنا سفر يشوع أنّه لدى انتهاء عمليّات الغزو الكبير لكنّمان: 'استراحت الأرض من الحرب' (يشوع 11 / 23). لقد تمّ تدمير وإهلاك كلّ الكنّعانيين، وسائر أهالي أرض كنّمان الأصليين بشكّل تامّ. دعا يشوع القبائل لتقسيم الأرض. استلمت قبائل رأويين و'جَاد'، ونصف قبيلة 'مَنَسِي' الأراضي الواقعة شرق نهر الأردن، بينما استلم كلّ الآخرين حصصهم في الغرب. كان على قبائل 'مَنَسِي'، وأشير، وزبولون، ويساكر أن تسكن في مرتفعات الجليل ووديانه. في حين؛ أخذ النصف الآخر من قبيلة 'مَنَسِي'، وقبيلتي 'أفرايم' و'بنيامين'،

مُعْظَمَ التَّلَالِ والهضابِ الوُسْطَى، التي تمتدُّ من وادي يَزْرَعِيلَ في الشَّمَالِ إلى أُورُشَلِيمَ (القُدْس) في الجنوب. ومنحت قبيلة "يهوذا" التلال والهضاب الجنوبية من أُورُشَلِيمَ (القُدْس) إلى وادي بئر سبع في الجنوب. في حين؛ ورثت قبيلة "شَمْعُون" المنطقة القاحلة لوادي بئر سبع والسهل الساحلي المجاور. رغم أن قبيلة "دَان" أخذت ميراثها. في البداية. في السهل الساحلي، إلا أن القبيلة حوَّلت. فيما بعد. مَسْكَنَهَا إلى منطقة في شمال البلاد. بتلك الهجرة الأخيرة؛ تَمَّ وَضْعُ خَرِيْطَةِ الأَرْضِ المُقَدَّسَةِ.

هل كان الأمر كذلك؟ في تناقض مُحيرٍ مع إعلان النُصْرِ التَّامِّ والشَّامِلِ، يذكر سفر يشوع بأنَّ أراضٍ كبيرةً - ضمن كَنْعَانَ - كانت خارج موارث القبائل الإسرائيليَّةِ، وبقيت بدون فتح، مُتَظَرِّةٌ أَنْ يَتَمَّ غَزْوُهَا وَفَتْحُهَا. تشمل تلك الأراضي "كُلَّ مَنَاطِقِ الفِلَسْطِينِيِّينَ" على طول السَّاحِلِ الجنوبي للبلاد، والسَّاحِلِ الفِينِيقِيِّ بَعِيداً نحو الشَّمَالِ، ومنطقة وادي البقاع في المنطقة الشَّمَالِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ (يشوع 13: 1-6). ويذهب سفر القُضَاةِ حَتَّى أبعد من ذلك، حين يُعَدِّدُ جَيُوباً كَنْعَانِيَّةً هَامَةً لم يتمَّ فَتْحُهَا - بَعْدُ - في أراضي أكثر من نصف القبائل (الإسرائيلية). مثلاً؛ يُدرج سفر القُضَاةِ المُدُنَ الكَنْعَانِيَّةَ الكبيرة للسهل الساحلي والوُدْيَانَ الشَّمَالِيَّةِ، مثل "مجدو"، بيت شان، و"دور" Dor، و"جازر" Gezer، كَمُدُنٍ لم يتمَّ فَتْحُهَا، بالرغم من أنَّ حُكَّامَهَا ذُكِرُوا في سفر يشوع ضمن قائمة الملوك الكَنْعَانِيِّينَ المُتَهْزِمِينَ في الحرب. بالإضافة لذلك، بقي العمونيُّونَ والموآبيُّونَ - الذين يسكنون في الضَّفَّةِ الشَّرْقِيَّةِ لنهر الأردن - يُشكِّلُونَ مَمْلَكَتَيْنِ مُعَادِيَّتَيْنِ. أمَّا المدينيُّونَ والعَمَالِيقُ رَاكِبُو الجِمالِ في الصَّحْرَاءِ؛ فقد كانوا - دائماً - تهديداً لشعب إسرائيل. وهكذا كان الخطر الذي يُواجه الإسرائيليِّينَ المُسْتَقْرِّينَ حديثاً خطراً عسكرياً ودينيّاً بالوقت نفسه. هدَّدَ الأعداءُ الخارجيُّونَ أَمْنَ الإسرائيليِّينَ في أنفسهم، في حين؛ شكَّلَ الكَنْعَانِيُّونَ - الذين بقوا في الأرض - خطراً مُهْلِكاً يَتَمَثَّلُ في إغراء الإسرائيليِّينَ بالارتداد، وبالتالي؛ تخطينهم لقُوَّةِ ميثاق إسرائيل الجديِّ مع الله.

وهكذا وُضِعَتِ السَّاحَةُ أمام سنوات عديدة من الصِّراعِ المُتَطاوِلِ. لذلك؛ يُقدِّمُ سفر القُضَاةِ بعد سفر يشوع - مجموعة غنيَّةٍ جداً من قِصَصِ الحربِ الأُرْعَبَةِ والمُثْبِرَةِ، ومن حكايات البُطُولَةِ القُرْدِيَّةِ في المعاركِ بَيْنَ الإسرائيليِّينَ، وجيرانهم. تتضمن تلك القِصَصَ بعض أكثر



شخصيات الكتاب المقدس العبري تلويهاً، وأكثر الصور بقاءً في الذاكرة. استطاع 'عثنيل' الكالبي Othniel a Calebite، وحده، أن يصدّ قوات العدو الغامض 'كوشان رشعائيم' Cushanrishathaim ملك بلاد ما بين النهرين' (القضاة 3/ 11-7). وقام 'إهود النبيامي' Ehad Benjaminite باغتيال الملك 'عجلون' ملك موباب القوي، والبدن لحدّ مضحك، في شقته الخاصة، بشكل جريء (القضاة 3/ 12-30). كما دبح 'شمجر بن عناة' Shamgar، ستمّة رجل من الفلسطينيين بمنحس البقر. (القضاة: 3/ 31). وقامت 'دبورة' و'باراق' بإيقاظ القبائل الإسرائيلية لمواجهة تهديد الملوك الكنعانيين الباقين في الشمال. وأخذت 'ياعل' امرأة 'خابر الغيني' وتدّ الخيمة والمطرقة في يدها، وسارت إلى الجبال الكنعاني 'سيسرا' Sisera بهدوء، وصرت الودد في صدغه، وهو متقلّب في النوم، ومتعب، وقتلته. (القضاة: 4/ 1 إلى 5/ 31). ويظهر 'جدعون' المنسي الأرض من عبادة الأصنام، ويحمي شعبه من هجمات المديانيين (أهالي مدين) راكبي الصحراء، (القضاة: 6/ 1 إلى 8/ 28). وبالطبع؛ هناك القصة المشهورة لـ 'شمشون'، بطل قبيلة 'دان'، الذي تخونه الفاتنة الفلسطينية 'دليكة'، وتمزق شعره (مصدر قوته)، فيذهب إلى موته في غرّة، وهو أعمى وذليل، بتهديم أعمدة المعبد الفلسطيني الكبير لـ 'داجون' (إله الفلسطينيين)، (القضاة: 13/ 1 إلى 16/ 31).

يوضح سفر القضاة. منذ بدايته. المعنى اللاهوتي لهذه الفترة المبكرة من التوطن الإسرائيلي في كنعان، وذلك في عرضه الجدّي لقانون الارتداد والعقاب. إذا بقي شعب إسرائيل منفصلاً عن السكان الأصليين، فإنه سيكافأ، وينال أجره. أمّا إذا فتن الإسرائيليون بالدويان في الثراء؛ فستعرضون لعقاب سريع وشديد، ولكنهم لا يستمعون. إن تدخل الزعماء المستقيمين الملهمين من الله، المسّمون بـ 'القضاة' هو - فقط - الذي أنقذ شعب إسرائيل، على الأقل؛ بشكل مؤقت، من خسران كل شيء:

[11] وَقَعَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الشَّرَّ فِي عَيْنِي الرَّبِّ، وَعَبَدُوا الْبَعْلِيمَ، 12 وَتَرَكُوا الرَّبَّ إِلَهَ آبَائِهِمْ الَّذِي أَخْرَجَهُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، وَسَارُوا وَرَاءَ آلِهَةِ أُخْرَى مِنْ آلِهَةِ الشُّعُوبِ الَّذِينَ حَوْلَهُمْ، وَسَجَدُوا لَهَا، وَأَعَاظُوا الرَّبَّ. 13 تَرَكُوا الرَّبَّ، وَعَبَدُوا الْبِغْلَ وَعَشْتَارُوثَ. 14 فَحَمَى غَضَبُ الرَّبِّ عَلَى إِسْرَائِيلَ، فَدَفَعَهُمْ بِأَيْدِي نَاهِبِينَ نَهَبُوهُمْ، وَيَاعَهُمْ يَدَ أَعْدَائِهِمْ حَوْلَهُمْ، وَكَمْ

يَقْدِرُوا . بَعْدَ . عَلَى الْوُفُوفِ أَمَامَ أَعْدَائِهِمْ . 15 حَيْثُمَا خَرَجُوا ؛ كَانَتْ يَدُ الرَّبِّ عَلَيْهِمُ لِلشَّرِّ ، كَمَا تَكَلَّمَ الرَّبُّ ، وَكَمَا أَقْسَمَ الرَّبُّ لَهُمْ . فَصَاقَ بِهِمُ الْأَمْرُ جَدًّا . 16 وَأَقَامَ الرَّبُّ قَضَاةَ ، فَخَلَّصُوهُمْ مِنْ يَدِ تَاهِبِيهِمْ . 17 وَلَقَضَاتِهِمْ . أَيْضًا . لَمْ يَسْمَعُوا ، بَلْ زَنُوا وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى ، وَسَجَدُوا لَهَا . حَادُوا سَرِيعًا عَنِ الطَّرِيقِ الَّتِي سَارَ بِهَا آبَاؤُهُمْ لَسَمْعِ وَصَايَا الرَّبِّ . لَمْ يَفْعَلُوا هَكَذَا . 18 وَحِينَمَا أَقَامَ الرَّبُّ لَهُمْ قَضَاةَ كَانَ الرَّبُّ مَعَ الْقَاضِي ، وَخَلَّصَهُمْ مِنْ يَدِ أَعْدَائِهِمْ كُلِّ أَيَّامِ الْقَاضِي ؛ لِأَنَّ الرَّبَّ تَدَمَّ مِنْ أَجْلِ أَيْنِهِمْ بِسَبَبِ مَضَائِقِيهِمْ وَزَاحِمِيهِمْ . 19 وَعِنْدَ مَوْتِ الْقَاضِي ؛ كَانُوا يَرْجِعُونَ ، وَيَسْتَدُونَ أَكْثَرَ مِنْ آبَائِهِمْ بِالذَّهَابِ وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى ؛ لِيَعْبُدُوهَا ، وَيَسْجُدُوا لَهَا . لَمْ يَكْفُوا عَنْ أَعْمَالِهِمْ وَطَرِيقِهِمُ الْقَاسِيَةَ . [ (الْقَضَاةُ 2 / 11 - 19) .

هل يروي الكتاب المقدس التاريخ كما حدث فعلاً ؟ هل عبد الإسرائيليون إلهاً واحداً لقرُون عديدة ، ولكنهم زلوا - أحياناً - ووقعوا بالإشراك بالله الذي كان عليه جيرانهم ؟ ويشكّل عام أكثر ؛ كيف كانوا يعيشون ؟ ماذا كانت ثقافتهم ؟ باستثناء حكايات الصّراع المُستمر مع عبادة الأصنام والوثنيّة ، لا يُخبرنا الكتاب المقدس إلا قليلاً عن حياة الإسرائيليين اليوميّة . يُخبرنا سفر يشوع - في أغلبه - عن الحُدُود الدّقيقة لحصّة كُلِّ قَبيلة من القبائل المُختلفة من الأرض . وفي سفر القضاة ؛ نقرأ عن المعارك مع أعداء الإسرائيليين ، ولكننا لا نسمع إلا قليلاً عن نوع المُستوطنات التي اختار الإسرائيليون إنشاءها ، وكيف كانوا يُؤمّنون معيشتهم .

بعد قرُون من العمل كعَمال في مصر ؛ وبعد أربعين سنة من التّيه في برية سيناء المُقفرة ، لم يكن الإسرائيليون مُستعدين - بشكّل جيّد جدًّا - للبدء بفلاحة الوُديان الضيّقة وحُقُول التّلال والهضاب الوعرة في كنعان . إذن ؛ كيف تعلّموا أن يُصبحوا مُزارعين مُستقرّين ؟ وكيف تأقلموا - بسرعة - مع النظام اليومي الرّتيب ، والجُهود اللّازمة للحياة القرويّة المُستقرّة ؟

مُهاجرون من الصّحراء ؟

نعرف من مسألة مَفْتاح أنّه كان هناك شعب يُسمّى إسرائيل ، يعيش في كنعان في حوالي سنة 1207 ق . م . . حتّى عهد قريب جدًّا ، وعلى الرّغم من الشكوك حول الدقّة التاريخيّة لقصة الخُرُوج الجماعي وقصص الغزو ، لم يكن أحد من المؤرّخين المُختصّين بتاريخ

الكتاب المقدس أو علماء الآثار. باستثناء بضعة قليلة جداً. يشك بأن الإسرائيليين كانوا أناساً مهاجرين، دخلوا كنعان من الخارج.

كان الاختلاف الظاهري بين الكنعانيين والإسرائيليين أوضح ما يكون في مجال الثقافة، أو الحضارة المادية. وجد علماء الآثار - بشكل منتظم، مباشرة فوق طبقات دمار المدن الكنعانية المختلفة الخاصة بالعصر البرونزي المتأخر - بعشرة عشوائية لحفر محضرة في الأرض، وفخاريات خشنة تُرجمت على أنها البقايا الظاهرة للمخيمات المؤقتة لأناس نصف بدويين.

اعتقد العديد من العلماء بأنهم تعرفوا على نمط مألوف في هذه الحالة الآثرية، يعني الحركة الجماهيرية لسكان الصحراء الرحل، الذين يغزون الأرض المستقرة، ثم يبدوون بالاستقرار، ويتبنون - تدريجياً - طريقة حياة الإقامة الدائمة. اعتقد العلماء الذين لديهم خبرة وألفة بهجمات البدو على المناطق الزراعية في الشرق الأوسط، أنه كان هناك - دائماً - صراع بين الصحراء والأرض التي تتقبل البذار. رغم أن الإسرائيليين ربما لا يكونوا قد زحفوا إلى كنعان كجيش موحد، إلا أن إشارات ووصولهم بدت واضحة. بالمقارنة مع الأبنية التذكارية، والسلع الفاخرة المستوردة، وآنية السيراميك الرفيعة المكتشفة في مستويات المدن الكنعانية السابقة؛ بدت المعسكرات القاسية، وأدوات الإسرائيليين القادمين، ذات مستوى حضاري أدنى بكثير من مستوى السكان الذين كانوا قبلهم.

أبرزت هذه المقارنة لأساليب الحياة، ما أصبح يُدعى نموذج 'التسرب السلمي'، الذي طرحه - لأول مرة - العالم الألماني بالكتاب المقدس 'البريخت الت' في العشرينات من القرن العشرين.

اقترح 'الت' بأن الإسرائيليين كانوا رعاة (مرعي ماشية) يتجولون بقطعانهم في هجرات موسمية ثابتة بين حافة الصحراء والأراضي المستقرة، في وقت ما قرب نهاية العصر البرونزي المتأخر - ولأسباب لم تتضح له بشكل كامل - بدؤوا بالاستقرار في مرتفعات كنعان المستقرة المتأثرة.

طبقاً ل'الت'، تمت العملية - في الواقع، بنحو تدريجي وسلمي جداً - في البداية. قام الإسرائيليون الرعاة بتنظيف الغابات، وبدؤوا بمزاولة زراعة موسمية ضيقة النطاق، إلى جانب رعي القطعان. ومع الوقت؛ تنبأ أسلوب معيشة أكثر استقراراً، مُنشئين قرى دائمة، ومركزين

جَهْدُهُمْ أَكْثَرَ عَلَى الزَّرَاعَةِ . ولم تبدأ مُشكلاتهم مع الكَنْعَانِيِّينَ إِلَّا فِي الْأَوْقَاتِ الْأَحْقَةِ ، وذلكَ عِنْدَمَا بِحَسَبِ هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ . تكاثُرَ الْمُتَوَطَّنُونَ الْجُدُدُ ، وازدادت أعدادهم ، وبالتالي ؛ ازدادت حاجتهم . بِشَكْلِ مُتصَاعِدٍ . لِلأَرْضِ وَالْمَاءِ . أدَّتِ التَّزَاعَاتُ عَلَى حَقُوقِ الْمَاءِ وَالأَرْضِ إِلَى حَدُوثِ اشْتِبَاكَاتٍ ، أَوْ مُتَاوِشَاتٍ مَحَلِّيَّةٍ ، كَانَتْ . فِي التَّهَامَةِ . الخَلْفِيَّةِ الْحَقِيقِيَّةِ لِلصَّرَاحِ بَيْنَ الإِسْرَائِيلِيِّينَ وَجِيرَانِهِمْ ، الَّذِي يَنْقَلُهُ لَنَا سَفَرُ القَضَاةِ بِشَكْلِ وَاضِحٍ وَحَيَوِي . (انظُرْ المُلْحَقَ 'ج' فِي آخِرِ الْكِتَابِ ، لِلإِطْلَاحِ عَلَى الْمَزِيدِ مِنَ التَّفْصِيلِ عَنِ نَظَرِيَّةِ التَّسَرُّبِ السَّلْمِيَّةِ هَذِهِ) .

وهكذا ؛ فقد تمَّ افتراضُ أَنَّ الإِسْرَائِيلِيِّينَ كَانُوا مَجْمُوعَاتٍ مُتَنَاطِرَةٍ مِنْ رُعَاةِ المَاشِيَةِ القَادِمِينَ ، عَوْضًا عَنِ قُدُومِهِمْ كَجَيْشٍ وَاحِدٍ . لم تُقدِّمِ 'إِسْرَائِيلُ' . التي تُحَدِّثُ عَنْهَا مَسْئَلَةٌ مَنفَتَاحٍ . أَيَّةَ مَعْلُومَاتٍ إِضَافِيَّةٍ حَوْلَ المَوْجِعِ الدَّقِيقِ ، لِأَوْلَئِكَ النَّاسِ ، أَوْ حَقِيقَةِ حَجْمِهِمْ ، أَوْ طَبِيعَتِهِمْ ، إِلَّا أَنَّ هُنَاكَ سَجَلًا مِصْرِيًّا آخِرَ بَقِي عَلى قَيْدِ الحَيَاةِ إِلَى اليَوْمِ . -رغم أَنَّهُ لَا يُزَوِّدُنَا إِلَّا بِلمِحَةٍ صَغِيرَةٍ عَمَّا كَانَ يَبْنِيهِ أَنْ يَكُونَ رِوَايَةً أَكْبَرَ وَأَكْثَرَ تَفْصِيلًا . يَذْكَرُ لَنَا مَجْمُوعَتَيْنِ مِنَ الغُرَبَاءِ الخَارِجِيَّيْنَ الَّذِيْنَ اخْتَارُوا العَيْشَ . أَوْ أُجْبِرُوا عَلَى العَيْشِ . -إلى جِوَارِ المُجْتَمَعِ الحَضْرِيِّ الكَنْعَانِي . كِلَاهِمَا يُمَثِّلَانِ أَهْمِيَّةَ خَاصَّةً فِي البَحْثِ عَنِ الإِسْرَائِيلِيِّينَ الأوَّالِ .

المجموعة الأولى هُمُ 'الآبِيرِيُّونَ' The Apiru ، مجموعة وَصِفَتْ فِي رِسَالَتِ كَلِّ العِمَارَنَةِ العَائِدَةِ لِلقَرْنِ الرَّابِعِ عَشْرٍ ق .م (بِالإِضَافَةِ إِلَى وَصْفِهَا فِي نُصُوصٍ أُخْرَى مِنَ العَصْرِ البَرُونِزِيِّ) بِمَجْمُوعَةٍ مِنَ الأَوْصَافِ البَعِيدَةِ عَنِ المَدِيحِ . فقد وَصَفُوا بِأَنَّهِمْ كَانُوا يَعِيشُونَ خَارِجَ المُجْتَمَعِ الكَنْعَانِي السَّائِدِ ، قَدْ شَرَدَتْهُمُ الحَرْبُ أَوْ المِجَاعَةُ ، أَوْ النِّظَامُ الضَّرْبِيُّ التَّقْيِلُ ، مِنْ أَوْطَانِهِمْ ، بَلْ تَمَّ وَصْفُهُمْ . أحيانًا . كَمُجْرِمِينَ ، أَوْ قُطَّاعِ طُرُقٍ ، وَأحيانًا ؛ كَجُنُودِ مُرْتزِقَةٍ ، بَلْ حَتَّى تَمَّ وَصْفُهُمْ . -فِي إِحْدَى الحَالَاتِ . أَنَّهُمْ كَانُوا مَوْجُودِينَ فِي مِصْرَ نَفْسِهَا كَعُمَّالٍ مُسْتَأْجِرِينَ يَعْمَلُونَ فِي مَشَارِيعِ البِنَاءِ الحُكُومِيَّةِ .

بِاخْتِصَارٍ ؛ كَانُوا لِاجْتِثَانِ أَوْ هَارِبِينَ مُتَمَرِّدِينَ عَلَى النِّظَامِ ، يَتَنَاشَوْنَ عَلَى الخَافَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ لِلْمُجْتَمَعِ الحَضْرِيِّ . لَا أَحَدٌ فِي الحُكْمِ بِدَا مُحِبًّا لَهُمْ ؛ كَانِ أَسْوَأَ شَيْءٍ يُمَكِّنُ لِلْمَلِكِ صَغِيرٍ مَحَلِّيٍّ أَنْ يَقُولَهُ حَوْلَ أَمِيرٍ مُجَاوِرٍ أَنَّهُ انْضَمَّ إِلَى الآبِيرِيِّينَ 'Apiru' .

فِي المَاضِي ؛ اقْتَرَحَ بَعْضُ العُلَمَاءِ بِأَنَّ الكَلِمَةَ 'آبِيرُو' Apiru (وَأشْكَالُهَا البَدِيلَةُ : هَبِيرُو Hapiru وَهَبِيرُو Habiru) لَهَا وَجْهٌ اتِّصَالٌ لِقَوِي بِكَلِمَةِ 'إِبْرِي' Ibri ، أَوْ عِبْرِي ، وَلِلذَلِكَ ؛ فَإِنَّ

الأبيريين Apiru في المصادر المصرية كانوا - هم - الإسرائيليين الأوائل . اليوم نعرف بأن هذا الربط ليس بسيطاً إلى هذا الحد .

إن الاستعمال الواسع الانتشار لهذا الاصطلاح ، أو التعبير على مدى قرون عديدة ، وفي كافة أنحاء الشرق الأدنى بكامله ، يُعيد بأنه كان له معنى اجتماعي - اقتصادي ، بدلاً من كونه بياناً لمجموعة عرقية معينة .

مع هذا ؛ لا يُمكن رفض تلك الصلة بالكامل . من الممكن أن تكون ظاهرة "الأبيريين" قد تم تذكرها في القرون التالية ، وبالتالي ؛ تم دمجها في قصص الكتاب المقدس العبري .

أما المجموعة الثانية التي ذُكرت في النصوص المصرية ؛ فكانت "الشوصيين" The Shosu . كانوا - على ما يبدو - بدأوا رعاة ، يُربون الخراف والماعز ، ويعيشون - بشكل رئيسي - في المناطق الحدودية لكتعان والضمّة الشرقية لنهر الأردن . تزودنا رواية عن حملة مصرية ضد جماعة من المتمردين في جنوب كتعان زمن رمسيس الثالث ، في أوائل القرن الثاني عشر ق . م ، بوصف جيد لأولئك الناس .

يصف الكاتب المصري نهب "معسكرات خيمهم ، بما فيها من ناس وأملاك ، وماشيتهم كذلك ، وأن أعدادهم كانت لا تُحصى" . من الواضح أنهم كانوا عُصراً صعباً ، وخارج السيطرة ، ذا حضور كبير ، خصوصاً ؛ في البرية ، وحدود التلال والهضاب . كان قد عُرف عنهم - أيضاً - أنهم كانوا يُهاجرون من حين لآخر إلى الدلتا الشرقية لمصر ، كما تشهد لذلك أوراق بردى تعود للقرن الثالث عشر ق . م ، ذُكرت تحركاتهم عبر قلاع الحدود المصرية .

هل من الممكن أن تكون أي من تلك المجموعتين القديمتين هي "الجماعة الإسرائيلية" الغامضة ، التي سُميت - ببساطة - باسم آخر ؟  
فالأحون مُشردون من أرضهم ؟

تعرضت نظرية "التسرب السلمي" التي طرحتها "الت" لهجوم عنيف في سبعينات القرن العشرين ؛ بسبب توفر معطيات إثنوغرافية<sup>(1)</sup> (علم أعراقية) وأثرولوجية<sup>(1)</sup> (علم إنسانية)

(1) الإثنوغرافية من Ethnography = علم الأعراق : علم يهتم بوصف الأعراق والشعوب الإنسانية وشرح عاداتهم وتقاليدهم واختلافاتهم فيما بينهم ، وما إلى ذلك . (الترجم) .

جديدة، وأكثر تفصيلاً بكثير عن العلاقة بين البدو الرَّعويين والمجتمعات المقيمة المستقرة في الشرق الأوسط. تمثل النُّقْدُ الرئيسيُّ للأفكار السابقة حول الصراع بين الصحراء والمناطق الزراعيَّة، في بيان أنَّ المزارعين ومربي الماشية كانوا - في الواقع - متكاملين أكثر بكثير وأقلَّ عزلة عن بعضهم البعض، بل كانوا - جوهرياً - مكوناتاً لمجتمع واحد، ولذا؛ ظهرت - أثناء الستينات والسبعينات - نظريَّة فريدة أخرى حول أصول الإسرائيليين.

اقترحت هذه النظرية - التي طرحتها - لأول مرة - العالم بالكتاب المقدس الأمريكي جورج ميندينهال George Mendenhall، ثمَّ وسَّعها، وفصَّلها - لاحقاً - المؤرِّخُ المختصُّ بتاريخ الكتاب المقدس وعالم الاجتماع الأمريكي نورمان غوتوالد Norman Gottwald. بأنَّ الإسرائيليين الأوائل لم يكونوا لا غزاةً مهاجمين، ولا بدواً متسلِّلين، بل كانوا فلاحين ثائرين قرُّوا من مدُن كنعان نحو التلال والهضاب الخالية. لقد حاول ميندينهال و"غوتوالد" أن يُثبتا - على أساس شواهد وأدلة موجودة ضمن وثائق مصرية (بشكل رئيسي ألواح تَلِّ العمارنة) - أنَّ كنعان في العصر البرونزي المتأخَّر كانت مجتمعاً طبقيّاً إلى حدِّ كبير، يتصاعد فيه - بنحو مستمر - التوتُّر الاجتماعي، واللامساواة الاقتصادية.

كانت النُّجبة الحضريَّة تُسيطر على الأرض، والثروة، والتجارة، في حين؛ كان الفلاحون في القرى محرومين من الثروة، ومن حقوقهم أيضاً. ومع تدهور الأوضاع في كنعان، في المرحلة الأخيرة من العصر البرونزي؛ أصبحت الضرائب الباهظة، وسوء معاملة أرباب الأرض، والإيذاء المستمرُّ من قِبَل السُّلطات - سواء المحليَّة، أو المصرية، على حدِّ سواء - غير قابلة للاحتمال.

هكذا فسَّر ميندينهال و"غوتوالد" بأنَّه لم يبقَ هناك حلٌّ آخر للكثيرين، إلاَّ ترك بيوتهم، والبحث عن أوطان جديدة. ربَّما أصبح بعضهم من الـ "أبيريين" Apiru؛ أيَّ أناس يعيشون على حافة المجتمع، ويُسيَّبون للمشاكل للسُّلطات. سَكَنَ الكثير منهم في الغابات والتلال والهضاب الخالية نسبياً، بعيداً عن السيطرة الكنعانيَّة والمصريَّة. وفي وطنهم الجديد؛ أسس

(1) الأنثروبولوجية من Anthropology = علم الإنسان: علم يبحث في أصل الجنس البشري وتطوره وعاداته وأعرافه ومعتقداته. (المترجم).

هؤلاء الفلاحون الثائرون مجتمعاً أكثر مساواةً، وأقلّ طبقيّةً، وأقلّ قساوةً. وقيامهم بذلك؛ أصبحوا إسرائيليين.

بالإضافة لذلك؛ اقترح 'غوتوالد' أنّ الأفكار الجديدة حول المساواة إنّما أتت بها مجموعة صغيرة من الناس، جاءت من مصر، واستقرت في التلال والهضاب. ربما تكون تلك الجماعة قد تأثرت بالأفكار المصرية غير التقليديّة حول الدين، كذلك التي دعت إليها ثورة أخناتون التوحيديّة في القرن الرابع عشر ق. م. . . . . وبذلك؛ أصبحت هذه المجموعة الثروة التي تبلور حولها المستوطنون الجدد في المرتفعات. وعليه؛ فإنّ نشأة إسرائيل الأولى كانت ثورة اجتماعيّة لبؤساء ضدّ أربابهم الإقطاعيين، تمّ تنشيطها عبر مجيء عقيدة جديدة نبويّة.

لسوء الحظ؛ لا تمتلك هذه النظريّة أي أدلّة آثاريّة تدعمها، بل. في الحقيقة. معظم الأدلّة الآثاريّة تُناقضها بشكل قاطع. فكما رأينا كانت الثقافة الماديّة للقرى الجديدة متميّزة جداً عن ثقافة السهول الكنعانيّة؛ فإذا كان المستوطنون الجدد لاجئين قدموا من السهول، فلا بدّ أنّ تنوّع - على الأقلّ - أنّ نرى تشابهاً أكثر، في الهندسة المعماريّة، والأساليب الفخاريّة. والأكثر أهميّة؛ أنّه أصبح من الواضح. في الدراسات الآثاريّة الأخيرة لمدن العصر البرونزي المتأخّر. أنّ القطاع الريفي للمجتمع الكنعاني بدأ يصبح فقيراً منذ بدايات القرن السادس عشر ق. م. . . في الحقيقة؛ ربما لعب ذلك الريف. الذي أصبح أضعف وأقلّ سكّاناً، وما تبع ذلك من هبوط في الإنتاج الزراعي. دوراً في انهيار الثقافة الحضريّة، لكنّه. بالتأكيد. لم يكن لهذا التحوّل القدرة على تزويد تلك الطاقّة الكامنة وراء الموجة الجديدة والنشيطّة من الاستيطان في المرتفعات. وأخيراً؛ وحتى بعد نهاية العصر البرونزي المتأخّر، ودمار المراكز الحضريّة الكنعانيّة، استطاعت أغلب القرى السهليّة. التي كانت قليلة جداً. أن تؤمّن بقاءها، وتواصل وجودها كما كانت من قبل، وهذا واضح في قلب الثقافة الكنعانيّة 'يزرعيل'، ووديان الأردن، والسهل الساحلي الجنوبي لفلسطين.

ولذلك؛ لا نرى حشود أولئك الناس الذين شرّدوا من أوطانهم، يتركون قرَاهم في السهول؛ بحثاً عن حياة جديدة على حُدود المرتفعات. إذاً؛ يجب البحث عن الإجابة عن السؤال 'مَنْ كان الإسرائيليون' في مكان آخر ما؟.

## حلٌ مُفاجئٌ يُقدِّمه علمُ الآثار:

استندت التعريفات الأولى والنظريات الاجتماعية الأوسع انتشاراً حول أصول الإسرائيليين الأوائل، على فكِّ رُموز النقوش المتجزئة والمتناثرة، وعلى التفسير الشخصي لرواية الكتاب المقدس، وليس على معطيات علم الآثار بنحو أولي. الحقيقة المحزنة كانت أن علماء الآثار كانوا يبحثون - لعدة عقود - عن أدلة مفتاحية مفيدة تدلهم على أصول الإسرائيليين في كُلِّ الأمكنة الخطأ. ولما كان كثيرٌ منهم قد أخذ قصة يشوع على معناها الظاهري، فإنهم ركزوا كُلَّ جهودهم - تقريباً - على القيام بالحفريات في التلال الرئيسية لمُدُن كنعانية؛ مثل: "أريحا"، و"بيت ليل"، و"تلخيش"، و"حاصور". اليوم؛ أصبحنا نعرف أن هذه الاستراتيجية كانت خاطئة؛ وذلك لأنه إذا كانت تلك التلال تكشف لنا أشياء كثيرة عن الثقافة الحضريَّة في العصر البرونزي المتأخر، فإنها لا تُخبرنا بشيء - تقريباً - عن الإسرائيليين.

كانت تلك المُدُن الكنعانية الرئيسية تقع على طول السهل الساحلي، وفي الوُديان، بعيداً عن مناطق المرتفعات (التلال والهضاب) المشجرة؛ حيث ظهرت إسرائيل لأول مرة.

قبل أواخر الستينات لم يتمَّ القيام بمسحٍ أثاري شامل في المواقع الإسرائيلية الصرّفة؛ بحثاً عن دليل مُفيد، إلا مرةً واحدة فقط، وهو البحث الذي قام به عالم الآثار الإسرائيلي يوهانان آهاروني Yohanan Aharoni في منطقة هامشية في الحافة الشمالية جداً للمنطقة التي سيطرت عليها إسرائيل الحديثة فيما بعد، في الجبال الوعرة والمشجرة للجليل الأعلى. لقد اكتشف آهاروني أن المنطقة خالية من المواقع التي تعود للعصر البرونزي المتأخر، وبأنه تمَّ استيطانها على نطاق ضيقٍ في مواقع تعود للعصر الحديدي الأول (أي في القرنين الثاني عشر والحادي عشر ق.م)، والتي طابقتها مع المستوطنين الأوائل من قبائل "تفثالي" و"أشير". وعليه؛ فإنَّ حقل عمل آهاروني في الجليل الأعلى بدأ مؤيداً لنظرية "التسرب السلمي". كانت المشكلة الوحيدة أن مسحة كان بعيداً جداً إلى الشمال من مركز الاستيطان الإسرائيلي.

قد يبدو مُفاجئاً أن منطقة قلب إسرائيل التي تضمُّ مرتفعات غرب فلسطين الواقعة بين يَزْرَعيل ووديان "بئر سبع" كانت - عملياً - أرضاً مجهولةً أثارياً. إنَّ قلة الاستكشافات الأثرية



في ريف التلال والهضاب المركزية لم يكن سببها الأولويات العلمية فحسب . لقد أعاقت الحرب والاضطرابات السياسية في الشرق الأوسط - منذ العشرينات ، وحتى عام 1967 - التحقيقات الأثرية الشاملة لقلب المنطقة الجبلية ، لكن البانوراما الأثرية تغيرت لاحقاً ، بعد حرب 1967 ، بشكل كامل . جاء جيل شاب من علماء الآثار الإسرائيليين - المتأثرين بالأنجاهات الجديدة لعلم الآثار العالمي - إلى هذا الحقل بطريقة جديدة من التحقيق : كان هدفهم أن يستكشفوا ، ويضعوا خرائط ، ويحللوا المشهد الطبيعي القديم لريف التلال والهضاب ، بدلاً من الاقتصار على إجراء الحفريات فقط .

أدرك علماء الآثار - بدءاً من أربعينات (القرن الماضي) - أهمية الدراسات الإقليمية ، التي تفحص نماذج الاستيطان المتغيرة عبر الزمن . إنَّ التفتيات في مواقع واحدة ، تُنتج صوراً محلية جداً عن الثقافة المادية للشعوب القديمة ؛ كاشفة عن تنابع أساليب الفخاريات ، والمجوهرات ، والأسلحة ، والبيوت ، والقبور ، لمجتمع ، أو جماعة معينة ، لكن الاستطلاعات الإقليمية - التي يتم خلالها تخطيط وتاريخ المواقع القديمة في منطقة كبيرة ، استناداً للقطع الفخارية المميزة التي تُجمَع من السطح ؛ أي التي تستبدل التوسع في العمق بالتوسع الأفقي العرضي - تكشف عن مكان استقرار الشعوب القديمة ، وحجم مستوطناتها . اختيارهم لبعض الأماكن الطبوغرافية (التضاريسية الجغرافية) الخاصة (مثل قمم التلال بدلاً من الوديان) ، وبعض أساليب النشاط الاقتصادي المعينة (مثل زراعة الحبوب بدلاً من البستنة<sup>(1)</sup>) ، واختيارهم لسهولة الوصول إلى الطرق الرئيسية ومصادر الماء ، يكشف أشياء كثيرة عن أسلوب الحياة ، وفي النهاية ؛ عن الهوية الاجتماعية لسكان المناطق الكبيرة بدلاً من المجموعات ، أو الجاليات القرية . ولا يقل أهمية عن ذلك ، أن الاستطلاعات التي يتم فيها تخطيط مواقع تعود لفترات زمنية مختلفة عديدة ، تسمح لعلماء الآثار بتعقب التغيرات في التاريخ السكاني لمنطقة معينة ، عبر فترات زمنية طويلة .

في السنوات التي تلت عام 1967 ، بدأ إجراء مسح استطلاعي مكثف لكل منطقة قلب الاستيطان الإسرائيلي في الأراضي التقليدية لقبائل "يهودا" ، و"بنيامين" ، و"أفرايم" ،

(1) البستنة horticulture = الحِجَاتة = علم (أو فن) زراعة الأشجار المثمرة والخضر والزهور والنباتات الزينة . (الترجم).

وَمَسَّى: مشطت فرق علماء الآثار والطلّاب - عملياً - كلِّ وادٍ، وحقافةً، ومُنحدرًا، بحثاً عن آثار الأسوار، أو قطع وشظايا الفخاريّات المتناثرة. كان العمل في الحقل بطيئاً، يتمُّ فيه - خلال يوم كامل من العمل، في المعدل - تغطية مساحة حوالي ميل مرّبع واحد. وكان يتمُّ تسجيل أيِّ معلومة يتمُّ الحصول عليها عن وجود استيطان بشري، بدءاً من العصر الحجري، وحتى الفترة العُثمانيّة، وذلك لأجل دراسة تاريخ الاستيطان في مناطق المرتفعات الجبليّة على طول المدى الزمني الطويل. كانت تُستعمل الطُّرُق الإحصائيّة لتخمين حجم كلِّ مُستوطنة، في كلِّ فترة من فترات استيطانها. كان يتمُّ جمع المعلومات البيئيّة، وتحليلها؛ لإعادة بناء المنظر الطبيعي في العصور المُختلفة. وفي بعض الحالات الواعدة؛ كان يتمُّ إجراء عمليّات تنقيب أيضاً.

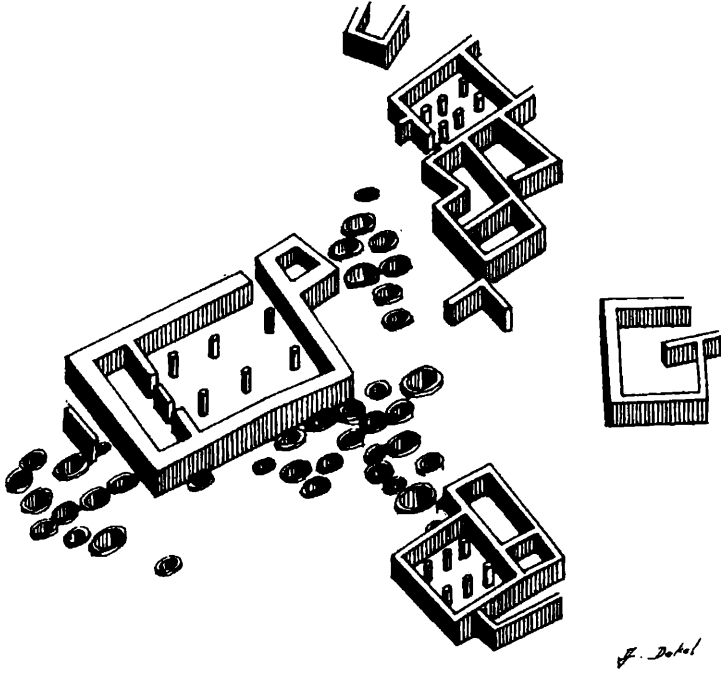
أحدتُ تلك الاستطلاعات ثورة في دراسة إسرائيل القديمة. إنَّ اكتشاف بقايا شبكة كثيفة من قرى المرتفعات - والتي بُنيت جميعها، على ما يبدو، خلال بضعة أجيال فقط - يبيّن أنّ تحوُّلاً اجتماعياً قوياً حدّث في ريف التلال والهضاب المركزيّة لكنّعان حوالي سنة 1200 ق.م، لم تكن هناك أيُّ إشارة لغزو عنيف، أو حتّى لتسرُّب مجموعة عرقيّة مُحدّدة بشكل واضح. بدلاً من ذلك، بدا الأمر وكأنّه ثورة في أسلوب الحياة. في المرتفعات التي كانت - سابقاً - غير مأهولة بالسكّان إلاّ بشكل نادر ومُتناثر وضعيف، بدءاً من مرتفعات يهوذا في الجنوب، وحتّى مرتفعات السامرة في الشّمال، بعيداً عن المدن الكنعانيّة التي كانت في عمليّة انهيار وتفكُّك، برزت - فجأة - حوالي مئتان وخمسون جماعة بشريّة تعيش حياة مُشتركة في قمم المرتفعات، أو التلال. كان هؤلاء - هم - الإسرائيليّين الأوائل<sup>(1)</sup>.

الحياة على حُدود المُرتفعات:

أظهرت التنقيبات التي أُجريت في بعض المواقع الصّغيرة التابعة للعصر الحديدي الأوّل - خلال ذلك المسّح - كم كانت تلك الموجة المفاجئة للاستيطان في المرتفعات واحدة التّمط

(1) بالرّغم من أنّه ليس هناك طريق لمعرفة الهويّات العرقيّة التي كانت قد تشكّلت بالكامل في ذلك الوقت، إلاّ أنّنا حدّدنا هويّة قرى المرتفعات المُبيرة هذه بأنّها قرى إسرائيليّة، لأنّ العديد منها سكّنت - بشكل متواصل - حتّى فترة الحُكومات الملكيّة - وهو عصرٌ لدينا مصادر وفيرة، سواء من الكتاب المقدّس أو من خارج الكتاب المقدّس، تشهد بأنّ سكّانها عرفوا أنفسهم بنحوٍ واعيٍّ على أنّهم إسرائيليّون. (المؤلف).

بشكل مذهش . كان موقع القرية التـمـوذجية . عادةً . فوق قمة تَلٍّ ، أو على حافة مُتـحـدر ، مع إشراف على كُلِّ المنظر الطبيعي المحيط . كانت القرية تُؤسَّس على منطقة مفتوحة مُحاطة بغابات طبيعية مؤلفة . في الغالب . من أشجار البُلُوط والبُطم (التريـنـث terebinth) . وفي بعض الحالات ؛ كانت القرى تُؤسَّس على حواف الوديان الضيقة بين الجبال ، وذلك . على ما يبدو . للوُصُول . بسهولة . إلى الحقول الزراعيّة . في العديد من الحالات ؛ كانت تُبنى القرى على أقصى ما يُمكن في جهة الشّرق من الأراضي الخصبة المُشرقة على الصّحراء ، قريباً من المراعي الجيدة . بدت القرى . في كُلِّ حالة . مكثفة ذاتياً .



الشكل 12: قطاع مُسْتَكشَف عبر الحضريّات لـ 'عزبت سرتاح'، قرية تعود للعصر الحديدي الأوّل في المرتفعات الغربيّة ، تصوّر بيوتاً مبنية على عواميد ، وحبوب السيلوس .

كان سَكْنَتُهَا يسحبون المياه من الينابيع القريبة، أو من مياه أمطار الشتاء المُخزَّنة (في باطن الأرض)، والتي تخرج من الصُّخُور المقطوعة، أو تُخزَّن في صهاريج مُحصَّصة تُستعمل طيلة السنة. أكثر ما يُفاجئ في شأن هذه القرى صغر حجمها الشديد. في أكثر الحالات؛ لم تكن مساحة الواحدة منها تزيد على هكتار واحد في الحجم، يقطنها - طبقاً للتَّخمينات - حوالي خمسون بالغ، وخمسون طفلاً. حتى أكبر القرى في المرتفعات كان حجمها يصل إلى ثلاثة أو أربعة هكتارات فقط، مع بضعة مئات من السُّكَّان. كان العدد الكامل لسكَّان هذه القرى الجبلية - في ذروة عمليَّة الاستيطان فيها، أي حوالي سنة 1000 ق. م - لا يزيد على خمسة وأربعين ألف نسمة.

على العكس من ثقافة المَدُن والقرى الكنعانية في السهول؛ لم تكن قرى المرتفعات تحتوي على أي بنايات عامَّة، أو قُصور، أو مخازن، أو معابد.

أي إشارات لوجود عمليَّات تسجيل وتوثيق من أي نوع مُتطور؛ مثل الكتابة، أو الأختام، أو آثار الأختام، كانت غائبة - تماماً - تقريباً. لم تكن هناك - تقريباً - أي موادُّ مُمتازة: لا فخاريَّات مُستوردة، وتقریباً؛ لا مجوهرات.

في الحقيقة؛ كانت بيوت القرية جميعها مُتماثلة جداً في الحجم، ممَّا يُفيد أنَّ الثروة كانت موزعة - بشكل مُساو جداً - بين العائلات. كانت البيوت تُبنى من صُخور الحُقُول الخام (غير المشغولة)، مع استخدام أعمدة من الحجارة القاسية لتزويد الدَّعم للسَّقْف أو الطابق العلوي. كان حجم البناية المُتوسطة، حوالي ستمئة قَدَم مُرَبَّع، ويُقدَّر عدد سكَّانها بأربعة إلى خمسة أشخاص؛ أي حجم نواة عائلة.

في العديد من الحالات؛ كان يتمُّ حفر حُصْر مُخططة بالحجارة، بين البيوت، لحزْن الحُبوب (الشُّكْل رقم 12). وُجِدَت هذه المُستودعات، وعدد كبير من أنصال المنجل، والأحجار الطاحنة في كلِّ بيت، ممَّا يُشير إلى أنَّ زراعة الحُبوب كانت تُمثِّل أحد اهتمامات القرويين الرئيسيَّة. رغم ذلك؛ كان ما يزال لتربية المواشي أهميَّتها؛ حيث كان يتمُّ استخدام الفئان المسبَّجة قُرب البيوت لحفظ الحيوانات في مكان آمن - على ما يبدو - خلال الليل.

كانت وسائل الراحة الحياتية بسيطة. كانت الفخاريات خشنة وأساسية، ولم تكن هناك آنية فاخرة، ومُتقنة، أو مزخرفة جداً. كانت المستودعات المنزلية تتضمن - بشكل رئيسي - جرار خزن، وُقُدور طَبخ، والتي تُشكّل الأدوات الأساسية للحياة العادية. كانت الجرار تُستعمل على ما يبدو - لحزن الماء، والزيت، والحُمُر. لا نعرف أي شيءٍ - تقريباً - عن عادات الدفن؛ لأن القُبور كانت - على ما يبدو - بسيطة، والموتى يُدفنون بدون تقديم ذبائح أو قربان. على النمط نفسه؛ لم يكن هناك أي شيء يُشير للعبادة. لم توجد هناك أضرحة في القرى، لذا؛ كانت معتقداتهم الدينية المُعينة مجهولة. في حالة واحدة؛ في موقع قبة تل صغير جداً في ريف التلال والهضاب الشمالية قام بالتقيب فيها أميناي مازار Aminai Mazar من الجامعة العبرية تم اكتشاف تمثال ثور برُونزي، مما يشير - احتمالاً - لعبادة الآلهة الكنعانية التقليدية. في موقع آخر، على جبل 'إيبال' Ebal، اكتشف آدم زيرتال Adam Zertal، من جامعة حيفا، بناءً حجرياً غير عادي، ميّزه على أنه مذبح إسرائيلي مُبكر، لكن الوظيفة الدقيقة لذلك الموقع والمنطقة المُسورة المُحيطة به مازال موضع نقاش.

ومما يجدر ذكره أنه - على العكس من رواية الكتاب المُقدس التي تحكي عن الحرب المُستمرّة تقريباً بين الإسرائيليين وجيرانهم - لم تكن تلك القرى مُحصّنة؛ إمّا أنّ سُكّان تلك القرى كانوا يشعرون بالأمان في أماكنهم النائية البعيدة، ممّا يُغنيهم عن صرف الأموال في بناء تحصينات دفاعية، أو أنهم كانوا لا يمتلكون الوسائل، أو التنظيم الصحيح للقيام ببناء مثل تلك التحصينات. لم تُكتشف أي أسلحة، كالسيوف، أو الرماح، بالرغم من أنّ مثل هذه الاكتشافات كانت نَظيية دائماً في مُدن السهول. كما لم توجد هناك إشارات لحريق، أو دمار مُفاجئ، قد يُشيران إلى حدوث هُجوم عنيف.

نُصِّت قرية 'عزبت سرتاح' Izbet Sartah التي تعود للعصر الحديدي الأول - والتي تقع على الحواف الغربية للمرتفعات، مُشرقة على السهل الساحلي - بشكل كامل تقريباً، وبالتالي؛ قدّمت لنا معلومات كافية لإعادة بناء موثوقة لاقتصادها المعيشي. اقترح باروخ رُوزن Baruch Rosen - اختصاصي إسرائيلي في الإنتاج الزراعي القديم والتغذية القديمة - في

تحليله المُصَلِّ للمُعْطِيَاتِ التي قَدَمْتَهَا التَّنْقِيَاتِ ، أَنَّ القَرْيَةَ (التي يُقَدَّرُ عددُ سَكَّانِهَا بحوالي المائة نسمة) كانت - احتمالاً - تعتمد في معيشتها على ثمنائة هكتار من الأرض المُحِيطَةِ ، كانت 450 هكتار منها مزروعةً ، في حين ؛ كان الباقي يُسْتخدَمُ لرَعْيِ الماشية .

في ظُرُوفِ العصر الحديدي الأول ؛ كان من المُمكن لثلك الحُقُولُ أَنْ تُنتِجَ بِحُدُودِ ثلاثة وخمسين طنّاً من الحنطة ، وعشرين طنّاً من الشَّعِيرِ بالسَّنة ، وذلك بِمُساعدة حوالي أربعين ثوراً للحراثة . بالإضافة إلى ذلك ؛ كان السُّكَّانُ يَرُؤُونَ - على ما يبدو - حوالي ثلاثمئة خروف وعنزة . (مع ذلك ؛ لا بُدَّ من الإشارة إلى أَنَّ هذه القَرْيَةَ كانت تقع في منطقة خصبة من التلال . في حين ؛ أَنَّ أغلب قُرَى المُرتفعات لم تكن على مُستوى هذه القَرْيَةَ نفسه في الغنى) .

يُظهِرُ كُلُّ ما سَبَقَ أَنَّ صِراعَ الإِسْرَائِيلِيِّينَ الأوائل لم يكن مع شُعُوبٍ أُخرى ، بل كان مع التضرّيس الحجرية و غابات المُرتفعات الكثيفة ، والبيئة القاسية والمتقلّبة في كثيرٍ من الأحيان . رغم ذلك ؛ يبدو أَنَّهُم عاشوا بِسلامٍ نسبيّاً ، وَأَنَّهُم كانوا قادرين على توفير اكتفاء ذاتي اقتصادياً . كانوا مُتَعزِلين تماماً عن طُرُقِ التَّجَارَةِ الإقليمِيَّةِ ، وكانوا - حسبما يبدو - بعيدين جداً عن بعضهم البعض ؛ ولا تُوجد أيُّ مُؤشَّراتٍ على أَنَّ هُنَاكَ سَلْعاً تِجَارِيَّةً كان يتمُّ تبادلها بَيْنَ قُرَى التلال والمُرتفعات هذه . وبالتالي ؛ فليس من المُفاجئ أَنَّ لا نجد في هذه القُرَى أيَّ دليلٍ على وُجُودِ تقسيمٍ طبقيٍّ اجتماعيٍّ ، فلا إشارة إلى أبنية إداريةٍ لمسؤولين ، ولا مساكن كبيرة لوجَّهَاء ، ولا مُنتجاتٍ مُتَخَصِّصَةً لصنَّاعٍ ماهرين بارعين .

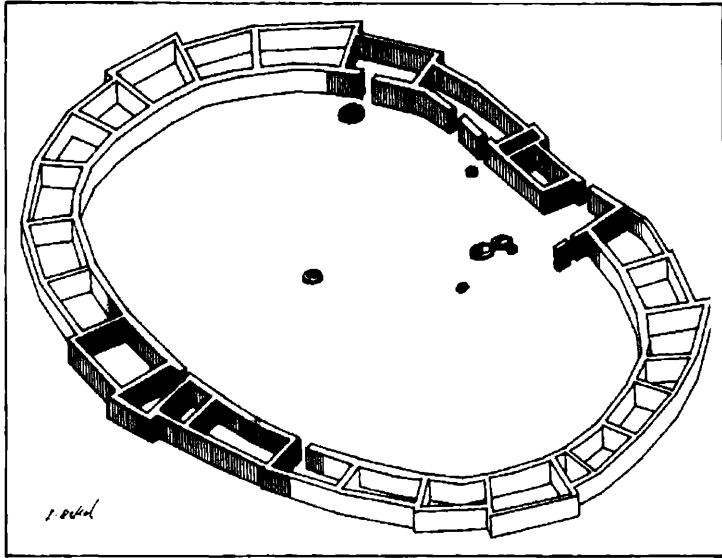
إذا ؛ ظهر الإِسْرَائِيلِيُّونَ الأوائل في حوالي 1200 ق . م ، كَمُرَبِّي ماشية ومُزارعين في التلال . كانت ثقافتهم ثقافة عيش بسيطة ، هذا أكثر ما نعرفه عنهم . ولكن ؛ من أين جاؤوا ؟

مفاتيح جديدة حول أصول الإِسْرَائِيلِيِّينَ :

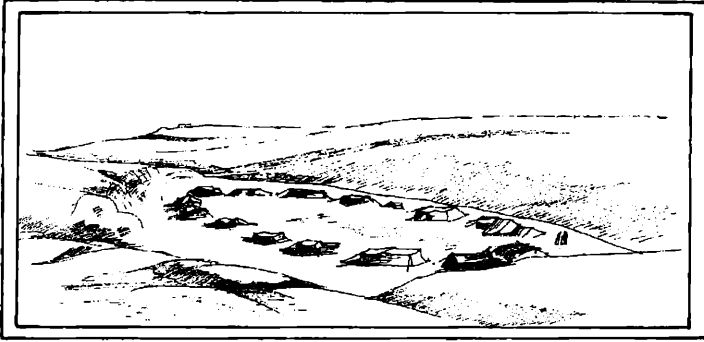
ظَهَرَ نَما سَبَقَ ، أَنَّ حَلَّ مسألةِ أصولِ الإِسْرَائِيلِيِّينَ يكمن في البحث في بقايا مراكز الاستيطان الباكورة (الأولى) . قَدَمْتُ أغلب القُرَى - التي تمَّ تنقيتها في المُرتفعات - أدلَّةً عن حياة الإِسْرَائِيلِيِّينَ كما كانت عليه بعد عدَّة عُقُود ، أو حتَّى بعد قرن من تأسيسها . كانت البيوت والأبنية قد تمَّ توسيعها وإعادة تشكُّلها من جديد خلال تلك السَّنَوَاتِ . في حالات قليلة جداً

فقط، بقيت آثار المُستوطنة الأُوليَّة نفسها محفوظة سليمة دون تغيير، تحت أبقاض الأبنية التالية. أحد الأمثلة عن مثل هذه الحالة كانت موقع 'عزبت سرتاح' Izbet Sartah، التي سبقَ وأشرنا إليها.

كان تخطيط المرحلة الباكرة للموقع غير عادي، ومختلفاً جداً عن التوزُّع العنقودي التالي للبيوت المُستطيلة المدعَّمة بعواميد، والتي بدأت تظهر لاحقاً في الموقع. كانت المُستوطنة الأولى تُبنى بشكلٍ إهليلجي، مع صفٍّ من العُرف يُحيطُ ببناء مفتوح كبير (الشَّكْل رَقْم 13). كانت تلك العُرف الخارجِيَّة تتصل ببعضها البعض بطريقة تُشكِّل ما يُشبَّه الحزام المُستمر الذي يحمي الفناء الداخلي. يُلَمَّح الفناء المُغلق الكبير إلى أنَّ السُّكَّان كان لديهم قطعان ماشية، من المُحتمل أنَّها كانت قطعان غنمٍ وماعز. كما يُشير اكتشاف بضعة مُستودعات، وأنصال منجل، وأحجار طحن إلى أنَّهم زاولوا - قليلاً - زراعة الحبوب أيضاً.



الشَّكْل 13: مرحلة العصر الحديدي المُبكر في 'عزبت سرتاح' Izbet Sartah. يُشير التَّخطيط البيضاوي إلى الأُصول الرَّعويَّة للسُّكَّان.



الشكل 14: معسكر بدوي ببيضاوي قُرب أريحا كما يظهر في رسم يعود للقرن التاسع عشر.

تم اكتشاف مواقع بيضاوية ماثلة في التلال والهضاب الوسطى، وفي مرتفعات النقب في الجنوب. كما تم اكتشاف مواقع مقارنة يعود تاريخها لفترات زمنية أخرى، في سيناء، والأردن، ومناطق أخرى من الشرق الأوسط. عموماً؛ يبدو هذا النمط من البيوت المنقلبة من الخصائص المميزة للقرى الاستيطانية في المرتفعات، وعلى حدود الصحراء. إن مخطط هذه القرية - التي تعود إلى بدايات العصر الحديدي الأول - لا يشابه المواقع التي تعود للعصر البرونزي والعصر الحديدي في أراضي السهل فحسب، بل يماثل - كذلك - مخيمات البدو التي يصفها المسافرون في صحراء يهوذا والضفة الشرقية للأردن، وصحراء سيناء، في آخر القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، بل حتى يصورونها (انظر الشكل رقم 14).

في مثل هذا النمط من المخيم، يُحيط صف من الخيام بفناء مفتوح، تُحفظ فيه قطعان الماشية ليلاً. إن مواقع المرتفعات ومواقع النقب التي تعود للعصر الحديدي تماثل بنحو مدهش في شكلها، وحجمها، وعدد وحداتها.

على الرغم من حلول الجدران الحجرية محل الخيام المتقلبة في مراكز الاستيطان القديمة، فإن الشكل يوحى بوضوح بنس الوظيفة في كلا نمطي الاستيطان. كان الناس الذين يعيشون في هذه المواقع - سواء في الماضي والحاضر - رعاة يهتمون بشكل أساسي بحماية قطعان ماشيتهم. يشير كل ذلك إلى أن نسبة كبيرة من الإسرائيليين الأوائل كانوا يوماً ما بدواً رعاة.



ولكنهم كانوا بدأوا رعاةً يمرُّون بتحول عميق . فالانتقال المُتَرَض من مُخيمات الخيام القديمة إلى قُرى مبنية من الحجر ذات هيكل عامٌ مشابه ، ثمَّ - فيما بعد - نحو المنازل المُستطيلة الأكثر دواماً ، المُستندة إلى عواميد ، يُشير إلى أنهم تركوا حياة التَّنْقُل ، وتخلَّوا عن أغلب حيواناتهم ، وانتقلوا نحو الزراعة الدائمة . مثل هذه التحوُّلات ما يزال من الممكن ملاحظتها في الشرق الأوسط حتَّى يومنا هذا . غالباً ما يستبدل البدو - في عمليَّة الاستقرار - خيامهم بأبنية من الأحجار والطوب ، مبنية على نَفس شكل الخيام . كما أنهم يميلون للإبقاء على تخطيط المُخيِّم التقليدي - أيضاً - في تخطيطهم مُستوطنهم الدائمة الأولى ، ثمَّ يبدؤون - لاحقاً ، وبشكل تدريجي - بمُعادرة هذا النمط التقليدي ، والانتقال إلى قُرى الإقامة المنتظمة . هناك تطوُّرٌ مُماثل جداً يظهر في بقايا قُرى المُرتفعات العائدة للعصر الحديدي .

هناك مؤشِّرٌ آخر يُشير لنَفس الاتجاه أيضاً : نوع الأمكنة التي كان يختارها المُستوطنون في العصر الحديدي الأوَّل لأجل إقامتهم الدائمة يُوحى بخُلفيَّة بدويَّة رعويَّة . كانت كثير من المُستوطنات - مُنذُ بداية نشاط العصر الحديدي في المُرتفعات - تقع في الجزء الشرقي للمنطقة ، ليس بعيداً عن حدِّ الصحراء . مكَّن تأسيس المُستوطنات في هذه النُقطة القرويِّين من مواصلة تربية الخرفان والماعز ، مع انتقالهم التدريجي إلى الزراعة ، كوسيلتهم الرئيسيَّة لكسب عيشهم . ولم يتوسَّعوا نحو الغرب إلا في فترة لاحقة ، ذلك الغرب الذي كان أقلَّ مضيافاً للزراعة وتربية المواشي ، وأكثر ملاءمة لزراعة بساتين الزيتون وكروم العنب .

ومن هنا ؛ كان العديد من الإسرائيليين الأوائل - ظاهراً - بدأوا ، تحوُّلوا - بشكل تدريجي - إلى مزارعين ، ولكن ؛ ما زال هناك بدو يجب أن يأتوا من مكان ما . هنا - أيضاً - للشواهد الأثاريَّة التي اكتشفت مؤخراً كلمة قولها .

دورات كنعان المَحْضِيَّة:

جمَّعت الاستطلاعات الشاملة التي جرت في المُرتفعات في العقود الأخيرة بيانات عن طبيعة الاستعمال الإنساني للأرض في هذه المنطقة عبر عدَّة ألفيَّات . كانت إحدى أكبر المُفاجآت هي أن تلك الموجة القويَّة من استقرار الرُعاة المُنتقلين وتحولهم إلى مزارعين مُقيمين

بشكل دائم في القرن الثاني عشر ق. م، لم تكن حَدَثًا فريداً، بل أشارت الشواهد الأثرية أنه كانت - قبل القرن الثاني عشر ق. م - موجتان سابقتان مشابهتان من الاستيطان في المرتفعات، كلٌ منهما تبعتهما عودة المُستوطنين في النهاية من جديد إلى نَمَط الحياة الرعوي المُنتقل.

نحن نعرف اليوم أن الاحتلال الأول للمرتفعات حَدَثَ في العصر البرونزي المبكر، مُبتدأً قبل حوالي ألفي سنة من بروز إسرائيل المبكرة؛ أي في حوالي 3500 ق. م. . في ذروة موجة الاستيطان هذه، كان هناك - تقريباً - مئة قرية، أو بلدة أكبر، مُتناثرة في كافة أنحاء الحافة المركزية. بعد أكثر من ألف سنة؛ أي حوالي 2200 ق. م، تمَّ هجر أغلب مراكز الاستيطان في المرتفعات، وأصبحت المرتفعات منطقة حُدُودية من جديد، ولكن موجة ثانية من الاستيطان، أقوى من الأولى، بدأ يزداد زخمها في العصر البرونزي الأوسط، بعد مدة قصيرة من سنة 2000 ق. م. بدأت هذه الموجة بتأسيس قرى مُتفرقة صغيرة نَمَتْ بشكل تدريجي؛ لتصبح شبكة معقدة من حوالي 220 مُستوطنة، تتراوح من القرى، إلى البلدات، إلى المراكز الإقليمية المُحصنة.

#### جدول 1 موجات الاستيطان في المرتفعات

العصر	التاريخ	الخصائص الأساسية
العصر البرونزي الباكر	3500 - 2200 ق. م	أول موجة استيطان؛ تمَّ رصد حوالي 100 موقع.
العصر البرونزي الأوسط	2200 - 2000 ق. م	أزمة استيطان؛ تمَّ هجر أكثر المواقع
العصر البرونزي الأوسط	2000 - 1550 ق. م	ثاني موجة استيطان؛ تمَّ رصد حوالي 220 موقع.
العصر البرونزي المتأخر	1550 - 1150 ق. م	أزمة استيطان؛ لم يتمَّ رصد إلا 25 موقعاً فقط
العصر الحديدي الأول	1150 - 900 ق. م	ثالث موجة استيطان؛ تمَّ رصد حوالي 250 موقعاً.
العصر الحديدي الثاني	900 - 586 ق. م	تطور نظام استيطان يصل إلى 500 موقع (القرن الثامن ق. م)

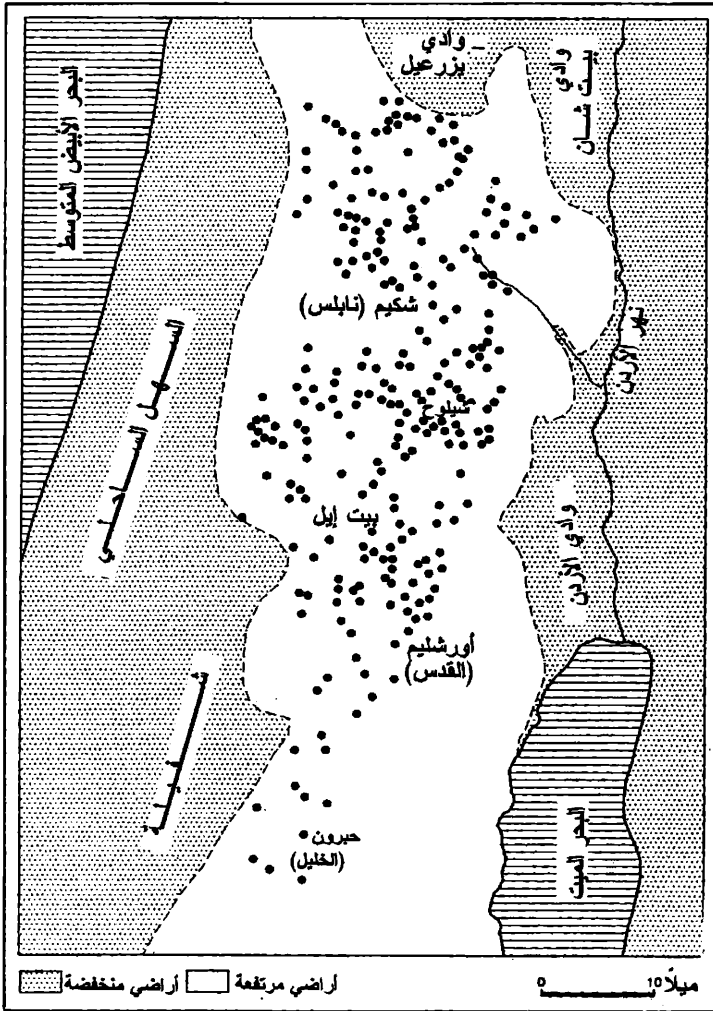
قُدِّر عدد سُكَّان موجة الاستيطان الثانية هذه بحوالي أربعين ألف نسمة. أصبح العديد من المراكز المُحصنة الرئيسية في هذه الفترة؛ مثل "حبرون"، "أورشليم"، "بيت إيل"، "شيلوح"، "شكيم"؛ مراكز مهمة في عهد الإسرائيليين. ومع ذلك؛ انتهت موجة الاستيطان الثانية في المرتفعات هذه، في وقت ما من القرن السادس عشر ق. م؛ حيثُ أصبحت المرتفعات - حينئذٍ - منطقة حُدُودية مأهولة بالسكَّان بشكل مُتناثر، وبقيت كذلك لأربعة قُرُون.

أخيراً؛ - كموجة رئيسية نالفة - بدأ الاستيطان الإسرائيلي المبكر حوالي 1200 ق. م.، (انظر الشغل رقم 15)؛ حيث شرع - مثل أسلافه - بإنشاء مجتمعات ريفية صغيرة - بشكل رئيسي - بعدد ابتدائي من السكان يصل إلى حوالي 45,000 نسمة تقريباً، في 250 موقعاً. ثم تطور - تدريجياً - إلى أن بلغ نظاماً ناضجاً من مدن كبيرة، ومراكز أسواق إقليمية متوسطة الحجم، وقري صغيرة. شملت موجة التوطن هذه - في ذروتها في القرن الثامن ق. م.، بعد تأسيس مملكتي يهوذا وإسرائيل - أكثر من خمسمئة موقع، بلغ عدد سكانها حوالي 160.000.

والذي جعل هذا النمو السكاني القوي ممكناً هو الاستخدام الكامل للطاقة الزراعية للمنطقة. كانت المرتفعات تقدم تضاريس ممتازة لأجل زراعة الزيتون وكروم العنب، وهي القطاعات الأكثر ربحاً في الاقتصاد التقليدي في الشرق الأوسط.

في كل فترات الاستيطان الثلاثة المكثفة في المرتفعات كان يبدو أن فائضاً من الحمر وزيت الزيتون يتم إرساله إلى السهول، بل يتم تصديره - أحياناً - حتى إلى خارج حدود كنعان، وخاصة إلى مصر.

لقد تم تحليل بعض سفن الحزن التي وجدت في مصر، والتي تعود للعصر البرونزي المبكر، فوجدت بأنها كانت قد صنعت من الطين المأخوذ من المرتفعات الكنعانية، بل في إحدى الحالات الاستثنائية وجدت جرة من كنعان كانت مازال تحتوي على بقايا من بذور العنب. وعليه؛ فإن التشابه بين أنماط الاستيطان في تلك الموجات الثلاثة الرئيسية تشابه واضح. في كثير من الحالات؛ تم إشغال نفس المواقع في كل من الفترات الثلاثة. ولا يقل أهمية عن ذلك أن التماذج الكلية للاستيطان كانت تشترك في بعض الخصائص؛ أولاً: كان يبدو أن الأجزاء الجنوبية للمرتفعات كانت دائماً مأهولة بالسكان بدرجة أقل من الأجزاء الشمالية، والذي كان سببه - كما سنرى - البيئة الطبيعية المختلفة جداً للمنطقتين. ثانياً: كان يبدو أن كل موجة من النمو الديموغرافي تبدأ في الشرق، ثم تتوسع - تدريجياً - نحو الغرب. وأخيراً؛ تميزت كل واحدة من الموجات الثلاثة بثقافة مادية مماثلة تقريباً، تجلّت بفخاريات متشابهة وهندسة معمارية، وتخطيط قري متشابه، والذي كان - احتمالاً - نتيجة لظروف اقتصادية وبيئية متماثلة.



الشكل 15: مواقع العصر الحديدي الأول في منطقة المرتفعات المركزية.

في الفترات الواقعة بين ذروات الاستيطان في المرتفعات، عندما هُجرت المُدن والبلدات، وحتى أغلب القرى، بقيت المرتفعات مأهولة ببعض السُكَّان، ولم تُهجر كلياً، وقد جاء أحد الشواهد المهمة على ذلك من مصدر غير متوقَّع - ليس نُقوشاً أو أبنية تمّ تقييها، ولكن؛ تحليلٌ عن كُتب لعظام حيوانات استُخْرِجَت بواسطة أعمال التّقيب. لقد احتوت العظام - التي تمّ الحُصُول عليها من المواقع، التي ازدهرت خلال فترات الاستيطان المُكثَّف في المرتفعات - على كمية كبيرة نسبياً من المواشي البقرية، التي تُشير - بشكل عام - إلى ممارسة زراعة الحُقُول على نطاق واسع واستخدام المحراث. في الحقيقة؛ هذه النّسب تُشابه ما نراه اليوم في الجماعات المُزارعة في القرى التقليديّة بالشرق الأوسط.

ولكن؛ يُمكن ملاحظة فرقٍ قويٍّ بين العظام التي جُمعت من بعض المواقع في المرتفعات التي استمرّ استيطانها في الفترات الواقعة بين موجات الاستيطان الرئيسيّة. كان عدد الأبقار قليلاً، في حين كانت هناك نسب كبيرة جداً من الخرفان والماعز. هذا مُماثل لتركيب قطعان الماشية لدى المجموعات البدويّة. بالنسبة للرعاة الذين يعملون في زراعة موسميّة هامشيّة فحسب، ويقضون مُعظم السنّة في البحث عن مراعي جديدة، تُمثّل المواشي الثقلية التي تتحرّك ببطء (مثل الأبقار والجمال) عبئاً ثقيلاً، إنّها لا تستطيع أن تتحرّك بسرعة، ويقدر حركة الخرفان والماعز، لذا؛ في فترات الاستيطان المُكثَّف في المرتفعات، كان هناك أناس أكثر مشغولين بالزراعة؛ في حين أنّه في سنوات أزمات الاستيطان، كان الناس يُزاولون تربية الخرفان والماعز.

هل كانت مثل تلك التقلّبات المُفاجئة أمراً شائعاً؟ لقد كان لدى الناس في الشرق الأوسط - دائماً - الخبرة في التّغيير بسرعة من حياة القرية إلى حياة الفلاحة الحيوانيّة، أو العودة من حياة الرعي إلى الزراعة المُستقرّة، وذلك تبعاً للظُرُوف الاقتصادية والسياسيّة، بل حتى المناخيّة، المُتغيّرة. كانت العديد من المجموعات - في أنحاء المنطقة كافّة - قادرة على أن تنقل أسلوب حياتها إلى أفضل ما يُناسب الوقت، وكان الدرب الذي يصل بين حياة القرية والحياة البدويّة ذات تربية المواشي طريقاً ذا اتجاهين دائماً.

هذا بالضبط ما أثبتته الدّراسات الأثروولوجيّة لتاريخ الاستيطان في الأردن، والجنوب الغربي لسوريا، ووادي الفُرات الأوسط، في القرنين التاسع عشر والعشرين. كان النّظام

الضريبي الثقيل جداً والتهديد بالتجنيد في الجيش العثماني من بين العوامل التي دعت عدداً لا يحصى من عوائل القرى لهجر بيوتهم في المناطق الزراعية، والاختفاء في الصحراء. هناك؛ زاولوا تربية الحيوانات، التي كانت - دائماً - نمط حياة أكثر مرونة، وإن كان أقل راحة.

وتنطلق عملية معاكسة في الأوقات التي يتحسن فيها الأمن والأحوال الاقتصادية؛ حيث يبدأ تأسيس المجتمعات المقيمة من قبل البدو، أو التي ينضم إليها البدو السابقون، الذين يبدؤون بمزاولة دور تخصصي في مجتمع ذي جزأين، أو مزدوج الشكل: أحد قطاعيه يتخصص بالزراعة، في حين؛ يواصل الآخر عمله التقليدي في تربية الخرفان والماعز.

هذا النمط له مغزى خاص في سؤالنا: من كان الإسرائيليون الأوائل؟ ذلك لأن عنصرَي مجتمع الشرق الأوسط - المزارعون والبدو الرعاة - حافظوا - دائماً - على بقائهم وعلاقتهم الاقتصادية المتبادلة، وإن كان هناك توتر بين المجموعتين في بعض الأوقات. يحتاج البدو إلى أسواق أو قرى مستقرة للحصول على الحبوب والمنتجات الزراعية الأخرى، في حين؛ يعتمد المزارعون على البدو لتزويدهم باللحوم، والألبان والجلود، إلا أن طرفي التبادل ليسا متساويين؛ فالقرويون يستطيعون الاعتماد على إنتاجهم للبقاء على الحياة، في حين؛ لا يستطيع البدو الرعاة الاكتفاء - تماماً - بمنتجات مواشيمهم، لأنهم يحتاجون إلى الحبوب لإكمال وموازنة وجباتهم عالية الدسم من اللحم والحليب. مادام كان هناك قرويون يمكن التجارة معهم، يستطيع البدو مواصلة تركيزهم على تربية المواشي، لكن؛ متى تعدل الحصول على الحبوب كبديل لمنتجاتهم الحيوانية، فإن البدو الرعاة يصبحون مجبرين على إنتاجها بأنفسهم.

هذا ما سبب - حسب الظاهر - الموجات الفجائية للاستيطان في المرتفعات.

في العصر البرونزي المتأخر لكنتان، كان الوجود الكبير - بشكل خاص - للسكان من البدو الرعاة، في حافات الصحراء والمرتفعات، ممكناً؛ فقط طالما أمكن للمدُن والقرى الكنتانية أن تُنتج فائض الحبوب الكافي للمتاجرة. كانت هذه هي الحالة أثناء ثلاثة قرون من الحكم المصري لكنتان، ولكن؛ عندما انهار ذلك النظام السياسي في القرن الثاني عشر ق.م، توقفت شبكته الاقتصادية عن العمل. إنه من المعقول الافتراض أن قرويي كنتان أُجبروا على التركيز على المعيشة المحلية، ولم يعودوا ينتجون فائضاً كافياً من الحبوب، أكثر مما يحتاجونه

لأنفسهم . ولهذا ؛ كان على الرعاة الذين يعيشون في المرتفعات وفي حافة الصحراء أن يتأقلموا مع هذه الظروف الجديدة ، ويقوموا بإنتاج حيويهم بأنفسهم . وسرعان ما تُسبب مُتطلبات الزراعة تناقصاً في مدى الهجرات الموسمية . هنا ؛ تتناقص قطعان الماشية كلِّما أصبحت فترات الهجرة أقصر ، ومع استثمار الجُهود في الزراعة أكثر ، فأكثر ، يحدث الانتقال الدائم نحو الإقامة والاستقرار .

العَمَلِيَّة التي شرحناها هنا ، هي - في الواقع - عكس ما نجد في الكتاب المُقدس العبري : لقد أثبتنا هنا أن بُروز إسرائيل المُبكرة كان نتيجة لانهايار الثقافة الكنعانية ، وليس سبباً له . وأغلب الإسرائيليين لم يأتوا من خارج كنعان - بل ظهروا من داخلها . . ولم يكن هناك خُروج جماعي من مصر ، بل لم يكن هناك غزو وفتح عنيف لكنعان . وأغلب الذين شكّلوا الإسرائيليين الأوائل كانوا أناساً محلّتين - نفس الناس الذين نراهم في المرتفعات طُول فترة العصرين البرونزي والحديدي . . كان الإسرائيليون الأوائل - من سُخريَّة السُّخريات - أنفسهم - أصلاً - كنعانيين .

بأي معنى كانت إسرائيل القديمة فريدة؟

في المناطق الأكثر خُصوبة من مُرتفعات شرق الأردن ، نرى نفس التقلّبات في نشاط الإقامة ، ونفس أزمة الاستيطان في العصر البرونزي المتأخّر ، وبالضبط ؛ نفس موجة الاستيطان في العصر الحديدي الأوّل . لقد كَشَفَت الاستطلاعات الأثرية التي أُجريت في الأردن أن تاريخ الاستيطان البشري في أراضي عمّون ، وموآب ، وأدوم ، كان مُشابهاً . في حُطوطه العريضة - لتاريخ الاستيطان في إسرائيل المُبكرة . يُمكننا أن نأخذ وصفتنا الأثري لقرية إسرائيلية مُتوجّية في المرتفعات الواقعة غرب الأردن ، تعود للعصر الحديدي الأوّل ، ونستخدمها ، دون أيّ تعبير تقريباً ، لوصف قرية مُوآبية قديمة . لقد عاش الناس في نفس النمط من القرى ، في بُيوت مُشابهة ، واستخدموا فخّارات مُماثلة ، وزاولوا طريقة حياة مُماثلة تقريباً . رغم ذلك ؛ نعلم من الكتاب المُقدس العبري ومن مصادر تاريخية أُخرى ، أن الناس الذين عاشوا في القرى الواقعة شرق الأردن في العصر الحديدي الأوّل لم يُصبحوا إسرائيليين ؛ بل على العكس ، شكّلوا - فيما بعد - ممالك عمّون ، وموآب ، وأدوم . لذلك ؛ يُطرح التساؤل : هل كان هناك أيّ شيء خاصّ ومُميّز في قرى الناس الذين شكّلوا إسرائيل

المُبَكَّرَة جَعَلَهُمْ يَتَمَيَّزُونَ من جيرانهم؟ هل يُمكننا أن نشرح كيف تبلور انتمالهم العرقي (إثنيّتهم) وقوميّتهم؟

اليوم - كما في الماضي - يُعرّف النّاس انتماءهم العرقي بطُرُق مُختلفة: باللّغة، والديّن، وعادات البّاس، وطريقة دَفن الموتى، والمُحرّمات الغذائيّة المُصلّة. إنّ الثقافة الماديّة البسيطة التي تَرَكها مربيّو الماشية والمُزارعون في المُرتفعات - الذين أصبحوا الإسرائيليّون الأوائل - لا تُقدّم أيّ إشارة واضحة على لهجتهم، أو طُقوسهم الدينيّة، أو عاداتهم، أو مُمارسات دَفن موتاهم. لكنّ؛ هُنَاك تفصيل واحد مُثير جدّاً تمّ اكتشافه بشأن عاداتهم الغذائيّة.

إنّ العظام المُكتشّفة عبر التّقيبات في القرى الإسرائيليّة الصّغيرة الباكِرة في المُرتفعات تختلف عن تلك المُكتشّفة في مراكز الاستيطان في سائر أنحاء البلاد في أمرٍ واحد: ليس هُنَاك بيّنها عظام خنازير. إنّ العظام المجموعة من مُستوطنات المُرتفعات الأقدم كانت تحتوي على بقايا خنازير، وتُفسّس الأمر يصدق على مراكز الاستيطان التّالية؛ أيّ بعد العصر الحديدي هُنَاك. خلال كُلّ فترة العصر الحديدي - أيّ عصر الممالك الإسرائيليّة - لم تكن الخنازير تُطَبَخ وتُؤكَل، ولا حتّى تُربى في المُرتفعات. تُبيّن مُعطيات مُقارنة من مُستوطنات ساحليّة فلسطينيّة تعود لنُفُس الفترة الزّمنيّة - العصر الحديدي الأوّل - أنّ هُنَاك - بنحو مُفاجئ - عدد كبير من الخنازير بيّن عظام الحيوانات المُكتشّفة. على الرّغم من أنّ الإسرائيليّين الأوائل لم يكونوا يأكلون الخنزير، كان الفلسطينيون يفعلون ذلك بشكّل واضح، كما كان يفعل العمونيّون والمؤابيون في شرق الأردنّ (كما تدلُّ عليه البيانات السّطحيّة المأخوذة).

لا يُمكن منع لحم الخنزير أن يُفسّر بأسباب اقتصادية أو بيئية فقط. في الواقع؛ يُمكنه أن يكون الدليل الوحيد الذي تملكه على وجود هويّة مُتميّزة مُشتركة لاهاليّ قرى المُرتفعات في غرب الأردنّ. ربّما توقّف الإسرائيليّون الأوائل عن أكل الخنزير لمُجرد أنّ الشّعوب المحيطة بهم - خصّوهم - كانوا يأكلونه، وبهذا؛ بدؤوا يرون أنفسهم مُختلفين. إنّ المُمارسات الطّبيعيّة التّميّزة، والعادات الغذائيّة، اثنان من الطّرق التي تُشكّل الحدود العرقيّة. والظّاهر أنّ توحيد الله وقصص الخُرُوج الجماعي والميثاق جاءت في فترة متأخّرة كثيراً على ما يبدو. لقد اختار الإسرائيليّون قبل حوالي نصف ألفيّة من تأليف نُصوص الكتاب المقدّس العبري، بقوانينه



المُصَلَّة، وأحكام أطعمته، - ولأسباب لم تتضح بشكل كامل بعد - أن لا يأكلوا لحم الخنزير  
وعندما يفعل اليهود المعاصرون نفس الشيء، فإنهم - بذلك - يواصلون أقدم ممارسة ثقافية  
أثبتها علم الآثار لشعب إسرائيل القديم .

سفر القضاة ودولة يهوذا في القرن السابع ق.م:

لن نعرف أبداً إلى أي مدى استندت القصص في سفر القضاة على ذكريات أصلية واقعية  
لابطال محلين ونزاعات قروية بقيت على مدى القرون على شكل قصائد ملحمة أو قصص  
وحكايات شعبية . ومع ذلك؛ فلا يمكن تقسيم الثقة التاريخية لسفر القضاة بواسطة الإدراج  
المُحتمل للحكايات البُطولية من العصور السابقة . إن أهم ميزات هذا السفر هي نمطه الأدبي  
العام الذي يصف تاريخ إسرائيل في الفترة التالية للغزو على أنه دورة متكررة للخطيئة،  
والمجازاة الإلهية، ثم الخلاص (2 : 11 - 19) . فقط في الآية الأخيرة (21 / 25) يوجد تلميح  
إلى إمكانية كسر هذه الدورة، بواسطة تأسيس حكم ملكي .

إنه من الواضح أن هذا التفسير اللاهوتي للحكايات في سفر القضاة تم تطويره بعد قرون  
من الأحداث التي يدعي وقوعها . على الرغم من أن القصص القردية حول الصراع  
الإسرائيلي ضد الفلسطينيين، والمؤابيين، والمدنيين، والعمونيين، تعرض أماكن وأشخاصاً  
مختلفين جداً، إلا أنها - جميعاً - تُستخدم لتصوير علاقة متبادلة مضطربة بين الله وشعبه .  
يُصور يهوه كإله غاضب، آسف، أنقذ الإسرائيليين من العبودية في مصر، وأعطاهم الأرض  
الموعودة كميراث أبدي، ليجدهم أناساً آثمين وجاحدين فحسب، خانوا يهوه مراراً وتكراراً  
باتباعهم آلهة أجنبية، فعاقبهم يهوه بتسليمهم لأيدي أعدائهم؛ كمي يشعروا بالتم العنْف  
والمعاناة، ويتضرعوا ليهوه؛ ليساعدهم . عندئذ؛ يقبل يهوه توبتهم، ويُقذهم بتكليفه لزعيم  
ديني مُستقيم من بينهم بقيادتهم للانتصار على خصومهم . هنا؛ اللاهوت هو الفكرة المركزية،  
وليس التاريخ . الميثاق، الوعد، الارتداد، التوبة، والعودة إلى الله، تُشكل التسلسل الدوري  
الذي يشغل كل سفر القضاة . وبالتالي؛ لا بد أنه بدأ لشعب يهوذا في القرن السابع ق.م، أن  
نفس التسلسل الدوري ينطبق عليهم .

منذ زمن طويل؛ اعترف العلماء بالكتاب المقدس العبري أن سفر القضاة يشكّل جزءاً من التاريخ التنوي الذي - كما سبق، وبيناه - يشكّل التعبير الكبير عن التطلّعات والآمال الإسرائيلية السياسيّة التي جمعت، والذي تمّ تأليفه في دولة يهوذا أثناء عهد حكم الملك يوشيا في القرن السابع ق.م. . . لقد قدّمت قصص الإسرائيليين الأوائل الذين استوطنوا في المرتفعات درساً للناس ذا صلة مباشرة بالشؤون المعاصرة. عندما تطلّع يوشيا ومؤيدوه نحو الشمال برؤية تطمح إلى توحيد أرض إسرائيل، أكدوا أن الغزو وحده ليس له قيمة من دون طاعة يهوّه المتواصلة والحصريّة.

لقد نظرت الحركة التنويّة إلى الشعوب الوثنيّة داخل أرض إسرائيل وفي كلّ الممالك المجاورة كخطرٍ مميت. لقد أوضحت أحكام الشريعة في سفر التثنية والدروس التاريخيّة للتاريخ التنوي أن على شعب إسرائيل أن يقاوم إغراء عبادة الأوثان، والألا اضطرّ أن يعاني من كوارث جديدة. يوضّح الفصل الذي يفتّح به سفر القضاة الارتباط الواضح بين الماضي والحاضر. هذا؛ على الرغم من أن عديدًا من العلماء اعتبروه إضافة لاحقة، إلا أن المؤرخ التوراتي "باروخ هالبرن" Baruch Halpern جعله جزءاً من التاريخ التنوي الأصلي. يُخبرنا هذا الفصل (المقدّمة) كيف أن القبائل التي شكّلت قلب المملكة الجنويّة - يهوذا وشمعون - أنجزت مهمتها المقدّسة بشكلٍ مثالي في فتح كلّ المدن الكنعانيّة في أراضيها. وبهذا؛ تمّت حماية عملة يهوذا من خطر الوثنيّة المباشر في وسطها، لكن؛ لم تكن هذه هي الحال بالنسبة للقبائل التي شكّلت - فيما بعد - قلب مملكة إسرائيل الشماليّة، فقد روى السفر بأنهم جميعاً فشلوا في مساعهم لإزالة الكنعانيين، وأدرج بالتفصيل قائمة الجيوب الكنعانيّة التي استمرت في كلّ واحد من أراضيهم العشائريّة، (القضاة: 1/ 21، 35:27). لا عجب - بعد ذلك - أن نرى أن يهوذا التقيّة بقيت، وأن إسرائيل المرتدّة فُهرت، وأزيلت. في الحقيقة؛ أغلب حكايات سفر القضاة تتعامل مع خطيئة وعقاب القبائل الشماليّة. ولا يوجد قصة واحدة تتهم - بشكلٍ واضح - يهوذا بعبادة الأصنام.

لكن سفر القضاة يعرض - ضمناً - مخزجاً من هذه الدوّرة اللأنهائيّة للذنب والعقاب الإلهي، إنّه يلمح بأن الدوّرة كانت قد كُسرت مرّة قبل ذلك. إنّه يكرّر، مراراً وتكراراً، مثل

كلمة سحرية جُملة: 'في تلك الأيام؛ لم يكن ملك في إسرائيل. كلُّ واحدٍ عملَ ما حسنَ في عَينِهِ.' (القُضَاة: 25/21).

هذا تذكير بأنَّه مباشرة بعد فترة القُضَاة جاء ملك عظيم حكَمَ كلَّ قبائل إسرائيل - إنَّه داود النقي، الذي أسَّسَ ميثاقاً أبدياً مع الله.. قام هذا الملك بإزالة تأثير الآلهة الأجنبية من قلوب وممارسة الإسرائيليين اليومية، وقام بتأسيس عاصمة واحدة في أورشليم، وعين مكاناً دائماً لتابوت العهد. إله واحد، عبدٌ في معبدٍ واحدٍ يقع في عاصمةٍ واحدةٍ فقط تحت حكم سلالة ملكية داودية واحدة، كانت تلك مفاتيح إنقاذ إسرائيل في كلا عهد داود وعهد داود الجديد الملك يوشيا. باجتنائه واستنصاله كلُّ أثر لعبادة الآلهة الأجنبية التي قادت إسرائيل نحو الخطيئة في الماضي، يضع يوشيا حداً للدورة اللانهائية. على ما يبدو - للارتداد والكارثة، ويقود يهوذا نحو عصر ذهبي من الازدهار والأمل.

كما نعرف الآن - على أية حال - إنَّ الصورة التوراتية القوية للقُضَاة الإسرائيليين المستقيمين - رغم قوتها وقوة تأثيرها - ليس لها إلا علاقة ضعيفة بما حَدَثَ فعلاً في مُرتفعات كنعان، في العصر الحديدي المبكر. لقد كُشِفَ علم الآثار أنَّ التحوُّلات الاجتماعية المُعقَّدة بين الشعوب الرَّعوية للمرتفعات الكنعانية مثلت - أكثر بكثير من مفاهيم الكتاب المقدس العبري حول الخطيئة والتكفير - أكثر العناصر والقوى تشكيلاً لولادة إسرائيل.

## الفصل (5):

### ذكرياتُ عصرٍ ذهبيٍّ؟

وَجَدَتِ إسرائيلُ التَّوراةَ بُورَتِها الرُّوحِيَّةَ الدَّائمةَ في الهيكلِ (المعبدِ)، وفي قَصرِ أورشليمِ المَلَكِي، بعدَ قُرُونٍ من الكفاحِ والتَّجوُّلِ. وكما يروي سفر صموئيل، أنهى مسح (الدَّهنُ بالزيتِ المُقدَّسِ) داودَ بنَ يَسَى، كَمَلَكَ على كُلِّ قبائلِ إسرائيل، العمليَّةَ التي بدأتُ بوعدِ الله الأصليِّ لإبراهيمَ قبلَ عدَّةِ قُرُونٍ. والآن؛ انتهتِ الفوضى العنيفةُ لفترةِ القُضاةِ؛ لتفسحَ المجالَ الذي يُمكنُ فيه لوعودِ الله أنْ تتحقَّقَ بشكلٍ آمنٍ تحتِ حُكْمِ ملكٍ مُستقيمٍ. وعلى الرَّغمِ من أنَّ الاختيارَ الأوَّلَ لعرشِ إسرائيلِ كانَ شاولَ من قبيلةِ بنيامين، الشَّخصَ الوسيمَ الذي أُوتِيَ بَسْطَةً في الجِسمِ، إلاَّ أنَّ خليفته داودَ هو الذي أصبحَ الشَّخصيَّةَ المركزيَّةَ في تاريخِ إسرائيلِ المُبَكَّرِ. كانتِ القُصصُ والأغاني التي تتحدَّثُ عن ذلكِ الملكِ الأسطوريِّ داودَ لا تُعدُّ، ولا تُحصَى. إنَّها تحكي عن قُتله لجالوتِ العظيمِ بحجارةٍ مقلَّعةٍ؛ وعن قبوله في البلاطِ المَلَكِي لمهارتهِ كعازفِ قيثارةٍ؛ وعن مُغامراته ككثيرٍ ومُحاربٍ يبحثُ عن غنائمٍ؛ وعن ملاحظتهِ الشَّهوانيةِ لـ 'بَشِشَبَعٍ'؛ وفتحهِ لأورشليمِ (القُدسِ)، وسيطرتهِ على إمبراطوريةٍ واسعةٍ وراءَها. أمَّا ابنه سُلَيْمانُ؛ فيُذكرُ -بدوره- كأكثرِ المُلوِّكِ حُكْمَةً، وأعظمهمُ بناءً. تُخبِّرنا قُصصٌ كثيرةٌ عن أحكامهِ الرَّائعةِ، وثروتهِ مُستحيلةِ التَّصوُّرِ، وعن بنائه للهيكلِ (المعبدِ) العظيمِ في أورشليمِ (القُدسِ).

على مدى قُرُونٍ مُتعدِّدةٍ، نَظَرَ قُرَاءُ التَّوراةِ -في جميعِ أنحاءِ العالمِ- للوراءِ إلى عصرِ داودَ وسُلَيْمانَ كعصرٍ ذهبيٍّ في تاريخِ إسرائيلِ. حتَّى فترةٍ قريبةٍ؛ كانَ العديدُ من العُلَماءِ يتقبَّلونَ فكرةَ أنَّ الحُكْمَ المَلَكِيَّ المُتَّحدَ كانَ الفترةَ التَّوراةَ الأولى التي يُمكنُ أنْ تكونَ موثوقةً تاريخيَّةً فعلاً. فخلافاً للذِّكرياتِ الخافتةِ لرحلاتِ الآباءِ، أو الحُرُوجِ الجماعيِّ الإعجازيِّ من

مصر، أو الرؤى الدموية لسفري يشوع والقضاة، كانت قصة داود قصة واقعية جداً لناورة سياسية ومؤامرة سلالية. وعلى الرغم من أن العديد من تفاصيل مآثر داود المبكرة تُعدُّ إسهاباً أسطورياً جداً، إلا أن العلماء اعتقدوا لمدة طويلة أن اعتلاء السلطنة يتطابق - بنحو جيد - مع وقائع المكتشفات الأثرية. التامت مستوطنات الإسرائيليين، التي كانت في بدايتها متناثرة في قرى المرتفعات شيئاً فشيئاً؛ لتصبح لتأخذ شكلاً تنظيمياً أكثر مركزية. وقد وُقر التهديد، الذي فرض على الإسرائيليين من قِبَل مُدن الساحل الفلسطينية، وُقر الأزمة التي عجلت بظهور الحُكم الملكي الإسرائيلي. في الحقيقة؛ ميز علماء الآثار مستويات واضحة من دمار المُدن الفلسطينية والكنعانية، التي اعتقدوا أنها رَسَمَت مسيرة فتوحات داود واسعة النطاق. كما أن البوابات الرائعة للمُدن، والقصور التي اكتشفت في عدة مواقع هامة في إسرائيل تُنظر إليها كأدلة وشواهد على النشاط العمراني لسليمان.

ولكن؛ كثيراً من الافتراضات الأثرية التي كانت تُعزَّزُ في القديم القاعدة التاريخية لقصص داود وسليمان، تَرَصَّتْ مُؤخراً للتشكيك. لقد تَعَرَّضَ المدى الحقيقي لتأسيح الإمبراطورية الداودية لنقاش حاد جداً. فقد أخفقت الحفريات في أورشليم (القدس) في الحصول على أيِّ شاهد يدلُّ على وجود مدينة كبيرة في عهد داود وسليمان. والنُصب الأثرية التي نُسبت يوماً إلى سليمان، أصبحت - اليوم - تُربط - بنحو معقول أكثر - بملوك آخرين. ولذلك؛ فإن إعادة النظر في تلك الأدلة سوف يكون لها نتائج مهمة جداً. ذلك أنه إذا لم يكن هناك آباء، ولا خُرُوج، ولا غزو لکنعان، ولا حُكم ملكي متحد ناجح تحت قيادة داود وسليمان، فهل يُمكننا أن نُثبت - عندئذ - أن إسرائيل التوراتية المبكرة كما جاء وصفها في أسفار موسى الخمسة، وأسفار يشوع والقضاء وصموئيل، كان لها وجود من الأصل؟.

### سُلالة مَلَكية لإسرائيل:

تبدأ الملحمة التوراتية بتحويل إسرائيل من فترة القضاة إلى عهد الحُكم الملكي بأزمة عسكرية عظيمة. كما يبيِّن سفر صموئيل الأول 4-5، دَحَرَت الجيوش الفلسطينية المتجمعة قُوَّات القبائل الإسرائيلية في المعركة، وَحَمَلَتْ معها تابوت العهد المُقدَّسة كغنيمة حرب، لكنَّ الإسرائيليين تحت قيادة نبيهم صموئيل، الذي كان كاهناً في ملجأ في "شيلوح" (حدَّد مكانها

في نصف الطريق بينَ أُورُشليم (القُدُس) وشكيم (نابلس))، استعادوا - فيما بعد - تابوت العهد، والذي أُعيد، وتمَّ نصبه في قرية كريات يعاريم Kiriya Yearim غرب أُورُشليم (القُدُس). لكنَّ أَيَّام القُضَاة كانت قد وُلت بشكُل واضح. تطلَّبت التهديدات التي كان يُواجهها شعب إسرائيل اليوم زعيماً يصرف كُلَّ وقته لقيادته. اجتمع شُيوخ إسرائيل وبيت صموئيل في رماح، شمال أُورُشليم، وطلبوا من صموئيل أن يُعيِّن لهم ملكاً على إسرائيل، مثل كُلِّ الأمم. وعلى الرَّغم من أنَّ صموئيل حذَّره من أخطار الملكية في إحدى أكثر الفقرات المُعادية للملكية بلاغة في الكتاب المُقدَّس العبري (صموئيل الأول: 8 / 10 - 18)، إلَّا أنَّ الله أمره أن يستجيب لطلب الشعب. وأوحى الله اختياريَّه إلى نبيِّ صموئيل: سيكون شاول بن كيش من قبيلة بنيامين أوَّل ملك لإسرائيل. كان شاول رجلاً شاباً ذا بسطةٍ في الجسم، ومُحارباً شجاعاً، ولكنَّ؛ كان شخصاً أدَّت شكوكه الداخليَّة وانتهاكاته السَّاذجة لقوانين تقديم القرابين وغنائم الحرب والأحكام الإلهية الأخرى (صموئيل الأول: 5 / 10 - 26) إلى رَفْضه النهائي، وانتحاره المأساوي في جبل "جلِّيو" عندما دُحر الإسرائيليُّون على يد الفلسطينيين.

أثناء ما كان شاول مايزال يحكم كملكٍ على إسرائيل، كان خليفته ووارث عرشه قد تمَّ اختياره دون أن يشعر. أمر الله صموئيل أن يذهب إلى عائلة يسَّى من بيت لحم (لأنَّه قد رَأَيْتُ لي في بَيْتِه ملكاً) (صموئيل الأول: 16 / 1). كان أصغر أولئك الأبناء الرَّاعي الأشقر الشَّعر الوسيم الذي يُسمَّى داود هو الذي سيأتي بالحللص لشعب إسرائيل. جاء البُرهان الأوَّل الرَّائع من مهارة داود العالية في ساحة المعركة. فقد تجمَّع الفلسطينيون ثانية لشنِّ حرب ضدَّ إسرائيل، وتواجه الجيشان في وادي البُطم في شغيلة. كان سلاح الفلسطينيين السُّريِّ هو المُحارب العملاق جالوت الذي هزَّأ بإله إسرائيل، وتحدى أيَّ إسرائيليٍّ مُحارب مُنازَلته. فاستولى رُعب كبير على شاول وجنوده، لكنَّ داود الشابَّ الذي كان أبوه قد أرسله ليُوصل الزاد لإخوته الثلاثة الأكبر سنّاً منه، الذين يخدمون في جيش شاول، وافق على التحديِّ بكلِّ جُرأة، وصاح في جالوت: "أنت تأتي إليَّ بسيفٍ وبرُمحٍ وبترسٍ. وأنا آتي إليك باسم ربِّ الجنود إله صُفوف إسرائيل الذين غيرتهم". (صموئيل الأول: 17 / 45)، وأخذ داود حجارةً صغيرةً من جُبة الرَّاعي الخاصَّة به، وكذَّف جبهة جالوت بهدف قاتل، أودى بحياته فوراً.

وانهزم الفلسطينيون. وصادق داود، بطل إسرائيل الجديد، جوناثان بن شاول، وتزوج مايكل بنت الملك. منح الشعب داود لقباً أعظم أبطال إسرائيل - أعظم حتى من الملك. - وأدت هتافات الحماسية للمعجبين به: 'صَرَبَ شَاوُلُ الْوَفَهُ وَدَاوُدُ رِيَوَاتَهُ' (صموئيل الأول: 18/7)، إلى غيرة الملك شاول منه. وأصبحت مسألة وقت فقط، قبل أن يُنافس داود شاول على الزعامة، ويُطالب بعرش كلِّ إسرائيل.

هَرَبَ دَاوُدُ مِنْ غَضَبِ شَاوُلِ الَّذِي أَصْبَحَ يُهَدِّدُهُ بِالْقَتْلِ؛ وَتَحَوَّلَ إِلَى زَعِيمِ فِرْقَةٍ مِنَ الْهَارِيِّينَ وَالْجَثُودِ الْبَاحِثِينَ عَنِ الْغَنَائِمِ، وَتَجَمَّعَ حَوْلَهُ كُلُّ النَّاسِ الْبُؤْسَاءِ، أَوْ الَّذِينَ يَعْاثُونَ مِنْ دُيُونٍ كَبِيرَةٍ. تَجَوَّلَ دَاوُدُ وَرَجَالُهُ فِي تَلَالٍ شَفِيلَةٍ فِي صَحْرَاءِ يَهُوذَا، وَفِي أَطْرَافِ تَلَالِهَا الْجَنُوبِيَّةِ؛ أَيْ كُلِّ الْمَنَاطِقِ الَّتِي كَانَتْ بَعِيدَةً عَنِ مَرَاكِزِ قُوَّةِ مَمْلَكَةِ شَاوُلِ إِلَى الشَّمَالِ مِنْ أُورُشَلِيمَ (الْقُدْسِ). قَتَلَ أَبْنَاءَ شَاوُلِ بِنَحْوِ مَآسَاوِي، فِي مَعْرَكَةٍ مَعَ الْفَلَسْطِينِيِّينَ فِي مَكَانٍ بَعِيدٍ إِلَى الشَّمَالِ فِي جَبَلِ جَلْبُوعَ، وَأَخَذَ شَاوُلُ حَيَاتِهِ الْخَاصَّةَ. تَقَدَّمَ دَاوُدُ بِسُرْعَةٍ نَحْوَ مَدِينَةِ حَبْرُونَ الْيَهُودَوِيَّةِ الْقَدِيمَةِ؛ حَيْثُ أَعْلَنَهُ شَعْبُ يَهُوذَا مَلِكاً عَلَيْهِمْ. كَانَتْ هَذِهِ بَدَايَةِ الْوَالَايَةِ الْعَظِيمَةِ لِلْأُسْرَةِ الدَّآوُدِيَّةِ، وَبَدَايَةِ الْحُكْمِ الْمَلَكِيِّ الْمُتَّحِدِ الْمَجِيدِ.

عِنْدَمَا هَرَمَ دَاوُدُ وَرَجَالُهُ مَا تَبَقِيَ مِنْ جِيُوبٍ مُعَارِضِيهِ مِنْ مُؤَيِّدِي شَاوُلِ، قَدَّمَ وَفُودٌ وَمُمَثِّلُو جَمِيعِ الْقِبَايِلِ إِلَى حَبْرُونَ (الْخَلِيلِ) لِإِعْلَانِ دَاوُدِ مَلِكاً عَلَى كُلِّ إِسْرَائِيلِ حَسَبِ الْأُصُولِ. بَعْدَ أَنْ حَكَّمَ سَبْعَ سَنَوَاتٍ فِي الْخَلِيلِ؛ تَحَرَّكَ دَاوُدُ شِمَالاً لِفَتْحِ مَعْقَلِ أُورُشَلِيمِ الْيُوسِي. الَّتِي لَمْ يَدَّعِيهَا. حَتَّى ذَلِكَ الْحِينِ. أَيْ أَحَدَ مِنَ الْقِبَايِلِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ. يَجْعَلُهَا عَاصِمَتَهُ. وَأَمْرٌ بِجَلْبِ تَابُوتِ الْعَهْدِ مِنْ قَرْيَةِ كُونِ كِرِيَاثِ جِيَارِيمِ Kiriath jearim.

وعندئذ؛ تلقى داودُ الوعدَ غير المشروط والمدهش من الله، الذي قال فيه:

8] وَالآنَ؛ فَهَكَذَا تَقُولُ لِعَبْدِي دَاوُدَ: هَكَذَا قَالَ رَبُّ الْجَثُودِ: أَنَا أَخَذْتُكَ مِنَ الْمَرِيضِ مِنْ وَرَاءِ الْغَتَمِ؛ لِتَكُونَ رَئِيساً عَلَى شَعْبِي إِسْرَائِيلَ. 9 وَكُنْتَ مَعَكَ حَيْثُمَا تَوَجَّهْتَ، وَكَرِهْتُ جَمِيعَ أَعْدَائِكَ مِنْ أَمَامِكَ، وَعَمَلْتُ لَكَ اسْماً عَظِيماً كَاسْمِ الْعُظَمَاءِ الَّذِينَ فِي الْأَرْضِ. 10 وَعَيَّنْتُ مَكَاناً لِشَعْبِي إِسْرَائِيلَ، وَغَرَسْتُهُ، فَسَكَنَ فِي مَكَانِهِ، وَلَا يَضْطَرِبُ بَعْدُ، وَلَا يَعُودُ بَنُو

الإثم يَدُلُّوهُ كَمَا فِي الْأَوَّلِ 11 وَمُنْذُ يَوْمِ أَقَمْتُ فِيهِ قُضَاةَ عَسْكَي سَعْبِي إِسْرَائِيلَ . وَقَدْ أَرَحْتُكَ مِنْ جَمِيعِ أَعْدَائِكَ . وَالرَّبُّ يُخْبِرُكَ أَنَّ الرَّبَّ يَصْنَعُ لَكَ بَيْتًا . 12 مَتَى كَمَلْتُ أَيَّامَكَ ، وَاضْطَجَعْتَ مَعَ آبَائِكَ ، أَقِيمُ بَعْدَكَ نَسْلَكَ ، الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ أَحْشَائِكَ ، وَأَثْبِتُ مَمْلَكَتَهُ . 13 هُوَ بَيْتِي بَيْتًا لِاسْمِي ، وَأَنَا أَثْبِتُ كُرْسِيَّ مَمْلَكَتِهِ إِلَى الْأَبَدِ . 14 أَنَا أَكُونُ لَكَ أَبَا ، وَهُوَ يَكُونُ لِي ابْنًا . إِنْ تَعَوَّجَ أَوْدَبُهُ بِقَضِيبِ النَّاسِ وَيَضْرِبَاتِ بَنِي آدَمَ . 15 وَلَكِنْ رَحِمْتِي لَا تَنْزِعُ مِنْهُ كَمَا نَزَعْتَهَا مِنْ شَاوَلِ الَّذِي أَرْزَلْتَهُ مِنْ أَمَامِكَ . 16 وَيَأْمَنُ بَيْتُكَ وَمَمْلَكَتُكَ إِلَى الْأَبَدِ أَمَامَكَ . كُرْسِيُّكَ يَكُونُ ثَابِتًا إِلَى الْأَبَدِ ] . (صموئيل الثاني : 7 / 8-16) .

ثم بدأ داود حروبه الشاملة للتحرير والتوسع . في سلسلة من المعارك السريعة الكاسحة ؛ حطم داود قوة الفلسطينيين ، وهزم العمونيين ، والموآبيين ، والأدوميين ، في عبر الأردن ، وتوج حملاته بإخضاع الآراميين بعيداً إلى الشمال . عند عودته منتصراً إلى أورشليم ، أصبح داود . الآن . يحكم على أرض واسعة أوسع بكثير حتى من الموارث القبائلية لإسرائيل ، ولكن داود لم يجد السلام حتى في هذا الوقت من المجد . فقد أدت الصراعات بين أفراد الأسرة المالكة . بما في ذلك انتفاضة ابنه أبشالوم . إلى قلقه العظيم بشأن استمرار سلالة في الحكم . قبل موت داود مباشرة ؛ مسح الكاهن صادق سليمان ؛ لكي يكون الملك القادم لإسرائيل .

عزز سليمان . الذي أعطاه الله (حكمةً وقهماً كثيراً جداً) . السلالة الداودية ، ونظم إمبراطوريته ، التي امتدت . الآن . من الفرات إلى أرض الفلسطينيين ، وإلى حدود مصر (ملوك الأول / 4 / 24) . جاءت ثروته وراثته الهائل من نظام ضريبي متطور ، وأعمال إجبارية ، كانت تُطلب من كل قبيلة من قبائل إسرائيل ، ومن البعثات التجارية التي كان يُرسلها إلى البلدان الأجنبية في الجنوب . اعترافاً منها بشهرته وحكمته ؛ قامت ملكة سبأ الأسطورية بزيارته في أورشليم ؛ جالبة معها قافلة من الهدايا الباهرة .

كانت أعظم إنجازات سليمان نشاطاته العمرانية . فقد بنى في أورشليم (القدس) هيكلًا (معبدًا) رائعاً مزيناً ، بشكلٍ مُرطّبٍ جداً ، ليَهوّه ، افتتحه في بهاء عظيم ، وبنى قصرًا جميلًا في مكانٍ قريبٍ منه .



وحصنَّ أُورشليمَ ، بالإضافة إلى تخصيصه لعدَّةِ مُدنٍ إقليميةٍ مُهمَّةٍ ؛ مثل حاصُورٍ ومجدوً وجازرٍ ، وأنشأ إسطبلاتٍ ، يضمُّ كلُّ واحدٍ منها أربعين ألفاً من أكشاك الخيول لعرباته الألف والأربع مئة ، ولقرسانه الذين بلغَ عددهم اثنا عشر ألفاً .

عَقَدَ مُعاهدةً مع حيرام ، ملك صُور ، الذي بَعَثَ بأرز لُبَّانٍ إليه لبناية معبد في أُورشليم (القدّس) ، وأصبحَ شريكَ سُلَيْمَانَ في مُغامرات التجارة في ما وراء البحار . يُلخِّصُ الكتابُ المقدّسُ العبريُّ شهرةَ سُلَيْمَانَ بالعبارات التالية : [ قَعَاظِمَ الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ عَكَسَى كُلُّ مَلُوكِ الْأَرْضِ فِي الْغَنَى وَالْحِكْمَةِ . وَكَانَتْ كُلُّ الْأَرْضِ مُلْتَمَسَةً وَجَهَ سُلَيْمَانَ لِتَسْمَعَ حِكْمَتَهُ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قَلْبِهِ . ] [سفر الملوك الأول: 10 / 23 - 24] .

هل داود وسُلَيْمَانَ وُجِدَا ؟

قد يبدو هذا السُّؤال - الذي طُرِحَ بهذه الدرّجة من الصِّراحة - استفزازياً بنحوٍ مُتعمَّد . إنّ داود وسُلَيْمَانَ يُمَثِّلانَ رمزَيْنِ دينيّينِ أساسيّينِ لكلّيّ اليهوديّة والمسيحيّة بنحوٍ جعلَ التأكيدات الأخيرة حول النُّقود الجذريّة للكتاب المقدّس التي تعدُّ أنّ تاريخيّة شخصيّة الملك داود ليست أكثر من تاريخيّة شخصيّة الملك آرثر King Arthur ، جعلها تُستقبل لدى العديد من الدوائر الدنيويّة والعلميّة بالفضب والاستنكار . لقد حاول المؤرِّخون التوراتيون أمثال "توماس طومسون" Thomas Thompson و"تيلز بيتر لمخي" Niels Peter Lemche من جامعة كوبنهاغن وفيليب دافيس Philip Davies من جامعة شيفيلد Sheffield ، والذين يُوصمون من قبل ذامئهم ، بأنهم "توراتيون مُتعدلون" ، أن يُثبتوا أنّ داود وسُلَيْمَانَ ، والحُكْمَ الملكيّ التُّنحد لإسرائيل ، وفي الحقيقة الوصف التاريخي لإسرائيل في الكتاب المقدّس العبري برُمته ، ليس أكثر من تركيبة أيديولوجيّة ماهرة ، أو مُتقنة أنتجتها دوائر كهنوتيّة في أُورشليم (القدّس) في فترة ما بعد النّفْي ، أو حتّى في الفترة الهيلينيّة .

رغم ذلك ، ومن زاوية أدبيّة وأثاريّة محضّة ؛ يُوجد لدى المُتعدلين بعض النُّقاط لصالحهم . إنّ قراءة بتدبير لوصف الكتاب المقدّس العبري لأيام سُلَيْمَانَ تُظهر - بوضوح - أنّ هذا الوصف تصوير لماضي يتمّ تحويله لماضي مثاليّ استثنائيّ ، وعهد ذهبيّ مجيد . الروايات عن

ثروة سُلَيْمَانَ الخيالية] وَجَعَلَ المَلِكُ الفِضَّةَ في أُورَشَلِيمَ مِثْلَ الحِجَارَةِ، وَجَعَلَ الأَرزَ مِثْلَ الجُمُيزِ الذي في السَّهْلِ في الكَثْرَةِ. [طبقاً لسفر المُلُوكِ الأوَّل: 10 / 27] وعن حريمه الأَسْطُورِي [وكانت لَهُ سَبْعُ مِئَةٍ مِنَ النِّسَاءِ السَّيِّدَاتِ، وَكثَلاتُ مِئَةٍ مِنَ السَّرَّارِي] [طبقاً لسفر المُلُوكِ الأوَّل: 11 / 3]، هي تفاصيل أكثر مبالغة من أن تكون حقيقتية فعلاً. علاوة على ذلك، رغم كُلِّ ثروتهم وقُوَّتهم المَرْوِيَّة (في الكتاب المقدَّس)، لا يُوجد لداود ولا لِسُلَيْمَانَ أيُّ ذِكرٍ في أيِّ نصٍّ تاريخيٍّ واحدٍ مصريٍّ، أو ما بيِّن النَّهْرَيْنِ. كما أن الدَّلِيلَ الأَثاريَّ على مشاريع البناء المشهورة لِسُلَيْمَانَ في أُورَشَلِيمَ (القُدْس) مفقود تماماً. لقد أخفقت كُلُّ التَّحْقِيقَاتِ الأَثاريَّةِ التي أُجريت، في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، حول جبل الهيكل في أُورَشَلِيمَ (القُدْس) في التَّعَرُّفِ حتَّى على مُجرَّد أثر بسيط لهيكل سُلَيْمَانَ الأَسْطُورِي، أو مجمع قَصْرِهِ. وفي حين تمَّ رِبطُ بعض المُستويات والأبنية في مواقع في مناطق أُخرى من البلاد بعهد الحُكْمِ الملكيِّ المُتَّحِدِ، فإنَّ تحديد تاريخها الواقعي - كما سنرى - أبعد ما يكون عن الوُضُوحِ.

من النَّاحِيَةِ الأُخْرَى؛ تمَّ إبراز حُجَجٍ قويَّةٍ في مُواجهَةِ بعضِ اعتراضات المُعتدلين التَّوراتِيِّينَ. فقد جادل العديد من العُلَماءِ قائلين بأنَّ غياب أيِّ آثار تعود للفترة السِّلْميَّانيَّةِ في أُورَشَلِيمَ (القُدْس)، إنَّما سَبَبُهُ استئصال تلك الأثار بالكامل بسبب الإنشاءات الهيروديَّةِ Herodian الهائلة على جبل الهيكل في الفترة الرومانيَّةِ المُبَكِّرةِ. كما أنَّ غِيابَ الشَّواهدِ الخارجِيةِ في النَّقُوشِ القديمةِ على حُكْمِ داود وسُلَيْمَانَ أمرٌ مفهومٌ جدًّا؛ لأنَّ الفترة الزَّمنيَّةِ التي يُعتقد أنَّ داود وسُلَيْمَانَ حَكَمَا فيها (930. 1005 ق. م) كانت فترة انحطاط للإمبراطوريَّاتِ العظيمةِ في مصر وبلاد ما بيِّن النَّهْرَيْنِ. فليس هناك ما يُفاجئ في عدم وُجُودِ إشاراتٍ إمَّا على حُكْمِ داود أو على حُكْمِ سُلَيْمَانَ؛ سواء في النُّصُوصِ الضَّخِيلةِ المصريَّةِ المُعاصرةِ لتلك الفترة، أو النُّصُوصِ ما بيِّن النَّهْرِيَّةِ.

إلَّا أنَّه في صيف عام 1993، في الموقع التَّوراتي لتلِّ دان شمال إسرائيل، تمَّ اكتشاف أجزاء لمصنوعة يدويَّةٍ مَكْسُرةٍ، غيَّرت - إلى الأبد - طبيعة النَّقاشِ. كانت القطعة تُعْشِ نَبْتِ داود، جزءاً من نَصْبٍ بازلتيٍّ أَسود، وَجِدَّ مَكْسُوراً، واستعمل - لاحقاً - في طبقة ثانية كحجارةِ بناية. كُتِبَ النَّقْشُ باللُّغَةِ الأَراميَّةِ، لُغَةُ مَمالِكِ سُورِيَا الأَراميَّةِ آنذاك، ويسوي

- بالتفاصيل - قصة غزو واحتلال إسرائيل من قبل ملك آرامي لم يذكر اسمه على الأجزاء التي اكتشفت حتى الآن . لكن ؛ بالكاد يكون هناك أي شك في أن المقصود بهذا الغزو هو قصة هجُوم "حزائيل" ، ملك دمشق ، على المملكة الشمالية لإسرائيل حوالي سنة 835 ق. م . . . .  
 حَدَّثَتْ هذه الحرب في العصر الذي كانت فيه إسرائيل ويهوذا مَمْلَكَتَيْنِ مُتَفَصِّلَتَيْنِ ، وكانت نتيجتها هزيمة مرَّةً لكلتَيْهما .

إنَّ أهمَّ جزءٍ في هذا النَّقشِ هو قول "حزائيل" مُمتخراً بوصف أعدائه :

[ قتلْتُ "يورام" Jehoram ابن [ آحاب ] ملك إسرائيل ، و [ أنا ] قتلْتُ [ يوآحاز ] ابن [ يورام الملك ] من بيت داود . وأنا صيرتُ [ بلداتهم إلى الحراب ، وحوَلْتُ ] أرضهم إلى [ دمار ] .

إنَّ هذا دليل قويٌّ عن شهرة الأسرة الداوودية المالكة بعد أقلَّ من مئة سنة بعد عهد حُكم سُلَيْمَانَ بن داود . إنَّ حقيقة أنَّ يهوذا (أو ربَّما عاصمتها أورشليم) يتمُّ الإحالة إليها بذكر الأسرة الحاكمة عليها فقط هو دليل واضح أنَّ شهرة داود لم تكن اختراعاً أدبيّاً تمَّ ابتداعه بعد فترة زمنية طويلة . يُضاف إلى ذلك ، أنَّ العالم الفرنسي أندرية لومير Lemaire اقترح - مؤخراً - أنَّ مثل هذه الإحالة لبيت داود يُمكن أن نجدَها على النَّقش المشهور لميشا Mesha ملك مُواب في القرن التاسع ق. م ، الذي وُجد في القرن التاسع عشر شرق البحر الميت . وعليه ؛ فإنَّ بيت داود كان معروفاً في كافَّة أنحاء المنطقة ؛ وهذا يُوثِّق - بوضوح - وصَفَ الكتاب المقدَّس العبري لشخصية اسمها داود أصبح مؤسس سلالة ملوك الدولة اليهودية في أورشليم (القدس) .

إذا فالسؤال الذي نواجهه لم يعد مجرد وجود داود وسُلَيْمَانَ . بل الذي يجب علينا أن نراه أنَّه هل كان وصَفَ الكتاب المقدَّس العبري الشامل لانتصارات داود العسكرية العظيمة ولمشايخ سُلَيْمَانَ العمرانية العظيمة متنسفاً . فعلاً - مع الأدلة الأثرية ١٩

نظرة جديدة لمملكة داود :

سَبَقَ ورأينا أنَّ المرحلة الأولى للاستيطان الإسرائيلي في مرتفعات كَنْعَانَ كانت ظاهرة إقليمية تدرجية ، بدأت فيها مجموعات رعوية محلية بالاستقرار في المرتفعات المأهولة بالسكَّان بشكل مُتتار ، حتَّى شكَّلت مُجتمعات قروية ذات اكتفاء ذاتي . ومع الزمن ، ومع نُموِّ

سُكَّانَ المُرْتَفَعَاتِ، تَمَّ تَأْسِيسُ قَرْيٍ جَدِيدَةٍ فِي المِنَاطِقِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَأْهُولَةً فِي السَّابِقِ، مُنْتَقَلَةً مِنْ أَرَاضِي السُّهُولِ الشَّرْقِيَّةِ وَالوُدْيَانِ الدَّاخِلِيَّةِ نَحْوِ الكُؤَاتِ الصَّخْرِيَّةِ الغَرِيْبَةِ وَالوَعْرَةِ لِلْمُرْتَفَعَاتِ. فِي هَذِهِ المَرِحَلَةِ؛ بَدَأَتْ زِرَاعَةُ الزَّيْتُونِ وَالعِنَبِ، خُصُوصاً فِي المُرْتَفَعَاتِ الشَّمَالِيَّةِ. وَمَعَ التَّنَوُّعِ المُنْتَمِيِّ بَيْنَ المَوْقِعِ وَالْمَحَاصِيلِ الَّتِي تُنتِجُهَا القَرْيُ المُخْتَلِفَةُ فِي كَافَّةِ أُنْحَاءِ رِيفِ التَّلَالِ وَالهِضَابِ، لَمْ يَعدْ فِي الوُسْعِ الحِظَافِ عَلَى النِّظَامِ السَّابِقِ لِلإِكْتِفَاءِ الذَّاتِيِّ، فَقَدْ أَصْبَحَ القَرْوِيُّونَ الَّذِينَ- رَكَزُوا عَلَى البَسَاتِينِ وَالكَرُومِ- بِمَسَاسِ الحَاجَةِ لِمُبَادَلَةِ الفَائِضِ مِنَ الحَبْرِ وَزَيْتِ الزَّيْتُونِ بِسَلْعٍ أُسَاسِيَّةٍ مِثْلِ الحُبُوبِ. وَمَعَ هَذَا التَّخْصُّصِ بَرَزَتْ طَبَقَاتُ المُدِيرِينَ، وَالتَّجَّارِ، وَالجُنُودِ المُحْتَرَفِينَ، وَفِي النِّهَايَةِ؛ المُلُوكُ.

لَقَدْ تَمَّ اكْتِشَافُ نَفْسِ الأَمَاطِ مِنَ الإِسْتِيطَانِ فِي المُرْتَفَعَاتِ وَالانْقِسَامِ الطَّبَقِيِّ الإِجْتِمَاعِيِّ التَّدرِجِيِّ مِنْ قَبْلِ عُلَمَاءِ الأَثَارِ الَّذِينَ يَعمَلُونَ فِي الأُرْدُنِّ، فِي الأَرَاضِي القَدِيمَةِ لَعْمُونِ وَمُؤَابِ. وَيَبْدُو أَنَّ عَمَلِيَّةَ مُوحَّدَةٍ بِشَكْلِ كَبِيرٍ مِنَ التَّحَوُّلِ الإِجْتِمَاعِيِّ قَدْ حَدَثَتْ فِي العَدِيدِ مِنَ مَنَاطِقِ المُرْتَفَعَاتِ فِي المَشْرِقِ، عِنْدَمَا تَخَلَّصَ سُكَّانُهَا مِنْ سِيطَرَةِ إِمْبِرَاطُورِيَّاتِ العَصْرِ البَرْوَنزِيِّ العَظِيمَةِ، أَوْ مُلُوكِ دُولِ المُدُنِ السَّهْلِيَّةِ.

فِي الوَقْتِ الَّذِي كَانَ العَالَمُ كُلُّهُ يَعودُ إِلَى الحَيَاةِ مِنْ جَدِيدٍ فِي العَصْرِ الحَدِيدِيِّ كَانَتْ تَظْهَرُ مِمَّا لِكَ جَدِيدَةٌ مُتَعَبَّةٌ مِنْ جِيرَانِهَا، وَكَانَتْ- حَسَبِ الظَّاهِرِ- تُمَيِّزُ نَفْسَهَا عَنِ بَعْضِهَا البَعْضَ عِبْرَ عَادَاتِ عَرَفِيَّةٍ مُتَمَيِّزَةٍ وَعِبَادَةِ آلِهَةٍ وَطَنِيَّةٍ، لَكِنْ؛ كَانَتْ مَاتَزَالُ عَمَلِيَّةً تَخْصُصُهُمْ وَتُنظِمُهُمْ وَتَمَيِّزُهُمْ هُوَيْتَهُمُ الجَمَاعِيَّةَ تِلْكَ بَعِيدَةً عَنِ تَشكِيلِ إِمْبِرَاطُورِيَّةٍ وَاسِعَةٍ. إِنَّ الفُتُوحَاتِ الوَاسِعَةَ مِنَ التَّمَطِّ الْمُنْسُوبِ لِداوُدِ نَحْتَاجِ لِمَقْدَارِ كَبِيرٍ جَدِداً مِنَ التَّنْظِيمِ وَالقُوَّةِ البَشَرِيَّةِ وَالسَّلَاحِ. لِذَا؛ بَدَأَ اِهْتِمَامُ عِلْمِيِّ بِالتَّرْكِيزِ عَلَى الشَّوَاهِدِ الأَثَارِيَّةِ لِلسُّكَّانِ، وَنِمَاجِ الإِسْتِيطَانِ، وَالْمَصَادِرِ الإِقْتِصَادِيَّةِ وَالتَّنْظِيمِيَّةِ فِي مَنطِقَةِ بَيْتِ داوُدِ فِي يَهُودَا، وَذَلِكَ لِرُؤْيَا مَا إِذَا كَانَ لِتَوْصِيفِ الكِتَابِ المُقَدَّسِ العِبْرِيِّ أَيُّ نَصِيبٍ مِنَ الحَقِيقَةِ التَّارِيخِيَّةِ. لَقَدْ قَدِّمَتْ الإِسْتِطْلَاعَاتُ الأَثَارِيَّةُ الأَخِيرَةُ فِي المُرْتَفَعَاتِ دَلِيلًا جَدِيدًا مُهِمًّا عَلَى الصِّفَةِ الفَرِيدَةِ لِيَهُودَا، الَّتِي تَشْغَلُ الجُزءَ الجَنُوبِيَّ مِنَ المُرْتَفَعَاتِ، مُمتَدَّةً- تَقْرِيباً- نَحْوَ الجَنُوبِ مِنْ أُورُشَلِيمِ (القُدْسِ)، وَنَحْوَ الحَوَافِ الشَّمَالِيَّةِ لِلنَّقَبِ. إِنَّهَا تُشَكِّلُ وَحِدَةً بَيْئَةً مُتَجَانِسَةً مِنَ التَّنْصَارِسِ الوَعْرَةِ، وَالإِتِّصَالَاتِ الصَّعْبَةِ وَمُنْسُوبِ الأَمْطَارِ الضَّمِيلِ وَالمُتَقَلِّبِ جَدًّا.

## الجدول 2 ملوك الحكم الملكي المتحد

المكتشفات الأثرية	شهادة الكتاب المقدس	التواريخ <sup>(*)</sup>	الملك
استمرار لنظام الاستيطان في المرتفعات في العصر الحديدي الأول	أول ملك، عينه النبي صموئيل	1005 - 1025	شاوول
لا دليل على فتوحات داود، ولا على وجود إمبراطوريته الواسعة. تستمر ثقافة الوديان الكنعانية دون انقطاع، مع استمرار نظام الاستيطان في المرتفعات في العصر الحديدي الأول.	يفتح أورشليم (القدس)، ويجعلها عاصمته؛ يؤسس إمبراطورية واسعة، تُغطّي أغلب أراضي أرض إسرائيل	970 - 1005	داود
لا توجد أي علامة أو دليل على بناء هندسي معماري تذكاري، أو على مدينة مهمة في أورشليم (القدس). لا توجد علائم أو دلائل على نشاط معماري مهم في مجدو و'حاصور' و'جازر'. شمالاً، تستمر الثقافة المادية الكنعانية.	يبنى الهيكل (المعبد) والقصير في أورشليم (القدس)، وينشط كذلك في: 'مجدو' و'حاصور' و'جازر'.	931 - 970	سليمان

وعلى العكس من المرتفعات الشماليّة ذات الوديان العريضة والطرق البرية الطبيعيّة نحو المناطق المجاورة؛ كانت يهوذا - دائماً - منطقة زراعيّة هامشيّة ومعزولة عن المناطق المجاورة، بواسطة حواجز (موانع) تضاريسيّة تُطوّقها من جميع الجوانب ماعدا الشمال.

يحدّ يهوذا من الشرق والجنوب المناطق القاحلة لصحراء يهوذا والنقب. وفي الغرب - باتجاه مرتفعات وتلال شفيلة الخصبية والمزدهرة والسهول الساحلية - تسقط الحافة المركزية بشكل فجائي. عندما يسافر شخص من حبرون (الخليل) باتجاه الغرب، فإنّه يُجبر على الهبوط إلى أكثر من ألف وثلاثمئة قدّم أسفل المنحدرات الصخرية الحادة في مسافة أكثر بقليل من ثلاثة أميال فقط. وإلى الشمال أكثر، غرب أورشليم (القدس) وبيت لحم يكون الانحدار أكثر اعتدالاً، ولكن عبوره أكثر صعوبية؛ لاشتماله على مجموعة من الحافات الطويلة الضيقة

(\*) طبقاً لكتاب 'غاليل Galil': (الجدول التاريخي لمؤك إسرائيل ويهوذا).

التي تفصلها عن بعضها البعض وديان عميقة . اليوم تتضمن الهضبة المركزية المُستوية من أُورشليم (القُدس) إلى بيت لحم وإلى حبرون (الخليل) ، شبكة حُطوط مُتصّلة من الطُّرُق والمناطق المزروعة على نطاق واسع ، ولكنه احتاج إلى ألفية من السّنوات من العمل المُركّز لإزالة التضاريس الصّخرية بنحو يكفي للسّماح بمثل هذه النّشاطات . كانت المنطقة في العصر البرونزي وفي بداية العصر الحديدي منطقة صخرية ومُغطاة بأحراش وغابات كثيفة ، مع أرض مفتوحة قليلة جداً متوقّرة للحقُول الزراعيّة . تمّ تأسيس مُجرّد بضع قرى دائمة هناك في زمن التّوطن الإسرائيلي ؛ حيث كانت بيثة يهودا مناسبة بنحو أفضل بكثير للمجموعات الرّعيّة .

واصل نظام الاستيطان في يهودا - في القرنين الثّاني عشر والحادي عشر ق .م - تطوُّره في القرن العاشر ؛ حيث ازداد عدد القرى وكبُر حجمها ، ولكن طبيعة النّظام لم تتغيّر بشكل كبير . في شمال يهودا ، تطوّرت البساتين ومزارع العنب الكثيرة نحو المُتحدرات الغربيّة للمُرتفعات ؛ أمّا في يهودا ؛ فإنها لم تفعل ذلك بسبب الطّبيعة المانعة للتّضاريس . بقدر ما يُمكن أن نرى على أساس الاستطلاعات الأثاريّة بقيت يهودا فارغة - نسيباً - من السكّان الدائمين ، معزولة تماماً وهامشيّة جداً حتّى الزّمن المُفترض لداود وسليمان ، وما بعد تاريخهما ، بدون مراكز حَضريّة رئيسيّة ، وبدون تدرُّج واضح من القرى الصّغيرة إلى القرى وإلى البلديات .

البحث عن أُورشليم:

لقد كانت صورة أُورشليم (القُدس) في عهد داود - وبنحو أكثر في عهد ابنه سليمان ، عبر القُرُون - موضوعاً لصياغة الأساطير والقصص الرومانسيّة . لقد صاغ الحُجاج ، والصليبيّون ، والحالمون من كلّ نوع ، قصصاً خرافيّة رائعة حول عظمة مدينة داود وهيكل سليمان .

ولذلك ؛ لم يكن مُصادفة - إذأ - أن نجد أن البحث عن بقايا هيكل سليمان كان من بين التّحدّيات الأولى التي أخذتها الدّراسات الأثاريّة التّوراتيّة على عاتقها في القرن التاسع عشر . لم يكن البحث سهلاً أبداً ، ولم يكن مُثمراً إلاّ بنحو نادر ، نظراً لطبيعة الموقع .

كانت أُورشليم (القُدس) - التي عاشت بشكل متواصل ، وازداد بناؤها إلى حد كبير - تقع في منطقة مُنخفضة إلى الشّرق من مساقط مياه مُرتفعات يهودا ، قرية جداً من حافة صحراء

يهودا. تقع المدينة القديمة في قلب الجزء التاريخي من أورشليم (القدس)، مُحاطة بالأسوار العثمانية. في حين يقع الحي المسيحي في شمال غرب المدينة القديمة، حول كنيسة القيامة المقدسة. ويقع الحي اليهودي في الجنوب الشرقي، مُطلًا على حائط المبكى وجبل الهيكل. ويُعطي الأخير الزاوية الجنوبية الشرقية للمدينة العثمانية. وتمتد مدينة داود إلى جنوب جبل الهيكل، خارج أسوار المدينة العثمانية، على مسافة طويلة ضيقة وحافة منخفضة نسبيًا للتلال القديم لمدينة أورشليم (القدس) العصر البرونزي والعصر الحديدي المبكر. ويفصلها واديان عن التلال المحيطة، يفصلها الوادي الشرقي منهما؛ أي وادي قدرون، عن قرية سيلوم. ويقع المصدر الأساسي لمياه أورشليم (القدس) الكتاب المقدس - ينبوع جيهون - في هذا الوادي.

لقد نُقبت مدينة أورشليم (القدس) مرة بعد مرة - مع التركيز في السبعينات والثمانينات من القرن الماضي على البحث عن آثار المدينة العائدة للعصر البرونزي والعصر الحديدي تحت إشراف 'يغال شيلوح' Yigal Shiloh، من الجامعة العبرية، في مدينة داود، اللب الحصري الأصلي لأورشليم. الأمر المتأجج والمدهش - كما أشار إليه عالم آثار جامعة تل أبيب ديفيد أوسيشكين David Ussishkin - أن العمل الميداني هناك وفي الأجزاء الأخرى من أورشليم الكتاب المقدس أخفقت في تزويد دليل هام على أن المدينة كانت أهلة بالسكان في القرن العاشر ق.م. . هناك فُقدان لأي بناء معماري تذكاري، وليس هذا فحسب، بل وكذلك لم تُوجد آثار حتى لأي قطع فخارية بسيطة. إن أنماط الآثار المميزة جدًا للقرن العاشر في المواقع الأخرى، نادرة الوجود في أورشليم (القدس). بعض العلماء جادلوا بأن لاحقًا أزلت نشاطات البناء المكثفة في أورشليم (القدس) كل آثار المدينة القديمة؛ إلا أن التفتيات في مدينة داود كشفت عن آثار هامة تعود للعصر البرونزي وللقرون المتأخرة من العصر الحديدي، ولكن؛ لا آثار تعود للقرن العاشر ق.م. . أكثر التقييمات تفاؤلاً لهذا الفُقدان لأي دليل عن آثار تعود للقرن العاشر هو أن أورشليم (القدس) لم تكن في تلك الفترة أكثر من مجرد قرية مُرتفعات نمطية صغيرة.

يتطابق هذا التقييم البسيط - بشكل جيد - مع نمط الاستيطان الضئيل لبقية يهوذا في نفس الفترة الزمنية، والذي كان يتألف من حوالي عشرين قرية صغيرة فقط، وبضعة آلاف من السكان، الكثير منهم عبارة عن رعاة مُنتقلين.

في الواقع؛ من المستبعد جداً أن تُصبح هذه المنطقة - المسكونة بشكل مُتناثر، من يهوذا، وقرية أورشليم (القُدس) الصغيرة - مركزاً لإمبراطورية عظيمة تمتد من البحر الأحمر في الجنوب إلى سوريا في الشمال. هل من الممكن حتى لأكثر الملوك شعبيّة وتأثيراً أن يكون قد تمكّن من تجهيز وتحريك الرّجال والأسلحة اللازمة لإنجاز مثل تلك الفتوحات الإقليمية الواسعة والمحافظة عليها؟ ليس هناك - بالتأكيد - أي إشارة آثارية للثروة، أو القوّة البشريّة، أو مستوى التنظيم الذي سيكون لازماً لدعم جيوش قويّة - حتى لفترات زمنيّة قصيرة - في الميدان. حتى لو كان السكّان القليلون نسبياً ليهوذا قادرين على القيام بهجمات سريعة وكاسحة على المناطق المجاورة، كيف كان من الممكن لهم أن يتمكّنوا من إدارة الإمبراطوريّة الأوسع والأكثر طُموحاً لسليمان بن داود؟؟.

كم كان اتّساع فتوحات داود؟

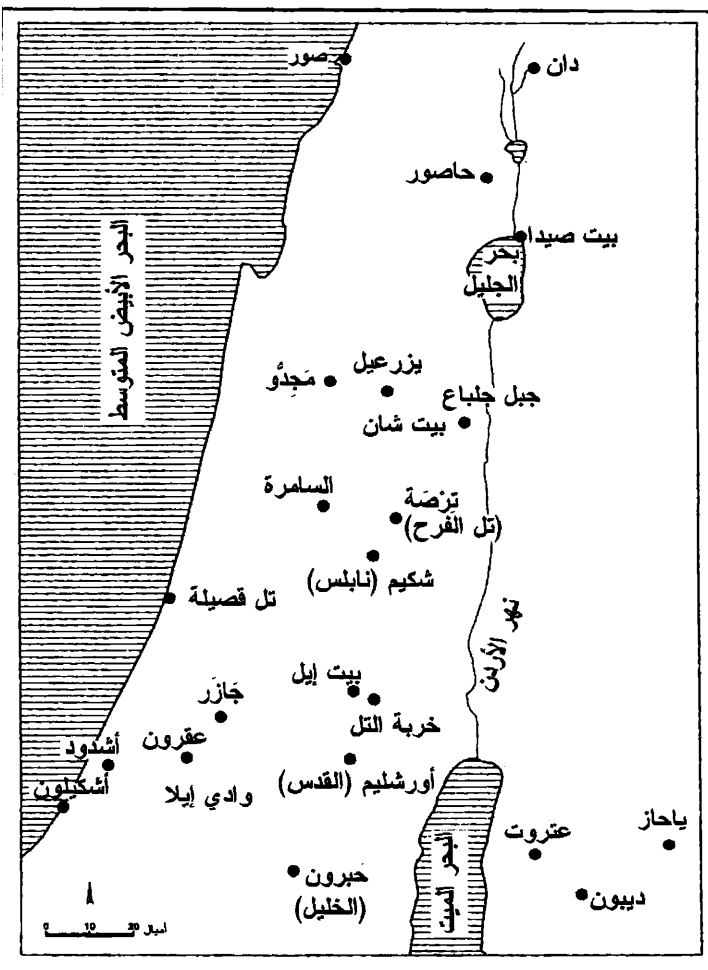
اعتقد علماء الآثار - لعُود من الزمن - بأنّ الدلائل التي تمّ اكتشافها خلال العديد من التّقيبات التي أُجريت خارج أورشليم (القُدس) دَعَمَت رواية الكتاب المقدّس العبري بشأن الحُكم الملكي المتّحد الواسع (انظر الشكّل رقم 16). كانت أبرز انتصارات داود، طبقاً للكتاب المقدّس، انتصاراته على المُدن الفلسطينيّة، التي تمّ تنقيب عدد منها على نطاق واسع. يعرض سفر صموئيل الأوّل تفصيلاً عظيماً للمواجهة بين الإسرائيليين والفلسطينيين: كيف استولت جيوش الفلسطينيين على تابوت العهد في معركة 'حجر المعونة'؛ وكيف تُوفي 'شاول' وابنه 'جوناثان' أثناء الحُرُوب مع الفلسطينيين؛ وبالطبع؛ كيف قضى داود الشاب على جالوت. في حين أنّ البعض من تفاصيل هذه القصص أسطوريّ جداً، إلّا أنّ بعض الأوصاف الجغرافيّة فيها دقيقة وصحيحة للغاية. والأكثر أهميّة؛ أنّ الانتشار التدريجي لفحاريّات الفلسطينيين، الإيجيّة الإلهام، ذات الزينة أو الزخرفة المميّزة، نحو التلال وبعيداً إلى أقصى الشمال نحو وادي يزرعيل، يُقدّم دليلاً واضحاً على التوسّع التدريجي لتأثير الفلسطينيين في كافّة أنحاء البلاد. وعندما اكتُشفت أدلّة آثارية على وجود دمار في المُدن السهليّة حوالي سنة 1000 ق.م، بدا ذلك مؤكّداً على المدى الذي وصلت إليه فتوحات داود.



أحد أفضل أمثلة هذا الخطّ من التّفكير حالة تلّ فصيلة Qasile ، وهو موقع صغير على الأطراف الشماليّة لتلّ أبيب الحديثة . قام عالم الآثار التّوراتي والمؤرّخ الإسرائيلي بنيامين مازّر Benjamin Mazar بتفسيه لأول مرّة في الأعوام 1948 - 1950 . اكتشف مازّر بلدة فلسطينيّة مُردهرة ، ليس لها ذكّر في الكتاب المقدّس العبري . احتوت الطبقة الأخيرة هناك على فخاريّات فلسطينيّة مُميّزة ، وحكّمت علامات أخرى على ثقافة فلسطينيّة كانت قد دُمّرت بالنّار . وبالرغم من عدم وجود أيّ إشارة مُعيّنة في الكتاب المقدّس العبري على غزو داود لهذه المنطقة ، لم يتردّد بنيامين مازّر في استنتاج أنّ داود دَمّر هذه المُستوطنة ، وسوى بها الأرض في حُرُوبه ضدّ الفلسطينيّين .

وهكذا ذهبَ في كافّة أنحاء البلاد ؛ وأخذ يجد الدلائل على آثار أعمال داود التدميريّة في طبقات الرّماد والحجارة المقذوفة في مواقع عديدة ؛ بدءاً من فلسطينيا ، وحتىّ وادي يَزْرَعيل ، وما بعده . في كلّ حالة تقريباً حيثُما وجد أنّ هناك مدينة - ذات ثقافة فلسطينيّة أو كنعانيّة لاحقة - ، قد هوجمت ، ودُمّرت ، أو حتىّ أُعيد تشكيلها من جديد ، اعتبر أنّ فتوحات الملك داود الشاملة هي السبب وراء ذلك .

هل من المُمكن أنّ يكون الإسرائيليّون الذين كانوا يعيشون في المُرتفعات المركزيّة ، قد تمكّنوا من تأسيس سيطرة ليس - فقط - على مواقع صغيرة مثل تلّ فصيلة Qasile ، ولكنّ ؛ على مراكز كنعانيّة كبيرة - أيضاً . مثل : "جازر" ، و"مجدو" ، و"بيت شان" ؟! نظريّاً ، نعم ؛ هناك بعض الأمثلة في تاريخ أناس رفيعين تمكّنوا من مُمارسة سيطرة على المُدن الكبيرة ، خصوصاً في الحالات التي يستعمل فيها أسياذ الحرب أو رؤساء عصابات أو شيوخ قبائل خارجون على القانون ، المُرتفعات ، كوسيلة للتهديد بالعنف ، أو الوعد بالحماية الإلهيّة الأبوئيّة لضمان الحُصُول على الأتاوات (الضرائب) وولاء المُزارعين وأصحاب المتاجر في البلدات السهليّة . لكنّ ؛ في أكثر الحالات لم تكن تلك فتوحات عسكريّة بشكل تامّ ، ولا تأسيساً لإمبراطوريّة إداريّة منظمّة بكلّ معنى الكلمة ، أكثر ممّا كانت وسائل خفيّة تستخدمها الرّعامّة ، يُقدّم فيها شيخ قبيلة أو زعيم جماعة نوعاً من الأمن للمُجتمعات السهليّة .



الشكل 16: أهم مواقع عهد الحُكم الملكي .

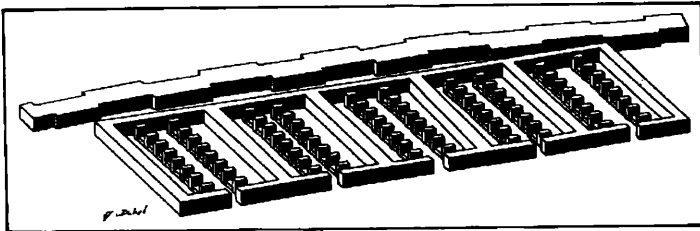
إسطنبولات ، ومدُن ، وديّارات الملك سُلَيْمَان :

محور النقاش والجدل الأساسي لم يكن حول فتوحات داود ، بل حول ما بعدها . هل أسس سُلَيْمَان حُكماً وعهداً مجيداً على المملكة التي فتَحَهَا داود؟ رغم أنه لم يتمّ -أبداً- الحُصُول على أي أثر لهيكل سُلَيْمَان أو لِقَصْرِ في أُورُشليم (القُدْس) ، إلا أن العُلَماء وجدوا أماكن أخرى عديدة ؛ لِيبحثوا فيها .

تصف القِصَّة التوراتية إعادة بناء سُلَيْمَان للمدُن الشماليّة مَجْدُو ، وحاصُور ، وجازِر (سفر الملوك الأوّل : 9 / 15) . عندما نُقِبَت بعثة المعهد الشرقي لجامعة شيكاغو أحد تلك المواقع - موقع مَجْدُو - في العشرينات والثلاثينات (من القرن الماضي) ، نُسِبَت بعض أكثر آثار ذلك الموقع روعة والتي تعود للعصر الحديدي ، إلى سُلَيْمَان .

كانت مَجْدُو - التي تقع في منطقة استراتيجيّة ؛ حيثُ ينحدر الطريق الدوليّ السريع من مصر في الجنوب إلى بلاد ما بين النهرين والأناضول في الشمال ، ينحدر من المرتفعات نحو وادي يَزْرَعيل - أحد أهم مدُن إسرائيل التوراتيّة . بالإضافة إلى ذكرها سفر الملوك الأوّل : 9 / 15 ، ذكرت هذه المدينة - أيضاً - في سفر الملوك الأوّل : 4 / 12 ، في قائمة مناطق المحافظات السُلَيْمانيّة .

احتوى مُستوى المدينة المُسمّى الطَبقة 4 - وهي آخر طبقة كانت مُعرّضة بشكّل كامل في كامل المنطقة القديمة - على مجموعتين من الأبنية العامّة الكبيرة ، كُلُّ واحد منها يتألّف من سلسلة من العُرف الطويلة المُتصلة ببعضها البعض بالتسلسل . وقد قُسمت كُلُّ واحدة من العُرف الفرديّة إلى ثلاثة ممرّات ضيّقة فُصلت عن بعضها الآخر بجدران تقسيم مُنخفضة مؤلّفة من عواميد وحجارة (الشكّل 17) .



الشكّل 17 : سلسلة من الأبنية المرتكزة على عواميد في مَجْدُو ، عرُفَت بأنها إسطنبولات .

أحد مُدريري البعثة: "بي. إل. أو. غاي" P.L.O. Guy، عرّف هذه البنايات  
كإسطبلات تعود إلى عهد سُلَيْمَانَ. لقد كان تفسيره مُرتكزاً على وَصْف الكتاب المُقدَّس  
لتقنيّات البناء السُلَيْمَانِيَّة في أورشليم (القُدُس) (سفر الملوك الأوّل 7/12)، والإحالة الخاصّة  
للنشاط العُمُراني لسُلَيْمَانَ في مَجْدُو في سفر الملوك الأوّل 9/15، وعلى ذكْر المُدُن السُلَيْمَانِيَّة  
الخاصّة بالعربّات والخيّالة في سفر الملوك الأوّل 9/19.

وَصَحَّ غايّ "Guy السُّؤال التّالي: "لو سألنا أنفسنا أنّه بعد مُدّة قصيرة من هزيمة  
الفلسطينيّين على يد الملك داود، في مَجْدُو، مَنْ الذي قام - مُستعيناً ببنائين أجانِب ماهرين -  
ببناء مدينة ذات هذا العدد الكبير من الإسطبلات؟ اعتقد أننا يجب أن نَجِد الجواب في الكتاب  
المُقدَّس العِبْرِيّ... ولو قرأ أحدنا تاريخ سُلَيْمَانَ، سواء في سفر الملوك أو سفر الأيام، فإنّه  
سيُصدم من تكرار ذكْر العربّات والخيول".

وقد تمّ دَعْم الدليل الظّاهري على عَظَمَة الإمبراطوريّة السُلَيْمَانِيَّة في الخمسينات من  
القرن الماضي، بواسطة نتائج التّقيّيات التي قام بها "يغائيل يادين" Yigael Yadin في  
"حاصور". فقد اكتشف "يادين" وفريقه بوابة عريضة لمدينة يعود تاريخها للعصر الحديدي.  
وكان لها مخططٌ غريبٌ: كان هناك بُرْج وثلاثة عُرف على كُلِّ جانب من جانبيّ البوابة. ممّا  
أعطاه اسم البوابة ذات العُرف السّتّة (الشّكل 18). لقد أُصيب "يادين" بالذهول. فقد تمّ  
اكتشاف بوابة مُماثلة - في المخطّط والحجم - قبل عشرين سنة من قِبَل فريق المعهد الشّرقي في  
"مَجْدُو"؛ ربّما كانت هذه البوابة، وليس الإسطبلات، العلامة الواضحة على الحَضُور  
السُلَيْمَانِي في كافّة أنحاء البلاد.

ومن هنا؛ أتجه "يادين" إلى القيام بحفْر مدينة "جازرّ"، المدينة الثّالثة المذكورة في سفر  
الملوك الأوّل 9/15 باعتبارها مدينة قام سُلَيْمَانَ بإعادة بنائها، ليس في الميدان، بل في المكتبة.  
لقد تمّ تنقيب مدينة "جازرّ" في بداية القرن العشرين من قِبَل عالم الآثار البريطانيّ "ز. أ. س.  
مكاليستر" R.A.S. Macalister عندما بدأ "يادين" يتصفّح تقارير "مكاليستر" أُصيب بالدهشة.  
لقد وجَد "يادين" في مخطّط بناية عرّفها "مكاليستر" كـ "قَصْر مكّابي" يعود تاريخه إلى القرن

الثاني ق. م، المخطوط العريضة لأحد جانيّ نفس نَمَط البوابة تماماً التي كان قد وَجَدَهَا في مَجْدُو وحاصور. لم يتردّد "يادين". أبداً. في ذلك، لقد ادّعى أنّ هناك مُهندساً معمارياً واحداً من أورشليم (القدس) قام برسم مخطّط رئيسي (مخطّط أم) لآبواب المُدن السليمانية، وأرسل به إلى جميع المحافظات.

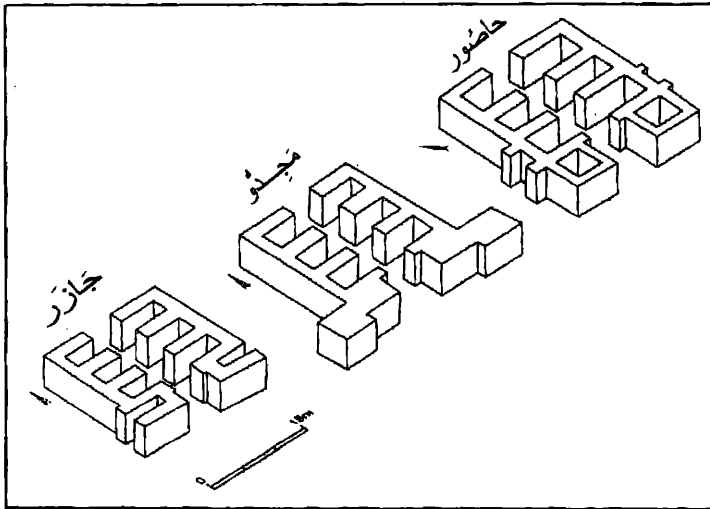
ولخصّ "يادين" الأمر بهذه العبارات: "ليس هناك مثال في تاريخ علم الآثار ساعدت فيه فقرة نصّية على التعرّف على أبنية ومعرفة تاريخها في عدد من أهمّ التلال في الأرض المقدّسة، كما ساعدت به فقرة الآية 15/9 من سفر الملوك الأوّل. . . لقد استند قرارنا بنسبة الطبقة | في حاصور | للسليمان - بشكل أساسي - على فقرة سفر الملوك الأوّل، وعلى معطيات دراسة الطبقات البيولوجية، والفخاريات، لكن؛ عندما وَجَدْنَا - إضافة إلى ما سبق - أنّ الطبقة تحتوي على 6 عُرف وبوابة ذات بُرجين متصلة بجدار مُماثل في تخطيطه ومقياسه للبوابة المكتشفة في مَجْدُو، شعرنا بالتأكّد التامّ من أنّنا اكتشفنا - بنجاح - مدينة سليمانية".

أروع من أن يُصدّق؟

لم تكن اكتشافات "يادين" السليمانية قد انتهت بعد. في أوائل الستينات؛ ذهب "يادين" مع فريق من طلابه إلى "مَجْدُو" لتوضيح التطابق بين البوابات السليمانية، التي كانت موصولة في "جازر" و"حاصور" إلى عُرفة مُحصّنة (ترمى منها النيران)، ولكنها في "مَجْدُو" كانت موصولة بجدار صلب صمت. كان "يادين" متأكّداً أنّ المُتقبين في "مَجْدُو" أخطوا بنسبتهم الجدار الصلب للبوابة، وأنهم لأبداً أن يكونوا قد فقدوا جدار العُرفة المُحصّنة (التي ترمى منها النيران) الموجودة تحت التراب. ولما كانت البوابة قد أصبحت معروضة بالكامل من قِبَل فريق جامعة شيكاغو، اختار "يادين" التنقيب شرق البوابة؛ حيث كان الفريق الأمريكي قد حدّد موقع سلسلة من الإسطبلات التي نسبوا إلى سليمان.

لقد أحدث ما اكتشفه ثورة في علم آثار الكتاب المقدّس، لمدّة جيل كامل، فقد وَجَدَ "يادين"، تحت الإسطبلات، بقايا قصر جميل، تبلغ مساحته حوالي ستّة آلاف قدّم مُربع، بُني من كتل الحجر المنحوت الكبيرة (الشكل رقم 24). لقد بُني على الحافة الشماليّة للتلّ، وكان

موصولاً بصف من العُرف التي فسرها 'يادين' بأنها جدار العُرفة المُحصَّنة (التي تُرمى منها النيران) المقفودة، التي كانت متصلة بالبوابة ذات العُرف الستة. وقد اكتشف فريق المعهد الشرقي قصرًا مشابهاً. لحدّ ما بُني كذلك من الكتل المُلبَّسة الجميلة، في الجانب الجنوبي للتلّ، وكان يقع. أيضاً. تحت مدينة الإسطبلات. كان النمط المعماري لكلا البناءين مُتوازياً ومُشتركا بنحو كبير، ويمثّل النمط المُتميّز للقصر السُوري الشمالي، الذي يعود للعصر الحديدي، والمعروف باسم 'بيت حيلاني'، والذي يتألّف من مدخل تذكاري وصُوف من العُرف الصّغيرة المحيطة بقرعة الاستقبال الرّسميّة. وعليه؛ فكان هذا النمط من البناء مُناسباً لإقامة مسؤول رَسْمي في مجدو، ربّما كان حاكم الإقليم بَعَثَا بنُ أَخِيلُودَ (سفر الملوك الأوّل 12/4). سرعان ما بُنيت 'ديفيد أوسشكين' تلميذ 'يادين'، ارتباط تلك البنايات بسليمان عن طريق البرهنة على أن وصف الكتاب المقدّس العبري لقصر سُلَيْمَانَ المبني في أورشليم (القُدس) ينطبق تماماً على قُصور 'مجدو'.



الشكل 18: البوابة ذات العُرف الستة في مجدو، حاصور، وجزاز.

بدا الاستنتاج قطعياً لا يُمكن اجتنابه . لقد مثل القَصْران والبوابة "مجدو" السليمانية، في حين كانت الإسطبلات . في الواقع . تنتمي مدينة متأخرة، بناها الملك آحاب من ملوك مملكة إسرائيل الشماليّة في بدايات القرن التاسع ق. م. . كان هذا الاستنتاج الأخير حجر زاوية مهماً في نظرية "يادين"؛ حيثُ وصّف نقشُ آشوري يعود للقرن التاسع قوة العربة الكبيرة لآحاب ملك إسرائيل .

بالنسبة لـ "يادين" وكثيرين آخرين، بدأ علم الآثار متطابقاً مع الكتاب المقدس بنحو أو ثقل من أي وقت مضى . لقد وصّف الكتاب المقدس العبري توسّعات الملك داود الإقليميّة . في الحقيقة؛ بأنّها قامت بتدمير المَدُن الكنعانيّة والفلسطينيّة المتأخّرة في جميع أنحاء البلاد بواسطة نار هبّية . كما يصف الكتاب المقدس نشاطات سُلَيْمَانَ العُمُرانيّة في حاصور، ومجدو، وجازر؛ ولا شك أنّ البوابات المتماثلة تكشف عن أنّ المَدُن الثلاث بُنيت مع بعضها، وطبقاً لمُخطّط واحد . يقول الكتاب المقدس العبري إنّ سُلَيْمَانَ كان حليفاً لخيرام، ملك صور، وإنّه كان بناءً عظيماً . في الحقيقة؛ تُظهر قُصُور مجدو تأثيراً شماليّاً في نَمَطها المعماري، إنّها كانت أجمل الأبنية المكتشفة في طبقة العصر الحديدي في إسرائيل .

لبضع سنوات، مثلت بوابات سُلَيْمَانَ أكثر اكتشافات علم الآثار أهميّة في دَعْم الكتاب المقدس . إلا أنّ أسئلة أساسية من المنطق التاريخي طُرحت في النهاية، وقوّضت أهميّة تلك الاكتشافات . لم تُوجد في أيّ موقع آخر في كُُلّ المنطقة . بدءاً من شرق تركيا في الشمال، وعبر المناطق الغربيّة لسوريا، نُزولاً نحو شرق الأردن في الجنوب . أيّ إشارة أو دليل على مُوسّسات ملكيّة متطورة، أو أبنية تذكاريّة تعود للقرن العاشر ق. م. . كما سبق ورأينا كانت دولة يهوذا، وطَن داود وسُلَيْمَانَ، دولة متخلّفة بشكل واضح، وليس هناك دليل مهم على وجود ثروة لإمبراطوريّة عظيمة تندفّق عائدة إلى تلك الدولة، بل هناك مشكلة زمنيّة تاريخيّة مُزعجة بدرجة أكبر: إنّ قُصُور بيت حيلاني التي تعود إلى سوريا العصر الحديدي . والتي يُعتَرَض أنّها تُمثّل النَمَط التقليدي للقُصُور السليمانية في مجدو . إنّما ظهرت في سوريا لأوّل مرّة في القرن التاسع ق. م؛ أيّ بعد نصف قرن على الأقلّ من عصر سُلَيْمَانَ . فكيف أمكن لمعماريّ سُلَيْمَانَ أن يتبنوا هذا النَمَط المعماري الذي لم يكن قد وُجد بعد؟ وأخيراً؛ هناك

مشكلة التباين بين مجدو وأورشليم: هل من الممكن للملك بنى قصوراً رائعة من الحجر المنحوت في مدينة إقليمية، أن يحكم بلاده من قرية متخلفة، بعيدة وصغيرة؟ كما ظهر؛ أصبحنا اليوم نعرف أن الشواهد الأثرية حول المدى الواسع للفتوحات الداوذية وعظمة المملكة السليمانية إنما جاءت كنتيجة لتواريخ مخطئة تماماً.

### مشكلات في التاريخ:

استند التعرف على وتحديد هوية الآثار الباقية من عهد داود وسلیمان. وفي الواقع من عهد الملوك الذين تلوا في القرن التالي - على صفتين من الأدلة. لقد تم ربط انتهاء الفخاريات الفلسطينية المميزة (المؤرخة بسنة 1000 ق.م) بفتوحات داود، بشكل وثيق. كما تم ربط بناء البوابات والقصور التذكارية في مجدو، وحاصور، وجازر بعهد سلیمان. ولكن؛ في السنوات القليلة الأخيرة، بدأ كلا الدليكين بالتهاري والسقوط (انظر الملحق د' لمزيد من التفاصيل).

أولاً؛ لم يعد من الممكن التأكيد من أن الأساليب الفخارية الفلسطينية المميزة لم تستمر إلى القرن العاشر - بعد فترة طويلة من موت داود - وبالتالي؛ أصبحت عديمة الفائدة في تاريخ، (وحتى أقل فائدة بنحو أكثر - أيضاً. في تحقيق) الفتوحات المفترضة. ثانياً؛ يشير التحليل المجدد لأنماط الفن المعماري والأشكال الفخارية في الطبقات السليمانية المشهورة في مجدو، وجازر وحاصور بأنها تؤرخ - في الحقيقة - إلى بدايات القرن التاسع ق.م؛ أي بعد عقود من موت سلیمان!

الصنف الثالث من الشواهد؛ أي التاريخ الأكثر دقة عبر الاستفادة من التقنيات المخبرية للكربون 14، أصبح اليوم يبدو أنه يُثبت القضية. حتى عهد قريب كان من المستحيل استعمال الكربون الإشعاعي في تأريخ مثل هذه الفترات الحديثة نسبياً مثل العصر الحديدي؛ بسبب هامش الاحتمال العريض فيه، والذي يمتد - في الغالب - إلى قرن أو أكثر، ولكن تحسين تقنيات التأريخ بالكربون 14 أنقّص - لحد كبير - هامش عدم الدقة ذلك. لقد تم اختبار عدد من العينات المأخوذة من المواقع الرئيسية المشمولة في الجدل والتقاش الدائر حول القرن العاشر، وبدت أنها تدعم الجدول الزمني الجديد للأحداث.



أبرز موقع مجدو - بشكل خاص - بعض التناقضات المذهلة في التفسيرات المقبولة سابقاً. لقد أخذت خمس عشرة عينة خشبية من الروافد الخشبية لسقف كبير انهار في النار، والدمار الفظيح المنسويين لداود. ولما كان البعض من الروافد الخشبية ممكن أن يكون قد استعمل سابقاً في بنايات أقدم، فلا يمكن إلاً لآخر التواريخ في السلسلة أن تُشير باطمئنان إلى زمن بناء الأبنية. في الحقيقة؛ أغلب العينات تنطبق - بنحو جيد - على القرن العاشر ق. م؛ أي بعد فترة طويلة من عهد داود. والقصور التي نُسبت إلى سُلَيْمَانَ، والمبينة فوق طبقتين من ذلك الدمار، يجب أن تكون تابعة لعهد متأخر بوقت طويل عن ذلك العهد.

لقد تم تأكيد هذه التواريخ باختبارات للطبقات المتوازية في مثل تلك المواقع البارزة ككل دور، على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وتل حادر على شاطئ بحر الجليل. وقد دعمت القراءات المتفرقة المأخوذة من عدة مواقع أخرى، أقل شهرة، مثل "أم حاجيت" قُرب مجدو وتل كيتيريت على الساحل الشمالي لبحر الجليل، دعمت هذا التاريخ أيضاً. وأخيراً؛ أعطت سلسلة من العينات المأخوذة من طبقة دمار في تل ربحوف Rehov قُرب بيت شان، المدينة المعاصرة لمدينة مجدو المفترضة أنها مدينة سُلَيْمَانِيَّة، تواريخ تعود لمنتصف القرن التاسع ق. م؛ أي بعد فترة طويلة من دمارها الكروي على يد الفرعون شيشانق عام 926 ق. م. .

جوهرياً؛ لقد أخطأ علم الآثار في تاريخ كلا الآثار "الداودية" و"السُلَيْمَانِيَّة" بمدة قرن كامل. فالإكتشافات التي أُرِخَتْ بأنها تنتمي للزمن السابق مباشرة لعهد داود في أواخر القرن الحادي عشر ق. م، تُبين أنها تعود في الواقع لمنتصف القرن العاشر، وتلك التي أُرِخَتْ بعهد سُلَيْمَانَ، تُبين أنها تعود لأوائل القرن التاسع ق. م. . تضع التواريخ الجديدة، ظهور الأبنية التذكارية، والتحصينات، والإشارات الأخرى الدالة على وجود دولة كاملة، تضعها في نفس زمن ظهورها، لأول مرة، في بقية مناطق المشرق بالضبط. إنها تُصحح عدم التكافؤ في التواريخ بين أبنية قصر بيت حيلاني في مجدو ونظرائها في سوريا. وهي تسمح لنا - أخيراً - أن نفهم لماذا كانت أورشليم (القدس) ويهوذا فقيرة جداً في المكتشفات العائدة للقرن العاشر ق. م. . إن السبب هو أن يهوذا كانت ماتزال منطقة بعيدة ومتخلفة في ذلك الوقت.

إذا لم يكن هناك أي سبب مهم للشك في تاريخية داود وسليمان، فإن هناك الكثير من الأسباب لوضع علامات استفهام كبيرة حول مدى وعظمة مملكتيهما. إذا لم تكن هناك إمبراطورية كبيرة، ولم تكن هناك أبنية تذكارية ضخمة، ولم تكن هناك عاصمة رائعة، فماذا كانت طبيعة مملكة داود إذن؟!

التراث الداودي: من رئيس عشيرة في العصر الحديدي إلى أسطورة السلالة الملكية:

بقيت الحضارة والتطور المادي في المرتفعات في عهد داود بسيطة. كانت الأرض ريفية بشكل شبه تام، دون وجود أي أثر لوثائق مكتوبة، أو نقوش، أو حتى دلائل على انتشار واسع لمعرفة القراءة والكتابة، التي لا بد منها لعمل حكم ملكي حقيقي.

من وجهة نظر ديموغرافية (سكانية - جغرافية)، كانت رقعة التوطن الإسرائيلي - بالكاد - متجانسة. من الصعب رؤية أي دليل على ثقافة أو نظام مادي موحد، أو دولة محكومة مركزياً. كانت المنطقة من أورشليم (القدس) إلى الشمال مأهولة تماماً بشكل كثيف، بينما المنطقة من أورشليم إلى الجنوب - محور مملكة يهوذا المستقبلية - مازال مأهولة بشكل متناثر وضعيف جداً. لم تكن أورشليم نفسها - في أحسن الأحوال - أكثر من قرية مرتفعات نموذجية. لا يمكننا أن نقول عنها أي شيء أكثر من ذلك.

التقديرات السكانية للمراحل التالية لفترة التوطن الإسرائيلي تنطبق - أيضاً - على القرن العاشر ق.م. . . إنها تعطي فكرة عن حجم الإمكانات التاريخية. من بين ما مجموعه خمسة وأربعون ألف نسمة تقريباً، يعيشون في مناطق المرتفعات، كانت حوالي 90% كاملة منهم تسكن القرى الشمالية. مما يبقّي حوالي خمسة آلاف شخص فقط متناثرين بين أورشليم (القدس)، وحبرون (الجليل)، وحوالي عشرين قرية صغيرة في يهوذا، بالإضافة لمجموعات أخرى استمرت - احتمالاً - في العيش كرعاة متنقلين. مثل هذا المجتمع الصغير والمعزول كان لا بد أن يعزّ ذاكرة زعيم استثنائي مثل داود، واصل أحفاده الحكم في أورشليم (القدس) على مدى السنوات الأربعمئة التالية. في بادئ الأمر، في القرن العاشر، لم تمتد قاعدة حكمهم إلى أي إمبراطورية، ولا إلى أي مدّن واسعة، ولا عاصمة رائعة أو مثيرة للإعجاب. من زاوية

علم الآثار لا يُمكننا أن نقول عن داود وسليمان أكثر من أنهما وُجدا فعلاً، وأنَّ أسطورتَهما  
ثبَّتت وبقيت إلى اليوم .

إلَّا أنَّ افتتان المورِّخ التَّنوي في القرن السَّابع ق. م، بذكريات داود وسليمان - وفسى  
الحقيقة استمرار التَّجليل اليهوديِّ لهاتين الشَّخصيتين - قد يكون أفضل، إنَّ لم يكن الدليل  
الوحيد، على وُجود نوع من الدَّولة الإسرائيليَّة الموحَّدة الباكرة . الحقيقة بأنَّ المورِّخ التَّنوي  
يستخدم الحُكم الملكيِّ الموحَّد كأداة قويَّة من الدَّعاية السياسيَّة، يُوحي بأنَّه في عهده (أي عهد  
ذلك المورِّخ) فإنَّ قصَّة داود وسليمان كحُكَّام أو ملوك على أراض واسعة نسبياً في المرتفعات  
الوسطى كانت مازال قصَّة حيَّة ومعتقَّدة من قِبَل النَّاس على نطاق واسع .

بالطَّبع؛ في القرن السَّابع ق. م، تغيَّرت الظُّروف في يهوذا بَحْوَ خارج التَّوقَّعات تقريباً .  
أصبحت أورشليم (القُدس) - الآن - مدينة كبيرة نسبياً، يُسيطر عليها هيكلٌ (معدنٌ) أُقيم لعبادة إله  
إسرائيل، وأصبح المقام المُقدَّس الوطْنيِّ الوحيد . وقد وصَّلتْ مُوسَّسات الحُكم الملكيِّ، والجيش  
المُحترف، والإدارة إلى مُستوى من التَّطوُّر يُوازي، بل حتَّى يتجاوز تعقيد المُوسَّسات الملكيَّة  
للدُّول المُجاورة . مرَّة ثانية؛ يُمكننا أن نلاحظ المشهد الطَّبيعيِّ وعادات وتقاليد دولة يهوذا في  
القرن السَّابع ق. م، في خلفيَّة قصَّة الكتاب المُقدَّس التي لا تنسى، والتي تحكي هذه المرَّة عن  
عصر ذهبيِّ أسطوريِّ . لا شكَّ أنَّ الزيارة المُسرَّقة لشريك سليمان التجاريِّ، ملكة شيبا (سبا)،  
لأورشليم (سفر الملوك الأوَّل 10/10) وتجارة السَّلع التَّادرة مع الأسواق البعيدة مثل أرض  
أوفير في الجنوب (سفر الملوك الأوَّل 9/28؛ 11/10) تعكس مُشاركة يهوذا القرن السَّابع، في  
التجارة العربيَّة المُربحة . ونفس الأمر ينطبق على وصْف بناء تمارا في البرية (سفر الملوك الأوَّل  
9/18) والبعثات التجاريَّة للأراضي البعيدة التي كانت تنطلق من عزبون جبر Ezion geber في  
خليج العقبة (سفر الملوك الأوَّل 9/26) . موقعان تمَّ التَّعرُّف عليهما آثارياً بشكلٍ مُطمئن، واللَّدان .  
لم يُسكنا قبل العهود الملكيَّة المُتأخِّرة . والحرس الملكيِّ لداود: الجِلَّادين والسَّعاة (سفر صموئيل  
الثاني: 8/18)، الذين افترض العلماء مُدَّة طويلة أن يكونوا إيجيِّين في أصلهم، يجب أن  
يُفهموا على خلفيَّة خدمة المُرتزقة اليونانيِّين، القُوَّة القتاليَّة الأكثر تقدُّماً في ذلك العهد ضمن  
الجيُوش المصريَّة، ومن المُحتمل الجيُوش اليهوديَّة في القرن السَّابع .

في الأوقات الملكية التأخّرة، تطوّر لاهوتٌ (عقيدة دينية) مُتَمَنّ في يهوذا وأورشليم بهدف لتوثيق وتأكيد الارتباط بين وريث داود وقدر شعب إسرائيل بأكمله. طبقاً للتاريخ التنبوي، كان داود النبيُّ أوَّلَ مَنْ أَوْقَفَ دورة عبادة الأصنام (من قِبَل شعب إسرائيل) وعقابهم عليها (من قبل يهوه). وبفضل طاعته، وإخلاصه، واستقامته، ساعده يهوه على إكمال العمل غير المنهي ليشوع. أي فتح بقية الأرض الموعودة وتأسيس إمبراطورية مجيدة على كُلِّ الأراضي الواسعة التي كان قد وُعد بها إبراهيم.. إذن كانت تلك آمالاً لاهوتية، أكثر من كونها صوراً تاريخيةً بالمعنى الدقيق للكلمة. وكانت تلك الآمال تُمثّل العنصر المركزي في رؤية قوية في القرن السابع لعصر نهضة وطنية أرادت أن تجمع أناساً مُتفرّقين، أرهقتهم الحرب، لتبث لهم أنهم مروا بتاريخهم بتجربة قوية لتدخلُ الله المباشر في مصيرهم وقدرهم. كانت الملحمة المجيدة للحكم الملكي المُتحد مثلها مثل قصص الآباء وقصص الخروج الجماعي (من مصر) وقصص غزو كنعان تالياً رائعاً تُسجح من حكايات وأساطير بطولية قديمة أدمجت مع نبوءات مُتماسكة ومُتقنة لشعب إسرائيل في القرن السابع ق. م..

بالنسبة لشعب يهوذا، في الوقت الذي تمّ تأليف وتدوين الكتاب المقدّس العبري فيه، كان قد اعتلى العرش داودٌ جديدٌ ينوي إعادة مجد أسلافه القُدماء. إنّه كان الملك "يوشيا"، الموصوف بأنه كان أكثر ملوك يهوذا تدبناً. كان "يوشيا" قادراً على أن يعود بيومه إلى تاريخ العهد الأسطوري للحكم الملكي المُتحد. بتطهيره ليهوذا من إثم الوثنية - التي أدخلها سُليمان إلى أورشليم (القُدس) أوَّلَ مرّةٍ عبر حرّيمه من النساء الأجنبية (اللواتي جَلَبْنَ الهمهنّ الأجنبية معهنّ) (سفر الملوك الأوّل 11/ 8-1) - تمكّن "يوشيا" من إزاحة التّعدّيات والانحرافات التي أدّت إلى توقّف الإمبراطورية الداودية. كان الكلام الذي أراد المؤرّخ التنبوي قوله بسيطاً وقويّاً: "ما يزال هناك طريق لاستعادة مجد الماضي".

وبناءً عليه؛ فقد بدأ "يوشيا" بتأسيس حكم ملكي مُوحّد يربط يهوذا بأراضي المملكة الشماليّة السابقة عبر مؤسسات ملكية، وقوات عسكرية، وولاء عنيد لأورشليم، التي لها مقام مركزي جدّاً في قصة داود في الكتاب المقدّس.

بجلوسه على عرش داود في أورشليم (القدس)، كان الملك يُوشيا الوريث الشرعي الوحيد للإمبراطورية الداودية، وبالتالي؛ للأراضي الداودية. كان على وشك أن يستعيد أراضي المملكة الشمالية المدمرة في ذلك الحين، تلك المملكة التي وكدت من ذنوب سليمان. وتلخص كلمات سفر الملوك الأول 25/4: 'وَسَكَنَ يَهُودَا وَإِسْرَائِيلُ أَمْنَيْنِ، كُلُّ وَاحِدٍ تَحْتَ كَرَمَتِهِ وَتَحْتَ تِنْتِهِ مِنْ دَانَ إِلَى بَثْرَسَيْعَ'، تلك الآمال في التوسع الإقليمي والبحث عن الأزمنة الزدهرة المشابهة لأزمنة الماضي الأسطوري، عندما كان هنا ملك يحكم من أورشليم (القدس) على جميع أراضي يهوذا وإسرائيل مجتمعين.

كما رأينا، كانت الحقيقة التاريخية لمملكة داود وسليمان مختلفة تماماً عن الرواية. كانت جزءاً من تحولٍ سكانيٍّ - جغرافيٍّ عظيمٍ، أدى إلى ظهور مملكتي يهوذا وإسرائيل - في تسلسل تاريخيٍّ مختلف بنحوٍ قويٍّ عن ذلك التسلسل الذي يصفه الكتاب المقدس العبري.

إلى هنا؛ فمنا بفحص رواية الكتاب المقدس العبري لتاريخ تبلور إسرائيل الذي كُتب في القرن السابع ق. م، وأعطينا لمحات عن الحقائق الأثرية التي تكمن خلفه. وقد حان الوقت - الآن - لحكاية قصةٍ جديدة. في الفصول التالية، سنتقدم الحُطوط العامة العريضة لصعود، وسقوط، وانبعاث إسرائيل مختلفة جداً.

# [ القسم الثاني ]

## صعود وسقوط إسرائيل القديمة

## الفصل (6):

### دولة واحدة وأمة واحدة وشعب واحد؟ (930 . 720 ق.م)

إن مسيرة تاريخ إسرائيل - كما يُخبرنا سفر الملوك بنحو خطير - يتحرك بحتمية مأساوية تقريباً، من الوحدة إلى الانشقاق الديني، ومن الانشقاق الديني إلى الكارثة القومية. بعد العهد المجيد لداود وسليمان، عندما كانت تُحكّم كلُّ إسرائيل من أورشليم (القدس)، في فترة من الازدهار والقوة لم يسبق لها مثيل، انفصلت - بغضب - قبائل المرتفعات الشمالية والجليل، مقاومة الضرائب التي كان يفرضها زحبعام بن سليمان عليهم. وتلا ذلك متتاً سنة من الكراهية والحقد بين الإخوة، ونشأت مملكتان هما مملكة إسرائيل المستقلة في الشمال، ومملكة يهوذا في الجنوب، المستعدتان - بشكل متقطع - لضرب بعضهما البعض. إنها قصة انقسام مأساوي، وعنف ووثنية في مملكة الشمال. هناك؛ طبقاً لروايات الكتاب المقدس العبري، تم تأسيس مراكز عبادة جديدة لتكون منافسة للهيكل في أورشليم (القدس). وصل عدد من الأسر الحاكمة الإسرائيلية الشمالية الجديدة، من منافسي بيت داود، إلى السلطة بشكل دموي الواحد تلو الآخر. ومع مرور الزمن، يدفع الشماليون ثمن إثمهم وشراً بمنزول العقاب النهائي عليهم، الذي تمثل في دمار دولتهم، ونفي قبائلهم الشمالية العشرة.

هذه الرؤية ذات مقام مركزي في علم لاهوت الكتاب المقدس العبري، وفي الأمل الذي يطرحة الكتاب المقدس لإعادة كم شمل يهوذا وإسرائيل النهائي، تحت حكم الأسرة الداودية، ولكن تلك الرؤية - ببساطة - ليست تمثيلاً دقيقاً للحقيقة التاريخية. فكما رأينا، ليس هناك دليل آثاري مهم على الوجود التاريخي لحكم ملكي متحد واسع، مركزه أورشليم (القدس)، ويسيطر على كل أرض إسرائيل كاملة، بل على العكس؛ تكشف الأدلة تحوُّلاً ديموغرافياً (جغرافياً سكانياً) معقداً في المرتفعات، يبدأ خلاله وعي عرقي بالتبلور شيئاً فشيئاً.

وهنا؛ ربما نكون قد وصلنا إلى أكثر التصادمات بين المكتشفات الأثرية والكتاب المقدس العبري إثارة للقلق. فإذا لم يكن هناك خروج جماعي، ولا غزو، ولا حكم ملكي متحد، فماذا نحن صانعون برغبة الكتاب المقدس العبري بتوحيد الإسرائيليين؟ ماذا نضنع بالعلاقة الطويلة والصعبة بين مملكتي يهوذا وإسرائيل التي دامت لمتسي سنة تقريباً؟ هناك سبب جيد لاقتراح أن يكون هناك - دائماً - كيانان متميزان في المرتفعات، كان الكيان الجنوبي من بينهما الأقر، والأضعف، والأكثر ريفية، والأقل تأثيراً، حتى برز فجأة؛ ليصبح كياناً بارزاً ومهماً بعد سقوط مملكة إسرائيل الشماليّة.

قصة اثنتي عشرة قبيلة ومملكتين:

يتم وصف القبائل الشماليّة، في الكتاب المقدس العبري، بنحو مستمر ونابت كحالات فشل، مع ميل واضح للشر والإثم. هذا واضح - بشكل خاص - في سفر القضاة؛ حيث تكافح القبائل الفردية ضد الشعوب الوثنيّة المحيطة بها. من بين ذرية أبناء يعقوب الاثني عشر، لم تنجح إلا قبيلتا يهوذا وشمعون فقط في فتح كل الجيوب الكنعانيّة في الأرض التي وهبهم الله إياها. كنتيجة لذلك، لم يبق هناك كنعانيون في الجنوب، كما لم يكن هناك نساء كنعانيات يمكن الزواج منهن، والتأثر بهن. أما قبائل الشمال؛ فقصتهم مختلفة: لم تنجز قبائل بنيامين، ومنسى، وأفرام، وزبولون، وأشير، ونفتالي، ودان، المهمة التي كان يجب عليهم القيام بها؛ لأنهم لم يبنوها الكنعانيين. ولذلك كانوا - دائماً - عرضة للفتنة، والتأثر بهم مرة بعد أخرى.

لا يترك نص الكتاب المقدس العبري ريباً في أنّ القبائل الشماليّة كانت أكثر عدداً، واحتلت أرضاً أوسع، وبالتأكيد؛ لم يكن مصادفة أن يحكم أوّل ملك لإسرائيل، شاول، من قبيلة بنيامين، كل الأراضي الشماليّة في المرتفعات، إلا أن شاول انتهك شرائع العبادة، وسبق إلى الانتحار بعد هزيمة قواته على يد الفلسطينيين. سحب الله بركته من هذا الزعيم الشمالي المسوخ بالزيت، واتجه شيوخ القبائل الشماليّة إلى داود، حسب الأصول، الذي كان ملك يهوذا البطل الخارج عن القانون، وتوجوه ملكاً على كل إسرائيل. رغم ثروتها وقوتها، عوملت القبائل الشماليّة - حسبما يصفه سفر الملوك الأوّل - أفضل بقليل من معاملة الرعايا



المستعمرين من قبل سُلَيْمَانَ بن داود. تمَّ بناء عواصم الأقاليم الكبيرة ومُدُن المخازن الخاصَّة بسُلَيْمَانَ: «جَارَز» و«مَجْدُو» و«حاصور» في وسطهم، وكانت تُفْرَض الضَّرَائِب على قبائل الشمال، وكانوا يُجَنِّدُونَ في مشاريع الأشغال العامَّة من قبل الولاة السُّلَيْمَانِيِّين. بعض الشماليِّين - مثل يَرْتَعَام بن ناباط، من قبيلة أفرايم - خدموا ضمن مَحْكَمَة أُورَشَلِيم (القُدْس) في مناصب ذات أهمِّيَّة. لكنَّ يَهُوذَا وُصِفَتْ بأنَّها كانت الفريق الأقوى، وأنها تنظر إلى القبائل الشماليَّة كَرعايا خاضعين لها.

عند موت سُلَيْمَانَ وخلافة ابنه رَحْبِعَام له، طالب الشماليُّون بتخفيف الأعباء عنهم، لكنَّ رَحْبِعَام المُغَطَّرس رَفَضَ نصيحة مُستشاريه المعتدلين، وأجاب الشماليِّين بالكلمات المشهورة الآن: [أبي ثَقُلَ نِيرِكُمْ، وأنا أزيدُ على نيرِكُمْ. أباي أدبِكُمْ بالسيَّاط، وأنا أؤدبِكُمْ بالمقارِب] (سفر الملوك الأوَّل 12 / 14). وانتشرت راية التمرد في الشمال، وصاح الشماليُّون مطالبين بالانفصال: [قلِّمًا رأى كُلُّ إِسْرَائِيلَ أَنَّ الْمَلِكَ لَمْ يَسْمَعْ لَهُمْ، أَجَابَ الشَّعْبُ الْمَلِكَ: ((أَيُّ قِسْمٍ لَنَا فِي دَاوُدَ، وَلَا نَصِيبٍ لَنَا فِي ابْنِ يَسَى! إِلَى خِيَامِكَ يَا إِسْرَائِيلَ. الْآنَ أَنْظُرْ إِلَى بَيْتِكَ يَا دَاوُدَ)). وَدَهَبَ إِسْرَائِيلُ إِلَى خِيَامِهِمْ] (سفر الملوك الأوَّل 12 / 16). ومضى الشماليُّون إلى حدِّ رَجَمِ والي رَحْبِعَام وجايب ضرائبه الرئيسيِّ حتَّى الموت، فهرب الملك رَحْبِعَام مذعوراً إلى الأمان في أُورَشَلِيم (القُدْس).

ثمَّ تجمَّع الشماليُّون ليختاروا عليهم ملكاً، فاخْتاروا يَرْتَعَام بن ناباط، الذي كان قد خَدَمَ في مَحْكَمَة سُلَيْمَانَ. وهكذا انتهى - تماماً - الحُكْمُ الملكيُّ المُتَّحِد لداود وسُلَيْمَانَ. وأوجدت دولتان مُستقلَّتان: دولة يَهُوذَا، التي حَكَمَهَا ملوك الأُسرة الدَّاودِيَّة من أُورَشَلِيم (القُدْس)، وكانت تُسيطر على أرض محدودة بالجزء الجنوبي للمُرتفعات الوُسطى؛ ودولة إِسْرَائِيل، التي سيطرت على الأراضي الواسعة في الشمال. كانت العاصمة الأولى للمملكة الشماليَّة مدينة تَرْصَةَ، التي تقع إلى الشمال الشرقي من مدينة شكيم (نابلس). وقرَّرَ الملك الجديد يَرْتَعَام، أن يُنشئ معابد مُنافسة لهيكل (معبد) أُورَشَلِيم (القُدْس)، وطَلَبَ تصميمَ عجلَيْنَ ذهبيَّين؛ ليتمَّ نصبهما في المعابد المُقدَّسة في أبعد المناطق من مملكته: أيُّ في بيت إيل، في أقصى الجنوب، ودان في أقصى الشمال.

هكذا بدأت فترة عاصفة وحاسمة في التاريخ التوراتي لإسرائيل. من التضامن العائلي لفترة الآباء، ومن الدعم والتأييد الروحي للخروج الجماعي، ومن الوحدة السياسية للحكم الملكي المتحد، أصبح شعب إسرائيل - الآن - ممزقاً إلى شعبين متنافسين، يُقاتل كل منهما الآخر، وأحياناً يُساعد بعضهم البعض حسب الظروف السياسية المتغيرة في المنطقة، لكن؛ دائماً على أساس الند للند تقريباً. لاشك أنه بدأت تظهر بعض الاختلافات الإقليمية، لكن أكثر العلماء استنتجوا أن بقية تاريخ المملكتين الإسرائيليتين كان عبارة عن التزايد السكاني فيهما، وتكثف النشاط العمراني فيهما، والحرب، لكن؛ لم تحدث تنمية اجتماعية قوية وهامة أكثر من ذلك.

هذه الصورة التي كانت مقبولة على نطاق واسع، ظهر - اليوم - أنها كانت صورة خاطئة.

#### الشمال مقابل الجنوب خلال الألفيات:

فتحت الاستطلاعات الأثرية المركزة في ريف التلال والهضاب الوسطى في الثمانينات نوافذ جديدة لفهم خصائص وأصول دولتي المرتفعات: يهوذا وإسرائيل. اختلفت الرؤى الجديدة - بشكل قوي - عن رواية الكتاب المقدس العبري. أظهرت الاستطلاعات أن ظهور الإسرائيليين في مرتفعات كنعان لم يكن حدثاً فريداً، بل كان - في الحقيقة - حادثة واحدة، ضمن سلسلة من التبدلات الديموغرافية (الجغرافية - السكانية) التي يمكن تتبعها خلال ألفية من السنوات.

في كل من موجتي الاستيطان السابقتين - في العصر البرونزي المبكر (2200. 3500 ق. م) وفي العصر البرونزي المتوسط (2000 - 1550 ق. م) - انتقل سكان المرتفعات الأصليين من حياة الرعي إلى الزراعة الموسمية، ثم إلى القرى الدائمة، ثم إلى اقتصاديات المرتفعات المتقدمة في أسلوب كان مشابهاً - بنحو مدهش - لعمليّة الاستيطان الإسرائيلية في العصر الحديدي الأول (1150. 900 ق. م)، لكنّ المفاجئ بدرجة أكبر، أن الاستطلاعات (والمعلومات التاريخية المجزأة) تشير إلى أنه في كل موجة استيطان في المرتفعات، بدا أن هناك مجتمعين متميزين

أحدهما في المرتفعات الشماليَّة والآخر في الجنوبيَّة؛ أي نفس المناطق تقريباً التي كانت تشغلها مملكتنا يهوذا وإسرائيل .

إنَّ خريطةً لمواقع مُرتفعات العصر البرونزي المبكر - على سبيل المثال - تُظهر نظاميَّ استيطان إقليميَّين مُختلفيَّين بشكلٍ واضح، مع حدِّ فاصلٍ بيْنهما، يسير تقريباً من شكيم (نابلس) إلى أورشليم (القُدس)، وهو نفس الحدُّ الذي سيكون - لاحقاً - الحدُّود بيْن إسرائيل ويهوذا . مثل مملكة إسرائيل التي وُجدت فيما بعد، كان نظام الاستيطان الشماليّ كفيّاً، ويمتلك تسلسلاً هرمياً معقداً من المواقع الكبيرة، والمتوسطة، والصغيرة، تعتمد جميعها - بشكل تامٍّ - على الزراعة المُستقرَّة . أمَّا المنطقة الجنوبيَّة؛ فعلى غرار مملكة يهوذا التي وُجدت فيما بعد، كان نظام التَّوطُن السُّكَّاني فيها مُتفاوتاً أكثر - في الغالب - في مواقع صغيرة، دُون مثل تلك التشكيلية من الأحجام المُختلفة . كان لدى الجنوب - أيضاً - عدد كبير نسبياً من المواقع الأثاريَّة ذات قطع فخاريَّة مبعثرة فحسب، بدلاً من آثار لبنانيات دائمة؛ ممَّا يقترح وُجود نسبة كبيرة من السُّكَّان تعيش حياة المجموعات الرُّعويَّة المُتقلِّبة .

كان كلُّ من الشمال والجنوب مُداراً مركزيّاً من قِبَل مركز واحد لكلِّ منهما، كان بُورَة لتتمركز إقليمي سياسي واقتصادي، وربما مركزاً للطُّقوس الدينيَّة الإقليميَّة أيضاً . ففي الجنوب، في العصر البرونزي الباكر، كان يُوجد موقع كبير يُسمَّى خربة التَّل (مدينة عاي التوراتيَّة)، يقع في شمال شرق أورشليم (القُدس) . كان يغطِّي مساحة تبلغ حوالي خمسة وعشرين هكتاراً، مثَّلت خمساً كاملاً لكلِّ المنطقة المبنية في ريف التلال والهضاب الجنوبيَّة . تُوكِّد تحصينات ذلك الموقع الرائعة ومعبد التذكاري منزلة الأساسيّة في الجنوب الرُّعوي والرعوي بشكلٍ كبير . أمَّا في الشمال؛ فكان هناك بضعة مواقع مركزيَّة، لكن؛ كان هناك موقع واحد يُسيطر عليها؛ وهو تَلّ الفرح، الذي يقع قُرب يُبوع كبير من الماء العذب، ويحرس الطريق الرئيسي الذي يهبط نحو وادي الأردن؛ حيث يبدو أنَّه يُسيطر على الأراضي الزراعيَّة الغنيَّة للمنطقة . ليس مُصادفةً محضةً - كما سنرى - أن تُصبح هذه المدينة - التي أصبحت تُعرف لاحقاً باسم ترصَّة - كما وردَ ذكرها في الكتاب المُقدس العبري - العاصمة الأولى لمملكة إسرائيل الشماليَّة .

في العصر البرونزي المتوسّط التّالي، كان لموجة الاستيطان في المرتفعات نفس الخصائص بالضبط. كانت مواقع الاستيطان الدائم قليلة جداً في الجنوب، وأغلبها صغير، وكان هناك عدد كبير من المجموعات الرعوية، أثبتت بواسطة مقابرها المنزلة غير المرتبطة بالمواقع الدائمة. كان الشّمال مأهولاً بالسكّان بشكل أكثر كثافة، وذا مزارعين مُستقرّين بنسب أكبر بكثير من نسب الرعاة. كان أهمّ مركز حضري في الجنوب أورشليم (القُدس)، التي كانت مُحصّنة بشدّة (كما كان حال مدينة 'عاي' في العصر البرونزي الباكر)، وانضمّ إليه مركز ثانوي هو حيرون (الخليل)، الذي كان مُحصّناً كذلك. أمّا المركز الكبير في الشّمال؛ فكان حين ذاك شكيم (نابلس). وقد كُشفت التنقيبات في موقع تلّ بلاطة في الأطراف الشرقيّة للمدينة عن تحصينات بارزة ومعبد كبير. بالإضافة إلى الإشارات الأثرية الدّالة على الانشقاق الشّمالي-الجنوبي، هناك -أيضاً- بعض الأدلّة النصّية المهمّة في مصر. أحد المصادر هو ما يُسمّى بـنُصوص اللعنة - أو نُقوش اللعنة -، كُتبت على أجزاء فخاريّة وعلى تماثيل صغيرة لأسرى حرب أُريد تحطيمها ودُفنها في احتضال جَلَب سوء الحظّ على أعدائهم في مصر. هذه النُصوص تُقدّم لنا -مثل الروايات القديمة للدمى الودونيّة المُغطّاة بالرُسوم الغاضبة- لمحة إلى الجغرافيا السياسيّة لكنعان خلال تلك الفترة، وخاصّة الأماكن والشعوب التي وجدها المصريون أكثر تهديداً لهم. تذكر النُصوص عدداً كبيراً من المُدن السّاحليّة والسّهليّة، ولكنها لا تذكر إلاّ مركزين في المرتفعات فقط: شكيم (نابلس) و(طبقاً لأغلب العلماء) أورشليم (القُدس). هناك مرجع مصري آخر حول المرتفعات يُضاف إلى الصّورة. إنّه النقش الذي يُسجّل مآثر جنرال يُسمّى خوسبق KhuSebek، قاد حملة عسكريّة مصريّة على مرتفعات كنعان في القرن التاسع عشر ق.م. . يُشير النقش إلى أرض ' (بدلاً من 'مدينة') شكيم (نابلس)، ويذكر شكيم (نابلس) كموازٍ لريتينو Retenu، أحد الأسماء المصريّة لكلّ أرض كنعان. يبدو أنّ هذا يُشير إلى أنّه بدءاً من الألفيّة الثانية ق.م، كانت شكيم (نابلس) -أحد أهمّ مراكز مملكة إسرائيل -محور كيان إقليمي كبير.

ليس لدينا معلومات نصّية حول الأراضي الجنوبيّة في العصر البرونزي المتوسّط، لكنّ هناك معلومات وفيرة حول مداها في الفترة القادمة؛ أيّ العصر البرونزي المتأخّر. تُؤكّد رسائل تلّ العمارنة التي يعود عهدها إلى القرن الرابع عشر ق.م، على تقسيم ريف التلال والهضاب

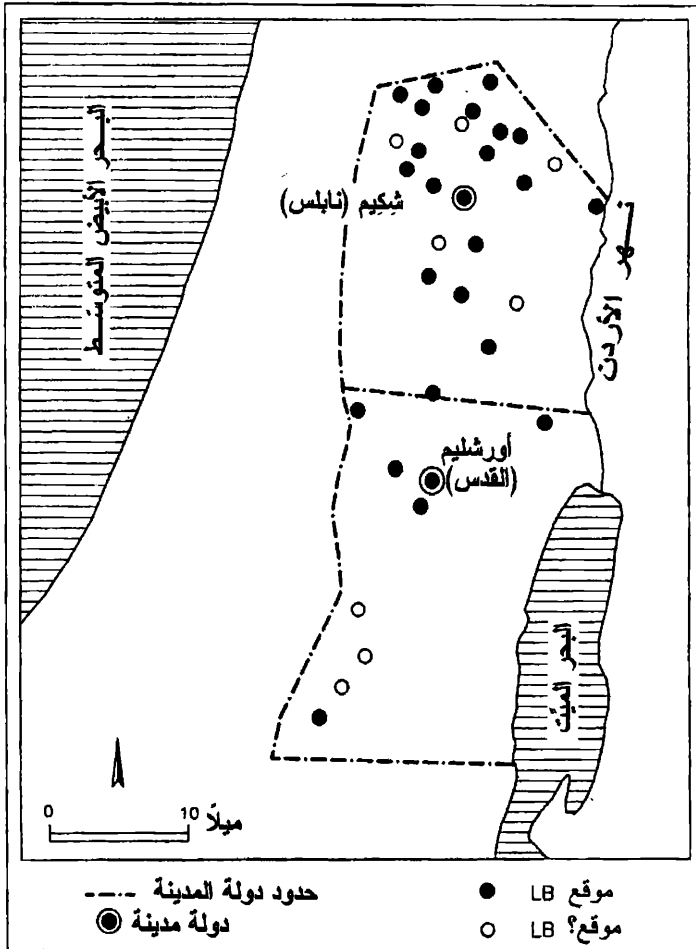
الوَسْطَى بَيْنَ دَوْلَتِي مُدُنْ، أو في الواقع دَوْلَتَيْنِ إِقْلِيمِيَّتَيْنِ مُبَكَّرَتَيْنِ: شَكِيم (نابلس) وأورشليم (انظر الشُّكْلَ 19). تُحِيلُ عدد من الرسائل بالاسم إلى حُكْمِ دَوْلَتِي المُدُنْ هَاتَيْنِ - مَلِكٌ يُسَمَّى عَبْدِي حَبَا Abdi Heba حَكَمَ فِي أورشليم (القدس)، وملك يُسَمَّى لَابَايُو Labayu حَكَمَ فِي شَكِيم (نابلس). - كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا كَانَ يُسَيِّرُ عَلَى أَرْضِ تَبْلُغُ مَسَاحَتَهَا حَوَالِي أَلْفِ مِيلٍ مُرَبَّعٍ. كَانَتْ تَلِكُ أَوْسَعِ الْمَنَاطِقِ الَّتِي يُسَيِّرُ عَلَيْهَا حَاكِمٌ مَحَلِّيٌّ وَاحِدٌ؛ لِأَنَّهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ كَانَتْ سُهُولٌ وَوُدْيَانٌ كُنْعَانُ السَّاحِلِيَّةِ مُسَمَّاةً إِلَى الْعَدِيدِ مِنَ الْمُدُنِ الصَّغِيرَةِ جَدًّا، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا يُسَيِّرُ عَلَى أَرْضٍ صَغِيرَةٍ ذَاتِ كَثَافَةٍ سَكَّانِيَّةٍ عَالِيَةٍ نَسْبِيًّا. بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْوَحْدَاتِ السِّيَاسِيَّةَ فِي الْمُرْتَفَعَاتِ كَانَتْ أَكْبَرَ بِكَثِيرٍ مِنْ نَاحِيَةِ الْمَسَاحَةِ، إِلَّا أَنَّ عِدَدَ سَكَّانِهَا كَانَ أَقَلَّ بِكَثِيرٍ.

لَقَدْ كَانَتْ شَكِيم (نابلس) وَأورشليم (القدس)، إِسْرَائِيلَ وَيَهُودَا، أَرْضِي مُتَمَيِّزَةً وَمُتَنَافِسَةً دَائِمًا. وَكَانَ هُنَاكَ أَسْبَابٌ قَوِيَّةٌ لِهَذِهِ الْاِخْتِلَافَاتِ: كَانَتِ الشَّمَالُ وَالْجَنُوبُ مَنطَقَتَيْنِ ذَوَاتِي بِيئَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ بِشَكْلِ جَدْرِي.

#### عَالِمَانِ فِي الْمُرْتَفَعَاتِ:

تَبْدُو الْمُرْتَفَعَاتُ الْوَاقِعَةُ بَيْنَ يَزْرَعِيلَ وَوُدْيَانِ بَثْرَسِيعَ، لِأَوَّلِ هَلَّةٍ، مُشْكَلَةً لِكِتْلَةِ جَغْرَافِيَّةٍ مُتَجَانِسَةٍ، وَلَكِنَّ التَّفَاصِيلَ الْبَيْئِيَّةَ وَالطُّوغْرَافِيَّةَ (التَّضَارِيسِيَّةَ) تُقَدِّمُ صُورَةً مُخْتَلِفَةً جَدًّا. إِنَّ لِكُلِّ مِنَ الشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ نِظَامًا بَيْئِيًّا مُتَمَيِّزًا يَخْتَلِفُ عَنِ الْآخَرِ مِنْ كُلِّ النُّوَاحِي: مِنْ نَاحِيَةِ التَّضَارِيسِ، وَتَشْكِيلَاتِ الصُّخُورِ، وَالْمَنَاحِ، وَالتَّفْطِيلَةِ النَّبَاتِيَّةِ، وَمَصَادِرِ الْإِمْكَانِيَّاتِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ.

لَقَدْ كَانَتْ يَهُودَا - دَائِمًا - الْجُزْءَ الْأَكْثَرَ بَعْدَ النَّائِي لِرَيْفِ التَّلَالِ وَالْهَضَابِ، مَعزُولَةً بِوَأَسْطَةِ حَوَاجِزِ تَضَارِيسِيَّةٍ وَمَنَاحِيَّةٍ. وَعَلَى الْعَكْسِ؛ كَانَتْ الْأَجْزَاءُ الشَّمَالِيَّةُ لِلْمُرْتَفَعَاتِ تَتَأَلَّفُ مِنْ تَجْمِيعِ رُفُوعٍ مِنَ الْوُدْيَانِ الْخَضِيبَةِ الْمَحْشُورَةِ بَيْنَ الْمُنْحَدِرَاتِ التُّجَاوِرَةِ لِلْمُرْتَفَعَاتِ. بَعْضُ تَلِكِ الْوُدْيَانِ يُوقِرُ أَرْضِي زَرَاعِيَّةً خَضِيبَةً بِنَحْوِ كَافٍ لِإِعَالَةِ سَكَّانِ عِدَّةٍ قُرَى. وَبِالنَّائِي؛ كَانَتْ مَنطَقَةٌ مُنتِجَةٌ نَسْبِيًّا، مَعَ وُدْيَانٍ دَاخِلِيَّةٍ مَعَ أَرْضِ هَامْشِيَّةٍ شَرْقِيَّةٍ لِحَاقَةِ الصَّحْرَاءِ كَانَتْ تُزْرَعُ بِشَكْلِ رَيْسِي بِالْحَبُّوبِ، بَيْنَمَا كَانَتْ تُزْرَعُ مَنَاطِقُ التَّلَالِ وَالْهَضَابِ بِيَسَاتِينِ الْكُرْمِ وَالزَّيْتُونِ. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْمُسَافِرَ الْعَابِرَ قَدْ يَجِدُ هَذِهِ الْمَنطَقَةَ الْيَوْمَ أَكْثَرَ مُرْتَفَعَاتٍ فِي ظَاهِرِهَا مِنَ الْجَنُوبِ، إِلَّا أَنَّ الْمَوَاصِلَاتِ وَنَقْلَ الْمَحَاصِيلِ الزَّرَاعِيَّةِ فِيهَا أَسْهَلُ بِمَا لَا يُقَاسُ.



الشكل 19: وُحْدَتًا مُرتَفَعَاتٍ فِي القَرْنِ الرَّابِعِ عَشْرَ ق.م (فَتْرَةُ العِمَارَةِ).

التحدرات نحو الغرب معتدلة أكثر بكثير، وفي الحقيقة؛ تُسهّل -بدلاً من عرقلتها- العبور إلى الأسفل نحو مدُن سهل البحر الأبيض المُتوسّط السّاحليّة. ويقع الاتّساع العريض لوادي يَزْرَعِيلَ على الحافّة الشماليّة لهذه المنطقة، مُشكّلاً أرضاً زراعيّة غنيّة جداً، عملت كطريق بريّ رئيسي - أيضاً - للتّجارة والمواصلات بين مصر وبلاد ما بين النّهريّن .

في الشّرق، كانت منطقة سهل الصّحراء أقلّ قحالة، وأقلّ وعورة منها في المناطق الأبعد نحو الجنوب، ممّا يُوفّر حرّيّة نسبيّة في تنقّل النّاس، وانتقال السلّع بين الحافّة المركزيّة، ووادي الأردن، ومُرتفعات الضّفة الشّرقية للأردن في الشّرق.

أيّ وحدة إقليميّة كانت تبرز في المُرتفعات الشماليّة كانت تتمتع بطاقة اقتصاديّة كامنة أعظم جداً من تلك التي تتوفّر لأيّ وحدة تقوم في الجنوب. وبالرّغم من أنّ الآليّة الأساسيّة للتّوطن في المُرتفعات في كلّي المنطقتين كانت مُتماثلة، - أيّ الانتقال من تربية المواشي والزّراعة الموسميّة، إلى الاعتماد الأوسع على الزّراعة المُتخصّصة - إلّا أنّ الشّمال كان عنده مصادر أكثر ومناخ أغنى للاستغلال. في المراحل المبكّرة لكلّ موجة استيطان، عندما كان القسم الأكبر لسكّان المُرتفع يتركّزون في الحافّات الشّرقية لسهول وواديان المُرتفعات الشّرقية، حافظوا على توازن، وعلى اقتصاد مُكتفٍ ذاتياً بشكّل جوهريّ. كان أهالي كلّ قرية يُؤمّنون - بأنفسهم لأنفسهم - حاجاتهم من المحاصيل الزراعيّة والمنتجات الحيوانيّة، ولكن؛ عندما أُجبرت الضّغوط السّكانيّة وإغراء الحُصول على فرص اقتصاديّة أفضل السكّان بالتوسّع نحو الحوافّ الغربيّة لريف التلال والهضاب، كان للشّماليين ميزة مُتميّزة على الجنوبيين، لقد كانوا قادرين على تطوير اقتصاد مُتخصّص وأكثر تطوُّراً؛ لأنّ التحدرات الغربيّة لمناطق المُرتفعات الشماليّة كانت أقلّ شدة في انحدارها وأقلّ صخريّة من تلك التي في الجنوب، وبالتالي؛ كانت أكثر مناسبة بكثير لزراعة الزّيّون وبساتين الكروم، على بقع صغيرة مُمهّدة في سفوح التلال وجوانب المُرتفعات. وقد شجّع التّخصّص الابتدائي في الزّيّون والعنب على نُموّ وتطوُّر تقنيّة معالجة هذه المنتجات بشكّل كفاء، وتحويلها إلى زيت زيتون ونبيد. كما أنّ ذلك أدّى إلى ظهور مؤسسات اقتصاديّة - أيضاً - من الأسواق، ووسائل النّقل والتّبادل، لكي تتمكّن القرى المُنتجة للنبيد والزّيّون من الحُصول على الحُبوب المطلوبة بشكّل حيوي، وعلى مُنتجات الحيوانات مُقابل مُنتجاتها الخاصّة.

وكانت النتيجة تزايد تعقيد مُجتمعات المُرتفعات الشماليَّة، وفي النِّهاية؛ بلورة شيء يُشبه الدَّولة. ودفعت تجارة التصدير إلى سُكَّان السُّهول، والأكثر أهميَّة، التصدير إلى أسواق مُدُن مصر الكبيرة وموانئ الساحل الفينيقي، دفعت بالأُمُور خُطوات أُخرى نحو الأمام. وهكذا، في بداية العصر الحديدي، استعدت المُرتفعات الشماليَّة لأن تُصبح أكثر سُكَّاناً وأكثر ثروة من المُرتفعات في الجنوب.

### تشكيل الدَّولة في عالم الكتاب المُقدَّس العبري:

لقد كان تطوُّر مُرتفعات كَنْعَانَ إلى حُكومتين مُتميزتين تطوُّراً طبيعيًّا. ليس هناك أيُّ دليل آثاري مُطلقاً بأنَّ هذه الحالة بيَّن الشمال والجنوب نتجت عن وحدة سياسيَّة سابقة - خاصَّةً عن وحدة مُتمركزة في الجنوب. في القرنين العاشر والتاسع ق. م، كانت يهوذا ماتزال مسكونة بشكلٍ ضعيفٍ جداً، مع عدد محدود من القرى الصَّغيرة، لا يتجاوز في الواقع أكثر من عشرين قرية، أو نحو ذلك. هناك سبب جيِّد للاعتقاد، استناداً ل: تركيب العشيرة المُتميّز، والاكتشافات الأثرية في يهوذا، أنَّ الشَّريحة الرَّعيَّة من السُّكَّان كانت ماتزال هامَّةً هناك. ونحنُ مازلنا لا نمتلك أيُّ دليل آثاري. على الرُّغم من الأوصاف الفريدة في الكتاب المُقدَّس عن عَظَمَتها. على أنَّ أُورشليم (القُدس) كانت أكثر من مُجرَّد قرية مُرتفعات بسيطة أثناء عهد داود، وسليمان، ورحبعام. وفي الوقت نفسه؛ النِّصف الشمالي للمُرتفعات. وبشكلٍ خاصُّ الأراضي التي انفصلت عن الحُكْم الملكي المُتحد على ما يقال - كانت مأهولة بشكلٍ كثيفٍ بالعشرات من المواقع، وكانت تتمتع بنظام استيطان مُتطور. بشكلٍ جيِّد. تضمَّن مراكز إقليميَّة كبيرة، ومُدُن وبلدات من كُلِّ الأحجام، وقرى صغيرة جداً. وببساطة؛ بينما كانت يهوذا ماتزال هامشيَّة اقتصاديًّا ومُتخلِّفة، كانت إسرائيل تزدهر وتتمو.

في الحقيقة؛ كانت إسرائيل تسير بخُطوات سريعة في طريقها نحو صيرورتها دولة مُتطوِّرة بالكامل خلال بضعة عقود بعد النِّهاية المُترضة للحُكْم الملكي المُتحد؛ أي حوالى سنة 900 ق. م. . . ونقصد بعبارة مُتطوِّرة بالكامل أنها أصبحت أرضاً محكومة بالبيات إداريَّة تنظيميَّة (بيروقراطيَّة)، التي تتجلى بتقسيم طبقي اجتماعي كما رأينا في توزيع المواد الثريَّة الفاخرة، ومشاريع البناء الكبيرة، والنشاطات الاقتصاديَّة المُزدهرة، بما في ذلك التجارة مع المناطق المُجاورة، ونظام استيطان مُتطور بالكامل.



تطوّرت في إسرائيل مراكز إدارية إقليمية منذ أوائل القرن التاسع ق. م. . وكانت تلك المراكز مُحصّنة ومُجهّزة بالقصور المُتقنة التي بُنيت من الحجر المنحوت، وزُيّنت برؤوس العواميد الحجرية؛ تجد أفضل الأمثلة على ذلك في مَجْدُو، وَيَزْرَعِيل، والسَّامرة. أمّا في الجنوب؛ فلم تظهر الأبنية المبنية من الحجر المنحوت ورؤوس العواميد الحجرية إلا في القرن السابع ق. م.، وتظهر بحُجُوم أصغر، وينحُو أقلّ تأثراً بتأثيرات أجنبية، ونوعيّة أضعف في فنّ البناء. هناك - أيضاً - اختلاف عظيم في التخطيط وفي تطوّر المُدن الكبيرة. تأسّست السَّامرة، عاصمة المملكة الشماليّة، كمركز حُكُوميّ واسع وكبير في حُدُود القرن التاسع؛ في حين أنّ أُورشليم (القدس) لم تُصبح مدينة كاملة إلا في أواخر القرن الثامن.

بالإضافة لذلك؛ تطوّرت صناعة زيت الزيتون في إسرائيل في حُدُود القرن التاسع، لكنّ إنتاج زيت الزيتون في يهوذا، لم يتحوّل من إنتاجه من قِبَل عوائل محليّة خاصّة إلى صناعة حُكُوميّة إلا في القرن السابع ق. م. . وأخيراً؛ يجب أن ننظر إلى تاريخ الاستيطان في المُرتفعات، الذي استقرّ في الشمال في وقت سابق على يهوذا، ووَصَلَ إلى مُستويات من الكثافة السكّانية أعلى بكثير ممّا في يهوذا. وخلاصة الأمر؛ نستطيع أن نقول - بكلّ اطمئنان - إنّ المملكة الشماليّة لإسرائيل ظهّرت كحالة مُتطوّرة بالكامل في وقت باكر، ليس بعد بدايات القرن التاسع ق. م.، في وقت لم يتغيّر فيه مُجتمع واقتصاد يهوذا إلا تغيّراً قليلاً عن أصوله كقُرَى مُرتفعات بسيطة. كلُّ هذا - أيضاً - تدعّمه السجّلات التاريخيّة.

في الفصل القادم؛ سنرى كيف ظهّرت المملكة الشماليّة - فجأة - على مسرح الشرق الأدنى القديم كقوّة إقليمية رئيسيّة في التحالف الذي واجه الملك الآشوري شلمانصر الثالث في معركة "قرقر" في سنة 853 ق. م. .

ليس هناك شكّ في أنّه كانت بين دولتيّ العصر الحديدي - إسرائيل ويهوذا - قواسم مُشتركة كثيرة. فكلاهما عبّد يهوّه (من بين الألهة الأخرى). واشترك شعباهما في الإيمان بالعديد من الأساطير، والأبطال، والحكايات التي تدور حول أحداث في الماضي البعيد. تكلم شعباهما لغات مُماثلة أيضاً، أو لهجات عبريّة، وفي القرن الثامن ق. م.؛ كُتِب كلاهما المخطوطة نفسها، لكنهما كانتا - أيضاً - مُختلفتين جدّاً عن بعضهما البعض في تركيبتهما السكّانية، وفي طاقتهما الاقتصادية، وحضارتهما الماديّة، وعلاقتيهما مع جيرانهما.

وبساطة؛ واجهت إسرائيل ويهوذا تواريخ مختلفة جداً، وطوّرت كلُّ منهما ثقافات مُتميّزة. ويعنى من المعاني، لم تكن يهوذا تزيد على منطقة من مناطق إسرائيل الداخليّة الريفيّة.

ابتداء تاريخ إسرائيل:

طوال كلِّ ألفيّات تاريخ كنعان الإنساني، لربّما كانت الارتفاعات الشماليّة أغنى من الارتفاعات الجنوبيّة، لكنّها لم تكن ناجحة ومتمدّنة بنحو يقارب ازدهار وتمدّن دول المدن الكنعانيّة في الوديان والسهل الساحلي. وفي الحقيقة؛ كان الذي مكّن الارتفاعات من الاستمرار في حالة الاستقلال الابتدائي - كما رأينا - نظام دول المدن الكنعاني الذي عانى سلسلة من الكوارث التدميريّة المأساويّة (الفاجعة) في نهاية العصر البرونزي المتأخّر. وسواء كان سبب تلك الكوارث نهب شعوب البحر، أو المنافسات بين المدن، أو اضطرابات اجتماعيّة، فإنّ الاقتصاد السهلي تعرّض - فعلاً - إلى ضربة ساحقة.

بمرور الوقت؛ بدأ السكّان الكنعانيون للسهول - في القرن الحادي عشر ق.م - بالازدهار من جديد. كما أنّ الفلسطينيين، الذين كانوا قد استقروا سابقاً على طول الساحل الجنوبي، دعموا مدّنتهم بقوة، ثمّ احتلّ الفينيقيون - ورثة الكنعانيين الساحليين - الموانئ البحريّة في الشمال. أمّا في الوديان الشماليّة؛ فينبما عانت مواقع رئيسيّة مثل مجدو من الدمار أثناء القرن الثاني عشر ق.م، استمرّت الحياة في المناطق الريفيّة الأقلّ تمدّناً بلا انقطاع. وبعد بضعة عقود من التركّح حتّى المواقع الرئيسيّة عادت إلى الحياة، وأصبحت مأهولة بالسكّان من جديد، وعلى ما يبدو؛ كانوا من نفس نوع السكّان السابقين، - أي السكّان الكنعانيون المحليون للسهول - والبعض من المراكز الكنعانيّة الأكثر أهميّة جدّدت، واستمرّت جيّداً حتّى القرن العاشر ق.م.

تعدّ مجدو مثلاً جيّداً على هذه العمليّة. بعد عدّة عقود من دمار مدينة العصر البرونزي المتأخّر، بقصرها المتقن، استؤنّف التوطن في الموقع على نحو معتدل. بعد بضعة عقود أكثر؛ كان هناك إشارات هامّة على نموّ سكّاني وعمراني، بدقّة؛ إلى درجة أنّ أصبحت مجدو مرّةً أخرى مدينة كبيرة (دُعيت الطبقة الثامنة)، مع كلِّ ميزات ثقافتها الكنعانيّة السابقة تقريباً. أشبهت أساليب الفخاريّات فيها تلك التي كانت في القرن الثاني عشر ق.م؛ كما أشبهت حطّة البلدة نفس الحجم وتخطيط المدينة التي كانت في العصر البرونزي المتأخّر في مجدو؛ والأكثر

أهميّة، بقي المعبد الكنعاني يعمل كالسابق . كُشِفَ التفتيب في المواقع الرئيسيّة الأخرى في الوُدَيان والسّهّل الساحلي الشمالي، مثل تلّ دور (على الساحل إلى الغرب من مَجْدُو) وتلّ ربحوف (جنوب بحر الجليل)، صورةٌ مُماثلة عن استمرار عالم دُول المُدُن الكنعانيّة، والذي كانت تُسيطر فيه البلدات أو المُدُن الكبيرة على الرّيف المُزدهر .

لكنّ هذا الازدهار المُتأخّر لکنعان لم يكن ليُدوم طويلاً . سيتمُّ تدمير المُدُن الشماليّة بالعنْف والنّار . كان الخراب ساحقاً جدّاً، لدرجة أنّ تلك المُدُن لم تستطع - إلى الأبد - أن تتعافى من تلك الصّدمة . كان هذا نفسُ كُنْعان الأخير . فماذا حدّث؟

كانت مصر - التي مرّت منذُ مُدّة طويلة بفترة من الانحطاط والانسحاب من السّاحة الدّوليّة - قد أصبحت جاهزة - أخيراً - لإعادة تأكيد قوّتها على الأراضي في الشّمال . قُرِب نهاية القرن العاشر ق م؛ أطلق الفرعون شيشانق، مؤسس السّلالة الثّانية والعشرين (المعروف بشيشنق في التّقوس المصريّة)، هُجُوماً عدوانياً باتجاه الشّمال . هذا الغزو المصريّ المذكور في الكتاب المُقدّس العبري، من منظور يَهُوَدَوِيّ محض، في فقرةٍ من سفر الملوك تُقدّم لنا أبكر ارتباط بين السّجلات التّاريخيّة الخارجيّة ونصّ الكتاب المُقدّس: [ وفي السّنة الخامسة للملك رَحَبَعَام، صعدَ شيشنقُ ملك مصر إلى أورشليم . وأخذَ خزائن بيت الربِّ وخزائن بيت الملك، وأخذَ كلَّ شيءٍ . وأخذَ جميع أتراس الذهب التي عملها سليمان ] (سفر الملوك الأوّل 14 / 25 - 26) .

رغم ذلك؛ نعرف - الآن - بأنّ أورشليم (القُدس) كان من الصّعوبة جدّاً أن تكون السّهف الوحيد، أو حتّى السّهف الأكثر أهميّة . يصف نقش انتصاريّ أثريّ أمرَ الفرعون شيشنق بكتابته على جدران معبد "الكرنك" العظيم في قوائم مصر العليّا أنّ حوالي مئة وخمسين بلدة وقرية تمّ تدميرها في تلك العمليّة . كانت تلك القرى تقع في الجنوب، خلال ريف التلال والهضاب المركزيّة (الوُسَطى)، وعبر وادي يَزْرَعيل والسّهّل الساحلي .

وقد أدرجت المُدُن الكنعانيّة التي كانت - حينذاك - مُدناً عظيمة؛ مثل "ربحوف"، وتيت شان، وتعتك، ومجدو" كأهداف للقوات المصريّة، وقد وُجدت - في الواقع - قطعة من مسلّة النّصر التي تحمل اسم شيشانق في "مجدو"، ولسوء الحظّ؛ كانت ضمن نفايات أعمال التفتيب السّابقة، ولذلك كان ارتباطها الأثاريّ الدقيق غير واضح . كُشِفَت الطبقات السميكة

من الحريق والانهار في تلك المواقع وفي غيرها من المواقع الكبيرة في الشمال، عن شواهد مؤيرة، للدمار المفاجئ والكلي لهذا النظام الكنعاني في أواخر القرن العاشر ق. م. . . ويعدّ شيشانق، الذي قام بحملة في المنطقة عام 926 ق. م، المرشح الأكثر احتمالاً وراء تلك الموجة من الدمار<sup>(1)</sup>. تبدو قائمة الكرنك ونتائج التفتيات الأخيرة مشيرة لضربة شيشانق للشبكة النامية من القرى الإسرائيلية المبكرة في المرتفعات أيضاً.

لكن حملة شيشانق لم تُود إلى السيطرة الدائمة على كنعان. عندما وضعت الحرب أوزارها، كان واضحاً أن الضربة في المرتفعات كانت عابرة فقط (كان أثرها الظاهر الوحيد هجرة بعض القرى شمال أورشليم). إلا أن الضربة التي وجهت ضدّ المدن الكنعانية في وادي يزرعيل كانت قاصمة ونهائية. وكان لها آثار عظيمة؛ لأنّ دمار آخر دولة من دول المدن الكنعانية فتح فرصة سانحة أمام سكّان المرتفعات الشماليّة، الذين كانوا - من قبل - قد بدؤوا يبرون بفترة من النمو الاقتصادي والسكاني الكبير. لقد فتح ذلك الدمار الطريق أمام بروز مملكة تامة قادرة على التوسّع من مناطق المرتفعات الشماليّة باتجاه السهول المجاورة في أواخر القرن العاشر نفسه، أو من المحتمل أكثر في بداية القرن التاسع ق. م. . .

بعيداً إلى الجنوب؛ في المرتفعات الجنوبيّة؛ حيث تُوجد بضعة قرى تحيط بأورشليم، واصل النظام القديم للقرى المتأثرة والرعيّة حياته. وعلى الرّغم من قصص الكتاب المقدّس التالية عن الإمبراطوريّة العظيمة لداود وسليمان، اللّذين سيفتحان ويديران البلاد من "دان" في أقصى الشمال إلى "بئر سبع" في أقصى الجنوب، لن تُوجد دولة حقيقة هنالك قبل أن تمرّ مائة سنة أخرى.

أربع نبوءات حقيقيّة:

لماذا يروي الكتاب المقدّس العبري قصّة الانشقاق الديني وانفصال إسرائيل عن يهوذا تلك في مثل هذا التعارض العظيم مع الشواهد التاريخيّة؟ إذا كانت الإيقاعات القديمة للحياة في مرتفعات كنعان قد قرّست ثقافتين إقليميتين متميزتين، وإذا كانت دولتا إسرائيل ويهوذا

(1) يطرح بديل شيشانق مشكلة: لماذا قام الملك المصري بتحطيم المدن في وادي يزرعيل إذا كان ينوي الاستمرار في السيطرة على كنعان؟ ولماذا يقوم بنصب مسلة نصر متعنة في مدينة مدمرة مثل "مجدو"؟ إن المرشح المحتمل الآخر كعامل لدمار المدن الكنعانية يُمكن أن يكون مملكة إسرائيل الشماليّة في أيامها الأولى. (المؤلف).

مُخْتَلَفَتَيْنِ جَدًّا فِي طَبِيعَتِهِمَا مِنْذُ الْبِدَايَةِ ذَاتَهَا، فَلَمَّا ذَا قَامَ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ - بِكُلِّ ذَلِكَ الْإِصْرَارِ الْمُنْظَمِ وَالْمُنْعَمِ - بِتَصْوِيرِهِمَا كَدَوْلَتَيْنِ تَوْعَمَيْنِ ؟

هُنَاكَ أَرْبَعَةُ نُبُوءَاتٍ مُسْتَقْبَلِيَّةٍ أَوْحَى اللَّهُ بِهَا، ثُمَّ نَسَجَهَا وَضَمَّهَا - بِنَحْوِ حَاذِقٍ وَمَاهِرٍ جَدًّا - ضَمَّنَ قِصَّةَ انْتِهَاءِ الْحُكْمِ الْمَلِكِيِّ الْمُتَّحِدِ، وَتَأْسِيسِ مَمْلَكَةِ إِسْرَائِيلِ الْمُسْتَقْبَلَةِ، تَلْمِيحًا لِلْجَوَابِ عَنْ ذَلِكَ السُّؤَالِ .

هَذِهِ النُّبُوءَاتُ الْمَوْحَى بِهَا - الَّتِي كُتِبَتْ بِشَكْلِ أَنْصَالٍ مُبَاشِرٍ بَيْنَ اللَّهِ وَعَدَدٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ - تُمَثِّلُ - فِي الْوَأَقِعِ - جُهُودَ جِيلٍ لَاحِقٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ الْيَهُودِيِّينَ، الَّذِينَ سَعَوْا لِتَوْضِيحِ تَبَدُّلَاتِ التَّارِيخِ وَالتَّغْيِيرَاتِ غَيْرِ التَّوَقُّعَةِ لِمُجْرِيَاتِ أَحْدَاثِهِ .

اعْتَقَدَ شَعْبُ يَهُوذَا أَنَّ اللَّهَ أَعْطَى وَعْدَهُ لِدَاوُدَ أَنَّ سُلَالَتهُ سَتَكُونُ آمِنَةً إِلَى الْأَبَدِ، وَمُسْتَقْرَّةً فِي أُورُشَلِيمَ (الْقُدْسِ) . رَغْمَ ذَلِكَ وَجَدَّتْ دَوْلَةُ يَهُوذَا نَفْسَهَا تَعِيشُ لِقُرُونٍ عَدِيدَةٍ فِي ظِلِّ إِسْرَائِيلِ، الَّذِي كَانَ مُلُوكَهَا لَا يُعِيرُونَ أُورُشَلِيمَ (الْقُدْسَ) إِلَّا أَهْتِمَامًا ضَنِيحًا . كَيْفَ أَمَكُنَ لِهَذَا أَنْ يَحْدِثَ ؟ نَضَعُ قِصَّةَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ اللَّائِمَةَ مُبَاشِرَةً عَلَى الْخِيَانَةِ الدِّينِيَّةِ لِأَحَدِ مُلُوكِ يَهُوذَا . وَتَعَدُّ بِأَنَّ انْقِسَامَ إِسْرَائِيلِ إِلَى مَمْلَكَتَيْنِ مُتَنَافِسَتَيْنِ سَيَكُونُ عِقَابًا مُوقْتًا قَطْعًا، عَلَى ذَنْبِ عَضْوِ كَبِيرٍ مِنْ سُلَالَةِ دَاوُدَ الْمُبَارَكَةِ مِنَ اللَّهِ .

لَامَتِ النُّبُوءَةُ الْأُولَى - بِشَكْلِ قَاطِعٍ - التَّجَاوِزَاتِ الشَّخْصِيَّةَ لِابْنِ دَاوُدَ: سُلَيْمَانَ، وَعَدَّتْهَا السَّبَبَ فِي تَقْسِيمِ وَحِدَةِ إِسْرَائِيلِ . وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ صَوَّرَ سُلَيْمَانَ كَأَحَدِ أَعْظَمِ الْمُلُوكِ الَّذِي لَمْ يَسِقْ لَهُ مِثِيلٌ فِي كُلِّ الْأَزْمَةِ، مَلِكٌ حَكِيمٌ وَغَنِيٌّ، يَحْكُمُ عَلَى أَرْضِ تَمْتَدُّ مِنَ الْفُرَاتِ إِلَى حُدُودِ مِصْرَ، إِلَّا أَنَّهُ صَوَّرَهُ - أَيْضًا - كَمُذْنَبِ آتَمٍ، تَزَوَّجَ مِنْ نِسَاءِ أَعْجَنِيَّاتٍ، وَأَدْخَلَهُنَّ فِي حَرَمِهِ الْمَلِكِيِّ، وَهُوَ - بِالضَّبْطِ - نَوْعُ الْأَتِّصَالِ الَّذِي حَرَمَهُ يَهُوَهُ - بِصِرَامَةِ - عَلَى الْإِسْرَائِيلِيِّينَ، خَشِيَةَ أَنْ تُعْمِلَ الزَّيْجَاتُ مَعَ النِّسَاءِ الْوَكْنِيَّاتِ قُلُوبَ أَزْوَاجِهِنَّ نَحْوَ عِبَادَةِ الْأَلِهَةِ الْأُخْرَى . وَذَلِكَ - بِالضَّبْطِ - مَا يَرِوِيهِ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ :

4] وَكَانَ فِي زَمَانِ شَيْخُوخَةِ سُلَيْمَانَ أَنَّ نِسَاءَهُ أَمَلْنَ قَلْبَهُ وَرَأَى إِلَهَةَ أُخْرَى، وَكَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ كَامِلًا مَعَ الرَّبِّ إِلَهِهِ كَقَلْبِ دَاوُدَ أَبِيهِ . 5 فَذَهَبَ سُلَيْمَانَ وَرَأَى عَشْتُورَةَ إِلَهَةَ الصَّيْدِ وَبَيْنَ وَمَلَكُومَ رَجَسَ الْعَمُونِيِّينَ . 6 وَعَمَلَ سُلَيْمَانَ الشَّرَّ فِي عَيْنِي الرَّبِّ، وَكَمْ يَتَّبِعِ الرَّبُّ تَمَامًا كَدَاوُدَ

أبيه . 7 حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموابيين على الجبل الذي تجاه أورشليم ، ولمولك رجس بني عمون . 8 وهكذا فعل لجميع نساءه الغريسات اللواتي كن يوقدن ويدبحن لالهتهن . [ سفر الملوك الأول 11 / 4 - 8 ] .

وهكذا أصبح العقاب أمراً حتمياً لا يمكن اجتنابه ، لوريث داودي لم يسع الرب تماماً ، بينما عمل ذلك داود أبوه : [ 11 قَالِ الرَّبُّ لِسُلَيْمَانَ : مِنْ أَجْلِ أَنْ ذَلِكَ عِنْدَكَ ، وَكَمْ تَحْفَظُ عَهْدِي وَقَرَأَنْصِيَّ الَّتِي أَوْصَيْتَكَ بِهَا ، فَإِنِّي أَمْرُقُ الْمَمْلَكَةَ عَنْكَ تَمْرِيقاً ، وَأَعْطِيهَا لِعَبْدِكَ . 12 إِلَّا إِنِّي لَا أَفْعَلُ ذَلِكَ فِي أَيَّامِكَ ، مِنْ أَجْلِ دَاوُدَ أَبِيكَ ، بَلْ مِنْ يَدِ ابْنِكَ أَمْرُقُهَا . 13 عَلَى أَنِّي لَا أَمْرُقُ مِنْكَ الْمَمْلَكَةَ كُلَّهَا ، بَلْ أُعْطِي سَبْطاً وَاحِداً لَابْنِكَ ، لِأَجْلِ دَاوُدَ عَبْدِي ، وَلا لِأَجْلِ أُورَشَلِيمِ الَّتِي اخْتَرْتَهَا ] . [ سفر الملوك الأول 11 / 11 - 13 ] .

هكذا تم تعليق الوعد الأصلي لداود . وإن كان لم يُلغ بشكل كامل . بسبب ذلك الذنب الذي وقَّع به سليمان .

تعاملت النبوءة الثانية مع "خادم سليمان" الذي خلف داود في الحكم . إنه كان يرُبعام بن ناباط ، من قبيلة "فرايم" الإسرائيلية ، الذي خدَم في إدارة سليمان كموظف مسؤول عن التجنيد الإلزامي للعمال بين قبائل الشمال . وفي يوم من الأيام - وهو عائد في طريقه من أورشليم (القدس) - قابل النبي "أخيا" الشيلوني (من شيلوح) ، الذي مزق كسائه الذي كان يلبسه إلى اثنتي عشرة قطعة ، وأعطى يرُبعام منها عشر قصاصات . كانت نبوءة "أخيا" حاسمة ومصيرية :

[ وَقَالَ لِيرُبعَامَ : ( حُذِّ لِنَفْسِكَ عَشْرَ قَطْعٍ ، لِأَنَّهُ هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ : هَاأَنْدَا أَمْرُقُ الْمَمْلَكَةَ مِنْ يَدِ سُلَيْمَانَ ، وَأَعْطِيكَ عَشْرَةَ أَسْبَاطٍ . 32 وَيَكُونُ لَهُ سَبْطٌ وَاحِدٌ مِنْ أَجْلِ عَبْدِي دَاوُدَ وَمِنْ أَجْلِ أُورَشَلِيمِ الْمَدِينَةِ الَّتِي اخْتَرْتَهَا مِنْ كُلِّ أَسْبَاطِ إِسْرَائِيلَ ، 33 لِأَنَّهُمْ تَرَكَوْنِي وَسَجَدُوا لِعَشْتُورَثَ إِلَهَةِ الصِّيدُونِيِّينَ وَلِكَمْوُشَ إِلَهَةِ الْمُوَابِيِّينَ وَلِلْكَوْمِ إِلَهَةِ بَنِي عَمُونَ ، وَكَمْ يَسْلُكُوا فِي طُرُقِي لِيَعْمَلُوا الْمُسْتَقِيمَ فِي عَيْتِي وَقَرَأَنْصِي وَأَحْكَامِي كدَاوُدَ أَبِيهِ . 34 وَلا أَخْذُ كُلَّ الْمَمْلَكَةِ مِنْ يَدِهِ ، بَلْ أُصِيرُهُ رَيْساً كُلِّ أَيَّامِ حَيَاتِهِ لِأَجْلِ دَاوُدَ عَبْدِي الَّتِي اخْتَرْتَهُ الَّذِي حَفَظَ وَصَايَايَ وَقَرَأَنْصِي . 35 وَأَخْذُ الْمَمْلَكَةَ مِنْ يَدِ ابْنِهِ ، وَأَعْطِيكَ إِيَّاهَا (أَيَّ الْأَسْبَاطِ الْعَشْرَةَ) . 36 وَأَعْطِي ابْنَهُ سَبْطاً وَاحِداً ؛ لِيَكُونَ سَرَّاجٌ لِدَاوُدَ عَبْدِي كُلِّ الْأَيَّامِ أَمَامِي فِي أُورَشَلِيمِ الْمَدِينَةِ الَّتِي

اخْتَرْتَهَا لِنَفْسِي لِأَصَحَّ اسْمِي فِيهَا. 37 وَأَخَذْتُ قَتْمَلِكُ حَسَبَ كُلِّ مَا تَشْتَهِي نَفْسَكَ، وَتَكُونُ مَلِكًا عَلَى إِسْرَائِيلَ. 38 فَإِذَا سَمَعْتَ لِكُلِّ مَا أَوْصِيكَ بِهِ وَسَلَكْتَ فِي طَرَقِي وَقَعَلْتَ مَا هُوَ مُسْتَقِيمٌ فِي عَيْنِي وَحَفَلْتَ فِرَاضِي وَوَصَايَايَ كَمَا فَعَلَ دَاوُدُ عَبْدِي، أَكُونُ مَعَكَ، وَأَبْنِي لَكَ يَتِيمًا أَمِنًا كَمَا بَنَيْتُ لِدَاوُدَ، وَأَعْطِيكَ إِسْرَائِيلَ. 39 وَأَذِلُّ نَسْلَ دَاوُدَ مِنْ أَجْلِ هَذَا، وَلَكِنْ؛ لَا كَلِّ الْيَأَامِ). [سفر الملوك الأول 11 / 31 - 39].

وعلى خلاف وعده لداود، كان وعدُ الله لـ يَرِيعَامُ مشروطاً: كان يَهْوَهُ سيمنح دولته الأيمن والاستقرار طالما عمل ما هو صحيح في نظر الله فقط. لكنَّهُ لم يفعل:

[وَبَنَى يَرِيعَامُ شُكِيمَ فِي جَبَلِ أَفْرَائِيمَ وَسَكَنَ بِهَا. ثُمَّ خَرَجَ مِنْ هُنَاكَ وَبَنَى قَوْتِيلَ. 26 وَقَالَ يَرِيعَامُ فِي قَلْبِهِ: (الآنَ تَرْجِعُ الْمَمْلَكَةُ إِلَى بَيْتِ دَاوُدَ. 27 إِنْ صَعِدَ هَذَا الشَّعْبُ لِيُقْرَبُوا ذَبَائِحَ فِي بَيْتِ الرَّبِّ فِي أُورُشَلِيمَ يَرْجِعْ قَلْبُ هَذَا الشَّعْبِ إِلَى سَيِّدِهِمْ إِلَى رَجَعَامَ مَلِكِ يَهُودَا وَيَقْتُلُونِي وَيَرْجِعُونِي إِلَى رَجَعَامَ مَلِكِ يَهُودَا). 28 فَاسْتَشَارَ الْمَلِكُ، وَعَمَلَ عَجَلِي ذَهَبَ، وَقَالَ لَهُمْ: (كثيرٌ عَلَيْكُمْ أَنْ تَصْعَدُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ. هُوَذَا آلِهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ أَصْعَدُوكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ). 29 وَوَضَعَ وَاحِدًا فِي بَيْتِ إِيلَ، وَجَعَلَ الْآخَرَ فِي دَانَ. [سفر الملوك الأول 12 / 25 - 30].

تلقَى الملكُ يَرِيعَامُ - الذي جلس على العرش حديثاً - رؤيا عن هلاكه أحدثت صدمة له. أثناء أدائه للطقوس في ضريح العجل الذهبي لبيت إيل، في مهرجان ديني خريفي قُصد به - في الغالب - صرف الحُجَّاج عن الاحتفالات في أُورُشَلِيمَ (القُدْسُ)، واجه يَرِيعَامُ في المذبح شخصيةً شبيهةً بنبي، [لأنَّ الأَلْوَاقِيتُ عَرَفَهَا فقط بعبارة: "رجل الله":

[وَأِذَا بَرَجُلٌ مِنَ اللَّهِ قَدَّاتِي مِنْ يَهُودَا بِكَلَامِ الرَّبِّ إِلَى بَيْتِ إِيلَ، وَيَرِيعَامُ وَأَقَفَ لَدَى الْمَذْبَحِ لِيُوقِدَ. 2 فَتَدَايَ نَحْوِ الْمَذْبَحِ بِكَلَامِ الرَّبِّ: (يَا مَذْبَحُ يَا مَذْبَحُ، هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ: هُوَذَا سَيُرِيدُ لِيَبْنِيَ دَاوُدُ ابْنُ اسْمِهِ يَوْشِيَا، وَيَذْبَحُ عَلَيْكَ كَهَنَةَ الْمُرتَفَعَاتِ الَّذِينَ يُوقِدُونَ عَلَيْكَ، وَتُحْرَقُ عَلَيْكَ عِظَامُ النَّاسِ). [سفر الملوك الأول 13 / 1 - 2].

هذه نبوءة فريدة؛ لأنَّ "رجل الله" هذا كَشَفَ في نبوآته عن اسم ملكٍ مُعَيَّنٍ ليَهُودَا، كان سيأتي بعد ثلاثة قُرُونٍ، ويأمر بتدمير نفس ذلك المعبد، ويقتل كَهَنَتَهُ، وتدنيس مذبحه ببقاياهم. إنَّ هذا يُشْبِهُ شيئاً مثل قراءة كتاب عن تاريخ قصَّة العبودية والاسترقاق أُلْفَ في

أمريكا المستعمرات في القرن السابع عشر، وجاء في أحد مقاطعه توقع ولادة مارتن لوثر كنج! . وذلك ليس كل شيء: لقد هزّت النبوءة يريعام بعمق، ومباشرة - بعد ذلك - مرض ابنه أيضاً. ومَصّت زوجة يريعام فوراً إلى مركز العبادة القديم في شيلوح للتشاور مع النبي أخيا، ذلك النبي ذاته الذي توقع بأن يريعام سيحكم قريباً كملك على القبائل الشماليّة. لم يكن لدى أخيا كلمات الاطمئنان للأُم القلقة. بل أصدر - بدلاً من ذلك - النبوءة الرابعة، إحدى أكثر نبوءات الكتاب المقدّس العبري إرهاباً:

[7] اذهبي قولي ليريعام: هكذا قال الربُّ إله إسرائيل: من أجل أنّي قد رفعتك من وسط الشعب، وجعلتك رئيساً على شعبي (إسرائيل)، 8 وشققت المملكتك من بيت داود، وأعطيتك إياها، ولم تكن كعبدي داود، الذي حفظ وصاياي، والذي سار ورائي بكلِّ قلبه؛ ليفعل ما هو مستقيم فقط في عيني، 9 وقد ساء عملك أكثر من جميع الذين كانوا قبلك، فسرت، وعملت لنفسك آلهة أخرى، ومسبوكات لتغيظني، وقد طرحتني وراء ظهرك، 10 لذلك؛ هتتدا جالب شراً على بيت يريعام، وأقطع ليريعام كلُّ ذكرٍ مخجوزاً ومطلقاً في إسرائيل. وأنزع آخر بيت يريعام كما ينزع البعوض حتى يفتنى. 11 من مات ليريعام في المدينة تأكله الكلاب، ومن مات في الحقل تأكله طيور السماء؛ لأن الربُّ تكلم. 12 وأنت، قفومي، وأنطلقني إلى بيتك، وعند دخول رجلتك المدينة يموت الولد. 13 ويندبه جميع إسرائيل، ويدفونوه؛ لأن هذا وحده من يريعام يدخل القبر؛ لأنه وجد فيه أمرٌ صالح نحو الربِّ إله إسرائيل في بيت يريعام. 14 ويقيم الربُّ لنفسه ملكاً على إسرائيل، يفرض بيت يريعام هذا اليوم. وماذا؟ الآن أيضاً! 15 ويضرب الربُّ إسرائيل كاهتزاز القصب في الماء، ويستأصل إسرائيل عن هذه الأرض الصالحة التي أعطاهم لأبائهم، ويبددهم إلى عبر النهر؛ لأنهم عملوا سوا ربهم، وأعاطوا الربُّ. 16 ويدفع إسرائيل من أجل خطايا يريعام الذي أخطأ، وجعل إسرائيل يُخطئ]. (سفر الملوك الأول 14 / 7-16).

إنّ دقّة النبوءة السابقة لرجل الله تقدّم لنا العصر الذي كتبت فيه. عاش الملك الداودي يوشيا - الذي فتح بيت إيل، وحطم المذبح فيها - في نهاية القرن السابع ق. م. لماذا تحتاج قصة حدثت في أواخر القرن العاشر ق. م، إلى الإتيان بشخصية من المستقبل البعيد لهذه



الدرجة؟ ما سبب وَصَف ما سيفعله ملك مُستقيم مُتدين يُسمى "يوشيا"؟ إنَّ الإجابة تُشابه كثيراً ما اقترحهنا لتفسير لماذا كانت قَصَص الآباء، والحُرُوج، وغزو كَنْعَانَ، تفيض بتلميحات خاصةً بالقرن السَّابع. إنَّ الحَقِيقَةَ التي لا مفرَّ منها هي أنَّ سَفَرِي المُلُوك هُما احتجاجان دينيَّان عاطفيَّان كُتبا في القرن السَّابع ق. م، بنفس قَدْر كونهما كُتابين تاريخيَّين.

مع مُرُور الوقت؛ أصبحت إسرائيل ذاكرة مُتلاشية، بُدُنُها المدمَّرة والأعداد الكبيرة من أهلها الذين تمَّ نَقِيهِم إلى الزوايا البعيدة للإمبراطوريَّة الأشوريَّة. ولكنَّ يَهُودًا كانت في تلك الأثناء، تعيش في ازدهار وتُطوِّر طُمُوحات إقليميَّة، وتدَّعي أنَّها الوريث الشَّرعي الوحيد لأراضي إسرائيل الواسعة. كانت إيديولوجيَّة ولاهُوت مُورِّخ الفترة المُتأخِّرة من الحُكْم الملكيِّ مُستندة على عدَّة أعمدة، كان واحداً من أهمِّها هُو فكرة أنَّ تكون العبادة الإسرائيليَّة مُتمركزة -تماماً- في هيكل القُدس أُورشليم. ومن هنا؛ فلا بُدَّ أنَّه كان يُنظر إلى مراكز العبادة الشماليَّة المُنافسة في بيت إيل، التي لا تبعد كثيراً عن أُورشليم (القُدس)، كتهديد حتَّى قبل تدمير المملكة الشماليَّة. والأسوأ أنَّها كانت ماتزال فعَّالة في أوائل القرن السَّابع، جاذبة إليها -احتمالاً- السُّكَّان الذين يعيشون في أراضي المملكة الشماليَّة السَّابقة، والذين كان أغلبهم من الإسرائيليَّين، الذين لم يتمَّ نَقِيهِم. وكان هذا يُمثِّل تحدياً خطيراً للطُمُوحات السياسيَّة، والأراضيَّة، واللاهوتيَّة ليهودًا في أيام الملك "يوشيا". ولهذا؛ أصبح سُقوط إسرائيل الحتميِّ. وانتصار "يوشيا" - فكرة مركزيَّة في رواية الكتاب المُقدس العبريِّ.

قصَّة حذرة جداً:

هذه هي الأسباب التي جعلت المُورِّخ التَّنوي، في كُلِّ أنحاء وَصَفه لتاريخ المملكة الشماليَّة، ينقل للقارئ رسالة مُثابَّة، ومُتناقضة لحدِّ ما. فمن جهة؛ يصف يَهُودًا وإسرائيل كدولتين شقيقتين؛ ومن ناحية أُخرى؛ يَطوِّرُ تناقضاً قوياً بينهما. لقد كان لدى "يوشيا" طُمُوح في التوسُّع نحو الشمال، والسيطرة على أراضي المُرتفعات (التلال والهضاب)، التي كانت في يوم من الأيام جزءاً من المملكة الشماليَّة. لذلك؛ يدعم الكتاب المُقدس العبريُّ هذا الطُمُوح، ويؤيِّده ببيانه؛ لكون المملكة الشماليَّة إنَّما أُسِّست في أراضي الحُكْم الملكيِّ المُتحد الأسطوريِّ،

الذي كانت تتم إدارته من أورشليم (القدس)؛ وأنها كانت دولة إسرائيلية شقيقة؛ وأن شعبها كان من الإسرائيليين الذين ينبغي عليهم العبادة في أورشليم (القدس)؛ وأن الإسرائيليين الذين مازالوا يعيشون في تلك الأراضي لابد أن يُولُوا وجوههم شَطْرَ أورشليم (القدس)؛ وأن يوشيا، وارث العرش الداودي ووارث وعد يهوه الأبدي لداود، هو الوارث الشرعي الوحيد لأراضي إسرائيل المقهورة. ومن الناحية الأخرى؛ كان على مؤلفي الكتاب المقدس العبري أن يزلوا أي صفة شرعية عن الطُفوس الشماليّة. خاصّة في معبد بيت إيل - ليبيّنوا أنّ التقاليد الدنيّة المميّزة للملكة الشماليّة كانت كلّها شرّاً يجب القضاء عليه، واستبداله بالعبادة المركزيّة في الهيكل (المعبد) في أورشليم (القدس).

إنّ التاريخ التنبوي يُنجز كلّ ذلك. في نهاية سفر صموئيل الثاني يظهر داود التّقي مؤسساً لإمبراطوريّة عظيمة. وفي بداية سفر الملوك الأوّل، يصل ابنه سُلَيْمَان للعرش، ويواصل الازدهار، لكنّ الثروة والازدهار لم يكونا كافيين. بل - على العكس - لقد جلبا شُوم الوثنيّة. وقادت خطيئة سُلَيْمَان إلى انتهاء العصر الذهبي. واختار يهوه يرّعام لقيادة الدولة المنفصلة في الشمال، ليكون داوداً ثانياً، لكن يرّعام يخطئ ويرتكب الإثم أكثر من سُلَيْمَان، وبالتالي؛ تُضيق المملكة الشماليّة فرصتها الوحيدة في التاريخ، ويصبح بقية تاريخ الشمال سُقوطاً حزيناً نحو الدمار. إلاّ أنّه، تحت حكم يوشيا - يأتي الزمان ليهودا لتصعد نحو العظمة، ولكن؛ لأجل إحياء العصر الذهبي، يحتاج داود الجديد هذا - أولاً - إلى إبطال خطيئة سُلَيْمَان ويرّعام. إنّ الطريق نحو العظمة لابد أن يمرّ عبر تطهير إسرائيل، وبالتالي؛ تدمير المعبد في بيت إيل. هذا سوف يقود إلى إعادة توحيد كلّ إسرائيل - شعباً وأرضاً - تحت معبد يهوه وعرش داود في أورشليم (القدس).

والأمر الهامّ الذي يجب تذكره إذاً، أنّ قصّة الكتاب المقدس العبري لا تنظر إلى انقسام الحُكْم الملكي المتحد لداود وسُلَيْمَان كواقعة نهائية، بل كسوء حظّ مؤقت. وأنّه مازال هناك إمكانيّة لنهاية سعيدة. إذا صمّم الناس على تغيير طريقتهم والعيش من جديد كأشخاص أتقياء مقدّسين بعيداً عن الأصنام الأجنبية، وفتنتها وإغراءاتها، فإنّ يهوه سيتغلّب على كلّ أعدائهم، ويُعطيهم الراحة الأبديّة، ورضاه في أرضهم الموعودة.

## مملكة إسرائيل الأولى المنسية (884 . 842 ق.م)

العنف، عبادة الأوثان، والطمع، هذه هي علامات مملكة إسرائيل الشمالية كما يُصورها سفر الملوك الأول والثاني بتفصيل دموي. بعد يرعام، كان الأوغاد الرئيسيون للقصة هم "العمرين"، وهم أسرة مالكة شمالية عظيمة أسسها قائد عسكري إسرائيلي سابق اسمه "عمرى"، علا شأن خلفائه، وبلغوا من القوة درجة مكنتهم - في النهاية - من وضع إحدى أميراتهم على عرش مملكة يهوذا أيضاً. يتهم الكتاب المقدس العبري الزوجين "العمرين" الشهيرين جداً. الملك "آخاب" وزوجته الأميرة الفينيقية سيئة السمعة "إيزابيل". بارتكاب بعض أخطر الذنوب من وجهة نظر الكتاب المقدس، لقد جلبا - مراراً وتكراراً - عبادة الآلهة الأجنبية إلى أرض إسرائيل، وقتلا الكهنة المخلصين، وأنبياء يهوه، وصادرا ممتلكاتهم بلا حق، وانتهاكاً قداسته تقاليد إسرائيل المقدسة بكل غطرسة وقدارة.

يُذكر "العمرين" كأكثر الشخصيات حقارة في تاريخ الكتاب المقدس العبري، ولكن الرؤى الأثرية الحديثة لمملكة إسرائيل تُعطينا منظوراً مختلفاً كلياً عن عهدهم. في الحقيقة؛ لو كان مؤلفو الكتاب المقدس العبري ومحرروه مؤرخين بالمعنى العصري الحديث، لربما قالوا إن "آخاب" كان ملكاً عظيماً، وإنه أول من أخذت دولة إسرائيل في عهده أهمية بارزة في الساحة الدولية، وإن زواجه من ابنة الملك الفينيقي "ألبعل" كان ضربة دبلوماسية ذكية رائعة. ولربما قالوا كذلك إن "العمرين" بنوا مدناً رائعة لتكون مراكز إدارية لمملكتهم المتوسعة. ولربما قالوا بأن "آخاب" وأباه "عمرى" من قبله، نجحاً في بناء أحد أقوى الجيوش في المنطقة - تمكناً بواسطته من فتح أراضٍ كثيرة في الشمال البعيد والضفة الشرقية للأردن. وبالطبع؛ لربما ذكروا أيضاً، بأن "عمرى" و"آخاب" لم يكونا أتقياء جداً، وبأنهما كانا - أحياناً - متبغضين

لنزواتهما، ومُتصرِّفَيْن بقسوة، لكنَّ الأمر نفسه يُمكن أن يُقال - عملياً - عن كُُلِّ مُتوَكِّ الشَّرْقِ الأَدْنَى القَدِيمِ .

في الحَقِيقَةِ ؛ تَمَتَّعت إِسْرَائِيلُ - كدولة - بثروة طَبِيعِيَّةٍ ، وارتباطات تجارِيَّةٍ واسعة ، جَعَلَتْ منها دولة ناجحة ، لا يُمكن التَّمَرُّقَةُ بَيْنَها وَبَيْنَ سائر الممالك المُزْدَهرة الأخرى في المنطقة . وكما ذكرنا في الفَصْلِ السَّابِقِ ، كان لدى إِسْرَائِيلِ التَّنْظِيمَ الضَّرُوري للقيام بمشاريع عُمَرَانِيَّةٍ تذكاريَّةٍ ضخمة ، ولتأسيس جيش مُحترَف ونظام إداري مُحترَف ، ولتطوير تدرُّج هَرَمِيٍّ اسْتِطْوانِيٍّ مُعَقَّدٍ من المُدُنِ والبُلدات والقُرَى ، جَعَلَ منها أوَّلَ مَمْلَكَةٍ إِسْرَائِيلِ تامَّةٍ بِكُلِّ معنى الكلمة . كانت صفتها وأهدافها وإِنجازاتها مُختلفة - بِشكْلِ جذري - عن صفة وأهداف وإِنجازات مَمْلَكَةِ يَهُودَا . ولذلك ؛ تَمَّ طَمَسُ صُورَتِهِم الحَقِيقِيَّةِ بِشكْلِ كامل تقريباً عبر الإِذانات التي وَجَّهَها إِلَيْهِم الكتاب المُقدَّس العِبرِيّ ، الذي أيد الأَدْعاءَ التَّالِيَةَ للجَنُوبيِّين من سُلالة داود في حَقِّهِم لِلسُّيْطَرَةِ عَلَيْهِم ، وتنقيصِهِم ، وتشويه صُورة كُُلِّ شَيْءٍ تقريباً قامت به سُلالة 'العُمَرِيِّين' الشَّمَالِيَّةِ .

صُعُودٌ وَسُقُوطٌ بَيْتِ 'عُمَرِي' :

يُقدِّمُ سَفْرُ المُلُوكِ وَصْفًا سطحيًّا فقط ، للعُقُودِ العاصِفةِ الأُولَى من تاريخ مَمْلَكَةِ إِسْرَائِيلِ المُسْتَعْلَةِ . بعد حُكْمِ يَرَبْعَامَ الذي دام 22 سنة ، حَلَفَهُ ابنُه 'ناداب' ، الذي أُطِيحَ بِهِ بانقلابٍ عسْكَريٍّ ، فُضِي فِيهِ على كُُلِّ مَنْ بَقِيَ على قيد الحياة من أَهْلِ بَيْتِ يَرَبْعَامَ (وبذلك تَحَقَّقَتْ كلمات النَّبِيِّ 'أَخِيًّا' بِدَقَّةٍ بأن لا أَحَدٌ من وَرَثَةِ يَرَبْعَامَ سِيَبَقِي حَيًّا) . أظهر الملك الجديد 'بَعْشًا' ، الذي كان - احتمالاً - قائداً عسْكَريًّا سابقاً ، طَبِيعَتَهُ العُدوانِيَّةَ فوراً بإعلانه الحرب على مَمْلَكَةِ يَهُودَا ، وتقدُّمَهُ بِقُوَّاتِهِ نحو أُورُشَلِيمِ (القُدَّسِ) ، لكنَّهُ سرَّعانَ ما أُجبر على رَفْعِ ضَغْطِهِ عن المَمْلَكَةِ الجَنُوبيَّةِ عندما غَزِيَتْ مَمْلَكَتَهُ نَفْسَها من قِبَلِ ملكِ دِمَشقِ 'بَنَهَدَد' .

### الجدول 3 الأسرة العُمريَّة

المكتشفات الأثرية	شاهد من خارج الكتاب المقدس	شهادة الكتاب المقدس	التواريخ <sup>(٥)</sup>	الملك
تأسيس "السامرة"	مذكور في مسألة "ميشا في موباب"	تأسيس "السامرة".	م. 873-884 ق.م	"عمري"
فترة البناء الرئيسيَّة في "السامرة"؛ مُجمَع "يزرعيل"؛ قُصُور "مَجَلُو"؛ سُور وبوابة "حاصور".	يذكر "سَلْمَانَصَّر" الثالث "قُوَّة" عرَبات كبيرة لـ "أخآب" في معركة "قرقر" سنة 853 ق.م؛ وربما كانت مذكورة في "نُقُوش تلّ "دان".	يستزج من الأميرة الفينيقيَّة "إيزَابِل"؛ ويبنى بيتا للإله "بعل" في "السامرة"؛ ويستولي غضباً على مزرعة الكرم لنابوت؛ يتواجه مع النبي إيليا؛ يدخل في عدَّة حُرُوب مع الأراميين ويموت في ساحة المعركة.	م. 852-873 ق.م	"أخآب"
		فترة حُكم قصيرة، يمرض بعدها ويموت	م. 851-852 ق.م	"أحزيا"
دمار مُجمَع "يزرعيل"؛ طبقات دمار أخرى في مواقع أخرى من الشمال.	يظهر أنه مذكور في "نُقُوش تلّ "دان".	يهزم "موباب"؛ ويُجرح في المعركة ضدّ "خزائيل" ملك "أرام دمشق"؛ "نبوءة النبي أليشع".	م. 842-851 ق.م	"يورام"

بعد موت "بعشا" مباشرة، حُلِع ابنه "أيلة" في انتفاضة أخرى للجيش، ثمّ خلالها إبادة بيت "بعشا" (سفر الملوك الأوّل 16/ 8-11)، لكن زعيم الثوّار، "زمرى"، الذي كان قائد عرّبة، لم

(٥) طبقاً لقاموس: Anchor Bible Dictionary - قاموس مُركّز الكتاب المقدس، وكاتب: "الجدول الزمني للملوك

إسرائيل ويهوذا"، لـ "غاليل".

يتمكن من الحُكْم سوى سبعة أيام فقط . قام شعب إسرائيل بإعلان 'عُمري' ، قائد الجيش ، الملك التالي لإسرائيل . وبعد حصار قصير للعاصمة الملكيّة 'ترُصَة' - وانتحار مُغتصب السُلطة 'زُمري' في نيران القَصْرِ - دعم 'عُمري' سُلطته ، وأسس سُلالة حاكمة حَكَمَت المملَكَة الشماليّة لأربعين سنة تالية .

في السّنوات الاثنتي عشرة من عهده ، بنى 'عُمري' عاصمة جديدة لنفسه في مكان يُسمّى 'السامرة' ، ووَضَعَ أُسس حُكْم مُستمرٍّ من سُلالته . ثمَّ جاء 'أخَاب' بن 'عُمري' إلى العرش ، ليحكم إسرائيل لمدة اثنتين وعشرين سنة . كان تقييم الكتاب المقدّس العبري لـ 'أخَاب' أفسى حتّى من معالجته العادية للملوك الشماليين ؛ حيثُ فصل مدى ارتباطه الأجنبي ووَكَيْتِه ، مع التأكيد على زوجته الأجنبية الشهيرة ، التي قادت زوجها إلى الكُفْر :

[ (وَأَخَابُ ابْنُ عُمْرِي ) عَمَلَ الشَّرَّ فِي عَيْنِي الرَّبُّ أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ الَّذِينَ قَبْلَهُ . 31 وَكَأَنَّهُ كَانَ أَمْرًا زَهِيدًا سَلُوكُهُ فِي خَطَايَا يَرْبُعَامَ بْنِ تَبَاطَ حَتَّى اتَّخَذَ إِيزَابَلُ ابْنَةُ الْبَعْلَ مَلِكَ الصِّيدُونِيِّينَ امْرَأَةً ، وَعَبَدَ الْبَعْلَ وَسَجَدَ لَهُ . 32 وَأَقَامَ مَذْبَحًا لِلْبَعْلِ فِي بَيْتِ الْبَعْلِ الَّذِي بَنَاهُ فِي 'السامرة' . 33 وَعَمَلَ أَخَابُ سُورَارِي ، وَزَادَ فِي الْعَمَلِ لِإِعَاظَةِ الرَّبِّ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ مُلُوكِ إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَهُ . ] [سفر الملوك الأول : 16 / 30 - 33] .

يروي الكتاب المقدّس العبري أنّ 'إيزابيل' أيدت الكهانة الوثنيّة في 'السامرة' ، واستضافت على سفرتها الملكيّة الواسعة [ أربعمائة وخمسين من أنبياء بعل ، وأربعمئة من أنبياء السّوار ] ، ثمَّ أمرت بقتل كلِّ أنبياء يهوه في مملكة إسرائيل .

وتستمرُّ رواية الكتاب المقدّس العبري في تكريس مُعظم وصفها لحُكْم العُمريين لبيان جرائمهم وأثامهم - ومعركة دهائهم المُستمرّة ضدَّ 'إيليا' ومحبيه 'أليشع' ، نبيّان مشهوران ليهوه كانا يتجولان في كافّة أنحاء السّمال . وسُرعان ما التقى 'إيليا' بـ 'أخَاب' ، وطَلَبَ أن يجتمع جميع أنبياء بعل وأنبياء السّوار الذين أكلوا على سفرة إيزابيل في جبل الكرمل للمباهلة . وهناك ، أمام 'كلِّ الشعب' بنى كلُّ من الفريقين مذبحاً لإلهه الخاصِّ ، ووضّحى بتوريقه ، مُضرباً لإلهه المختار بأن يحرق الأضحية بالنّار (علامة على قبول القرban) . وفي حين لم يستجب بعلٌ لنداءات أنبيائه ، أرسل يهوه فوراً ناراً [ أكلت المُحرّقة والحطب والحجارة

والثراب، وكحست المياه التي في القنّاة. 39 فلكمأ رأى جميع الشعب ذلك سَقَطُوا عَلَى وُجُوهِهِمْ، وَقَالُوا: (الرَّبُّ هُوَ اللهُ! الرَّبُّ هُوَ اللهُ!). 40 فَقَالَ لَهُمْ إِيلِيَّا: (أَمْسِكُوا أَنْبِيَاءَ الْبَعْلِ، وَلَا يُقَلَّتْ مِنْهُمْ رَجُلٌ). فَامْسِكُوهُمْ، فَتَزَلَّ بِهِمْ إِيلِيَّا إِلَى نَهْرِ قِشُونَ، وَدَبَحَهُمْ هُنَاكَ<sup>(1)</sup>.

وكان رد فعل الملكة إيزابيل غاضباً وعنيفاً، فهرب إيلياً بسرعة إلى الصحراء. وعندما وصل إلى البرية المغفرة في "حوريب"، جبل الله، تلقى وحياً قدسياً من الله. لقد تكلم يهوه مباشرة إلى إيلياً، وأعلن له نبوءة هلاك كل بيت عمري. وأمره يهوه أن يدهن خزائيل، منافس إسرائيل الأكثر خطورة، كملك آرام دمشق. كما أمر إيلياً - أيضاً - بدهن قائد آخاب العسكري: "ياهو"، كملك إسرائيل التالي. وأخيراً؛ أمر يهوه إيلياً بجعل النبي أليشع في مكانه. بهذه الأوامر الثلاثة، قرّر يهوه مُعاقبة بيت عمري على ذنوبه وخطاياهم: [17] فالذي ينجو من سيف خزائيل يقتله ياهو، والذي ينجو من سيف ياهو يقتله أليشع. [سفر الملوك الأول 19 / 17].

إلا أن يهوه أعطى المملكة الشمالية فرصة ثانية عندما جاء لإنقاذ إسرائيل عندما غزاها بنهدد، ملك آرام دمشق، وحاصر السامرة. وأعطاهما فرصة ثالثة عندما سمح لـ آخاب بهزيمة بنهدد في معركة قرب بحر الجليل في السنة التالية، لكن آخاب أثبت أنه لم يكن جديراً بذلك التأييد الإلهي. لقد قرّر أن يسمح ببقاء عدوه في مقابل جوائز دنيوية: إعادة المدن التي كانت سابقاً تابعة لمملكة إسرائيل وحق تأسيس أسواق في دمشق. أخبر نبي يهوه آخاب بأنه سيدفع حياته ثعناً لعصيانه لأمر يهوه، الذي كان قد أمر بقتل بنهدد بحدّ السيف.

ثم يروي الكتاب المقدس العبري قصة حول السلوك اللاأخلاقي للزوجين الفاجرين تجماه وشعبهما، وهي خطيئة أخرى كان عليهم أن يدفعوا حياتهما ثعناً لها. فقد حدّث أن امتلك رجل يُسمى نابوت مزرعة عنب (كرمة) قرب قصر آخاب في يزرعيل، ووقفت تلك الكرمة في طريق خطط تنمية آخاب. فعندما أراد آخاب أن يُسيطر على تلك الأرض ليوسّع قصره، عرض آخاب على نابوت عرضاً مغرباً اعتقد أنه لا يمكنه أن يرفضه: سوف يأخذ كرمة نابوت، ويُعطيه واحدة أفضل منها بكثير، أو إذا فضل نابوت، فسيدفع آخاب له سعرها

(1) سفر الملوك الأول: 18 / 39 / 40. (المترجم).

تَقْدًا، لكنَّ "تَابُوت" لم يكن له مصلحة في أن يفقد ميراث أسرته لأي سبب كان، وَرَقَصَ عرض الملك بكلُّ عناد. وكان لدى "إيزابيل" زوجة "آخاب" حلٌّ آخر: لقد لَقَّعت دليلاً على كُفر وتجديف "تَابُوت"، وجلست تنفِج - بسرور - على قيام أهالي يَزْرَعِيلَ برجم "تَابُوت" حتَّى الموت. ومُجرد أن استولى "آخاب" على ملكية مزرعة العنب حتَّى ظهر النبي "إيليا" مرةً أُخرى في موقع الحدِّث. كانت بُوءته رهيبة ترتعد لها الفرائص:

[19 وَقُلْ لَهُ: هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ: (هَلْ قَتَلْتَ وَوَرَّثْتَ أَيْضًا؟ فِي الْمَكَانِ الَّذِي لِحَسَّتْ فِيهِ الْكَلَابُ دَمَ تَابُوتٍ تَلْحَسُ الْكَلَابُ دَمَكَ أَنْتَ أَيْضًا). 20 فَقَالَ آخَابُ لِإِيلِيَا: (هَلْ وَجَدْتَنِي يَا عَدُوِّي؟)، فَقَالَ: (قَدْ وَجَدْتُكَ؛ لِأَنَّكَ قَدْ بَعَثْتَ نَفْسَكَ لِعَمَلِ الشَّرِّ فِي عَيْنِي الرَّبِّ. 21 هَتَّنَذَا أَجْلِبُ عَلَيْكَ شَرًّا، وَأَبِيدُ نَسْلَكَ، وَأَقْطَعُ لِآخَابَ كُلَّ ذَكَرٍ وَمَخْجُورٍ وَمُطْلِقٍ فِي إِسْرَائِيلَ. 22 وَأَجْعَلُ بَيْتَكَ كَبَيْتِ يَرْبَعَامَ بْنِ نَبَاطَ، وَكَبَيْتِ بَعْشَا بْنِ أَخِيَا، لِأَجْلِ الْإِغَاظَةِ الَّتِي أَغْطَقْتَنِي، وَجَعَلْتُمْ إِسْرَائِيلَ يَخْطِئُ).] (سفر الملوك الأول 21 / 19 - 24).

في تلك الأثناء؛ عقدت مملكة إسرائيل حلفاً مع مملكة يهوذا، قام بموجبه يهُوشَافاطُ، ملك يهوذا، بضم قُوَّاته إلى قُوَّات "آخاب" ملك إسرائيل، لشن حرب ضدَّ آرامٍ دمشق في راموث جلعادٍ في عبر الأردن. ضُرب "آخاب" أثناء القتال بسهم، ومات في أرض المعركة. وأعيد جثمانه إلى "السامرة"؛ ليُدفن بمراسم ملكية، وعندما غُسلت عرَّته، لعقت الكلابُ دمه، في تحقيق دقيق وقاسٍ لنُبوءة "إيليا".

ثمَّ جاء "أخزيا" بن "آخاب" إلى العرش، وارتكب هو - أيضاً - أثاماً خطيرة. عندما أصيب بسبب سقوطه من السلم في حجْرته العلوية في "السامرة"، أرسل رسلاً لاستشارة بعل زُبُوبٍ إله مدينة الفلسطينيين "عقرون"، ليعرف منه فُرصَ تعافيه وشفائه. لكنَّ "إيليا"، عاقبه لمناشدته صنماً ومعبوداً اجنبياً، بدلاً من تضرُّعه ليهوَّه، وأعلن موته الوشيك.

وأخيراً؛ اعتلى العرش يهورام، أخو "أخزيا": الملك الرابع والأخير من سلالة "العمرتين". رداً على عصيان قام به "ميشا"، ملك مُوآب، الذي كان لفترة طويلة تابعاً لإسرائيل، سار يهورام بجيشه ضدَّ مُوآب، وانضمَّ إليه يهُوشَافاطُ، ملك يهوذا، وملك آخر لأدوم غير مُسمَّى. وتوقَّع النبي أليشعُ النصر، فقط لأنَّ ملكاً ليهوذا، يهُوشَافاطُ، كان ضمن الجيش. وفي الحقيقة؛ هَزَمَ التحالف الإسرائيلي - اليهودي - الأدومي المُوآبيين، ودمر مدُنهم.



إلا أن السلالة العمرية لم تستطع - في النهاية - أن نفر من قدرها النهائي المتجلى بالدمار. مع صعود حَزائيلَ ملكاً على دمشق، بدأت القوة العسكرية والسياسية للسلالة العمرية بالانحدار. وهَزَمَ حَزائيلُ جيش إسرائيل في زَامُوت جَلْعَادَ، وجُرِحَ في المعركة يَهُورامَ ملك إسرائيل جرحاً شديداً. في تلك اللحظة العصيبة؛ أرسل أليشع إحدى أبناء أنبياء يَهُوه لدهن يَهاو، قائد الجيش، ملكاً على إسرائيل، ليقوم بتوجيه الضربة الأخيرة إلى بيت آخَاب. وهذا ما حَدَثَ فعلاً. عندما عاد الملك يَهُورامَ إلى قَصْر العَمُرِينِ في يَزْرَعِيلَ للتداوي من جروحه برفقة الملك أَخْرِيَاَ عاهل يَهُودَا، إذا به يواجه يَهاو (في كَرَمِ عَنبِ نَابُوتَ، بشكل رمزي)، الذي وجّه إلى قلب الملك سهماً، فقتله. وحاول أَخْرِيَاَ الهرب، لكنّه جُرِحَ، ومات في مدينة مَجْدُودَ القريبة، التي هرب إليها.

كانت تصفية عائلة آخَاب قد اقترنت من ذروتها. دخل يَهاو المجمع الملكي في يَزْرَعِيلَ وأمر برمي إيزابيلَ من نافذة عالية في القصر. كما أمرَ يَهاوَ خَدَمَهُ بأخذ جثتها لدفنها، لكنهم لم يكتشفوا إلا جُمجمتها وأقدامها، وراحة أيديها، في فناء القصر فقط، لقد أكلت الكلاب الضالة لحم إيزابيلَ، كما حُدِثت منه نبوءة إيلياَ الرهيبية. في هذه الأثناء، تم ذبح جميع أبناء ملك إسرائيل السابق، الذين كانوا يعيشون في السامرة، وكان مجموعهم سبعين ابناً، ووضعت رؤوسهم في سلال، وأُرسلت إلى يَهاوَ في يَزْرَعِيلَ. أمرَ يَهاوَ بوضع تلك الرؤوس فوق بعضها، في كومة، تكون أمام أنظار عامة الناس جميعاً، عند المدخل إلى بوابة المدينة، ثم انطلق يَهاوَ نحو السامرة؛ حيث قتل كل من بقي من بيت آخَاب. وهكذا؛ انقرضت سلالة العَمُرِينِ إلى الأبد، وتحققت النبوءة الفظيعة لإيلياَ حتى آخر حرفٍ منها.

#### الحدود البعيدة والقوة العسكرية:

إن مأساة بلاط بيت عمري قصة كلاسيكية أدبية، مليئة بالشخصيات الحيوية، والمشاهد المسرحية، دعت فيها عائلة مالكة ثمن الجرائم التي ارتكبتها بحق شعبها، تمثل بنهايتها الدموية. لا شك أن ذكريات عهد آخَاب وإيزابيلَ بقيت حية لقرُون عديدة، كما نراه واضحاً من إدراجها بمثل هذه الطريقة البارزة في التاريخ الثنوي، الذي دُونَ على مدى مئتي سنة بعد وفاتهما. ومع ذلك؛ فإن هذه القصة في الكتاب المقدس العبري مليئة جداً بالتناقضات والمفارقات التاريخية،

ومثائرة - بشكّل واضح - بالعقائد اللاهوتية لكتاب القرن السابع ق. م، الأمر الذي يدعو لاعتبارها حكاية تاريخية أكثر من اعتبارها سجلاً تاريخياً دقيقاً وحقيقياً. أحد التناقضات في تلك الرواية ما ترويه من قيام بنهّد الدمشقي بغزو "السامرة" في عهد "آخاب"، مع أنّ هذا الغزو لم يتمّ - في الواقع - في عهد "آخاب"، بل حدث في فترة لاحقة من تاريخ المملكة الشمالية. كما أنّ ذكر تحالف إسرائيل مع ملك غير معروف الاسم لأدوم هو - أيضاً - مفارقة تاريخية؛ لأنّ ليس هناك أي دليل على وجود حكم ملكي في أدوم إلا بعد مئة سنة من زمن العُمريين.

في الحقيقة؛ إذا استخرجنا المقارقات التاريخية وقصص التهديدات التي صدرت والنبوءات التي تحققت فلن يبقى إلا مقدار ضئيل جداً من المادة التاريخية في رواية الكتاب المقدس العبري القابلة للتحقيق والإثبات، ما عدا تسلسل الملوك الإسرائيليين وبعض أشهر مشاريعهم البنائية والمناطق العامة للنشاط العسكري.

لحسن الحظّ - ولأول مرة في تاريخ إسرائيل - توجد هناك بعض المصادر الخارجية المهمة للمعلومات التاريخية التي تسمح لنا برؤية العُمريين من منظور مختلف: كحُكّام أقوياء عسكرياً، لأحد أقوى الدول في الشرق الأدنى. مفتاح هذا الفهم الجديد هو الظهور المفاجئ للقوش التذكارية الذي يُشير - مباشرة - إلى مملكة إسرائيل. إنّ أوّل ذكر للمملكة الشمالية في عهد العُمريين - ليس عرضياً. إنّ تقدّم الإمبراطورية الآشورية نحو غرب مركزها الأصلي في بلاد ما بين النهرين - مع نظامها الإداري المتطور بشكل كامل وتقاليد الطويلة في تسجيل أفعال حُكّامها في إعلانات عامة - أثر - بشكل عميق - في ثقافة دول متبلورة كإسرائيل، و"أرام"، و"موآب".

بدءاً من القرن التاسع ق. م، نجد - أخيراً - في سجلات الآشوريين أنفسهم، كما في سجلات قوى أصغر شأناً في الشرق الأدنى، بعض الشواهد المباشرة على أحداث وشخصيات ذُكرت في نص الكتاب المقدس<sup>(1)</sup>.

(1) هذه الإشارة من المؤلف تؤكد ما ذُكرناه في المقدمة أنّ نقص أو انعدام الشواهد للموسسة (من نقوش أو كتابات وما إلى ذلك) على حوادث أو شخصيات تاريخية معينة كإبراهيم وإسحق ويعقوب وموسى... لا يكفي - وحده - دليلاً على عدم وجودها، ذلك لأنّه أولاً؛ في الفترات القديمة لم يكن تسجيل كلّ الأحداث في سجلات أو الواح ونحوها أمراً شائعاً، بل بدأ ذلك التسجيل يبعث في مراحل متأخرة كالقرن التاسع ق. م. كما ذُكر. وثانياً؛ لأنّه ليس من الضروري أنّ تتمّ كتابة نقوش أو لوح أو سجل عن كلّ شخص أو كلّ حادثة في العالم حتّى يثبت وجودها!!!! (المترجم).

في عهد داود وسليمان، لم يكن التنظيم السياسي في المنطقة قد وصلَ - بعدُ - لمرحلة وجود نظام إداري شامل أو نقوش تذكارية. وبعد مضي قرن من الزمن، في عهد العُمريين، أدت العمليات الاقتصادية الداخلية، والضغط السياسية الخارجية إلى ظهور دول وطينة إقليمية متطورة - بشكل كامل - في المشرق.

بمعنى علم إنساني (أنثروبولوجي)، تعني عبارة متطورة بشكل كامل أرضاً يحكمها تنظيم إداري روتيني مُعقد (أي نظام إداري روتيني) قادر على تنظيم مشاريع عمرانية كبيرة، والمحافظة على جيش دائم، وتطوير ارتباطات تجارية منظمة مع المناطق المجاورة. وأن الدولة قادرة على حفظ سجلات لأعمالها في الأرشيفات وفي النقوش التذكارية المفتوحة أمام أنظار الجمهور. منذ القرن التاسع فما بعد، كان يتم تسجيل أحداث سياسية رئيسية في كتابات تذكارية من وجهة نظر كل ملك. تُعد تلك النقوش حاسمة في موضوع تأسيس تواريخ دقيقة للأحداث والشخصيات المذكورة في الكتاب المقدس العبري. وبالنسبة لكل واحد يعرف رواية الكتاب المقدس؛ فإن تلك المصادر تُقدم صورة غير متوقعة للمدى الذي وصلت إليه قوة مملكة إسرائيل.

أحد أهم المصادر الخارجية هو مسلكة ميشا Mesha Stele، التي اكتشفت عام 1868، على سطح تل بعيد في منطقة ديبان في جنوب الأردن، شرق البحر الميت - وهو موقع ديبون التوراتي، عاصمة مملكة موآب.. كان هذا النقش التذكاري قد تعرض لتلف شديد؛ نتيجة للجدال بين المستكشفين الأوروبيين المتنافسين والبدو المحليين، ولكن أجزاءه الباقية تم جمعها لتقديم ما يُعد - حتى الآن - أطول نص خارج الكتاب المقدس وجد في تاريخ المشرق. وقد كُتب باللغة الموآبية، القريبة جداً من لغة الكتاب المقدس العبرية، وهو يسجل إنجازات الملك ميشا، الذي فتح أراضي موآب الشمالية، وأسس عاصمتها في ديبون. وقد أوجد اكتشاف هذا النقش حماساً كبيراً في القرن التاسع عشر؛ لأن ميشا ذُكر في سفر الملوك الثاني كتابع عاصري من توابع مملكة إسرائيل الشمالية.

هنا؛ نجد - لأول مرة - الجانب الآخر للقصة؛ حيث نجد أول وصف خارج الكتاب المقدس للعُمريين. وكُتبت الأحداث التي سُجلت في النقش في القرن التاسع ق. م، عندما - طبقاً لنصه

المتجزئ - [كان 'عُمري' ملك إسرائيل، قد اضطهدَّ مُوآبَ أياً ما عديدة.. . وَخَلَفَهُ ابْنُهُ، وَهُوَ قَالَ أَيْضاً: (سَأَذَلُّ مُوآبَ)، فِي أَيَّامِي، هَكَذَا تَكَلَّمَ . . . وَاسْتَوْلَى 'عُمري' عَلَى أَرْضِ مِيدْيَا. وَسَكَنَ فِيهَا أَيَّامَهُ وَمَجْمُوعَ أَيَّامِ ابْنِهِ: أَرْبَعُونَ سَنَةً.]

وَيُؤَاصِلُ النَّقْشُ رِوَايَةَ مَبِينَا كَيْفَ وَسَّعَ مَيْشَا أَرْضَهُ تَدْرِيجِيًّا، مُتَمَرِّدًا عَلَى إِسْرَائِيلَ، وَمُدْمَرًا الْمُسْتَوَطِنَاتِ الرَّئِيسِيَّةَ لِلإِسْرَائِيلِيِّينَ شَرْقَ الْأُرْدُنِّ، بَيْنَمَا قَامَ بِتَحْصِينَ وَتَزْيِينِ عَاصِمَتِهِ الْخَاصَّةِ. وَمَعَ أَنَّ مَيْشَا لَا يَكَادُ يُخْفِي احْتِقَارَهُ لـ 'عُمري' وَابْنِهِ 'أَخَاب'، فَإِنَّا - مَعَ ذَلِكَ - نَفْهَمُ مِنْ نَقْشِ الْإِنْتِصَارِ هَذَا أَنَّ مَمْلَكَةَ إِسْرَائِيلَ وَصَلَتْ بَعِيدًا إِلَى شَرْقٍ وَجَنُوبِ أَرْضِهَا الْمَرْكَزِيَّةِ الْأَصْلِيَّةِ فِي الْمُرْتَفَعَاتِ الْوَسْطَى.

وَعَلَى نَفْسِ الْمَنَوَالِ، نَسْمَعُ عَنِ التَّزَاعَاتِ مَعَ 'أَرَام' - دِمَشْقَ مِنْ نَقْشِ نَبِيِّ دَاوُدَ الَّذِي اكْتَشَفَ فِي مَدِينَةِ 'دَانَ' التَّوْرَاتِيَّةِ عَامَ 1939. بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ اسْمَ الْمَلِكِ الَّذِي أَمَرَ بِنَصْبِ أَوْ كِتَابَةِ ذَلِكَ النَّقْشِ لَمْ يُوجَدْ عَلَى الْأَجْزَاءِ الَّتِي تَمَّ اكْتِشَافُهَا وَاسْتَعَادَتِهَا حَتَّى الْآنَ، إِلَّا أَنَّ هُنَاكَ قَلِيلًا مِنَ الشُّكِّ، مِنَ السِّيَاقِ الْعَامِّ، بِأَنَّهُ كَانَ 'حَزَائِيلُ' الْعَظِيمُ، مَلِكُ 'أَرَام' دِمَشْقَ. وَهُوَ مَذْكُورٌ عِدَّةَ مَرَّاتٍ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ الْعِبْرِيِّ، وَبِشَكْلِ خَاصٍّ؛ كَأَدَاةِ اللَّهِ لِإِذْلَالِ بَيْتِ 'عُمري'. وَيَبْدُو مِنَ النَّقْشِ، أَنَّ 'حَزَائِيلَ' اسْتَوْلَى عَلَى مَدِينَةِ 'دَانَ'، وَنَصَبَ سَلْطَةَ الْإِنْتِصَارِ هُنَاكَ حِوَالِي سَنَةِ 835 ق. م. . يُسَجَّلُ النَّقْشُ كَلِمَاتِ 'حَزَائِيلُ' الْإِنْتِصَارِ فِي أَتْهَامِهِ الْغَاضِبِ بِأَنَّ: 'لَقَدْ دَخَلَ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ سَابِقًا إِلَى أَرْضِ أَبِي'. 'وَمَا أَنَّ النَّقْشَ - عَلَى مَا يَبْدُو - ذَكَرَ اسْمَ ابْنِ 'أَخَاب' وَخَلِيفَتِهِ، 'يَهَورَام'، فَالنتيجة الألزمية واضحة. إِنَّ مَمْلَكَةَ إِسْرَائِيلَ الَّتِي امْتَدَّتْ - تَحْتَ حُكْمِ 'العُمريين' - مِنْ جِوَارِ دِمَشْقَ وَعَبْرَ الْمُرْتَفَعَاتِ الْوَسْطَى وَوُدْيَانَ إِسْرَائِيلَ، مُرُورًا بِأَرَاضِي مُوآبِ الْجَنُوبِيَّةِ، قَدْ حَكَمَتْ عِدَدًا كَبِيرًا مِنَ السُّكَّانِ غَيْرِ الإِسْرَائِيلِيِّينَ.

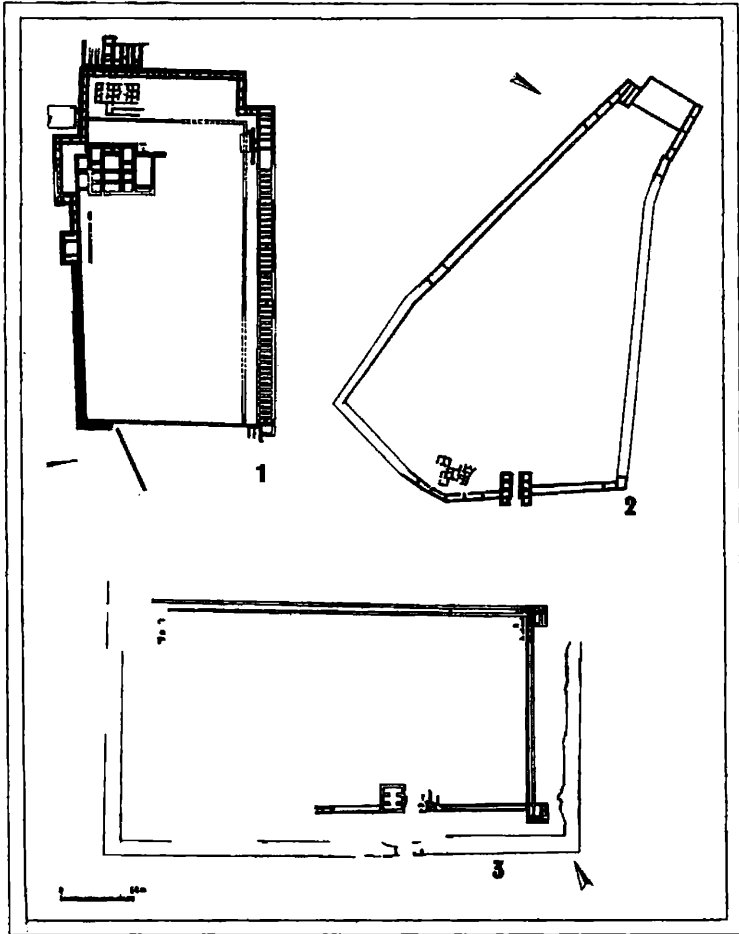
كَمَا نَفْهَمُ أَنَّ الإِمْبِرَاطُورِيَّةَ 'العُمريَّة' كَانَتْ تَمْتَلِكُ قُوَّةً عَسْكَرِيَّةً عَظِيمَةً. وَمَعَ أَنَّ رِوَايَةَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ الْعِبْرِيِّ عَنِ السُّلَالَةِ الْهَآكِمَةِ 'العُمريَّة' كَرَّرَتْ ذِكْرَ حُدُوثِ كَوَارِثِ عَسْكَرِيَّةٍ - وَلَمْ تَأْتِ بِذِكْرِ - أَصْلًا - عَلَى أَيِّ تَهْدِيدِ أَشُورِيِّ لَهَا - فَإِنَّ هُنَاكَ بَعْضَ الشَّوَاهِدِ الْمُثْبِتَةِ عَلَى قُوَّةِ 'العُمريين' مِنْ نَفْسِ أَشُورِيَا. لَعَلَّ سَلْمَنَاصَّرَ الثَّالِثَ، الَّذِي يَعْدُّ أَحَدَ عَظَمِ الْمُلُوكِ الْأَشُورِيِّينَ الَّذِي حَكَّمَ فِي 858 - 824 ق. م.، قَدَّمَ أَوْضَحَ مَدِيحٍ (وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مَقْصُودِ أَيْدٍ) لِقُوَّةِ سُلَالَةِ 'العُمريين'.

قاد شُلْمَانَصْر، سنة 853 ق. م، فُوءة غزو آشورية كبيرة باتجاه الغرب لإخضاع - وريما فتح - الدول الصغيرة في سوريا، وفينيقية، وإسرائيل، لكن جيوشه المتقدمة تواجهت مع تحالف ضد آشوري قُرب قَرْقَر Qarqar على نهر العاصي غرب سوريا. لقد تبجَّح شُلْمَانَصْر بنصره العظيم في نصر قديم مُهم يُعرَف بنقش العمود، اكتشفه في الثمانينات في القرن التاسع عشر المُستكشف الإنجليزي أوستن هنري لايارد Austen Henry Layard في الموقع الآشوري القديم لنمرود.

سجِّل النَّصَب الحجري القائم اللَّون - الذي نُقش عليه بكثافة، بالحُرُوف المسمارية، بافتخارٍ - أنَّ القُوَّات التي اصطفتْ لحرب شُلْمَانَصْر كانت: 1200 عرَبية، و1200 فارس، و2000 من جنُود المُشاة من حماة، و2000 عرَبية، و10000 جنُدي مُشاة من جنُود "آخاب" الإسرائيلي، و500 جنُدي من قيو، و1000 جنُدي من مصر، و10 عرَبات، و10000 جنُدي من أير قناطة.

ليس هذا أبكر شاهد من خارج الكتاب المُقدَّس على أحد ملُوك إسرائيل فحسب، بل هو - أيضاً - يدلُّ من ذكره لـ "الأسلحة الثقيلة" (العربات). على أنَّ آخاب كان العَضُو الأقوى في التحالف ضدَّ - الآشوري. ومع أنَّ شُلْمَانَصْر الكبير ادَّعى النَّصر، فإنَّ النتيجة العمليَّة لهذه المواجهة تتكلَّم بصوت أعلى من صوت الادِّعاءات الملكية. لقد عاد شُلْمَانَصْر بسرَّعة نحو آشوريا، وتوقَّف التَّقَدُّم الآشوري نحو الغرب، على الأقل؛ لفترةٍ من الزمن.

وهكذا نطلُّع من ثلاثة نُقُوش قديمة (و من سُخرية القَدَر أنَّها لثلاثة من الأعداء إسرائيل) على معلومات تُضيف إلى القصة التوراتية إضافات مُثيرة جدًّا. وعلى الرَّغم من أنَّ الكتاب المُقدَّس يتحدث عن جيش آرامي يقوم بِمُحاصرة "السَّامرة"، فإنَّ "عُصري" وحُلُفاءه كانوا - في الحقيقة - ملُوكاً أقوياء، وسعوا أرض مَمْلَكَتهم، وامتلكوا ما كان - بالتأكيد - أحد أكبر الجيوش الدائمة في المنطقة. كما كان لهم دورٌ ومُساهمةٌ كبيرة في سياسات القُوَّة الدُولية، في جهده مُستمر للحفاظ على استقلالهم ضدَّ مُنافسين إقليميين، وضدَّ التهديد المرتقب للإمبراطورية الآشورية (هذا في حين مرَّ نقش شُلْمَانَصْر على مَمْلَكَة يهوذا بكلُّ صمت، دون أن يذكر عنها شيء).



الشكل 20: مخططات ثلاثة مواقع عمرية: (1) السامرة (2) حاصور (3) يزريعيل.  
 تم رسم المخططات بنفس المقياس . الأرقام 1 و2 من تفضل البروفسور زيف هيرزوغ  
 جامعة تل أبيب.

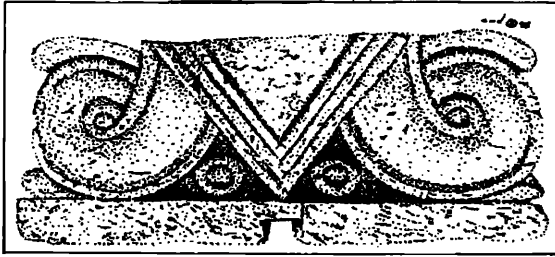
قُصُور، إسطبلات، ومَدُن مَخَازِن:

يكشف الدليل الآثاري - أيضاً - بأنَّ العُمُرِيِّينَ "فاقوا - بنحو كبيرٍ - أيَّ ملوك آخرين في إسرائيل أو يهوذا كِبْشَاءَ ومُديرين . ويعنى؛ كانوا يُمثّلون العصر الذهبي الأول للملوك الإسرائيليين . رغم ذلك؛ كان وصْف مَمْلَكَة "العُمُرِيِّينَ" في الكتاب المُقدَّس وصفاً سطحيّاً جداً . فباستثناء ذكر قُصُورهم المُتَّصِنَة في "السَّامرة" و"يَزْرَعِيلَ"، لا توجد هناك أيُّ إشارة - تقريباً - لحجم، ومقياس، وثراء عالمهم .

في أوائل القرن العشرين؛ بدأ علم الآثار - أولاً - بتقديم مُساهمة هامّة، تجلّت بتنقيبات كبيرة في موقع عاصمة مَمْلَكَة "عُمُرِي" الكبيرة: مدينة "السَّامرة". لا يكاد يوجد أيُّ شكٍّ في أنَّ "العُمُرِيِّينَ" هم الذين بنوا "السَّامرة"؛ لأنَّ المصادر الآشورية المتأخّرة كانت تُسمّي المَمْلَكَة الشماليّة "بيت عُمُرِي"، في إشارة إلى أنَّ عُمُرِي كان مُؤسَّس عاصمتها . لقد تمَّ تنقيب الموقع لأوّل مرّة عام 1908 - 1910، من قِبَل بعثة لجامعة هارفارد، ثمَّ قام فريق أمريكي، وبريطاني، ويهودي - فلسطيني مُشترك باكتشاف الموقع في الثلاثينات (من القرن الماضي) . وقد عكس هذا الموقع - بشكلٍ أكثر - عَظَمَة السُّلالة "العُمُرِيَّة" .

إنَّ موقع "السَّامرة" موقع رائع حتّى هذا اليوم . تقع "السَّامرة" وسط تلال مُتحرّجة بلُطف، مزروعة ببساتين اللُّوز والزيتون، تُشرف على منطقة زراعيّة غنيّة . ويُشير اكتشاف بعض القطع الفخاريّة، وبعض الحيطان، ومجموعة من الأبنية الصخريّة، إلى أنّها كانت قد سكَّنت قبل وُصُول "عُمُرِي"؛ ويبدو أنّه كانت توجد في ذلك الموقع قرية إسرائيلية فقيرة وصغيرة، أو مزرعة في القرنين الحادي عشر والعاشر ق.م. . ربّما تكون هذه هي ميراث "شَامر" Shemer، المالك الأصلي للعقار المذكور في سفر الملوك الأوّل 16 / 24 . وعلى أيِّ حال؛ بوُصُول "عُمُرِي" وأعضاء بلاطه في حوالي سنة 880 ق.م، تمَّ تدمير كُلِّ أبنية المزرعة، وتسويتها بالأرض؛ ليظهر في مكانها - على قَمَة التلّ - قَصْر فاخر غني مع أبنية المُلحقَة به، الخاصّة بأعضاء البلاط الملكي، والحدّام، والحشم .

يبدو أن "السامرة" قُبِلت - منذ البداية - كعاصمة شخصية للأسرة "العُمريّة". كانت مظهرًا للعظمة المعماريّة لحُكم "العُمريّين" وحُكم "أخاب" (انظر الشكّل 21)، إلا أن موقعها على قمة هضبة صغيرة لم يكن مكاناً مثاليًا لمجمع ملكي واسع وكبير؛ وكان الحلّ الذي اقترحه البناءون لهذه المشكلة - والذي يُعدُّ إبداعاً جريئاً في إسرائيل العصر الحديدي - هو القيام بعملیات تحريك ونقل مكثف للتربة لخلق أرضية اصطناعيّة كبيرة على قمة الهضبة. لذا؛ تمّ بناء سور ضخّم ويتألّف من عُرف موصولة ببعضها، أو عُرف لرمي السهام منها) حول الهضبة، ليؤطر قمتها والتُنحدرات العليا، ضمن مُستطيل كبير. وعندما اكتمل ذلك السور السانِد، قامت مجموعات البيّانين بملء داخله بألاف الأطنان من تُراب الأرض المأخوذ من المناطق المجاورة.



الشكّل 21: تاج عمود صخري من النمط العولسي. الأوّلي Proto-Aeolic. من تفضّل جمعيّة اكتشاف وتنقيب إسرائيل.

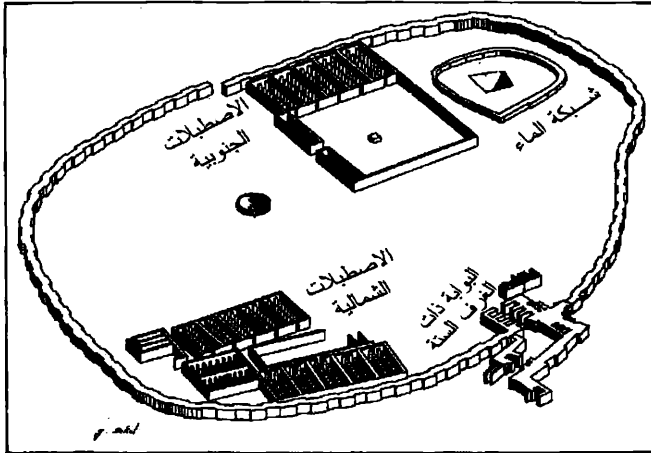
لقد كان حجم هذا المشروع هائلاً؛ حيث بُلغ عمق الملء الطيني المُعبأ خلف السور السانِد في بعض الأماكن عشرين قدماً تقريباً. وهذا يُفسّر - احتمالاً - لماذا بُني السور المُحيط والداعم لمُجمَع القصر بتقنيّة عُرف الملاجئ؛ لقد قُصد من عُرف الملاجئ هذه (والتي كانت مملوءة - أيضاً - بالتُّراب) تخفيف الضَّغط الهائل للملء. وهكذا تمّ إنشاء قلعة أكرؤوبوليسيّة<sup>(1)</sup> ملكيّة على مساحة خمس هكتارات. هذا البناء الحجري والتُّرابي الضَّخَم، لا يُمكن مقارنته من ناحية الجرأة والتبذير والفخامة (وإن كان، ربّما، ليس من ناحية الحجم)، إلا مع العمل الذي نفّذه "هيرودّ" الكبير قبل ألف عام تقريباً على جبل الهيكل في أورشليم (القدس).

(1) الاكرؤوبوليس Acropolis هو الجزء الأعلى المُحصَّن من مدينة إغريقيّة، كما إنّه اسم علم لقلعة أثينا الإغريقيّة الشهيرة. (المُترجم).



قام على أحد جوانب تلك الأرضية الاصطناعية قصر جميل وكبير بنحو استثنائي،  
 ينافس في عظّمته القصور المعاصرة في دول شمال سوريا. بالرغم من أن قصر العُمَريّين في  
 السامرة لم يتم تنقيبه إلا بنحو جزئي فقط، إلا أن الجزء الذي تمّ اكتشافه من مخطّطه كان  
 كافياً في اكتشاف أن بناء المركزي وحده كان يغطّي مساحة تصل لحدود نصف هكتار. يُعدُّ  
 هذا القصر - بخططه الخارجية التي بُنيت كلياً من الحجارة المرّعة المنحوتة بنحو مُمتاز ورائع  
 وأنيق، ووضعت بلبق بعضها البعض بنحو ملائم - أوسع وأجمل بناء تمّ تنقيبه عن إسرائيل  
 العصر الحديدي على الإطلاق.

حتىّ التزيين المعماري كان استثنائياً. وُجدت في أنقاض تراكمت القُرُون التالية تيجان  
 عواميد حجريّة، بُنيت على طراز قديم فريد يُسمّى عولسي - أوّلي (1) Proto-Aeolic (بسبب  
 مُشابهته للأسلوب العولسي Aeolic الإغريقي التّالي)، (الشّكل 21). لقد زُيّنت تيجان  
 العواميد الحجريّة المزخرفة هذه البوابة الخارجيّة الضّخمة لمجمّع القصر، أو ربّما كانت مدخلاً  
 مُتقناً مزيّناً للقصر الرئيسي نفسه.



الشّكل 22: القرن الثّامن ق. م، في 'مجدو'. البوابة ذات الحجّر السّنة six-chambered (نسبها عالم الآثار 'يادين' إلى المستوى 'السّليمانّي') تعود - في الاحتمال الغالب - إلى هذه الطبقة الأرضية. من تفضّل الأستاذ ديفيد أوسيشكين، من جامعة تلّ أبيب.

(1) Aeolic = عولسي: نسبة لمولس إله الرياح اليوناني. (المترجم).

لم يبق من الأثاث الداخلي إلا القليل ، باستثناء عدد من اللوحات العاجية المنحوتة بشكل دقيق معقد ، والتي تُورخ -احتمالاً- إلى القرن الثامن ق. م. وتحمل سمات سوريا. فينيقية ، ومصرية . وقد استعملت تلك القطع العاجية كبطانات في أثاث القصر ، مما قد يُسرِّ التلميح الذي جاء في سفر الملوك الأول 22/39 إلى البيت العاجي الذي بناه آخاب على ما يروى .

أحاطت عدة أبنية إدارية بالقصر ، ولكن أغلب المنطقة المضمَّنة تُركت مفتوحة . وتجمَّعت البيوت البسيطة لشعب "السامرة" - على ما يبدو - على المنحدرات تحت قلعة الأكروبوليس Acropolis . بالنسبة للزوار والتجار والمبعوثين الرسميين الذين كانوا يصلون إلى "السامرة" لا بدَّ أن الانطباع البصري لعاصمة "العمرتين" الملكية كان مدهلاً ، خاصة أرضيتها المرتفعة وقصرها العظيم والمتنق ، والذي كان يحكي عن ثروتها وقوتها وتأثيرها .

لم تكن "السامرة" إلا بداية اكتشاف عظمة "العمرتين" . وجاءت بعدها "مجدو" . في وسط العشرينات من القرن الماضي ، اكتشف فريق تابع لجامعة شيكاغو قصرًا من العهد الحديدي ، بُني من كتل الحجارة المنحوتة والمُبسة بشكل جميل . كان المدير الأول لتقنيات المعهد الشرقي في "مجدو" : "كلارنس س. فيشر" Clarence S. Fisher ، قد عمل - أيضاً - في "السامرة" ، وتأثر - فوراً - بتشابه البناءين . وقد أيدَّه في ملاحظته تلك "جون كراوفوت" John Crowfoot ، رئيس البعثة المشتركة إلى "السامرة" ، الذي اقترح بأن تشابه تقنيات البناء والمخطط الكلي في "السامرة" و"مجدو" يُشير إلى أن كليهما بُنیا تحت إشراف "العمرتين" ، لكن مسألة التشابه المعماري هذه لم تتم متابعتها - بشكل كامل - لعدة عقود . لقد كان أعضاء فريق جامعة شيكاغو أكثر اهتماماً بعظمة ومجد سليمان من اهتمامهم بالعمرتين السقَّة الأوغاد . لقد أهملوا تشابه نمط البناء في مجدو والسامرة ، وأعادوا تاريخ مجمَّعات الأبنية ذات العواميد التي وجدوها في الطبقة التالية (و افترضوا أنها إسطبلات) إلى عهد الحُكم الملكي المتحد . في أوائل الستينات ، عندما جاء "يغائيل يادين" ، من الجامعة العبرية ، إلى "مجدو" ، أرخ قُصور "مجدو" - أي القصر الذي اكتُشف في عشرينات القرن الماضي والقصر الذي اكتشفه هو نفسه - إلى عهد سليمان ، ، وربط المستوى المتأخر الذي كان يحتوي على إسطبلات وأبنية أخرى بعهد "العمرتين" .

كانت المدينة رائعة بالتأكيد. كانت مُحاطة بتحصينات هائلة، وطبقاً ليادين؛ كانت مُجهّزة ببوابة مدينة ذات أربع حُجرات كبيرة (بُنيت مباشرة فوق البوابة السُلَيْمَانِيَّة السَّابِقَة). كانت أبرز ميزة مَهِيْمَة داخل المدينة صَمِيَّ ابْنِيَة العواميد التي كانت قد عرُفَتْ على أنها إسطبلات. إلا أنَّ "يادين" لم يربطها بما جاء في الكتاب المقدس العبري من وَصْف لجيش عَرَبِيَّات سُلَيْمَان الكبير، بل رَبطَهَا بجيش "أَخَاب"، الذي جاء ذَكَرَهُ في نَقْش سَلْمَانَصَّر (الأشوري). إلاَّ أَنَّهُ - كما سنرى - لم يُحدِّد "يادين" - بشكل صحيح - مدينة "أَخَاب"؛ لأنَّ تلك الإصطبلات كانت تنتمي - احتمالاً - للملك الإسرائيليِّ آخر، بل حتَّى ملك مُتأخِّر.

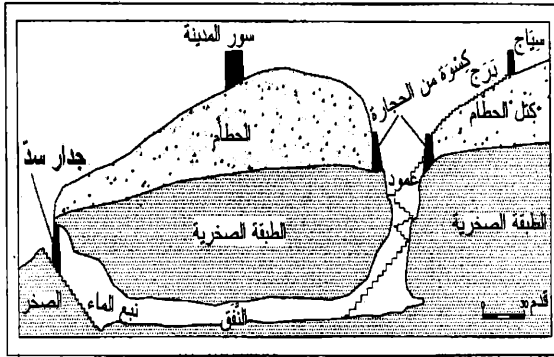
قدِّمَتْ مدينة "حاصور" الشماليَّة، التي نَقَبَهَا "يادين" في الخمسينات والستينات (من القرن الماضي)، دليلاً باهرًا آخر على عَظَمَة "العُمُرِيِّين". كانت "حاصور" - أيضاً - مُحاطة بتحصينات هائلة. وقد اكتشف "يادين"، في مركز تلك المدينة، بِنَايَة ذات عواميد مُشابهة - لحدِّ ما، في الشَّكْلِ - لإسطبلات مَجْدُو، المُقسَّمة إلى ثلاثة مَمَرَّات طويلة بواسطة صُفوف أعمدة حَجَرِيَّة، لكنَّ هذا البناء لم يحتو على مُنخفضات حَجَرِيَّة للإطعام، لذا؛ فَسَّرَ - بناءً على ذلك - على أَنَّهُ كان مَحْزَنًا مَلِكِيًّا، ثُمَّ تمَّ اكتشاف قلعة بارزة على الرَّاس الضَّيِّق الشَّرْقِي لِلتَّلِّ، مُحاطة بسُور مدينة قوي.

أحد المواقع الأخرى الذي رُبطَ بالعُمُرِيِّين كان مدينة "دان" في أقصى الشَّمال، قُرْب منطقة منابع نهر الأردن. وقد سَبَقَ واستشهدنا بالسُّطور الافتتاحية للمسألة التي نَصَبَهَا "حزانيل" ملك "أرام دمشق" في مدينة دان، والتي أشارت إلى أنَّ "العُمُرِيِّين" كانوا قد أخذوا هذه المنطقة سابقاً من الآراميين. لقد كَشَفَت التَّنْقِيَّات في "دان" التي قام بها أبراهام بيران Abraham Biran، من الكَلْبِيَّة العَبْرِيَّة المُتَّحِدَة، تحصينات كثيفة تعود للعصر الحديدي، وبوابة مدينة مُتقنة وضخمة، وملجأ ذا مكان مُرتفع. وقد تمَّ تأريخ هذه المنصَّة الكبيرة التي يصل حجم أحد جوانبها إلى حوالي سِتِّين قَدَم، وبُنيت من حَجَرٍ منحوتٍ ومَلْبَسٍ بِشَكْلِ جميل، مع الأبنية التذْكَارِيَّة الأخرى للمدينة، إلى عهد "العُمُرِيِّين".

ومع كُلِّ ما سَبَقَ، ربَّما كانت أكثر الإنجازات الهندسية روعة التي تمَّ ربطها أوَّلِيًّا بعهد "العُمُرِيِّين" هو أنفاق الماء الكبيرة تحت الأرض، التي حُمِرَتْ في الأرضِيَّة الصَّخْرِيَّة، تحت

مدينتي "مجدو" و"حاصور". لقد زوّدت هذه الأنفاق أهالي المدينتين بوُصول آمنٍ لمياه الشرب حتى في أوقات الحصار. كانت قضية الوُصول الآمن لمياه الشرب تُعدُّ تحدياً هاماً في الشرق الأدنى القديم؛ إذ بينما كانت المُدن الهامة مُحاطة بتحصينات مُتقنة تسمح لها بمقاومة هُجُوم أو حصارٍ لأكثر الأعداء شراسة وتصميماً، كان من النادر جداً أن تمتلك منبعاً للمياه العذبة داخل أسوار تلك المُدن. نعم؛ كان الأهالي قادرين -دائماً- على تجميع مياه الأمطار في صهاريج، لكن هذا لم يكن كافياً عندما كان الحصار يمتدُّ خلال أشهر الصيف الحارة الجافة الخالية من الأمطار، لاسيّما عندما تمتلئ المدينة بالأجثين.

ولما كانت أكثر المُدن القديمة تقع قُرب ينابيع المياه، كان التحدي هو ابتكار طريقة وُصول آمنة لمياه تلك الينابيع. ولذلك؛ فإن أنفاق الماء المحفورة في الصخر في "حاصور" و"مجدو" كانت من بين أكثر الحُلُول إقناعاً وتطوراً لهذه المُشكلة.



النشكُل 23: مقطع عرضي لنظام الماء في 'مجدو'

في مدينة "حاصور" تم قُطْع وحفَر عمود شاقولي عريض خلال بقايا المُدن السَّابِقة نحو الطَّبَقَة الصَّخْرِيَّة الصَّلبَة في الأسفل. وبسبب عمقه الكبير، والذي وُصَل -تقريباً- إلى مئة قَدَم، كان يجب بناء جُدْران داعمة لَمُنع انهياره، فكانت هناك درجات عريضة تُؤدِّي إلى القاع؛ حيث يُوجد نفق مائل طوله حوالي 80 قَدَم، يُؤدِّي إلى عُرقَة محفورة في الصَّخر تُشبه البركة، كانت تتسرب إليها المياه الجوفية. يُمكن لأحدنا أن يتخيَّل -فقط- موكب حاملي الماء،

الذين يسرون في خطِّ مُتسلسل ، ويهبطون عبر الدَّرَج ، ويسرون على طُول النَّقْ تحت الأرض ، ليملأوا جرارهم في الكهف المُظلم ، ويعودون بالماء إلى شوارع المدينة المُحصرة؛ لإبقاء النَّاس على قَيْد الحياة .

اشتمل نظام الماء في "مَجْدُو" على عمود أسهل إلى حدِّ ما ، ينزل إلى عمق مئة قَدَم ، حُفِّر ضمن البقايا السَّابِقة للأرضيَّة الصَّخريَّة . ومن هنا ؛ كان يُؤدِّي إلى نفق أَقْصَى طوله أكثر من مِئتي قَدَم ، عريض ومُرتفع بنحو يكفي لسير عدَّة أشخاص فيه في نفس الوقت ، والذي يُؤدِّي إلى كهف يُنبوع ماء طبيعي على حافَّة الهضبة . وكان يتمُّ سدُّ مدخل الكهف من الخارج ، وإخفاؤه . لقد أرخ "يادين" شَبَكَمِي الماء في "مَجْدُو" و"حاصور" إلى عهد "العُمريِّين" . واقترح رَبِّطَ مهارة الإسرائيليين في قطع وحفر شبكة المياه بفقره في مسلَّة مِشَا يروي فيها الملك المُوأبِي كيف حَفَرَ خزاناً للماء في عاصمته الخاصَّة بمُساعدة أسرى الحرب الإسرائيليين . لقد كان من الواضح أنَّ بناء مثل تلك التجهيزات الضخمة يحتاج لاستثمار ضخم ، ولتنظيم حُكوميٍّ فعَّال ، ومُستوى عالٍ من المهارة التَّقنيَّة . ومن وجهة نظرٍ وظيفيَّة ، ربَّما كان مُهندسو العصر الحديدي قادرين على الوُصول إلى نتيجة مُشابهة باستثمار أصغر بكثير ، وذلك عبر حفر بئر ، بكلِّ بساطة ، يصل إلى البركة المائيَّة تحت التُّلِّ ، ولكنَّ الإثارة والتأثير البَصري لتلك المُنشآت المائيَّة الكبيرة دَعَمَ - بلا شك - سُمعة ونُفوذ السُلطة الملكيَّة التي أمرت بإنشائها .

نُقطة تحوُّلٍ منسيَّة في تاريخ الإسرائيليين:

على الرَّغم من أنَّ علماء آثار أوائلٍ ومُنصف القرن العشرين نسبوا الكثير من مشاريع الأبنية الضخمة لفترة "العُمريِّين" ، إلا أنَّ تاريخ الكتاب المقدَّس العبري لم ينظر - أبداً - إلى فترة حُكْمهم كفترةٍ مهمَّة - بنحو خاصٍّ ومؤثِّرة - في تشكيل مَمْلَكَة إسرائيل .

أجل ؛ كانت فترة حُكْمهم مُتعدِّدة الألوان . ومن المُوكَّد أنَّها كانت - أيضاً - فترة حيويَّة ونشطة . لكن ؛ من زاوية تاريخيَّة محضه ، بدت قصة "العُمريِّين" - "أخاب" و"إيزابيل" - مذكورة - بتفصيل كافٍ جداً - في الكتاب المقدَّس ، مع معلوماتٍ مؤيِّدة من النُصوص الآشوريَّة ، والمُوأبِيَّة ، والآراميَّة . بدا أنَّ هناك العديد من الأسئلة التاريخيَّة الأكثر إثارة التي يُنتظر من

التّقيّيات والمزيد من الأبحاث أن تُجيب عنها: العمليّة الدّقيقة للاستيطان الإسرائيلي؛ التّيلور السّياسي للحكم الملكسي تحت داود وسليمان؛ أو حتّى الأسباب الخلفيّة الكامنة وراء الغزو الآشوري والبابلي النهائي لأرض إسرائيل. كان علم آثار العُمريّين يُعدّ - عادةً - مُجرّد معلومات عرضيّة على جدول الأعمال الرّئيسي لعلم آثار الكتاب المقدّس، أُعطي اهتماماً أقلّ من الانتباه الذي مُنح للفترة السّليمانيّة.

ولكن؛ كان هناك شيء خاطئ جدّاً في هذا الارتباط الأوّلي بين التّاريخ التّوراتي والاكتشافات الأثريّة. فالأسئلة الجديدة التي بدأت تُطرح حول طبيعة، ومدى، أو حتّى حول الوجود التّاريخي، أساساً، لمملكة سليمان الواسعة - وإعادة تحديد تاريخ الطبقات الأثريّة - أخذت تُؤثّر على فهم العلم - الأثاري لفترة العُمريّين - أيضاً؛ لأنّه إذا لم يكن سليمان - في الحقيقة - هو الذي بنى البوابات والقصور السّليمانيّة، فمنّ بناها إذن؟ إنّ العُمريّين كانوا المرشّحين البديهيّين. أبكر التشابهات المعماريّة للقصور المتميّزة التي تمّ التّقيب عنها في "مجدو" (والتي تُنسب - في البداية - لسليمان) جاءت من سوريا الشماليّة - المكان المُفترض لأصل هذا النوع - في القرن التاسع ق.م؛ أي بعد قرن كامل من عهد سليمان! وكان هذا - بالضبط - هو عهد حكم العُمريّين.

الدّليل المفتاحي الهام الذي يُثبت لزوم إعادة تحديد تاريخ البوابات والقصور السّليمانيّة جاء من الموقع التّوراتي لـ يَزْرَعِيل، الذي يقع على بُعد أقلّ من عشرة أميال شرق "مجدو" في قلب وادي يَزْرَعِيل. يقع الموقع في بقعة مُرتفعة جميلة، تتمتع بمناخ معتدل في الشتاء، ونسيم بارد في الصيف، وتُشرف على منظر طبيعي رائع لكامل وادي يَزْرَعِيل، والتلال التي تُحيط بها، من "مجدو" في الغرب، وغير مُرتفعات الجليل في الشمال، وحتّى "بيت شان" و"جلعاد" في الشرق. اشتهرت يَزْرَعِيل - بشكل كبير - بسبب قصة الكتاب المقدّس عن مزرعة عنب "نابوت"، و"أخاب" و"حطّط إيزابيل" لتوسيع القصر، ومشهد التّصفية النهائيّة الدّامية لسلالة العُمريّين.

في التسعينيات، تَنَسّب الموقع "ديفيد أوسيشكين" David Ussishkin من جامعة تل أبيب، و"جون وودهيد" John Woodhead من المدرسة البريطانيّة لعلم الآثار في أورشليم (القُدس). لقد اكتشفوا منطقة مسيّجة ملكيّة كبيرة، مُشابهة جدّاً لتلك التي في "السّامرة" (الشّكل 20: 3).

لقد تمَّ شغل هذا المجمع الرائع، في القرن التاسع ق. م، لفترة قصيرة فقط، - من المفترض أنها كانت - فقط. أثناء عهد أسرة "العُمريين". ثمَّ تمَّ تدميره بعد فترة قليلة من بنائه، ربّما بالارتباط مع سقُوط "العُمريين" أو الغزوات اللاحقة لشمال إسرائيل من قِبَل جيوش آرام دمشق.

كما في "السامرة"، تمَّ في "يزرعيل" بناء سور ضخم من عُرف ملاجئ الحُرَّاس (أو الجنود) حول التلِّ الأصلي مُشكِّلاً ما يُشبه "الصندوق" الذي ملئ - فيما بعد - بأطنان عديدة من التراب. كنتيجة لعمليات الملء والتسوية واسعة النطاق، نشأت منصة مُستوية بُنيت عليها الأبنية الداخليَّة للمُجمَع الملكيِّ. في "يزرعيل"، اكتشف علماء الآثار عناصر مُميِّزة أُخرى لِنَمَط الفنِّ المعماريِّ "للعُمريين"، الذي لم يكن مُعتَرَفًا به حتَّى ذلك الوقت؛ حيثُ لُاحظوا وجود سورٍ طينيِّ مائلٍ يدعم السور المُوَلَّف من عُرف ملاجئ الحُرَّاس من الخارج لمنعه من الانهيار. وكعنصرٍ دفاعيٍّ إضافيٍّ، أحيط المَجْمَع بخندقٍ مائيٍّ هائلٍ حُفر في الأرضيَّة الصخريَّة، لا يقلُّ عرضه عن خمسة وعشرين قَدَمًا، ويصل عُمقه لحوالي خمسة عشر قَدَمًا. وزُوِّد المدخل إلى المنطقة الملكيَّة المُسيَّجة "للعُمريين" في "يزرعيل" ببوابةٍ، من المُحتمل أنها من نَمَط البوابات ذات العُرف الستة.

بما أنَّ "يزرعيل" حُدِّدت زمنيًّا، وقُصِّرت على فترة قصيرة تمَّ فيه شغلها، في القرن التاسع ق. م، فإنَّها تُقدِّم حالة فريدة يُمكن - من خلالها للأساليب المُتميِّزة للفخاريَّات، التي وُجدت ضمنها - أن تُستعمل كمُؤشِّرات واضحة على تحديد تاريخ فترة "العُمريين" في المواقع الأخرى. بشكلٍ ملحوظ؛ كانت الأساليب الفخاريَّة التي اكتُشفت في المنطقة المُسيَّجة في "يزرعيل" مُماثلة - تقريبًا - لتلك التي وُجدت في مُستوى القُصور "السليمانية" في "مجدو". وهكذا أصبح واضحًا تمامًا - من وجهتي النَّظَر المعماريَّة والحرفيَّة - أنَّ الذي بنى البنايات الحجريَّة المنحوتة في "مجدو"، و"يزرعيل" ومُجمَعات "السامرة" لم يكن "سليمان"، وإنَّما كان في الواقع "العُمريون".

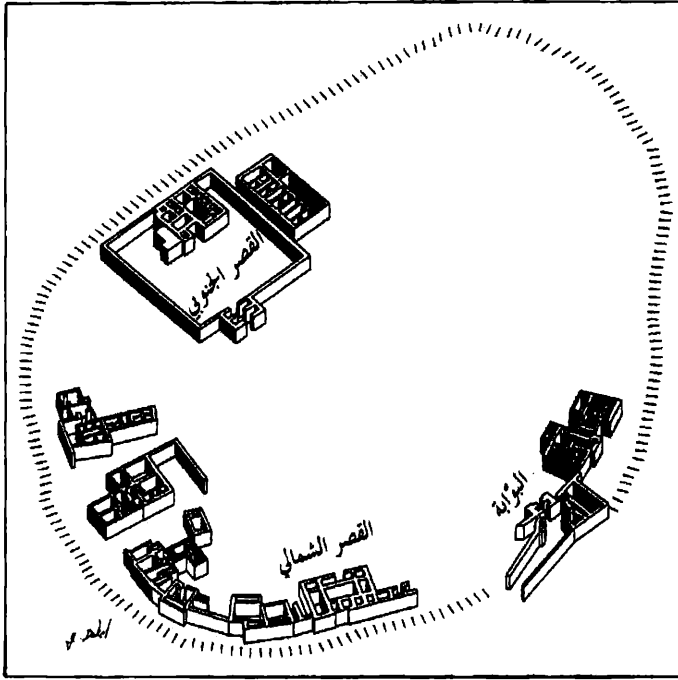
النَّظَريَّة التي تقول إنَّ "العُمريين"، وليس سُلَيْمان، هم الذين أسَّسوا أوَّل حُكْم ملكيِّ مُتطوِّر بالكامل في إسرائيل أصبحت تزداد قُوَّة إقناعها، مع الرُّؤية الجديدة للشواهد التي تمَّ الحُصُول عليها من المُدُن الرئيسيَّة الأخرى لمملكة إسرائيل. حدَّد عالم الآثار "يادين" في مدينة "حاصور"، هويَّة مُجمَعٍ مُثلَّت الشكُّل على الأكروبوليس Acropolis (منطقة مُرتفعة) - مُحاط بسورٍ من عُرف ملاجئ الحُرَّاس (أو الجنود) ومدخله مُؤلَّف من بوابة ذات ستَّة عُرف - بأنَّه يُمثِّل

المدينة التي أسسها سلیمان في القرن العاشق . م . لكن إعادة تمديد تاريخ الفخاربات على أساس المكشفات في يزرعيل ، وصعت مستوى هذه المدينة في أوائل القرن التاسع ق . م .

في الحقيقة ، كان هناك تشابه هيكلية واضح تماماً بين ذلك المجمع المثلث ومجمعات القصر في السامرة ويزرعيل (الشكل 20 : 2) . بالرغم من أن الشكل المثلث لمجمع حاصور قرصته تضاريس الموقع ، إلا أن بناءه تضمن عمليات ملء وتسوية كبيرة وعظيمة جداً ، رفعت مستوى منطقة البوابة بالنسبة للمنطقة الخارجية التي تقع شرقه . وتم حصر خندق مائي هائل ، ضمن عرضه بـ 150 قدماً وعمقه بثلاثين قدماً ، خارج السور المكون من غرف ملاجئ الحراس . التشابه العام مع يزرعيل و السامرة واضح . وهكذا ، نجد امامنا مدينة أخرى كان يعتقد -لزمين طويل- أنها مدينة سليمانية ، تبين اليوم أنها -احتمالاً- تعود لعهد العمرين .

ظهر الدليل على مدى المشاريع البنائية للعمرين من تحليل أقرب للآثار الباقية في مجدو وجازر . بالرغم من أنه ليس كمجدو مجمع ذو سور من غرف الملاجئ ، إلا أن القصرين الجميلين على قمتهما ، اللذين بُنيا بأحجار منحوتة متميزة ، يستدعيان إلى الذهن تقنيات البناء المستعملة في السامرة (الشكل 24) . إن التشابه قوي جداً في حالة قصر أقصى الجنوب في مجدو ، الذي بُني على حافة فناء كبير ، على نمط قصر بيت حيلاني السوري الشمالي ، مغطياً منطقة من حوالي خمسة وستين قدماً مربعة بمئة قدم . كما تم اكتشاف تاجي عمود صخريين من النمط العولسي -الأولي Proto-Aeolic كبيرين جداً بنحو استثنائي (مثل تلك التي في قصور السامرة) قرب البوابة المؤدية لمجمع القصر ، وربما كانا تزييناً لدخول القصر نفسه . ميز نورما فرانكلين Norma Franklin ، من بعثة مجدو الحالية ، تشابهاً آخر : إن القصر الجنوبي في مجدو والقصر في السامرة هما البناءان الوحيدان من أبنية العصر الحديدي في إسرائيل ، التي تشترك حجارتها المنحوتة بنوع معين من علامات البنائين . وثمة قصر آخر ، اكتشفه -جزئياً- يادين ، على الحافة الشمالية للتل ، ثم تم -الآن- اكتشافه بالكامل من قبل البعثة الجديدة إلى مجدو ، بُني -أيضاً- من الحجر المنحوت على نمط أسلوب القصر السوري الشمالي .





الشكل 24: المدينة العمريّة هي 'مجدو'

ربما كان الدليل في "جازر" أكثر الأدلة تجزأ في كل المدن السليمانية المفترضة، لكن؛ تم اكتشاف شواهد بما فيه الكفاية تشير إلى مشابهته لمواقع "العمرين" الأخرى. اكتشفت في الحافة الجنوبية للموقع، وبوابة ذات ست غرف مبنية بأسلوب معماري رفيع، مع أحجار منحوتة في العضائد، وموصولة بسور من غرف ملاجئ الخراس المدافين. اشتمل بناء البوابة وسور غرف الملاجئ على عمليات تسوية الفناء الموجود على جانب التل، وتم جلب كمية ضخمة من التراب للملء. بالإضافة إلى ذلك؛ تشير الجدران المجرأة (المقطعة لأجزاء) إلى أن ثمة بناية كبيرة، في أغلب الاحتمال أنها قصر مبني من الحجارة المنحوتة، كانت مبنية على الجانب الشمالي الغربي للتل. هذه - أيضاً - ربما كانت قد زينت بتيجان عواميد حجرية، بُنيت على الطراز العولسي - الأوكي Proto-Aeolic، والتي وُجدت في "جازر" في بداية القرن العشرين.

تقدّم تلك المواقع الخمسة نحة إلى الهندسة المعمارية الملكية لعصر "العُمريين" الذهبي لإسرائيل . بالإضافة للأرضيات الاصطناعية لمجمعات القصر المختلفة في حجمها ووسعيتها ، يبدو أن المجمعات . على الأقل في "السامرة" ، و"يزرعيل" ، و"حاصور" . كانت فارغة بنحو كبير ، باستثناء الأبنية الإدارية المتخصصة والقصور الملكية . لقد كانت الحجارة المنحوتة بنحو رفيع وتيجان العواميد الحجرية ، المبنية على الطراز العولسي - الأوثي Proto-Aeolic تُمثلُ تزييناً متميزاً في هذه المواقع . يبدو أن المداخل الرئيسية إلى المجمعات الملكية كانت محروسة ببوابة ذات ست حُجرات ، وفي بعض الحالات ؛ كانت المجمعات مُحاطة بخندق مائي ومنحدرات خفيفة<sup>(1)</sup> .

إن إعادة تحديد تاريخ تلك المدن من فترة سلیمان إلى زمن "العُمريين" له نتائج هائلة . إنه يُزيل الدليل الآثاري الوحيد على وجود حكم ملكي متحد مركزه أورشليم (القدس) ، ويقترح أن داود وسلیمان لم يكونا . سياسياً . أكثر من زعماء ريف المرتفعات (التلال والهضاب) ، بقيت سلطنتهم الإدارية محصورة في رقعة محلية متواضعة هي ريف المرتفعات . والأهم من ذلك أن هذا يُظهر بأنه على الرغم من تأكيد الكتاب المقدس العبري على تفردية إسرائيل ، فإنَّ هناك مملكة مرتفعات من النمط الشرق أدنوي التقليدي جداً ، ظهرت في الشمال في أوائل القرن التاسع ق . م . .

نَصَبُ مَعْمَارِيٍّ مَنَسِيٍّ لِلْحُكْمِ الْعُمَرِيِّ؟

أصبح . الآن . من الممكن البحث عن أمثلة إضافية للمدن "العُمريّة" في أماكن أكثر بعداً ، أبعد بكثير من مناطق الموارث القبائلية التقليدية لشعب إسرائيل . تروي مسألة ميشا أن "عُمري" بنى مدينتين في "مُواب" : "أتاروث" Ataroth ، و"ياحاز" Jahaz ، لتكونا . احتمالاً . معاقل حُدُودية جنوبيّة في شرقي الأردن (الشكل 16) ، كلاهما ذُكر . أيضاً . في قوائم جغرافية مختلفة في الكتاب المقدس ؛ حيث تمَّ تحديد هوية "أتاروث" بأنها نفس موقع "خرية أثاروس" الذي لم يتمّ تقيّبه بعد ، والواقع جنوب غرب قرية "مادابا" Madaba الأردنية العصرية . أمّا

(1) لقد وُضعت عددٌ علامات سؤال على التواريخ التي ذُكرت لشبكات الماء ؛ حيث أصبح من الممكن ربطها بفترة لاحقة من تاريخ مملكة إسرائيل . ومع ذلك ؛ فإن غيابها لا يُقلل من عظّمة شبكة المدن الملكية التي يبدو أنها حُطّطت مركزياً ، وبنيت خلال القرن التاسع ق . م . . (المؤلّف) .

'ياحاز' Jahaz؛ فعملية التعرف عليها أصعب. لقد جاء ذكرها مرّات قليلة في الكتاب المقدّس العبري بأنّها تقع في حافة الصحراء قُرب 'أرثون'، الوادي المُعرّج العميق، الذي يمرّ خلال وسط مواب، من الصحراء الشّرقيّة إلى مخرجها في البحر الميت. يبدو أنّ العُمريّين وسعوا حكمهم حتّى وصل إلى هذه المنطقة، وهناك على الحافة الشماليّة لـ'أرثون' منطقة خرابات نائية تعود للعصر الحديدي تُسمّى 'خربة المدينة' تحتوي على كلّ الخصائص التي اكتشفنا أنّها النمط المعماري المميّز لـ'العُمريّين'.

يتألّف هذا الموقع، الذي يقوم بتتقيبه -الآن- ب. م. ميشيل دافيو Daviau من جامعة ولفريد لورير Wilfrid Laurier في كندا، من قلعة كبيرة بُيّت على تلّ مُطاوّل (طولي). يُحيط سور من عُرف ملاجئ الحُرّاس بمنطقة مساحتها حوالي هكتارين ونصف، يتمّ الدخول إليها عبر بوابة ذات ستّ عُرف. أمّا ميّزاتها الدفاعيّة؛ فتشتمل على سور طيني مائل وخندق مائي. تُوجد داخل المُجمّع بقايا بناية ضخمة تذكاريّة، بما في ذلك أحجار منحوتة مُنهارَة ومُطمّنة. تُشير الصُور الجويّة المأخوذة للموقع أنّ المُجمّع بكامله كان مُستنداً على منصّة اصطناعيّة مملوءة بالتراب. كان المُستكشف الرائد للأردن نيلسون غلويك Nelson Glueck، الذي زار الموقع في الثلاثينات من (القرن الماضي)، مُعجباً جداً بميّزات المُجمّع الذي قارنه بقلعة التلّ الهائلة والشهيرة التي تعود للعصر الحديدي المُبكّر في إنجلترا.

هل يُمكن أن تكون هذه الخرابات الأثريّة النائية هي المخفر العُمري القديم المُسمّى 'ياحاز' والمذكور في مسألّة 'ميشا'؟ وهل من المُمكن أن يكون المُهندسون والمعماريّون قد استخدموا -في بناء هذه القلعة الحُدوديّة النائية التابعة لـ'العُمريّين'- الخصائص النّمطيّة لمشاريعهم البناييّة الكبيرة في المملكة الشماليّة غرب الأردن؟ هل من المُمكن أن يكونوا -كما هو الحال في 'السامرة' و'يزرعيل'- قد استخدموا العمليّات المتطوّرة لتحريك التربة وأسوار الدّعْم والإسناد الضخمة لتحويل مُستوطنة صغيرة على قمّة تلّ إلى معقل بارز؟ ربّما كان 'العُمريّون' أقوى حتّى من ذلك -وربّما كان تأثيرهم الثقافي أبعد مسافة حتّى أكثر- ممّا يُعرف حالياً<sup>(1)</sup>.

(1) تمّ تحديد تاريخ عيّنة من الكربون 14 أخذت من منطقة البوابة بأواخر القرن التاسع قبل الميلاد (حصّلت على هذه المعلومة عبر اتّصال شخصي مع ميشيل دافيو الذي يقوم بعمل التنقيب). لا يستبعد التاريخ الزماني المُمكن لهذه القراءة بناءً يعود لتُصنّف القرن التاسع ق. م. ومع ذلك، لا يُمكننا أن نستبعد إمكانيّة أن تُمثّل هذه الميّزات المعريّة للموقع نسخة مويّبة للنشاط العُمري في المملكة الشماليّة. (المؤلّف).

## قُوَّةُ التَّنَوُّعِ:

من أين جاءت القُوَّةُ والثروة التي مكَّنت من تأسيس مثل هذه المملكة التامة والمحافظة عليها؟ أي تطوُّرٌ حَدَثَ في بلاد التلال الشماليَّةِ أدَّى إلى بُرُوزِ الدَّولةِ العُمريَّةِ؟

سَبَقَ وَذَكَرْنَا كَيْفَ أَنَّ الثَّرَوَاتِ المَحْدُودَةَ نَسِيبًا لِيَهُودًا، وَعَدَدَ سُكَّانِهَا الضَّئِيلِ، جَعَلَا مِنَ المُسْتَبْعَدِ جَدًّا أَنْ يَكُونَ دَاوُدَ قَدْ أَحْرَزَ فُتُوحَاتٍ أَرْضِيَّةً وَاسِعَةً، أَوْ أَنْ يَكُونَ ابْنُهُ سَلِيمَانَ قَدْ اسْتَطَاعَ أَنْ يُبْدِيَ أَرْضِيًّا وَاسِعَةً. كَمَا ذَكَرْنَا. أَيْضًا. كَيْفَ أَنَّ ثُرَوَاتِ رِيفِ التَّلَالِ وَالْهَضَابِ الشَّمَالِيَّةِ كَانَتْ أَغْنَى وَعَدَدَ سُكَّانِهَا كَانَ أَكْثَرَ بِكَثِيرٍ. مَعَ دِمَارِ المَرَاكِزِ الكُنْعَانِيَّةِ فِي السُّهُولِ، رُبَّمَا أَثْنَاءَ حَمَلَةِ الفِرْعَوْنَ "شِيشَاك" Shishak فِي نِهَائِيَةِ القَرْنِ العَاشِرِ ق. م، كَانَ مِنَ المُمْكِنِ لِأَيِّ رَجُلٍ قَوِيٍّ شِمَالِيٍّ مُحْتَمَلٍ، أَنْ يَتِمَكَّنَ مِنَ السَّيْطَرَةِ عَلَى الوُدْيَانِ الخَصِيْبَةِ لِلشَّمَالِ أَيْضًا. إِنَّ هَذَا يَنْطَبِقُ عَلَى مَا نَرَاهُ فِي نَمَازِجِ أَكْثَرِ آثَارِ "العُمريِّينَ" البَاقِيَةِ بَرُوزًا. بِتَوْسِعِهِمْ مِنْ مَنطِقَةِ التَّلَالِ الأَصْلِيَّةِ فِي مَمْلَكَةِ إِسْرَائِيلِ الشَّمَالِيَّةِ نَحْوَ قَلْبِ الأَرْضِيِ الكُنْعَانِيَّةِ السَّابِقَةِ فِي "مَجْدُو" وَ"حَاصُورَ" وَ"جَازَرَ"، وَنَحْوِ أَرْضِيِ جَنُوبِ سُورِيَا وَعَبْرَ الأَرْدُنِّ، حَقَّقَ "العُمريِّينَ" حَلْمَ حُكْمِ بِلَادِ التَّلَالِ الَّذِينَ كَانُوا- مِنْذُ قُرُونٍ- يَطْمَحُونَ إِلَى تَأْسِيسِ دَوْلَةٍ إِقْلِيمِيَّةٍ وَاسِعَةٍ وَمُتَنَوِّعَةٍ، تُسَيِّطِرُ عَلَى أَرْضِيٍّ زِرَاعِيَّةٍ غَنِيَّةٍ وَطُرُقٍ تِجَارَةٍ دَوْلِيَّةٍ نَشِطَةٍ. دَوْلَةٌ سَتَكُونُ- بِالضَّرُورَةِ- مُجْتَمَعًا مُتَعَدِّدَ الأَعْرَاقِ.

دَمَجَتْ مَمْلَكَةُ إِسْرَائِيلِ الشَّمَالِيَّةِ مُرْتَفَعَاتِ "السَّامِرَةِ" مَعَ الوُدْيَانِ الشَّمَالِيَّةِ، مَكَامِلَةً عِدَّةَ أَنْظِمَةٍ بَيْئِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَسُكَّانًا مُتَبَايِنِينَ عَرَقِيًّا، ضَمِنَ دَوْلَتَهَا الوَاحِدَةَ. كَانَتْ مُرْتَفَعَاتِ "السَّامِرَةِ"- الأَرْضِ الرِّئِيسِيَّةِ لِلدَّوْلَةِ وَمَرْكَزِ العَاصِمَةِ- مَسْكُونَةٌ مِنْ قَبْلِ مُجْتَمَعَاتِ قَرْوِيَّةٍ تُعْرَفُ نَفْسَهَا تَقَافِيًّا وَدِينِيًّا بِأَنَّهَا إِسْرَائِيلِيَّةٌ. فِي السُّهُولِ الشَّمَالِيَّةِ- وَدِيَانَ جَزِيرِلِ وَالأَرْدُنِّ- كَانَ السُّكَّانُ القَرْوِيُّونَ يَتَأَلَّفُونَ- بِشَكْلِ رِئِيسِي- مِنْ قَرَى فَلَاحِينَ مُسْتَقَرِّينَ كَانَتْ مُرْتَبِطَةٌ- بِشَكْلِ وَثِيقٍ، وَلِقُرُونٍ عَدِيدَةٍ- بِدَوْلِ المُدُنِ الكُنْعَانِيَّةِ. وَبَعِيدًا فِي الشَّمَالِ؛ كَانَتْ هُنَاكَ قَرَى مُرْتَبِطَةٌ بِنَحْوِ أَوْثُقِ بِنْتِاقَةِ سُورِيَا الأَرَامِيَّةِ، وَبِفِينِيقِيَّةِ السَّاحِلِ.

وَبِشَكْلِ خَاصٍّ؛ كَانَتْ المَجْمُوعَةُ السُّكَّانِيَّةُ الكُنْعَانِيَّةُ الكَبِيرَةُ وَالْحَيَوِيَّةُ الَّتِي بَقِيَتْ فِي الشَّمَالِ، تَحْتَاجُ أَنْ يَتِمَّ إِدْمَاجُهَا ضَمِنَ الجِهَازِ الإِدَارِيِّ لِأَيِّ دَوْلَةٍ كَامِلَةٍ تَامَّةٍ. إِنَّ المَزِيَجَ السُّكَّانِيَّ الفَرِيدَ لِأَهَالِيِ المَمْلَكَةِ الشَّمَالِيَّةِ، خَاصَّةً العِلَاقَةَ بَيْنَ الإِسْرَائِيلِيِّينَ وَالكُنْعَانِيِّينَ، لَمْ يَغِبْ عَنِ

انتباه علماء الكتاب المقدس، حتى قبل الاكتشافات الأثرية الكبيرة. اقترح العالم الألماني البريخت الت، استناداً إلى رواية الكتاب المقدس عن الاضطراب الديني ضمن مملكة العُمريين، بأن العُمريين كانوا قد طوروا نظام حكم ثنائياً، انطلاقاً من عاصمتهم الرئيسيّين؛ حيث كانت السامرة تعمل كمركز إداري للسكان الكنعانيين، في حين تخدم يَزْرَعِيل كعاصمة للإسرائيليين الشماليين، لكن المكتشفات الأثرية والتاريخية الأخيرة تُشير إلى عكس ذلك تماماً. كان السكان الإسرائيليون مُتركزون. في الواقع. في منطقة ريف التلال حول السامرة، في حين كانت يَزْرَعِيل، في قلب الوادي الحصب، في منطقة ذات استمرارية ثقافية (حضارية) كنعانية واضحة.

في الواقع؛ إن الثبات الواضح في نماذج الاستيطان والهيكل أو المخطط العام غير المتغير للقرى الصغيرة في وادي يَزْرَعِيل، مؤشرات واضحة على أن العُمريين لم يحدثوا تغييراً هاماً في النظام الكنعاني الريفي في السهول الشماليّة.

بالنسبة للعُمريين؛ كان لهمة الدمج السياسي أهميتها الضاغطة بسبب بروز دول مُنافسة في الوقت نفسه، في المناطق المجاورة؛ مثل دمشق، وفينيقية، وموآب، لكل منها ادعاءاته الثقافية القويّة بشأن المجموعات السكانية التي تعيش داخل حدود إسرائيل. ولذلك كانت فترة أوّل القرن التاسع ق. م، زمناً يتطلّب تعريف وتحديد الحدود الوطنيّة، بل حتى نوعاً من الحدود الإقليمية. ومن هنا؛ فإن إنشاء العُمريين لمجمعات قلاع ومحصنات قويّة، بعضها يشتمل على حيّ للقصور، في قلب الأرض الإسرائيليّة، وفي وادي يَزْرَعِيل، وعلى الحدود مع آرام-دمشق، وحتى في مناطق أبعد من ذلك، يجب أن يُنظر إليه على أنه كان يُحقّق وظيفتين: ضرورات إداريّة، ودعائية ملكيّة. وصَفَ عالم الكتاب المقدس، البريطاني هاغ ويليامسون Hugh Williamson هاتين الوظيفتين كعروض بصرية لقوّة ونفوذ دولة العُمريين، يهدف إلى التأثير على، وإرعاب، وتخويف، السكان، سواء داخل الوطن، أو الذين يعيشون على الحدود.

من بين جميع مصادر القوّة التي كانت تحت تصرف العُمريين، وربما أكثرها أهميّة للزراعة والنشاطات العمرانيّة والحرب، كان امتلاكهم لسكان متنوعيّ الأعراق، وغير

مُتجانسين . وعلى الرَّغم من أنَّه من الصَّعب تقدير عدد سُكَّان مَمْلَكَة إِسْرَائِيل في القرن التَّاسع بدقَّة كبيرة ، إلاَّ أنَّ عمليَّات المسح الواسعة في المنطقة تُشير إلى أنَّ عدد السُّكَّان في مَمْلَكَة إِسْرَائِيل الشَّمَالِيَّة في القرن الثَّامن ق. م ، - أيُّ بعد قرن من عهد "العُمريِّين" - ربَّما يكون قد وَصَلَ إلى 350 ألف نسمة .

كانت إِسْرَائِيل - في ذلك الوقت ، بالتَّأكيد - أكثر الدُّول كثافة سُكَّانِيَّة في المشرق ؛ حيثُ كان لديها عددٌ أكبر بكثير من السُّكَّان ممَّا تمتلكه يهوذا ، أو مُوآب ، أو عمُّون . النَّافس المُحتمل الوحيد لها كان مَمْلَكَة آرام - دمشق في جنُوب سُوريا ، التي - كما سنراه بتفصيل أكبر في الفَصْل التَّالي - كانت تُنافس إِسْرَائِيل - بشكُل مرير - على الهيمنة الإقليمِيَّة .

حدَّثت تطوُّرات إيجابِيَّة خارج المنطقة أفادت كثيراً المَمْلَكَة "العُمريَّة" اقتصاديًّا ، فقد تزامن صُعودها مع حرَّكَه إحياء تجارة شرق البحر الأبيض المُتوسِّط ودُخُول موانئ اليونان ، وقبرص ، والسَّاحل الفينيقي بشكُل قوي ، من جديد ، في التجارة البحريَّة . إنَّ التَّأثير الفَنِّي الفينيقي على الثقافة الإِسْرَائِيلِيَّة ، والظُّهور المُفاجئ لكميَّات كبيرة من الأواني ذات النمط الفينيقي - القبرصِي - في مُدُن مَمْلَكَة إِسْرَائِيل ، وليس بنفس الوقت - شهادة الكتاب المُقدَّس العبري أنَّ "آخاب" تزوَّج من أميرة فينيقيَّة ، كُلُّ ذلك يبدو أنَّه يُوْشِّر إلى أنَّ إِسْرَائِيل كانت مُشاركاً فعَّالاً في هذا الإحياء الاقتصادي كَمُزوَّد بالمنتجات الزراعيَّة القيِّمة ، وكسَيِّد على بعض طُرُق التجارة البريَّة في المشرق .

وبناءً عليه ؛ فإنَّ فكرة "العُمريِّين" عن دولة تُغطِّي أراضٍ واسعة في المُرتفعات والسُّهول ، أعادت - بِنحو ما - إحياء الأفكار ، والممارسات ، والحضارة الماديَّة لكنَّعَان العصر البرونزي ، في القُرُون التي سبقت صُعود إِسْرَائِيل .

في الواقع ؛ من وجهة النِّظَر التَّصوُّريَّة والوظيفيَّة أشبهت العواصم "العُمريَّة" الكبيرة عواصم دُول المُدُن الكنعانيَّة الكبيرة في العصر البرونزي المُتأخِّر ، التي حكَّمت على رُبع (مُتَّوِّعة) من النَّاس والأراضي .

وهكذا ؛ فمن زاوية الشَّكُل والوظيفة ، لم يكن المُخطَّط العام لمدينة "مجددو" في القرن التَّاسع ق. م ، مُختلفاً جدًّا عن مُخطَّطها العام في العصر البرونزي المُتأخِّر . فقد خُصِّصَت

أجزاء كثيرة من التلال للابنية العامة والمناطق المفتوحة، بينما شغلت الأحياء السكنية للأهالي المحليين مناطق محدودة فقط. وكما كان الأمر في 'مجدو' الكنعانية كان السكان الحصريون يتأقنون - بشكل رئيسي - من النخبة الحاكمة، التي كانت تسيطر على المناطق الداخلية الريفية. وقد ظهرت استمرارية ثقافية مماثلة - بشكل رائع وواضح - في مدينة 'تعناخ' المجاورة؛ حيث يحمل مركز عبادة رائع ومُزِين - باقٍ من القرن التاسع ق. م، - سمات مفصلة مشتقة من التقاليد الكنعانية في العصر البرونزي المتأخر.

ومن هنا؛ نفهم لماذا كان من الصعب الإصرار - من وجهة نظر علم آثارية محض - على أن مملكة إسرائيل - ككل - كانت - في يوم ما - إسرائيلية محض، سواء من الناحية العرقية، أو الثقافية، أو الدينية، حسبما نفهمه من منظور كتاب الكتاب المقدس العبري التاليين. إن إسرائيلية المملكة الشمالية كانت - من عدة نواح - مجرد فكرة يهودوية ملكية متأخرة.

#### الأوغاد النهائيون:

كان كاتب سفري الملوك مهتماً بأن يظهر للقارئ أن 'العمرين' كانوا أشراراً، وأنهم نالوا عقابهم الإلهي على سلوكهم المتفطرس الشرير. كان عليه - بالطبع - أن يروي التفاصيل والأحداث عن 'العمرين'، التي كانت معروفة جيداً من خلال القصص الشعبية والتقاليد السابقة، ولكنه أراد - من بين كل تلك القصص - أن يُبرز الجانب المظلم لـ 'العمرين'. لهذا؛ قلل من شأن قوتهم العسكرية بروايته لقصة الحصار الآرامي لمدينة 'السامرة'، والذي أخذ من أحداث حدثت في وقت نال، وبإتهامه لـ 'أخاب' بأنه في لحظة النصر عصى أمر الله الذي كان قد أمره بإعدام وتصفية عدوه. لقد ربط كاتب الكتاب المقدس العبري عظمة قصر 'السامرة'، وعظمة المجمع الملكي في 'يزرعيل' - بنحو وثيق - بالوثنية والمظلم الاجتماعي. لقد ربط صور العظمة الرهيبة للعربات الإسرائيلية في المعركة بالنهاية المروعة للأسرة العمرية.

لقد أراد إزالة صفة المشروعية عن حكم 'العمرين'؛ ليُظهر أن كل تاريخ المملكة الشمالية برُمته كان تاريخ الخطيئة والإثم، الذي أدى إلى البؤس والدمار الحتمي. إنه يقول إنه كلَّما ازدهرت إسرائيل في الماضي ازدادت حقارة وسلبية ملوكها.

اشتملت الصفة الحقيقية لإسرائيل تحت حكم "العمرتين" على قصة استثنائية من القوة العسكرية، والإنجازات المعمارية، و(بقدر ما أمكننا أن نُحدده) التطور الإداري. لقد جلب "عمرى" وخلفاؤه على أنفسهم كراهية الكتاب المقدس العبري؛ لأنهم - بالضبط - كانوا أقوياء، ولأنهم - بالضبط - نجحوا في تحويل المملكة الشمالية إلى قوة إقليمية هامة، تغلبت على مملكة يهوذا الرقيقة الرعوية الهامشية الفقيرة تماماً في الجنوب. إن إمكانية أن يزدهر الملوك الإسرائيليون الذين تلاءموا مع الأمم، وتزوجوا من النساء الأجنبية، وبنوا المعابد والقصور ذات النمط الكنعاني، كانت (من وجهة نظر كاتب سفرى الملوك) إمكانية غير واردة بتاتا، وغير مُحتملة، بل مُستحيلة.

وعلاوة على ذلك؛ فإن الانفتاح والعالمية التي مارسها "العمريون" كانت - من وجهة نظر يهوذا الملكية المتأخرة - ذنباً وخطيئة. لقد كان التورط بطرق الشعوب المجاورة - طبقاً للعقيدة التثوية للقرن السابع - انتهاكاً مباشراً للأوامر الإلهية، لكن؛ مازال هناك درس يُمكن تعلمه من هذه التجربة.

في الوقت الذي تمت فيه كتابة وتأليف سفرى الملوك، كان حكم التاريخ قد صدر سابقاً. لقد أُطيح بحكم "العمرتين"، ولم يعد لمملكة إسرائيل وجود. ورغم ذلك، وبمساعدة الأدلة الأثرية، وشهادة المصادر الخارجية، يُمكننا - اليوم - أن نرى كيف أخفى التصوير الديني الواضح في الكتاب المقدس - الذي حكم على "عمرى"، و"آخاب"، و"إيزابيل" بأن يكونوا مادة للسخرية والاحتقار على مدى القرون - كيف أخفى - بشكل ماهر - الوصف الحقيقي للمملكة الحقيقية الأولى لإسرائيل.



## الفصل (8):

### في ظلِّ إمبراطورية (842 . 720 ق.م)

يُخيمُ إحساسٌ مُظلمٌ بِتَديِرِ شُومٍ على مَمْلَكَةِ إِسْرَائِيلَ، وهي تَقْتَرِبُ - حسب رواية الكتاب المُقدَّس - من نهايتها المأساوية. بدأ أن العُناة وقُتدان المُمتلكات والنَّفسي، أصبحت القدر المحتم لشعب المَمْلَكَةِ الانفصالية، عقاباً على أعماله الآثمة. ذلك لأنَّه، عوضاً عن الوفاء للحرم القُدسي في أُورُشليم، وعبادة يَهُوه وحده، ونَفْي كُلِّ الألهة الأخرى، قام شعب إِسْرَائِيلَ الشِّمَالِيَّة - لا سيما ملوكهُ الأثمون - بِجَلْبِ سلسلة من الكوارث، التي سَتُودِي - في النهاية - إلى دمارهم. لقد كانت غزوات الجيوش الأجنبيَّة وتدمير مَمْلَكَةِ إِسْرَائِيلَ جزءاً أساسياً من الخِطَّة الإلهيَّة.

إنَّ تفسير الكتاب المُقدَّس العبري لمصير المَمْلَكَةِ الشِّمَالِيَّة تفسير لاهوتيٍّ محض. وعلى العكس من ذلك؛ يُقدِّم علم الآثار منظوراً مُختلفاً لأحداث القرن الذي تلا سُقوط "العُمريِّين".

بينما استمرَّت يَهُودا في فقرها وعزلتها، أُغْرَى غَسَى مَمْلَكَةِ إِسْرَائِيلَ الطَّبِيعي، والعدد الكبير لسُكَّانها، ممالك الجوار، جاعلاً منها هدفاً للسياسات الإقليمية المُقدَّمة للفترة الأشورية. لقد أثار ازدهار وقُوَّة "العُمريِّين" غَيْرَةَ جيرانهم، ومُنَافستهم العسكريَّة، كما أثار الأطماع الطمُوحة للإمبراطورية الأشورية العظيمة. كما أحدثت ثروة مَمْلَكَةِ إِسْرَائِيلَ توتُّرات اجتماعيَّة مُتنامية وإدانات نبويَّة من الدَّاخل.

نستطيع - الآن - أن نرى أن سوء حظِّ إِسْرَائِيلَ الأعظم - وسبب دمارها، ونَفْسِي عدد كبير من أبناء شعبها - كان يعود لأنَّها كانت مَمْلَكَةَ تعيش في ظلِّ إمبراطورية عظيمة، وبمِجِحت بالازدهار بِتَحوُّ جيدٍ أكثر من اللازم.

الكُفْران، والرَّحمة الإلهيَّة، وسُقُوط إسرائيل النهائي:

يبيِّن سفر الملوِّك كيف أنَّ جميع نبوءات "إيليا" المُخيفة بشأن هلاك آل "عُمري" تحقَّقت حَرْفيًا. إلاَّ أنَّ رواية الكتاب المُقدَّس العِبْرِيّ تتواصل لثري أنَّ استتصال الأسرة الملكِيَّة القديمة لم يَنتهِ مُتابعة إسرائيل لأعمالها الوثنيَّة والشركِيَّة.

بعد سُقوط "العُمريِّين"، سار الملك الممسوح حديثًا، "ياهو" بن "نمشي"، (الذي حَكَمَ من 842 إلى 814 ق.م.)، على حُطَي "يربعام"، و"عُمري"، و"آخاب" في قَلَّة اهتمامهم بأورشليم (المُقدَّس). ذلك أنَّه على الرَّغم من قيامه بلذبح كُلِّ أنبياء وكهنة وعباد الإله "بعل" في السَّامرة، وتحويله معبد "بعل" نفسه إلى مرحاضٍ عامٍّ (سفر الملوِّك الثاني 10 / 18 - 28)، يُخبرنا الكتاب المُقدَّس أنَّ ياهو "لم يَحْذَ عَنْ حَطَايَا يربعام التي استغفَى بها الإسرَائيليِّين، وجَعَلَهُمْ يُحْطِئُونَ؛ إذ أَبْقَى عَلَى عُجُول الذَّهَبِ التي في بَيْتِ إيلَ وفي دَانَ." (سفر الملوِّك الثاني: 29 / 10). بكلمة أُخرى؛ على الرَّغم من أنَّ ياهو "أزال عبادة بعل"، إلاَّ أنَّه أخفق في إلغاء وإبطال مراكز العبادة الشماليَّة المُنافسة التي كانت تتحدَّى السيادة الدِّيْنِيَّة لأورشليم. كما لم يُبْطَلْ أيُّ أحدٍ من ملوِّك إسرائيل الذين تولوه مراكز العبادة تلك.

كان العقاب سريعاً، كما حَكَمَ بذلك النَّبِي "إيليا". هذه المرَّة كانت وسيلة الله وعامله في دمار إسرائيل: "حزائيل"، ملك آرام دمشق، الذي هَزَمَ إسرائيل في عبر الأردن، وفي حَمَلَة اللدِّمار أسفل السَّهْلِ السَّاحلي للبحر الأبيض المُتوسِّط (سفر الملوِّك الثاني 10 / 32 - 33؛ 12 / 17 - 18؛ 13 / 3 و 7 و 22). لقد كانت تلك الفترة، فترة انحطاط وتدهور للمملكة الشماليَّة؛ لأنَّه في طوال أيَّام ياهو وابنه يُوحاز، كانت إسرائيل تحت الضَّغط المُباشر لدولة آرام دمشق. لقد هَزَمَ جيش إسرائيل، وتقلَّصت أرضها، إلاَّ أنَّ زمن تآديب عامَّة شعب مملكة إسرائيل لم يحنْ بَعْدُ؛ لأنَّه: [فَحَنَ الرَّبُّ عَلَيْهِمْ، وَرَحِمَهُمْ، وَالتَّقَّتْ إِلَيْهِمْ لِأَجْلِ عَهْدِهِ مَعَ إِبْرَاهِيمَ وَاسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، وَكَمْ يَشَأَنَّ أَنْ يَسْتَأْصِلَهُمْ، وَكَمْ يَطْرَحُهُمْ عَنْ وَجْهِهِ حَتَّى الْآنَ.] (سفر الملوِّك الثاني 13 / 23).

وهكذا بارك الله الملك الإسرائيلي التالي 'يُوأش' (Joash<sup>(1)</sup>) . على الأقل بشكل مؤقت .  
وأعاد إلى إسرائيل المذُن التي كانت قد احتلتها آرام (سفر الملوك الثاني 13 / 25) .

وَبَدَتْ ثروات إسرائيل قد أخذت بتغيير مُفاجئ نحو الأحسن - حتى بعد الغزو التآديبي الذي قام به 'يُوأش' ضدَّ يهوذا . عندما اعتلى ابنه عرش إسرائيل . هذه - أيضاً - كانت مسألة رحمة إلهية لابن 'يُوأش' المسمى 'يربعام الثاني' ، الذي ولى الحُكم سلمياً لمدَّة 41 سنة تالية (788 - 747 ق . م) ، - بعد أكثر الملوك الشماليين إنمأً وعصياناً لله .. وعلى الرُغم من أن هذا الملك لم يتعد عن أيِّ من ذُئوب 'يربعام' الأصليَّة ، خاصَّة ؛ المحافظة على مراكز العبادة الشماليَّة الوثنيَّة ، وعلى الرُغم من تردُّ أصداء الاحتجاجات التَّويبة لـ 'عاموس' و'هُوشع' في كافَّة أنحاء البلاد ، إلاَّ أنَّ 'يربعام الثاني' : [ استرجعَ لإسرائيل أراضيتها الممتدَّة من حِماة إلى البحر الميت ، تحقيماً لكلام الرُّب ، الذي نطقَ به على لسان عبده يُونانَ بن أمثاي النبي من أهل جت حافر ، 26 لأنَّ الرُّب رأى ما يعانیه الإسرائيليون من عبيد وأحرارٍ من ضيق اليم مريز . ولم يكن لهم من معين . 27 وأذ لم يكن الرُّب قد قضى بمحو اسم إسرائيل من تحت السماء ، ألقدهم على يد 'يربعام بن يُوأش' . ] (سفر الملوك الثاني 14 / 25 - 27) .

إلاَّ أنَّ فترة البركة الإلهية هذه لم تدم طويلاً ؛ لأنَّ الله - كما يبيِّن سفر الملوك الثاني 10 / 30 - وعد 'ياهو' بأنَّ أربعة أجيال - فقط - من ذُرِّيته سيحكمون<sup>(2)</sup> .

وهكذا اغتيل 'زكريا' بن 'يربعام الثاني' بعد ستة شهور - فقط - من توليه الحُكم ، ودخلت إسرائيل في حرب أهلية ، وضُغوط خارجية أخرى ، وسرعان ما قُتل القاتل 'شلوم' ، من قبل مدعٍ للملك أكثر وحشيةً منه اسمه متحيم بن جدادي ، الذي حكَم السامرة لعشر سنوات (747 - 737 ق . م) . عندئذٍ ؛ أعد الله عاملاً جديداً لتأديب المملكة الشماليَّة ، وقدَّر

(1) يذكر الكتاب المقدس ملكين من عصر واحد تقريباً - أحدهما لإسرائيل والآخر ليهوذا . كلاهما يُحال إليه بالأسماء العبرية البديلة يهوآش ويوآش . ولأجل التوضيح ، سنشير إلى الملك الشمالي (الذي حكَم 800 - 784 ق . م) باسم 'يُوأش' وإلى الملك الجنوبي (الذي حكَم 836 - 798 ق . م) كـ 'يهوآش' . (المؤلف) .

(2) نص الآية المشار إليها هو : [ 30 وقال الربُّ لياهو : من حيث أنك قد أحسنت بتنفيذ ما هو صالح في عيني ، وأجرت على بيت آخاب ما أمرتني في قلبي ، فإنَّ أبنائك يترعون على عرش إسرائيل إلى الجيل الرابع ] . (المترجم) .

سلسلة من الأحداث أدت إلى دمارها النهائي. كان ذلك العامل هو الإمبراطورية الآشورية العظيمة، التي جاءت جيوشها، وطالبت بضرائب باهظة: [فَجَاءَ قَوْلُ مَلِكِ أَشُورَ عَلَى الْأَرْضِ، فَأَعْطَى مَنَحِيمُ لِقَوْلِ أَلْفِ وَزَنْتِهِ مِنَ الْفِضَّةِ؛ لَتَكُونَ يَدَايُ مَعَهُ؛ لِيُثَبِّتَ الْمَمْلَكَةَ فِي يَدِهِ. 20 وَوَضَعَ مَنَحِيمُ الْفِضَّةَ عَلَى إِسْرَائِيلَ عَلَى جَمِيعِ جِبَابَةِ الْبَّاسِ؛ لِيَدْفَعَ لِمَلِكِ أَشُورَ خَمْسِينَ شَاقِلَ فِضَّةٍ عَلَى كُلِّ رَجُلٍ. فَرَجَعَ مَلِكُ أَشُورَ وَكَمْ يَقْمُ هُنَاكَ فِي الْأَرْضِ.] (سفر الملوك الثاني: 15 / 19-20).

كانت الضغوط الخارجية والداخلية تتراكم. وقتل ابن منحيم وخليفته قفحيا من قبل ضابط عسكري اسمه: قفح بن رمليا، ولكن؛ في تلك الأثناء، لم يعد الآشوريون مقتنعين بالجزية، وبدؤوا يُعكِّرون بالاستيلاء الكامل على أرض إسرائيل الغنية وامتلاكها لأنفسهم: [في أيام قفح ملك إسرائيل، جاء تغلك فلاسر ملك آشور، وأخذ عيون وآبل بيت معكة ويانوح وقادش وحاصور وجلعاد والجليل وكل أرض نفتالي، وسبأهم إلى آشور.] (سفر الملوك الثاني 15 / 29). وهكذا؛ تم فتح الوديان الشمالية والجليل عام (732 ق. م)، وأبعد سكانها، على عكس الوعود الإلهية التي أعطاهها الله للإسرائيليين عند غزوهم الأولي لكنعان بورائتهم لأرضها، وعيشهم الآمن فيها. فقدت مملكة إسرائيل بعض أغنى أراضيها، وتقلصت إلى مجرد مرتفعات حول العاصمة السامرة. ومع هذا التحول الكارثي للأحداث، تم اغتيال قفح المنتصب للسلطة. وكان قفح هذا رابع ملك إسرائيلي يتم اغتياله خلال خمسة عشر سنة فقط.. وأصبح هوشع، قاتل قفح وخليفته في الحكم، آخر ملوك مملكة إسرائيل.

ومع وصول شلمانصر الخامس، الملك الآشوري العدواني الجديد، بدأت الكماشة الآشورية تضيق الخناق على ما تبقى من مملكة إسرائيل. في هذه الأثناء؛ أعلن هوشع عن نفسه أنه تابع موالٍ للآشوريين، وعرض على شلمانصر دفع الجزية له، ولكنه حاول سراً. أن يتحالف مع ملك مصر للقيام بشورة مفتوحة. وعندما علم شلمانصر بالوامة، أخذ هوشع أسيراً، وغزا ما بقي من مملكة إسرائيل. حاصر الملك الآشوري العاصمة الإسرائيلية السامرة لمدة ثلاث سنوات، وتمكن في النهاية من فتحها، سنة 720 ق. م، و: [أخذ ملك

أشور السامرة، وسبى إسرائيل إلى آشور، وأسكنهم في حلح وخابور نهر جوزان، وفي مدن مادي. [سفر الملوك الثاني 17 / 6].

ولم تنته القصة بالفتح والإبعاد، بل بعد نفي الإسرائيليين من أرضهم إلى بلاد ما بين النهرين، جلبَ الآشوريون مستوطنين جُددًا إلى إسرائيل: [وَأَسَى مَلِكُ أَشُورَ بِقَوْمٍ مِنْ بَابِلَ وَكُوثَ وَعَوًا وَحَمَاةَ وَسَفْرَوَايِمَ، وَأَسَكَّنَهُمْ فِي مَدْنِ السَّامِرَةِ، عَوَضًا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَمْتَلَكُوا السَّامِرَةَ، وَسَكَنُوا فِي مَدْنِهَا. [سفر الملوك الثاني 17 / 24]. وهكذا ضاعت قبائل إسرائيل الشماليَّة العشرة بين الأمم البعيدة. ولم تبقَ الآن - إلا مملكة يهوذا، بمعبدها وملوكها الداوديين، لتواصل تنفيذ وصايا الله، ولتعيد أرض إسرائيل.

نظرة أقرب إلى تاريخ إسرائيل المتأخر:

كثيراً ما يتحدث علماء الآثار عن فترات طويلة من الزمن لا يحدث فيها أيُّ تغيير، ولكن حقيقة الأمر هي أن سبب ذلك هو أن طبيعة اكتشافاتهم تجعل من الصعب التعرف على تقسيمات تسلسل الأحداث الزمنيَّة. وفي النهاية؛ لا يوجد مجتمع بشري يمكنه أن يبقى ثابتاً بدون أيِّ تغيير جوهري لمدة تصل إلى مئتي عام. ومع ذلك؛ كان هذا هو الفهم التقليدي لعلماء الآثار للمملكة الشماليَّة، وذلك لأنه منذ عشرينات (القرن الماضي) نَقَّبَ علماء الآثار بعض أهمِّ مواقع مملكة إسرائيل، ولاحظوا أنه لا يوجد أيُّ تغيير هامٍّ سوى دمارها النهائي. وكما كانت الحالة في الدراسة الأثرية لـ "العمرين"، لم يعد التاريخ المستقل لإسرائيل في الفترة بعد العُمريَّة تاريخاً مشكلاً أو مهمماً بنحو خاصٍّ من وجهة نظر علم الآثار. لقد وصَفَ علماء الآثار - في ترديد غير واعي للتفسيرات اللاهوتيَّة للكتاب المقدس - استمرارية تربية تلاميها دمار حتمي. ثمَّ إيلاء أهمية قليلة جداً للديناميكيات الداخليَّة للمملكة وتاريخها الاقتصادي (باستثناء بعض التأمُّلات لمجموعة فرديَّة من إيصالات المحاصيل من السامرة). وكما سنرى، تُعدُّ هذه الأمور مناطق حاسمة في البحث، إذا أردنا أن نتحرَّك خارج تفسيرات الكتاب المقدس العبري اللاهوتيَّة المحضة لتاريخ إسرائيل؛ أي أن انبهارها وانتهائها كان عقاباً مباشراً وحتمياً على معاصيها. لقد كانت الـ 120 سنة من التاريخ الإسرائيلي الذي تلا سقوط

«العُمُرَيْن» . في الواقع - فترة تغير اجتماعي قوي في المملكة ، وفي التقلبات الاقتصادية ، وفي الاستراتيجيات الدائمة التحول للنجاة من تهديد الإمبراطورية .

كان أحد الأسباب الرئيسية لسوء الفهم هذا ، نظام التاريخ التقليدي ، والذي يميل إلى تجميع كل تاريخ المملكة الشمالية - من صعودها إلى سقوطها - في كتلة زمنية تاريخية واحدة . لقد اعتقد أن كثيراً من المراكز المهمة في وادي يزرعيل وفي ساحل البحر الأبيض المتوسط القريب ، مثل مجدو<sup>1</sup> و يفتيام<sup>2</sup> و دوز<sup>3</sup> إنما تحتوي على طبقة واحدة ، تُغطي كامل تاريخ مملكة إسرائيل من يربعام الأول (في الواقع ؛ منذ حملة شيشانق<sup>4</sup> عام 626 ق.م) إلى سقوط السامرة سنة 722 ق.م ، هذا ؛ على الرغم من وجود شواهد على التغيرات الرئيسية والهزائم العسكرية التي حدثت أثناء هذه الفترة الطويلة ، والتي كان أهمها غزو حزائيل<sup>5</sup> عاهل دمشق لإسرائيل ، كما هو مسجل في الكتاب المقدس ، وفي مسألة دان<sup>6</sup> التي دونها كتاب حزائيل<sup>7</sup> نفسه .

الجدول 4 الملوك الآشوريون الذين لهم تدخل في تاريخ إسرائيل ويهوذا<sup>(\*)</sup>

شلمانصر الثالث	824 - 859 ق.م .
أدد نيراري الثالث	811 - 783 ق.م .
تغلات ييلاصر الثالث	745 - 727 ق.م .
شلمانصر الخامس	727 - 722 ق.م .
سرجون الثاني	722 - 705 ق.م .
سنحريب	722 - 705 ق.م .
أسرحدون	681 - 669 ق.م .
آشور بانيبال	669 - 627 ق.م .

كان هناك شيء خطأ في الفهم الآثاري التقليدي : كيف أمكن لـ «حزائيل» أن يستولي على «دان» ، وأن ينشر الدمار في أراضي المملكة الشمالية دون أن يترك أي أثر آثاري محسوس لهذا الدمار ؟

(\*) طبقاً لـ «كوجان وتدمر» ، الملوك 2.

آرام في إسرائيل؛

كان توغّل "حزائيل" في الأراضي التي كانت سابقاً تحت سيطرة إسرائيل، مُدعِراً بشكّل واضح، وأثر كثيراً في إضعاف قُوّة المملَكَة الشماليّة. في المسلّة المشهورة في مُوآب، يفتخر الملك "ميشا" بأنّه نجح في الاستيلاء على الأراضي المُوآبيّة من إسرائيل، واستطاع التوسّع -بنحو إضافي- حتّى أراضي إسرائيليّة أكثر إلى الشمال. يذكر الكتاب المُقدّس أنّ "حزائيل" انتزع من إسرائيل جميع المناطق التي كانت تُسيطر عليها سابقاً في عبر الأردنّ شمال مُوآب (سفر الملوك الثاني 10 / 32-33<sup>(1)</sup>). إلّا أنّ الدليل الأكثر أهميّة على هُجُوم "حزائيل" يُوجد في نقش تلّ دان. بينما تربط رواية الكتاب المُقدّس سُقوط "العمرّيين" ومذبحة العائلة المالكة في قَصْرهم في يَزْرَعِيل بثورة "ياهو". حيث قُتل الملك الحاكم لإسرائيل، "يهورام"، بسهم رماه به "ياهو". يربط نصُّ نقش "دان". الذي أعيد بناؤه وترميمه. موت "يهورام" بانتصار الآراميين. يفتخر "حزائيل" قائلاً: [قتلتُ ياهو] رام بن [أخّاب] ملك إسرائيل، و[أنا] قتلْتُ [يوآحاز] بن [يهورام] الملك [من بيت داود. وأنا صيرتُ] بلدانهم إلى الخراب، وحوَلْتُ [أرضهم] إلى [دمار].

إذن؛ هل كان "حزائيل" أم "ياهو"؟ من الصّعب معرفة ذلك بنحو مُؤكّد. يربط نصُّ الكتاب المُقدّس بين ضغط "حزائيل" وانقلاب "ياهو". ربّما يكون "حزائيل" قد رأى في "ياهو" أداته، أو ربّما تشوّشتُ ذكريات الحدّثين مع بعضهما أثناء المتّي سنة التي مَضَتْ، حتّى زمن التّأليف الأوّل للتّاريخ الشّنوي.

لا شكّ أنّ الهُجُوم الشّامل الذي قام به الزّعيم السُّوري لعب دوراً رئيسياً في الانهيار الخطير لإسرائيل. كان هدف "حزائيل" الأساسي السّيّطرة على المنطقة الحدّوديّة الخصبة الاستراتيجيّة بين المملكتين، ويبدو أنّه لم يفتح الأراضي الآراميّة التي كان قد استولى عليها "العمرّيين" فحسب، بل قام -أيضاً- بتدمير أكثر مناطق إسرائيل الزراعيّة حُصُويّة، وعزّقل طُرُق التجارة فيها.

(1) ونصُّ الآيات هو التالي: [ 32 وفي تلك الأيام بدأ الربُّ يخفضُ من مساحة أرض إسرائيل، فاستولى حزائيل على أجزاء كثيرة من مَنَاطِقهم. 33 ابتداءً من شرقيّ نهر الأردنّ، بما في ذلك أرض جلعاد، أرض الجاديّين والرّأويّين، والسّنين، من عروعر القائيّة على واديّ آرثون وجلعاد وبأشآن. ] (الترجم).

لا يذكر الكتاب المقدس أي فتوحات إقليمية هامة طويلة المدى، قامت بها قوى أجنبية في الأراضي الواقعة غرب الأردن، في الفترة بين زمن فتح يشوع لكنعان والفتح الآشوري. يبدو أن الحُدود التي عيّنها الكتاب المقدس لأرض إسرائيل، كما بيّنها سفر يشوع، أخذت قداسة لا يمكن انتهاكها. باستثناء المنطقة التي رُوي أنّ سليمان منحهها للملك حيرام، ملك صور، مقابل مساعدته في بناء المعبد (الهيكل)، يُصور الكتاب المقدس احتلالاً إسرائيلياً عاصفاً، ولكنه مُستمر لأرض إسرائيل في كل الفترة التي سبقت الفتح الآشوري، ولكن إعادة فحص الدليل الآثاري، المدعومة بتقنيات تأريخ جديدة أكثر دقة، تُشير إلى فترة بضعة عقود بين حوالي 835-855 ق. م، كانت تُسيطر فيها مملكة آرام-دمشق على وادي الأردن الأعلى، وعلى مناطق هامة في شمال شرق إسرائيل، وقامت خلالها - أيضاً - بتخريب المراكز الإدارية الإسرائيلية الرئيسية في وادي يزرعيل الخصب.

برز دليلٌ جديدٌ مهمٌ حول هذا الموضوع من تنقيب مجمع قصر العُمريين في يزرعيل، الذي سكن لفترة قصيرة - نسبياً - في القرن التاسع ق. م؛ حيث تمّ تدميره بعد فترة قصيرة - نسبياً - من بناؤه. كانت هناك مستوطنة صغيرة في يزرعيل في الأيام التالية من العصر الحديدي، لكن الموقع لم يستعد أهميته السابقة. ولهذا؛ فإنّ هناك سبباً جيداً لربط دمار يزرعيل بثورة ياهو، أو باحتلال حزائيل، وكلاهما حدث بعد بضعة سنوات من منتصف القرن التاسع.

بما أنّ يزرعيل سكنت لهذه الفترة القصيرة نسبياً، فإنّ الأشكال الفخارية، التي وُجدت في طبقة دمارها، تقدّم عينة قيّمة للأمناء المعاصرة في منتصف القرن التاسع ق. م، وفي الحقيقة؛ تُوجد هذه الأمانات نفسها في مستويات القصور السلّمانيّة في مجدو، وفي الطبقات المماثلة في مواقع أخرى في كافة أنحاء الشمال. على القرّاء الذين لم يقتنعوا - سابقاً - بأنّ العُمريين هم الذين بنوا تلك المدن المنسوبة لسليمان أن يأخذوا بعين الاعتبار (بالإضافة إلى الأدلة الخزفية والتشابهات المعماريّة، وتواريخ الكاريون 14) الاحتمال الشديدي أنّ يكون الدمار العنيف لتلك المواقع - الذي طالما نُسب إلى الهُجوم المصري الذي قاده الفرعون شيشانق في أواخر القرن العاشر ق. م - إنّما وقع في عهد حزائيل حوالي 835 ق. م.



هكذا احترقت المُدن الموجودة في كافّة أنحاء المنطقة الحصبة للوُدَيان الشّماليّة الغنيّة، وصارت طُعمة للنيران، من تلّ ربحوف، إلى بيت شام، إلى تماخ، إلى مجدو. وعلى أساس هذا الدليل الجديد؛ استنتج المؤرّخ التوراتي الإسرائيلي ناداف عُمان بأنّ طبقات الدمار هذه تُمثّل دماراً وخراباً للمملكة الشماليّة قام به "حزائيل"، وأنّه كان دماراً شديداً، لدرجة أنّ بعض المواقع لم تستطع أن تتعافى وتعود إلى حالتها إلى يومنا هذا. وربما تُنوّج ضغط دمشق العسكري على إسرائيل بحصار عاصمتها "السامرة" من قَبَل "برهَدَدُ الثالث بن حزائيل" (المعروف في الكتاب المقدّس باسم بنهَدَد). ومن المُحتمل جدّاً أن يُشير حصارا السامرة الموصوفان في الكتاب المقدّس العبري في عهدَي "أخاب" و"يهورام" إلى هذه الفترة.

وهكذا اكتشف علم الآثار شيئاً أهمّلاً ذكره الكتاب المقدّس: كان قلب إسرائيل قد احتلّ لُدّة زمنيّة طويلة. ويبدو أنّه لا أحد من علماء الآثار السّابقين وجدَ دليلاً على هذا الأمر. قسّم "ييفائل يادين" الفترة الواقعة بين عهد "العُمريّين" ودمار إسرائيل، في "حاصور"، إلى أربع طبقات، ولم يُربط أيّ منها - بشكل مُحدّد - باحتلال "حزائيل"، ولكن؛ عندما نربط المدينة ذات البوّابة ذات الغُرف الستّة، والسُور المولّف من غُرف دفاع حائطيّة - والتي اعتُمد لُدّة طويلة أنّها مدينة سلّيميانيّة - بعهد "العُمريّين"، فإنّ دمارها يُمكن - عندئذ - ربطه بحمّلة "حزائيل". وفي مدينة دان، التي احتلّها "حزائيل" - والتي نصّب فيها مسلّة نصر، مُعلناً فيها عن استرداده لهذه الأراضي إلى مملكته - أخفقت طُرُق التاريخ التقليديّة في التعرّف على دمار وقّع في مُنتصف القرن التاسع، فضلاً عن التعرّف على فترة احتلال آرامي، ولكن؛ في دان - أيضاً - يسمَح التاريخ البديل بالتعرّف على طبقة دمار تتعلّق بغزو "حزائيل" الذي خلّد ذكره في ميله دان.

ولكنّ "حزائيل" لم يكن قوياً بما فيه الكفاية ليتِمكّن من ضمّ المراكز الإسرائيليّة المُدَمَّرة بعيداً في الجنوب في وادي "يزرعيل" و"وادي بيت شان" واللّدان كانا بعيديّين عن المنطقة المركزيّة التي تقع تحت إدارته، ويبدو أنّ تركها خربة، مُسيباً هجرة مواقع كثيرة فيها، وانحطاط كُُلّ المنطقة لعدّة عَقُود. بعض المراكز في هذه المنطقة لم يتعافَ بعد ذلك أبداً؛ مثل "يزرعيل" و"تغناخ"، التي لم تستعد أهميّتها السّابقة إلى الأبد. يُشير تحليل الفخاريّات في مجدو - على ما يبدو - إلى أنّ هذه المدينة المحوريّة للإدارة الإسرائيليّة في الشّمال هُجرت لُدّة نصف قرن كامل تقريباً.

وهكذا؛ فَقَدَّتْ الْمَمْلَكَةُ الْإِسْرَائِيلِيَّةَ السَّيْطَرَةَ الْفَعَّالَةَ عَلَى الْمَنَاطِقِ الزَّرَاعِيَّةِ الْاَكْثَرِ خُصُوصِيَّةً، وَالْاَهَمُّ مِنْ ذَلِكَ؛ أَنْ مُنَافَسَهَا كَسَبَ مَوْطِنِي قَدَمٍ اَكْثَرَ دَوَامًا فِي مَوْقِعِي "حَاصُور" وَ"دَانَ" الْاِسْتِرَاتِيجِيَّيْنِ فِي الشَّمَالِ الشَّرْقِيِّ. كَانَتْ تِلْكَ الْمَوَاقِعُ تَقَعُ اَقْرَبَ إِلَى دِمَشْقَ مِنْهَا إِلَى السَّامِرَةِ، وَكَانَتْ تَقَعُ فِي الْاَرَاضِي الَّتِي كَانَ "حَزَائِيلُ" يَدْعِي اَنْهَا اَرَاضِي اَرَامِيَّةً اَصْلًا. وَتَقْتَسِمُ هُنَا، مَرَّةً ثَانِيَةً مِنْ نَفْسِ "حَزَائِيلُ" نَفْسِهِ، وَيَصِفُ الْوَضْعَ الَّذِي اَعْقَبَ مَوْتَ سَلْفِهِ: (وَاضْطَجَعَ اَبِي، وَذَهَبَ إِلَى [ اَسْلَافِهِ ]. وَدَخَلَ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ سَابِقًا فِي اَرْضِ اَبِي). لَا يُعْقَلُ أَنْ يَفْتَحَ "حَزَائِيلُ" وادي الْأُرْدُنَّ الْأَعْلَى، وَيُنْصَبَ مَسَلَّةً نَصْرَ فِي دَانَ، ثُمَّ يَنْسَحِبَ بَعْدَ ذَلِكَ. هُنَا؛ تُرْجِمَتْ الْاِنتِصَارَاتُ فِي سَاحَةِ الْمَعْرَكَةِ إِلَى هَيْمَنَةِ اِقْلِيمِيَّةٍ طَوِيلَةِ الْمَدَى.

وَبِنَاءٍ عَلَى مَا سَبَقَ؛ فَإِنَّهُ مِنَ الْمَحْتَمَلِ أَنْ تَكُونَ الْمَدِينَةُ الْجَمِيلَةُ الَّتِي بُنِيَتْ فِي "حَاصُور" بَعْدَ فَتْحِ "حَزَائِيلُ" مُبَاشَرَةً. فِي الْوَاقِعِ - اَدَاةَ رِبْطٍ مُهِمَّةٍ ضَمِنَ سِلْسِلَةَ مِنَ الْمُدُنِ وَالْقَلَاعِ الْاَرَامِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَحْرُسُ حُدُودَ اَرَامَ - دِمَشْقُ الْجَنُوبِيَّةُ الشَّرْقِيَّةُ مَعَ إِسْرَائِيلَ. وَقَدْ تَوَسَّعَتْ الْمَدِينَةُ - الَّتِي بُنِيَتْ فَوْقَ طَبَقَةِ الدَّمَارِ - لِتَشْمَلَ كُلَّ الْمُرْتَفَعِ (الْاَكْرُوبُوليسِ) الْأَعْلَى لِلْعَصْرِ الْبَرْوُنْزِيِّ، وَكَانَتْ مُحَاطَةً بِجِدَارٍ كَثِيفٍ جَدِيدٍ. وَقَدْ بُنِيَتْ قَلْعَةٌ أَوْ قَصْرٌ فِي نَهَائِهَا الْغَرْبِيَّةِ - ظَاهِرًا - عَلَى قِمَّةِ الْعَاصِمَةِ الْعَمْرِيَّةِ الْمُدْمَرَةِ حَالِيًا. وَحَتَّى نِظَامُ الرِّيِّ الْمَائِيِّ الْمَشْقُوقِ ضَمِنَ الصَّخْرَ رُبَّمَا يَكُونُ قَدْ بُنِيَ فِي هَذِهِ الْمَرِحَلَةِ مِنْ تَارِيخِ الْمَدِينَةِ.

فِي "دَانَ"، لَيْسَ هُنَاكَ شَكٌّ فِي أَنَّ الْمَسَلَّةَ الشَّهِيرَةَ إِنَّمَا نُصِبَتْ فِي الْمَدِينَةِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي اَعَادَ "حَزَائِيلُ" بِنَاءَهَا. تَتَمَيَّزُ مَدِينَةُ اَوَاخِرِ الْقَرْنِ التَّاسِعِ - هُنَاكَ - بِبِنَاءِ سُورٍ حَجْرِي رَاضِعٍ لِلْمَدِينَةِ، مُشَابِهٍ لِذَلِكَ الَّذِي تَمَّ اِكْتِشَافُهُ فِي "حَاصُور"، وَبُؤَابَةِ الْمَدِينَةِ الْمُتَطَوَّرَةِ الرَّائِعَةِ. لَقَدْ اِكْتَشَفَتْ - خَارِجَ الْبُرْجِ الْاَيْمَنِ مِنْ جِهَةِ الدُّخُولِ إِلَى الْمَدِينَةِ - مَوَاصِفَاتٌ لِتِلْكَ الْبُؤَابَةِ ذَاتِ عُنَاصِرٍ خَاصَّةٍ، لَمْ تَكُنْ مَعْرُوفَةً فِي الْاَرَاضِي الْإِسْرَائِيلِيَّةِ أَوْ الْيَهُودِيَّةِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ: بِقَايَا سِتَارَةٍ وَرَصِيفٍ مُرْتَفِعٍ. وَقَدْ اشْتَمَلَتْ عَلَى قَاعِدَتَيْنِ مِنْ صَخْرَةٍ دَائِرَةٍ مَقْطُوعَةٍ، ذَاتِ مَوَاصِفَاتٍ نَمَطِيَّةٍ شِمَالِيَّةٍ؛ أَيُّ سُورِيَا. يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ الْمَسَلَّةُ التَّذْكَارِيَّةُ نَفْسَهَا، الَّتِي افْتَرَضَ اَنْهَا ذَكَرَتْ - اَيْضًا - النِّشَاطَاتِ الْعَمْرَانِيَّةَ لـ "حَزَائِيلُ"، قَدْ وُضِعَتْ اِمَّا عِنْدَ بُؤَابَةِ الْمَدِينَةِ، أَوْ فِي مَكَانِ الْمَعْبَدِ الْحَجْرِيِّ، الَّذِي اُعِيدَ بِنَاؤُهُ بِشَكْلِ نَحْوِ مُتَقَنَّ، وَالَّذِي خُصِّصَ - اِحْتِمَالًا - لِإِلَهِ اَرَامَ "هَدَد".

أما المعقل الرائع الآخر - الذي بُني في الوقت نفسه، والذي يُحتمل أنه يرتبط باحتلال "حزائيل" لإسرائيل الشماليّة - فإنه موقع يُعرف باسم "التل" ويقع على الشاطئ الشمالي لبحر الجليل. وقد عرفَ المُثبِّون هويته - بنحو مُحتمل - بأنه موقع استيطاني متأخر هو بيت صيدا، الذي بُني في الأزمنة الرومانيّة. كان هناك في القرن التاسع سورٌ حجري قوي يُحيط بالموقع، ويُشابه السور الذي بُني في "حاصور" و"دان"، وهناك بوابة ضخمة للمدينة، مُشابهة في شكلها وحجمها لتلك التي اكتُشفت في دان. اكتشف المُثبِّون في الجزء الأمامي من بوابة المدينة اكتشافاً استثنائياً رائعاً، بدا أنه سيكشف الستار عن الهوية العرقيّة، وربما - بنحو أدقّ - الهوية السياسيّة والثقافيّة للسكّان، وقد وُجدت قُرب البرج الأيمن من جهة الدُخُول من البوابة إلى المدينة مسألةٌ بازلتيّة، وصَفُها لإله مُجَلُّ هو وصَفُ آرامي تماماً، كما أن موقعها أمام البوابة يُقدِّم إمكانيّة أن يكون هناك مسألةٌ مُشابهة تمّ نصبها قُرب بوابة دان، تحت الستارة المُتقنة الصّنع.

وهكذا أصبح عندنا تلميحات على أن غزو "حزائيل" لإسرائيل في مُنتصف القرن التاسع ق. م، أعقبه احتلالٌ مُتطاوّل وتأسيس ثلاث قلاع على الأقلّ - في كُلِّ من "دان" و"حاصور" و"بيت صيدا" - تميّزت بمواصفات مُشتركة بعضها آرامي بشكلٍ واضح، وهناك سبب آخر يدعو للاعتقاد بأنّ سكّان هذا القسم من المملكة الإسرائيليّة كانوا - على الأقلّ جزئياً، إن لم يكن أغلبه - آراميين، يُشير إلى ذلك - حقيقةً - أنه في كُلِّ موقع هامٍّ في المنطقة يعود للعصر الحديدي الثاني، أدتّ التّقيّبات إلى اكتشاف بقايا كُتبت باللُغة الآراميّة.

### عودة الإمبراطوريّة الآشوريّة:

لم يَدُم الاحتلال السُوري لإسرائيل طويلاً. نعلم من المصادر الآشوريّة أنّ "حزائيل" تمكّن من التوسّع نحو الغرب والجنوب داخل إسرائيل، مُستفيداً من انشغال الملوك الآشوريّين بمعالجة اضطرابات في أجزاء أخرى من إمبراطوريتهم خلال عدّة عُقُود في النصف الثاني من القرن التاسع، ولكن؛ مع وُصول ملك آشوريٍّ جديد قويّ: "أدّد نيراري الثالث"، سنة 811 ق. م، تغيّر ميزان القوى - بنحو قويّ - بين آرام وإسرائيل. فقد قام "أدّد نيراري" - فوراً - بإعادة الضّغط العسكريّ باتجاه الغرب، وحاصر دمشق، التي كانت في حينها أقوى قُوّة إقليميّة في المنطقة. ربّما كانت دمشق قادرة على التّغلّب على إسرائيل، ولكن؛ لم يكن لها الفُدرّة على مُواجهة

جيوش القوة العظمى في بلاد ما بين النهرين في ذلك الوقت. استسلم برهذ الثالث بن حزائيل، ودفع جزية باهظة للإمبراطورية الآشورية. وأنهت هذه الأحداث هيمنة آرام دمشق، وأنهت - بالتالي - الضغط العسكري على إسرائيل.

على ضوء هذا؛ يمكننا أن نبدأ بفهم التأثير الهائل للإمبراطورية الآشورية على سير الأحداث في مملكة إسرائيل، وكيف أن قسماً كبيراً من التاريخ الموصوف في الكتاب المقدس العبري على أنه عامل لنفس ملوك إسرائيل وإثمهم وجشهم، إنما يرتبط أكثر برباح سياسات القوى الدولية. على الرغم من أن سفر الملوك يُصوران 'أخاب' - بشكل أساسي - كطاغية وكثني؛ نعرف من نقش عمود 'شلمانصر الثالث' بأنه كان أحد أكثر المعارضين النشطين للهيمنة الآشورية؛ حيث أرسل قوة عربات هائلة لمواجهة الآشوريين في قرقر. وبينما يصف الكتاب المقدس 'ياهو' الثائر كإداة الله في تحطيم الوثنية في إسرائيل، تُظهره المسألة السوداء الشهيرة لـ 'شلمانصر' خاضعاً ومبسطاً إلى الأرض أمام قدمي الملك الآشوري العظيم.

يُسجل 'شلمانصر' أيضاً: (الجزية التي دفعها ياهو بن عمري؛ استلمت منه فضة، وذهباً، وطاسة ذهبية، وزهرة ذهبية، ذات قاع مدبب، وأساطل ذهبية، وعلباً ذهبية، وقصديراً، ومجموعة من الموظفين للملك). (إن حقيقة أن 'ياهو' سُمي 'باهن عمري' - جوهرياً ابن الأسرة التي روي أنه قضى عليها - يدلُّ فقط - على أنه كان يحكم مملكة تابعة كان 'عمري' هو الذي أسس عاصمتها).

إن انتفاضة إسرائيل تحت قيادة حفيد 'ياهو': 'يوآش' (سفر الملوك الثاني 13/22-25)، مُرتبط - بشكل مباشر - بالإذلال الآشوري لدمشق أكثر من ارتباطه بتغيير رأي الله، الذي يروي الكتاب المقدس.

أعطى انتهاء هيمنة آرام دمشق فرصة سانحة لمملكة إسرائيل الشمالية - التي قدمت ولاءها للإمبراطورية الآشورية في وقت مبكر منذ عهد 'شلمانصر' الثالث - لتعترف بها تلك الإمبراطورية كأكثر الدول التابعة تفضيلاً. وهكذا استعادت المملكة الشمالية عافيتها - بسرعة - تحت زعامة الملك 'يوآش'، وبدأت باستعادة أراضيها التي كانت فقدتها لصالح دمشق (سفر الملوك الثاني 13/25). واستمر توسع الإسرائيليين - على ما يبدو - تحت 'يربعام الثاني' (سفر

المُلوك الثاني 14 / 25 و 28)، الذي يُروى أَنه وَسَعَ حُدُودَ إِسْرَائِيلَ - بِشَكْلٍ جَيِّدٍ - نحو أَرْضِي أَرَامَ السَّابِقَةَ . عندما نَنظُرُ إِلَى السَّجَلِ الأَثَارِي، نَجِدُ تَأْكِيداً وَاضِحاً عَلَى أَنَّ يَوْأَشَ بْنَ يَرِيمَامَ الثاني، الذي كَانَتْ مُدَّةَ حُكْمِهِ الأَطْوَلَ فِي تَارِيخِ المَمْلَكَةِ الشَّمَالِيَّةِ، تَرَأسَ فِتْرَةَ مِنَ الأَزْدَهَارِ الفَرِيدِ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ فِي إِسْرَائِيلَ .

### جوائز النظام العالمي الجديد:

ذُكِرَتْ المَرِحَلَةُ الجَدِيدَةُ لِلأَزْدَهَارِ الَّتِي بَدَأَتْ حِوَالِي 800 ق. م.، لِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ، كَمَعْمَرِ دَهَبِي لِلْمَمْلَكَةِ الشَّمَالِيَّةِ، حَتَّى فِي ذَاكِرَةِ شَعْبِ يَهُودَا . أُجْبِرَ الكَاتِبُ التَّوْرَاتِي لِسَفَرِي المُلُوكِ عَلَى إِيجَادِ تَفْسِيرٍ لِهَذَا الطَّالِعِ السَّعِيدِ وَالمُحَيَّرِ، الَّذِي تَمَتَّعَ بِهِ الشَّمَالِيُّونَ الأَشْرَارُ . لَقَدْ فَسَّرَ تَبْدِيلَ الأَحْدَاثِ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَشَفَقَتِهِ المُنَاجِتَةَ عَلَى إِسْرَائِيلَ (سَفَرِ المُلُوكِ الثاني 14 / 26، 27)، لَكِنَّا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَرَى - الأَنَ - سَبَباً أَرَجَحُ <sup>(1)</sup> هُوَ العُدْوَانُ الأَشُورِي عَلَى دِمَشقِ، وَاشْتِرَاكُ إِسْرَائِيلِ المُتَلَهِّفِ فِي الأَقْتِصَادِ الأَشُورِيِّ العَالَمِيِّ المُتَنَامِي . فِي "دَان"، تَمَّ - عَلَى مَا يَبْدُو - تَحْطِيمُ مَسَلَّةِ النِّصْرِ الَّتِي نَصَبَهَا "حَزَائِيل"، ثُمَّ اسْتُخْدِمَتْ أَجْزَاؤُهَا وَقَطَعَهَا فِي بِنَاءِ لَاحِقٍ (اكتشفها عُلَمَاءُ الأَثَارِ قَبْلَ حِوَالِي مِئَتَيْنِ وَثَمَانِينَ سَنَةً)، عِنْدَمَا أُسِّسَ البِنَاوُونَ الإِسْرَائِيلِيُّونَ مَدِينَةَ جَدِيدَةً هُنَاكَ . كَمَا أُزِيلَتِ المَسَلَّةُ، فِي بَيْتِ صِيدَا، الَّتِي تَحْمَلُ شَكْلَ الإِلَهِ الأَرَامِيِّ الطَّرَازِ، وَقُلِّبَتْ رَأْساً عَلَى عَقَبِ عَمْدَا .

وَفِي الوَقْتِ نَفْسِهِ - تَقْرِيْباً - اِحْتَلَّتْ "حَاصُورُ"، وَخُرُيْتُ، وَتَمَّ إِعَادَةُ بِنَائِهَا مِنْ جَدِيدٍ؛ وَلَعَلَّهُ لَيْسَ مِنَ المُصَادِقَةِ أَنْ تَظْهَرَ التَّقْوِشُ العِبْرِيَّةُ فِي "حَاصُورُ" لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي هَذِهِ المَرِحَلَةِ مِنَ البِنَاءِ .

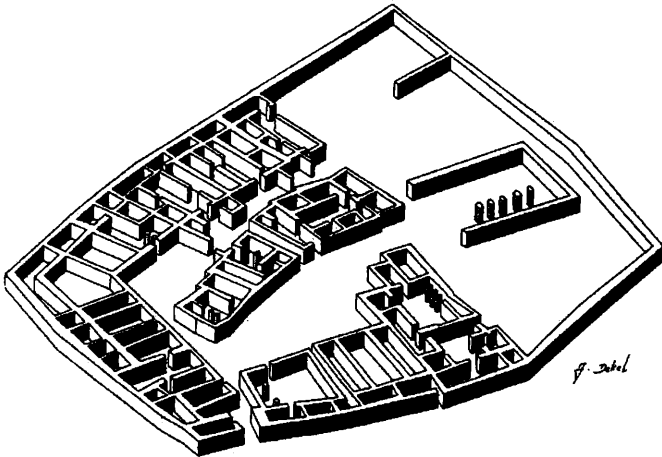
أَفْضَلُ دَلِيلٍ عَلَى قُوَّةِ الأَقْتِصَادِ الإِسْرَائِيلِيِّ أَثْنَاءَ حُكْمِ يَرِيمَامَ الثاني، هُوَ التَّطَوُّرُ الزَّرَاعِي وَالنَّمُو السُّكَّانِي الرَّائِعَ . لَقَدْ شَكَّلَتْ المُرْتَفَعَاتُ المُحِيطَةُ بِـ "السَّامِرَةِ"، لِأَلْفِ سَنَةٍ، أَفْضَلَ مَنطِقَةٍ فِي البِلَادِ لِزِرَاعَةِ كَرُومِ العِنَبِ وَبَسَاتِينِ الزَّيْتُونِ . قَدِّمْتُ الأَسْتِطْلَاعَاتِ الأَثَارِيَّةَ

(1) لَا يَخْفَى مَا فِي هَذَا المَنطِقِ مِنْ خَطَا وَضَحَالَةٍ، نَاتِجٍ عَنِ التَّضْكِيرِ المَادِّي المُعْظَمِ وَإِنكَارِ عَالَمِ مَا وَرَاءَ المَادَّةِ، فَلَا تَعَارِضَ أَوَّلًا بَيْنَ الأَسْبَابِ المَادِّيَّةِ حُصُولِ شَيْءٍ وَبَيْنَ مَشِيئَةِ اللَّهِ وَإِرَادَتِهِ حُصُولِ ذَلِكَ الشَّيْءِ؛ لِأَنَّهُمَا عَلَتَانِ فِي طَوَّلِ بَعْضِهِمَا، لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ العِلْمَةُ التَّهْلِيَّةُ وَالسَّبَبُ بِلَا سَبَبٍ لِجَمِيعِ الأَسْبَابِ، فَاللَّهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً هَيَّا لَهُ أَسْبَابَهُ المَادِّيَّةَ، مِثْلًا إِتْرَالِ المَطْرِيْتِمِ بِتَجْمِيعِ التَّوِيمِ ذَاتِ الشَّحْنِ الكَهْرِبَائِيَّةِ المُتَعَارِضَةِ، بِقَضْلِ الرِّيحِ، فِيهْبَلُ مِنْهَا المَطْرَ، وَهَذَا لَا يَنْفِي أَنَّ اللَّهَ هُوَ - فِي التَّهْلِيَّةِ - وَرَاءَ كُلِّ تِلْكَ العِلَلِ عِنْدَمَا أَوْجَدَ - مِنَ البَدَايَةِ - مَا يُسَاعِدُ عَلَى هَيُوبِ الرِّيحِ وَتَبَخُّرِ المَاءِ وَتَكَثُّفِ التَّوِيمِ . إلخ . وَكذَلِكَ فِي حِوَادِثِ التَّارِيخِ، مِنْ هُنَا؛ قِيلَ إِنَّ الظَّالِمَ عَدَلَ اللَّهُ فِي أَرْضِهِ، يَنْتَقِمُ بِهِ، ثُمَّ يَنْتَقِمُ مِنْهُ . (المُتَرَجِمُ).

المركزة في مناطق المرتفعات إلى جنوب 'السامرة' دليلاً على نُموِّ وتوسُّع لم يسبق له مثيل في إنتاج زيت الزيتون في العصر الحديدي .

في القرن الثامن نرى - لأول مرة - مُستوطنات بُنيت على تِثْوَات صخرية في قلب أفضل مناطق زراعة البساتين ، التي تخصص سكانها في هذا الفرع من الزراعة (الشكل 25) . هناك المئات من طاحنات الزيتون ، ومُنشآت أخرى لمعالجته قُطعت من الصُخُور حول تلك القرى ، ربما كان بعضها عقارات ملكية ، أو على الأقل ؛ أبنية بُنيت خصيصاً لهذا الغرض . ولم يكن هناك نقص في الأسواق الاحتمالية : كان من الممكن تصدير زيت الزيتون من مُرتفعات إسرائيل بنحو مريح إلى الإمبراطورية الأشورية ، أو شحنته لمصر ، وذلك لأن مصر وأشوريا كان ينقصهما المناطق الرئيسية لزراعة الزيتون .

في الحقيقة ؛ تذكر نقوش السامرة المشهورة - وهي مجموعة من 63 قطعة فخارية مكتوبة بالخير باللغة العبرية ، وتُورِّخ - بنحو معقول إلى عهد يربعمام الثاني - عمليات شحن لزيت الزيتون وللخمر من القرى البعيدة إلى العاصمة : السامرة .



الشكل 25: مخطط موقع منتج لزيت الزيتون في المرتفعات ، شمال غرب أورشليم (القدس) . استناداً لمخطط نُشر في 'عتيقوت' Atiqot .

في هذه الأثناء؛ كانت تلك المنطقة الداخليّة الزراعيّة قد أصبحت مأهولة بالسكّان بشكل أكثر كثافة من أيّ وقت مضى. بفضل ارتباطهم باقتصاد عالمي، وعدم مواجهتهم لأيّ تهديد عسكري هامّ، نما عدد سكّان المملكة الشماليّة بشكل كبير. تلقى الاستطلاعات الواسعة النطاق التي أُجريت في العقود القليلة الماضية الضوء على التّموّ السكّاني الكبير في الفترة من القرن العاشر إلى القرن الثامن ق. م. . مع نهاية القرن الثامن أصبحت المملكة الشماليّة -مُرتفعات السامرة والوديان الشماليّة على حدّ سواء- أكثر المناطق كثافةً سكّانيّة في كامل المشرق<sup>(1)</sup>.

رغم أنّ الأعداد تقريبيّة، إلّا أنّها تُزوّدنا بتخمين عامّ لعدد سكّان المملكة الشماليّة في القرن الثامن، بما في ذلك أراضيها في عبر الأردن، يُقدّر بحوالي 350.000 نسمة. وبنفس الآليّة؛ يُخمن العلماء أنّ عدد سكّان كامل أراضي غرب فلسطين، في العصر البرونزي، لم يصل حتّى لرقم 250.000 نسمة. إنّ التّموّ السكّاني مُثير جدّاً - بشكل خاصّ - عندما نعتبر أنّ عدد سكّان المُرتفعات في العصر الحديدي المُبكر - بالكاد - يتجاوز 45.000 نسمة. حتّى في القرن الثامن؛ لم يتجاوز عدد سكّان مملكة يهوذا الـ 100.000 نسمة. كما يصل عدد سكّان الدُول الواقعة شرق الأردن: أيّ عمون وموآب مُجتمعتين، - بصعوبة - إلى ثلث عدد سكّان إسرائيل الشماليّة.

توضّح هذه الأعداد المقارنة القوّة العسكريّة والقوّة الاقتصاديّة للمملكة الشماليّة. كما أنّها تُلمّح للموارد البشريّة لإسرائيل أيضاً، التي مكّنتها من تجهيز الحشودات العسكريّة، ومن إنجاز نشاطات عمريّة رائدة. يبدو أنّ يُوأش - أو على الأرجح - يُريبعامّ الثاني، قام بعمليّات بناء رئيسيّة، ليس - فقط - في مجدو (بما في ذلك نظام الماء العظيم والمجموعتان الضخمتان من الإسطبلات) بل - أيضاً - في إعادة بناء حاصور كَمَعقل في الأراضي التي استردها من

(1) نستند في هذه الفرضيّة على تخمين سكّاني تقريبي، وصَلنا إليه باستعمال مجموعة البيانات الأثاريّة والأثوغرافيّة (العربيّة). في هذه التقنيّة لتخمين عدد السكّان القديما، يتمّ جِداء المساحة المبنيّة لجميع المواقع المسكونة أثناء القرن الثامن ق. م. (والتي يتمّ تحديثها بواسطة وجود أنواع الفخاريّات التميّزة في القرن الثامن) بمعدّل كثافة سكّانيّة هو: المعدّل الوسطي للكثافة السكّانيّة التي لوحظت في المجتمعات التقليديّة قبل الحديثة، في القرن التاسع عشر أو بداية القرن العشرين. (المؤلف).

الآراميين، وفي إعادة بناء مدينة "جازر" كمخفر أمامي استراتيجي للمملكة الشمالية على حدود يهوذا وفلسطين. ربما يُمكن تأريخ السور القوي لمدينة "جازر" الجديدة ويؤاقتها، إلى هذا الوقت.

إنَّ عَظْمَةَ مَمْلَكَةِ إِسْرَائِيل - التي وُكِدَت من جديد - واضحة من الدليل . إنَّه ذا مغزى هام أن يكون "يربعام الثاني" هودم ملك إسرائيل وجَدنا له ختماً رَسْمِيًّا . وُجِدَت هذه المصنوعة اليدوية الكبيرة والجميلة جداً في بداية القرن العشرين في "مجدو" . إنَّها تُصوِّر أسداً قوياً يزأرُ، وكتابة عبرية منقوشة : (يعود إلى "شيماء" Shema خادم [أي : مُوظَّف كبير] "يربعام" .) . يُعدُّ تصميم أسدٍ في الختم نموذجاً نمطيًّا في القرن ثامن ق. م ، لذا ؛ لا يُمكن نسبته إلى "يربعام" السابق ، الذي أسَّس المملكة الشمالية قبل قرنين من الزَّمن تقريباً . ربَّما تكون دولة "يربعام" الثاني - بمعايير ازدهارها ، وارتباطاتها الدَّولية ، ومشاريعها البنائية الواسعة - قد بقيت حيَّة في ذاكرة الإسرائيليين واليهودويين كتموذج لحُكم ملكي مجيد . هُنَا ؛ نتذكَّر - من جديد - الفقرة الشَّورية في سفر المُلوك الثاني : 15 / 9 ، التي تصف النشَاطات العُمرانية لسُلَيْمَانَ فِي "حاصور" ، و"مجدو" ، و"جازر" . هل من المُمكن أن يكون المُؤلِّف "اليهودوي" اللَّاحق ، الذي أَلَّف تاريخه بعد مئة سنة تقريباً من وُقُوع تلك الأحداث ، قد نَسَبَ - بدافع عاطفي (ووطني) - الآثار الباقية للأبنية العظيمة التي بناها "يربعام" ، إلى عصر سُلَيْمَانَ الذَّهبي ؟

لُعز "مجدو" يُطرح بِقُوَّة مرَّةً ثانية :

كانت الحُيُول - فيما يبدو - أحد أعلى مُنتجات المملكة الشمالية كَمَنًا ، وأكثرها قيمة . يُمكن أن نحصل على بعض المعلومات الدَّالة على مدى اتِّساع تربية وتكثير الحُيُول في إسرائيل من إعادة بناء "مجدو" خلال عهد "يربعام الثاني" (الشَّكْل 16) .

إنَّ العنصر الأبرز في مدينة "مجدو" الإسرائيليَّة الأخيرة هُما المجمعان الكبيران من الأبنية المُسندة إلى عواميد ، والتي اقترح فريق جامعة شيكاغو في العشرينات (من القرن الماضي) أنَّها كانت إسطبلات بناها سُلَيْمَانَ ، ثُمَّ أَرخها عالم الآثار "يادين" فيما بعد ، بأنَّها إسطبلات بناها "أخاب" ، الذي جهَّز جيشاً من العربات بتلك القُوَّة الهائلة ضدَّ الأشوريين في معركة قرقر . وسواء رُبِطت تلك الإسطبلات بسُلَيْمَانَ أو بأخاب ، فإنَّ مُؤيدي نظريَّة كَوْن تلك الأبنية



إسبيلات أتفقوا على أن الحَيُول كانت تُوضَع ، ويُحفظ بها في الممرّات الجبائِيَّة الضيّقة الطويلة للنباتات ؛ حيثُ كانت تُربط بأعمدة صخرِيَّة ، وتُندَى في المعالف الموضوعَة بَيْن الأعمدة (الشكْل 17) . وافتراضوا أن يكون الممرُّ المركزي ، الذي كانت أرضِيته مُغطّاةً بطبقة لاصقة ناعمة ، قد استُخدمَ كمنطقة خدمة ؛ حيثُ كان يُمكن لساسة الحَيُول أن يسوسوا الحَيُول ، ويوزّعوا غذاءها . اقترح علماء الآثار - أيضاً - أن يكون الفناء الكبير أمام المجموعة الجبويَّة للإسبيلات قد استُخدمَ كساحة للتمرين والتدريب .

كان هناك مُشكلة واحدة - فقط - في هذه النُظريَّة الجذّابة : لم يُكتشفَ أيُّ من السِّلَع والأدوات التي تتعلّق بالحَيُول ، أو العرَبات ، أو سلاح الفرسان في أيُّ من النباتات . والممرّات الجبائِيَّة للأبنية المماثلة التي اكتُشفت في المواقع الأخرى كانت مليئة بالأواني الفخاريَّة ، ممَّا جعلَ عدداً من علماء الآثار يقرحون بأنَّ أمثال تلك النباتات ذات الممرّات الثلاثة كانت كلُّها تُستخدمُ كمخازن .

فسرَّ البعض بأنَّ المعالف التي وُجدت في بنايات "مجدو" كانت تُستعمل لتغذية دوابِّ حَمَل الأتقال ، التي من المحتمل أنها كانت حميراً ، والتي كانت تجلب السِّلَع إلى المخازن ضمن القوافل التجاريَّة . اقترح علماء آخرون بأنَّ النباتات المُستندة في "مجدو" ، بالإضافة إلى الأماكن الأخرى في المنطقة ، كانت تعمل ككنكات للجيش ، أو حتّى كأسواق عامَّة .

بُدلت محاولات خلال التنقيبات المُستمرَّة في "مجدو" لحلِّ المُشكلة بالاختبار الكيميائي المنظَّم للترُّبة ، التي تمَّ استخراجها - مؤخراً - عبر التنقيب من طوابق النباتات المُستندة إلى عواميد ، وذلك لأجل التعرف على آثار الغذاء ، أو الغائط الحيواني ، ولكنَّ النتائج - حتّى الآن - غير حاسمة ، لكن شيئاً واحداً كان واضحاً في التنقيبات المُجددة . يجب أن لا نتوقَّع أن نجد أيُّ موادَّ هامةً تتعلّق بالحَيُول في تلك النباتات ؛ لأنَّه بعد استيلاء الآشوريِّين على المدينة تمَّ تنظيف تلك الأبنية بشكل كامل ، وأعيد استخدامها - على الأقلَّ جزئياً - ثمَّ تمت إزالتها تماماً ، عندما هُجرت لاحقاً ؛ حيثُ تمَّ تخريبها عمداً بإنزال جدرانها إلى الأرض . نستطيع - الآن - بفضل إعادة تأريخ طبقات مجدو - وإعادة تقيِّم التاريخ الأثاري للممْلَكَة الشماليَّة - أن نرفض النُظريَّات القديمة ،

ونقول - بكل ثقة - إن الأبنية التي على شكل إسطبلات ، في مَجْدُو ، إنما تعود إلى عهد 'يربعام الثاني' ، و'آخاب' ، اللذين رغم احتفاظهما الواضح بقوة عَرَبَات كبيرة ، بِنَا القُصُور الكبيرة في مَجْدُو التي سبقت مستوى الإسطبلات (هذا على الرغم من أن بعض العلماء يقترح أن المدينة - أيضاً - التي تم تقييدها - بنحو جزئي فقط - كانت تمتلك إسطبلات أيضاً) .

لكن رِبَطَ الإسطبلات بـ 'يربعام الثاني' لا يحلُّ مُشكلة وظيفتها بشكل حاسم . فهل هناك أي دليل مفتاحي آخر يُعَيِد في توضيح أهمية الحَيُوط في مَمْلَكَة إسرائيل - وربما فهم دور إسرائيل العسكري في المجتمع الإمبراطوري الآشوري الأوسع - ؟

يأتي الدليل الهام من المصادر الآشورية ، التي تكشف أن مَمْلَكَة إسرائيل كانت مشهورة بِقُوَّات عَرَبَاتِهَا لِمُدَّة طويلة بعد مُواجهة الملك 'آخاب' لـ 'شلمانصر' بالعمى عَرَبَة في معركة فرقر في سوريا عام 853 ق . م ، وَجَدَ عالمُ الآشوريات (المتخصص بتاريخ الإمبراطورية الآشورية) 'استيفاني ديلي' دليلاً مُقنعاً في السجَّلات الآشورية على أن بعض الدُول التابعة للإمبراطورية تخصصت في تربية وتصدير الحَيُوط التي تُستخدَم في حرب سلاح الفرسان والعَرَبَات .

نعلم أن إسرائيل في عهد 'يربعام الثاني' ازدهرت من خلال تخصصها في بعض السلع . فهل يُمكن أن يكون ما نجده في 'مجدو' هو آثار باقية معمارية لمركز تربية حَيُوط هام لأجل وحدات العَرَبَات الشهيرة لمَمْلَكَة إسرائيل ؟ وهل من المُمكن أن إسرائيل في أيام 'يربعام الثاني' كانت تُربي الحَيُوط ليس لتلبية حاجاتها العسكرية الخاصة فحسب ، بل لتأمين حاجات وَحَدَاث العَرَبَات في كافة أنحاء الإمبراطورية الآشورية ؟

يأتي دليلٌ في هذا الاتجاه من دولة أخرى تابعة للإمبراطورية الآشورية هي مَمْلَكَة 'أورارتو' في شرق الأناضول ، التي اعتبرت أنها كانت تمتلك أفضل سلاح فرسان في العالم . نعلم من ذكر صريح جاء في مصادر آشورية أن الحَيُوط كانت تُربى هناك لأجل التصدير . والأمر المُثير للاهتمام ، هو أن الأبنية التي اكتشفت في مواقع تعود للعصر الحديدي الثاني في 'أورارتو' تُماثل - بشكل كبير - في مخططها إسطبلات 'مجدو' ، ولكن ؛ ربما جاء أوضح دليل على صلة الإسرائيليين بالفرُوسية العسكرية ، من الفترة التي تلي - مباشرة - غزو الإمبراطورية الآشورية للمَمْلَكَة الشماليَّة ، عندما تم دَمَج وحدة عَرَبَات إسرائيلية خاصة بالجيش الآشوري .

في الواقع ؛ يُزودنا البحث الذي قام به "استيفاني دبلي" حول الألواح الآشورية المعروفة باسم قوائم الحثول بمعلومات حول الضباط ، والمسؤولين ، والوحدات في الجيش الآشوري في عهد الملك "سرجون الثاني". تُشير هذه السجلات إلى أنه بينما تم دمج قوات مُخصصة أخرى ، من مناطق مُحتملة ، بالجيش الآشوري ، كأفراد ، كان لواء العرَبات الإسرائيلي الوحدة الأجنبية الوحيدة التي سُمح لها بالاحتفاظ بهويتها الوطنيّة. وقد قالها الملك الآشوري "سرجون الثاني" بوضوح: "شكّلت وحدة من متّي عرّبة من عرباتهم لقواتي الملكيّة".

وبناءً عليه ؛ يبدو أنه بفضل شهرة قادة العرَبات الحربيّة الإسرائيليّين بمهارتهم ، سُمح لهم بمنزلة خاصّة. من جملة التفاصيل المذكورة في قوائم الحثول جاء ذكر قائد عسكري إسرائيلي "شيماء"، ربّما كان من وحدات العرَبات ، حدّم في منصب عال في الجيش الآشوري ، وكان أحد أعضاء حاشية الملك .

#### أصوات الاحتجاج الأولى:

قدّم الازدهار والشهرة والأهمية التي بلّغتها مملكة إسرائيل في عهد "يربعام الثاني" ثروة كبيرة للطبقة الأرستقراطية الإسرائيليّة؛ وعلى الرّغم من أن الطُرق الفوضويّة للحفريات ، في التنقيبات التي تمّت أوائل القرن العشرين في "السامرة" ، لم تسمح بتحليلات مُفصّلة للأبنية ، ولتجديد المدينة الملكيّة الذي تمّ في أوائل القرن الثامن ق. م؛ فإنّ هناك مجموعتين من المكتشفات الصّغيرة ذاتي أهمية بالغة ومُمتعة للغاية ، تُقدّمان لمحة - على الأقل - إلى الثراء والفخفخة التي كانت تعيش فيها الطبقة الحاكمة في إسرائيل . أكثر من متّي لوحة عاجيّة دقيقة حُفرت على النَمَط الفينيقي بمواضيع مصريّة تمّ تأريخها ، حسب نَمطها ، إلى القرن الثامن ق. م ، كانت تُزيّن - احتمالاً - جدران القصر أو الأثاث الرقيق للعائلة المالكة الإسرائيليّة . إنّها تشهد على الثروة والأذواق العالميّة للملوك الإسرائيليّين وعائلات النبلاء في مملكتهم . كما تمثّل نُقوش "السامرة" الشهيرة ، ووُصولات شحن زيت الزيتون والخمر من الأرياف إلى العاصمة نظاماً مُقدّمًا للاتّمان وحفظ السجلات ، الذي - من خلاله - يُطالب مالكو الأراضي الكبيرة بالإنتاج في المناطق الداخليّة ، أو يستخدمها مسؤولو الضرائب الحكوميون ، الذين كانوا يُشرفون على جَمع المحصول .

في ذروة ازدهار المملكة الشماليّة تحت حكم "يربعام الثاني" أصبحنا قادرين - أخيراً - على أن نُميِّز جميع المعايير الكاملة للدولة: معرفة القراءة والكتابة، النظام الإداري، التخصّص في الإنتاج الاقتصادي، ووجود جيش مُحترف. وكانت تلك - أيضاً - الفترة الأولى التي سُجِّلَ فيها اعتراضُ نبيّ.

إنّ الوحي الذي جاء إلى النّبیین "عاموس" و"هوشع" هو أقدم الأسفار النّبویّة التي تمّ الاحتفاظ بها، والتي تحتوي على مادة تعكس عنفوان "يربعام الثاني". يُعيدنا شجبهما القاسي للارستقراطيّة الفاسدة والأثيمة للشمالیین، كوثيقة على الثراء الفاحش في تلك الفترة، كما أنّه يُقدِّم لنا تعبيراً - لأول مرّة - عن آراء سيكون لها تأثير عميق على بلورة العقيدة الشّویّة (التوراتيّة). وُصف "عاموس" بأنّه كان راعياً من قرية "تيكوا" الرّيفيّة في يهوذا، كان يتجوّل بقطعانه شمالاً، ولكنّ أيّاً كان مركزه الاجتماعي الدقيق أو سبب وعظه في مملكة إسرائيل، فإنّ الوحي الذي تمّ تسجيله باسمه يؤدِّدنا بإدانة شديدة لأساليب الحياة المُسرّفة والوقائع الماديّة للارستقراطيّة الإسرائيليّة في القرن الثامن ق. م.؛ [ ويل للراقيدين قوفاً أسرة من عجاج، المُسترخين قوفاً الأرائك، الأكلين لحم خيرة الحُمْلان والعُجول المُخْتارة من وَسَط المَعْلَف. 5 المُعْتَنِينَ على صَوْت الرّباب، المُخْتَرَعِينَ لأنفسهم آلات غناء كدَاوُد. 6 الشّارِبِينَ خَمراً في كُووس، المُتَطَيِّبِينَ بِأَفْضَلِ العُطُور... ] (سفر عاموس: 6/4-6).

ويستمرّ "عاموس" في إدانته لأولئك الذين [ تُشِيدُوا بُيُوتاً من حجارةٍ مَنْحَوْتَةٍ ] (11/5). في حين يتكلّم معاصره، النّبِيّ "هوشع" ضدّ أولئك الذين [ يَرْتَكِبُ الأَكَاذِيبَ وَالجُورَ بِكَثْرَةٍ، وَيَبْرُمُ عَهْداً مَعَ أَشُورَ، وَيَبْعَثُ بَرِيَّتَ الزَبْتُونَ إِلَى مِصْرَ. ] (سفر هوشع: 1/12). في تلك التلميحات والعديد من أمثالها؛ يُلْخِصُ النّبِيّانِ الارتباطات الاقتصادية والحضارة الماديّة التي أوضحتها علم آثار مملكة إسرائيل بشكلٍ وافرٍ.

علاوة على إدانة الأغنياء والأقرباء؛ يُوجِّه "عاموس" و"هوشع" نقوداً لاذعة للظلم الاجتماعي، والوكيّة، والتوتُّرات المحليّة التي جلبتها التجارة الدوليّة والاعتماد على الإمبراطوريّة الآشوريّة. طبقاً لهوشع، [ إنّ أَشُورَ كُنْ تُخَلِّصْنَا، ولكن نَعْتَمِدُ على خِيُولِ مِصْرَ لِإِنْقَادِنَا، ولكن نَقُولُ للأوْثَانِ صِنْعَةَ أَيْدِينَا: (أَنْتُمْ أَلِهَتُنَا) ] (هوشع 3/14). يدين "عاموس" فسقَ

الذين يُطعمون الذين بلقلة أستهتم فقط، في حين يقومون بتجميع الثروات لأنفسهم،  
وُسيئون مُعاملة الفقير:

[ اسْتَمِعُوا هَذَا أَيُّهَا الدَّائِسُونَ عَلَى الْبَائِسِينَ، يَا مَنْ حَاوَلْتُمْ أَنْ تَقْضُوا عَلَى فُقَرَاءِ الْأَرْضِ، 5  
قَائِلِينَ: (مَتَى يَنْقَضِي أَوَّلُ الشَّهْرِ حَتَّى نَبِيحَ الْحَنْطَةِ؟ مَتَى يَمْضِي السَّبْتُ لِنَعْرُضَ الْقَمَحَ فِي  
السُّوقِ، فَتَعْمَدَ إِلَى تَصْغِيرِ حَجْمِ مِكْيَالِ الْإِيفَةِ، وَتَرْفَعَ الْأَسْعَارَ، وَتَسْتَعْمَلَ مِيزَانًا مَغْشُوشًا. 6  
لِنَشْتَرِيَ الْمُسْكِينَ بِقِطْعَةٍ مِنَ الْفِضَّةِ، وَالْبَائِسَ بَعْلَيْنِ، وَنَبِيحَ نَفَايَةِ الْقَمَحِ؟) ] (عاموس 4/8-6).

احتفظ أتباع 'عاموس' و'هوشع' بتلك الإدانات النبوية، التي أخذت معنىً جديداً بعد  
سقوط مملكة إسرائيل. ذلك لأن هذين النبيين - بقدهما للغني واشتمزاجهما من تأثير الطرق  
الأجنبية على حياة شعب إسرائيل - كانا رائدي الحركة الروحية والاجتماعية، التي سترك  
بصماتها الدائمة على تبلور النص التوراتي.

آلام احتضار إسرائيل:

أثبت موت 'يربعام الثاني' عام 747 ق.م، أن بناء المجتمع الإسرائيلي - على الرغم من  
ازدهاره المادي وإنجازاته في الهندسة المعمارية والفنون العسكرية - بناء أجوف. لقد ظهرت  
الفتات - احتمالاً - بين المديرين الإقليميين، وضباط الجيش، ومجموعات المصالح الخاصة. وبدأ  
كلُّ ملك يتلو الملك الآخر بتعاقب سريع نسيباً، ودام في الغالب. وبدأ ينهار - تدريجياً - ذلك  
التوازن الحرج بين الاستقلال الاقتصادي والتحالف السياسي مع، إلى الإمبراطورية الآشورية،  
والتدلل لها. القصة التي يُقدمها سفر الملوك الثاني - والتي تدعمها تأكيدات عريضة - موجودة في  
سجلات الإمبراطورية الآشورية، هي كلُّ ما نملكه للاستمرار في توثيق سقوط إسرائيل.

وجاءت سلسلة ثورات العائلة المالكة العنيفة في 'السامرة' في أكثر الأوقات خطورة.  
كانت تحدث في ذلك الوقت تغيرات عظيمة في بلاد ما بين النهرين. في عام 745 ق.م -  
بالضبط بعد اغتيال ملكين في 'السامرة' - ثار الحاكم الطموح لمدينة كالح الآشورية العظيمة في  
وادي دجلة، مُتمرداً ضد سادته الكبار، وبدأ عملية تحويل الإمبراطورية الآشورية إلى دولة  
وحشية ولصوصية عدوانية.

وهكذا بدأ الملك الجديد ، تغلات بيلاصر الثالث \* (واسمه في الكتاب المقدس تَغَلَتْ فَلَاسِر الثالث) (المعروف - أيضاً - في الكتاب المقدس باسمه البابلي : بول) ، عملاً لا يقلُّ عن تجديد شامل للإمبراطورية الآشورية ، أولاً ؛ في علاقاتها مع الدول التابعة لها سابقاً ، والتي ستُصبح - الآن - تحت السيطرة المباشرة أكثر بكثير من قَبْل .

في 837 ق.م ؛ قاد جيشه في حَمَلَة تهديد كبيرة باتجاه الغرب ، نَجَحَ - خلالها - في إرعاب توابع الإمبراطورية الآشورية نصف المستقلين سابقاً بطُلبات اقتصادية لم يسبق لها مثيل . ولم يكن ذلك إلا البداية فقط .

في عصر الإمبريالية الآشورية الذي افتتحه تغلات بيلاصر الثالث ، سُرعان ما تمَّ غزو وفتح الممالك التابعة للملكة الآشورية ، وألحقت بها ، مع تعرُّض السُكَّان المحليين فيها للترحيل ، كُلِّمًا أرادت السلطات الآشورية ذلك .

في "السامرة" ، العاصمة الإسرائيلية - ويعد موت الملك "مَنحيم" في 737 ق.م ، والاختيال الفوري - تقريباً - لابنه ووريثه ، من قَبْل ضابط عسكري اسمه قَفَّح بن رَمَلِيَا - ، تغيَّرت السياسة الخارجية لمملكة إسرائيل . ليس لدينا معلومات عن الدوافع السياسية والشخصية لَقَفَّح ، هذا المُغتصب الأخير للسلطة ، كُلُّ ما نعرفه أنه أنهى - فجأة - بعية إسرائيل ، وخصَّوعها للإمبراطورية الآشورية . وانضمَّ قَفَّح - ربَّما كَرَدَ فَعَلَ مُستमित ويانس ضدَّ تغيُّر السياسات الآشورية ، وعدم القُدرة على تلبية المُطالب الآشورية - إلى تحالف بين القوى المحليَّة الأخرى - بما في ذلك الملك "رَصِيم" - وبعض المُدُن الفلسطينية في مقامرة مُستعمتة للاستقلال .

ما تلا كان سلسلة مأساوية من الأخطاء في التقدير ، أتت بنهاية إسرائيل المُستقلَّة ، وفي الحقيقة ؛ قضت على كُلِّ احتمال لاستقلال أي دولة في المشرق ، طالما بقيت الإمبراطورية الآشورية . أَمَل قَفَّح و"رَصِيم" بتنظيم جبهة واسعة مُلتزمة ، تُشارك فيها كُلُّ الدُول في المنطقة ، لمقاومة الإمبراطورية الآشورية ، ولكنَّ التحالف فُشل في أن يجدَّ طريقه للظهور ، وكان ردُّ فعل تغلات بيلاصر سريعاً وغاضباً .

بعد استيلائه على دمشق ، وإعدامه لرصين ، وشقَّ طريقه جنوباً نحو ساحل البحر الأبيض المتوسط ، مُدمراً كُلَّ المُدُن الثائرة احتمالاً ، وضامناً أن لا تصل أي مُساعدة للمتمردين

من مصر، وَضَعَ تَغَلات بِيلاصَّرَ عَيْنِيهِ - بِكُلِّ قُوَّةٍ - عَلَى مَمْلَكَةِ إِسْرَائِيلَ . بِفَتْحِهِ لِأَغْلَبِ أَرْضِيهَا، وَتَطْوِيمِهِ لِذُنُوبِهَا الرَّئِيسِيَّةِ، وَإِبَاعِهِ لِحِزْمٍ مِنْ سُكَّانِهَا أَجْبَرَ تَغَلات بِيلاصَّرَ إِسْرَائِيلَ عَلَى الْجَثْوِ عَلَى رُكْبَتَيْهَا .

عند موت تَغَلات بِيلاصَّرَ عانَ 727 ق. م، كانت أغلب أرض المملكة الشماليَّة قد ضُمَّتْ مُباشرةً، وألحقت بالإمبراطوريَّةِ الآشوريَّةِ . ثُمَّ تَمَّ تقسيمها إداريًّا إلى مُحافظاتٍ : "دور" (على طول الساحل الشمالي)، و"مجدو" (في وادي يَزْرَعِيلَ والجليل)، و"جلعاد" (في مُرتفعات عبر الأردن) . يُشير نَقْشُ نافر (أي بارز) يعود لعصر تَغَلات بِيلاصَّرَ الثالث - يصف حصار مدينة تُسمَّى "جازرو"، التي من المُحتمل أنها مدينة "جازر" - إلى أنَّ السَّهْلَ السَّاحِلِيَّ الجنوبي لإسرائيل لم يهرب من المصير المُرْتُمِّلُ لمُحافظات الشماليَّةِ . كان كُلُّ ما تَبَقِيَ مِنَ المملكة الشماليَّةِ مُجرَّدَ مُرتفعاتٍ حول العاصِمة : السَّامرة .

وهكذا أمكن لتغلات بِيلاصَّرَ القاسي الجاف أن يفتخر قائلاً في نَقْشِ تذكاري : "لقد سوَّيت بالأرض أراضي بيت حُمريا [أي بيت عُمرى]، كُلُّ مُدُنِهِمْ سَوَّيْتُهَا بِالْأَرْضِ فِي حِمْلَاتِي السَّابِقَةِ . . . سَلَبْتُ مَا شِئْتَهَا، وَلَمْ أُوَفِّرْ إِلَّا السَّامرةَ الْعِزُولَةَ فَقَطْ ."

تذويب الشَّمالِ بِالذَّوْلَةِ الْآشُوريَّةِ، وَطَبْعُهُ بِطابِعِهَا :

لم يكتفِ الطَّرَازُ الجَدِيدُ لِلإمبراطوريَّةِ الآشوريَّةِ، تحت قيادة تَغَلات بِيلاصَّرَ، بِمُجرَّدِ الفُتُوحَاتِ الإقليمِيَّةِ . لَقَدْ نَظَرَ الآشُوريُّونَ إِلَى كُلِّ الأَرْضِ، وَالْحَيَوَانَاتِ، وَالتَّرَوَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ، وَسُكَّانِ المَنَاطِقِ الَّتِي فَتَحُوهَا، كَأَشْيَاءٍ - مِثْلِ الأَثَاثِ - يُمكنهم - بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِمْ - أَنْ يُحَرِّكُوهَا، أَوْ يَسْتَنْفِئُوهَا لِتُخَدَمَ مِصَالِحَ الذَّوْلَةِ الْآشُوريَّةِ بِأَفْضَلِ نَحْوٍ مُمكن . وَهَكَذَا طَبَّقَ الآشُوريُّونَ سِياسةَ الإِبْعَادِ وَإِعَادَةِ التَّعْمِيرِ عَلَى مِقياسِ كَبِيرٍ .

وَكانَ لِهَذِهِ السِّياسةِ عِدَّةٌ مِنَ الأَهْدافِ، تُخَدَمُ كُلُّهَا مُواصِلَةَ تَطْوِيرِ الإمبراطوريَّةِ . مِنْ وَجْهَةِ النِّظَرِ العَسْكَرِيَّةِ، كانَ أَخْذُ الأَهاليِّ أَسْرَى، وَإِزَالَةُ القُرَى الحَلِيبِيَّةِ مِنَ الوجودِ تَأثيرٌ فِي إرْهابِ وَاجْباطِ السُّكَّانِ، وَتَقْسيمِهِمْ بِنَحْوِ يَحْوِلِ دُونَ حَدُوثِ أَيِّ مُقاوَمَةٍ مُنظَّمَةٍ أُخْرَى . وَمِنْ وَجْهَةِ النِّظَرِ الاقْتِصادِيَّةِ، جَلَبَ التَّجْنيدُ - وَاسِعَ النِّطاقِ فِي الجَيْشِ الإمبراطوريِّ - قُوَّةً بَشَرِيَّةً، وَتَقْنِيَّاتٍ عَسْكَرِيَّةً جَدِيدَةً، إِلَى إِطارِ يُمكن - مِنْ خِلالِهِ - مُراقِبَةِ المُجْتَدِينِ الجُدِّدِ بِعِنايةٍ .

وَدَعَمَتُ سياسة إعادة التوطين الإيجارية للصنّاع في مراكز قلب الدّولة الآشورية الموارد البشرية المتدريّة، وجعلتها في متناول الاقتصاد الآشوري. وأخيراً؛ قُصد من الإسكان المُجدّد والمنظّم للسكّان الجُدُد في مناطق فارغة، أو أراضٍ تمّ فتحها مؤخراً توسيع الناتج الزراعي العام للإمبراطورية.

بدأت غلات بيلاصر الثالث هذه العمليّات، فوراً، تقريباً، في مناطق مملكة إسرائيل التي اجتاحها جيوشه. بلَغ عدد المُبعدين - حسبما تذكره سجلّاته - 500، 13 شخص. وإذا لم يكن هذا العدد مُبالغاً به - كما تُفيد الاستطلاعات الأثرية التي تمّت في أسفل الجليل، والتي تُشير إلى عمليّة تهجير واسعة - فمعنى ذلك أنّ الآشوريين أبعدوا مقداراً هاماً من أهالي وسكّان المناطق الرّيفيّة إلى الإمبراطورية الآشورية.

يُمكن مُشاهدة النتائج الكارثيّة لهجوم غلات بيلاصر الأوّل في مواقع عديدة. في 'حاصور'، التي تُذكر - بشكل مُحدّد في الكتاب المقدّس - بالارتباط مع حملته (سفر الملوك الثاني 29/15)، تمّ تدمير المدينة الإسرائيليّة الأخيرة، وحرّقها كليّاً، وتحويلها إلى رماد. هناك دليل آثاري واضح على أنّه في الأيام التي سبقت الهجوم الآشوري النهائي، أُعيدت تقوية التحصينات الدفاعيّة للمدينة، ولكن؛ دون جدوى، كما ترشح من الأحداث التّالية. كما تمّ تتبّع آثار دمار شامل في كلّ من 'دان' و'بيت شان'، لكن؛ في 'مجدو'، كانت التّوابا الآشورية مُختلفة حدّاً ما؛ لأنّ تلك المدينة كانت ستُصبح مركزاً جديداً لإدارة الإمبراطورية. تمّ حرّق الأحياء المحليّة؛ حيث تُروي لنا البنايات المُحرقة المُشاهرة والأواني والظُرُوف المسحوقة قصّة الساعات الأخيرة للمدينة الإسرائيليّة، لكنّ البنايات المُسندة إلى عواميد - أي إسطبلات 'مجدو' الشهيرة - تُركت سليمة؛ لتُستخدم من جديد - احتمالاً - لفترة قصيرة. نوى الآشوريون إعادة بناء الموقع لأغراضهم الخاصّة، وأثبتت الأحجار الرّقيقة في أبنية الإسطبلات أنّها مصدر مُمتاز للموادّ الإنشائيّة.

تزوّد 'مجدو' أفضل دليل عن المراحل المُبكّرة للاحتلال الآشوري. بعد الدمار الجزئي لآخر مدينة إسرائيليّة، حدّكت فترة قصيرة من التّرك، تلاها إعادة بناء شاملة.



جَعَلَ الآشُورِيُّونَ مَجْدُوَ عاصمةَ محافظتهم الجديدة، التي غطَّت أراضي سابقة من المملكة الشماليَّة في الوديان الشماليَّة وتلال الجليل. تتحدَّث الوثائق الرِّسْمِيَّة - خلال عدَّة عَقُود - عن مَجْدُو كَمركز حاكم المُقاطعة. كانت بُورَة المدينة الجديدة؛ التي أُعيد بناؤها على أساس مُخطَّطٍ جديدٍ تماماً، تقع قُرْب البوَابَة، حيث بُنيَ قَصْران على الأُسْلُوب الآشُوري النَّمطي. نُظِّمَت بقِيَّةُ المدينة على شكل شبكةٍ دقيقة من الشَّوارع المُتوازية، الأفقيَّة: شرق - غرب والعموديَّة: شمال - جنوب، مُشكِّلةً كُتلاً مُستطيلةً للأبنية المحليَّة، وهو نمطٌ جديدٌ من تخطيط المُدن، كان مجهولاً حتَّى الآن في المشرق. في ضوء هذه التغيُّرات الجذريَّة، من المُحتمل أن يكون الأهالي الجُدُد - الذين أُبعدوا من المناطق الأخرى التي احتلتها الإمبراطوريَّة الآشُوريَّة - قد حلُّوا - الآن - هناك.

#### نهاية المملكة:

عندما حُصِرَت مَمْلَكَة إسرائيل في الجوار المُباشِر لـ "السَّامرة"، لم تعد أكثر من لُقمة صغيرة يُمكن للدَّولة الآشُوريَّة الصَّاعدة أن تبتلعها في أوَّل قُرصة سانحة. ومع ذلك؛ بدأ "هُوشع"، قاتل "فَقح" وآخر مُلوك إسرائيل، بعد أن قدَّم الإتاوة - بسُرعة - للإمبراطوريَّة الآشُوريَّة، بدأ بنفس السُرعة مؤامرة خطيرة وكارثيَّة. ففي فترة الحيرة القصيرة التي أعقبت موت تغلات بيلاصَّر الثالث حول موضوع خلافته، والتي انتهت بخلافة "شلمانصر الخامس"، أرسل "هُوشع" - على ما يُروى - كلمة سرِّيَّة إلى أحد الزعماء الإقليميين في الدَّلتا المصريَّة، آملاً أن تكون مصر قد أصبحت مُستعدَّة - الآن - للدُّخول في المعركة ضدَّ الآشُوريَّة. واستمرَّراً في المُقاومة حتَّى نهايتها، أنهى "هُوشع" - من الآن فصاعداً - دَفْع الإتاوة للملك الآشُوري الجديد. مَنْ الذي يُمكنه أن يُفاجأ بما سيحدث؟ لقد بدأ "شلمانصر الخامس" حَملة تصفية. قَلَّص الرِّيف حول "السَّامرة"، وحاصر المدينة بنفسه.

وبعد حصار طويل؛ اقتحم المدينة، وساق - على الأقلِّ - جزءاً من سُكَّانها - الذين بقوا على قَيْد الحياة - إلى نُقاط تجمُّع، تمَّ ترحيلهم منها - في النهاية - وإعادة توطينهم في مناطق آشُوريَّة بعيدة.

هناك جدلٌ واختلاف كبير بين العلماء حول ما إذا بقي "شلمانصر الخامس" حياً ليرى الاستيلاء على "السامرة"، أو أن خليفته "سرجون الثاني"، الذي اعتلى العرش عام 722 ق. م، كان هو المسؤول عن تلك الضربة القاضية.

وعلى كل حال؛ لدينا رواية آشورية كاملة، مُدوَّنة في سجلات سرجون، عن كُلِّ ما حَدَثَ: [لقد حاربت أهالي السامرة، الذين اتَّفَقوا وتآمروا مع ملك مُعاد لي على أن لا يتحمَّلوا الخدمة، وأن لا يُقدِّموا الإتاوة لأشور، وخُضتُ المعركة، مُستعيناً بقُوَّة الآلهة العظيمة، أربابي. لقد عَدَدْتُ 27.280 نسمةً أخذوا كَنَنائِم مع عرَبَاتِهِم، وآلهتهم، التي وثقوا بها. وشكَّلتُ وحدةً من متينين من عرَبَاتِهِم، لقُوَّاتي الملكية، وأعدتُ إحلال الناس في "السامرة" أكثر من ذي قبل. لقد جلبتُ إليها أناساً من البلدان التي فتحتها بيدي، وعيَّنتُ مُفوضي كحَاكِم عليهم. واعتبرتُهُم كأشوريين.

#### الجدول 5 الملوك الإسرائيليين من ياهو وحتى هوشع

الملك	التواريخ	شهادة كتاب المقدس	السجلات الآشورية	الاكتشافات الأثرية
'ياهو'	814 - 842	قائد انقلاباً ضدَّ "العمرتين"، وقضى على أسرتهن؛ أزال بيت عبادة "بعل" في "السامرة"؛ استمرار المُواجهات مع آرام دمشق؛ النبي إيليا	دفع الجزية لـ "شلمانصر" الثالث.	حاصور والشمال بأيدي آرام - دمشق؛ مجدو هجرت؟
'ياهوأحاز'	800 - 817 (**)	هزمت إسرائيل، وحُوصرت "السامرة" من قبل آرام؛ النبي إيليا.		

(\*) طبقاً لقاموس مُستند الكتاب المقدس.

(\*\*) يشتمل على سنوات من التزامن.

حاصور مرة ثانية بيد الإسرائيليين	يدفع الجزية لـ "أدد" نيراري	يهزم الآراميين ، وتستعيد إسرائيل عافيتها ؛ يُهاجم أورشليم .	744 - 800	"يوآش"
ازدهار لا سابقة له في المملكة الشمالية ؛ نشاطات عمرانية واسعة التطاق في حاصور وجازر ومجدو (إسطبلات ونظام شبكات مياه) ؛ ألواح السامرة والقطع العاجية ؛ ختم يحمل اسمه وُجد في مجدو		يهزم دمشق ويوسع حدود المملكة الشمالية لأقصى أتساعها ؛ النيبان "هوشع" و"عاموص"	747 - 788 (**)	"يربعام"
		حكّم ستة أشهر، ثم قتل في انقلاب	744	"زكريا"
		حكّم لمدة شهر واحد، ثم قُتل بانقلاب	744	"شلوم"
	دفع الجزية لـ "تغلات بلاصر" الثالث	دفع الجزية للملك الإمبراطورية الآشورية	737 - 744	"منحيم"
		قُتل في انقلاب	735 - 737	"فقيهاه"

تدمير المُدُن الإسرائيلية في الشمال	أطاح به تغلات بلاصر الثالث؛ تغلات بلاصر يفتح الجليل	حارب ضدَ أحاز ملك يهوذا بالتعاون مع دمشق؛ تغلات بلاصر الثالث يفتح الجليل ووادي يزرعيل	732 - 735	'ققح'
	نصبه تغلات بلاصر الثالث وجعله يدفع الجزية	آخر ملوك إسرائيل؛ شلمانصر الخامس الإمبراطورية الآشورية يحاصر السامرة، يستولي عليها، ويُرحل الإسرائيليين إلى أنحاء الإمبراطورية	724 - 732 (***)	'هوشع'

تزوّدنا رواية سرجون بعدد المُبعدين من "السامرة"، لكن؛ ليس من الواضح في ما إذا كان هذا العدد يتحدث عن سُكّان العاصمة والمناطق المحيطة بها مباشرة، أو عن العدد الكلي المأخوذ من المملكة خلال السنين الماضية. يذكر الكتاب المقدس العبري المناطق التي هُجّر إليها الإسرائيليون، فيقول: [ حَلَحَ وَخَابُورَ نَهْرَ جُوزَانَ وَفِي مُدُنٍ مَادِي. ] (سفر الملوك الثاني 17/6)، لكن المصير النهائي لأغلبهم - قبائل شمال إسرائيل العشرة - بقي مجهولاً، ولم يُعرف أبداً. في البداية؛ لربّما حاول المُبعدون أن يُحافظوا على هويّتهم، بمواصلتهم - مثلاً - لأشكال العبادة الإسرائيلية، أو تسمية أولادهم بأسماء إسرائيلية، لكنهم سرعان ما ذابوا في الدولة الآشورية، وتمّ استيعابهم في الإمبراطورية.

لقد انتهى كلُّ شيء. وصَلَ قرنان عاصفان إلى نهايتهما الكارثية. ضاعت المملكة الشماليّة الفخورة، وضاع جزء هامٌ من سُكّانها في التاريخ.

## المُبْعَدُونَ والباقيون على قَيْد الحياة:

كما فَكَّكَتْ السُّلْطَاتُ الأَشُورِيَّةُ فِي توطِينِ مَوَاقِعَ رَيْسِيَّةٍ فِي الشَّمَالِ مِثْلَ "مَجْدُو" بِرَعَايَا تَابِعِينَ لَهَا مِنْ مَنَاطِقٍ أُخْرَى ، جَلَبَتْ مَجْمُوعَاتٍ سَكَّانِيَّةً جَدِيدَةً ؛ لَتَوَطَّنَهَا فِي قَلْبِ الرُّفُوعَاتِ الإِسْرَائِيلِيَّةِ عَوْضًا عَنِ الإِسْرَائِيلِيِّينَ الَّذِينَ تَمَّ إِبْعَادُهُمْ : [ وَأَتَى مَلِكُ أَشُورَ بِقَوْمٍ مِنْ بَابِلَ وَكُوثَ وَعَوًّا وَحَمَامَةَ وَسَفْرَوَايِمَ ، وَأَسْكَنَهُمْ فِي مَدُنِ السَّامِرَةِ عَوْضًا عَنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَامْتَلَكُوا السَّامِرَةَ ، وَسَكَنُوا فِي مَدْنَهَا . ] (سفر الملوك الثاني 17 / 24) . تَوْشَّرُ بَعْضُ الدَّلَائِلِ وَالْمُؤَشِّرَاتِ التَّارِيخِيَّةِ وَالآثَارِيَّةِ إِلَى أَنَّ تِلْكَ المَجْمُوعَاتِ - الَّتِي جِيءَ بِهَا مِنْ المَنَاطِقِ المُتَمَرِّدَةِ فِي جَنُوبِ بِلَادِ مَا بَيْنَ النَّهْرَيْنِ - تَمَّ تَوَطِينُهَا لَيْسَ فِي "السَّامِرَةِ" فَحَسْبَ ، بَلْ - أَيْضًا - فِي المِنطَقَةِ الإستراتيجِيَّةِ جَدًّا حَوْلَ "بَيْتِ إِيْلَ" ، - مَرْكَزِ العِبَادَةِ الإِسْرَائِيلِيِ القَدِيمِ - عَلَى الحُدُودِ الشَّمَالِيَّةِ لِمَمْلَكَةِ يَهُوذَا ، الَّتِي كَانَتْ مَاتَزَالَ مُسْتَقَلَّةً . يُقَدِّمُ المُرُخُّ التَّوْرَاتِي شَهَادَةً ظَرْفِيَّةً حَوْلَ هَذَا الأَمْرِ بِإِدْرَاجِهِ لـ "عَوِيمَ" Avvim كَأَحَدِ بِلَدَاتِ يَهُوذَا فِي القَرْنِ السَّابِعِ ق . م ، فِي مَنطَقَةِ "بَيْتِ إِيْلَ" (سفر يشوع : 18 / 23) . هَذَا الأَسْمُ يَرْتَبِطُ - اِحْتِمَالًا - بِعَوِيمَ Avva المَذْكُورَةِ كَأَحَدِ الأَمَاكِنِ الأَصْلِيَّةِ لِلْمُبْعَدِينَ . يَذَكِّرُ نَصَّ أَرَامِيٍّ مُبْعَدِينَ تَمَّ إِحْلَالُهُمْ فِي "بَيْتِ إِيْلَ" نَفْسَهَا . بِالإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ ، تَزُودُ بَضْعَةَ نُصُوصٍ مَسْمَارِيَّةٍ مِنَ القَرْنِ السَّابِعِ ، تَحْمَلُ أَسْمَاءَ بَابِلِيَّةٍ ، وَوُجِدَتْ فِي "جَازَزَرَ" وَجَوَارِهَا ، دَلِيلًا مَلْمُوسًا عَلَى حُضُورِ أَوْلَئِكَ المُبْعَدِينَ فِي الأَرْضِ الجَنُوبِيَّةِ الغَرِيبَةِ لإِسْرَائِيلِ المَقْهُورَةِ ، قُرْبَ حُدُودِ يَهُوذَا أَيْضًا .

وَأخِيرًا ؛ اقْتَرَحَ آدَمُ زِيرْتَالُ "Zertal Adam" . مِنْ جَامِعَةِ حَيْفَا - أَنَّهُ رَيْبًا تَكُونُ الأَنْمَاطُ الخَاصَّةُ مِنَ الفَخَّارِيَّاتِ - الَّتِي تَحْمَلُ إِشَارَاتٍ شَبَهَ مَسْمَارِيَّةٍ ، وَالَّتِي وَجِدَتْ فِي بَعْضِ المَوَاقِعِ فِي مَرْتَفَعَاتِ "السَّامِرَةِ" - تَكُونُ عَلَى صِلَةِ وَعِلَاقَةٍ بِتِلْكَ المَجْمُوعَاتِ الَّتِي وَصَلَتْ حَدِيثًا .

وَلَكِنْ تَبَادُلُ السُّكَّانِ كَانِ أَعْبَدَ مَا يَكُونُ عَنْ كَوْنِهِ كَامِلًا وَشَامِلًا ؛ إِذْ يَبْلُغُ العَدَدُ الإِجْمَالِي الَّذِي تُعْطِيهِ المَصَادِرُ الأَشُورِيَّةُ لِلإِبْعَادِينَ - الَّذِي قَامَ بِهِ تَغْلَلَاتُ بِيلاصَّرَ الثَّالِثُ - مِنَ الجَلِيلِ ، ثُمَّ الَّذِي قَامَ بِهِ سَرَجُونُ الثَّانِي "مِنَ السَّامِرَةِ" - حِوَالِي أَرْبَعِينَ أَلْفِ شَخْصٍ . وَهَذَا لَا يَتَعَدَّى - فِي الوَاقِعِ - أَكْثَرَ مِنْ خُمْسِ العَدَدِ المُقَدَّرِ لِسُكَّانِ المَمْلَكَةِ الشَّمَالِيَّةِ غَرْبِ الأُرْدُنِّ فِي القَرْنِ الثَّامِنِ

ق. م. . . يبدو أن تَغَلات بِلَاصِرَ الثالث قد أبعد - بشكّل رئيسي - القرويينَ المُثِيرين للقلالِق في تلال الجليل، وسكّان المراكز الرئيسيّة، مثل مَجْدُو، كما يبدو أن سرجون الثاني قد أبعد - بشكّل رئيسي - الطبقة الأرسطراطية في السّامرة، واحتمالاً: جنوداً وصنّاعاً ماهرين، كانت تحتاجهم الإمبراطوريّة الآشوريّة.

وكتيجة لذلك؛ تُرك أغلب الإسرائيليين - الذي بقوا على قيد الحياة - في أراضيهم. كانت عمليّة الإبعاد في ريف المُرتفعات (التلال) حول مدينة السّامرة، التي حُصّصت لتكون محور المحافظة الآشوريّة الجديدة "سامرنا" Samerina - على ما يبدو - قليلة جداً. كانت لدى الآشوريين أسبابٌ اقتصاديةٌ هامّة تدعوهم لعدم تدمير المنطقة الغنيّة المُنتجة لزيت الزيتون. لقد حطّم الآشوريون في الوديان الشماليّة المراكز الإسرائيليّة الإداريّة، لكنهم تركوا سكّان الأرياف (الذي كانوا - أساساً - فينيقيين، وكنعانيين، وآراميين في تقاليدهم) دون المساس بهم، طالما بقوا مُسلمين ومطيعين، وأدوا حصّتهم من الأتاوات للإمبراطوريّة الآشوريّة. اعترف حتّى الفاتحون الآشوريون المُتوحشون بأنّ الدمار الشّامل والإبعاد الكامل لسكّان أرياف إسرائيل كان يُمكن أن يُدمر الناتج الزراعي لمحافظةهم الجديدة، لذا؛ فضّلوا - كلّما أمكن - الاستقرار والاستمراريّة.

في الحقيقة؛ تُؤكّد الاستطلاعات والتّحقيقات في وادي يزرعيل - الاستمراريّة السكّانيّة المُفاجئة. استمرت حوالي نصف المواقع الرّيفيّة قُرب السّامرة - مأهولةً بالسكّان لعدّة قُرُونٍ لاحقة، بل ربّما تملك إشارة توراتيّة على هذه الحالة السكّانيّة. بعد بضعة سنوات من دمار المملكة الشماليّة؛ احتفل ملك يهوذا "حزقيا" بعيد الفصح في "أورشليم". فقد روي أنّه: [وَأرسلَ حَزَقِيَّا إِلَى جَمِيعِ إِسْرَائِيلَ وَيَهُوذَا، وَكَتَبَ - أَيْضاً - رَسَائِلَ إِلَى أَفْرَايِمَ وَمَنْشَى أَنْ يَأْتُوا إِلَى بَيْتِ الرَّبِّ فِي أُورُشَلِيمَ؛ لِيَعْمَلُوا فِضْحًا لِلرَّبِّ إِلَهِ إِسْرَائِيلَ.] [سفر أخبار الأيام الثاني 30/1]. تُشير "أفرايم" و"منسى" إلى مُرتفعات السّامرة في شمال يهوذا. وإذا كانت هناك شكوكٌ حول تاريخيّة سفرَي أخبار الأيام الأوّل والثاني، فإنّ إرميا يذكر - أيضاً - (في سفره)، بعد حوالي 150 سنة من سقوط المملكة الشماليّة أنّ إسرائيليين من شكيم (نابلس): [وَمَنْ شِلُو، وَمَنْ السّامرة كَمَانينَ رَجُلًا مَحَلُوقِي اللّحَى، وَمُسَقِّعِي الثِّيَابِ، وَمُخَمَّشِينَ، وَيَدَهُم تَقْدَمَةٌ وَكِبَانٌ؛ لِيُدْخِلُوهُمَا إِلَى بَيْتِ الرَّبِّ] [أيّ المعبد في أورشليم] (أرميا 41/5).

إن كون عدد هام من الإسرائيليين بقي يعيش في ريف مُرتفعات السامرة، بما في ذلك المنطقة الجنوبية لـ "بيت إيل"، جنباً إلى جنب السكّان الجُدُد الذين جَلَّهْمُ الآشوريون، يُشكّل واقعاً سيكون له دورٌ رئيسيٌ يلعبه في سياسة يهوذا الخارجيّة، وفي تطوّر العقيدة التوراتيّة للقرن السابع ق. م. .

### الدُّرسُ القاسي والمُروّع لمملَكَة إسرائيل:

لا يُمكننا -أبداً- أن نعرف مدى ثقة التّقاليد، أو النُّصوص، أو الأرشيفات التي استخدمها مؤلّفو الكتاب المقدّس العبريّ لجمّع تاريخهم حول مملَكَة إسرائيل. لم يكن هدْفهم إنتاج تاريخ موضوعي للمملَكَة الشماليّة، بل كان -بالأحرى- إعطاء تفسير لاهوتي لتاريخ كان معروفاً أصلاً -احتمالاً- على الأقلّ- في تفاصيله الواسعة. أيّاً كان ما ربّما قالته الأساطير الشعبيّة حول كلِّ قرْدٍ من ملوك إسرائيل، أذان الكتاب المقدّس كلُّ واحدٍ منهم إدانة واضحة. لم تستحقّ فترة حُكم كلِّ واحدٍ منهم أكثر من بضعة كلمات مُلخّصة: هذا أو ذاك الملك: [ . . . ] . وعَمَلُ الشَّرِّ في عَيْنِي الرَّبِّ، وَسَارَ وَرَاءَ خَطَايَا يَرْبَعَامَ بْنِ نَبَاطَ، الذي جَعَلَ إِسْرَائِيلَ يُخْطِئُ. كَمْ يَحْدُ عَنْهَا. [ . . . ] . ومَا يجدرُ ذكْرُه، أَنَّ بعضَ أولئك الملوك - مثل يَرْبَعَامَ الأوَّلَ - والعُمَرَيِّينَ - أدبنا بعباراتٍ وقصصٍ أفسى، ولكن؛ حتّى أفضل الملوك الشماليين بقوا مُعتَبَرين مُذنبين: لقد أُنِّي على يورام بن آخَابَ، لإزالة مَصِيْبَةِ "Massebah"، أو نصب عبادة بعل، كما مدح "ياهو" لإزالته عبادته كليّاً، لكن؛ في الوقت نفسه، كلاهما أدبنا لسيرة في خطوات "يَرْبَعَامَ بْنِ نَبَاطَ"، حتّى هوشع، الملك الأخير لإسرائيل، الذي حاول - بشكّل متأخّر - أن يُحرر إسرائيل من القبضة الحديديّة للإمبراطوريّة الآشوريّة، أدبنا - بنحو أكثر اعتدالاً، وبشكّل هامشي فقط - بالعبارات التالية: [ وعَمَلُ الشَّرِّ في عَيْنِي الرَّبِّ، ولكن؛ ليس كملوك إسرائيل الذين كانوا قبْلَهُ. ] (سفر الملوك الثاني 17 / 2). لذلك، في بدنه بذكر ذنوب يَرْبَعَامَ، يُقدّم الكتاب المقدّس قصّة إدانة متوقّعة تمّ التنبؤ بها من قبل.

شكّلت فترات الازدهار التي عمّمت بها مملَكَة إسرائيل، والتي ظلّت ذكرها - احتمالاً - لقرُون عديدة، من خلال البقايا الأثريّة التذكاريّة التي ماتزال تُشاهد في المُدن الشماليّة،

شكّلت مشكلة لاهوتية جدية للمراقبين اليهوديين، الذين ألفوا سفرَي الملوك. إذا كانت المملكة الشمالية أئمة إلى هذا الحد، فلماذا لم يُدْهِمَ يَهُوهَ عندما كان يُرْتَعَمُ الأولُ ما يزال في سُدَّةِ الحُكْمِ، أو بعد عهده مباشرة؛ أي في عهد حُكْمِ أُسْرَتِهِ؟ أو على الأقل؛ في عهد حُكْمِ العَمُرِيِّينَ مُحِبِّي الإله بَعْلٌ؟ إذا كانوا حُطَّاءَ آئَمِينَ إلى ذلك الحد؛ فلماذا سَمَحَ لَهُمْ يَهُوهَ بالازدهار؟ لقد وَجَدَ المُوَرِّخُ الشَّنوي طريقة رائعة لتبرير حياة إسرائيل الشمالية لمدَّة قَرْنَيْنِ تقريباً، وذلك باقتراحه أَنَّ الحُكْمَ عليها بالهلاك إنما أَجَلَهُ يَهُوهَ؛ لأنَّه وَجَدَ بعضَ الحسنات حتَّى لدى الملوك الحُطَّاءَ للملكة الشمالية. عندما رأى "مأساة إسرائيل"، لم يستطع أن يُقاوم رغبته في إنقاذها من كوارث عظيمة في عدَّة مناسبات.

لا شكَّ أَنَّ رجال الكهنة والرَّسَمِيِّينَ لمراكز العبادة الشمالية في "دان" وبيت ليل قدَّموا تفسيرات مُتَقَنَّة ومُنَافِسة لمصير المملكة الشمالية في صُعُودِها وسُقُوطِها. إنَّه من الطبيعي أن نفترض أَنَّ هُنَاكَ أنبياءَ شماليين - الذين تَبَيَّنُوا كذِباً كما رُبَّما يكون الكتاب المقدَّس العبري قد قال عنهم - كانوا أقرب للمؤسَّسة الملكية في "السامرة". لم يكن مُمكناً لمثل هذا النوع من المادَّة أن يجد طريقه - احتمالاً - إلى الكتاب المقدَّس كما نعرفه اليوم. ربَّما لو أنَّ إسرائيل بقيت لَكُنَّا حَصَلْنَا على تاريخ مُوازٍ ومُنَافِسٍ ومُخْتَلَفٍ كثيراً لما نقرُّه اليوم، لكنَّ الدمار الآشوري للسامرة وتفكيك مؤسسات سُلْطَنَتِها الملكية أَسْكَتَ أَيَّاماً من مثل تلك التواريخ المُنافِسة. رغم أنَّ الأنبياء والكهنة الشماليين قد انضمُّوا - في الغالب - إلى اللأجئيين، الذين تدفَّقوا إلى مُدُنٍ وبلدات يهودا بحثاً عن ملاذ آمن، إلاَّ أَنَّ التَّاريخ التوراتي - مُنذُ الآن - سيكتبه الفاترون - أو على الأقل؛ الباقون على قَيْد الحياة - وسيتمُّ تصميمه - بشكلٍ خَاصٍّ - طبقاً للعقائد اليهودية الشَّنوية المُتَأخِّرة.

من وجهة نَظَرٍ يهودا في القرن السابع، مع الوعي الكامل للدَّمار الفظيع الذي حلَّ بالمملكة الشمالية، كان معنى تاريخ إسرائيل قد أصبح واضحاً. لقد تمَّ وَصْفُهُ باختصار مُفيد، وبشكلٍ بليغ في قصيدة مدح إسرائيل بعد وَصْفِ سُقُوطِ السامرة. من وجهة نَظَرِ المُوَرِّخِ الشَّنوي، ذروة قصَّة المملكة الشمالية ليست أيام "أخاب"، أو يُرْتَعَمُ الثاني، كما أنَّها ليست نهايتها المأساوية، بل ذروة قصَّتِها هي الخِلاصة التي تُخبرنا عن قصَّة ذُوبِ إسرائيل، وعُقُوبَةِ الله. هذه الذروة اللاهوتية تمَّ إقحامها في مُنتصف المسرحية العظيمة، بيِّن الكارثيين؛ أي



مباشرة بعد وصف احتلال السامرة، وإبعاد الإسرائيليين، وقبل ذكر إعادة توطين الشعوب الأجنبية في أرض إسرائيل:

]] 7 وكان أن بني إسرائيل أخطأوا إلى الرب إلههم، الذي أصعدَهُمْ من أرض مصر من تحت يد فرعون ملك مصر، وأتقوا الهة أخرى، 8 وسلكوا حسب فرائض الأمم الذين طردَهُم الرب من أمام بني إسرائيل وملوك إسرائيل الذين أقاموهُم. 9 وعمل بنو إسرائيل سراً ضد الرب إلههم أموراً ليست بمستقيمة، وبنوا لأنفسهم مرتفعات في جميع مدنهم من بُرج التوأطير إلى المدينة المحصنة. 10 وأقاموا لأنفسهم أنصاباً وسواري على كل تل عال، وتحت كل شجرة خضراء. 11 وأوقدوا هناك على جميع المرتفعات مثل الأمم الذين ساقَهُم الرب من أمامهم، وعملوا أموراً قبيحة لإغاظه الرب. 12 وعبدوا الأصنام التي قال الرب لهم عنها: [ لا تعملوا هذا الأمر. ] 13 وأشهد الرب على إسرائيل وعلى يهوذا عن يد جميع الأنبياء وكل راء قائلًا:

[ ارجعوا عن طرقكم الرديئة، واحفظوا وصاياي فرائضي حسب كل الشريعة التي أوصيت بها آباءكم، والتي أرسلتها إليكم عن يد عبيدي الأنبياء. ] 14 فلم يسمعوا، بل صلبوا أقتيتهم كأفنية آباؤهم الذين لم يؤمنوا بالرب إلههم. 15 ورفضوا فرائضه وعهده الذي قطعهُ مع آباؤهم وشهاداته التي شهد بها عليهم، وساروا وراء الباطل، وصاروا باطلاً وراء الأمم الذين حوكلهم، الذين أمرهم الرب أن لا يعملوا مثلهم. 16 وتركوا جميع وصايا الرب إلههم، وعملوا لأنفسهم مسبوكات عجلى، وعملوا سواري، وسجدوا لجميع جند السماء، وعبدوا البعل. 17 وعبروا بينهم وبناتهم في النار، وعرفوا عرافة وتفاءلوا، وباعوا أنفسهم لعل الشر في عيني الرب لإغاظته. 18 فغضب الرب جداً على إسرائيل، وتناهم من أمامه، وكم يثق إلا سبط يهوذا وحده. 19 ويهوذا أيضاً. كم يحفظوا وصايا الرب إلههم، بل سلكوا في فرائض إسرائيل التي عملوها. 20 فذلل الرب كل نسل إسرائيل، وأذلهم، ودفعهم ليد ناهبين حتى طرحهم من أمامه، 21 لأنه شق إسرائيل عن بيت داود، فملكوا يرعام بن نباط، فأبعد يرعام إسرائيل من وراء الرب، وجعلهم يخطئون خطية عظيمة. 22 وسلك بنو إسرائيل في جميع خطايا يرعام التي عمل. لم يحدوا عنها. 23 حتى نحى الرب إسرائيل من أمامه كما

تَكَلَّمَ عَنْ يَدِ جَمِيعِ عِبِيدِهِ الْأَنْبِيَاءِ ، فَسُبِّي إِسْرَائِيلُ مِنْ أَرْضِهِ إِلَى أَشُورَ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ . || (سفر الملوك الثاني 17 / 7 - 23).

نستطيع اليوم - بالطبع ، بمساعدة التنقيبات والتحقيقات الأثرية ، والدراسات البيئية - أن نرى أن تلك النهاية كانت نهاية حتمية لا يمكن تجنبها . لقد دُمِّرَت إسرائيل ، وقيت يهوذا على قيد الحياة ، لأنه في المخطط الكلي لطموحات الإمبراطورية الآشورية ، كانت إسرائيل - بثرواتها الغنية وبعدهد سكانها المنتج - دولة مُغْرَبَةٌ بَنَحُو لا يُقَارَنُ مع يهوذا الفقيرة التي يصعب الوصول إليها . ومع ذلك ؛ بالنسبة لجمهور المستمعين في يهوذا ، في السنوات المتجهمّة التي تَلَتْ فَتْحَ الإمبراطورية الآشورية لإسرائيل ، الذين أصبحوا يواجهون فيها تهديد إمبراطورية ، واشتباكات أجنبية ، خَدَمَتِ قِصَّةُ إسرائيل في الكتاب المقدس العبري كتلمييح وتحذير لما يُمكن أن يحصل لهم أنفسهم . لقد فَقَدَتِ مَمْلَكَةُ إسرائيل الأقدم ، والتي كانت - يوماً ما - قوِيَّةً جداً ، ميراثها ، رغم أن الله كان قد حَبَّأها بأراضٍ خصبة ، وشعبٍ مُنتِج . والآن ؛ ستلعب مملكة يهوذا دور الأخ الأصغر الأكثر حظوةً عند الله - مثل إسحق ويعقوب والملك داود الذي من نسلهم ودُرِّيْتِهِمْ - الذي سيسعى - بشدة - إلى انتزاع الحق الطبيعي ، وترميم وإعادة أرض إسرائيل وشعبها .

# [ القسم الثالث ]

## يهُودا وصناعة التاريخ التوراتي

## الفصل (9):

### تحولُ يهوذا (930 - 705 ق.م)

مفتاح فهم السبب في قوة عاطفة القصة التاريخية الكبرى التي يرويها الكتاب المقدس العبري، يكمن في إدراك الزمان والمكان الفريديين اللذين ألفت فيهما تلك القصة للمرة الأولى. تقترب قصتنا. الآن. من تلك اللحظة الحساسة في التاريخ الديني والأدبي؛ لأنه بعد سقوط إسرائيل فقط، نمت يهوذا، وتطورت إلى دولة متطورة بالكامل، مع كل مستلزماتها الضرورية من وجود كهنة محترفين، وكثاب مدرّبين قادرين على أن يأخذوا مثل هذه المهمة على عاتقهم. عندما واجهت يهوذا العالم غير الإسرائيلي وحدها فجأة، احتاجت إلى نص تعريفى وتحفيزي. ذلك النص كان اللب التاريخي للكتاب المقدس، الذي أعد في أورشليم (القدس) أثناء القرن السابع ق.م. . . ولأن يهوذا كانت مسقط رأس الكتاب المقدس المركزي لإسرائيل القديمة، لم يكن من المستغرب أن نجد نصوصه تؤكد على منزلة يهوذا الخاصة مراراً وتكراراً من البدايات ذاتها لتاريخ إسرائيل.

نقرأ في سفر التكوين أنه في كهف الكفيلة في حبرون (الخليل). -العاصمة القديمة ليهوذا. دفن الآباء والأمهات العظام المبعدين. ونقرأ أن من بين جميع أبناء يعقوب، كان يهوذا -بالذات، هو- الذي كان قدره أن يحكم على سائر قبائل إسرائيل الأخرى (تكوين 49/8). كان وفاء اليهوديين لأوامر الله فريداً لا نظير له بين المحاربين الإسرائيليين الآخرين؛ وفي وقت غزو واحتلال كنعان، روي أن اليهوديين -فقط- هم الذين استأصلوا -بالكامل- الحضور الكنعاني الوثني من ميراثهم العشائري. ومن بيت لحم -القرية الريفية في يهوذا- خرج داود، أعظم ملك وقائد عسكري لإسرائيل، ليرز على مسرح التاريخ التوراتي. لقد

أصبحت مآثره البطولية التي يرويها الكتاب المقدس العبري وعلاقته الخاصة والوثيقة بالله من المواضيع الدينية الأساسية. في الحقيقة؛ مثل فتح داود لأورشليم (القدس) المشهد النهائي في المسرحية الدرامية لفتح كنعان. لقد تحولت أورشليم (القدس) - الآن - إلى مدينة ملكية، وأصبحت موقع المعبد (الهيكل)، والعاصمة السياسية للأسرة الداودية الحاكمة، ومركزاً مقدساً لشعب إسرائيل عبر الزمن، وإلى الأبد<sup>(1)</sup>.

إلا أنه على الرغم من أهمية يهوذا في الكتاب المقدس العبري، ليس هناك إشارة آثارية حتى القرن الثامن ق. م، على أن منطقة المرتفعات المعزولة والصغيرة تلك، المحاطة بأرض سهلية قاحلة في الشرق والجنوب، كان لها أي أهمية تذكر. كما رأينا، كان عدد سُكَّانها ضئيلاً؛ كما كانت مُدُنُها - حتى أورشليم (القدس) - صغيرة وقليلة العدد. كانت إسرائيل، وليست يهوذا، هي التي بدأت الحروب في المنطقة. كانت إسرائيل، وليست يهوذا، هي التي قادت حركة دبلوماسية وتجارة واسعة النطاق. عندما تنازعت المملكتان، كانت يهوذا - عادة - في موقع الدفاع، وأجبرت على الاتصال مع القوى المجاورة؛ ليهبوا لمساعدتها. ولا يوجد - حتى أواخر القرن الثامن - أي إشارة على أن يهوذا كانت أي شيء أكثر من عامل هامشي في الشؤون الإقليمية. في لحظة صراحة؛ يقبس المؤرخ التوراتي خرافة يُقَالُ فيها من شأن يهوذا؛ ليوصلها إلى منزلة "العوسج الذي في لُبَّان" مقارنةً مع إسرائيل، التي هي "الأرز الذي في لُبَّان" (سفر الملوك الثاني 9/14). في الساحة الدولية، تبدو يهوذا كمملكة صغيرة ومعزولة، كما وصَّهَهَا الفاتح الكبير الملك الأشوري سرجون الثاني بقوله الساخر: "تقع بعيداً جداً".

ولكن؛ ابتداءً من أواخر القرن الثامن ق. م، حَدَثَ شيء استثنائي. غيَّرت سلسلة من التغيرات التاريخية، التي بدأت بسقوط إسرائيل - فجأةً - المشهد السياسي والديني ليهوذا. ازداد عدد سُكَّان يهوذا؛ ليصل إلى مستويات ليس لها نظير في السابق. أصبحت عاصمتها مركزاً دينياً وطنياً وعاصمة إقليمية نشطة لأول مرة. بدأت فيها تجارة مركزة مع الأمم المجاورة. وأخيراً؛ بدأت حركة إصلاح ديني كبيرة - ركزت على العبادة الحصرية ليهوه في هيكل أورشليم

(1) الكلام هنا بيان لما هو مذكور في الكتاب المقدس العبري، حسب طريقة المؤلف، الذي يبدأ - عادةً - بسرِّد موقف الكتاب المقدس، ثم يعقب بتقدُّد ذلك الموقف، بناءً على المكتشفات الأثرية. (الترجم).

(القدس) - بدأت بزراعة فهم جديد ثوري لإله إسرائيل . إن تحليل التطورات التاريخية والاجتماعية في القرنين التاسع والثامن ق . م ، في الشرق الأدنى ، يوضح بعض تلك التغييرات ، ويُقدم علم آثار الفترة المتأخرة من الحكم الملكي في يهوذا دلائل ومؤشرات أكثر أهمية .

ملوك جيّدون وملوك سيئون:

ليس هناك سبب يدعو للشكّ الكبير في ثقة القائمة التوراتية للملوك الداوديين الذين حكموا في اورشليم (القدس) على مدى القرنين اللذين تليا عهد داود وسليمان . يدمج سفر الملوك الأول والثاني تاريخ المملكتين الجنوبية والشمالية - بنحو متشابك - في تاريخ وطني مركّب واحد ، يرجع في كثير من الموارد إلى سجلين ملكيين مفقودين الآن ، يُطلق عليهما اسم : 'سفر أخبار أيام ملوك يهوذا' ، و'سفر أخبار أيام ملوك إسرائيل' . لقد تمّ ربط تواريخ ارتقاء ملوك يهوذا - بنحو محدّد - بتواريخ ارتقاء ملوك إسرائيل ، كما في هذا المقطع التمودجي من سفر الملوك الأول 9/15 ، القائل : [ وفي السنة العشرين ليربعام ملك إسرائيل ملك آسا - على يهوذا . ] . لقد أمكن فحوص نظام التقاطع التاريخي هذا ، والتأكد منه بواسطة مراجع بيانات خارجية حول ملوك إسرائيل ويهوذا الفرديين ، مما أثبت وثوقية واتساق تلك التواريخ - بشكل عام - سوى الحاجة لبضعة تنقيحات زمنية طفيفة لمدد حكم بعض الملوك ، وإضافة فترات تزامن وتشارك محتملة لحكم أكثر من وصي على العرش في وقت واحد (انظر الشكل 3) .

وهكذا نتعلّم أن أحد عشر ملكاً (كلهم من سلالة داود ، عدا واحداً) حكموا في اورشليم (القدس) بين أواخر القرن العاشر ومُنتصف القرن الثامن ق . م . . إن التقرير المتوفّر عن كلّ عهد تقرير موجز ومختصر . ولا يرى - أبداً - ذلك الوصف الإداني الثير الذي نراه في تقديم الكتاب المقدس العبري للملك الشمالي 'يربعام' أو بيت عُصري الوكتيين ، ولكن هذا ليس معناه أن علم اللاهوت لم يلعب دوراً في وصف الكتاب المقدس لتاريخ مملكة يهوذا . كانت عقوبة الله سريعة وواضحة جداً . عندما حكم في اورشليم (القدس) ملوك أشرار خاطئون ، وكانت عبادة الأصنام منتشرة ، فإننا نتعلّم أنهم عوقبوا ، وأن يهوذا تعرّضت لنكسات عسكرية . أمّا عندما حكم في يهوذا ملوك صالحون ، وكان الشعب مخلصاً لإله

إسرائيل؛ فقد ازدهرت المملكة، واتسعت أرضها. خلافاً للمملكة الشمالية، التي وصفت في جميع أنحاء الكتاب المقدس العبري بعبارات سلبية، فإن يهوذا كانت صالحةً عموماً. على الرغم من أن عدد ملوك يهوذا الصالحين مساوٍ تقريباً. لعدد ملوكها الطالحين، إلا أن طول مدة حكمهم ليست متساوية؛ إذ يُعطي الملوك الصالحون أغلب تاريخ المملكة الجنوبية.

وهكذا؛ ومنذ البداية، أي منذ أيام زحبعام، ابن سليمان وخليفته: [عمل يهوذا الشر في عيني الرب . . . ويثأرهما - أيضاً. لأنفسهم مرتفعات وأنصاباً وسواري على كل تل مرتفع . . . وقفلوا حسب كل أرجاس الأمم الذين طردتهم الرب من أمام بني إسرائيل.] (سفر الملوك الأول 14/22 - 24). كان العقاب على هذا الكفر والارتداد سريعاً ومؤلماً. في السنة الخامسة لحكم زحبعام، عام 926 ق.م، زحف فرعون مصر شيشانق Shishak على اورشليم (القدس): [وأخذ خزائن بيت الرب، وخزائن بيت الملك، وأخذ كل شيء. وأخذ جميع أتراس الذهب التي عملها سليمان] (سفر الملوك الأول 14/25 - 26). لم يتعلم أيام بن زحبعام الدرس، بل: [سار في جميع خطايا أبيه التي عملها قبله، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه.] (سفر الملوك الأول 15/3). فاستمر شقاء دولة يهوذا باستمرار صراعاتها المتقطعة مع جيوش مملكة إسرائيل.

تبدلت الأمور نحو الأفضل، أثناء عهد آسا - الذي حكم في اورشليم (القدس) لمدة إحدى وأربعين سنة، ابتداءً من أواخر القرن العاشر. آسا على ما يقال: [عمل آسا ما هو مستقيم في عيني الرب كداود أبيه] (سفر الملوك الأول 15/11). ليس مفاجئاً، إذن، إن اورشليم (القدس) في عهده، أُنقذت من هجوم بَعشَا، ملك إسرائيل. دعا آسا ملك آرام - دمشق لمساعدته، فهاجم حدود إسرائيل الشمالية البعيدة، مما أجبر بَعشَا على سحب قوات احتلاله من الأطراف الشمالية للقدس.

مُدح الملك التالي: 'ياهوشافاط' (أو يوشافاط) - (الملك العبري الأول الذي يحمل اسماً مركباً من اسم محوّر ليهوه هو 'ياهو' + كلمة 'شافاط' العبرية التي تعني قضى أو حكم، ليصبح المعنى: يهوه قضى، أو حكم).، لسيره على طريق أبيه المستقيم آسا. حكم يوشافاط في اورشليم (القدس) لخمس وعشرين سنة في النصف الأول من القرن التاسع

ق. م، وتوصل إلى سلام مع مملكة إسرائيل، وانضم إليها في عملياتها الهجومية الناجحة ضد آرام وموآب.

واجهت مملكة يهوذا تقلبات متعددة خلال القرون التالية؛ حيث وصلت لأدنى مستوياتها عندما تزوج يورام بن يوشافاط من العائلة الشريرة لأخاب وإيزابيل. ونتج عن ذلك البلاء المتوقع: انتفضت أدوم (التي كانت منذ مدة طويلة تابعة ليهوذا) ثائرة على يهوذا، وأقعدت يهوذا أراضي زراعية غنية، لصالح الفلسطينيين، في غرب منطقة شغلة. وكان الأمر الأكثر خطورة هو التبعات الدائمة لسقوط العمريين، الذي هز القصر الملكي في أورشليم (القدس). لقد قُتل أحازيا - بن يورام وابن الأميرة العمرية - عثليا. أثناء انقلاب ياهو. ولدى سماع عثليا في أورشليم (القدس)، أخبار مقتل ابنها وكل أقرانها على يدي ياهو، طلبت تصفية كل الورثة الملكيين لبيت داود، واستولت على العرش بنفسها. لمدة ست سنوات؛ كان أحد كهنة الهيكل (المعبد) المسمى يهواداع يُراقب الأوضاع، وينتظر. وعندما حان الوقت، أعلن أن أحد وارثي عرش داود كان قد نجح من مجزرة عثليا، إنه يواش بن أحازيا من زوجته الأخرى. مع مسح يواش بالدهن المقدس كملك داودي شرعي، تم ذبح عثليا. وهكذا انتهت فترة تأثير المملكة الشمالية العمرية في المملكة الجنوبية، والتي عُبد أثناءها الإله بعل في أورشليم (القدس). انتهت نهاية دموية. (سفر الملوك الثاني 18/11).

حكم يواش في أورشليم (القدس) لأربعين سنة: [ وعمل يهوآش ما هو مستقيم في عيني الرب كل أيامه. ] (سفر الملوك الثاني 2/12). كان أهم أعماله ترميم وتجديد المعبد (الهيكل). في عهده هدّد حزائيل ملك آرام - دمشق، أورشليم (القدس)؛ ولم يترك المدينة بسلام إلا بعد مطالبته وتحصيله ضرائب وأموالاً باهظة من ملك يهوذا<sup>(1)</sup>، ولكن هذا لم يكن بفضاعة الدمار الذي نشره حزائيل في المملكة الشمالية.

(1) ونص العبارة كما جاءت في سفر الملوك الثاني: [ فَاخَذَ يَهُوآشُ مَلِكُ يَهُوذا جَمِيعَ الأَفْئِدَاسِ الَّتِي قَدَسَّهَا يَهُوْشَافَاطُ وَيَهُوْرَامُ وَأَخْرَجَهَا مِنْ أَيْدِي مَلِكِ يَهُوذا، وَأَفْئِدَاسُهُ وَكُلُّ النَّعَبِ الّـمَوْجُودِ فِي خَزَائِنِ بَيْتِ الرَّبِّ وَبَيْتِ الْمَلِكِ، وَأَرَسَسَهَا إِلَى خَزَائِلِ مَلِكِ أَرَامَ قَصْعَةً عَنْ أُورُشَلِيمَ. 19 وَبَقِيَ أُمُورُ يَهُوآشَ وَكُلُّ مَا عَمَلَ مَكْتُوبَةٌ فِي سَفَرِ أَخْبَارِ الأَيَّامِ لِمَلِكِ يَهُوذا. ] (سفر الملوك الثاني 18/12).



واستمرَّ تَقَلُّبُ الْحُكْمِ فِي يَهُودَا، بَيْنَ الْمُلُوكِ الصَّالِحِينَ وَالْمُلُوكِ السَّيِّئِينَ - وأحياناً؛ اختلفا مع بعضهما بالوقت نفسه . . جاء "أَمْصِيَا" الملك المُستقيم الصَّالِح: [ وَعَمَلٌ مَا هُوَ مُسْتَقِيمٌ فِي عَيْتِي الرَّبِّ، وَلَكِنْ؛ لَيْسَ كَذَاوَدُ أَبِيهِ . . ] (سفر المُلُوك الثاني 3/14)، وشَنَّ حرباً ناجحةً ضدَّ أدوم، لكنَّهُ هُزِمَ وَأُسْرِمَن قِبَل جِيُوش مَمْلَكَةِ إِسْرَائِيلِ الشَّمَالِيَّةِ، الَّتِي غَزَتْ أَرْضَ يَهُودَا وَحَطَمَتْ أَسْوَارَ أُورُشَلِيمَ (الْقُدْس). وَهَكَذَا اسْتَمَرَّتِ الْقِصَّةُ، خِلَالَ عَهْدِ "عَزْرِيَا" الْمُسْتَقِيمِ (المعروف - أيضاً - باسم عَزْبَا)، الَّذِي وَسَّعَ حُدُودَ يَهُودَا فِي الْجَنُوبِ، وَابْنَهُ 'يُوتَام' .

وتبدَّلتِ الْأُمُورُ نَحْوَ الْأَسْوَأِ - بِشَكْلِ مُفَاجِئٍ وَمُتَّيِّرٍ - عِنْدَ مَوْتِ 'يُوتَام' وَتَوِيحِ 'أَحَاز' (727 ق.م). لَقَدْ أُدِين 'أَحَاز' بِقِسْوَةِ اسْتِثْنَائِيَّةٍ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، ذَهَبَتْ أَعْيُنُ مَنْ وَصَفَهُ بِالْكُفْرِ وَالْإِرْتِدَادِ الْعَادِيِّ :

[ وَكَلِمٌ يَعْمَلُ الْمُسْتَقِيمَ فِي عَيْتِي الرَّبِّ إِلَهُهِ كَذَاوَدُ أَبِيهِ، 3 بَلْ سَارَ فِي طَرِيقِ مُلُوكِ إِسْرَائِيلَ حَتَّى إِنَّهُ أَحَازَ ابْنَهُ فِي النَّارِ (أَيِ أَحْرَقَهُ حَتَّى الْمَوْتَ بِالنَّارِ) حَسَبَ أَرْجَاسِ الْأُمَمِ الَّذِينَ طَرَدَهُمُ الرَّبُّ مِنْ أَمَامِ بَنِي إِسْرَائِيلَ . 4 وَدَبَّحَ وَأَوْقَدَ لِلأَوْتَانِ عَلَى الْمُرْتَفَعَاتِ وَعَلَى التَّلَالِ وَتَحْتِ كُلِّ شَجَرَةٍ خَضْرَاءَ . ] (سفر المُلُوك الثاني 2/16 - 4).

وَكَانَتِ النَّتِيجَةُ كَارِثِيَّةً . أَخَذَ الْأَدُومِيُّونَ الْمُتَمَلِّمِلُونَ إِيْلَاتَ عَلَى خَلِيجِ الْعَقَبَةِ، وَدَخَلَ رَصِينَ - مَلِكُ دِمَشْقِ الْقَوِيِّ، وَحَلِيفُهُ 'فَقْح'، مَلِكُ إِسْرَائِيلِ، فِي حَرْبٍ ضِدَّ يَهُودَا، وَحَاصِرَا أُورُشَلِيمَ (الْقُدْس). وَلَمَّا رَأَى الْمَلِكُ 'أَحَاز' أَنَّ لَظْهَرَ لَهُ وَلَا مُعِينَ، نَاشَدَ تَغْلَاتَ بِيْلَاصَّرَ الثَّالِثَ، مَلِكَ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ الْأَشُورِيَّةِ، لِمُسَاعَدَتِهِ، وَاعْدَأَ إِيَّاهُ فِي الْمَقَابِلِ بِهَدَايَا مِنَ الْهَيْكَلِ (المعبد): [ فَسَمِعَ لَهُ مَلِكُ أَشُورَ، وَصَعَدَ مَلِكُ أَشُورَ إِلَى دِمَشْقَ، وَأَخَذَهَا، وَسَبَّأَهَا إِلَى قَيْرَ، وَكَتَلَ رَصِينَ . ] (سفر المُلُوك الثاني 9/16). وَتَجَّتْ 'يَهُودَا' - مُوقَّتاً، عَلَى الْأَقْل - بِهَذِهِ الْحَيْلَةِ الذَّكِيَّةِ الَّتِي قَامَ بِهَا مَلِكُ فَاسِقٍ، سَمَحَ لِنَفْسِهِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِالْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ الْأَشُورِيَّةِ الْعَظِيمَةِ .

لَكِنْ الْوَقْتُ كَانَ قَدْ حَانَ لِتَغْيِيرِ دِينِي بَعِيدِ الْمَدَى . كَانَ الدَّوْرَانُ فِي الْحَلْفَةِ الْمُرْغَةِ لِلْكُفْرِ وَالْإِرْتِدَادِ، ثُمَّ الْعِقَابِ وَالتَّوْبَةِ عَلَى وَشِكِّ أَنْ يُكْسَرَ . بَدَأَ 'أَحَازُ بْنُ حَزَقِيَا'، الَّذِي حَكَّمَ أُورُشَلِيمَ (الْقُدْس) تِسْعًا وَعَشْرِينَ سَنَةً، حَمَلَةَ إِصْلَاحِ دِينِي شَامِلٍ، لِتُعِيدَ التَّقَاوَةَ الْإِخْلَاصَ وَالطَّاعَةَ لِيَهْوَاهُ، الَّتِي قَدَّمَتْ مِنْذُ أَيَّامِ الْمَلِكِ دَاوُدَ . إِحْدَى أَقْوَى مِظَاهِرِ الْعِبَادَةِ الَّتِي كَانَ

يُمارسها أهالي الأرياف في ريف يهوذا، كان شعبية الأماكن العالية - أو مذابح الهواء الطلق - التي نادراً ما تجرأ أحد على المساس بها، حتى أكثر ملوك يهوذا استقامة. كتحليقة ختامية متكررة يذكر الكتاب المقدس صيغةً يُلخَّصُ بها أفعال كلِّ ملك عادل فيقول: (لم تُهْدمِ المرتفعات، بل ظلَّ الشعبُ يذْهبونَ عَلَيْهَا وَيُوقِدُونَ.)، لكنَّ "حَرْقِيًا" كان الأوَّل في إزالة تلك المرتفعات، بالإضافة إلى الأنصاب الأخرى للعبادة الوثنية:

[[3]] وَعَمَلَ الْمُسْتَقِيمَ فِي عَيْنِي الرَّبُّ حَسَبَ كُلِّ مَا عَمَلَ دَاوُدُ أَبُوهُ. 4 هُوَ أَزَالَ الْمُرْتَفَعَاتِ، وَكَسَرَ التَّمَائِيلَ، وَقَطَعَ السُّوَارِيَ، وَسَحَقَ حَيَّةَ النَّحَّاسِ الَّتِي عَمَلَهَا مُوسَى؛ لِأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا إِلَى تِلْكَ الْأَيَّامِ يُوقِدُونَ لَهَا، 5 وَدَعَوْهَا [نَحْشَتَان]. 6 عَلَى الرَّبِّ إِلَهِ إِسْرَائِيلَ أَتُكَلَّمُ، وَيَعْدُهُ لَمْ يَكُنْ مِثْلَهُ فِي جَمِيعِ مَلُوكِ يَهُوذَا، وَلَا فِي الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَهُ. 6 وَالتَّصَقَّ بِالرَّبِّ، وَكَمْ يَحْدُ عَنَّهُ، بَلْ حَفِظَ وَصَايَاهُ الَّتِي أَمَرَ بِهَا الرَّبُّ مُوسَى. 7 وَكَانَ الرَّبُّ مَعَهُ، وَحَيْثُمَا كَانَ يَخْرُجُ كَانَ يَنْجَحُ. [[ (سفر الملوك الثاني 18/3-7).

ولذلك؛ فإن الصورة التي يُقدِّمها الكتاب المقدس لتاريخ يهوذا واضحة لا تترك إبهاماً في أن المملكة كانت فعلاً، يوماً ما، مقدسة جداً، لكنها ابتعدت عن إيمانها أحياناً. وصلَّ "حَرْقِيًا" للحكم؛ هو - فقط - مكنَّ يهوذا من استعادة قداستها.

أما علم الآثار؛ فإنه يقترح وضعاً مختلفاً تماماً - وضع كان فيه العصر الذهبي للإخلاص القبائلي والداودي ليهوه مثلاً دينياً مثالياً متأخراً، وليس حقيقة تاريخية.. وبدلاً من إعادة إحياء الدين، يقترح الدليل الآثاري بأن الملكية المركزية والدين الوطني الذي تركَّز في أورشليم (المقدس) إنما أخذ قُرُوناً ليتطوَّر ويتبلور، وكان جديداً تماماً في عهد "حَرْقِيًا". لم تكن وثنية شعب يهوذا ابتعاداً عن توحيدهم الأصلي السابق، بل كانت - بدلاً من ذلك - نفس طريقة العبادة التي كان يُمارسها شعب يهوذا منذ مئات السنين.

الوجه المخفي ليهوذا القديمة:

إلى بضع سنوات سابقة؛ اعتقد كلُّ علماء آثار الكتاب المقدس - عملياً - بالمعنى الحقيقي للوصف الديني للدولتين الشقيقتين "يهوذا" و"إسرائيل". فقد صوروا يهوذا كدولة متطورة

بشكل كامل منذ عهد مبكر بقدّم عهد سُلَيْمَانَ ، وحاولوا - بكلّ ما استطاعوا من قُوّة - أن يُقدّموا براهين آثاريّة على النشاطات العمرانيّة والإدارة الإقليميّة الفعّالة للملوك يهوذا الأوائيل . ولكن ؛ كما بيّنا ، لم يكن الدليل الآثاري المُفترض على الحُكْم الملكي المُتحد أكثر من مُجرّد أُمْنِيّات ذهنيّة . وكذلك الشّان بالنّسبة للأبنية الآثاريّة التي نُسبت لخلفاء سُلَيْمَانَ . لقد كتبت أنّ تهديد هويّة الحُصُون التي قيل إنّ "رَحْبِعام بن سُلَيْمَانَ" بناها في كافّة أنحاء يهوذا (طبقاً لسفر أخبار الأيّام الثاني 11/ 5-12) وربط التّحصينات المُكثّفة في موقع "تلّ النّصبّة" شمال أُورشليم (القدّس) بالأعمال الدّفاعيّة التي قام بها الملك اليهوديّ "أسا" في مدينة "المصنفاة" التّوراتيّة (سفر الملوك الأوّل 22/ 15) . كتبت أنّ كلّ ذلك كان وهماً خادعاً . تماماً مثل بوابات سُلَيْمَانَ وقُصُوره ، لقد كتبت - اليوم - أنّ عمليّات البناء الملكيّة إنّما حدّثت بعد متّي عام تقريباً من حُكْم أولئك الملوك المعيّنين .

يُظهِر علم الآثار أنّ الملوك الأوائيل ليهوذا لم يكونوا مُساوين لظُررائهم الشماليّين في الحُكْم ، أو في القُدرة الإداريّة ، على الرّغم من حقيقة أنّ فترات حُكْمهم والتّواريخ المُتساوية لاعتلائهم العرش مُتشابهة في سفرَي الملوك . كانت إسرائيل ويهوذا عالمين مُختلفين . باستثناء مدينة "لخيش" في تلال "شغلّة" ، ليس هناك - احتمالاً - أيّ علامات على وُجُود مراكز إقليميّة مُتطوّرة في يهوذا بمُستوى المواقع الشماليّة لـ "جازر" ، و"مجدو" ، و"حاصور" . وكذلك ، كان تخطيط المُدن وهندستها العماريّة في يهوذا أكثر بساطة بكثير . لم تظهر تقنيّات الأبنية التذكاريّة - مثل استخدام الأحجار المنحوتة في البناء ، أو استخدام رُؤوس العواميد الصّخريّة من النّمط العولسي - الأوّلَي اللّذَين مثلاً النّمط التّقليدي لأُسلوب البناء "العُمري" المُتطوّر في المملَكَة الشماليّة - في الجنوب قبل القرن السّابع ق . م . . . وحتىّ إذا كانت الأبنية الملكيّة لبيت داود في أُورشليم (القدّس) (الذي افترض أنّهُ نُمّت إزالتها بواسطة البنايات اللّاحقة التي قامت مكانها) قد أُجزت بنحو مُثير للإعجاب ، إنّ لم يكن عظيماً ، إلّا أنّه ليس هناك دليل على وُجُود أبنية ونُصب كبيرة تذكاريّة في أيّ مكان آخر في البلدات والقرى القليلة في التلال الجنوبيّة .

الجدول 6 ملوك يهوذا من رُبعام إلى آحاز

الملك	التواريخ <sup>(*)</sup>	تقييم الكتاب المقدس	شهادة الكتاب المقدس	شهادة من خارج الكتاب المقدس
'زُبعام'	931 - 914 ق. م	سَيِّئ	أوّل ملك ليهوذا؛ يقوم بتحسينات للمُدُن	حَمَلَة شيشانق
'أبيّام'	914 - 911 ق. م	سَيِّئ	حارب 'يربعام' في إسرائيل	
'أسا'	911 - 870 ق. م	جَيِّد	طهر يهوذا من الطُّفُوس الوثنيّة الأجنبيّة، حارب 'بعشا' ملك إسرائيل بدعم من ملك دمشق، بنى قلعتين (حصنين) على الحدُود الشماليّة ليهوذا.	
'يوشافاط'	870 - 846 ق. م <sup>(**)</sup>	جَيِّد	حارب الآراميين مع 'أخاب' كما حارب الموابيين مع 'يورام'، زوج ابنه لأميرة 'عُمريّة'.	
'يورام'	851 - 843	سَيِّئ	أدوم تنتفض ضدّ يهوذا	مذكور في نقش وُجد في تلّ دان؟
'أحزيّا'	843 - 842	سَيِّئ	من سلالة العمريّين، يقتل أثناء الانقلاب العسكري لـ 'ياهو' في إسرائيل.	مذكور في نقش وجد في تلّ دان؟

(\*) طبقاً لقاموس: Anchor Bible Dictionary "قاموس مُركّز الكتاب المقدس"، وكتاب: "الجدول الزمني للملوك

إسرائيل ويهوذا، لـ غاليل'.

(\*\*) تشمل على سنوات حكمٍ فيها بنحوُ مشارك ومتزامن كوصي على العرش.

'عَتَلْيَا'	836 . 842	سَعِيٌّ	تقتل كثيراً من أسرة داود الملكِيَّة، ولكنها تُقتل في انقلاب دموي .
'يُوَاشْ'	798 - 836	جَيْدٌ	يُعيد تجديد الهيكل (المعبد)، ينقذ أورشليم (القُدس) من حزائيل، يتقل خلال انقلاب ضده .
'أَمصِيَا'	769 - 798	جَيْدٌ	يهزم أدوم؛ يهاجمه يوآش ملك إسرائيل
'عَزْرِيَا'	733 - 785	جَيْدٌ	يُعزّل في بيت للمصابين بالجزام؛ أيام النبي 'إشعيا' اسمه
'يوتام'	729 - 743	جَيْدٌ	يضغط عليه ملكا إسرائيل وآرام؛ أيام النبي 'إشعيا'
'أحاز'	727 - 743	سَعِيٌّ	يهاجمه ملكا إسرائيل وآرام، يستجد بالملك 'تغلات بيلاصر الثالث'، أيام النبي 'إشعيا' يدفع أتاوة لـ 'تغلات بيلاصر الثالث'؛ يبدأ الازدهار في منطقة المُرْتَفعات في يهوذا .

على الرَّغم من الرَّغم - مُدَّة طويلة - بأن بلاط سَلِيمَانَ الغني كان مسرحاً لرسائل جميلة  
مُزدهرة، وأفكارٍ دينيةٍ وتدوينٍ للتاريخ؛ إلا أننا نفتقر إلى وجود شاهد واحد على انتشار واسع  
للقراءة والكتابة في يهوذا في عهد الحُكْم الملكي المُتقسم . لم يُكتشف - إلى الآن - حتى أثرٌ  
واحدٌ للنشاط الأدبي في يهوذا في القرن العاشر .

في الواقع؛ لا تظهر النقوش التذكارية والأختام الشخصية - وهي العلامات الأساسية  
على وجود دولة مُتطورة بشكل كامل - في يهوذا إلا بعد مئتي سنة من عهد سَلِيمَانَ، في أواخر

القرن الثامن ق. م. . لم تظهر أغلب ال Ostraca "الرقائق الفخاريّة المكتوب عليها"<sup>(1)</sup> المعروفة وأحجار الوزن المكتوب عليها. وهي شواهد أخرى على الأعمال الإداريّة الرُوثينيّة في حفظ السجّلات وتنظيم المعايير القياسيّة للتجارة - إلاّ في القرن السابع فقط . كما أنّه لا يوجد أيّ دليل على إنتاج واسع الانتشار للفخاريّات في ورشات عمل مركزيّة، أو إنتاج صناعي للزيت لأجل تصديره، إلاّ في تلك الفترة المتأخّرة . تُظهر الأرقام المقدّرة لعدد السكّان مدى الفرق الذي كان بين "يهودا" وإسرائيل .

في ضوء النتائج المذكورة، أصبح من الواضح - الآن - أن "يهودا" العصر الحديدي لم تتّسع بأيّ عصر ذهبي مبكّر . لقد حكّم داود وابنه سلّيّمان والأفراد التّالون من السّلالة الدّاوديّة على منطقة ريفيّة هامشيّة معزولة، بدون وجود أيّ علامات على ثراء كبير، أو إدارة مركزيّة . لم تنحدر "يهودا" - فجأة - إلى الضّعف وسوء الحال من فترة ازدهار فريدة، بل على العكس، لقد مرّت بفترة تطوّر تدريجيّ وطويل خلال مئات السنين . كانت أورشليم داود وسلّيّمان واحدة من المراكز الدّينيّة القليلة داخل أرض إسرائيل؛ وبالتأكيد؛ لم يكن مُعترفاً بها - في البداية - كمركز روحيّ لكامل شعب إسرائيل بأجمعه .

حتّى الآن؛ قدّمنا أدلّة سلبية فقط على ما لم تكنه "يهودا" . إلاّ أنّنا نملك صورة عن ما ينبغي أن تكون عليه حالة أورشليم (القدّس) وما يجاورها في عهد داود وسلّيّمان وحلّفائهما الأوائل . تلك الصّورة لم تأت من الكتاب المقدّس، بل أتت من أرشيفات تلّ العمارنة في مصر، في العصر البرونزيّ المتأخّر .

دولة المدينة البعيدة في التّلال:

من بين أكثر من 350 قرصاً مسمارياً من القرن الرابع عشر ق. م، التي اكتشفت في العاصمة المصريّة القديمة أختاتين Akhetaten، والتي أصبحت تلّ العمارنة في عصرنا الحديث،

(1) القطع أو الرقائق الفخاريّة المكتوب عليها: ostraca جمع ostracon: قطع مكسورة من الفخاريّات أو الرقائق الكلسيّة كانت تُستخدم كرقائق للكتابة عليها أو الرّسم أو إجراء حسابات في العصر القديم . استخدمها المصريّون واليونانيّون والعبرانيّون القديّماء، واكتشف عدد كبير منها في شمال فلسطين في عزيت سرتاح وقتلّة عجرود وفي إراد في الجنوب وحول بئر سبع، وغيرها من المواقع، ومنها ما كُتب عليه باللّغة العبريّة القديمة، ومنها باللّغة اليونانيّة . (المترجم نقلًا عن الموسوعة البريطانيّة، وموسوعة إنكارتا الأمريكية).

والتي تضمنت المراسلات بين فرعون مصر ومُلوك الدُول الآسيويَّة والحكَّام ضنبلي الشَّان لكنعان ، تُقدِّم مجموعة من ستَّة أقراص رُويَّة فريدة عن الحُكْم الملكي والإمكانيَّات الاقتصادية في المُرتفعات الجنوبيَّة. أي بالضبط في المكان الذي ظهرت فيه مملكة "يهودا" لاحقاً.. تكشفُ الرِّسائل التي كتَّبها "عَبدي حبا" ، ملك أُورُوساليم (اسم أُورشليم (القُدس) في أواخر العصر البرونزي) ، عن وَصْف لمملكته بأنَّها منطقة مُرتفعة صغيرة مأهولة بالسكَّان بشكل ضنبيل ، يتمُّ الإشراف عليها - بشكل ضعيف ورخو- من الحصن الملكي في أُورشليم (القُدس).

كما نعرف - الآن - من الاستطلاعات ، ومن الاعتراف بالدُّورات المُتكرِّرة للاحتلال على مدى الألف عام ، كان مُجتمع "يهودا" المُتميِّز يتحدَّد - إلى حدِّ كبير - بواسطة موقعها الجغرافي البعيد ، وأمطارها المُقلِّبة . بعكس منطقة المُرتفعات (التلال) الشماليَّة بوديانها الواسعة وطُرُقها البريَّة الطبيعيَّة المؤدية إلى المناطق المُجاورة ، كانت "يهودا" - دائماً - هامشيَّة زراعياً ، ومعزولة عن طُرُق التجارة الرئيسيَّة ، ممَّا يجعلها لا تُقدِّم لأيِّ حاكم مُنتظر إلاَّ فرصة ضئيلة فقط للثروة . لقد تركَّز اقتصادها حول الإنتاج المكثفي ذاتياً لمُجمعات الزراعة القُريَّة ، أو المجموعات الرعيَّة .

وتبرِّزُ صورةً مُماثلة من مُراسلات "عَبدي حبا" . لقد كان يُسيطر على المُرتفعات ، بدءاً من منطقة "بيت إيل" في الشَّمال إلى منطقة "حبرون" (الخليل) في الجنوب - وهي منطقة تَبْلُغ مساحتها حوالي تسعمئة ميل مُربع - . وكان على نِزاع مع الحُكَّام المُجاورين في المُرتفعات الشماليَّة (شكيم) و"شَفلة" . كانت أرضه مأهولة بالسكَّان بشكل مُتناثر جداً ، لم يُكتشَف فيها - حتَّى الآن - إلاَّ ثمان مُستوطنات صغيرة . احتمالاً ؛ لم يتجاوز عدد السكَّان المُقيمين في أرض "عَبدي حبا" ، بَمن في ذلك أولئك الذين يعيشون في أُورشليم (القُدس) ، لم يتجاوز ألف وخمسة نسمة ؛ أيُّ أنَّها كانت أقلُّ المناطق المأهولة بالسكَّان في كنعان ، ولكن ؛ كان هناك العديد من المجموعات الرعيَّة في منطقة المُرتفعات الحُدُوديَّة البعيدة هذه - ربَّما يفوق عددها عدد سكَّان القُرى المُستقرَّة .. ربَّما نستطيع أن نفترض أنَّ السُلطة في تلك الأجزاء النَّائية من أراضي "عَبدي حبا" كانت في أيدي المُجرمين المعروفين بأبيرو ، والشُوصيين شبه البديويين ، والعشائر المُستقلَّة .

كانت أُورُوساليم عاصمة "عَبدي حبا" مَعقل مُرتفعاتٍ صغيراً ، يقع في الحافَّة الجنوبيَّة الشَّرقيَّة للقُدس القديمة ، والتي عُرِفَت - لاحقاً - بمدينة داود . لم تُوجد - هناك - أيُّ بنايات أو

تحصينات تذكارية من القرن الرابع عشر ق. م. ، وكما يقترح المؤرخ "نداف نيمان" ، كانت عاصمة "عبيدي حبا" مستوطنة بسيطة للنخبة ، التي حكمت بضعة قرى زراعية في المنطقة المحيطة ، وعدداً كبيراً من المجموعات الرعوية .

لا نعرف مصير أسرة "عبيدي حبا" ، كما أننا لا نملك أدلة آثارية كافية لفهم التغيرات التي حدثت في أورشليم (القدس) أثناء الانتقال من العصر البرونزي المتأخر إلى العصر الحديدي المبكر . إلا أنه من المنظور البيئي الأوسع ، ونماذج الاستيطان والاقتصاد ، يبدو أنه لا يوجد تغيرٌ مثير حداثً خلال القرون التالية . كانت توجد بضعة قرى زراعية (لا شك أن عددها كان يتزايد بنحو قليل) على الهضبة المركزية ، كما واصلت المجموعات الرعوية تعقب الدورات الموسمية بقطعانها ، ومارست نخبة صغيرة جداً الحكم عليهم جميعاً من أورشليم (القدس) .

لا يمكن أن نقول شيئاً تقريباً عن داود التاريخي ، عدا عن ملاحظة التشابه الغريب بين فرق أيريو الضعيفة التي كانت تهدد "عبيدي حبا" والحكايات التوراتية عن الزعيم الخارج على القانون داود وعصابته من الرجال الأقوياء ، الذين يتجولون في تلال "حبرون" (الخليل) وصحراء "يهودا" ، لكن ؛ سواء فتح داود أورشليم (القدس) في هجوم مشابه لطريقة الأيرو الجرمنية ، كما يصف ذلك سفر صموئيل ، أو لم يفتحها بذلك النحو ، فإنه من الواضح أن السلالة الحاكمة التي أسسها مثلت تغيراً في الحكم ، لكنّها - بالكاد - عدلت الطريقة الأساسية التي كانت تُحكّم بها المرتفعات الجنوبية .

كلُّ هذا يقترح بأن مؤسسات أورشليم (القدس) - الهيكل (المعبد) والقصر - لم تُسيطر على حياة سكان أرياف يهوذا في أي شيءٍ مقارب للمدى الذي تقترحه النصوص التوراتية . كانت الصفة الأبرز والأوضح ليهودا في القرون الأولى من العصر الحديدي هي الاستمرارية ، وليس التجديد الديني والسياسي المفاجئ .

في الحقيقة ؛ يُمكن أن نشاهد هذا الأمر بشكل واضح ، حتى فيما يتعلق بالممارسات الدينية ، التي يبدو المؤرخون المتأخرون كمملكة يهوذا مهوسون بها إلى هذا الحد الكبير .

الدين التقليدي ليهودا :

إن سفرَي الملوك واضحان تماماً في وصفهما للكفر والارتداد ، اللذين جلبا كثيراً من البلاء على مملكة يهوذا . إنه يعرض ذلك في تفصيل نمطي في التقرير الذي يورده عن عهد "رحبام" :



[22] وَعَمَلْ يَهُودَا الشَّرْفِي عَيْنِي الرَّبِّ، وَأَغَارُوهُ أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ مَا عَمَلْ آبَاؤُهُمْ بِخَطَايَاهُمْ  
التي أخطأوا بها. 23 وَيَنُوتُوا هُمْ - أَيْضاً - لِأَنْفُسِهِمْ مُرْتَفَعَاتٍ وَأَنْصَاباً وَسَوَارِيَّ عَلَى كُلِّ تَلٍّ مُرْتَفِعٍ  
وَتَحْتَ كُلِّ شَجَرَةٍ خَضْرَاءَ. 24 وَكَانَ - أَيْضاً - مَابُونُونَ فِي الْأَرْضِ. فَعَلُّوا حَسَبَ كُلِّ أَرْجَاسِ  
الْأُمَمِ الَّذِينَ طَرَدَهُمُ الرَّبُّ مِنْ أَمَامِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. [سفر الملوك الثاني 14/ 22- 24].

وعلى المنوال نفسه؛ بعد حوالي مئتي سنة، في عهد "أحاز"، تبدو طبيعة الذنوب هي  
نفسها جوهريةً. لقد كان "أحاز" ملكاً كافراً رديء السمعة سار في طريق ملوك إسرائيل، حتّى  
إنه قدّم ابنه أضحية في النار... وذبّح وأوقد للأوثان على المرتفعات، وعلى التلال، وتحت  
كُلِّ شَجَرَةٍ خَضْرَاءَ. [سفر الملوك الثاني 16/ 2- 4].

لقد برهن علماء الكتاب المقدس أن تلك لم تكن ممارسات وكنية متعزلة اعتبارية، بل  
كانت جزءاً من طقوس معقدة تهدف لمناشدة القوى السماوية لأجل خصوبة الأرض وتحسّن  
أوضاع الشعب. لقد شابهت - في شكلها الخارجي - الممارسات التي تستخدمها الشعوب  
المجاورة لتبجيل آلهتها، وكسب بركاتهما.

في الواقع؛ تدلّ الاكتشافات الأثرية للتماثيل الطينية ومذابح البخور، وظروف إراقه  
الدم، ونصّب، أو أماكن تقديم القرابين الموجودة في كلِّ أنحاء "يهودا"، أن ممارسة الدين  
كانت تختلف كثيراً من مكان لآخر، وكانت غير مركزية جغرافياً، وبالتأكيد لم تكن منحصرة  
بعبادة يهوه وحده في معبد أورشليم (القدس).

في الحقيقة؛ بالنسبة ليهودا، بيروقراطيتها الرسمية ومؤسساتها الوطنية المتخلّفة نسبياً، كان  
يتم إجراء الطقوس الدينية في نوعين متميزين من الصالات أو الجوّ - أحياناً يتم تقديمها I الهيكل  
(المعبد) في أورشليم (القدس) والذي يوجد بشأنه وصف وافر في الكتاب المقدس العبري في  
فترات زمنية مختلفة، ولكن؛ (بسبب إزالته نهائياً خلال عمليات البناء التالية) لم يعد يوجد عليه  
- في الواقع - أي شاهد أثري. أمّا البويرة الثانية للممارسة الدينية؛ فقد كانت بين العشائر المبعثرة  
في كافة أنحاء الرّيف. لقد سيطرت هنالك شبكة معقدة من علاقات القرابة على كلِّ مراحل  
الحياة بما في ذلك الدين. كان أداء الطقوس لأجل خصوبة الأرض وبركات الأسلاف، يُعطي  
أملاً للشعب بازدهار أسرهم وتقديس ممتلكاتهم من الحقول في القرى وأراضي الرعي.

قارن المورخ التوراتي 'باروخ هالبرن' Baruch Halpern وعالم الآثار 'ثورانس ستاجر' Laurence Stager أوصاف الكتاب المقدس لبناء العشيرة، مع بقايا المستوطنات في منطقة المرتفعات في العصر الحديدي، وميزاً نمطاً معمارياً متميزاً لمجمعات الأسرة الواسعة، التي كان يُمارس سُكَّانها - احتمالاً - طقوساً مختلفة - أحياناً - بنحو كبير عن تلك التي تُمارس في هيكل (معبد) أورشليم (القدس). كانت التقاليد والرُسُوم المحليَّة تُصرَّ على أن أهالي يهوذا ورثوا بيثهم، وأرضهم، وحتى قُبُورهم من الله، ومن أسلافهم. كانت تُقدِّم القرابين في أضرحة ضمن المُجمعات المنزليَّة المحليَّة، وعند مقابر الأسرة، وفي مذابح في الهواء الطلق في كافة أنحاء الرِّيف. لم يتعرض أحد لأماكن العبادة هذه إلا نادراً، حتَّى من قِبَل أكثر الملوك تقوى وعدوانية، لذا؛ لا عجب أن نرى الكتاب المقدس يلاحظ - مراراً وتكراراً - بأنَّ الأماكن العالية لم تتمَّ إزالتها.

إنَّ وجود الأماكن المرتفعة والأشكال الأخرى لعبادة الأسلاف والآلهة الأجنبيَّة لم يكن - كما يعقده سفر الملوك - كُفْراً وارتداداً عن إيمان نقيٍّ سابقٍ؛ إنَّما كان جزءاً من تقليد قديم لسكَّان ريف مرتفعات يهوذا، الذين عبدوا يهوه إلى جانب عدد مختلف من الآلهة الذكور والإناث التي عرفوها أو تبناها من طقوس الشعوب المجاورة، وباختصار؛ عبَدَ يهوه بطرق مختلفة جداً، وصوِّر - أحياناً - مُمتلكاً لحاشية سماوية. نعلم من الدليل غير المباشر (و السلبى بشكل واضح) في سفرَي الملوك أنَّ الكهنة في الرِّيف كانوا يحرقون البخور في المرتفعات للشمس والقمر والنُّجوم بنحو مُنظم.

بما أنَّ الأماكن العالية كانت - من المُتَرض - مناطق مفتوحة، أو قمماً طبيعيَّة للمرتفعات، فإنَّه لم يتمَّ - حتَّى الآن - التعرُّف على أيِّ بقايا أثرية مُحدَّدة لها، لذا؛ فإنَّ الدليل الآثاري الأوضح على شعبيَّة هذا النوع من العبادة في كافة أنحاء المملكة؛ هو اكتشاف مئات التماثيل لآلهة الخصوبة، العارية، في كلِّ موقع من مواقع الأزمنة المتأخِّرة للحُكْم الملكي في يهوذا. والأكثر دلالة على ما تقول هو القُشُوش التي اكتُشِفَت في موقع يعود لأوائل القرن الثامن يُدعى 'قُنْطَلَة عَجْرُود' Kuntillet Ajrud في شمال شرق سيناء، وهو موقع يُظهِر وجود روابط ثقافية مع المملكة الشماليَّة. يبدو أنَّ تلك القُشُوش تُحيل إلى 'الإلهة سارية'، كقَرينة ليهوه. وحتَّى لا يفترض أحد

أَنَّ حَالَةَ يَهُوَهَ الْمُتَزَوِّجِ كَانَتْ مُجَرَّدَ هَلْوَسَةٍ شِمَالِيَّةٍ وَكَيْفِيَّةٍ أَمَّةٍ ، تُظْهِرُ صِغَةً مُمَائِلَةً جَدًّا ، تَتَكَلَّمُ عَنْ يَهُوَهَ وَخَاصَّتَهُ "سَارِيَّة" ، فِي نَفْسِ مَلَكِي مُتَأَخَّرٍ وَجَدَ فِي مَنطِقَةِ "شَمَلَةَ" فِي يَهُوذَا .

ولم يكن طقس العبادة المُتَجَدِّدُ هذا مُقْتَصِرًا عَلَى المَنَاطِقِ الرَّيفِيَّةِ . هُنَاكَ مَعْلُومَاتٌ تَوَارِيثِيَّةٌ وَأَثَارِيَّةٌ كَافِيَةٌ تُبَيِّنُ أَنَّ طَقْسَ العِبَادَةِ "التَّوْفِيقِيَّة"<sup>(1)</sup> Syncretistic لِيَهُوَهَ ، اَزْدَهَرَ فِي أُورُشَلِيمِ (الْقُدْس) حَتَّى فِي الأَوَاقَاتِ المَلَكِيَّةِ المُتَأَخَّرَةِ . إِنَّ [إِدَانَاتِ أُنْبِيَاءِ يَهُودَ وَيُونَنٍ مُتَعَدِّدِينَ تُوضِحُ - تَمَامًا - أَنَّ يَهُوَهَ كَانَ يُعْبَدُ فِي أُورُشَلِيمِ (الْقُدْس) جَنبًا إِلَى جَنبِ آلِهَةٍ أُخْرَى مِثْلَ بَعْلٍ ، وَ"سَارِيَّة" ، وَمُضَيِّفِو السَّمَاءِ ، وَحَتَّى الآلِهَةِ الوَطَنِيَّةِ لِلأَرَاضِي المُجَاوِرَةِ . نَعْلَمُ مِثْلًا مِنْ نَقْدِ الكِتَابِ المُقَدَّسِ العِبْرِيِّ لِسَلِيمَانَ (والذي يَعْكَسُ - اِحْتِمَالًا - حَقَائِقَ مَلَكِيَّةٍ مُتَأَخَّرَةٍ) ، أَنَّهُ كَانَتْ تَسْمُ فِي "يَهُوذَا" عِبَادَةَ الآلِهَةِ "مَلَكُومَ" مِنْ عَمُون ، وَ"كَمْوَش" مِنْ مُوَاب ، وَ"عَشْتُورَثَ" مِنْ صِيدَا (سَفَرِ المُلُوكِ الأَوَّلِ 5/ 11 ؛ سَفَرِ المُلُوكِ الثَّانِي 13/ 23) . بَلْ يُخْبِرُنَا أَرْمِيَا أَنَّهُ : [ بَعْدَ مَدْنِكَ صَارَتْ آلِهَتُكَ يَا يَهُوذَا ، وَبَعْدَ شَوَارِعِ أُورُشَلِيمِ وَضَعْتُمْ مَذَابِحَ لِلخَزْيِ مَذَابِحَ لِلتَّبْخِيرِ لِلبَعْلِ . ] (أَرْمِيَا 13/ 11) .

عِلَاوَةً عَلَى ذَلِكَ ؛ تَمَّ نَصَبُ تَمَاثِيلٍ لِعِبَادَةِ بَعْلٍ ، وَ"سَارِيَّة" ، وَمُضَيِّفِو السَّمَاءِ فِي نَفْسِ مَعْبَدِ يَهُوَهَ فِي أُورُشَلِيمِ (الْقُدْس) . يَصِفُ سَفَرُ حَزَقِيالَ / 8 بِالتَّفْصِيلِ كُلَّ الفِطَاعَةِ الَّتِي كَانَتْ تُمَارَسُ فِي الهَيْكَلِ (المَعْبَدِ) فِي أُورُشَلِيمِ (الْقُدْس) ، بِمَا فِي ذَلِكَ عِبَادَةَ الإِلَهِ بَيْنَ النَّهْرَيْنِ "تَمُوز" .

و هَكَذَا يَجِبُ أَنْ لَا يُنْظَرُ إِلَى الذُّنُوبِ العَظِيمَةِ لِـ "أَحَاز" وَمُلُوكِ يَهُوذَا الأَثْمِينِ الأَخْرِينِ كَحَالَةِ اسْتِنْتَائِيَّةٍ ، بِأَيَّةِ حَالٍ ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا فَعَلَهُ أُولَئِكَ الحُكَّامُ كَانَ أَنَّهُمْ سَمَّحُوا لِلتَّقَالِيدِ الرَّيفِيَّةِ بِالاسْتِمْرَارِ دُونَ عِقَابٍ . لَقَدْ أَظْهَرُوا ، هُمْ وَالعَدِيدُ مِنْ رَعِيَّتِهِمْ ، وَلاَهُمُ الأَسَاسِي لِيَهُوَهَ فِي مَنَاسِكِهِمُ الَّتِي كَانُوا يُؤَدُّونَهَا فِي القُبُورِ الَّتِي لَا تُحْصَى ، وَفِي المَقَامَاتِ المُقَدَّسَةِ ، وَفِي المُرْتَفَعَاتِ فِي كَافَةِ أَنْحَاءِ المَمْلَكَةِ ، جَنبًا إِلَى جَنبِ العِبَادَةِ العَرَضِيَّةِ وَالتَّانُوِيَّةِ لِلآلِهَةِ الأُخْرَى .

بُلُوغُ مُفَاجِئٌ لِعَصْرِ الرُّشْدِ وَالكَمَالِ :

خِلَالَ أَغْلِبِ المُنْتَهَى سَنَةِ مِنَ الحُكْمِ المَلَكِي المُتَقَسِّمِ ، بَقِيَتْ "يَهُوذَا" فِي الظُّلِّ . طَاقَتِهَا الإِقْتِصَادِيَّةُ المُحَدُودَةُ ، وَعِزَّتُهَا الجُغْرَافِيَّةُ النَّسْبِيَّةُ ، وَالمُحَافَظَةُ المُتَعَصِّبَةُ لِلتَّقَالِيدِ ، لَدَى عِشَانِهَا ،

(1) التَّوْفِيقِيَّةُ : حَرَكَةٌ وَجهدٌ لِلتَّوْفِيقِ بَيْنَ المُعْتَقَدَاتِ الدِّيْنِيَّةِ المُتَعَارِضَةِ . (المُتَرَجِمُ نَقْلًا عَنِ قَامُوسِ المَوْرِدِ) .

جعلتها أقل جاذبية بكثير للاستغلال الإمبريالي (التوسعي) من قبل الإمبراطورية الآشورية، من مملكة إسرائيل الأغنى والأوسع، ولكن؛ مع صعود الملك الآشوري تغلات بيلاصر الثالث وتصميم آحاز أن يصبح تابعاً له، دخلت يهوذا في لعة ذات نتائج عظيمة. بعد عام 720 ق. م، وفتح السامرة وسقوط إسرائيل، أصبحت يهوذا محاطة إما بولايات آشورية، أو دول تابعة للإمبراطورية الآشورية. وكان لهذا الوضع الجديد آثاراً على مستقبلها، لا يمكن تصور وسعتها. لقد تحولت العاصمة الملكية أورشليم من مركز أسرة مالكة محلية لا يؤبه لها، إلى المركز العصبي السياسي والديني لقوة إقليمية، بسبب التطورات الداخلية الفجائية الحادة، وبسبب هروب آلاف اللاجئين من مملكة إسرائيل المحتلة إلى الجنوب.

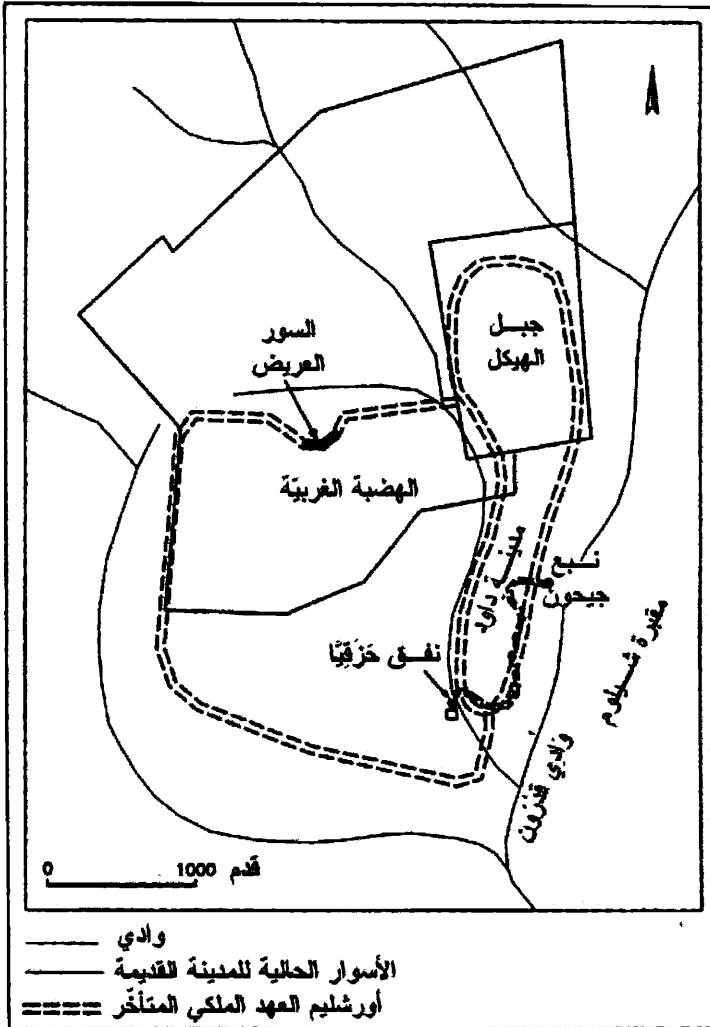
هنا؛ قدم علم الآثار خدمة عظيمة لا تُقدَّر بثمن في رسم مخطط لسرعة ومقياس ذلك التوسع المفاجئ لأورشليم (القدس). كما اقترح - لأول مرة - عالم الآثار الإسرائيلي ماجن بروشي - أظهرت التنقيبات التي أجريت هناك في العقود الأخيرة أن أورشليم (القدس) مرت فجأة، في نهاية القرن الثامن ق. م، بانفجار سُكاني لم يسبق له مثيل، توسعت - خلاله - المناطق السكنية، من حافتها الضيقة السابقة - مدينة داود - لتغطي كامل التل (شكل 26). وتم بناء سورٍ دفاعي رائع يضم داخله الضواحي الجديدة للمدينة.

خلال بضعة عقود - وبالتأكيد؛ خلال جيل واحد - تحولت أورشليم من مدينة مرتفعات متواضعة لا تزيد مساحتها عن 10 إلى 12 هكتاراً إلى منطقة حضرية ضخمة تبلغ مساحتها 150 هكتاراً من البيوت المكتظة المتلاصقة وورشات العمل والأبنية العامة.

ومن الناحية الديموغرافية (السكانية) ربما يكون عدد سُكَّان المدينة قد تضاعف خمس عشرة ضعفاً؛ أي قفز من حوالي ألف نسمة فقط إلى خمسة عشر ألف نسمة.

تُظهر الاستطلاعات الأثرية - التي تمت في المنطقة الزراعية الداخلية لأورشليم - صورةً مماثلة للنمو السكاني الهائل. لم تُبنَ العديد من المزارع ومبانيها الملحقة في هذا الوقت في الضواحي المباشرة للمدينة فحسب، بل امتلأت الأحياء الجنوبية للعاصمة، والمنطقة الريفية المجاورة التي كانت من قبل خالية نسبياً، بالمستوطنات الزراعية الجديدة الكبيرة والصغيرة. نمت القرى القديمة التي كانت في حالة سبات، في حجمها، وأصبحت - لأول مرة - بلدات

حقيقتاً. في "شملة" أيضاً، جاءت القفزة الكبيرة إلى الأمام في القرن الثامن، بنمو مفاجئ في عدد المذن وحجمها.



الشكل 26: توسع أورشليم (القدس) من مدينة داود نحو الهضبة الغربية.

تُروَدنا 'لخيش'، المدينة الأكثر أهمية في المنطقة، بمثال جيد. حتى القرن الثامن كانت مجردة بلدة بسيطة؛ ثم تَمَّت إحاطتها بسور رائع كبير، وتحوّلت إلى مركز إداري رئيسي. على النمط نفسه؛ شهد وادي بئر سبع في أقصى الجنوب تأسيس عدد من البلدات الجديدة في أواخر القرن الثامن. في الكل، كان التوسُّع مدهشاً؛ في أواخر القرن الثامن كان هناك حوالي ثلاثمئة مستوطنة من كلِّ الأحجام في يهوذا، بدءاً من العاصمة الإقليمية أُورشليم (القدس)، وانتهاءً بالمزارع الصغيرة؛ حيث كانت تُوجد قديماً بضعة قرى وبلدات صغيرة بسيطة. عدد السكّان الذي كان يحوم لمُدَّة طويلة حول بضعة عشرات الآلاف، نما الآن الـ 120.000.

في أعقاب حملات الإمبراطورية الآشورية في الشمال، لم تعد يهوذا تواجه نمواً سكانيّاً مُجاثماً فحسب، ولكنها مرّت أيضاً بتطور اجتماعي حقيقي. وباختصار؛ أصبحت دُول تامّة. ظهرت دلائل آثارية تدلُّ على تشكُّل دولة ناضجة في المملكة الجنوبية بدءاً من أواخر القرن الثامن: النقوش التذكارية، الأختام، وطبعات الختم، والرفاق الفخارية، أو الكلسية للإدارة الملكية؛ الاستعمال المتقطع في البناء للحجر المنحوت، وللصخور كرؤوس للعواميد في البناء العامة؛ الإنتاج المكثف أو الغزير للأواني الفخارية والمصنوعات الأخرى في الورشات المركزية، وتوزيعها في كافة أنحاء الريف. ولا يقلُّ أهمية عما سبقَ ظهور بلدات متوسطة الحجم تعمل كعواصم إقليمية، وتطوّر صناعات عصر الزيت والخمر على نطاق واسع، انتقل من إنتاج محليّ خاص إلى مستوى الصناعة الحكومية.

تفيد شواهد عادات الدفن الجديدة - والتي أغلبها وليس كلها في أُورشليم (القدس) - أنّ هناك نُخبة وطيبة برزت في هذه الفترة. بدأ بعض سكّان أُورشليم (القدس)، في القرن الثامن، يقطع وحفر قبور متطورة في صخور الحافات المحيطة بالمدينة. كان الكثير من تلك القبور متفتحة جداً ومزيناً بسقوف جملونية، وعناصر معمارية؛ مثل الكورنيشات والأهرامات المرفوعة المحفورة بمهارة في الفرس الصخري. لا شك أنّ تلك القبور كانت تُستخدم لدفن النبلاء والموظفين الحكوميين رفيعي المستوى، كما يُشير إليه نقشٌ مُجزأٌ وجدَّ على أحد تلك القبور في قرية 'سيلوم' من توابع أُورشليم (القدس) (شرق مدينة داود)، حُصصَ لـ... ياهو المسؤول عن البيت. ليس مستبعداً أن يكون هذا هو نفس قبر 'شبتا' (الذي ربما يكون اسمه ركب مع اسم الإله ليصبح شبتاياهو)، المضيف الملكي الذي يدينه إشعيا (16-15/22) لتكبُّره في شقِّ القبر في

الصخر. تُوجد القبور المثقنة. أيضاً. في بضعة أماكن في "شَفَلَة"، في إشارة إلى التراكم المفاجئ للثروة، والتماثل في المركز الاجتماعي في أورشليم (القدس) وفي الرّيف في القرن الثامن.

والسؤال هو: من أين جاءت هذه الثروة والحركة الظاهرة نحو تشكيل دولة كاملة؟ الاستنتاج الذي لا مفر منه أن يهوذا تعاونت. فجأة. لا، بل دمّجت اقتصادها باقتصاد الإمبراطورية الآشورية. وعلى الرغم من أن الملك آحاز، عاهل يهوذا، بدأ بالتعاون مع الإمبراطورية الآشورية حتى قبل سقوط السامرة، إلا أن التغييرات الأكثر أهمية إنما حصلت بلا شك. بعد انهيار إسرائيل. قد يُشير النُموُّ المفاجئ للمستوطنات بعيداً إلى الجنوب في وادي يثر سبع إلى أن مملكة يهوذا شاركت في تقوية التجارة العربيّة في أواخر القرن الثامن تحت الهيمنة الآشورية. هناك سبب جيّد للاعتقاد بأن أسواقاً جديدةً فتحت أمام السلع اليهوديّة، مُحفزة الإنتاج المكثف لزيت الزيتون والخمر.

وكتيجة لما سبق؛ مرّت يهوذا بثورة اقتصادية، انتقلت فيها من نظام تقليدي يركز على القرية والعشيرة إلى تربية المحاصيل وتصنيعها تحت مركزية الدولة. بدأت الثروة تتجمّع في يهوذا، خصوصاً في أورشليم (القدس)؛ حيثُ كان يتمُّ تحديد السياسات الدبلوماسية والاقتصادية للمملكة؛ وحيثُ كانت تتمُّ السيطرة والتحكّم في مؤسسات الأمة.

ولادة دين وطني جديد:

جنباً إلى جنب؛ التحوّل الاجتماعي الاستثنائي في أواخر القرن الثامن ق. م، حصل كفاح ديني حاد، له ارتباط مباشر بظهور الكتاب المقدس العبري كما نعرفه اليوم. قبل تبلور مملكة يهوذا كدولة ذات نظام إداري كامل؛ كانت الأفكار الدينيّة متفرّقة ومتنوعة. فكما ذكرنا؛ كانت هناك الطقوس الملكيّة في هيكل (معبد) أورشليم (القدس)، كما كانت هناك طقوس لا حصر لها لعبادة الأسلاف وآلهة الحُصوبة في الرّيف، وكان هناك إشراك واسع الانتشار لعبادة يهوه مع عبادة تلك الآلهة الأخرى.

بقدر ما نستطيع أن نُخبر. انطلاقاً من الأدلّة الأثاريّة للمملكة الشماليّة. كان هناك تنوع مماثل في الممارسات الدينيّة في إسرائيل؛ باستثناء ذكريات التّوصيات الشديدة التي كانت تقوم بها شخصيات مثل "إيليا" و"البعث"، والتطهريّة ضدّ "العمرية" التي قادها "ياهو"، والكلمات

القاسية لأنبياء مثل 'عاموس' و'هوشع'، لم يحصل في حكومة إسرائيل الشماليّة أيّ جهد مُتسق، أو بعيد المدى لإقرار عبادة يَهُوَه وحده.

لكن؛ بعد سُقوط السّامرة، والمركزيّة المُتزايدة لمملكة يهُوذا، بدأ يقوى اتّجاه أكثر تركيزاً نحو الشريعة والتّمسكُ بها. كان تأثير أورشليم (القدس) - السكّاني والسياسي والاقتصادي - قد أصبح عظيماً الآن، وارتبط بأجنحة (جدول أعمال أو مهام) إقليمية وسياسية جديدة: توحيد كلّ إسرائيل. واشتدّ - تبعاً لذلك - تصميم مؤسستها الكهنوتيّة والنّبويّة على تعريف الطُرق "الصّحيحة" للعبادة لكلّ شعب يهُوذا، وفي الحقيقة؛ كلُّ أولئك الإسرائيليين الذين يعيشون تحت الحُكْم الآشوري في الشّمال.

دَفَعَت هذه التغيّرات المُثيرة في القيادة الدنيّة علماء توراتيين مثل 'باروخ هالبرن' لاقتراح أنّه خلال فترة لا تزيد على بضعة عقود في الفترة الأخيرة من القرن الثامن والأولى من القرن السابع ق. م، وُلد (لأوّل مرّة) التقليد التّوحيدي للحضارة اليهوديّة - المسيحيّة.

هذا ادّعاء كبير؛ أن يستطيع الإنسان أن يُحدّد - بدقة - ولادة وعيٍ دينيٍّ حديث، خاصّة عندما يضع كتابه المُقدس: التّوراة، ولادة التّوحيد قبل مئات السنين، لكن؛ هنا - أيضاً - يعرض الكتاب المُقدس العبري تفسيراً ذا أثر رجعيّ بدلاً من أن يُقدّم وصفاً دقيقاً للماضي.

في الحقيقة؛ لقد وُفّر التّطوُّر الاجتماعيّ المُتواصل في يهُوذا، في العقود التي تلت سُقوط السّامرة، رؤية جديدة حول كيف خَدَمَت الحكايات التّقليديّة لتيه الآباء، والتّحرُّر القوميّ العظيم من مصر، قضية الإحياء الدنيّ - ظُهُور الأفكار التّوحيديّة - ضمن دولة يهُوذا المُتبلّورة حديثاً.

في وقت ما في أواخر القرن الثامن ق. م؛ برَزَت - بشكلٍ مُتزايد - مدرسة عالية الصّوت ذات تفكيرٍ يَصُرُّ على أن أنواع العبادة التي كانت تُمارَس بالرفيف، كانت وكيّة أئمة، وأن يَهُوَه وحده هو المُستحقّ للعبادة. لا يُمكن أن نُحدّد - على وجه اليقين - أين نشأت هذه الفكرة. لقد تمّ التعبير عنها في دورات قصص 'إيليا' و'اليشع' (و التي تمّ تدوينها بعد فترة طويلة من سُقوط 'العُمريين')، والأهمُّ، في مؤلّفات النبيّين 'عاموس' و'هوشع'، والذي كان كلُّ منهما نشطاً وفعّالاً في القرن الثامن في الشّمال.

نتيجة لما ذُكر؛ اقترح بعض علماء الكتاب المُقدس بأنّ هذه الحركة نشأت بين الكهنّة والأنبياء المعارضين في الأيام الأخيرة للمملكة الشماليّة الذين كانوا مرعوبين من عبادة الأوثان



والظلم الاجتماعي في الفترة الآشورية. بعد دمار مملكة إسرائيل، هربوا جنوباً لإعلان أفكارهم. أشار علماء آخرون إلى دوائر مرتبطة بمعبد أورشليم (القدس) تنوي ممارسة تحكّم ديني واقتصادي على الريف المتطوّر بسرعة. ربّما لعب كلا العاملين دوراً في الجوّ المغلّق لأورشليم (القدس) بعد سقوط السامرة، عندما عمل لاجئون من الشمال مع كهنة يهوديّين ومسؤولين ملكيّين في يهوذا مع بعضهم البعض.

أيّما كان صانعو ذلك التيار الجديد؛ شنت تلك الحركة الدينيّة الجديدة (التي لقبها المؤرّخ المهاجم للمعتقدات الدينيّة والمؤسسات التقليديّة: مورتن سميت بحركة يهوّه. وحده) صراعاً مبريراً ومتواصلًا ضدّ مؤيدي العادات والطّقوس اليهوديّة القديمة الأكثر تقليديّة. من الصعب تقييم قوّتهم النسبيّة ضمن مملكة يهوذا، لكن؛ رغم أنّهم يدوّن. لأول وهلة - أقلية صغيرة؛ إلا أنّهم كانوا هم الذين أنتجوا - لاحقاً - أو أثروا على معظم الكتابة التاريخيّة للكتاب المقدّس، التي بقيت، واستمرت. كان الوقت مناسباً جداً لهذا الأمر؛ فقد أدّى توسّع الإدارة البيروقراطيّة لانتشار معرفة القراءة والكتابة. للمرّة الأولى؛ أصبح لسُلطة النصوص المكتوبة، بدلاً من الملاحم المقروءة أو الأغاني الشعبيّة، تأثيراً هائلاً.

يجب أن يكون قد أصبح من الواضح - الآن - أنّ مقاطع سفرَي الملوّك التي تتحدّث عن صلاح أو طلاح ملوك يهوذا السابقيين، إنّما تعكس عقيدة حركة يهوّه وحده. لو أنّ مؤيدي الأنماط التقليديّة للعبادة التوفيقيّة (أي التي تجمع بين عبادة يهوّه وعبادة آلهة أخرى ثانويّة) فازوا - في النهاية - لرّبما امتلكتنا كتاباً مقدّساً مختلفاً كليّاً، أو ربّما لم نمتلك كتاباً مقدّساً أصلاً. ذلك لأنّه كان في نيّة حركة يهوّه - وحده - إيجاد أرثوذوكسيّة صارمة في العبادة، وتاريخاً وطنيّاً فرداً مركزه أورشليم (القدس). وقد نجحت - بشكّل بارز - في هذا المسمى، وأوجدت ما أصبح يُعرف باسم شرائع وقوانين سفر التثنية والتاريخ الشنوي<sup>(1)</sup>.

يؤكد العلماء بالكتاب المقدّس - عادة - السمات الدينيّة - تماماً - للصراع بين أحزاب أو فئات أورشليم (القدس)، لكن؛ ليس هناك شكّ أنّ مواقفهم اختلفت - أيضاً - على وجهات

(1) لا بدّ من أن تُشدّد على أنّه بينما قد تكون بعض الأفكار الأساسيّة التي ميّزت - لاحقاً - سفر التثنية (وربّما حتى نسخة مبكّرة من التاريخ الوطني) قد صبغت في أواخر القرن الثامن ق. م.، إلا أنّ تلك الأفكار لم تصل إلى مرحلة النضوج إلا في أواخر القرن السابع ق. م.، عندما تمّ جمع وتأليف نصوص سفر التثنية والتاريخ الشنوي بالشكل الأخير، الذي تمّ الاعتراف به.

نَظَر قُوَّةٌ حَوْلَ السِّيَاسَةِ الحَلِيَّةِ وَالخَارِجِيَّةِ . فِي العَالَمِ القَدِيمِ ؛ كَمَا هُوَ اليَوْمَ ، لَمْ يَكُنْ مِنْ المُمْكِنِ قُصْلَ مَجَالِ الدِّينِ عَنِ سَائِرِ مَجَالَاتِ الاقْتِصَادِ ، وَالسِّيَاسَةِ ، وَالثَّقَافَةِ . كَانَ لِأفْكَارِ جَمَاعَةِ يَهُوَهَ - وَحِدِهِ جَوَانِبَهَا الإِقْلِيمِيَّةَ أَيْضاً ، وَالتِّي تَسْمَى لِإِعَادَةِ إِحْيَاءِ حُكْمِ آلِ دَاوُدَ عَلى كُلِّ إِسْرَائِيلَ ، بِمَا فِي ذَلِكَ أَرْضِي المَمْلَكَةِ الشَّمَالِيَّةِ المَقْهُورَةِ ؛ حَيْثُ - كَمَا رَأَيْنَا - وَاصِلَ العَدِيدِ مِنَ الإِسْرَائِيلِيِّينَ العِيشَ بَعْدَ سُقُوطِ السَّامَرَةِ . هَذَا سَيُحَقِّقُ تَوْحِيدَ كُلِّ إِسْرَائِيلَ تَحْتَ حُكْمِ مَلِكٍ وَاحِدٍ مِنْ أُورُشَلِيمَ (القُدْسِ) ، وَدِمَارِ مَرَاكِزِ الطُّقُوسِ وَالعِبَادَةِ فِي الشَّمَالِ ، وَمَركَزِيَّةَ العِبَادَةِ الإِسْرَائِيلِيَّةِ فِي أُورُشَلِيمَ (القُدْسِ) .

مِنَ السَهْلِ رُؤْيَا السَّبَبِ الَّذِي كَانَ يَجْعَلُ مُؤَلَّفِي الكِتَابِ المُقَدَّسِ مُنْزَعِجِينَ جَدّاً مِنْ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ رَمَازاً لِلتَّشَبُّتِ الاجْتِمَاعِيِّ وَالفَوْضُوِيَّةِ ؛ حَيْثُ كَانَ زُعَمَاءُ العِشَائِرِ فِي المَنَاطِقِ البَعِيدَةِ يُسَيِّرُونَ أَنْظِمَتَهُمُ الحَاصَّةَ فِي الاقْتِصَادِ ، وَالسِّيَاسَةِ ، وَالعِلاَقَاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ دُونَ إِدَارَةِ أَوْ سَيِّطَرَةِ البِلَاطِ فِي أُورُشَلِيمَ (القُدْسِ) . اسْتِقْلَالُ الرِّيفِ ذَلِكَ ، رَغْمَ أَنَّهُ كَانَ أَصِيلاً لَدَى أَهَالِي يَهُودَا ، أَصْبَحَ مُدَاناً ، عَلى عِبَارَتِهِ أَنَّهُ عَوْدَةٌ وَرَدَةٌ إِلَى الفَتْرَةِ الهَمَجِيَّةِ الجَاهِلِيَّةِ قَبْلَ الإِسْرَائِيلِيَّةِ . هَكَذَا ، مِنْ سُخْرِيَةِ القَدْرِ ، الشَّيْءُ الَّذِي كَانَ يَهُودِيّاً أَصِيلاً أَصْبَحَ يُنْسَبُ كَبِدْعَةٍ وَهَرَقَةٍ كُتْمَانِيَّةٍ . فِي حِمَاةِ الجَدَلِ الدِّينِيِّ وَالمُنَاطَرَاتِ الانْفِعَالِيَّةِ ، صَارَ القَدِيمُ يُنْظَرُ إِلَيْهِ - فَجَاءَةً - عَلى أَنَّهُ أَجْنَبِيٌّ وَبَاطِلٌ ، وَالجَدِيدُ يُنْظَرُ إِلَيْهِ عَلى أَنَّهُ حَقٌّ . وَفِي مَا لَا يُمَكِّنُ إِلاَّ أَنْ تُسَمِّيَهُ طَرَحاً غَرِيباً لِلأَهْوَتِ ذِي أَثَرٍ رَجْعِيٍّ ، مَمْلَكَةُ يَهُودَا الجَدِيدَةِ الَّتِي أَصْبَحَتْ مَركَزِيَّةً ، وَعِبَادَةُ يَهُوَهَ المَركَزِيَّةُ فِي أُورُشَلِيمَ (القُدْسِ) ، أَسْقَطَ عَلى المَاضِي ، وَقَرَّبَنَا عَلى أَنَّ الحَالِ هَكَذَا كَانَ فِي المَاضِي الأَصِيلِ ، أَوْ أَنَّ الأُمُورَ لِأَبَدٍ أَنَّهَا كَانَتْ دَائِماً بِهَذَا النِّحْوِ .

### إِصْلَاحَاتُ المَلِكِ حَزَقِيَّآ ؟

مِنَ الصَّعْبِ أَنْ نُحَدِّدَ - بِالضَّبْطِ - مَتَى بَدَأَ الأَهْوَتُ الحِصْرِي (التَّوْحِيدِي) يُمارِسُ تُأثيرَهُ العَمَلِيَّ عَلى سَيْرِ الأُمُورِ فِي يَهُودَا ؛ يَذْكَرُ سَفَرُ المُلُوكِ الأوَّلُ وَالثَّانِي إِصْلَاحَاتَ مُخْتَلِفَةٍ فِي اتِّجَاهِ عِبَادَةِ يَهُوَهَ - وَحِدِهِ تَعَوَّدَ لِعَهْدِ مُبَكَّرٍ بِحُدُودِ وَقْتِ المَلِكِ "أَسَا" فِي أوَّلِ القَرْنِ التَّاسِعِ ق. م. ، لَكِنْ لَقَّتْهَا التَّارِيخِيَّةُ مَشْكَوكَ فِيهَا . هُنَاكَ شَيْءٌ وَاحِدٌ يَبْدُو وَاضِحاً فَعِلاً ؛ يُشِيرُ مُؤَلَّفُو سَفَرِي المُلُوكِ إِلَى صُعُودِ المَلِكِ حَزَقِيَّآ إِلَى عَرشِ يَهُودَا ، فِي أَوَاخِرِ القَرْنِ الثَّامِنِ ق. م. ، كَحَدَّثِ جَدِيدٍ ، لَا سَابِقَ لَهُ .

كان الهدف النهائي لإصلاح 'حزقيآ' - كما يبيّنه سفر الملوك الثاني 18/ 3-7 - هو تأسيس العبادة الخالصة والحصرية ليهوه، في المكان الشرعي الوحيد لها: معبد أورشليم (القدس)، ولكن؛ من الصعب كشف إصلاحات 'حزقيآ' الدينية في السجلات الآثرية. والأدلة التي وجدت عليها، خصوصاً في موقعي نفي الجنوب هما 'أراد'، وبشر سبع، أدلة مشكوكة، وموضع سؤال<sup>(1)</sup>.

لذا؛ اقترح 'باروخ هالبرن' بأن 'حزقيآ' متعّ العبادات والطقوس الرئيسية، لكنّه لم يعلّق المعابد الرسمية في مراكز المملكة الإدارية. إلاّ أنّه ليس هناك من شك أنّه في عهد الملك 'حزقيآ' حصل تغيير عميق - فعلاً - في أرض يهوذا. لقد أصبحت يهوذا - الآن - مركز شعب إسرائيل. وكانت أورشليم (القدس) مركز عبادة يهوه. وكان أعضاء الأسرة الداودية المالكة، الممثلين الشرعيين الوحيدين ليهوه ووكلائه في الحكم في الأرض. لقد انتخب المسير غير المتوقّع للتأريخ يهوذا لمنزلة خاصة في لحظة حاسمة جداً.

الأحداث الأكثر إثارة لم تأت بعد. في عام 705 ق. م، مات الملك الآشوري المؤرّر 'سرجون' الثاني، ليرتد لابنه - الذي لم تحنكه التجارب بعد - وراثة عرش الإمبراطورية الآشورية. أعقبت ذلك مشاكل واضطرابات في شرق الإمبراطورية، التي كانت يوماً ما - تمثل الواجهة المنبعا للإمبراطورية الآشورية، والتي بدت - الآن - في خطر السقوط. وبدأ للعديد في أورشليم (القدس) أنّه لا بد وأن يهوه أعدّ يهوذا بشكل معجز - في اللحظة الحاسمة تماماً - ليحقق، ويُنجز قدرها التاريخي.

(1) تعرّف عالم الآثار الإسرائيلي 'يوهانان آهاروني' الذي قام بتقيب كلا الموقعين، على معبد صغير في 'أراد'، اعتقد أنّه شيد في القرن التاسع ق. م.، واقترح بأن مذبحة - إن لم يكن المعبد نفسه - فكّ في أواخر القرن الثامن. وقد ربط هذا التفسير بإصلاح 'حزقيآ'. لكن علماء آخرين جادلوا بأن 'آهاروني' أخطأ في تحديد تاريخ معبد 'أراد'، مؤكداً أنّه إنما بُني فقط في القرن السابع ق. م.؛ بكلمة أخرى، إنه يتشبه لفترة ما بعد 'حزقيآ' بوقت طويل. في بشر سبع، وجد أن بعض قطع كل الصخر التي كانت تستخدم كمذبح قرباني كبير، وجدت مفككة ومستعملة ثانية في مستودعات تعود لأواخر القرن الثامن، بينما استُخدم بعضها الآخر في ملء سور التحصين العتيبي لتلك المدينة. اقترح 'آهاروني' بأن المذبح المفكك كان في الأصل جزءاً من معبد في المدينة، وبأنه أزيل وفكك خلال إصلاحات 'حزقيآ'. ولأجل تعقيد الأمور فحسب، يجب أن نلاحظ بأن كتيبة الإغاثة الآشورية المشهورة، التي وجهها الملك 'سنحاريب' سنة 701 ق. م.، لغزو وفتح 'أل-خيش' ق. م.، ألقت ظلالاً من الشك على نجاح سياسة 'حزقيآ' لترسيخ المركزية الدينية؛ إذ تصف تلك الكتيبة ما يبدو أنّه مواد (غنائيل أو أشياء) للعبادة أزالتها القوات الآشورية من المدينة المفتوحة، مما يشير إلى الوجود المستمر، احتمالاً، لكان عبادة هناك حتى وقت متأخر من أيام 'حزقيآ'. (المؤلف)

## المفصل (10):

### بين الحرب والبقاء (705 - 639 ق.م)

كان قرار الملك "حزقيًا" بالثورة ضد الإمبراطورية الآشورية - بالتأكيد - أحد أكثر القرارات الحاسمة التي أُنخذت في مملكة يهوذا .

إن إعلام الاستقلال عن سيد المنطقة الأعلى الوحشيّ التوسعيّ - الذي لم يَمُرَّ على تفكيكه وإزالته لمملكة إسرائيل سوى عقدَين من الزمن - كان يتطلّب القوة السياسيّة والتنظيم الحكوميّ الكفيلين بالقيام باستعدادات اقتصادية وعسكريّة بعيدة المدى . كما كان يتطلّب - أيضاً - طمأنة دينية واضحة بأنّه على الرغم من القوة الرهيبة للإمبراطورية الآشورية ، فإنّ يهوه يضمن الانتصار العسكريّ النهائيّ ليهوذا . طبقاً للكتاب المقدّس ؛ كلُّ البلاء والشقاء الذي حلَّ بمملكة إسرائيل سببه الطُرق الوثنيّة التي كان يُمارسها شعبها . والآن ؛ أصبح تطهير وتنقية عبادة يهوه الطُريق الأُوحد لضمان نصر "يهوذا" ، وإنقاذ شعبها من مصير الدمار والنفي اللذين حلَّ بشعب الشمال الأثم .

ولهذا ؛ بعد موت "سرجون" عام 705 ق.م ، عندما بدت قُدرة الإمبراطورية على السيطرة على أراضيها البعيدة ضعيفة ومشكوك فيها ، دخلت "يهوذا" في تحالف ضدّ آشوريّ ، كانت تدعّمه مصر (سفر الملوك الثاني 18/21 ، 19/9) ، ورَفَعَت راية العصيان ضدّ الإمبراطورية الآشورية ، الأمر الذي كان له آثاره البعيدة وغير المتوقّعة . بعد أربع سنوات في 701 ق.م ، قدّم الملك الآشوريّ الجديد : "سنحاريب" إلى يهوذا بجيش هائل . يضع سفراً الملوك وجهاً بطوليّاً في حصيلة هذه المواجهة : كان "حزقيًا" بطلاً عظيماً وملكاً مثاليّاً لا يُقارن إلاّ بدواود فقط . لقد سار على خُطى موسى ، وطهر يهوذا من كلّ تجاوزات الماضي . وبفضل

تقواه؛ تراجع الآشوريون عن يهوذا، دُونَ أَنْ يَتَمَكَّنُوا مِنْ فَتْحِ أُورُشَلِيمَ (الْقُدْس). كما سنرى؛ ليست هذه هي القصة بكاملها، كما أن رواية الكتاب المقدس التالية حول حُكْمِ مَنَسَّى بن حَزَقِيَّا لمدَّة 55 عاماً لم تُرَوِّدْنَا بالقصة الكاملة أيضاً. يَصِفُ سفرُ الملوك مَنَسَّى أنه - على عكس الملك المثالي حَزَقِيَّا - كان مُرتدّاً كامل الارتداد، أمضى كُلَّ فترة حُكْمه في إعادة كُلِّ فواحش وشرور الماضي الفظيعة.

لولم يكن لدينا من مادة نعتمد عليها سوى رواية الكتاب المقدس العبري، لما كان لدينا أيُّ سببٍ للشكِّ في صورة الأبيض والأسود تلك، حول صلاح حَزَقِيَّا وكُفْر مَنَسَّى، ولكن المصادر الآشورية المعاصرة وعلم الآثار الحديث يظهران أن التفسير اللاهوتي للكتاب المقدس لثورة وعصيان يهوذا ضدَّ الإمبراطورية الآشورية يُخفي خلفه حقيقة تاريخية مختلفة تماماً.

### معجزة عظيمة وخيانتها:

يروي سفر الملوك الثاني قصة مقامرة حَزَقِيَّا العظيمة في قطعة مسرحية رائعة، يخطب فيها فريق صغير من المثاليين خطابات معدة مسبقاً عن مواضيع لاهوتية سهلة التمييز. يمثل هذا الأسلوب المسرحي من التحدُّث مع النفس الذي يتمُّ أداءه لإفادة قارئ الكتاب المقدس العبري أحد علامات التاريخ التثوي المميزة. إن استعمال البلاغة الدينية شفاف:

إن نُقطة قصة الكتاب المقدس هي أن تُظهر كيف أن مجرد قُوَّة السِّلَاح أو ميزان القوى ليس لهما أيُّ تأثير على نتيجة الحرب بين الأمم؛ لأنَّ خلف ذلك كُلُّه توجد قُوَّة توجيه يَهْوَهُ، الذي يستخدم الجنْيُوش والمعارك ليُجازي أولئك الذين يعبُدونه - وحده - بإخلاص وغيبة، ويُعاقب أولئك الذين لا يفعلون ذلك<sup>(1)</sup>.

بعد وصف سلوك حَزَقِيَّا الديني، يُدرج سفر الملوك الثاني استطراداً - وفي الحقيقة تكراراً - عن سُقوط المملكة الشماليَّة ونفي شعبها بسبب ذنوبه. ويُقصِّد من ذلك تذكير القارئ بالتباين

---

(1) من الواضح أن المؤلف لا يتطلق في استنكاره للتدخل الإلهي لمعاقبة الأشرار الآثمين وإثابة الطيبين الأبخيار من دليل ملموس مُعيَّن، سوى الانسياق وراء نزعة المادبة التي تُنكر عالم الغيب وما وراء الطبيعة جملةً. وإلا فإنَّ سوء عاقبة الظلم والشر من سنن الله الكونية الواضحة، التي يراها كُلُّ صاحب بصيرة في كُلِّ تاريخ بشريَّة. (الترجم).

بين مصير إسرائيل العاصية الآثمة ويهوذا المستقيمة الصالحة. الأوضاع متماثلة والنتائج متعارضة: إسرائيل ثارت، "سلمانصر" حاصر السامرة، المملكة الشمالية حطمت، وشعبها نفي؛ بسبب ذنوبه، ولم يكن يهوذا هناك ليساعدهم. ثارت يهوذا أيضاً، حاصر سنحاريب أورشليم (القدس)، لكن "حزقيا" كان ملكاً مستقيماً، لذا؛ سلمت أورشليم (القدس)، ودمر جيش سنحاريب. المغزى الأخلاقي واضح، حتى عندما تنزق القوات الآشورية المفزعة المملكة، وتفتح كل مدنها المحصنة البعيدة. الاعتماد على قوة يهوذا هو المفتاح الوحيد للنجاة.

يتحدى القادة الآشوريون الذين يحاصرون أورشليم (القدس) المدافعين الحائرين على أسوار المدينة؛ ويعطون المواطنين، ويحاولون أن يحطّموا معنوياتهم بوضع علامات سؤال حول حكمة الملك "حزقيا" والسخرية من إيمانه: [ اسْمَعُوا كَلَامَ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ مَلِكِ أَشُورَ. 29 هَكَذَا يَقُولُ الْمَلِكُ: لَا يَخَذَعُكُمْ حَزَقِيَا لِأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَنْ يُنْقِذَكُمْ مِنْ يَدِهِ. 30 وَلَا يَجْعَلُكُمْ حَزَقِيَا تَنَكُّلُونَ عَلَى الرَّبِّ قَائِلًا: إِنْقَازًا يُنْقِذُنَا الرَّبُّ، وَلَا تُدْفِعُ هَذِهِ الْمَدِينَةُ إِلَى يَدِ مَلِكِ أَشُورَ. 31 لَا تَسْمَعُوا لِحَزَقِيَا؛ لِأَنَّهُ هَكَذَا يَقُولُ مَلِكُ أَشُورَ: اعْقِدُوا مَعِيَ صِلْحًا، وَاخْرُجُوا إِلَيَّ، وَكُلُّوا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ جَفَنَتِهِ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ تَيْبَتِهِ، وَاشْرَبُوا كُلُّ وَاحِدٍ مَاءَ بَثْرِهِ، 32 حَتَّى آتِي، وَآخِذْكُمْ إِلَى أَرْضِ كَارِضِكُمْ، أَرْضِ حَنْطَهَ وَخَمْرٍ، أَرْضِ خَبِزٍ وَكُرُومٍ، أَرْضِ زَيْتُونٍ وَعَسَلٍ وَآحْيُوا وَلَا تَمُوتُوا. وَلَا تَسْمَعُوا لِحَزَقِيَا؛ لِأَنَّهُ يُفَرِّقُكُمْ قَائِلًا: الرَّبُّ يُنْقِذُنَا. 33 هَلْ أَنْقَذَ إِلَهَةُ الْأُمَمِ كُلُّ وَاحِدٍ أَرْضَهُ مِنْ يَدِ مَلِكِ أَشُورَ؟ 34 أَيْنَ إِلَهَةُ حَمَاةِ أَرَفَادَ؟ أَيْنَ إِلَهَةُ سَفَرَوَايِمَ وَهَيْتِيعَ وَعَوَا. هَلْ أَنْقَذُوا السَّامِرَةَ مِنْ يَدِي؟ 35 مَنْ مِنْ كُلِّ إِلَهَةِ الْأَرْضِ أَنْقَذَ أَرْضَهُمْ مِنْ يَدِي حَتَّى يُنْقِذَ الرَّبُّ أُورُشَلِيمَ مِنْ يَدِي؟ ] (سفر الملوك الثاني 18/ 28 - 35).

يبتز "حزقيا" بعمق؛ لكن النبي "إشعيا" يطمئنه بالوحي القدس:

[ هَكَذَا تَقُولُونَ لِسَيِّدِكُمْ: هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ: لَا تَخَفْ بِسَبَبِ الْكَلَامِ الَّذِي سَمِعْتَهُ، الَّذِي جَدَفَ عَلَيَّ بِهِ غُلَمَانُ مَلِكِ أَشُورَ. 7 هَتَّنَا أَجْعَلُ فِيهِ رُوحًا، فَيَسْمَعُ خَبْرًا، وَيَرْجِعُ إِلَى أَرْضِهِ، وَأَسْقِطُهُ بِالسَّيْفِ فِي أَرْضِهِ. . . . لِذَلِكَ؛ هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ عَنْ مَلِكِ أَشُورَ: لَا يَدْخُلُ هَذِهِ الْمَدِينَةَ، وَلَا يَرْمِي هُنَاكَ سَهْمًا، وَلَا يَتَقَدَّمُ عَلَيْهَا بِرُسٍ، وَلَا يُقِيمُ عَلَيْهَا مَرَسَةً. 33 فِي الطَّرِيقِ الَّذِي جَاءَ فِيهِ يَرْجِعُ، وَإِلَى هَذِهِ الْمَدِينَةَ لَا يَدْخُلُ، يَقُولُ الرَّبُّ. ] (سفر الملوك الثاني 19/ 6 - 7، 32 - 34).

وفي الواقع ؛ يأتي الإنقاذ الإعجازي في تلك الليلة نفسها :

[وَكَانَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَنْ مَلَكَ الرَّبُّ خَرْجَ، وَضَرَبَ مِنْ جَيْشِ أَشُورَ مِئَةَ أَلْفٍ وَخَمْسَةَ  
وَكَمَانِينَ أَلْفًا. وَلَمَّا بَكَرُوا صَبَاحًا، إِذَا هُمْ جَمِيعًا جِثَّتْ مِيتَةً. 36 فَأَنْصَرَفَ سَنْحَارِبُ مَلِكُ  
أَشُورَ، وَدَهَبَ رَاجِعًا، وَأَقَامَ فِي نَيْنَوَى. 37 وَفِيمَا هُوَ سَاجِدٌ فِي بَيْتِ نَسْرُوخَ إِلَهِهِ ضَرَبَهُ  
أَذْرَمَلُكَ وَشَرَّاصِرُ ابْنَاهُ بِالسَّيْفِ. . . ] (سفر الملوك الثاني 19/35-37).

وهكذا تمّ الحفاظ على استقلال 'يهودا' - واعتقادها الحادّ في قُوّة 'يهوه' المُنقِذَة ضدّ كلِّ  
الأعداء - بنحو مُعجز.

لكن؛ مُباشرة بعد ذلك، تأخذ القصة تحولاً فُجائياً غريباً مع اعتلاء 'منسى' بن حزقيّا'  
العرش الداودي. في الوقت الذي كان يجب أن تكون قُوّة 'يهوه' فيه واضحة لشعب 'يهودا'،  
يقوم الملك الجديد 'منسى' بتغيير حادّ في الاتّجاه للأهوتي :

[[ وَعَمَلَ الشَّرُّ فِي عَيْنِي الرَّبِّ حَسَبَ رَجَاسَاتِ الْأُمَمِ الَّذِينَ طَرَدَهُمُ الرَّبُّ مِنْ أَمَامِ بَنِي  
إِسْرَائِيلَ. 3 وَعَادَ، قَبْنَى الْمَرْتَفَعَاتِ الَّتِي أَبَادَهَا حَزَقِيَّا أَبُوهُ، وَأَقَامَ مَذَابِحَ لِلْبَعْلِ، وَعَمَلَ سَارِيَّةً  
كَمَا عَمَلَ آخَابُ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ، وَسَجَدَ لِكُلِّ جُنْدِ السَّمَاءِ وَعَبَدَهَا. 4 وَبَنَى مَذَابِحَ فِي بَيْتِ  
الرَّبِّ الَّذِي قَالَ الرَّبُّ عَنْهُ: [ فِي أُورُشَلِيمَ أَضَعُ اسْمِي ]. 5 وَبَنَى مَذَابِحَ لِكُلِّ جُنْدِ السَّمَاءِ فِي  
دَارِي بَيْتِ الرَّبِّ. 6 وَعَبَّرَ ابْنُهُ فِي النَّارِ، وَحَافَ وَتَفَاءَلَ وَاسْتَخَدَمَ جَانًا وَتَوَابِعَ، وَأَكْثَرَ عَمَلَ  
الشَّرِّ فِي عَيْنِي الرَّبِّ لِإِعْظَامَتِهِ. ] (سفر الملوك الثاني 21/2-6).

على الرّغم من الاعتقاد بأنّ أورشليم (القدس) كانت الآن - بل كانت دائماً ضمناً -  
كرسي 'يهوه' على الأرض، وأنّ نقاوتها ضمننت ازدهار شعب إسرائيل ؛ أغوى 'منسى'  
رعاياءه - حسبما يرويه الكتاب المقدّس - : [ قَلَمَ يَسْمَعُوا، بَلْ أَضَلَّهُمْ مَنَسَى لِيَعْمَلُوا مَا هُوَ أَقْبَحُ  
مِنَ الْأُمَمِ الَّذِينَ طَرَدَهُمُ الرَّبُّ مِنْ أَمَامِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. ] (سفر الملوك الثاني 21/9).

ماذا كان يجري هنا؟ ما سبب تلك التقلّبات الفجائية؟ هل كان 'حزقيّا' مُستقيماً جداً إلى  
تلك الدرّجة، و'منسى' سيئاً جداً إلى تلك الدرّجة؟

## الاستعداد لتحدّي إمبراطورية عالمية:

بمعنى سفر الملوك خلفيّة مختصرة جداً - فقط - لتمرّد 'حزقيّا'؛ حيث تذكر أنّه: [ وَعَصَى عَلَى مَلِكِ أَشُورَ، وَكَمْ يَخْضَعُ لَهُ. ] (سفر الملوك الثاني 18/7). إلّا أنّ سفر أخبار الأيام - اللذان ألفا بعد بضعة قرون، وعتداً - عموماً - مصدر أقل ثقة من الناحية التاريخية من سفري الملوك. يرمضان معلومات أكثر تفصيلاً عن الاستعدادات التي أمر بها 'حزقيّا' في الأشهر والأسابيع التي سبقت الهجوم الآشوري. في هذه الحالة؛ كما سنرى لاحقاً، يقترح علم الآثار أنّ سفري أخبار الأيام ربما يكونان قد حافظا على معلومات تاريخية موثوقة لم تُدرج في سفري الملوك. علاوة على بنائه مُستودعات لتخزين الحبوب، والزيت، والخمر، وبناء أكشاك، أو إسطبلات للقطعان والماشية في كافة أنحاء المملكة (سفر أخبار الأيام الثاني 27/32 - 29).<sup>(1)</sup>، بذكر 'حزقيّا' جهداً عظيماً لضمان إمداد أورشليم (القدس) بالياه أثناء فترة الحصار:

]] وَكَمَا رَأَى حَزَقِيَّا أَنَّ سَنَحَارِيبَ قَدْ آتَى وَوَجَّهَهُ عَلَى مُحَارَبَةِ أُورُشَلِيمَ. 3 تَشَارَوْا هُوَ وَرُؤَسَاؤُهُ وَجِبَابِرَتُهُ عَلَى طَمِّ مِيَاهِ الْعِيُونِ الَّتِي هِيَ خَارِجَ الْمَدِينَةِ فَسَاعَدَهُ. 4 فَتَجَمَّعَ شَعْبٌ كَثِيرٌ، وَطَمَّوْا جَمِيعَ الْيَنْبِيعِ وَالنَّهْرَ الْجَارِي فِي وَسْطِ الْأَرْضِ قَانَلِينَ: [ لَمَّاذَا يَأْتِي مَلُوكُ أَشُورَ، وَيَجِدُونَ مِيَاهًا غَزِيرَةً؟ ] 5 وَتَشَدَّدَ، وَبَنَى كُلُّ السُّورِ الْمُنْهَدَمِ، وَأَعْلَاهُ إِلَى الْأَبْرَاجِ، وَسُورًا آخَرَ خَارِجًا، وَحَصَّنَ الْقَلْعَةَ مَدِينَةَ دَاوُدَ، وَعَمَلَ سِلَاحًا بكَثْرَةٍ وَأَثْرَاسًا. 6 وَجَعَلَ رُؤَسَاءَ قِتَالٍ عَلَى الشَّعْبِ، وَجَمَعَهُمْ إِلَيْهِ إِلَى سَاحَةِ بَابِ الْمَدِينَةِ، وَطَيَّبَ قُلُوبَهُمْ قَانَلًا: 7 تَشَدَّدُوا، وَتَشَجَّعُوا. لَا تَخَافُوا، وَلَا تَرْتَاغُوا مِنْ مَلِكِ أَشُورَ، وَمَنْ كَلَّمُ الْجُمْهُورَ الَّذِي مَعَهُ؛ لِأَنَّ مَعَنَا أَكْثَرُ مِمَّا مَعَهُ. 8 مَعَهُ ذُرَاعُ بَشَرٍ، وَمَعَنَا الرَّبُّ إِلَهُنَا لِيَسَاعِدَنَا، وَيُحَارِبَ حُرُوبَنَا. ] فَاسْتَدَّتْ الشَّعْبُ عَلَى كَلَامِ حَزَقِيَّا مَلِكِ يَهُوذَا. ] (سفر أخبار الأيام الثاني 2/32 - 8).

في حين لا توجد إلا إشارات آثارية ضئيلة ومتنازع بشأنها حول إصلاحات 'حزقيّا' الدينية في كافة أنحاء مملكته؛ هناك أدلة وافرة على التخطيط والنتيجة الفظيعة لثورته ضدّ

(1) نص عبارة سفر أخبار الأيام الثاني في الكتاب المقدس: [ 27 وَكَانَ لِحَزَقِيَّا غَنًى وَكَرَامَةٌ كَثِيرَةٌ جَدًّا وَعَمِلَ لِنَفْسِهِ خَزَائِنَ لِلْعَفْصَةِ وَالنَّعْبِ وَالْحِجَازَةِ الْكَرِيمَةِ وَالْأَطْيَابِ وَالْأَثْرَاسِ وَكُلِّ آيَةٍ كَبِيرَةٍ 28 وَخَزَانَةَ لِقَلْعَةِ الْحِطَّةِ وَالْمَسْطَلِّ وَالزَّيْتِ وَالسُّبُلَاتِ لِكُلِّ أَنْوَاعِ الْبَهَائِمِ وَكِلْفَطْمَانَ. 29 وَعَمِلَ لِنَفْسِهِ أَبْرَاجًا وَمَوَاسِي عِثْمَ وَيَعْرِ بِخَيْرَةٍ لِأَنَّ اللَّهَ أَحْصَاهُ أَمْوَالًا كَثِيرَةً جَدًّا. ] (الترجم).



الإمبراطورية الآشورية. كانت أورشليم (القدس) - بشكل طبيعي - بُورة العمليّات . لقد شوهدت التحضيرات الدفاعية - بشكل واضح جداً - في أعمال التقيب في الحي اليهودي للقدس ؛ حيث بُني سور تحصين ، بسلك أكثر من عشرين قدّم ، لحماية القرى المجاورة التي نشأت حديثاً على التلّ الغربي . لقد تمّ بناء هذا السور - على ما يبدو - في وقت الطوارئ الوطنيّة ؛ وقد كان التلّ الغربي قد أصبح - سابقاً - مسكوناً بشكل كثيف ، وكان لا بُدّ من هدم البيوت الخاصّة التي تقع على طول المسير الذي خطّط له لبناء تحصينات المدينة . إنّ بناء هذا السور المذكور ظاهراً في الكتاب المقدّس العبري ، في احتجاج "إشعيا" على الملك لأته - بقساوة - "حطّم البيوت لتحصين الخائض" ("إشعيا" 10/22) .

كانت المهمة الأخرى إمداد المدينة بتزويد آمن للماء في حالة الحصار . كان النبع الدائم الوحيد في أورشليم (القدس) - جيحون Gihon - يقع أسفل وادي "قدرون" ، على ما يبدو ؛ خارج خطّ سور المدينة (الشكل 26) . كانت هذه مشكلة قديمة في أورشليم (القدس) ، وكانت هناك محاولات سابقة حلّها بحفر نفق في الصخر يُؤمّن الوصول إلى النبع من داخل البلدة المحصنة . كان لدى "حزقيا" فكرة طموحة أكثر بكثير : بدلاً من أن يُوقر وسائل الهبوط إلى الماء ، خطّط لجلب الماء إلى الدّاخل . في الحقيقة ؛ عندنا وصّف معاصر قيّم لهذا المشروع الهندسي الاستثنائي ، نُحت (أي نُقش) في الأصل على جدران نفق الماء نفسها . يروي هذا النقش التذكاري الفريد في اللّغة العبريّة ، الذي اكتُشف - لأول مرّة - في أواخر القرن التاسع عشر ، قُرب النّهاية الجنوبيّة للنفق ، كيف تمّ حفر نفق طويل تحت الأرض في الفرس الصّخري لجلب الماء من نبع "جيحون" إلى بركة أو حوض كبير محميّ داخل أسوار المدينة .

حُفر هذا النفق - الذي بلّغ طوله حوالي التلّث ميل ، وكان عرضه وارتفاعه كافيين لسير شخص بداخله - بطريقة دقيقة جداً ؛ بحيث كان فرق الارتفاع بين النبع والحوض لا يزيد عن قدّم واحدة . في الحقيقة ؛ النصّ القديم الذي يُحيي ذكرى هذا العمل ، والمعروف اليوم بنقش سلوم ، يلتقط صورة عن مسرح المشروع حينما كان يُتأرب على الانتهاء ، واصفاً كيف قام فريقان بحفر النفق من جهتيه ؛ حيث قُطعاً طريقيهما نحو بعضهما البعض انطلاقاً من نهايتي النفق المتعاكستين :

عندما كان النفق يُحفر ؛ كانت تلك هي الطريفة التي يتمّ حفرها بها : بينما [ ] مازال [ ] الفأس [ الفؤوس ] ، كلّ رجل نحو زميله ، وبينما كان لم يزل هناك ثلاثة أذرع لحفرها ، [ سَمع ]

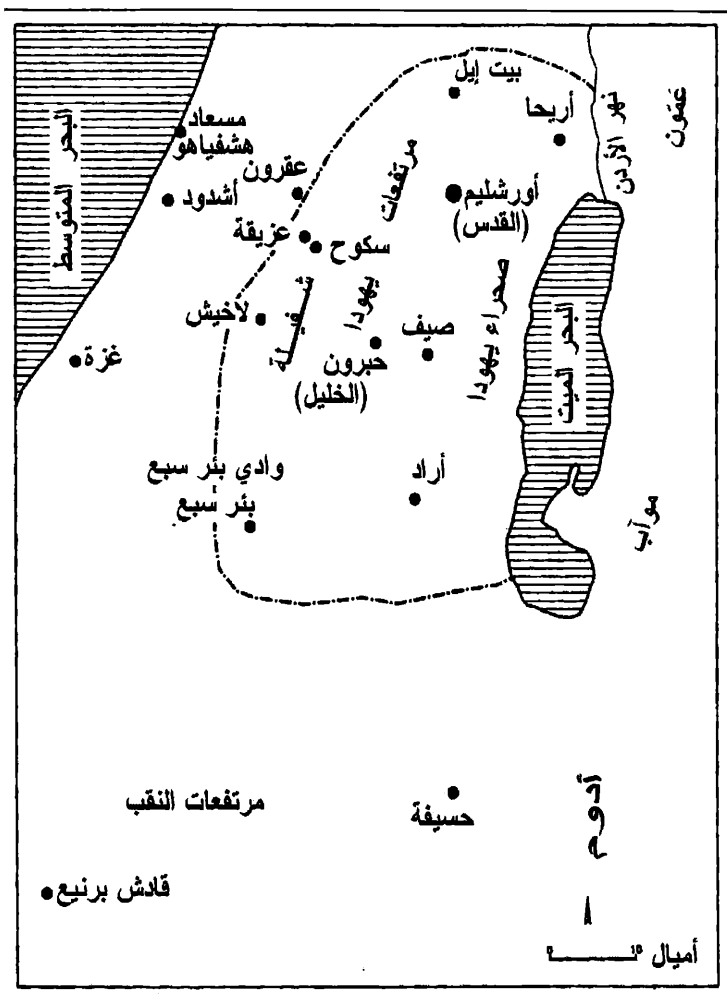
صوت رجل يدعو زميله؛ لأنه كان هناك تداخل في الصخرة على اليمين [وعلى اليسار].  
عندما كان النَّقْ يُحَطَّر، كان عمال الحجر يشقون [الصخرة]، كُتِلُ رجل نحو زميله، فأس  
ضد فأس؛ والماء تدفق من النبع نحو خزان بـ 200 ذراع، وكان ارتفاع الصخرة فوق رؤوس  
عمال الحجر 100 ذراع.

قضية كيف أنهم استطاعوا الاجتماع على الرغم من حقيقة أن النَّقْ مَقْسُوس هي موضع  
نقاش. من المحتمل أنها كانت جمعاً بين المهارات التقنية والمعرفة العميقة بعلم طبقات أرض  
التل. مثل هذا الإنجاز الاستثنائي لم يفت انتباه المؤرخين التوراتيين، ويمثل إحدى الحالات  
النادرة التي أمكن فيها التعرف الأثاري - بنحو مطمئن - على مشروع معين قام به ملك عبري:  
[وبقية أمور حرقياً وكل جبروته، وكيف عمل البركة والقناة، وأدخل الماء إلى المدينة مكتوبة  
في سفر أخبار الأيام للملك يهوذا.] (سفر الملوك الثاني 20/20).

أما خارج أورشليم (القدس)؛ فيبدو أن "حزقياً" استفاد - بشكل جيد - من كل  
المؤسسات؛ للتأكد بأن مملكته بالكامل أصبحت مستعدة للحرب (الشكل 27). أحيطت  
مدينة "لخيش" في "شفلة" بنظام تحصين هائل، يتكون من تلبس صخري منحدر، يهبط إلى  
نصف انحدار التل، ودار سميك من الطابوق في قمته. وكان هناك حصن ضخم حوى بوابة  
ذات ستة غرف، تؤدي إلى المدينة، ومنصة مرتفعة كبيرة داخل الأسوار، من المحتمل أنها  
بُنيت لدعم القصر، أو لإقامة القائد الملكي للمدينة. بالإضافة إلى ذلك، تم بناء مجمع أبنية  
مُشابه لإسطبلات "مجدو"، قرب القصر، لتعمل كإسطبلات أو مخازن. وهناك عمود كبير  
حُفر في صخرة، ربما عمل كالجُزء الأعلى في شبكة الماء. على الرغم من أن بعض تلك  
العناصر ربما يكون قد بُني قبل "حزقياً"، إلا أنها - على كل حال - كانت كل تلك العناصر  
هناك، وتم - في وقته - تعزيزها لتكون جاهزة لمواجهة جيش "سنحاريب".

لم يسبق أن قام أي ملك من ملوك "يهوذا" بصرف كل هذا الجهد والطاقة والخبرة  
والمصادر العديدة في الإعداد للحرب<sup>(1)</sup>.

(1) إذا كان لقائمة القلاع التي بناها "رحبم" (سفر أخبار الأيام الثاني 12.5/11) أي أساس تاريخي، فإنها تُورخ  
بالأحرى إلى وقت "حزقياً"، كما يحاول بعض المؤرخين إثبات ذلك، لتشهد على الإعدادات للحرب في مراكز  
أخرى في الريف. (المؤلف).



الشكل 27: أهم مواقع يهودا في أواخر العهد الملكي. يُشير الخط إلى قنبل المملكة في أواخر القرن السابع ق.م. أيام يوشيا.

تقترح الاكتشافات الأثرية بأن تنظيم المون في يهوذا قد جعل مركزياً للمرة الأولى .  
أوضح دليل على هذا الأمر وجود صنف مشهور من جرار المخازن الكبيرة في كافة أنحاء  
أراضي مملكة "حزقيآ"، تم إنتاجها بشكل وقياس واحد؛ أهم مميزاتا الفريدة هي أثر الختم  
الذي خُتمت به عندما كانت ماتزال طيناً مبللاً، قبل أن يتم حرقها بالنار . يحمل أثر ذلك الختم  
شعاراً على شكل قرص شمس مُجَنَّح، أو خُنفساء جُعل، اعتقد المؤرخون أنهما كانا شعارين  
للعائلة المالكة في يهوذا، ومع نقش عبري قصير هو "ملك" Imlk (يعود إلى الملك) . تندمج  
الإشارة الملكية مع اسم إحدى المُدن الأربع: "حبرون" (الخليل)، سوكو Socoh، زيف (أو  
صيف) Ziph، ومكان رابع مايزال غير معروف، وأشير إليه بالحروف م م س م MMST .  
المُدن الثلاث الأولى معروفة من المصادر الأخرى، بينما المدينة الأخيرة موقع مُبهم، ربّما كان  
عنواناً لأورشليم، أو بلدة يهودوية مجهولة .

اقترح العلماء عدّة تفسيرات بديلة لوظيفة تلك الجرار: أنها كانت تحتوي على منتجات  
العقارات الملكية؛ أو أنها استُعملت كحَاويات رَسْمِيَّة لجمع الضرائب وتوزيع السلع؛ أو أن أثر  
الختم عليها كان مجرد علامة تميز للورشات الفخارية التي كانت تُصنَّع فيها جرار المخازن  
الملكِيَّة الرَسْمِيَّة . على أي حال، من الواضح جداً أنها ترتبط بتنظيم يهوذا قبل إعلان التمرد  
على الإمبراطورية الآشورية .

لا يُمكننا أن نتأكد من المدى الجغرافي لاستعدادات "حزقيآ" لهذا التمرد . يذكر سفر أخبار  
الأيام الثاني أنه أرسل مبعوثين إلى "أفرايم" و"منسى"؛ أي إلى أراضي مرتفعات المملكة  
الشمالية المقهورة، لدعوة الإسرائيليين هناك للانضمام إليه في الاحتفال بعيد الفصح بأورشليم  
(القُدس) (سفر أخبار الأيام الثاني 30/1 و10 و18) . أغلب هذه الرواية غير موثوق به تاريخياً،  
لقد كُتبت من وجهة نظر كاتب مجهول في القرن الخامس أو الرابع ق . م، أراد تقديم "حزقيآ"  
كسليمان ثانٍ يوحد كل شعب إسرائيل حول الهيكل (المعبد) في أورشليم (القُدس) . وقد لا  
يكون التلميح إلى اهتمام "حزقيآ" بأراضي مملكة إسرائيل السابقة اختراعاً تاماً، لأن "يهوذا"  
أصبحت - الآن - قادرة على المطالبة بالزعامة على كل أرض إسرائيل، ولكن؛ حتى لو كان  
الأمر كذلك، فإن المطالبة شيء، وتحقيق الأهداف شيء آخر تماماً . من ناحية الأحداث، تُبين

أن ثورة "حزقيًا" ضد الإمبراطورية الآشورية كانت قراراً كارثياً. رغم عدم خبرته، أثبت "سنحاريب" - بقيادته لقوة غزو آشورية هائلة - مهاراته في أرض المعركة بشكل أكثر من كافٍ. لم يكن الملك "حزقيًا" ملك "يهوذا" ندأ له أبداً.

ما الذي حدثَ حقيقة؟ انتقام "سنحاريب" العنيف:

على الرغم من تقارير الكتاب المقدس حول الإنقاذ المعجز لأورشليم (القدس)، تُروى السجلات الآشورية المعاصرة لصورة مختلفة جداً عن حصيلة ثورة "حزقيًا". لقد قُدمت الرواية الآشورية عن تخريب "سنحاريب" لكل ريف "يهوذا" بشكل مختصر، ودم بارد:

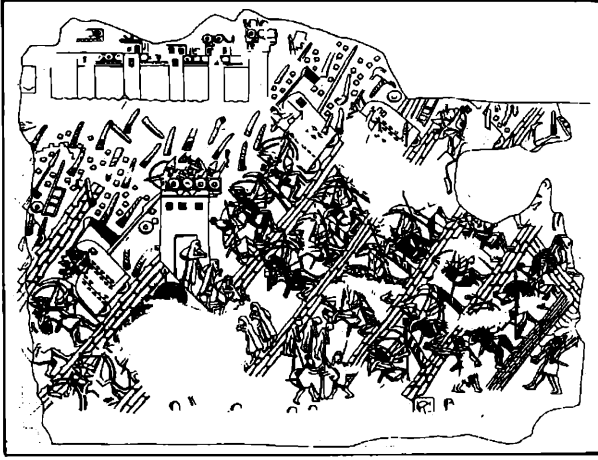
بالنسبة إلى "حزقيًا"، اليهودي، لم يُدعن لنيري. لقد حاصرت 46 مدينة من مئذنه القوية، والحصون المحاطة بالأسوار والقرى الصغيرة التي لا تُحصى في جوارها، وفتحتها بواسطة سلاالم الصعود الترابية المكبوسة بشكل جيد، ومنتجات الرمي التي جلبت إلى جوار الأسوار بالاشتراك مع الهجوم الذي قام به جنود المشاة الذين استخدموا الممرات تحت الأرضية (التي تُحفر تحت أسوار الحصون المحاصرة)، والدروع بالإضافة إلى عمل المهندسين العسكريين. أخرجت منهم 150. 200 شخصاً من بيوتهم، صغاراً وكباراً، ذكوراً وإناثاً، خيولاً، وبغالاً، وحميراً، وجمالاً، وماشية كبيرة وصغيرة لا تُحصى، واعتبرتها غنائم. جعلته هو نفسه سجيناً في أورشليم (القدس)، في سكنه الملكي، مثل الطير في القفص. أحطته بالموانع الأرضية لإيذاء أولئك الذين كانوا يتركون باب مدينته. أخذت منه بلداته التي سلبتها، وأعطيتها لـ "ميتيتي" Mitinti ملك "أشدود"، و"بادي" Padi ملك عقرون، و"سليبي" Sillibel ملك غزة. هكذا قلصت بلاده؛ ولكن؛ زدت الجزية عليه مع ذلك.

مع أن العدد المذكور للأسرى قد تكون فيه مبالغه كبيرة، إلا أن المعلومات المشتركة من السجلات الآشورية والتقييات الأثرية في يهوذا تُؤكدان - بشكل كافٍ - كثافة الحملة المنظمة من حصار وسلب، أولاً؛ خلال أراضي يهوذا الزراعية الغنية في تلال "شفلة"، ثم إلى الأعلى نحو العاصمة المرتفعة. يُمكن رؤية خراب مئذ "يهوذا" في كل تل - تقريباً - تم تنقيته في مناطق "يهوذا" الداخلية. تتطابق البقايا الأثرية المروعة - بشكل مثالي - مع قصص النصوص

الآشورية، وكمثال على ذلك غزو المدينة اليهودية البارزة "عزيقة"، التي وُصفت أنها تقع على حافة جبل، مثل الخناجر الحديدية المذبذبة بدون عدد، وتصل إلى علو السماء. هُوِجِمَتْ، وسُلبَتْ، ويعد ذلك؛ دَمَرَتْ.

لم يكن هذا عنفاً عشوائياً، قُصِدَ منه مُجرّد إرهاب اليهوديين لإجبارهم على الاستسلام، بل كان - أيضاً - حَمَلَةٌ محسوبة من التدمير الاقتصادي، لحرمان المملكة العاصية من مصادر الثروة. كانت مدينة "لخيش"، الواقعة في أكثر أراضي يهوذا الزراعية خصوبة، المركز الإقليمي الوحيد والأهم للحكم الملكي في يهوذا. كانت ثاني مدينة مُهمّة في المملكة بعد أورشليم (القدس). وقد أُلحِ نصُّ الكتاب المقدّس - (سفر الملوك الثاني 14/18 و17؛ 8/19)<sup>(1)</sup> - إلى الدور المحوري الذي لعبته في أحداث عام 701 ق.م. . لقد استهدف هُجُوم "سنحاريب" عليها دمارها المطلق. هناك رَسَمٌ توضيحي مُعمم بالحَيَوِيَّة للحصار الآشوري لهذه المدينة حَقَطٌ - بتفصيل استثنائي - على شكل نَقْشٍ نافر (بارز) وواسع نُحت على حائط كبير كان في يوم من الأيام يُزيّن قَصْر "سنحاريب" في نينوى، في شمال العراق (شَكَل 28). اكتشف هذا الشكّل المنحوت البارز (النافر)، والذي يبلغ طوله حوالي ستين قدماً وارتفاعه تسعة أقدام، في الأربعينات من القرن التاسع عشر، من قِبَل المُستكشف البريطاني أوستن هنري لايارد Austen Henry Layard، وشُحِنَ - بعد ذلك - إلى لندن؛ حيث بقي معروضاً في المتحف البريطاني. يُشير موقعه الأصلي على حائط عُرفَة داخلية من قَصْر "سنحاريب" إلى أهمية الأحداث التي يَصوِّرُها. يكشف نَقْشٌ قصيرٌ موضوعه: ["سنحاريب"، ملك الملوك وملك الإمبراطورية الآشورية، يجلس على عرشه، بينما الغنائم من مدينة "لخيش" تمرُّ أمامه].

(1) نصُّ العبارة في الكتاب المقدّس: [وَأَرْسَلَ حَزَقِيَّا مَلِكُ يَهُوذاً يَقُولُ لِمَلِكِ أَشورَ فِي لَخِيشَ: أَخْطَأْتُ، فَارْتَحِلْ عَنِّي، وَأَنَا أَدْفَعُ مَا تَفْرَضُهُ عَلَيَّ مِنْ جَرِيَّةٍ. فَفَرَضَ مَلِكُ أَشورَ عَلَيَّ حَزَقِيَّا مَلِكُ يَهُوذاً ثَلَاثَ مِئَةِ وَرَبْعَةَ (نَحْوَ أَلْفٍ وَكَمَادَ بَيْنَ كِيلُوجَرَامًا مِنَ الفِضَّةِ)، وَثَلَاثِينَ وَرَبْعَةَ (نَحْوَ مِائَةِ كِيلُوجَرَامَاتٍ مِنَ الذَّهَبِ). 15 فَجَمَعَ حَزَقِيَّا كُلَّ مَا فِي بَيْتِ الرَّبِّ وَخَزَائِنِ قَصْرِ الْمَلِكِ مِنْ فِضَّةٍ وَذَهَبٍ وَدَفَعَهَا لَهُ. 16 كَمَا كَثُرَ الذَّهَبُ الَّذِي كَانَ قَدْ غَشِيَ بِهِ أَبْوَابَ هَيْكَلِ الرَّبِّ وَالذُّعَائِمِ، وَبَعَثَ بِهِ إِلَى مَلِكِ أَشورَ. 17 وَرَغِمَ ذَلِكَ أَرْسَلَ مَلِكُ أَشورَ إِلَى حَزَقِيَّا قَائِلًا جِيئْ بِهِ وَزَيِّرْ خَزَائِنَهُ وَرَبِّيسَ أَرْكَانِ قُوَّاتِهِ مِنْ لَخِيشَ، عَلَيَّ رَأْسَ جِيشِ جَرَّارٍ لِمُحَاصِرَةِ أُورُشَلِيمَ. فَخَاضُوا عَلَيْهَا، وَأَخْطَأُوا بِهَا وَعَسَّكَرُوا عِنْدَ قَنَاةِ الْبِرْكَةِ الْعَلْيَا فِي طَرِيقِ حَقْلِ الْقَصَارِ. ] سفر الملوك الثاني 14/18 - 17. (الترجم).



الشكل 28: نحت ناهر (بارز) آشوري من قصر سنحاريب في نينوى ، يُصور غزو مدينة لخيش، رسمه 'جوديث ديكل' Judith Dekel، بتفضل من الأستاذ ديفيد أوسيشكين ، من جامعة تل أبيب.

يروى هذا الشكل المنحوت النافر، الرائع، لـ 'لخيش'، سير الأحداث المروع بأكمله، ضمن إطار واحد. يُظهر 'لخيش' كمدينة مُحصنة بنحو جيد جداً. وأن هناك معركة شرسة تقع عند أسوارها. بنى الأشوريون سلالم أو جسور الصعود التي تستخدم في الحصار، التي يُقدمون فيها منجنيقاتهم التي ترمي القنابل بشدة نحو أسوار التحصين. يُقاوم مدافعو 'لخيش' للغاية، يُحاولون منع المنجنيقات التي ترمي القنابل من فتح السور. يقذفون المصابيح في محاولة لإشعال النار في مكائن الحرب، في حين يصبُّ الأشوريون الماء على منجنيقات الرمي. يقف النبّالون الأشوريون وراء منجنيقات الرمي يُهاجمون الأسوار باستمرار، بالأسهم، بينما يردُّ المدافعون اليهوديون على رمي السهام برمي سهام مُقابل، لكن كلَّ تحضيرات المدينة الدفاعية وكلَّ قتال مدافعيها البطولي يبقيان دون جدوى. يُؤخذ الأسرى

خارج باب المدينة، البعض منهم أموات رُفَعَتْ جُثُثُهُمْ على الرِّمَاح . تُؤخذ الغنائم من المدينة، بما في ذلك الأواني المقدَّسة الخاصَّة بطُقُوسها الدينيَّة . طوال ذلك يجلس "سنحاريب" بفخامة، غير مُفعلٍ على العرش، أمام خيمته الملكيَّة، ليس بعيداً عن المعسكر الآشوري، مُشرفاً على موكب الأسرى والنَّهب الذي أخذ من البيوت والبنيات العامَّة من الجالية المُتمرِّدة.

أبرز بعض العلماء شكوكاً حول دقَّة تفاصيل هذا النَّحْت النَّافر، وجادلوا بأنَّه ليس أكثر من دعاية إمبراطوريَّة تفاخريَّة، ولا يُمكن اعتبارها سجلاً موثوقاً لما حَدَثَ فعلاً في "لخيش"، لكن؛ بالكاد هناك شكٌ في أنَّ هذا النَّحْت النَّافر يُعالج مدينة "لخيش" تحديداً، ويحكي الأحداث المُعيَّنة في عام 701 ق.م. . . يُبرز هذا النَّحْت النَّافر تضاريس المدينة ونباتاتها المحليَّة بدقَّة تامَّة، وليس هذا فحسب؛ بل حتَّى من المُمكن التَّعرُّف على النُّقطة المُفضَّلة بالضَّبط للفتان الذي عمل مُخطَّط هذا النَّحْت النَّافر. علاوةً على ذلك، تُزوِّدنا التَّقييَّات الأثاريَّة في "لخيش" بتفاصيل حول موقع الباب وطبيعة التَّحصينات ونظام الحصار، وكلُّها تُؤكِّد دقَّة النَّحْت النَّافر.

كشَفَت التَّقييَّات البريطانيَّة في "لخيش" في الثلاثينات، والحفر المُجدِّد لديفيد أوستيشكين -نيابة عن جامعة تل أبيب في السبعينات- التَّقاب عن دليل مُثير مُستقلٍّ حول السَّاعات الأخيرة لهذه القلعة اليهوديَّة العظيمة . لقد تمَّ التَّعرُّف على سلالم صُعُود الحصار الآشوريَّة، التي يُصوِّرها النَّحْت، ونُقِّبت . إنَّه المثال الوحيد الباقي لمثل بناء الحصار هذا، في أيِّ مكانٍ آخر في أراضي الإمبراطوريَّة الآشوريَّة السَّابقة . ليس من المُفاجئ بأنَّه بُني على الجانب الأكثر ضعفاً من التلِّ؛ حيثُ يتَّصل بحاقَّة؛ أمَّا في سائر الجوانب الأخرى؛ فإنَّ حدَّة الانحدار تحول دُون السَّمَّاح ببناء سلالم الصُعُود وانتشار المُنجنيقات التي ترمي القنابل .

تُعطي الاكتشافات الأثريَّة من داخل المدينة دليلاً على الأعمال المُستمتية للمُدافعين . لقد نصبوا سلالم صُعُود مُضادَّة ضخمة، مُواجهة مباشرةً لسالل الصُعُود الآشوريَّة، لكنَّ هذه المُحاولة الأخيرة من قِبَل المُدافعين لمُنح الآشوريُّون من حَرِّق الحائط كانت فاشلة . احترقت المدينة كُلِّيًّا . تُزوِّدنا اكتشافات أخرى بأدلةً على شراسة المعركة .

وُجِدَت مشات الأنصال في أسفل حائط المدينة . تمَّ اكتشاف صُخُورٍ مثقوبة، بعضها ما يزال عليه آثار الحبال المُحترقة في الفَتَحَات -التي رُميت- على ما يبدو- من الأسوار من قِبَل



المُدافعين في محاولة لتحطيم مكائن الحصار - قُرب نُقطة الهُجُوم على السُور . كما اكتُشِفَت مقبرة جماعيةً لحوالي 1500 شخصٍ من الرِّجال ، والنِّساء ، والأطفال ، في الكهُوف التي على المنحدرات الغربيَّة للتلِّ ، خلُطت بفخَّاريَّات تعود لأواخر القرن الثَّامن ق . م . .

منظور توراتي آخر:

مع أنَّ سفر الملوك الثَّاني يُركِّز على قُوَّة إنقاذ يهوه المُخيمَة على أُورشليم (القدس) ويذكر - بشكلٍ مُوجزٍ فقط - الاستيلاء على "كُلِّ المُدن المُحصَّنة ليهوذا" (سفر الملوك الثَّاني 13/18) ، تكشف نُصوصٍ أُخرى في الكتاب المقدَّس العبريِّ عن إرهاب الحَمَلَة الأَشوريَّة الذي عانى منه أولئك اليهوديُّون سيئو الحظِّ بما فيه الكفاية ؛ كونهم كانوا ضحايا هيَّجانٍ "سَنحارِب" في الرِّيف . لا تُوجد هذه الفقرات في أسفار التَّاريخ التَّنوي ، لكنْ ؛ في الأعمال النَّبويَّة . يتحدَّث شاهدان مُعاصران - النَّبِيَّان "إِشعيا" و"مِخا" - عن الخوف والحُزن اللَّذين شلَّا يهوذا في أعقاب التَّقَدُّم الأَشوري . يصف "إِشعيا" ، الذي كان في أُورشليم (القدس) أثناء الحصار - بشكلٍ واضحٍ - الحَمَلَة العسكريَّة التي صرَّبتُ المنطقة شمال أُورشليم (القدس) (10/28-32)<sup>(1)</sup> . ويصف "مِخا" ، الذي كان من مُواطني "شَفَلَة" ، من بلدةٍ ليست بعيدةً عن "لُخيش" ، الصِّدْمَة المُذهبة للوعي للَّذين بقوا على قيد الحياة من المُشرِّدين الذين لا ماوى لهم ، لأنَّما عبادتهم للأوثان ، التي جَلَبَت عليهم سوء مصيرهم هذا :

[ 10 ] لا تُخبرُوا في جَتِّ ، لا تَبْكُوا في عِكَّاء . تَمَرَّغِي في التُّراب في بَيْتِ عَفْرَةَ . 11 أُعبرِي يا سائِكةَ شَافِرِ عَرَبِيَّاتِهِ وَحَجلَةً . السَّائِكةُ في صَانَانَ لا تَخْرُجُ . نوحُ بَيْتِ هَايَصِلْ ياأخُدُّ عندكمْ مَقامَهُ 12 لأنَّ السَّائِكةَ في ماروثِ اغتمَّتْ لأجلِ خَيْرَاتِها ؛ لأنَّ شرًّا قد نَزَلَ منْ عند الرِّبِّ إلى بابِ أُورشليم . 13 سُديُّ المَرَكَبَةِ بالجِوَادِ يا سائِكةَ لأخيش . (هي أوَّلُ حَطيَّةٍ لابْنَة صِهْيُون) لأَنَّه فيك وُجِدَت ذُنُوبُ إِسْرَائِيل . [ سفر ميخا 1/10 - 13 ] .

(1) نصُّ العبارة كما في سفر إشعيا في الكتاب المقدَّس : [ 28 ] قد جاءَ إلى عِيَّات . عبرَ بمَجْرُون . وَصَحَ في مَخْمَاشَ ائْتَمَّتْهُ . 29 عبُرُوا المَعْبَر . ياأثوا في جَبْع . ارتعدتِ الرَّامَةُ . هَرَبَتْ جِبَعَةُ شَاوَل . 30 اصْهَلِي بصوتِك يا بِنْتِ جَلِيم . اسْمَعِي يا لَيْشَةَ . مسكينةٌ هي عَنَّاوُوث . 31 هَرَبَتْ مَدْمِينَةُ . احْتَمَى سَكَّانُ جِيِيم . 32 اليَوْمَ يَقِفُ في نُوب . يَهْرُيُدُهُ على جَبَلِ بِنْتِ صِهْيُون أَكْمَةُ أُورشليم . [ . (الترجم) .

تُظهر نتائج الاستطلاعات الأثرية - بشكل واضح جداً - الصّربة التي عانت منها "شَفلة"؛ إذ تُظهر بأنّ المنطقة لم تتعافَ بعد ذلك - أبداً - من حَمَلَة "سَنحارِب". حتّى في العُقود التالية، بعد الإحياء الجزئي ليهودا، بقيت "شَفلة" مأهولة بشكل مُتناثر.

لقد تقلّص عدد المواقع والمناطق المنيّة - والتي على أساسها تتمُّ كلُّ تقديرات عدد السكّان - إلى الثُلث تقريباً، عمّا كانت عليه في أواخر القرن الثامن ق. م. . بعض البلدات الرئيسيّة أُعيد بناؤه، لكن العديد من البلدات الصّغيرة، والقُرى، والبيوت الريفيّة تُركت في حالة الحراب. هذه الحقيقة لها أهمّيّتها الخاصّة جداً، عندما نتذكّر أنّ عدد سُكّان "شَفلة" في القرن الثامن، قبل الهجُوم الآشوري، يُقدَّر بحوالي خمسين ألف نسمة؛ أي - تقريباً - نصف سُكّان كامل المملّكة.

لم يُقدِّم الإيمان يَهوَه وحده أراضي "حَزَقِيّا" من غَضَب الآشوريّين. لقد دُمّرت أجزاء كبيرة من يهودا، وأعطى الآشوريّون المنتصرون الكثير من الأراضي الزراعيّة الثمينة في "شَفلة" لدولك مُدُن فلسطينا. انكمشت أرض يهودا بشكل مُثير، وأجبر "حَزَقِيّا" على دَفْع أتاوة وجزية باهظة إلى الإمبراطوريّة الآشوريّة، وتمَّ إبعاد عدد هامٍّ من أهالي يهودا إلى الإمبراطوريّة الآشوريّة. نَجَتْ أورشليم (القُدس) وتلال يهودا التي تقع - مباشرة - إلى جنوب العاصمة فقط.

مع كلِّ كلام الكتاب المقدّس العبري عن تقوى "حَزَقِيّا" وتدخّل يَهوَه الإنقاذي، كانت الإمبراطوريّة الآشوريّة المنتصرة الوحيد. لقد حقّق "سَنحارِب" أهدافه بالكامل: لقد كَسَرَ مُقاومة يهودا، وأخضعها. ورث "حَزَقِيّا" دولة مُزدهرة، فقام "سَنحارِب" بتدويرها.

لَم القُصَع المُتناثرة:

في أعقاب التمرّد الفاشل ضدّ الإمبراطوريّة الآشوريّة، لا بُدّ أن تكون سياسة "حَزَقِيّا" في التطهير الدّيني ومُجابهة الإمبراطوريّة الآشوريّة قد بدّت للكثيرين خطأ مُتهوراً فظيماً. قد يكون بعض الكهنة الريفيُّون قد جادل في أنّه - في الحقيقة - كان تدمير "حَزَقِيّا" الكفري للاماكن العالية المُبجّلة، ومَنَعَه عبادة "سارية"، والنُجُوم، والقمر، والآلهة الأخرى، جنباً إلى جنب عبادة يَهوَه؛ السبب في جَلْب مثل ذلك المصير السيِّئ على الأرض. كوننا لا نملك إلا أدبيّات حزب

يَهُوَه. وحده ، يجعلنا نجهد ما ربما ادعاه معارضوهم . الذي نعرفه هو أنه في عام 698 ق. م ، بعد ثلاث سنوات من احتلال "سنحاريب" ، عندما مات "حزقيآ" ، وجاء ابنه "منسى" - الذي كان في الثانية عشرة من عمره - إلى العرش ، أعيدت التعددية الدينية في ريف يهوذا (الذي تقلص إلى حد كبير الآن) . يحكي سفر الملوك الثاني هذا الأمر بشجب وإدانة شديدة . بالنسبة للمؤرخ التنوي ، كان "منسى" كافراً مرتدأً من العيار الثقيل . لقد وُصفَ كأكبر الملوك شرأً الذي رآته مملكة يهوذا في عمرها (سفر الملوك الثاني 21/3-7) . في الحقيقة ؛ يُلقب كتاب الملوك باللائمة ، في الدمار "المستقبلي" لأورشليم (القدس) ، على "منسى" (سفر الملوك الثاني 21/11-15) .

من الواضح أنه كان هناك شيء أكثر من اعتبارات لاهوتية وراء هذا التبدل التام في السياسة الدينية الرسمية . لقد كان بقاء المملكة واستمرارها في الحياة مرهوناً بتصرف "منسى" ومُستشاريه المُقرئين ، الذين صمّموا على إنعاش يهوذا . لقد استدعى هذا إعادة نوع من الاستقلالية واللامركزية الاقتصادية إلى الريف ، الذي كان ما يزال المصدر الكامن الأعظم لثروة المملكة . ولم يكن إحياء المناطق الريفية البعيدة المدمرة ممكناً من دون تعاون شبكات الشيوخ وعشائر القرى ، وكان هذا يعني السماح باستئناف العبادة في المرتفعات العالية المحلية التي كانت مُبجّلة منذ مدة طويلة . وباختصار ؛ أعيدت عبادة "بعل" ، و"سارية" ، و"مضيفو السماء" .

حتى مع إجباره أن يكون تابعاً مطيعاً للدولة الآشورية ، يبدو أن "منسى" قد حسَبَ جيداً أن التعافي الاقتصادي لـ "يهوذا" قد يكون في مصلحة الإمبراطورية الآشورية . إن "يهوذا" مُزدهرة ستكون موالية للإمبراطورية ، وتعمل كحاجز فعال ضد العدو اللدود للإمبراطورية الآشورية في الجنوب : مصر . وقد يمتح الآشوريون "يهوذا" منزلة التابع التائب الأكثر رعاية ، وفي هذا يُشير نصُّ يعود للقرن السابع يتحدث عن الجزية التي كانت تدفعها الدول المشرقية الجنوبية ، للملك الآشوري ، إلى أن جزية "يهوذا" كانت أقل - بنحو كبير - مما كان يدفعه جيرانها من توابع الإمبراطورية الآشورية الأقر: عمون وموآب .

يبدو أن "منسى" قد أثبت أنه عند حُسن ظن سادته الآشوريين الكبار فيه . تذكُر وثيقة من عهد "أسرحدون" الذي خلف "سنحاريب" على عرش الإمبراطورية الآشورية ، أن "منسى" كان واحداً من بين مجموعة اثنين وعشرين ملكاً أمروا بإرسال مواد بناء إلى مشروع ملكي في

نينوى . وأدْرَجَ الملك الآشوريُّ التَّاليُّ آشورَ بنيبالَ مَنَسَى بَيْنَ المُلُوكِ الذينَ أعطوه هدايا ، وساعده على فَتْحِ مِصرَ . ورغمَ أنَّ سَفَرَ أخبارِ الأيَّامِ الثَّاني يُخبرُنا أنَّه في فترةٍ ما من حُكْمِ مَنَسَى قامَ الآشوريُّونَ بِسَجْنِهِ في بابل (سَفَرَ أخبارِ الأيَّامِ الثَّاني 11/33) ، فإنَّ مَلابِساتَ هذا الاعتقالِ وَفَقْتَهُ التَّاريخيَّةُ ماتزالانَ موضعَ نقاشِ . والأمرُ الواضحُ هو أنَّ فترةَ الحُكْمِ الطَّويلةِ

- خمسٌ وخمسونَ سنة - كانتَ فترةَ سَلمٍ لـ 'يهودا' ، وأنَّ المَدُنَ والمُستوطناتِ التي أُسِّسَتْ في عهده بقيتِ واستمرَّت حتَّى زمنَ الدَّمارِ الثَّهائيِّ لـ 'يهودا' في القرنِ التَّاليِ .

ليس من السَّهلِ - من ناحيةِ عِلْمِ الأثارِ - تمييزَ مَكتَشَفاتِ أوائلِ القرنِ السَّابعِ عن تلكِ التي تعودُ إلى الصَّفِّ الثَّاني من ذلكِ القرنِ (أنظُرُ المُلحقَ 'ه' .) إلَّا أنَّنا نعلمُ ما فيه الكفايةِ للمُجادلةِ بأنَّه بعدَ ذلكِ الحِرابِ الواسعِ الانتشارِ في 'شَفْلة' (والحاقِ مناطقَ كبيرةَ بالمَدُنِ الفِلسطينيَّةِ) - بما سَكَّانَ مُرتفعاتِ 'يهودا' ، وتكاثروا . ويكادُ يكونُ من المُلَوِّكِدِ أنَّ سَبَبَ هذا هو وُصُولُ لاجئينَ يَهُودِيَّينَ نازحينَ فرُّوا من مناطقِ 'شَفْلة' المُقفِرة . لقد اشتدَّ الإنتاجُ الزراعيُّ حولَ العاصِمةِ . وتمَّ بناءُ شبكةٍ كثيفةٍ من المزارعِ ومبانيها حولَ أُورشليمِ (القُدُسِ) وجنوبها ، قُرْبَ بيتِ لحمِ ، في القرنِ السَّابعِ ق . م . . . ولكنَّ التَّطوُّرَ الأَكْثَرَ سَحرًا في 'يهودا' أثناءَ القرنِ السَّابعِ ، هو التَّوسُّعُ السَّكَّانيُّ للمُستوطناتِ اليَهُودِيَّةِ بِاتِّجاهِ المناطقِ القاحلةِ إلى الشَّرْقِ والجنوبِ (الشَّكْلُ 27) . في العُقُودِ التَّاليَّةِ حَدَثَ شيءٌ استثنائيٌّ في صحراءِ 'يهودا' - التي كانتَ فارغةً من المُستوطناتِ الدائمةِ أثناءَ القرنِ الثَّامنِ . . في القرنِ السَّابعِ ، تأسَّستَ مجموعةُ مواقعٍ صغيرةٍ في كُلِّ موقعٍ بيئيٍّ مُلائمٍ كانَ أفضلَ قليلاً بالنَّسبةِ للزَّراعةِ من بقيةِ الصَّحراءِ : في واديِ (بوقية) Buqeah في مُتَصفِيفِ الطَّرِيقِ بَيْنَ أُورشليمِ (القُدُسِ) والبحرِ الميِّتِ ، قُرْبَ أريحا ، وعلى طُولِ السَّاحلِ الغرِبيِّ لِلبحرِ الميِّتِ في واديِ بئرِ سبعِ ، بما عدَدُ المواقعِ إلى حَدِّ أبعدَ بكثيرٍ ممَّا يَلْغِهُ في الفترةِ السَّابِقةِ بَيْنَ القَرْنَيْنِ الثَّامنِ والسَّابعِ ، وتضخَّمتَ رُقعةُ المنطقَةِ المَبنيَّةِ ، وبالتَّاليِ ؛ عددُ سَكَّانِ المنطقَةِ ، إلى عَشْرَةِ أضعافِ . هل من المُمكِنِ أن يكونَ هذا التَّطوُّرُ مُرتبطاً بِسياساتِ مَنَسَى ؟

يبدو هذا مُحتملاً جدًّا . من الواضحِ أنَّه حتَّى حَمَلَةٌ سَنحارِبِ ، كانَ اقْتِصادُ مَمْلَكَةِ 'يهودا' مُتوازناً بِسببِ البيئاتِ المُختلفةِ في أرضها : كانتِ بساتينَ الزَّيتونِ وكُرومِ العنبِ تُزْرَعُ - بِشَكْلِ رَئيسيٍّ - في مناطقِ المُرتفعاتِ ، وكانتِ تُزْرَعُ الحُبوبُ - بِشَكْلِ أوَّلِيٍّ - في 'شَفْلة' ،

وتُزاول تربية الحَيَوَانَات - في الغالب - في حافّة الصّحراء في الجنوب والشرق . عندما سلّمت 'شفلة' إلى دُول المَدُن الفلسطينية ، فَقَدَت 'يهودا' أراضيها الغنيّة المنتجة للحبّوب في الغرب . في الوقت نفسه ؛ نما السُّكَّان - بشكل ملحوظ - في الأجزاء الباقية للممْلَكَة ، الذي كان لزاماً عليها أن تُغذّيهم . من المُحتمل أن تكون هذه الضُّعُوط قد أجبرت جزءاً من سُكَّان 'يهودا' على الانتقال إلى المناطق الهامشيّة للممْلَكَة ، في مُحاولَة مُستعجِلة لتعويض خسارتهم للأراضي الزراعيّة الغنيّة في 'شفلة' .

في الواقع ؛ استغلال المناطق القاحلة كان يُمكن أن يحلّ المُشكلة . تقترح تخمينات الطّاقة الزراعيّة لودي بر سبع في العصر القديم أنّه إذا تمّ تنظيم الإنتاج الزراعي هنالك بنحو جيّد ؛ فإنّه يستطيع أن يزوّد - وحده - رُبُع حاجة يهوذا من الحبّوب العامّة بأكملها ، ولكنّ مثل هذا لم يكن من المُمكن فعله على مثل هذا النطاق الواسع دون دَعْمٍ من الدّولة . لذلك ؛ فإنّه من المنطقيّ الافتراض أن التّوسُّع نحو المناطق القاحلة إنّما تمّ بالهام من 'مَنْسَى' إن لم يكن بتوجيه مُباشر من سياساته الاقتصاديّة والسياسيّة الجديدة .

### القوافل العربيّة وزيت الزيتون:

ذَهَبَ برنامج 'مَنْسَى' أبعد بكثير من مُجرد تأمين قوام العيش والاستمرار . كان مُصمماً على دَمَج يهوذا في الاقتصاد الأشوري العالمي . كان الشّاطان الاقتصاديّان الرئيسيان للإمبراطوريّة الأشوريّة في منطقة يهوذا وحولها ، تجارة السِّلَع الكمياليّة الغريبة والبخور من بلاد العَرَب ، والإنتاج الشّامل لزيت الزيتون ، وتوزيعه .

كانت التجارة العربيّة إحدى المصالح الاقتصاديّة الرئيسيّة للإمبراطوريّة الأشوريّة ، ولا يكاد يوجد شكّ في أنّها - في أواخر القرن الثامن - زوّدت الإمبراطوريّة بعائدات هامّة . كان لدى الإمبراطوريّة الأشوريّة - وفقاً لذلك - اهتمام قويّ في أمن طُرُق الصّحراء التي تنطلق من شبه الجزيرة العربيّة ، وتُؤدّي شمالاً إلى نهاياتها على ساحل البحر الأبيض المتوسّط . في إحدى نُقُوش انتصاراته ، اعتبر الملك الأشوري تَغَلات يلاصّر الثالث - غزّة النّهاية التقليديّة لطُرُق الصّحراء ، ك'جَمْرِك الإمبراطوريّة الأشوريّة' ، ووَضَعَ موطّفيّه المسؤولين هناك لجمع

الضرائب والرُسوم من الميناء، الذي كان يعمل كمخرج إلى البحر لطرق القوافل البرية. أعلن سرجون الثاني أنه فتح حدود مصر للتجارة، ولامتزاج الآشوريين والمصريين. لقد تمّ في الحقيقة - اكتشاف عدد من الحصون الآشورية، ومراكزها الإدارية في أماكن مختلفة في السهل الساحلي الجنوبي، وتمّ تنقيب موقع مُحصّن كبير، مع آثار مُستودعات (مخازن)، على الساحل جنوب غزة. يُظهر تجميع العظام الحيوانية التي نُقبت من تل جمة Jemeh. موقع آخر قُرب غزة - زيادة مُثيرة في عدد الجمال في القرن السابع. تقترح دراسة العظام التي قام بها عالم الآثار الحيوانية Archaeozoologist 'باولا وابنيش' Paula Wapnish بأنّ هذه الجمال - كلّها في سنّ البلوغ والنضج، لذا؛ ليست جزءاً طبيعياً من قطعان تمّ تربيتها محلياً. استعملت - احتمالاً - في تجارة القوافل.

اشتملت الأراضي التي تقع في أقصى الجنوب - والتي كانت مازال تحت سيطرة مملكة يهوذا - في وادي بئر سبع، ومرفعات الأدميين، والسهل الساحلي الجنوبي، على بعض أهمّ طرق القوافل. كانت مناطق مرتّ بحالة نموسكاني لم يسبق له مثيل، في القرن السابع. حدّث أول احتلال سكاني، واسع الانتشار، لهضبة الأدميين، في هذا الوقت بالذات، تحت الهيمنة الآشورية. في الحقيقة، لم تظهر أدم كدولة مُتطورة بالكامل، إلاّ كنتيجة لهذه التطورات.

تُشير الاكتشافات الأثرية الغنيّة والمختلفة في المنطقة الواسعة بين أدم وفلسطين، إلى أنّ آشوريين، وعرباً، فينيقيين، وأدوميين، اشتركوا في ذلك النشاط التجاري المزدهر. كانت يهوذا، تحت "منسى"، مشاركا بارزاً أيضاً. يجب فهم موجة الاستيطان السكاني في وادي بئر سبع على هذه الخلفية، بل حتّى ربّما تكون يهوذا قد توسّعت أبعد جنوباً على طول طرق التجارة. لقد تمّ تنقيب حصنين كبيرين يعودان للقرن السابع في عمق الصحراء؛ الأوّل هو "قادش برنيع" Kadesh barnea على الهامش الغربي لمرفعات القُتب، حوالي خمسين ميلاً جنوب غرب بئر سبع. يُسيطر الموقع على أكبر واحة تقع على الطريق التجاري المهمّ الذي يبدأ من جنوب فلسطين إلى رأس خليج العقبة، ويستمرّ إلى الأمام نحو بلاد العرب. الحصن الثاني تمّ تنقيبه مؤخراً في "حسيفة": موقع يقع حوالي عشرين ميلاً جنوب البحر الميت على الطريق الآخر إلى الجنوب. قادت الاكتشافات في الحصنين المورّخ التوراتي "نداف نيمان"

لاقتراح أن كلا الحصنين بُنيَ في القرن السابع الأول ق. م، تحت الرعاية الآشورية، بمساعدة الدول المحلية التابعة، وأديرا بقوات من يهوذا وأدوم.

فُزِدْنَا النُقُوشَ العَرَبِيَّةَ الجَنُوبِيَّةَ التي وُجِدَتْ في عدَّةِ مواقع في يهوذا بدليل قاطع على الصَّلَاتِ القَوِيَّةِ مع بلاد العَرَبِ في ذلك الوقت. يأتي مثل هذا النُّوع من الدَّليل - أيضاً - من أُورُشَلِيم (القُدْس)؛ اِكْتَشَفَتْ ثلاثة رقائق فخَّاريَّة مَكْتُوبَ عليها بِالخَطِّ العَرَبِيِّ الجَنُوبِيِّ في مدينة داود. وبما أَنَّهَا نُحِتَتْ على أوانِ فخَّاريَّة يَهُودَوِيَّة نَمَطِيَّة - وليس على أنواع مُستوردة - فإنَّ هَذَا يشهد على إقامة مُحتملة لسكَّان عَرَبٍ في يهوذا. هُنَاك ختمٌ عَرَبِيٌّ من نَمَطِ القرن السابع يبدو أَنَّهُ يَحْمِلُ اسماً عَرَبِيًّا جَنُوبِيًّا. في هذا الصَّدَد؛ حاول عدَّةُ عُلَمَاءٍ أَنْ يُبْرهنوا أَنَّ زَوْجَةَ "مَنْسَى" مَشْلُومَةُ بِنْتُ حَارُوصَ Meshullemeth كانت امرأة عَرَبِيَّة. هل من المُمكن أن يكون هذا زَوْجاً دِبْلُوماسِيًّا استهدف دَعْمَ مَصَالِحِ يَهُودَا التِّجَارِيَّةِ في الجَنُوب؟ هل من المُمكن أن تكون حكاية سَفَرِ التَّنِيَّةِ عن ملكة شيبيا (سبأ) التي تزور سُلَيْمَانَ في أُورُشَلِيم (القُدْس) اسْتُلْهِمَتْ من الاتِّصَالَاتِ الثَّقَافِيَّةِ والطَّمُوحَاتِ الاِقْتِصَادِيَّةِ لِمَلِكِ داوُدِ آخر في القرن السابع؟

لم يكن الاتِّصَالُ العَرَبِيُّ أَقْبَى التَّوَسُّعِ الاِقْتِصَادِيِّ الوَحِيدِ. لقد احتكر الآشوريُّون - أيضاً - وطوَّروا إنتاج زيت الزيتون الشرقي.

هُنَاك دليل على هذا الأمر من تَلِّ مِيقِنَة Mique : موقعٌ في غرب "شَفَلَة"، وهو موقع عَفْرُونِ القَدِيمَةِ، إحدى المُدنِ الرِّئاسِيَّةِ لِفِلَسْطِينَا. لقد نَمَتْ "عَفْرُون" - التي كانت لِقُرُونٍ سَابِقَةٍ مُجَرَّدَ موقعٍ بَسِيطٍ قَبْلَ الاِحْتِلَالِ الآشُورِيِّ لِلْمَنْطِقَةِ - لِتُصْبِحَ مَرَكْزاً ضَخْمًا لِإِنْتِاجِ زَيْتِ الزَيْتُونِ في أوائل القرن السابع. لقد اِكْتَشَفَتْ مِثْلَ مَعْصِرةِ زَيْتِ زَيْتُونِ في تلكِ المَنْطِقَةِ، وهو عددٌ يَفُوقُ ما وُجِدَ في أيِّ مَوْجِعٍ آخَرَ في كُلِّ تَارِيخِ البَلَادِ. في الحَقِيقَةِ؛ كان هذا أكبرَ مَرَكْزٍ عَظِيمٍ لِإِنْتِاجِ زَيْتِ الزَيْتُونِ عُرِفَ في كُلِّ تَارِيخِ الشَّرْقِ الأَدْنَى القَدِيمِ. غَطَّتْ المَنْطِقَةُ الصَّنَاعِيَّةَ حِوَالِي خُمُسِ رُقْعَةِ المَدِينَةِ. حُصِّنَتْ قُدْرَةُ الإِنْتِاجِ السَّنَوِيَّةِ بِحِوَالِي أَلْفِ طَنٍ.

كان زيت عَفْرُونِ يُنْقَلُ - على ما يبدو - إلى الإمبراطوريَّةِ الآشُورِيَّةِ ومِصرَ، الأَرْضَيْنِ اللَّتَيْنِ تَفْتَرانِ إلى البيئَةِ المُنَاسِبَةِ لِنُموِّ البَسَاتِينِ الزَيْتُونِيَّةِ، ولِإِنْتِاجِ زَيْتِهَا الخَاصِّ، لَكِنْ عَفْرُونُ نَفْسُهَا لَيْسَتْ واقِعَةٌ في المَناطِقِ التَّقْلِيدِيَّةِ لِزِرَاعَةِ وإِنْتِاجِ الزَيْتُونِ في التَّلَالِ. في الحَقِيقَةِ؛ إِنَّهَا تَقَعُ

في أرض مُستوية مثالية لإنتاج الحبوب. لكن؛ يبدو أنه تم اختيارها كمرکز للإنتاج؛ بسبب موقعها على شبكة الطرق الرئيسية للسَّهل الساحلي الجنوبي، على نصف الطريق بين حُقُول الزيتون في المرتفعات (التلال) ومناطق التوزيع الرئيسية في ساحل الغرب.

لأبد أن البساتين التي كانت تُزود الصنّاعة العفرونية بالزيتون كانت تقع في منطقة المرتفعات في يهوذا، ومن المُحتمل أن تكون. أيضاً. في مُحافظة السامرة الأشورية في الشَّمال. كما ذكرنا سابقاً؛ سجّل القرن السابع التصنيع الحقيقي للإنتاج الزيتوني في يهوذا التي ربّما كانت المزود الرئيسي بالزيتون للصنّاعة العفرونية. لقد اقترح مُتقياً موقع عُفرون. ترود دونان<sup>1</sup> Trude Dothan، من الجامعة العبرية في القدس، وسيمور جتّين<sup>2</sup> Seymour Gitin من معهد أولبرايت Albright. انطلاقاً من الأعداد الهامة للمذابح البخور الإسرائيلية النَّمطية التي وجدناها في أبنية مُعاصر الزيت، اقترحا أن تكون أعداد كبيرة من أهالي يهوذا قد أُعيد توطينهم قسراً في فلسطين من قِبَل سَنحاريب؛ ليكونوا عمالاً مُسَخَّرين. وهكذا تم كَسْر حاجز آخر. وإن كان بطريقة قاسية وبدم بارد. بين يهوذا والعالم الخارجي.

لقد تطلَّبت كُلُّ هذه المُبادرات الاقتصادية النشطة. التي تمَّ التخطيط لها مركزياً. مركزية أكثر للدولة اليهودية. تطلَّبت زراعة أشجار الزيتون وكُرُوم العنب على نطاق واسع ومُنتجاتها الصناعية توفير تسهيلات لأجل تخزينها، ونقلها، وتوزيعها بشكل فعّال. علاوة على ذلك، تطلَّبت الاستيطان المكثَّف وزراعة المناطق القاحلة تخطيطاً بعيد المدى. كان من الضروري تخزين الكميات الكبيرة من فائض الحبوب في السَّنوات الجيدة، وتوزيعها من المراكز في سنوات الجفاف الحاد. يدعم الدليل الأثري قَرَضِيَّة التَّدخُّل الحكومي المتزايد في كُلِّ مراحل الحياة في يهوذا، إلى حدِّ أن عدد الأختام، وطبعات (دَعَمَات) الختم، والرفاق الفخارية الإدارية المكتوب عليها، والأوزان الرسمية في يهوذا القرن السابع، تجاوزت بكثير. الكميات التي كانت تُوجَد من قِبَل.

#### الأقدار المتغيرة:

يُعَدُّ القرن الآشوري. من السَّنوات الأخيرة لحُكم آحاز إلى أيام حزقيا<sup>3</sup> ومنسى. حالة فاتنة من التآرجحات السياسية المثيرة في يهوذا. تقلَّبت الملوك الثلاثة. الجدد، والأب،



والابن -بين المواجهة والارتباط بالسلطات الآشورية وبين التوفيقية الدينية (إشراك عبادة يهوه مع عبادة آلهة أخرى)، والسياسات الدينية التطهيرية. معالجة المؤرخ التوراتي لها تعكس أيضاً. هذه التغييرات، ولكن؛ من منظور مختلف تماماً. لقد وُصف آحاز كوكثي تعاون من الآشوريين. أمّا حَزَقِيَّا؛ فكان عكس ذلك تماماً. لم يكن هناك في عهده أية أخطاء، بل حسّات فقط. لقد كان ملكاً مثالياً طهر يهوذا من كل تجاوزات الماضي. وخلافاً لآبيه الآثم، الذي أخضع يهوذا -بكل إرادته- إلى الإمبراطورية الآشورية، قاتل حَزَقِيَّا ببسالة، ونزع عنه نير الإمبراطورية الآشورية. هدّد الآشوريون أورشليم (القدس)، لكن يهوه أنقذ المدينة بنحو معجز. وتنتهي القصة دون تلميح إلى الخوض المستقبلي للإمبراطورية الآشورية، وبإستثناء آية واحدة؛ لا توجد كلمة واحدة عن النتائج الكارثية المريعة لحملة الإمبراطورية الآشورية على ريف يهوذا. كان مَنَسَّى - أيضاً - صورة مطابقة لآبيه، ولكن؛ بشكل سلبي هذه المرة. إنه المرتد الكامل، الذي قضى على الإصلاحات، وأعاد كل موبقات الماضي.

ما نحصل عليه من المصادر الخارجية ومن علم الآثار يختلف جداً عن ذلك. لقد أيقظ انهيار المملكة الشمالية أحلام توحيد كل الشعب الإسرائيلي تحت عاصمة واحدة في: أورشليم (القدس)، وهيكل (معبد) واحد، وأسرّة واحدة حاكمة، ولكن؛ في مواجهة الآشوريين الأقوياء لم يكن هناك إلا خياران اثنان: نسيان الحكم، والتعاون مع الإمبراطورية الآشورية، أو المضي قدماً في السياسة الوطنية، وانتظار اللحظة المناسبة لنزع نير الإمبراطورية الآشورية. إن المخاطر الكبيرة تتطلب إجراءات قُصوى؛ وقد شهد القرن الآشوري انتقالات فجائية مثيرة بين هذين الخيارين.

لقد كان آحاز ملكاً حذراً ومصليحياً (براغماتياً) أنقذ يهوذا من مصير إسرائيل الرهيب، وقادها نحو الازدهار. لقد أدرك أن الطريق الوحيد للبقاء والاستمرار كان التحالف مع الإمبراطورية الآشورية، وقد كَسَبَ -كاتب موالٍ- بعض التنازلات والتخفيفات الاقتصادية من أسياده الكبار، وأدمج يهوذا في اقتصاد الإمبراطورية الآشورية الإقليمية. لقد حكّم آحاز فترة من الازدهار لا سابقة له في يهوذا، عندما وصلت يهوذا -لأوّل مرة- إلى مرحلة الدولة المتطورة بشكل كامل. ولكنه لسماحه بازدهار الممارسات الدينية التقليدية، نال سخط وغضب المؤرخ التثوي.

في سنواته الأولى في الحكم؛ لم يكن لدى 'حزقيآ' أي خيار سوى مواصلة السير على خطى أبيه؛ ولكن؛ عندما مات 'سرجون' العظيم في ساحة المعركة، وجاء 'سنحاريب' إلى السُلطة، واجهت الإمبراطورية الآشورية تمرّداً في أجزاء مختلفة من الإمبراطورية. فُجأة، بدت فكرة 'إحياء' الدولة الإسرائيلية القومية الشاملة، واقعية، خاصة مع المساندة والدعم والمتوقع من مصر. شنّ 'حزقيآ' حملة إصلاح ديني، أفادت في تبرير الانقضاة، وأيقظت السُكّان لدعّمها، ولكن الثورة ضدّ الإمبراطورية الآشورية كانت قراراً متهوراً، أدّى إلى الكارثة.

عندما جاء 'منسى' إلى العرش؛ عادت السُلطة في أورشليم (القدس) إلى المُعسكر المعتدل. ولما لم يكن له من العمر سوى اثني عشر عاماً فقط، لا يكاد يُوجد شك بأنّ الانقلاب في أورشليم (القدس) تمّ التخطيط له من قبل. قلب 'منسى' حركة العجلة إلى الوراء نحو أيام 'آحاز'. إن فترة حكمه الطويلة تؤشّر إلى الانتصار الكامل للمُعسكر البراغماتي (المصلحي)، والتوفيق الديني. لقد اختار التعاون مع الإمبراطورية الآشورية، وأعاد دمج 'يهودا' في الاقتصاد الإقليمي الآشوري. ومثل العنقاء التي ترتفع من الرماد<sup>(1)</sup>، بدأت 'يهودا' بالتعافي من صدمة حملة 'سنحاريب'.

لا بدّ أنّ أنبياء وحكماء حركة يهوه - وحده - أصيبوا بالإحباط بشدّة لهذا التحوّل في مجرى الأحداث. لقد تمّ إزالة كلّ الإنجازات السابقة ليطلبهم 'حزقيآ' في قضائه على إثم عبادة الأوثان وتعديده للإمبراطورية الأجنبية، أولاً؛ من قبل جيوش 'سنحاريب' الوحشية، وبعد ذلك؛ بواسطة ابن 'حزقيآ' نفسه. إذا كان من الممكن اعتبار 'حزقيآ' مُنقذ إسرائيل المُحتمل، فإنّ ابنه 'منسى' كان - بالنسبة إليهم - الشيطان. هناك إشارات في القصة التوراتية إلى اندلاع قلاقل واضطرابات أهلية من حين لآخر في 'يهودا'. ما تزال الحوادث الخاصة وراء ما نُقل من أنّ 'منسى' [سَفَكَ - أيضاً - منسى دماً بريئاً كثيراً جداً، حتّى ملأ أورشليم من الجانِب إلى الجانِب، فضلاً عنّ خطيئته التي بها جعل يهودا يُخطئ بعمل الشرّ في عيني الربّ.] [سفر الملوك الثاني: 21 / 16]، مجهولة الأسباب، ولكننا يمكن أن نتخيّل أنّ معارضي الملك لربّما حاولوا الاستيلاء على السُلطة. فلا عجب - بعد ذلك - أنّ نرى التثوين الذين استولوا على

(1) الفُونيكنس: العنقاء؛ طائر خرافي زعم قداماء المصريين أنّه يُعمر خمسة قُرُون أو ستّة، وبعد أن يحرق نفسه ينبعث من رماده وهو أتمّ ما يكون شباباً وجمالاً. (المُترجم).

الحكم في 'يهودا' بعد فترة قصيرة من موت منسى، ويدووا كتابة تاريخ المملكة، وضعوا  
القصة. لقد صوروا منسى كأفسق الملوك، وأب لكل المرتدين الكفرة.

الجدول 7 ملوك يهودا من "حزقيا" إلى يوشيا

الملك	التواريخ <sup>(٥)</sup>	تقييم الكتاب القدس	شهادة الكتاب القدس	شهادة من خارج الكتاب القدس	الدلائل والشواهد الأثرية
'حزقيا'	698 - 727	مستقيم صالح	إصلاح ديني؛ القيام ضد آشوريا؛ خلاص أورشليم (القدس)	'سنحاريب'، يجتاح 'يهودا'، الستجلات ولوحة التحت النافر في نينوا	تموأورشليم (القدس) بشكل مفاجئ حاد؛ سور جديد في أورشليم (القدس)؛ نفق سيلوم؛ مقبرة سيلوم؛ التحصينات في لخيش؛ ازدهار في وادي بئر سبع؛ دمار في لخيش ومواقع أخرى؛ شواهد على معرفة القراءة والكتابة.
'منسى'	642 - 698	الأكثر فسقاً وكفراً	مرتد كافر كبير؛ يريق الكثير من الدماء البريئة.	يدفع الجزية في للإمبراطورية الآشورية	تموأسكاني في وادي بئر سبع وصحراء 'يهودا'؛ بناء حصن قادش برنيع؛ 'يهودا' تشارك في إنتاج زيت الزيتون في 'عقرون'؛ شواهد متزايدة على معرفة القراءة والكتابة.

(٥) طبقاً ل Anchor Bible Dictionary أي: قاموس مُرتكز (أو سَند) الكتاب المقدس.

أمون	641 - 640	سعي	قتل في انقلاب عسكري .		
يوشيا	639 - 609	الأكثر استقامة وصلاً	مصلح ديني كبير ؛ يأخذ بيت إيل ؛ يقتله الفرعون نكا (نخاو)	ازدهار متواصل في وادي بئر سبع ؛ تعافي في شفلة ؛ ضد الأيقونات في الأختام ودمغات الأختام	

### الاقتراب من الذروة:

إن نجاح منسى في تحويل يهوذا من الأرض المفقرة، التي تركها سنحاريب إلى دولة متطورة جداً في الإمبراطورية الآشورية، جلب ثروة عظيمة إلى البعض، وإزاحة اجتماعية وحيرة إلى الكثيرين. كما أشار إلى ذلك باروخ هالبرن لأول مرة، مع تدفق اللاجئين من الشمال بعد سقوط السامرة، وإعادة تنظيم الريف تحت حرقياً، والسيل الثاني للاجئين النازحين من خرابات شفلة التي سببها سنحاريب، تحطم جزء كبير من الارتباطات العشائرية التقليدية بأراضٍ معينة إلى الأبد. أما في الريف؛ فقد أفادت الاقتصاديات الموسعة - المطلوبة لإنتاج كميات هائلة من الزيتون لأجل العصر والحبوب لأجل التوزيع - أولئك الذين أمكنهم تنظيم آلية التجارة والإنتاج الزراعي أكثر بكثير مما أفادت أولئك الذين كانوا يعملون في الحقول. إلى المدى الذي كان يمكن للعشائر التي بقيت على قيد الحياة أن تدعي فيه وجود سلسلة متصلة من ميراثها لحقولها وقرائها ورؤوس مرتفعاتها، فإن آثار الحرب، والتغير السكاني، والتخطيط الاقتصادي الملكي المكثف، قد يكون شجع الكثيرين منهم على أن يحلموا بالماضي الذهبي الفاتت - سواء الواقعي أو المتخيل - عندما حل أجدادهم، وسكنوا بأمان في أراضٍ محددة واضحة المعالم، وتمتعوا بالسلام والازدهار الأبديين في أرضهم التي وعدهم إياها الله.

سنتاني قرياً ذروة القصة. مات مَنْسَى عام 642 ق. م، وَحَلَفَهُ ابْنُهُ آمُون. طبقاً لسفر الملوك الثاني، آمون [عَمَلَ الشَّرِّ فِي عَيْنِي الرَّبِّ، كَمَا عَمَلَ مَنْسَى أَبُوهُ.] [سفر الملوك الثاني (20/21).

خلال سنتين؛ وَكَعَ انقلاب عسكري في أورشليم (القدس)، اغتيل آمون على أثره. وقام شعب الأرض - ويُقصدُ بهم - على ما يبدو - النخبة الاجتماعية والاقتصادية في يهوذا - بذيح المتآمرين بشكل مُروع، وَوُضِعَ يوشيا ابن آمون، الذي كان له من العمر ثماني سنوات - فقط - على العرش. حَكَمَ يوشيا أورشليم (القدس) لمدة واحد وثلاثين عاماً، ومُدِحَ كأكثر الملوك استقامة في تاريخ يهوذا، مُنافساً حَتَّى سَمْعَةَ داود نفسه. وفي عهده؛ رَجَعَ مُعسِكر يَهُوَه - وحده - إلى السُّلْطَة مرة ثانية.

هذه المرة - أيضاً - تَصْطَلِدُ اعتمادات تلك الجماعة الدينية العاطفية، ورؤيتهم ضيقة النظر العنيدة لقوة يَهُوَه وقدرته على حماية يهوذا والأسرة الداودية من كُلِّ أعدائها الأرضيين، مع الحقائق القاسية للتاريخ، ولكن؛ هذه المرة سيتركون وراءهم عهداً ووصية رائعة، تُبْقِي أفكارهم حيّة. إنَّ نَصَبَهُم التذكاري الكبير سيكون جَمْعاً للنصوص العبرية التي تُعْبِرُ عن رؤيتهم للتاريخ وآمالهم المُسْتَقْبَلِيَّة. تلك القصة الجماعية هي الأساس الثابت للكتاب المُقَدَّس العبري كما نعرفه اليوم.

## الفصل (11):

### إصلاح كبير (639 . 586 ق.م)

يُشكّل عهد الملك يُوشيا - ملك يهوذا - ذروة تاريخ إسرائيل الملكي، أو - على الأقل - يجب أن يكون قد بدا كذلك في ذلك الوقت . بالنسبة لمؤلف التاريخ الشنوي ؛ شكّلت فترة حكم يُوشيا لحظة وراء طبيعية (ميتافيزيقية) لا تكاد تقل أهميتها عن لحظات ميثاق الله مع إبراهيم، والخروج (الجماعي) من مصر، والوعد الإلهي للملك داود . ليس الأمر مجرد أن الملك يُوشيا ينظر إليه في الكتاب المقدس العبري كوارث نيبيل وشريف موسى، ويشوع وداود؛ بل يبدو أنه عندما تم رسم الخطوط العامة ذاتها لأولئك الأشخاص العظماء في القصة التوراتية، كانت صورة يُوشيا الفعلي هي التي في الذهن . يُوشيا هو الصورة المثالية التي بدا أن كل تاريخ إسرائيل يتجه نحوها : [ 25 وكم يكن قلبه ملك مثله قد رجّع إلى الرب بكل قلبه، وكل نفسه وكل قوته حسب كل شريعة موسى، وبعده لم يقم مثله . ] (سفر الملوك الثاني 23/ 25)، وهو مستوى من الشاء والمديح لم يظهر لأي ملك توراتي آخر .

جاء يُوشيا - الحفيد المباشر من الطبقة السادسة عشرة للملك داود - إلى العرش وعمره ثماني سنوات، على أثر حادثة عثف تمّ خلالها اغتيال أبيه في أورشليم (القدس) . لا نعرف إلا القليل جداً عن حياته المبكرة . نكاد نقطع بأن قصص يفظته الدينية في سن الرأهقة، المذكورة في سفر أخبار الأيام الثاني 34/ 3 هي من نوع إعطاء صورة مثالية لسيرة شخص ذاتية، بعد عهده، ولكن؛ أثناء فترة الإحدى وثلاثين سنة من حكمه لمملكة يهوذا، عرف يُوشيا من قبل الكثيرين على أنه الأمل الأعظم للإصلاح والسداد الوطني، المسيح المنتظر الأصيل الذي جاء به القدر لإعادة الأمجاد الداهية لبيت إسرائيل . إمّا بسبب، أو بالتوافق مع عقائد سفر شريعة "اكتشف"

- بشكل إعجازي (أعجوبي) - في الهيكل (المعبد) في أورشليم (القدس)، بدأ 'يوشيا' حملة لاستصصال كل أثر لعبادة أو طقس أجنبي أو توفيقى (شركي)، بما في ذلك الأماكن القديمة العالية في الريف. لم يتوقف هو وفوائه التطهيرية (اليوريتانية) حتى عند الحدود الشمالية التقليدية لمملكته، بل واصل شمالاً حتى 'بيت إيل'؛ حيث كان 'يربعام' المكروه قد أسس معبداً منافساً لذلك الذي في أورشليم (القدس)؛ وحيث (كما تروي نبوءة سفر الملوك الأول 2/13) سيقوم وارث لداود اسمه 'يوشيا' بحرق عظام كهنة الشمال الوثنيين يوماً ما.

نَجِّحَ الدَّورَ المِسيحاني لِيُوشِيَا مِنْ عِلْمِ لَاهُوتِ حَرَكَةِ دِينِيَّةِ جَدِيدَةٍ غَيَّرَتْ - بِشَكْلِ مُثِيرٍ - مَعْنَى أَنْ يَكُونَ الشَّخْصَ إِسْرَائِيلِيًّا، وَوَضَعَتْ أَسَاسَ الْيَهُودِيَّةِ الْمُسْتَقْبَلِيَّةِ، وَالْمِسيحِيَّةِ. أَنْتَجَتِ تِلْكَ الْحَرَكَةُ - فِي النِّهَايَةِ - الْوِثَاقَ الرَّئِيسِيَّةَ لِلْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، وَالَّتِي أَهْمَهَا هُوَ 'سَفَرُ الشَّرِيعَةِ'، الَّذِي اكْتُشِفَ أثنَاءَ تَرْمِيمَاتِ مَعْبَدِ أُورُشَلِيمِ (الْمُقَدَّسِ) سَنَةَ 622 ق. م؛ أَيِ السَّنَةِ الثَّامِنَةِ عَشْرَةَ مِنْ حُكْمِ 'يُوشِيَا'. أُطْلِقَ ذَلِكَ الْكِتَابِ، الَّذِي حَدَّدَ أَكْثَرَ الْعُلَمَاءِ هُوِيَّتَهُ بِأَنَّهُ شَكْلٌ أَصْلِيٌّ لِكِتَابِ 'سَفَرِ التَّنِيَّةِ'، ثَوْرَةً فِي الطَّقُوسِ، وَدَقَّقَ إِلَى إِعَادَةِ صِيَاغَةِ كَامِلَةِ الْهَيُوتَةِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ. لَقَدْ اِحْتَوَى عَلَى الْخِصَائِصِ الْأَسَاسِيَّةِ وَالْمَرْكَزِيَّةِ لِلتَّوْحِيدِ التَّوْرَاتِيِّ: الْعِبَادَةِ الْمُخْلِصَةِ الْخَاصَّةَ لِلْإِلَهِ الْوَاحِدِ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ؛ الْمُحَافَظَةَ الْوَطَنِيَّةَ الْمَرْكَزِيَّةَ عَلَى الْمَرَامِ وَالْمَهْرَجَانَاتِ الرَّئِيسِيَّةِ لِلسَّنَةِ الْيَهُودِيَّةِ (عِيدِ الْفِصْحِ، وَعَاءِ خُبْزِ الْقُرْبَانِ)؛ وَمَجْمُوعَةٌ مِنَ التَّشْرِيعَاتِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِالْخَيْرِ وَالصَّالِحِ الْاجْتِمَاعِيِّ، وَالْعَدَالَةِ، وَالْمَبَادِيءَ الْأَخْلَاقِيَّةَ الشَّخْصِيَّةَ.

كَانَتْ تِلْكَ هِيَ اللَّحْظَةُ التَّشْكِيلِيَّةَ فِي تَبْلُورِ التَّقَالِيدِ التَّوْرَاتِيَّةِ كَمَا نَعْرِفُهَا الْآنَ. وَمَعَ هَذَا؛ فَقَدْ رَكَّزَتْ قِصَّةَ عَهْدِ 'يُوشِيَا' - كَلِيًّا تَقْرِيْبًا - عَلَى طَبِيعَةِ إِصْلَاحَاتِهِ الدِّيْنِيَّةِ، وَمَا رُويَ عَنْ مَدَاهَا الْجُغْرَافِيَّةِ. لَمْ يَتِمَّ تَسْجِيلُ إِلَّا الْقَلِيلِ مِنَ الْأَحْدَاثِ التَّأْرِيخِيَّةِ الْأَكْبَرِ الَّتِي كَانَتْ تَحْدُثُ فِي الْمَنَاطِقِ الْمُحِيطَةِ بِيَهُودَا، وَكَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ قَدْ أَثَّرَتْ فِي ظُهُورِ وَبُرُوزِ الْعَقِيدَةِ التَّنَوُّبِيَّةِ. قَدْ يُسَاعِدُنَا فَحْصُ الْمَصَادِرِ التَّأْرِيخِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ وَالْمُكْتَشَفَاتِ الْأَثَرِيَّةِ عَلَى فَهْمِ كَيْفَ أَصْبَحَ 'يُوشِيَا' - الْمَلِكُ الَّذِي كَانَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَنَسِيًّا لِكَوْنِهِ مُجْرَدٌ حَاكِمَ مَمْلَكَةٍ صَغِيرَةٍ جَدًّا نَحْتِ ظِلِّ قُوَّةٍ عَالِيَةٍ عَظْمَى - سِوَاهُ شُؤْرِيًّا أَوْ بِشَكْلِ غَيْرِ مُتَعَمِّدٍ، رَاعِيًا لِحَرَكَةٍ تَقَافِيَّةٍ وَرُوحِيَّةٍ، أَنْتَجَتِ بَعْضَ تَعْلِيمَاتِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ الْعِبْرِيِّ الرَّئِيسِيَّةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ، وَرُؤْيَتِهِ الْفَرِيدَةَ تَارِيخِ إِسْرَائِيلِ.

اكتشاف غير متوقَّع في الهيكل (المعبد):

يبدأ هذا الفصل البالغ الأهمية من تاريخ الحياة السياسيَّة والروحيَّة ليهوذا بصعود الأمير الشابِّ "يوشيا" إلى العرش، وتويجه ملكاً عام 639 ق. م. . لقد بدأت تلك اللحظة نُقطة تحوُّل في رؤية الكتاب المقدَّس العبريِّ لصرُوف الزَّمان وسُعود الحياة ونُحوسها للملوك "الأشهار الأثمين" و"الأخبار المُستقيمين" في تاريخ يهوذا. كان "يوشيا" وريثاً مُخلصاً لداود؛ حيث: [عمل المُستقيم في عيني الرَّبِّ، وسارَ في جميع طريق داود أبيه. ولمَّ يحدَّ يميناً ولاً شمالاً.] (سفر الملوك الثاني 2/ 2).

طبقاً للكتاب المقدَّس، ذلك الصَّلاح والاستقامة قادت "يوشيا" إلى عمل حاسم. في السَّنة الثامنة عشرة لحُكمه. أي سنة 622 ق. م. أمر "يوشيا" الكاهن الأكبر "حلقياه" باستعمال الأموال العامَّة لترميم وتجديد بيت إله إسرائيل. أدَّت التجديدات إلى ظُهور مُثير لنصٍّ وُجده الكاهن الأكبر في الهيكل (المعبد)، وقراه سكرتيره "شافان" Shaphan على الملك. كان تأثيره هائلاً، لأنَّه -فجأة- وبشكل مُريع -مُسبب لصدمة، كُشِفَ أنَّ الممارسة التقليديَّة لعبادة يهوه في يهوذا كانت خاطئة.

جَمَعَ "يوشيا" كُلَّ شعب يهوذا ليأخذ عليهم عهداً جديداً أن يكرسوا أنفسهم كلياً لطاعة واتباع الوصايا الإلهيَّة المُفصلة في الكتاب المكتشف حديثاً: [وصعد الملكُ إلى بيت الرَّبِّ وجميعُ رجال يهوذا وكلُّ سكَّان أورشليم معه، والكهنةُ والأنبياءُ وكلُّ الشعب من الصَّغير إلى الكبير، وقرأ في آذانهم كُلَّ كلام سفر الشريعة الذي وُجد في بيت الرَّبِّ. 3 ووقَّف الملكُ على المنبر، وكطَّع عهداً أمام الرَّبِّ للذهاب وراء الرَّبِّ وحفظ وصاياه وشهاداته وقرَّضه بكلِّ القلب وكلِّ النَّفس، لإقامة كلام هذا العهد المكتوب في هذا السُّفر. ووقَّف جميعُ الشعب عند العهد.] (سفر الملوك الثاني 2/ 3).

ثمَّ، لأجل القيام بتطهير شاملٍ لعبادة يهوه، أطلق "يوشيا" حملة إصلاح تطهيريَّة كانت الأكثر حدةً في تاريخ يهوذا. كان هدفه الأوَّل: القضاء على المناسك الوثنيَّة التي تُمارَس في أورشليم (القُدس)، حتَّى ضمن الهيكل (المعبد) بنفسه: [وأمر الملكُ حلقياً الكاهن العظيم وكهنة الفرقة الثَّانية وحُرَّاس الباب أن يُخرجوا من هيكل الرَّبِّ جميع الآنية المصنوعة للبعل وكلسارية



وَلِكُلِّ أَجْنَادِ السَّمَاءِ، وَأَحْرَقَهَا خَارِجَ أُورُشَلِيمَ فِي حُقُولِ قَدْرُونَ، وَحَمَلَ رَمَادَهَا إِلَى بَيْتِ إِيلَ . 5  
 وَلَا سَى كَهَنَةَ الْأَصْنَامِ الَّذِينَ جَعَلَهُمْ مَلُوكَ يَهُودًا لِيُوقِدُوا عَلَى الْمُرْتَفَعَاتِ فِي مَدُنِ يَهُودًا وَمَا يُحِيطُ  
 بِأُورُشَلِيمَ، وَالَّذِينَ يُوقِدُونَ لِلْبَعْلِ: لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْمَنَازِلِ، وَلِكُلِّ أَجْنَادِ السَّمَاءِ . 6 وَأَخْرَجَ  
 السَّارِيَةَ مِنْ بَيْتِ الرَّبِّ خَارِجَ أُورُشَلِيمَ إِلَى وَادِي قَدْرُونَ، وَأَحْرَقَهَا فِي وَادِي قَدْرُونَ، وَدَقَّهَا إِلَى أَنْ  
 صَارَتْ غُبَارًا، وَدَرَى الْغُبَارَ عَلَى قُبُورِ عَامَةِ الشَّعْبِ . 7 وَهَلَمَّ بِيُوتَ الْمَأْبُونِينَ الَّتِي عِنْدَ بَيْتِ  
 الرَّبِّ؛ حَيْثُ كَانَتِ النِّسَاءُ يَسْجُنُ يُونَا لِلسَّارِيَةِ [سفر الملوك الثاني 23 / 4-7] .

استأصل مراكز العبادة الأجنبية، وبشكل خاص؛ مراكز العبادة التي كانت قد أنشئت -  
 على ما يقال - تحت الرعاية الملكية في أورشليم (القدس) منذ عهد مبكر بقدّم عهد سليمان:

[10] وَتَجَسَّ ثَوْفَةُ الَّتِي فِي وَادِي بَنِي هَنُومَ لَكِي لَا يُعْبَرُ أَحَدٌ ابْنَهُ أَوْ ابْنَتَهُ فِي النَّارِ لِمَوْلِكَ . 11  
 وَأَبَادَ الْخَيْلَ الَّتِي أُعْطَاهَا مَلُوكُ يَهُودًا لِلشَّمْسِ عِنْدَ مَدْخَلِ بَيْتِ الرَّبِّ عِنْدَ مَدْخَلِ تَشْتَلِكِ الْخَصِيِّ  
 الَّذِي فِي الْأُرُوقَةِ، وَمَرْكِبَاتِ الشَّمْسِ أَحْرَقَهَا بِالنَّارِ . 12 وَالْمَدَابِيحُ الَّتِي عَلَى سَطْحِ عَلِيَّةِ آحَازَ  
 الَّتِي عَمَلَهَا مَلُوكُ يَهُودًا، وَالْمَدَابِيحُ الَّتِي عَمَلَهَا مَنَسَى فِي دَارِي بَيْتِ الرَّبِّ، هَدَمَهَا الْمَلِكُ .  
 وَرَكَضَ مِنْ هُنَاكَ وَدَرَى غُبَارَهَا فِي وَادِي قَدْرُونَ . 13 وَالْمُرْتَفَعَاتُ الَّتِي قِبَالَ أُورُشَلِيمَ الَّتِي عَنْ  
 يَمِينِ جَبَلِ الْهَلَاكِ الَّتِي بَنَاهَا سُلَيْمَانُ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ لِعَشْتُورَثَ رَجَاسَةَ الصَّيْدِ وَنُيُونِ، وَكَلْمُوشَ  
 رَجَاسَةَ الْمُوَابِيِّينَ، وَكَلْكُومَ كِرَاهَةَ بَنِي عَمُونَ، نَجَسَهَا الْمَلِكُ . 14 وَكَسَرَ الثَّمَانِيَلِ، وَقَطَعَ  
 السُّوَارِيَّ، وَمَلَأَ مَكَانَهَا مِنْ عِظَامِ النَّاسِ . [سفر الملوك الثاني 23 / 10-14] .

وَصَنَعَ يُوْشِيَا حَدًّا . أَيْضًا . لِلطُّقُوسِ الْقُرْبَانِيَّةِ الَّتِي كَانَ يَقُودُهَا الْكَهَنَةُ الرَّيْفِيُّونَ الَّذِينَ كَانُوا  
 يُؤَدُّونَ مَنَاسِكَهُمْ وَطُقُوسَهُمْ فِي الْمُرْتَفَعَاتِ الْمُتَفَرِّقَةِ، وَفِي الْمَذَابِحِ الْمُتَوَرِّعَةِ فِي كَافَّةِ أَنْحَاءِ  
 الرَّيْفِ، [ وَجَاءَ بِجَمِيعِ الْكَهَنَةِ مِنْ مَدُنِ يَهُودًا، وَتَجَسَّ الْمُرْتَفَعَاتِ؛ حَيْثُ كَانَ الْكَهَنَةُ يُوقِدُونَ  
 مِنْ جِبَعٍ إِلَى بَثْرَ سَبْعٍ ] [سفر الملوك الثاني 23 / 8] .

وهكذا كان يتم القضاء على كل أماكن العبادة الوثنية القديمة واحداً تلو الآخر، حتى جاء  
 دور خطيئة "يرعام" الكبيرة في المذبح الوثني في "بيت إيل"؛ حيث أنجز النبوة التوراتية القائلة  
 بأنه في يوم من الأيام سيأتي ملك مستقيم يُسمى "يوشيا" سيقوم بتحطيمه:

[[15]] وَكَذَلِكَ الْمَذْبُوحُ الَّذِي فِي بَيْتِ إِيلَ فِي الْمُرْتَفَعَةِ الَّتِي عَمَلَهَا يِرْعَامُ بْنُ نِبَاطَ الَّذِي جَعَلَ إِسْرَائِيلَ يُخَطِّئُ، فَذَانِكَ الْمَذْبُوحُ وَالْمُرْتَفَعَةُ هَدَمَهُمَا، وَأَحْرَقَ الْمُرْتَفَعَةَ، وَسَحَقَهَا، حَتَّى صَارَتْ غِبَارًا، وَأَحْرَقَ السَّارِيَةَ. 16 وَالتَّمَّتْ يَوْشِيًا فَرَأَى الْقُبُورَ الَّتِي هُنَاكَ فِي الْجِبَلِ، فَأَرْسَلَ وَأَخَذَ الْعِظَامَ مِنَ الْقُبُورِ وَأَحْرَقَهَا عَلَى الْمَذْبُوحِ، وَتَجَسَّهَ حَسَبَ كَلَامِ الرَّبِّ الَّذِي نَادَى بِهِ رَجُلٌ اللَّهِ الَّذِي نَادَى بِهَذَا الْكَلَامِ. 17 وَقَالَ: [ مَا هَذِهِ الصُّوَّةُ الَّتِي أَرَى؟ ] فَقَالَ لَهُ رَجَالُ الْمَدِينَةِ: [ هِيَ قَبْرِ رَجُلِ اللَّهِ الَّذِي جَاءَ مِنْ يَهُوذَا، وَنَادَى بِهَذِهِ الْأُمُورَ الَّتِي عَمَلَتْ عَلَى مَذْبُوحِ بَيْتِ إِيلَ ]. 18 فَقَالَ: [ دَعُوهُ. لَا يَحْرُكُنْ أَحَدٌ عِظَامَهُ ]. فَتَرَكُوا عِظَامَهُ وَعِظَامَ النَّبِيِّ الَّذِي جَاءَ مِنَ السَّامِرَةِ. [[ سفر الملوك الثاني 23 / 15 - 18. ]]

ولم يتوقف يوشيا في بيت إيل، بل استمرت حملة التطهير مسافة أبعد إلى الشمال: [19] وكذا جميع بيوت المرتفعات التي في مدن السامرة التي عملها ملوك إسرائيل للإغاظة أزالها يوشيا، وعمل بها حسب جميع الأعمال التي عملها في بيت إيل. 20 ودبح جميع كهنة المرتفعات التي هناك على المذابح، وأحرق عظام الناس عليها، ثم رجع إلى أورشليم. [ سفر الملوك الثاني 23 / 19 - 20. ]

وحتى أثناء محاربه للوثنية؛ كان يوشيا يقيم الاحتفالات الدينية الوطنية: [21] وأمر الملك جميع الشعب: [ اعملوا فصحا للرب إلهكم كما هو مكتوب في سفر العهد هذا ]. 22 إنه لم يعمل مثل هذا الفصح منذ أيام القضاة الذين حكموا على إسرائيل، ولا في كل أيام ملوك إسرائيل وملوك يهوذا. 23 ولكن؛ في السنة الثامنة عشرة للملك يوشيا عمل هذا الفصح للرب في أورشليم. [[ سفر الملوك الثاني 23 / 21 - 23. ]]

عند التذكير بما حدث في السابق، نلاحظ أن وصف الكتاب المقدس العبري للإصلاح الديني لـ يوشيا في سفر الملوك الثاني / 23، لم يكن مجرد تسجيل بسيط للأحداث. لقد كان صياغة قصة محكمة بعناية تحتوي تلميحات إلى كل الشخصيات العظيمة والأحداث في تاريخ إسرائيل. هناك مقارنة ضمنية لـ يوشيا بموسى، المحرر العظيم وزعيم عيد الفصح الأول. كما تم قولته وتشكيله حسب شخصيتي يشوع وداود، الفاتحين العظمين، كما أنه يحذو حذو سليمان، راعي الهيكل (المعبد) في أورشليم (القدس). تصلح قصة إصلاحات يوشيا شرور الماضي أيضاً. يتم التذكير بذنوب المملكة الشمالية عندما ينجح يوشيا في تعظيم مذبح

يَرْتَعَامُ" في "بيت إيل"، مركز العبادة في مملكة إسرائيل، الذي نافس الهيكل (المعبد) في أورشليم (القدس) لمدة طويلة. وكانت السامرة هناك، واستدعيت إلى الدّهْن أمانها الوثنيّة العالية، والذكريات المرّة لدمارها. لقد وصل كلُّ تاريخ إسرائيل -الآن- إلى نقطة تحوّل. بعد فُرُوب من الظلم والخطأ، ظهرَ يوشيا. الآن -لتفسير ذنوب الماضي وقيادة شعب إسرائيل نحو البرِّ والسّداد عبر الاتّباع الدقيق والصادق للشريعة.

ماذا كان سفر الشريعة؟

كان اكتشاف سفر الشريعة حدكاً ذا أهمية أساسية في التاريخ اللاحق لشعب إسرائيل. لقد اعتُبر قانون الشريعة المُحدّد الذي أعطاه الله لموسى في سيناء، والذي تضمّن مُراعاة أحكامه بقاء شعب إسرائيل.

بحلُود القرن الثامن عشر؛ لاحظ علماء الكتاب المقدّس التشابهات الواضحة بين وصف "سفر الشريعة" الذي اكتُشف في الهيكل (المعبد) وكتاب "سفر التثنية". تُبيّن التشابهات الخاصّة والمباشرة بين محتويات سفر التثنية والأفكار التي تُبينها قصّة إصلاحات يوشيا في الكتاب المقدّس العبري. بشكل واضح -أن كلاهما يشترك في العقيدة نفسها. سفر التثنية هو الكتاب الوحيد في التوراة الذي يُصرّح بأنّه يحتوي على "كلمات العهد" التي يجب على كلِّ شعب إسرائيل أن يتبعها (9/29)<sup>(1)</sup>. وهو الكتاب الوحيد الذي يمنع التضحية خارج [المكان الذي يَخْتاره الربُّ إلهكم] (5/12)، بينما تُحيل أسفار التوراة الأخرى، مراراً وتكراراً، ويدون اعتراض، إلى العبادة في المذابح الأخرى في كافّة أنحاء الأرض. سفر التثنية هو الكتاب الوحيد الذي يصف تضحية عيد الفصح الوطنيّة في ضريح وطني (8.1/16)<sup>(2)</sup>. وفي حين

(1) نصّ العبارة: [9] فاحفظوا كلمات هذا العهد واعملوا بها لتصلحوا في كلِّ ما تفعلون. [الترجم]

(2) ونصّ العبارة: [احفظوا دائماً فبصّح الربُّ إلهكم في شهر أيب (أي شهر نيسان -أبريل)، قسي هذا الشهر أخرجكم الربُّ إلهكم من مصر لئلا. 2 وأذبحوا للربِّ إلهكم غنماً أو بقراً في الموضع الذي يختاره الربُّ ليحلَّ اسمه فيه. 3 لا تأكلوه مع خبز مختمر، بل كلوه مع فطير طوال سبعة أيام، لأن هذا هو خبز المشقة، إذ إنكم على عجل غادرتُم ديار مصر، وبذلك تتذكرون يوم خروجكم من ديار مصر كلَّ أيام حياتكم. 4 لا تبقوا خميراً في أراضكم طوال سبعة أيام، ولا بيت سبي من لحم حمل الفصح المذبوح في مساء اليوم الأوّل إلى الغد. 5 يحظر عليكم ذبح الفصح في أي من مدنكم التي يورثها لكم الربُّ إلهكم، 6 بل في المكان الذي يختاره الربُّ إلهكم ليحلَّ اسمه فيه تدبّحون الفصح في المساء، عند غروب الشمس، في نفس ميعاد خروجكم من مصر. 7 تفتشونه وتأكلونه في الموضع الذي يختاره الربُّ، ثم تنصرفون في الغد كلَّ إلى حيمته. 8 ستة أيام تأكلون فطيراً، وفي اليوم السابع تتوقّفون عن كلِّ عمل، وتحتفلون معكفين للربِّ. [سفر التثنية 8.1/16]. (الترجم).

من الواضح أن هناك إضافات تالية ضُمَّت إلى النصِّ الحالي لكتاب سفر التثنية، فإنَّ خُطوطه العامَّة الرئيسيَّة هي -بالضبط- نفس تلك التي حافظ عليها "يوشيا" سنة 622 ق. م، في أورشليم (القدس) للمرَّة الأولى.

تتطابق حقيقة أن هناك قانوناً شرعياً مدوَّناً ظهرَ -فجأة- في هذا الوقت، بنحو جيِّد، مع السَّجَل الأثاري الذي يبيِّن انتشار معرفة القراءة والكتابة في يهوذا. بالرَّغم من أن النبي هوشع والملك "حزقيا" ربطا بأفكار مشابهة لتلك التي تضمَّنها سفر التثنية، فإنَّ رواية ظُهُور نصِّ مكتوب مُحدَّد وقراءته في العُكُن أمام جُمهُور النَّاس من قِبَل الملك، يتوافقان مع الدليل الذي يدلُّ على الانتشار الشَّدِيد والمُفاجئ لمعرفة القراءة والكتابة في يهوذا القرن السَّابع. إنَّ اكتشاف مئات الأختام الشخصيَّة والذمَّغات (آثار الأختام) التي كُتبت باللُّغة العبريَّة التي تعود لهذا العصر يشهد على الاستعمال الزَّائد للكتابة والوثائق المكتوبة. كما ذكرنا، يُعدُّ مثل هذا الدليل على الانتشار الواسع نسبياً لمعرفة القراءة والكتابة مؤشراً هاماً على وُصُول يهوذا إلى مُستوى الدَّولة المتطوِّرة بالكامل في هذه الفترة. أمَّا قبل ذلك؛ فكان من غير المُحتمل أن تمتلك القُدرة على إنتاج النُّصوص التَّوراتيَّة الواسعة.

بالإضافة إلى ذلك؛ أشار العُلَماء إلى أن الشَّكْل الأدبي للميشاق بيِّن يَهُوه وشعب إسرائيل في سفر التثنية يُشابه -بنحو مُدهش- مُعاهدات الدَّول التابعة للإمبراطوريَّة الآشوريَّة في أوائل القرن السَّابع، والتي كانت تُحدِّد حُقُوق وواجبات الشَّعب تجاه ملكهم (في هذه الحالة، بيِّن شعب إسرائيل ويَهُوه). علاوةً على ذلك؛ كما أشار المؤرِّخ التَّوراتي موسى وينفيلد Moshe Weinfeld، يُظهر سفر التثنية تشابُهات مع الأدب اليوناني المُبكر، سواءً في التعميرات عن العقيدة ضمن خطابات مُبرمجة، أو في نوع البركة واللَّعنة، أو في الاحتفالات بتأسيس مُستوطنات جديدة. والختلاصة؛ لا يُوجد شكٌ يُذكر في أنَّ النُّسخة الأصليَّة لسفر التثنية هي سفر الشريعة المُشار إليه في سفرَي الملوك. بدلاً من أن يكون "سفر الشريعة" كتاباً قديماً اكتُشفَ فجأةً، يبدو أن الأسكَم الاستنتاجُ أنَّه كُتِبَ في القرن السَّابع ق. م، إمَّا قبل عهد "يوشيا" مباشرةً، أو أثناء حُكْمه.

فرعون صاعد وإمبراطورية آيلة للسقوط:

لكي نفهم لماذا أخذ سفر التثنية الشكل الذي هو عليه الآن. ولماذا كان له كل تلك القوة العاطفية الواضحة. علينا. أولاً. أن ننظر إلى المشهد العالمي في العقود الأخيرة من تاريخ 'يهوذا'. إن مراجعة للمصادر التاريخية والآثارية تظهر أن شدة التغيرات في ميزان القوى في كافة أنحاء المنطقة، كانت عاملاً مركزياً في تشكيل تاريخ الكتاب المقدس العبري.

عند اعتلاء الأمير يوشيا، الذي كان له من العمر ثمانين سنوات، عرش 'يهوذا' عام 639 ق. م، كانت مصر تتمرُّ بعصر نهضة سياسية عظيمة، كانت تُستخدم فيه صور الماضي البعيد - وصور مؤسسيها الفاتحين العظماء - كرموز قوية للدعم وتحسين قوة مصر ومركزها المؤثر في كافة أنحاء المنطقة. ابتداءً من عام 656 ق. م، رمى بسناتيك الأول مؤسس السلالة السادسة والعشرين، السيادة المطلقة والتوسعية للإمبراطورية الآشورية بعيداً، ثم وسع حكمه - لاحقاً - على أغلب مناطق الشرق التي كان الفرعون ومسيس الثاني يسيطر عليها في القرن الثالث عشر ق. م.

كان مفتاح هذه النهضة المصرية - قبل كل شيء - الهبوط المفاجئ والحاد للإمبراطورية الآشورية في العقود الأخيرة من القرن السابع ق. م، ماتزال أسباب انهيار القوة الآشورية وتاريخه الدقيق، بعد أكثر من مائة عام من الهيمنة العالمية بلا منازع، موضع نقاش من قبل العلماء.

على كل حال؛ من الواضح أن القوة الآشورية بدأت بالهبوط قُرب نهاية عهد الملك الآشوري العظيم الأخير: آشور نيبال (669 - 627 ق. م)، بسبب ضغط القبائل السكيثية scythian البدوية الصاعدة على الحدود الشمالية للإمبراطورية، وبسبب النزاعات المستمرة مع رعاياها في بابل وغيلام في الشرق. بعد موت آشور نيبال تعرض الحكم الآشوري لتحداً آخر تمثل بانتفاضة في بابل سنة 626 وفي نشوب حرب أهلية في الإمبراطورية الآشورية نفسها بعد ثلاث سنوات، عام 623 ق. م.

كانت مصر المستفيد المباشر من الضعف الآشوري. نجح الفرعون بسناتيك الأول، مؤسس السلالة السادسة والعشرين، الذي كان يحكم من مدينة 'سايس' Sais في دلتا النيل، في توحيد طبقة الأشراف والنبلاء المصرية المحلية تحت قيادته. خلال فترة حكمه من عام 664

إلى 610 ق. م، انسحبت القوّات الآشوريّة من مصر، وتركت معظم المشرق؛ ليقوم المصريون بالسيطرة عليه. يحكي المؤرّخ الإغريقي هيرودوتس Herodotus، الذي يُعدُّ مصدراً هاماً لمعرفة أحداث تلك الفترة، (في قصّة زِينت بالعديد من التفاصيل الأسطوريّة)، كيف زحف بَسَناتيك شمالاً، وأقام حصاراً طويلاً مدّة تسعة وعشرين عاماً على مدينة أشدود على ساحل البحر الأبيض المتوسّط. مهما كانت حقيقة ذلك التقرير، تبدو المكتشفات الأثاريّة في مواقع على طول السهل الساحليّ - في الحقيقة - مُشيرّة إلى تأثير مصري مُتزايد في أواخر القرن السابع. بالإضافة إلى ذلك؛ يفتخر بَسَناتيك في نقشٍ معاصرٍ بأنّه سيطر على ساحل البحر الأبيض المتوسّط حتّى فينيقيا شمالاً.

يبدو أن انسحاب الآشوريّين من أملاكهم السّابقة في السهل الساحليّ وفي أراضي مملكة إسرائيل الشماليّة السّابقة، تمّ بشكلٍ سلبيّ. بل حتّى من الممكن أن تكون مصر والإمبراطوريّة الآشوريّة قد توصّلتا إلى نوع من التّضام، تراث مصر - طبقاً له - المُحافظات الآشوريّة في غرب الفُرات، في مُقابل التزامها بتقديم الدّعم العسكريّ للإمبراطوريّة الآشوريّة. وأياً كان الأمر؛ فقد تحقّق الحلم المصريّ القديم والمُستمرّ لخمسة قُرُون بإعادة تأسيس إمبراطوريتهم الكنعانيّة. لقد استعاد المصريون السّيطرة على الثروة الزراعيّة وطُرق التجارة الدوليّة في السّهول الخصبة الغنيّة. ومع ذلك؛ وكما كان الأمر في عهد الفراعنة الفاتحين الكبار للمملكة الجديدة، كان السكّان المُتعرّلون نسبياً في المرتفعات - الذين كانوا قد تنظّموا حينذاك، وأصبحوا مملكة "يهودا" - غير هامّين - نسبياً - بالنسبة للمصريّين. وبناءً عليه؛ تركّ الكثير لهم، على الأقلّ في البداية.

غزو جديد للأرض الموعودة:

خلّق انسحاب الآشوريّين من المناطق الشماليّة لأرض إسرائيل حالةً لا بدّ وأنها بدت في العيون اليهوديّة كمعجزة متوقّعة منذ زمن طويل. لقد وصلَ قرنٌ من الهيمنة الآشوريّة إلى نهايته؛ وكانت مصر مهتمةً - بشكلٍ رئيسيّ - بالسّاحل؛ ولم يكن هناك وجودٌ لمملكة إسرائيل الشماليّة الأثيمة. بدا الطريق مفتوحاً أمام التحقيق التّنهائيّ لطموحات "يهودا". أخيراً؛ بدا

ممكناً ليهوداً أن تتوسّع نحو الشمال، وأن تستولي على أراضي المملكة الشماليّة المقهورة في المرتفعات، وأن تُمرّز العبادة الإسرائيليّة، وتؤسّس دولة إسرائيليّة قويّة عظيمة.

مثل هذه الخطة الطموحة تتطلب دعايةً نشطةً وقويّة. أسّس كتاب سفر التثنية وحدة شعب إسرائيل، ومركزيةً موقع عبادتهم القوميّة، إلاّ أنّ التاريخ التثوي وأجزاء من التوراة هما اللذان أوجدا القصّة الملحميّة التي تُعبّر عن عاطفة وقوّة أحلام يهوذا الناهضة. من المُفترض أنّ السبب الذي دعا مؤلّفي ومحرّري التاريخ التثوي وأجزاء من التوراة إلى الاجتماع، وإعادة كتابة أغلب التقليد الثمين لشعب إسرائيل: هو تجميع الأُمّة لأجل الكفاح الوطنيّ العظيم الذي ينتظرها. لقد قاموا - عبر تزيين وإسهاب القصص المُحتواة في الأسفار الأربعة الأولى للتوراة - بنسج وتجميع اختلافات إقليمية، مع قصص الآباء، واضعين مُغامرات إبراهيم وإسحق ويعقوب في عالم يشابه - بنحو غريب - القرن السابع ق. م، ويؤكد هيمنة "يهوداً" على كلّ إسرائيل. لقد صمّموا ملحمّة وطنيّة عظيمة من التحرير لكلّ قبائل إسرائيل، ضدّ فرعون عظيم ومسيطر، كان عالمه مُمثلاً - في تفاصيله الجغرافيّة - بنحو مُمتاز - لعالم "بسناتيك".

من خلال التاريخ التثوي؛ خلقوا ملحمّة وحيدة لغزو كنعان، مع مشاهد معارك عنيفة - في وادي الأردن، وفي منطقة بيت إيل، وفي تلال شُفلة، ومراكز الإدارة الإسرائيليّة السابقة (والأشوريّة اللاحقة) في الشمال، أي - بالضبط - حيث يجب أن يُشنّ غزوهم الجديد لكنعان. وأدينت المملكة الشماليّة الناجحة والقويّة، التي عاشت "يهوداً" في ظلّها لأكثر من قرنين، كانهراف تاريخي وانفصال أئم عن الميراث الإسرائيلي الحقيقي. كان الحكّام الشرعيّون الوحيدون لكلّ الأراضي الإسرائيليّة، هم الملوك من ذريّة داود، خصوصاً يوشياّ النبيّ. وأدين بقوّة "بيت إيل"، مركز العبادة الكبير في المملكة الشماليّة، الذي سيطر يوشياّ عليه. وحطّ من قدر "الكنعانيين"؛ أي كلّ السكّان غير الإسرائيليين، مع منع صارم لزواج الإسرائيليين من النساء الأجنبية، اللواتي، طبقاً للتاريخ التثوي والتوراة، سيُغريّن الناس - فقط - بعبادة الأوثان. كلا السببَين كانا على ارتباط - احتمالاً - بالتحدّي العمليّ الذي سيواجهه التوسّع نحو أجزاء أرض إسرائيل؛ حيث كانت تُوجد أعداد كبيرة من غير الإسرائيليين الذي كان الأشوريّون قد وطّئوهم، خصوصاً؛ في المناطق الجنوبيّة للمملكة الشماليّة السابقة، حول بيت إيل.

إنه من المستحيل معرفة ما إذا كانت هناك نُسخٌ سابقةٌ لتاريخ إسرائيل أُعدت في عهد "حزقيّا" أو من قبل فئات مُعارضة أثناء العهد الطويل لـ"منسى" ، أو إذا كانت الملحمة العظيمة قد أُعدت .كلّياً- أثناء عهد "يوشيا" . رغم ذلك ؛ من الواضح أنّ العديد من الأشخاص الموصوفين في التاريخ التنوي- مثل "يشوع" النقي ، و"داود" ، و"حزقيّا" ، والكافر المرتد "أحاز" و"منسى" - إنّما صوّروا كانعكاسٍ في المرآة- إيجابياً وسلبياً . لشخصية "يوشيا" . لم يكن التاريخ التنوي تاريخاً بالمعنى المعصري للكلمة . كان تأليفاً عقائدياً (أيدولوجياً) ولاهوتياً بالوقت نفسه .

في القرن السابع ق .م ؛ للمرة الأولى في تاريخ إسرائيل القديمة ، كان هناك جمهور شعبي من المُستمعين والقارئین مثل ذلك التأليف . كانت يهوذا قد أصبحت دولة مركزية جداً انتشرت فيها معرفة القراءة والكتابة من العاصمة والبلدات الرئيسية إلى الريف . كانت عمليّة بدأت - على ما يبدو- في القرن الثامن ، لكنّها لم تصل إلى ذروتها إلا في عهد "يوشيا" . انضمت الكتابة إلى الوعظ كوسيلتين لتقديم مجموعة من الأفكار الاجتماعية والدينية والسياسية الثورية جداً . على الرغم من حكاياتها عن الكفر والارتداد وخيانة إسرائيل وملوكها ، وعلى الرغم من دورات الذنب ، والمعقوبة ، والتسديد ، بكلّ ما كان يحمله من كوارث الماضي ، عرّض الكتاب المقدس العبري تاريخاً مُضاثلاً بشكل كبير . لقد وعد قراءه ومُستمعيه بأنهم سيكونون مشاركين في النهاية السعيدة للقصة - عندما يقوم ملكهم "يوشيا" بتطهير إسرائيل من موبقات جيرانها ، ويصلح آثامها ، ويفرض التطبيق العام للشريعة الحقيقية ليهوّه ، ويتخذ الخطوات الأولى لجعل مملكة داود الأسطورية حقيقة واقعة .

ثورة في الريف؛

كانت أوقات "يوشيا" أوقاتاً مسيحية جداً . كان المعسكر التنوي يكسب ، والجوف في أورشليم (القدس) لا بدّ وأنّه كان جواً من الابتهاج الاستثنائي . لكن دَرَس الانتقال من "حزقيّا" المُستقيم إلى "منسى" الأثيم لم يكن قد نُسي بعدُ . واجه مُصلحو "يوشيا" - بالتأكيد - مُعارضة . لذا ؛ كان الوقت - أيضاً- وقت تعليم وإصلاح اجتماعي . حول هذا الموضوع ، من المُهم أن نلاحظ أنّ كتاب سفر التثنية يحتوي على قوانين أخلاقية وقواعد لتحسين الوضع الاجتماعي



لا نجد لها موازياً في أي مكان آخر في الكتاب المقدس . يدعو سفر التثنية إلى حماية الفرد، والدفاع عما نسميه اليوم حقوق الإنسان والكرامة الإنسانية . تولى تشريعاته اهتماماً لم يسبق له مثيل بالضعفاء والعاجزين في المجتمع اليهودي:

[7] إِنْ كَانَ فِيكَ فَقِيرٌ أَحَدٌ مِنْ إِخْوَتِكَ فِي أَحَدِ أَبْوَابِكَ فِي أَرْضِكَ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ الْإِلَهُكَ ، فَلَا تُقَسِّ قَلْبِكَ ، وَلَا تَقْبِضْ يَدَكَ عَنْ أَخِيكَ الْفَقِيرِ ، 8 بَلْ افْتَحْ يَدَكَ لَهُ ، وَأَقْرِضْهُ مِقْدَارَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ . [ سفر تثنية 15 / 7 - 8 ) .

[17] لَا تَعُوْجُ حُكْمَ الْغَرِيبِ وَالْيَتِيمِ ، وَلَا تَسْتَرْهِنْ ثَوْبَ الْأَرْمَلَةِ . 18 وَادْكُرْ أَنَّكَ كُنْتَ عَبْدًا فِي مِصْرَ فَقَدْ ذَاكَ الرَّبُّ الْإِلَهُكَ مِنْ هُنَاكَ . لِذَلِكَ أَنَا أُوصِيكَ أَنْ تَعْمَلَ هَذَا الْأَمْرَ . [ سفر تثنية 17 / 24 - 18 ) .

لم يكن ذلك مجرد مصادفة ، لكنه وعي نتج عن الفهم المشترك للأمة ، والذي أصبح الآن . مدعوماً بقوة بالقبضة التاريخية لإسرائيل ، التي تم تحويلها لقوانين نصية . حقوق الأرض العائلية يجب أن تُحترم وتتم حمايتها بمنع تحريك الأحجار الحدودية من مكانها القديم (14 / 19) ، كما تم تأمين حقوق الزوجات في الإرث ، والذي كان الأزواج يرفضونه من قبل (15 / 21 - 17) . وفرض على المزارعين إعطاء العشر إلى الفقراء كل ثلاث سنة (14 / 28 - 29) ؛ وتمت حماية الأجانب المقيمين من التمييز (14 / 24 - 15) . وأمر بتحرير العبيد بعد ست سنوات من العبودية (15 / 12 - 15) .

هذه بضعة أمثلة فقط ، من تشكيلة واسعة من التشريعات الشخصية التي قُصد منها القضاء على الظلم التقليدي ، وفقدان المساواة في الحياة اليومية .

تم مخاطبة الأداء الحكومي أيضاً ، مع نية واضحة لتحديد سلطة زعماء المجتمع اليهودي ، ومنعهم من استغلال مواقعهم لمصالحهم الخاصة ، أو اضطهاد السكان بشكل عام:

[ قِضَاءٌ وَعَرَفَاءٌ تَجْعَلُ لَكَ فِي جَمِيعِ أَبْوَابِكَ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ الْإِلَهُكَ حَسَبَ أَسْبَاطِكَ ، فَيَهْضُبُونَ لِلشَّعْبِ قِضَاءً عَادِلًا . 19 لَا تُحَرِّفِ الْقِضَاءَ ، وَلَا تَنْظُرْ إِلَى الْوُجُوهِ ، وَلَا تَأْخُذْ رِشْوَةً ؛ لِأَنَّ الرِّشْوَةَ تُعْمِي أَعْيُنَ الْحُكَمَاءِ ، وَتَعُوْجُ كَلَامَ الصِّدِّيقِينَ . [ (16 / 18 - 19) .

حتى الملك كان يجب أن يخضع لقوانين الميثاق، ومن الواضح أن مؤلفي سفر التثنية كان في ذهنهم ذنوب ملوك إسرائيل، وصلاح يوشيا وتقواه:

[15] فَإِنَّكَ تَجْعَلُ عَلَيْكَ مَلَكًا الَّذِي يَخْتَارُهُ الرَّبُّ إِلَهُكَ. مِنْ وَسَطِ إِخْوَتِكَ تَجْعَلُ عَلَيْكَ مَلَكًا. لَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ تَجْعَلَ عَلَيْكَ رَجُلًا أجنبيًّا لَيْسَ هُوَ أَحَاكَ. 16 ولكن؛ لا يُكْتَرُّ لَهُ الْحَيْلُ، وَلَا يَرُدُّ الشَّعْبَ إِلَى مِصْرَ لِكَيْ يُكْتَرَّ الْحَيْلُ وَالرَّبُّ قَدْ قَالَ لَكُمْ: لَا تَعْوَدُوا تَرْجِعُونَ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ أَيْضًا. 17 وَلَا يُكْتَرُّ لَهُ نِسَاءٌ لِثَلَاثِينَ قَلْبُهُ. وَقَضَى وَذَهَبَ لَا يُكْتَرُّ لَهُ كَثِيرًا. 18 وَعِنْدَمَا يَجْلِسُ عَلَى كُرْسِيِّ مَمْلَكَتِهِ يَكْتُبُ لِنَفْسِهِ نُسَخَةً مِنْ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ فِي كِتَابٍ مِنْ عِنْدِ الْكَهَنَةِ اللَّاهُوتِيِّينَ. 19 فَتَكُونُ مَعَهُ، وَيَقْرَأُ فِيهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِهِ؛ لِيَتَعَلَّمَ أَنْ يَتَّقِيَ الرَّبَّ إِلَهُهُ، وَيَحْفَظَ جَمِيعَ كَلِمَاتِ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ وَهَذِهِ الْفَرَائِضِ لِيَعْمَلَ بِهَا. 20 لِثَلَاثِينَ يَرْتَفِعُ قَلْبُهُ عَلَى إِخْوَتِهِ، وَلَثَلَا يَحِيدَ عَنِ الرَّسِيَّةِ يَمِينًا أَوْ شِمَالًا؛ لِكَيْ يُطِيلَ الْأَيَّامَ عَلَى مَمْلَكَتِهِ هُوَ وَيَتَّوَّهُ فِي وَسَطِ إِسْرَائِيلِ. [20- 15 / 17].

لعلَّ المصنوعة اليدوية الأثرية الأكثر تذكيراً، والوحيدة، التي تبدو مثالاً مُصدِّقاً لهذا الوعي الجديد - على ما يبدو - بالحقوق الفردية، هي التي اكتشفت عام 1960، في قلعة تعود لأواخر القرن السابع ق. م، تُعرف لدى علماء الآثار بـ "ميساد هشافيا هو" Mesad Hashavyahu، تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط جنوب تل أبيب الحديثة (الشكل 27). وُجِدَتْ داخل خرابات هذه القلعة أجزاء فخاريات يونانية مُستوردة تُشهد على حضور مُحتمل لجُنُود مرتزقة يونانيين هناك. واستناداً لأسماء يهودية تظهر على رقائق فخارية مكتوب عليها، وُجِدَتْ في الموقع، كان هناك - أيضاً - يهوديين في القلعة، يعمل بعضهم في الحقل والبعض الآخر يعملون كجنود وضباط. أعدَّ أحد العمال نداءً غاضباً لقائد الحامية، كُتِبَ بقلم حبر على كسرة شقفة فخارية. ربما كان هذا النقش العبري الثمين الدليل الأثري الأسبق الذي يملكه عن الموقف الجديد والحقوق الجديدة التي تُقدِّمها الشريعة التثنوية:

أرجو من المسؤول، سيدي، أن يسمع التماس خادمه. خادمك يعمل في الحصاد. خادمك كان في حصر - أسام Hasar-asam. خادمك عمل حصاده، أنهى وَخَزَّنَ [الحبوب] قبل أيام قليلة من التوقف. عندما أنهى خادمك الحصاد، وَخَزَّنَهُ، قبل أيام قليلة، جاء

هوشاياهو بن شاباي<sup>1</sup> Hoshayahu son of Shabay ، وأخذ كساء خادمك . عندما أنهيت الحصاد ، في ذلك الوقت ، قبل أيام قليلة ، أخذ كساء خادمك . كلُّ رفاقي سيشهدون لي ، كلُّ الذين كانوا يحصدون معي في حرارة الشمس سيشهدون لي بأن هذا صدق . أنا بريء من أيِّ إخلال . (لذا) رجاء أُرَجِّع كسائي . إذا لم يعتبر المسؤول أنَّ من مسؤوليته إعادة كساء خادمك ، فاشفقْ عليه ، وأعدْ كساء خادمك . يجب أن لا تبقى صامتاً عندما يكون خادمك بدون كسائه .

كان هذا مطالبة شخصية بملاحظة الشريعة ، على الرغم من الاختلاف في الطبقة الاجتماعية بين المرسل إليه ، والمُلتَمَس . إنَّ قيام فرد واحد بالمطالبة بحقه ضدَّ آخر ، يُعدُّ خطوة ثورية ، بعيدة عن الاعتماد التقليدي - في الشرق الأدنى القديم - على قوَّة العشيرة فقط لضمان الحقوق العامَّة لأعضائها .

هذا مثال وحيد ، بقي بالمصادفة ، في خرابات موقع بعيد عن مركز يهوذا . ورغم ذلك ؛ أهميته واضحة . تُمدِّد تشريعات سفر التثنية قانوناً جديداً للحقوق والالتزامات الفرديَّة لشعب إسرائيل . وقد خَدَمَتْ أيضاً . كتأسيس لمجموعة قواعد وقوانين شاملة ونظام من القيم الاجتماعية استمرَّ وبقي حتى يومنا هذا .

### علم الآثار والإصلاحات اليوشية:

بالرغم من أنَّ علم الآثار قدَّم خدمات لا تُقدَّر بثمن في كشف النقاب عن التطوُّر الاجتماعي طويل المدى الذي يكمن خلف التطوُّر التاريخي ليهوذا ، وولادة حركة التثنتين ، إلاَّ أنَّه كان أقلَّ نجاحاً بكثير في التزويد بأدلة على إنجازات خاصَّة ومُعينة ليوشياً . حدِّ الآن ؛ لم يُمكن تحديد موقع معبد "بيت إيل" - هدف "يوشياً" الأساسي في حملته ضدَّ عبادة الأوثان ، ولم يتمَّ - إلى الآن - إلاَّ اكتشاف معبد يهوذاويِّ معاصر واحد خارج أورشليم (القدس) ، وليس من الواضح ماذا كان مصيره خلال برنامج "يوشياً" لتكريس المركزية اللدنيَّة<sup>(1)</sup> .

(1) نُقِب هذا المعبد في قلعة أراد في الجنوب . طبقاً للمُتَّعَب يوهانان أهاروني ، خرج المعبد عن الاستعمال في أواخر القرن السابع / وأوائل القرن السادس ق . م . ، عندما بُني فوقه حائط تحصين جديد . لعلَّ هذا يُشير إلى إغلاق المعبد أو تركه ، قرب من وقت إصلاحات يوشياً . على أيِّ حال ؛ يُشكِّك علماء آخرون بهذا التاريخ ، وهم ليسوا أكيدين جداً من توقُّف معبد أراد عن العمل في هذه الفترة ، كما كان يتمنَّى يوشياً على ما يبدو .

على النَّطِّ نفسه، لا تُزوِّدنا أختام ودمغات ختم المسؤولين والوجهاء اليهوديين في الفترة الملكية الأخيرة إلاً بديلٍ مُحتمل - فقط - على إصلاحات 'يوشيا'. رغم أنَّ الأختام اليهودية السابقة كانت تتضمن أيقونات تتعلق بطقوس عبادة النجوم - مثل صور لنجوم، وصورة للقمر التي يبدو أنَّها كانت رموزاً مقدَّسة - إلاً أنَّه في أواخر القرن السابع كانت أغلب الأختام تتضمن أسماء فقط، (وزينة زهرية أحياناً)، وفتقر إلى الزينة الأيقونية بشكل واضح. تُثبت الأساليب الفنيَّة في المناطق الأخرى؛ مثل عمون وموآب تغييراً مماثلاً، قد يتعلَّق بالانتشار العام لمعرفة القراءة والكتابة في كافَّة أنحاء المنطقة، لكن؛ لا شيء واضحاً كوضوح الأختام في يهوذا، التي قد تعكس تأثير إصلاحات 'يوشيا' في الإصرار - احتمالاً - على أنَّ يهوه الذي لا شكل له، يجب أن يكون البُرة الشرعية الوحيدة للتعميم، وفي منح عبادة القوى السماوية في شكلها المرئي.

إلاً أنَّ ثمة دليلاً آخر، يبدو أنَّه يقترح أنَّ 'يوشيا' أخفق في إيقاف تجميل الصور المحفورة؛ لأنَّ الكثير من تماثيل امرأة واقفة تحمل صدرها بيديها (وهي صورة تُعرف - عموماً - على أنَّها نفس الإلهة 'سارية') وُجدت ضمن مجتمعات سكنية خاصة في كلِّ المواقع الهامة التي تعود لأواخر القرن السابع في يهوذا. وبالتالي؛ على الأقلِّ على المستوى المنزلي الخاص، يبدو أنَّ هذه العبادة الشعبية استمرت على الرغم من السياسة الدينية الصادرة من أورشليم (القدس).

إلى أي حدَّ ذهبت ثورة 'يوشيا' بعيداً؟

حتى الآن لم يتمَّ تحديد مدى فتوحات 'يوشيا' الإقليمية بواسطة المعايير الأثرية والتاريخية إلاً بنحوٍ تقريبيٍّ (انظر الملحق و). بالرغم من أنَّ الحُرْم في 'بيت إيل' لم يُكتشف، إلاً أنَّ مصنوعات يدوية يهودية من نمط القرن السابع وُجدت في المنطقة المحيطة. من المُحتمل أن يكون 'يوشيا' قد توسَّع أكثر باتجاه الشمال نحو 'السامرة' (كما يقترحه سفر الملوك الثاني 23/19)، لكن؛ لحدِّ الآن؛ لم يُوجد دليلٌ أثري واضح على ذلك.

في الغرب؛ حقيقة أنَّ 'لخيش' قد أُعيد تحصينها ثانية، وأنَّها عملت - من جديد - كحصن يهوديٍّ رئيسيٍّ، هي - احتمالاً - أفضل دليلٍ على أنَّ 'يوشيا' واصل السيطرة على مناطق 'شفلة' التي كان جدُّه 'منسى' قد أنعشها من قبل؛ لكن؛ من البعيد جداً أن يكون 'يوشيا' قد توسَّع أكثر

نحو الغرب باتجاه المناطق التي كانت مهمة للمصالح المصرية. جنوباً؛ يقترح الاحتلال اليهودي المستمر بأن يوشياً سيطر على وادي بئر سبع، واحتمالاً؛ على الحصن، الموجود في موقع أبعد في الجنوب، والذي كان مَنَسَى قد أسسه قبل عقود قليلة، تحت الهيمنة الآشورية.

بشكل أساسي؛ كانت المملكة تحت يوشياً استمراراً مباشراً ليهودا تحت حكم مَنَسَى. لم يتجاوز عدد سُكَّانها - احتمالاً - خمسة وسبعين ألفاً، بالإضافة إلى إشغال كثيف - نسبياً - للمناطق الريفية البعيدة في ريف المرتفعات اليهودية، وشبكة المستوطنات في المناطق القاحلة للشرق والجنوب، وسكَّاناً متناثرين - نسبياً - في "شغلة". لقد كانت - من عدة جهات - دولة مدينة، مأهولة بشكل كثيف؛ حيث ضُمَّت العاصمة حوالي 20% من مجموع السكَّان. وصَلَّت الحياة الحضريَّة في أورشليم (القدس) إلى قمة لم يوازيها إلا ما صارت عليه في الأوقات الرومانية. كانت الدولة منُظَّمة بشكل جيد ومركزي جداً، مثلما كانت في عهد مَنَسَى، لكن؛ من ناحية التطور الديني والتعبير الأدبي عن الهوية القومية، أشرَّ عصر يوشياً إلى مرحلة جديدة دراماتيكية مثيرة في تاريخ يهوذا.

مواجهة في مجدو:

اخترمت حياة يوشياً بسرعة بشكل مفاجئ. في سنة 610 ق.م، مات بَسَنْتايك الأول، مؤسس السُلالة السادسة والعشرين المصرية، وخَلَفَهُ على العرش ابنه "نكا" (أو نخاو) الثاني. أثناء بعثة عسكرية شمالاً، لأساعدة الإمبراطورية الآشورية النُهارة في مكافحة البابليين، حَدَثَتْ مُجابهة حاسمة. يصف السُفر الثاني للملوك الحدث بإيجاز، يكاد يشبه الكلمات التي تُكْتَب في برقية؛ [في أيامه؛ صعد فرعون نحو ملك مصر على ملك آشور إلى نهر الفُرات. فصعد الملك يوشياً للقاءه، فقتله في مجدو حين رآه.] (سفر الملوك الثاني 23/29). يضيف سفر أخبار الأيام الثاني بعض التفاصيل؛ إذ يحول قصة موت يوشياً إلى مأساة في ساحة معركة:

[20] بَعْدَ كُلِّ هَذَا حِينَ هَيَّا يُوْشِيَّا الْبَيْتَ صَعَدَ نَحْوَ مَلِكِ مِصْرَ إِلَى كَرْكَمِيْشَ؛ لِجِهَارَبَ عِنْدَ الْفُرَاتِ. فَخَرَجَ يُوْشِيَّا لِلِقَائِهِ. 21 فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رُسُلًا يَقُولُ: [مَالِي وَلِكِ يَا مَلِكُ يَهُوذا لَسْتُ عَلَيْكَ أَنْتَ الْيَوْمَ، وَلَكِنْ؛ عَلَى بَيْتِ آخَرَ أَحَارِيَهُ، وَاللَّهُ أَمْرًا يَسْرَعِي. فَكُفَّ عَنِ اللَّهِ الَّذِي مَعِيَ فَلَا يَهْلِكُكَ]. 22 وَكَمْ يَحْوُلُ يُوْشِيَّا وَجْهَهُ عَنْهُ، بَلْ تَنَكَّرَ لِمَقَاتَلَتِهِ، وَكَمْ يَسْمَعُ لِكَلَامِ نَحْوِ مَنْ قَمَّ

اللَّهُ، بَلْ جَاءَ لِيُحَارِبَ فِي بُقْعَةٍ مَجْدُو. 23 وَأَصَابَ الرُّمَاءُ الْمَلِكُ يَوْشِيَا، فَقَالَ الْمَلِكُ لِعَبِيدِهِ: [انْقُلُونِي لِأَنِّي جُرْحْتُ جُدًّا]. 24 فَتَقَلَّهَ عَبِيدُهُ مِنَ الْمَرْكَبَةِ، وَأَرْكَبُوهُ عَلَى الْمَرْكَبَةِ الثَّانِيَةِ الَّتِي لَهُ، وَسَارُوا بِهِ إِلَى أُورُشَلِيمَ، فَمَاتَ، وَدُفِنَ فِي قُبُورِ آبَائِهِ. ] (سفر أخبار الأيام الثاني 35/20-24).

أي من هذه الروايات هو الأكثر دقة؟ ماذا تقول بشأن نجاح أو إخفاقات إصلاحات 'يوشيا'؟ وما أهمية أحداث 'مجدو' في تطور عقيدة الكتاب المقدس العبري؟ تكمن الإجابة - مرة ثانية - في الوضع السياسي الذي تكشّف في المنطقة. لقد واصلت قوة الإمبراطورية الآشورية في النضال، وهددت الضغوط البابلية المستمرة الموجهة ضد قلب الإمبراطورية الآشورية التي كانت في حالة الاحتضار بقلب الموازين في العالم القديم، وتعرض المصالح المصرية في آسيا للخطر. لذا؛ قرّرت مصر التّدخّل إلى جانب الآشوريين، وفي عام 616، تحرك جيشها نحو الشمال، ولكن هذه الحركة لم تحلّ دون انهيار الإمبراطورية الآشورية. وسقطت العاصمة الآشورية الكبيرة 'نينوى' عام 612، وهربت العائلة المالكة الآشورية إلى 'حاران' في الغرب، وهو حدّد سجّله النبي 'صفيّا' (2/13-15). بعد سنتين، عندما مات 'بسناتيك' سنة 610، وخلفه ابنه 'نكا' (أو نخاو) على العرش، أُجبرت القوات المصرية في الشمال على الانسحاب، واستولى البابليون على 'حاران'. في السنة التالية، قرّر 'نكا' (أو نخاو) التّحرّك، وانطلق نحو الشمال.

فضّل العديد من المؤرّخين التورانيين رواية سفر أخبار الأيام الثاني، التي تصف وقوع معركة حقيقيّة بين 'نكا' (أو نخاو) و'يوشيا' في 'مجدو' سنة 609. طبقاً لرايهم، توسّع 'يوشيا' إلى كامل أراضي ريف المرتفعات والتلال في المملكة الشماليّة السابقة، أي، ضمّ محافظة السامرة الآشورية السابقة، ثمّ وسّع حكمه أبعد نحو الشمال إلى 'مجدو'؛ حيث بنى حصناً عظيماً على شرق التلّ، وجعل 'مجدو' مخزناً آمالياً استراتيجياً شمالياً للدولة اليهوديّة المتنامية في حجمها. اقترح بعض العلماء أن هدّقه كان تأييد البابليين ضدّ الإمبراطورية الآشورية بمنع تقدّم 'نكا' (أو نخاو) في المرصيق الذي يؤدي إلى 'مجدو'. وقد جادل البعض حتّى بأنّ المقطع في سفر أخبار الأيام الثاني 34/6 كان موثقاً، وأنّ 'يوشيا' استطاع أن يتوسّع - على نحوٍ إضافيٍّ - إلى الشمال، باتجاه الأراضي الإسرائيليّة السابقة في الجليل.

رغم ذلك؛ فإن الفكرة التي تقول إن "يوشيا" وصل إلى "مجدو" بقوة عسكرية فعالة لمحاولة إيقاف "نكا" (أو نخاو)، ومنعه من السير نحو الشمال متكلفاً نوعاً ما. إنه من المستبعد جداً أن يكون لـ "يوشيا" جيش كبير لدرجة تكفي للمخاطرة بالدخول في معركة مع المصريين. حتى حوالي 630 ق. م، كانت مملكته ماتزال تحت الهيمنة الآشورية، ولاحقاً؛ لا يمكن أن تُصدق أن يُسمح بـ "بسناتيك"، الذي كان قوياً بما فيه الكفاية للسيطرة على كامل ساحل شرقي البحر الأبيض المتوسط حتى فينيقية، أن يسمح ليهودا بتطوير قوة عسكرية قوية. وعلى أية حال؛ كانت ستكون معامرة عظيمة لـ "يوشيا" أن يُخاطر بجيشه في معركة ضد المصريين بعيداً عن وسط عالمه. لذا؛ فإن رواية سفر الملوك - احتمالاً - موثوقة أكثر.

قدّم "نداف نعمان" تفسيراً مختلفاً جداً. لقد اقترح أن أحد أسباب زحف "نكا" (أو نخاو) عبر فلسطين سنة 609، بعد سنة واحدة فقط من موت "بسناتيك" وصعوده إلى عرش مصر، كان الحُصُول على قَسَمٍ جديدٍ بالولاء من توابعه. طبقاً للعادة؛ كان قَسَمهم السابق لـ "بسناتيك" قد أصبح لاغياً بموته. وفقاً لذلك، لا بُدَّ أن يكون "يوشيا"، قد استُدعي إلى الحصن المصري في "مجدو" لمُقابلة "نكا" (أو نخاو)، وأداء يمين ولاءٍ جديدٍ. رغم ذلك؛ ولسبب ما، قرّر "نكا" (أو نخاو) إعدامه.

ماذا فعل "يوشيا" حتى أغضبَ الملك المصري؟ إن تقدم "يوشيا" نحو الشمال، إلى ريف مُرتفعات "السامرة"، يُمكن أن يكون قد هدّد المصالح المصريّة في وادي "يزرعيل". أو ربما تكون محاولة "يوشيا" التوسّع نحو الغرب، إلى ما وراء أراضيه في "شفلة"، قد عرّضَ للمخطر المصالح المصريّة في "فلسطين". وليس أقلّ معقوليةً ما اقترحه "باروخ هالبرن" من أن "نكا" (أو نخاو) قد يكون غضبَ من السياسات المستقلّة لـ "يوشيا" في الجنوب، على طول الطُرُق الحساسة للتجارة العربيّة.

ثمّة شيءٌ واحدٌ واضحٌ. لقد كان المورخُ التنوي، الذي رأى في "يوشيا" مسيحاً مُنتظراً أرسلته العناية الإلهية لإعادة مجد "يهودا" وقيادتها نحو الفخر، مُرتبكاً جداً في تفسير كيف أمكنَ لمثل هذه الكارثة التاريخية أن تقع، لذا؛ ترك مجرد إشارة مبهمّة ومُمتنّبة على موت "يوشيا". لقد تبخّرت أحلام هذا الملك والمسيح المُنتظر بكلّ قسوة على تلّ "مجدو". وهكذا

بَيْنَ عَشِيَّةٍ وَضُحَاهَا، انهارت عشرات السنين من الإحياء الروحي والآمال التنبؤية . لقد أصبح يُوشياً في عداد الموتى ، وعاد شعب إسرائيل من جديد مُستعبداً لمصر .

آخر الملوك الداوديين :

إذا لم يكن ما حَدَثَ مُدمراً بما فيه الكفاية ، فقد جَلَبَتِ السَّنَاتُ التَّالِيَةَ كوارثَ أعظم . بعد موت يُوشياً ؛ انهارت حركة الإصلاح العظيمة على ما يبدو . الملوك الأخيرون الأربعة ليهوذا - ثلاثة منهم أبناء يُوشياً - أُدينوا - سلبياً - في الكتاب المقدس العبري ، باعتبارهم فسَقَةً مُرتدِّين . في الحقيقة ؛ يصف التاريخ الثنوي العَقْدَيْنِ الأخيرين من تاريخ يهوذا بأنهما فترة هبوطٍ مُستمر ، أدبياً - في النهاية - إلى دمار الدولة اليهودية .

حكَمَ يُوَاحَازُ ، خليفة يُوشياً ، الذي كان على ما يبدو مُعادياً لمصر ، ثلاثة أشهر فقط ، وَرَجَعَ إلى الطُّرُقِ الوُكَيْتِيَّةِ لِلْمُلُوكِ يَهُوذَا السَّابِقِينَ . ثُمَّ خَلَعَهُ ، وَتَقَاهُ الْفِرْعَوْنُ تَكَآ (أو نخاو) ، واستبدله بأخيه يوياقيم ، الذي أيضاً : (عَمَلَ الشَّرَّ فِي عَيْنِي الرَّبِّ) ، مُضِيفاً إثماً آخر إلى معاصيه هُوَ فَرَضَهُ أَتَاوَةً عَلَى شَعْبِ الْأَرْضِ ؛ لَكِي يُسَلِّمَهَا إِلَى الْفِرْعَوْنِ تَكَآ (أو نخاو) ، سيِّده الأعلى .

هُنَاكَ تَوْثِيقٌ وَاضِحٌ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ الْعِبْرِيِّ (بما في ذلك الأعمال النبوية المعاصرة) ، أَكَّدَتْهُ مَاصِرٌ مِنْ خَارِجِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ ، يَصِفُ التَّزَاوُعَ الصَّاحِبَ بَيْنَ الْقُوَى الْعَظْمَى الْمُتَنَافِسَةِ الَّذِي حَدَثَ فِي السَّنَاتِ التَّالِيَةِ لِمَوْتِ يُوشياً . احتفظت مصر - على ما يبدو - بسيطرتها على الأراضي الغربية للإمبراطورية الآشورية السابقة ، لعدة سنوات أخرى ؛ مَقْوِيَةً أَحْلَامَ بَعَثِ الْمَجْدِ الْفِرْعَوْنِي الْقَدِيمِ ، لَكِنْ ؛ فِي بِلَادِ مَا بَيْنَ النَّهْرَيْنِ ، نَمَتِ قُوَّةُ الْبَابِلِيِّينَ بِشَكْلِ مُتَوَاصِلٍ . وَفِي عَامِ 605 ق . م ؛ سَحَقَ وَلِيُّ الْعَهْدِ الْبَابِلِيِّ - الْمَعْرُوفِ لِأَحْقَابِ تَبُوخَذَنْصَرٍ - الْجَيْشَ الْمِصْرِيَّ فِي كَرْكَمِيشْ فِي سُورِيَا (حَدَثَ سُجْلٌ فِي سَفَرِ إِرْمِيَا 2/46) ، مُجْبِراً الْجَيْشَ الْمِصْرِيَّ عَلَى الْهَرُوبِ مَذْعُوراً نَحْوَ النَّيْلِ . بِتِلْكَ الْهَزِيمَةِ ؛ انْحَلَّتِ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةُ الْآشُورِيَّةُ ، وَانْقَرَضَتْ نَهَائِيًّا إِلَى غَيْرِ رَجْعَةٍ ، وَسَعَى تَبُوخَذَنْصَرٌ ، الَّذِي كَانَ قَدْ أَصْبَحَ - الْآنَ - مَلِكَ بَابِلِ ، إِلَى السِّيْطْرَةِ الْكَامِلَةِ عَلَى كُلِّ الْأَرْضِ الَّتِي بِاتِّجَاهِ الْغَرْبِ .

سُرْعَانِ مَا زَحَفَتِ الْقُوَاتُ الْبَابِلِيَّةُ أَسْفَلَ السَّهْلِ السَّاحِلِيِّ لِلْبَحْرِ الْأَبْيَضِ الْمُتَوَسِّطِ ، مَوْقِعَةً الدَّمَارَ فِي الْمُدُنِ الْفِلَسْطِينِيَّةِ الْغَنِيَّةِ . فِي يَهُوذَا ، وَقَعَ الدُّعْرُ فِي قَلْبِ الْحِزْبِ الْمُؤَيِّدِ لِمِصْرَ ، وَالَّذِي



كان قد استولى على الحُكم بعد عدة شهور من وفاة يُوشيا، ولم تفدهم نداءهم المُستميتة لـ 'نكا' (أو نخاو) لإمدادهم بالمساعدة العسكرية ضد البابليين سوى إضعافهم سياسياً في الأيام الفظيعة التي كانت تنتظرهم .

وهكذا بدأت الحلقة البابلية تضيق حول أورشليم (القدس) . كان البابليون مُصممين - الآن - على نهب الدولة اليهودية وتخريبها بالكامل . بعد الموت المُجاعي لـ يوياقيم ، واجه ابنه 'يوياكين' قوة الجيش البابلي المرعب :

[10 في ذلك الزمان ؛ صعد عبيد نبوخذنصر ملك بابل إلى أورشليم ، فدخلت المدينة تحت الحصار . 11 وجاء نبوخذنصر ملك بابل على المدينة ، وكان عبيده يحاصرونها . 12 فخرج يهوياكين ملك يهوذا إلى ملك بابل هو وأمه وعبيده ورؤسائه وخصيائه ، وأخذته ملك بابل في السنة الثامنة من ملكه . 13 وأخرج من هناك جميع خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك ، وكسر كل آنية الذهب التي عملها سليمان ملك إسرائيل في هيكل الرب ، كما تكلم الرب . 14 وسب كل أورشليم وكل الرؤساء وجميع جبابرة البأس ، عشرة آلاف منسبي ، وجميع الصناع والأقيان . لم يبق أحد إلا مساكين شغب الأرض . 15 وسب يهوياكين إلى بابل . وأم الملك ونساء الملك وخصيائه وأقوياء الأرض سبهم من أورشليم إلى بابل . 16 وجميع أصحاب البأس ، سبعة آلاف ، والصناع والأقيان ألف ، وجميع الأبطال أهل الحرب ، سبهم ملك بابل إلى بابل . ] (سفر الملوك الثاني 24 / 10 - 16) .

وَقَعَت تلك الأحداث سنة 597 ق . م ، وتم توثيقها - أيضاً - في السجلات البابلية :

في السنة السابعة ، في شهر كيسليف Kislev ، حشد ملك أكاد قواته ، وسار إلى أرض حثي ، وعسكر ضد مدينة يهوذا ، وفي اليوم الثاني من شهر آذار ؛ استولى على المدينة ، وأسر الملك . عين هناك ملكاً من اختياره الخاص ، وأخذ جزية باهظة ثقيلة ، عاد بها إلى بابل .

نُفِيت طبقة النبلاء والكهنة في أورشليم (القدس) - الذين احترقت بينهم العقيدة التثوية بشكل مؤثر - ليرتكوا وراءهم صراعات متزايدة بين أحزاب بيت داود الملكي وأعضاء البلاط الذين وقعوا في حيرة من أمرهم ، ولم يكن لديهم فكرة واضحة عما يمكنهم أن يفعلوه .

لكن؛ تلك كانت الخطوة الأولى - فقط - في تفكيك يهوذا القهري. استبدل "نبوخذنصر" فوراً بـ"يواكين" الأنفي بعمه "صدقياً"، الذي كان - على ما يبدو - تابعاً أكثر انقياداً، لكن ذلك كان خطأ؛ لأنه بعد سنوات قليلة، خُطِّطَ "صدقياً" بالاتفاق مع ملوك الجوار، للشورة ثانية، ومثل شخصية في مسرحية إغريقية تراجيدية، حكَمَ على نفسه وعلى مدينته بالهلاك. عام 587 ق.م، وصل "نبوخذنصر" بجيشه الهائل، وحاصر أورشليم (القدس). كانت تلك بداية النهاية.

وأخذت القوات البابلية تعيثُ فساداً في الريف، وأخذت المدن البعيدة ليهوذا تسقط الواحدة تلو الأخرى. لقد جاءت أدلة أثرية واضحة على سنوات المملكة الجنوبية الأخيرة، من كلِّ موقع تقريباً، نُقِبَ في يهوذا يعود للعهد الملكي المتأخر: في وادي بئر سبع، وفي "شَفَلَة"، وفي المرتفعات اليهودية. في قلعة أَراد، مركز تحكُّم يهوذا وعملياتها العسكرية في الجنوب، وُجِدَت، في أنقاض الدمار، مجموعة رقائق فخارية مكتوب عليها، أو قطع خزف مكتوبة، دوَّنت عليها أوامر مسعورة بتحريك القوات ونقل التَموينات الغذائية. في مدينة "لخيش" في منطقة "شَفَلَة" وُجِدَت في أنقاض البوابة الأخيرة للمدينة، رقائق فخارية مكتوبة تُقدِّمُ لِحمة مُحزنة إلى اللحظات الأخيرة لاستقلال يهوذا عندما كانت إشارات النار من البلدات المجاورة تتبدد، واحداً بعد الآخر. من المحتمل أنها كُتِبَت إلى قائد "لخيش" من مخفرٍ أمامي قريب، فهي تكشف إحساساً وشيخاً بالموت:

وقُل لسَيدي يعرف بأننا نترقَّب إشارات "لخيش" طبقاً لكلِّ الإشارات التي أعطاهَا سَيدي. لأننا لا نرى "عزيقة"...

هذا التقرير المتجهَّم يؤكِّده وَصَفُ جاء في سفر إرميا (7/34)، ذكر بأن "لخيش" و"عزيقة" كانتا - في الحقيقة - آخر مدينتين في يهوذا استطاعتا الصمود أمام الهجوم البابلي.

أخيراً؛ كان كلُّ ما تبقى هو أورشليم (القدس) فقط. إن وَصَفَ الكتاب المقدس العبري لساعاتها الأخيرة مروعاً حقاً:

[3] في تاسع الشهر؛ اشتدَّ الجوعُ في المدينة، ولم يكنْ حُبْزٌ لشعب الأرض. 4 فثَغَرَت المدينة، وهَرَبَ جميعُ رجالِ القتالِ كَيْلاً من طريقِ البابِ بينَ السورينِ اللذينِ نحوَ جَنَّةِ المَلِكِ. وكانَ الكلدانيونُ حَوْلَ المدينةِ مُستديرين. فَذَهَبُوا في طريقِ البريةِ. 5 قَبَعَتْ جِيوشُ الكلدانيينِ

الْمَلِكِ، فَأَذْرَكُوهُ فِي بَرِيَّةٍ أَرِيحَا، وَفَرَّقَتْ جَمِيعُ جِيُوشِهِ عَنْهُ. 6 فَأَخَذُوا الْمَلِكَ، وَأَصْعَدُوهُ إِلَى مَلِكِ بَابِلَ إِلَى رَيْلَةَ، وَكَلَّمُوهُ بِالْقَضَاءِ عَلَيْهِ. 7 وَكَتَلُوا بَنِي صَدْقِيَا أَمَامَ عَيْنَيْهِ، وَقَلَعُوا عَيْنَيْ صَدْقِيَا، وَقَيَّدُوهُ بِسُلْسَلَتَيْنِ مِنْ نَحَاسٍ، وَجَاءُوا بِهِ إِلَى بَابِلَ. [سفر الملوك الثاني 25/ 3-7].

وَوَقَعَ الْمَشْهَدُ الْأَخِيرُ فِي تِلْكَ الْمَأْسَاءِ بَعْدَ حَوَالِي شَهْرٍ:

[8] وَفِي الشَّهْرِ الْخَامِسِ، فِي سَابِعِ الشَّهْرِ، وَهِيَ السَّنَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ لِلْمَلِكِ نَبُوخَذَنْصَرٍ مَلِكِ بَابِلَ، جَاءَ نَبُوَزَرَادَانُ رَئِيسُ الشَّرْطِ عَبْدُ مَلِكِ بَابِلَ إِلَى أُورُشَلِيمَ، 9 وَأَحْرَقَ بَيْتَ الرَّبِّ وَبَيْتَ الْمَلِكِ. وَكُلُّ بِيُوتِ أُورُشَلِيمَ وَكُلُّ بِيُوتِ الْعُظَمَاءِ أَحْرَقَهَا بِالنَّارِ، 10 وَجَمِيعُ أَسْوَارِ أُورُشَلِيمَ مُسْتَدِيرًا هَدَمَهَا كُلُّ جِيُوشِ الْكَلْدَانِيِّينَ الَّذِينَ مَعَ رَئِيسِ الشَّرْطِ. 11 وَبَقِيَ الشَّعْبُ الَّذِينَ بَقُوا فِي الْمَدِينَةِ وَالْهَارِبُونَ الَّذِينَ هَرَبُوا إِلَى مَلِكِ بَابِلَ وَبَقِيَ الْجُمْهُورُ سَبَاهُمْ نَبُوَزَرَادَانُ رَئِيسُ الشَّرْطِ. [أَي ساقهم إلى حياة النفي] (سفر الملوك الثاني 25/ 8-11).

تنقل الاكتشافات الأثرية اللحظات المروعة الأخيرة للعنف فقط. لقد تم العثور على علامات تدل على حريق عظيم في كل مكان تقريباً داخل أسوار المدينة. تشهد الأنصال التي اكتشفت في البيوت وقرب التحصينات الشمالية على كثافة المعركة الأخيرة للقُدس. البيوت الخاصة، التي أحرقت بالنيران، وانهارت، ودقنت كل من كان فيها، خلقت أكواماً مفعمة من الأنقاض التي وقفت شاهداً على عمق وشمول دمار أُورُشليم (القُدس) من قبل البابليين، الذي بقي لمدة قرن ونصفٍ تالٍ. (نحميا 2/ 13)<sup>(1)</sup>.

وهكذا انتهى كل شيء. انتهت أربعمئة سنة من تاريخ يهوذا بالنار والدم. دُمّرت مملكة يهوذا الفخورة تدميراً كاملاً، وخرّب اقتصادها، ومزق مجتمعاها إرباً إرباً. وعذب الملك الأخير، من السلالة التي حكمت عدة قرون، وسُجن في بابل. وقُتل جميع أبنائه. ودُمّر هيكل (معبد) أُورُشليم (القُدس)، المكان الشرعي الوحيد لعبادة يهوه.

كان ينبغي لدين شعب إسرائيل ووجوده القومي أن ينتهيا بتلك الكارثة العظيمة؛ لكن كليهما بقي واستمرّ. بنحوٍ معجز - في الحياة.

(1) نصّ العبارة كما في سفر نحميا في الكتاب المقدس: [13] وَخَرَجْتُ مِنْ بَابِ الْوَادِي لِيَلَا أَمَامَ حَيْنِ التَّنِّينِ إِلَى بَابِ الدَّمْنِ وَصِرْتُ أَقْرَسٌ فِي أَسْوَارِ أُورُشَلِيمَ الْمُهْتَلِمَةِ وَأَبْوَابَهَا الَّتِي أَكَلَتْهَا النَّارُ. [نحميا: 2/ 13].

## الفصل (12):

### النَّضْيُ وَالْعَوْدَةُ (586 - 440 ق.م)

إذا أردنا أن نفهم القصة الكاملة لإسرائيل القديمة، وكيف صنع التاريخ التوراتي، فلا يمكننا التوقف عند موت يوشيا، ولا عند دمار أورشليم (القدس) والهيكل (المعبد) وسقوط السلالة الداودية، بل من الضروري أن نقوم بدراسة ما حدث في يهوذا في العقود التالية للغزو البابلي، وبمسح التطورات التي حدثت بين المنفيين في بابل، وبإعادة رواية الأحداث التي حدثت في أورشليم (القدس) في فترة ما بعد النفي. في هذه الأزمنة والأمكنة، تعرّصتُ نصوص أسفار التوراة وأسفار التاريخ التثنوي إلى إضافات وتنقيحات بعيدة المدى، حتى وصلت إلى ما يُشكّل -جوهرياً- شكلها النهائي. في أثناء ذلك؛ طوّر شعب إسرائيل أنماطاً جديدة من التنظيم والعبادة العمومية في بابل وأورشليم (القدس) أثناء القرنين السادس والخامس ق.م، التي شكّلت أساس الهيكل الثاني في أورشليم (القدس)، وبالتالي؛ أساس المسيحية المبكرة. وبناءً عليه؛ فإنّ الأحداث والعمليات التي حدثت في القرن والتصف التالي لغزو وفتح مملكة يهوذا -طبقاً لما يمكننا أن نُعيد بناء انطلاقاً من المصادر التاريخية والشواهد الأثرية- ذات أهمية حاسمة لفهم كيف ظهر التقليد اليهودي -المسيحي-

قبل الاستمرار بالقصة التوراتية يجب أن نُسجّل ملاحظة حول التغيير ذي المغزى في المصادر التوراتية التي بين أيدينا. التاريخ التثنوي، الذي روى تاريخ إسرائيل من نهاية التيه في البرية إلى الغزو البابلي لأورشليم (القدس)، ينتهي فجأةً. وهنا؛ يأخذ زمام القصة مؤلفون آخرون للكتاب المقدس. يروي سفر إرميا حالة "يهوذا" بعد الدمار، في حين يُروّدنا سفر حزقيال (الذي كتبه أحد المنفيين) بمعلومات عن حياة وتوقعات المبعدين اليهوديّين في بلاد بابل. أمّا الأحداث التي وقعت لدى عودة الموجات المتعاقبة من المنفيين إلى أورشليم

(القُدس)؛ فهي مروية في سفرَي "عزرا" و"نحميا"، ومن قِبَل الأنبياء "حجي" و"زكريا". هُنا -أيضاً- حانت اللحظة، في قصتنا، التي يجب أن تُغيّرَ فيها مُصطلحنا: مملكةُ يهوذا تُصبح "يهودا". الاسم الآرامي لتلك المحافظة ضمن الإمبراطورية الفارسية.. وشعب يهوذا، أيّ اليهوديّين، سيُطلق عليهم -من الآن فصاعداً- اليهوديم، أو اليهود.

من الدمار إلى الإحياء:

تبدأ مرحلة الذروة من تاريخ إسرائيل، هذه، بمشهد الكارثة واليأس المُطلق. أورشليم (القُدس) مُدمّرة، الهيكل (المعبد) خراب، آخر الملوك الداوِديّين الحاكمين: "صدقيّا"، سُمكت عيناه، فأعمى، ونفي، وُدِحَ جميعُ أبنائه. العديدُ من أعضاء النُخبة اليهوديّة مُبعدون. لقد وصَلت الأوضاع إلى أسوأ حالة، وبدا كما لو أن تاريخ شعب إسرائيل وصَلَ إلى نهايةٍ مرّةً، لا رجعة عنها.

ليس الأمر هكذا بالضبط تماماً، لأننا نعلم من الفصل الختامي لسفر الملوك الثاني وسفر "زرميا" أن هناك جزءاً من سكّان "يهودا" بقوا، ولم يُبعدوا، بل سَمّحت السُلطات البابليّة لهم بنوع من الحكم الذاتي، وعيّنت عليهم مسؤولاً اسمه "جدليّا بن أحيقّام"، ليحكم النَّاس الذين بقوا في يهوذا، التي أصبحت أفقر بقاع الأرض. وأصبحت "مصفاة" -بلدة بسيطة شمال أورشليم (القُدس)، مركز إدارة "جدليّا" وملجأً لليهوديّين آخرين، مثل النبي "زرميا"، الذي عارض الانتفاضة المشؤومة ضدّ الدّولة البابليّة. حاول "جدليّا" إقناع شعب يهوذا بالتعاون مع البابليّين وإعادة بناء حياتهم ومُستقبلهم، على الرّغم من دمار الهيكل ودمار مدينة أورشليم (القُدس). لكن؛ سرعان ما اغتيل "جدليّا" من قِبَل "إسماعيل بن نَنّيا"، أحد أعضاء العائلة المالكة. احتمالاً -لكون "جدليّا" تعاون مع البابليّين الذين عدّوا أنّهم يُشكلون تهديداً للامال المُستقبلية لآل بيت داود. وقُتل في تلك الحادثة -أيضاً- مسؤولون يهوديّون آخرون ومُمثلون إمبراطوريّون بابليّون كانوا حاضرين في "مصفاة". وقرّر الأفراد الباقون على قَيْد الحياة من السكّان المحليّين الفرار بجلدتهم (خوفاً من انتقام الدّولة الكلدانيّة)، تاركين يهوذا التي أصبحت مُقفرة من السكّان عملياً. [ فقامَ جميعُ الشّعب من الصّغير إلى الكبير ورؤساء الجيوش،

وَجَاءَ إِلَى مِصْرَ؛ لِأَنَّهُمْ خَافُوا مِنَ الْكَلْدَانِيِّينَ [ (عُرفوا - أيضاً - بالبابليين) . هَرَبَ النَّبِيُّ إِزْمِيَا مَعَهُمْ ، مِنْهُيَا - بِذَلِكَ ، ظَاهِرًا - عِدَّةَ قُرُونٍ مِنَ الْإِحْتِلَالِ الْإِسْرَائِيلِيِّ لِلْأَرْضِ الْمَوْعُودَةِ (سَفَرِ الْمَلُوكِ الْثَانِي 22/25 - 26<sup>(1)</sup> ) ، إِزْمِيَا 7/40 - 7/43 ] .

يُعْطِي الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ الْعِبْرِيَّ بَضْعَةَ تَفَاصِيلٍ حَوْلَ حَيَاةِ الْمُنْفِيِّينَ أَثْنَاءَ السَّنَوَاتِ الْخَمْسِينَ التَّالِيَةِ . مَصْدَرُنَا الْوَحِيدُ لِهَذِهِ الْمَعْلُومَاتِ هُوَ التَّلْمِيحَاتُ غَيْرُ الْمُبَاشِرَةِ ، وَالنَّامِضَةُ فِي أَغْلِبِ الْأَحْيَانِ ، الَّتِي نَجِدُهَا فِي التَّالِيَّاتِ النَّبَوِيَّةِ الْمُخْتَلَفَةِ . يُخْبِرُنَا حَزَقِيَالُ وَإِسْعِيَاءُ الثَّانِي (الْفُصُولُ 40 - 55 مِنْ سَفَرِ إِسْعِيَاءُ) أَنَّ الْمُنْفِيِّينَ الْيَهُودِيِّينَ عَاشُوا فِي الْعَاصِمَةِ بَابِلَ فِي الرِّيفِ . وَأَسَّسَ الْمُبْعُدُونَ مِنَ الْكَهَنَةِ وَالْأُسْرَةَ الْمَالِكَةَ حَيَاةً جَدِيدَةً لَأَنْفُسِهِمْ ، أَحْتَفِظُ فِيهَا الْمَلِكُ السَّادُوْدِيُّ يَهُوْيَاكِينُ - الْمُنْفِيَّ - بِدَلًا مِنْ "صَدِيقِيَا" الْمُهَانَ ، وَالَّذِي سُمِّلَتْ عَيْنَاهُ ، وَأَعْمِي - بِنُوعٍ مِنَ السُّلْطَةِ عَلَى الْحَالِيَةِ . يَبْدُو مِنْ إِشَارَاتٍ مُتَفَرِّقَةٍ فِي سَفَرِ حَزَقِيَالِ ؛ أَنَّ الْمُسْتَوْطِنَاتِ الْيَهُودِيَّةَ وَضَعَتْ فِي مَنَاطِقٍ مُتَخَلِّفَةٍ مِنَ الْمَمْلَكَةِ الْبَابِلِيَّةِ ، قُرْبَ قَتَوَاتٍ حُفِرَتْ حَدِيثًا . وَعَاشَ حَزَقِيَالُ نَفْسَهُ ، الَّذِي كَانَ كَاهِنًا مَنِيًّا مِنْ هَيْكَلِ أُورُشَلِيمَ (الْقُدْسِ) ، لِفَتْرَةٍ ، فِي مُسْتَوْطِنَةٍ تَقَعُ عَلَى تَلٍّ قَدِيمٍ اسْمُهُ تَلُّ أَيْبِيبِ ، (فِي الْعِبْرِيَّةِ ، تَلُّ أَيْفِيبِ ؛ حَزَقِيَالُ 15/3) .

لَا تَكْشِفُ النَّصُوصُ إِلَّا قَلِيلًا عَنِ طَبِيعَةِ حَيَاتِهِمْ ، بِاسْتِثْنَاءِ أَنَّ الْمُنْفِيِّينَ اسْتَقْرَؤُوا هُنَاكَ لِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ ، مُتَّبِعِينَ نَصِيحَةَ "إِزْمِيَا" : [ 5 ابْنُوا بُيُوتًا ، وَاسْكُنُوا ، وَآغْرَسُوا جَنَّاتٍ ، وَكُلُّوا ثَمَرَهَا . 6 خُدُّوا نِسَاءً وَكَلِّدُوا بَنِينَ وَبَنَاتٍ ، وَخُدُّوا لِبَنِيكُمْ نِسَاءً ، وَأَعْطُوا بَنَاتِكُمْ لِرِجَالٍ ، فَيَلِدْنَ بَنِينَ وَبَنَاتٍ ، وَكَثُرُوا هُنَاكَ ، وَلَا تَقْلُوا . ] [ (إِزْمِيَا 5/29 - 6) ، وَلَكِنِ التَّارِيخُ يَدْخُلُ بِسُرْعَةٍ فِي مُعْطَفٍ مُعَاجِزٍ وَمُثِيرٍ يَجْعَلُ الْعَدِيدَ مِنَ الْمُنْفِيِّينَ يَعودُونَ إِلَى أُورُشَلِيمَ (الْقُدْسِ) .

(1) وَنَصُّ عِبَارَةِ سَفَرِ الْمَلُوكِ 2: [ 22 وَأَمَّا الشَّعْبُ الَّذِي بَقِيَ فِي أَرْضِ يَهُودَا الَّذِينَ أَبْقَاهُمْ يَهُوَذَنْصَرُ مَلِكُ بَابِلَ ، فَوَكَّلَ عَلَيْهِمْ جَدَلِيَا بْنُ أَحِقَامَ بْنِ شَالْمَانَ . 23 وَكَمَا سَمِعَ جَمِيعُ رُؤَسَاءِ الْجِيُوشِ هُمْ وَرِجَالُهُمْ أَنَّ مَلِكَ بَابِلَ قَدْ وَكَّلَ جَدَلِيَا أَمْرًا إِلَى جَدَلِيَا إِلَى الْمَصْفَاةِ ، وَهُمْ إِسْمَاعِيلُ بْنُ نَثِيَا وَيُوحَنَّا بْنُ قَارِيحَ وَسَرَيَا بْنُ تَنْحُومِثَ النَّطُوقَاتِيَّ وَبَارْتِيَا ابْنُ الْمَعْكِي هُمْ وَرِجَالُهُمْ . 24 وَحَلَفَ جَدَلِيَا لَهُمْ وَرِجَالَهُمْ وَقَالَ لَهُمْ : [ لَا تَخَافُوا مِنْ عِبِيدِ الْكَلْدَانِيِّينَ . اسْكُنُوا الْأَرْضَ وَتَعَبَّدُوا لِمَلِكِ بَابِلَ لِيَكُونَ لَكُمْ خَيْرٌ ] . 25 وَفِي الشَّهْرِ السَّابِعِ جَاءَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ نَثِيَا بْنِ الْيَشْعَرِ مِنَ النَّسْلِ الْمَلِكِيِّ وَعَشْرَةُ رِجَالٍ مَعَهُ وَصَرَّهُوا جَدَلِيَا قَمَاتَ ، وَأَيْضًا الْيَهُودَ وَالْكَلْدَانِيِّينَ الَّذِينَ مَعَهُ فِي الْمَصْفَاةِ . 26 قَامَ جَمِيعُ الشَّعْبِ مِنَ الصَّغِيرِ إِلَى الْكَبِيرِ وَرُؤَسَاءُ الْجِيُوشِ وَجَامُوا إِلَى مِصْرَ ، لِأَنَّهُمْ خَافُوا مِنَ الْكَلْدَانِيِّينَ . ] [ سَفَرِ الْمَلُوكِ الثَّانِي 22/25 . 26 . (الْمُتْرَجِمُ) .

تُنهَارُ الإمبراطوريَّةَ البابليَّةَ الجديدةَ على أيدي الفُرس عام 539 ق.م. . في السَّنةِ الأولى من عهده، يُصدِرُ "كُورَش" ، مُؤسِّسَ الإمبراطوريَّةِ الفارسيَّةِ مرسوماً ملكياً يقضي بإعادة "يهوذا" والهيكل: [ هَكَذَا قَالَ كُورَشُ مَلِكُ فَارَسَ: جَمِيعُ مَمَالِكِ الأَرْضِ دَفَعَهَا لِي الرَّبُّ إِلَهُ السَّمَاءِ، وَهُوَ أَوْصَانِي أَنْ أَبْنِيَ لَهُ بُيْتًا فِي أُورُشَلِيمَ الَّتِي فِي يَهُوذا. 3 مَنْ مِنْكُمْ مِنْ كُلِّ شَعْبِهِ لِيَكُنْ إِلَهُهُ مَعَهُ، وَيَصْعَدْ إِلَى أُورُشَلِيمَ الَّتِي فِي يَهُوذا، فَيَبْنِيَ بَيْتَ الرَّبِّ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ. هُوَ إِلَهُ الَّذِي فِي أُورُشَلِيمَ. ] (عَزْرَا 1/2-3).

قَادَ زَعِيمُ الْمُنْفِيِّينَ اسْمَهُ "شَيْشْبَصَّر"، وَصَفَ فِي سَفَرِ عَزْرَا 8/1 كـ "أَمِيرِ يَهُوذا"، (مِمَّا يُشِيرُ-احْتِمَالاً- إِلَى أَنَّهُ كَانَ ابْنَ الْمَلِكِ الدَّأودِي الْمُنْفِي "يَهُوَيَاكِين")، الْمَجْمُوعَةَ الأُولَى مِنَ الْعَائِدِينَ إِلَى صِهْيُونَ. وَحَمَلُوا مَعَهُمْ- عَلَى مَا يُرَوَى- ذَخَائِرَ وَكُتُوزَ الْهَيْكَلِ الَّتِي أَخَذَهَا نَبُوخَذَنْصَرٌ مِنْ أُورُشَلِيمَ (الْقُدْس) قَبْلَ نِصْفِ قَرْنٍ. هُنَاكَ قَائِمَةٌ لِلْعَائِدِينَ حَسَبَ بِلْدَةِ الأَصْلِ، وَالْعَائِلَةِ، وَالْعَدَدِ الَّذِي تَلَى هُوَ حِوَالِي خَمْسِينَ أَلْفَ، جُمْلَةً. اسْتَقَرُّوا فِي وَطَنِهِمُ الْقَدِيمِ، وَوَضَعُوا الأَسَاسَ لِلْهَيْكَلِ الْجَدِيدِ. بَعْدَ سَنَوَاتٍ قَلِيلَةٍ؛ تَجَمَّعَتْ مَوْجَةٌ أُخْرَى مِنَ الْعَائِدِينَ فِي أُورُشَلِيمَ (الْقُدْس). وَقَامُوا-تَحْتَ قِيَادَةِ "يَشُوعَ بْنِ يُوَصَادَاقَ"، وَشَخْصٍ أُخْرٍ يُدْعَى أَنَّهُ حَفِيدُ لِيَهُوَيَاكِينِ،-اسْمُهُ "زَرْبَابَل"- بِنَاءِ مَذْبَحٍ، وَاحْتِفَالُوا بِعِيدِ الْخِيَامِ. وَبَدَؤُوا بِإِعَادَةِ بِنَاءِ الْهَيْكَلِ فِي مَشْهَدٍ مُؤَثَّرٍ:

[ . . وَكُلُّ الشَّعْبِ هَتَفُوا هَتَافًا عَظِيمًا بِالنَّسِيحِ لِلرَّبِّ لِأَجْلِ تَأْسِيسِ بَيْتِ الرَّبِّ. 12 وَكَثِيرُونَ مِنَ الْكَهَنَةِ وَاللَّاوِيِّينَ وَرُؤُوسِ الأَبْيَاءِ الشُّيُوخِ الَّذِينَ رَأَوْا الْبَيْتَ الأَوَّلَ بَنَوْا بِصَوْتٍ عَظِيمٍ عِنْدَ تَأْسِيسِ هَذَا الْبَيْتِ أَمَامَ أَعْيُنِهِمْ. وَكَثِيرُونَ كَانُوا يَرْتَفِعُونَ أَصْوَاتَهُمْ بِالْهَتَافِ بِفَرَحٍ. 13 وَكَمْ يَكُنْ الشَّعْبُ يُبَيِّزُ هَتَافَ الفَرَحِ مِنْ صَوْتِ بُكَاءِ الشَّعْبِ؛ لِأَنَّ الشَّعْبَ كَانَ يَهْتَفُ هَتَافًا عَظِيمًا حَتَّى أَنْ الصَّوْتِ سَمِعَ مِنْ بُعْدٍ. ] (عَزْرَا 3/11-13).

وَلَمَّا سَمِعَ شَعْبُ السَّامِرَةِ- سِوَا الْمَوَاطِنُونَ الأَصْلِيُونَ السَّابِقُونَ لِلْمَمْلَكَةِ الشَّمَالِيَّةِ أَوْ الْمَوَاطِنُونَ المُبْعَدُونَ مِنْ دِيَارِهِمُ الَّذِينَ جَلَبَهُمُ الأَشُورِيُّونَ إِلَى هُنَاكَ- عَنِ بَدْءِ بِنَاءِ هَيْكَلِ ثَانٍ، جَاؤُوا إِلَى "زَرْبَابَل"، وَطَلَبُوا الأَنْضِمَامَ إِلَى الْعَمَلِ، لَكِنْ "يَشُوعُ" الْكَاهِنُ وَ"زَرْبَابَلُ" طَرَدَا

الشماليين قائلين لهم بصراحة: [ لَيْسَ لَكُمْ وَلَكِنَّا أَنْ تَبْنِيَ بَيْتًا لِإِلَهُنَا، وَلَكِنَّا نَحْنُ وَحَدْنَا تَبْنِي لِلرَّبِّ إِلَه [سُرَائِيل] (عزرا 3/4) . إنَّ الفئة التي حافظت على نفسها في المنفى أصبحت تعتقد - الآن - أنها تملك الحقَّ الإلهي بتحديد صفة الأرتوذكسية اليهودية .

قام 'شعب الأرض' ، مُستائين ممَّا يحدث ، بإعاقه العمل ، بل حتَّى كَتَبُوا إلى ملك فارس ، يَتَهَمُونَ اليهود بإعادة بناء تلك المدينة 'العاصية والشِّريرة' ، وَيَتَوَقَّعُونَ : [ بَأَنَّهُ إِذَا بُنِيَتْ هَذِهِ الْمَدِينَةُ ، وَأُكْمِلَتْ أَسْوَارُهَا لَا يُؤَدُّونَ جَزِيَّةً وَلَا خَرَّاجًا وَلَا خَفَّارَةً ، فَأَخِيرًا تَضُرُّ الْمُلُوكَ ] ، وَأَنَّ الدَّخْلَ الْمَلَكِي سَيَكُونُ ضَعِيفًا . . وَأَنْتَ بَعْدَ ذَلِكَ : [ لَا يَكُونُ لَكَ عِنْدَ ذَلِكَ نَصِيبٌ فِي عِبْرِ النَّهْرِ ] (عزرا 4/12-16)<sup>(1)</sup> . ولدى استلامه لهذه الرسالة ؛ أمر ملك فارس بالتوقُّف عن بناء أُورشليم (القدس) .

لكن 'زَرَبَابَل' و'يَشُوع' واصلوا العملَ على الرَّغم من ذلك . وعندما علم الحاكم الفارسي للمحافظة بذلك ، وجاء لتفتيش الموقع ، طلبَ أَنْ يَعْرِفَ مَنْ سَمَّحَ بِنْدَاءِ عِدَادَةِ الْبِنَاءِ . فَأُحِيلَ إِلَى الْمَرْسُومِ الْأَصْلِيِّ لِكُورَش . طبقاً لكتاب عزرا ، كَتَبَ الْحَاكِم - عِنْدئذٍ - إِلَى الْمَلِكِ الْجَدِيدِ ، دَارِيُوسَ ، طَالِباً مِنْهُ قَرَاراً مَلَكِيًّا بِهَذَا الشَّانِ . لم يأمر داريوس بالسَّماح بمواصلة عمل البناء فحسب ، بل أمر - أيضاً - بِدَفْعِ كُلِّ تَكَالِيفِ عِدَادَةِ الْإِعْمَارِ مِنْ دَخْلِ الدَّوْلَةِ ، وَبِتَجْهِيزِ الْهَيْكَلِ بِالْحَيَوَانَاتِ لِأَجْلِ التَضْحِيَةِ ، وَمُعَاقَبَةِ مَنْ يُحَاوِلُ مَنَعَ تَطْبِيقِ الْمَرْسُومِ الْمَلَكِيِّ . وَأُنْهِيَ بِنَاءَ الْمَعْبَدِ سَنَةَ 516 ق.م . . وهكذا بدأ عصر يهودية الهيكل الثاني .

مرتُ فترةُ نصفِ قرنٍ آخرٍ غيرِ واضحةِ المعالمِ حتَّى جَاءَ الْكَاتِبُ 'عَزْرًا' ، مِنْ عَائِلَةِ الْكَاهِنِ الرَّئِيسِيِّ هَارُونَ ، إِلَى أُورُشَلِيمِ (القدس) ، مِنْ بِلَادِ بَابِلِ (مِنْ الْمُحْتَمَلِ سَنَةَ 458

(1) ونص عبارة الكتاب المقدس العبري: [ 12 لِيُعَلِّمَ الْمَلِكُ أَنَّ الْيَهُودَ الَّذِينَ صَعَدُوا مِنْ عِنْدِكَ إِلَيْنَا قَدْ أَتَوْا إِلَى أُورُشَلِيمَ وَيَبْنُونَ الْمَدِينَةَ الْعَاصِيَةَ الرَّدِيئَةَ وَقَدْ أَكْمَلُوا أَسْوَارَهَا وَرَمَمُوا أَسْهُهَا . 13 لِيَكُنْ الْآنَ مَعْلُومًا لَدَى الْمَلِكِ أَنَّ إِذَا بُنِيَتْ هَذِهِ الْمَدِينَةُ وَأُكْمِلَتْ أَسْوَارُهَا لَا يُؤَدُّونَ جَزِيَّةً وَلَا خَرَّاجًا وَلَا خَفَّارَةً فَأَخِيرًا تَضُرُّ الْمُلُوكَ . 14 وَالْآنَ بِمَّا إِنَّمَا نَأْكُلُ مِلْحَ دَارِ الْمَلِكِ وَلَا يَلِيقُ بِمَا أَنْ تَرَى ضَرَرَ الْمَلِكِ لِذَلِكَ أَرْسَلْنَا قَاعِلَمَتَا الْمَلِكِ 15 لِيَقْشَرَ فِي سَفَرِ الْخَبَرِ أَهْلَكَ قَتَحَدَ فِي سَفَرِ الْخَبَرِ وَتَعْلَمَ أَنَّ هَذِهِ الْمَدِينَةَ مَدِينَةٌ عَاصِيَةٌ وَمُضْرِبَةٌ لِلْمُلُوكِ وَالْبِلَادِ وَقَدْ عَمَلُوا عَصِيَانًا فِي وَسَطِهَا مِنْذُ الْأَيَّامِ الْقَدِيمَةِ لِذَلِكَ أَخْبَرْتُ هَذِهِ الْمَدِينَةَ . 16 وَتَحْنُ نَعْلَمُ الْمَلِكُ أَنَّ إِذَا بُنِيَتْ هَذِهِ الْمَدِينَةُ وَأُكْمِلَتْ أَسْوَارُهَا لَا يَكُونُ لَكَ عِنْدَ ذَلِكَ نَصِيبٌ فِي عِبْرِ النَّهْرِ ] . (عزرا 4/12-16) . (الترجم) .



ق. م). [ وهو كاتب ماهر في شريعة موسى التي أعطاهَا الرَّبُّ إلهُ إسرائيلَ . وأَعْطَاهُ الْمَلِكُ حَسَبَ يَدِ الرَّبِّ إِلَهُهِ عَلَيْهِ كُلُّ سُوْلِهِ ] (عزرا 7/ 6 و 10). أرسلَ عزرا للقيام بتحقيق حول يهوذا والقُدس من قبل أرتَحَشَسْتَا ملك بلاد فارس ، الذي خَوَّلَهُ أَنْ يَأْخُذَ مَعَهُ مَجْمُوعَةٌ إِضَافِيَّةٌ مِنَ الْمُتَنَبِّئِينَ الْيَهُودِ مِنْ بَابِلَ مَنْ يُرِغِبُ بِالْعُودَةِ إِلَى هُنَاكَ . وَزُوْدَ مَلِكِ فَارِسَ عَزْرَا بِالْأَمْوَالِ وَبِسُلْطَةِ قَضَائِيَّةٍ . لَدَى وَصُولِهِ إِلَى أُورُشَلِيمَ (القُدس) مَعَ آخِرِ مَوْجَةٍ مِنَ الْعَائِدِينَ ، صَدَّمَ عَزْرَا بِاكتشافه أَنَّ شَعْبَ إِسْرَائِيلَ - بَمَنْ فِي ذَلِكَ الْكَهَنَةِ وَاللَّوِيِّينَ - كَمْ يَفْصَلُوا أَنْفُسَهُمْ عَنِ مُوْبِقَاتِ وَقَوَاحِشِ جيرانهم . كما تَزَوَّجُوا وَاخْتَلَطُوا بِحَرِيَّةٍ مَعَ شُعُوبِ الْأَرْضِ .

أَمْرَ عَزْرَا كُلَّ الْعَائِدِينَ لِلتَّجْمَعِ فُورًا فِي أُورُشَلِيمَ (القُدس) :

[9] فَاجْتَمَعَ كُلُّ رِجَالِ يَهُودَا وَيَتِيمَايْنِ إِلَى أُورُشَلِيمَ . . وَجَلَسَ جَمِيعُ الشَّعْبِ فِي سَاحَةِ بَيْتِ اللَّهِ مُرْتَمِدِينَ مِنَ الْأَمْرِ وَمِنَ الْأَمْطَارِ . 10 فَقَامَ عَزْرَا الْكَاهِنُ ، وَقَالَ لَهُمْ : (إِنَّكُمْ قَدْ خْتَمْتُمْ وَأَتَّخَذْتُمْ نِسَاءً غَرِيبَةً لِتَزِيدُوا عَلَيَّ إِثْمَ إِسْرَائِيلَ . 11 فَاعترفوا - الْآنَ - لِلرَّبِّ إِلَهِ آبَائِكُمْ ، وَاعْمَلُوا مَرْضَاتِهِ ، وَانْقِصَلُوا عَنِ شُعُوبِ الْأَرْضِ وَعَنِ النِّسَاءِ الْغَرِيبَةِ) . 12 فَاجَابَ كُلُّ الْجَمَاعَةِ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ : (كَمَا كَلَّمْتَنَا كَذَلِكَ نَعْمَلُ .) . . . . . وَقَعَلَ هَكَذَا بَنُو السَّبْيِ . ] (عزرا 10/ 9-16) .

ثمَّ اخْتَصَى "عَزْرَا" - أَحَدَ أَكْثَرِ الشَّخْصِيَّاتِ الْمُؤَثِّرَةِ فِي الْأَزْمَنَةِ التَّوْرَاتِيَّةِ - مِنْ مَسْرَحِ الْأَحْدَاثِ .

كَانَ الْبَطْلُ الْآخِرُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ : "تَحْمِيَا" ، السَّاقِي ، أَوْ الْمَسْوُولُ فِي مَحْكَمَةِ مَلِكِ فَارِسِ الْعَلِيَا . سَمِعَ "تَحْمِيَا" عَنِ الْحَالَةِ السَّيِّئَةِ لِسُكَّانِ يَهُودَا ، وَعَنِ ظُرُوفِ الْإِهْمَالِ الْفَظِيعِ فِي أُورُشَلِيمَ (القُدس) . تَأَثَّرَ جَدًّا لِهَذِهِ الْأَخْبَارِ ، فَطَلَبَ مِنْ مَلِكِ فَارِسِ أَرْتَحَشَسْتَا السَّمَاحَ لَهُ بِالذَّهَابِ إِلَى أُورُشَلِيمَ (القُدس) لِإِعَادَةِ بِنَاءِ مَدِينَةِ آبَائِهِ . مَنَحَ الْمَلِكُ "تَحْمِيَا" السَّمَاحَ ، وَعَيْنَهُ فِي مَنْصَبِ الْحَاكِمِ . فُورَ وَصُولِهِ إِلَى أُورُشَلِيمَ (القُدس) (حوالي سنة 445 ق. م) ؛ بَدَأَ "تَحْمِيَا" جَوْلَةَ تَفْتِيشٍ لَيْلِيَّةٍ فِي الْمَدِينَةِ ، ثُمَّ اسْتَدْعَى النَّاسَ لِلانضمامِ إِلَى جِهَادٍ عُمُومِيٍّ عَظِيمٍ لِإِعَادَةِ بِنَاءِ أَسْوَارِ أُورُشَلِيمَ (القُدس) ، لِأَجْلِ أَنْ "لَا تُعَانِي مِنَ الْخِزْيِ بَعْدَ ذَلِكَ" ، لَكِنْ ؛ عِنْدَمَا سَمِعَ جِيرَانُ يَهُودَا - أَيُّ زُعَمَاءِ السَّامِرَةِ وَعَمُونَ ، وَعَرَبِ الْجَنُوبِ - عَنِ خُطَطِ "تَحْمِيَا" لِتَحْصِينِ أُورُشَلِيمَ

(القُدس)، أَنهَموا اليهود بالتخطيط لانفاضة ضدَّ السُّلطات الفارسيَّة، وخطَطُوا لهاجَمَةَ المدينة. لِأَنَّ عمل بناء السُّور استمرَّ مع ذلك - حتَّى الإكمال. كَانَتْ نَحْصِيًّا نَشِيطًا - أَيضًا. في تطبيق التشريع الاجتماعي، يُدِينُ أولئك الذين يأكلون الرُّبَا، ويَحْتُ على مَنْح الأرض إلى الفقراء. وفي الوقت نفسه، مَنْحُ زواج اليهودي - أَيضًا - من الزَّوجات الأجنبيَّات.

وَصَعَتْ هذه القرارات - التي أصدرها عَزْرَا وَتَحَمِيَّا في أُورشليم (القُدس) في القرن الخامس ق. م - أساسَ يهوديَّة الهيكل الثَّاني واضعةً حُدُودًا واضحةً بَيْنَ الشَّعب اليهودي وجيرانهم، وداعيةً إلى الالتزام الصَّارم والدقيق بالقانون التَّشوي (أي بشرائع سفر التثنية). أدَّتْ جُهُودهم - وجُهُود كَهَنَةٍ وكُتَّاب يهوديِّين آخريْن التي بَدَلَتْ خلال المئِة وخمسين سنة من النِّفي، والمعاناة، والبحث عن اللذات، وإعادة التَّاهيل السِّياسي - إلى ولادة الكتاب المُقدَّس العبريِّ The Hebrew Bible في جوهر شكله النَّهائي.

من الكارثة إلى التَّصحیحية التَّاريخية:

كانت القِصَّة الدِّينيَّة العظيمة التي حُبِّكَت فُصُولها إلى بعضها البعض أثناء عهد يُوْشِيَّا، والتي أُخبرَتْ عن قِصَّة إسرائيل مِنْذُ وعد الله للأبَاء، ومُرُورًا بِالخَرْجِ الجماعي (من مصر)، ثُمَّ غزو كَنْعَانَ، والحُكْم الملكي المُتَّحد، ثُمَّ الدَّولَتَيْنِ المُتقسِمَتَيْنِ، وفي النَّهاية؛ اكتشاف سفر الشَّريعة في هيكل أُورشليم (القُدس)، تَأليفًا راععًا وعاطفيًّا استهدفَ توضيح لماذَا تُوْحِي أحداث الماضي بانتصارات مُستقبلية، وتبرير الحاجة للإصلاحات الدِّينية لسفر التثنية، واستهدف - من النَّاحية العَمَلية المحضة - دَعْمَ وتأييد الطُّمُوحات الإقليمِية للأُسرة الدَّاودِيَّة المالكة، لكنْ؛ في اللَّحظة ذاتها التي كان يُوْشِيَّا على وَشَكِّ أَنْ يُعيد مجد يهوذا، تمَّ القضاء على يُوْشِيَّا من قِبَل فرعون. وارتدَّ وَرَكَّة يُوْشِيَّا إلى عبادة الأوثان والتَّعكير الضَّيق الأثْنِ. استردَّتْ مصر امتلاك السَّاحل، وَوَصَلَ البابليُّون سريعا ليضعوا حَدًّا لِلوُجُودِ الوَطَنِيِّ ليهوذا. أين كانَ اللهُ الذي وعد بإصلاح حال يهوذا؟! يَبِينُما كانَ مُمكنًا لأكثر الأُمم الأخرى في الشَّرْقِ الأَدنى القديم أَنْ تَكُونِ راضيةً بِقَبُولِ حُكْمِ التَّاريخ، وأنْ تهزَّ أكتافها غير مُبالية بما حَدَثَ، ومُلقيةً بِذلك على عاتق إله النَّصر، عادَ المُحرِّرون التَّالون للتَّاريخ التَّشوي إلى لوحة الرِّسْمِ.

كَانَ يُمكنُ لـ "يَهُوْيَاكِين" ، الملكِ المَنْصِيّ من أُورُشليم (القُدُس) عام 597 ق. م. ، وزعيمِ الجاليةِ اليَهُودِيَّةِ في بابلِ أَنْ يُمَثِّلَ أَفضلَ أُمَلِّ الإحياءِ الأَخيرِ للسُّلالةِ الدَّاودِيَّةِ . لكنَّ الاعْتقادَ ، الذي لم يكن يقبل الشكَّ سابقاً ، بأنَّ وريثاً داودياً سوف يُحقِّقُ الوَعودَ الإلهيَّةَ ، لم يَعدُ مضموناً وموثوقاً في ضوءِ الكارثةِ التي حلَّتْ حديثاً . في الحقيقة ؛ الحاجةُ المُستميئةُ لإعادةِ ترجمةِ الأحداثِ التَّاريخيَّةِ للعُقودِ السَّابِقةِ أدتْ إلى تَجديدِ التَّاريخِ التَّنويِّ الأَصليِّ ؛ لكي يُوَضِّحَ كَيْفَ أَخفقتِ اللَّحظةُ المُنتظرةُ طويلاً لإصلاحِ الشَّأنِ وإعادةِ العِزَّةِ ، والتي طُبِّقتْ على عهدِ جَدِّ يَهُوْيَاكِينِ : "يُوشيا" ، في التَّحَقُّقِ .

مِزَّ العالَمِ التَّوراتيِّ الأَمريكيِّ "فرانك مَور كُروس" Frank Moore Cross . منذُ عهدِ بعيدٍ - ما اعتقدته بأنه عملياً تنقيحٌ أو تحريرٌ تمثلاً للتَّاريخِ التَّنويِّ ، تعكسان الاختلافَ في الوعيِ التَّاريخيِّ قَبْلَ وَيَعَدُ النَّفيِّ . من المُفترضِ أَنَّ النُّسخةَ السَّابِقةَ ، المعروفةَ في الدِّراساتِ التَّوراتيَّةِ كسُفَرِ التَّنبيةِ ، كُتِبَتْ في عهدِ "يُوشيا" ، وكانت - كما حاولنا إثباته . مكرَّسة - كلياً - لدَعْمِ وتحميقِ أهدافِ ذلكِ الملكِ الدِّينيِّ والسَّياسِيَّةِ . طبقاً لـ "كُروس" والعديدِ مِنَ العُلَماءِ الذين تَلَّسَوْه ، ينسهي التَّاريخِ التَّنويِّ الأوَّلُ ، بالمقاطعِ التي تصفِ الدِّمارَ العَظيمَ للأماكنِ العالِيَةِ الوَكْنِيَّةِ في كافَّةِ أنحاءِ البلادِ والاحتفالِ بعيدِ الفِصحِ الوَطَنيِّ الأوَّلِ في أُورُشليم (القُدُس) . كانَ ذلكِ الاحتفالِ إعادةَ رَمزيَّةِ لعيدِ الفِصحِ العَظيمِ لمُوسى العيدِ الذي يُحيي التَّجاةَ مِنَ العِبوديَّةِ إلى الحُرِّيَّةِ تحتِ قيادةِ يَهُوهَ ، ويتوقَّعُ تحريرَ يَهُودًا مِنَ النَّيرِ الجَدِيدِ لمصرِ تحتِ الفرعونِ نكا (أو نخاو) . في الحقيقة ؛ يُعيدُ التَّاريخِ التَّنويِّ الأَصليِّ روايةَ قصَّةِ إِسرائيلِ مُنذُ الخطابِ الأَخيرِ لمُوسى إلى غزوَ كَنْعَانَ تحتِ قيادةِ يشوعِ إلى إعطاءِ الشَّرِيعَةِ الجَدِيدَةِ وتَجدِيدِ غزوَ "يُوشيا" لِلأَرْضِ المَوْعُودَةِ . كانَتْ قِصَّةُ نَتَهيِّ بالإصلاحِ الإلهيِّ ، والنِّعمةِ الأبدِيَّةِ .

لكنَّ الكارثةَ وَقَعَتْ . تُبينُ أَنَّ قُرُوناً مِنَ الجُهودِ والأمالِ كانتِ كُلُّها دُونَ جَدوى . اسْتَعْبَدَتْ يَهُودًا ثابِتَةً مِنَ قَبْلِ مِصرِ ، نفسِ مِصرِ التي كانَ الإِسرائِيليُّونَ قد حَرَّرُوا مِنْها ، ثُمَّ جاءَ دِمارُ أُورُشليمِ (القُدُس) ، وَمَعَهُ ضَرِبَةٌ لاهوتِيَّةٌ فظيعةٌ : الوعدُ غيرُ المشروطِ لِيَهُوهَ إلى داودِ بِحُكْمِ سُلالاتِهِ الأَبديِّ والمركزيِّ في أُورُشليمِ (القُدُس) - أيِّ أساسِ العَقيدةِ التَّنويَّةِ . لم يَتَحَقَّقِ . لِأَبْدٍ أَنَّ مَوْتَ "يُوشيا" ودِمارِ أُورُشليمِ (القُدُس) أَحبطَ مَوْفِيَّي التَّاريخِ التَّنويِّ ،

وأوقعهم في اليأس. كَيْفَ يُمكن الحفاظ على التاريخ المقدّس في مثل هذا الزمن المُظلم؟ ماذا يُمكن أن يَكُونُ المعنى المُحتمل لكُلِّ ذلك؟

مع الزمن، بدأت تظهر تفسيرات جديدة. طبقة النبلاء والنخبة في يهودا - بمن في ذلك - ربما - الأشخاص ذاتهم الذين أعدوا التاريخ السنوي الأصلي - أسكنوا في بابل البعيدة. لمّا بدأ وَقَعُ الصّدمة يخفُّ، كان هناك حاجة - في الحقيقة - لتاريخ لإسرائيل، أكثر إلحاحاً وفورية. لقد قَدَدَ الْيَهُودِيُّونَ في المنفى كُلَّ شيءٍ، بما في ذلك كُلِّ ما كان غالباً في الأفكار التشنويّة. قَدَدُوا بِيوتَهُمْ، وقُرَاهم، وأرضهم، وقُبورهم السُّلاليّة، وعاصمتهم، وهيكلمهم (معبدهم)، وحتى الاستقلال السِّياسي للسُّلالة الدَّاودِيّة القديمة الحاكمة، التي يبلغ عمرها أربعة قُرُون. كَانَتْ إعادة كتابة تاريخ إسرائيل أفضلَ طريقٍ للمُنْفِيّين لإعادة تأكيد هويّتهم. إنّه يُمكن أن يُزودهم بصلّة تربطهم بأرض أسلافهم، بعاصمتهم المدمّرة، بهيكلمهم المحروق، بالتاريخ العظيم لسُّلالتهم الحاكمة.

لذا؛ كَانْ لا بُدَّ من تجديد التاريخ السنوي. وقد استندت هذه النسخة الثَّانية - جوهرياً - إلى الأولى، لكن؛ مع هدفين جديديّين في الذهن: الأول؛ كَانْ يجب أن يتمّ الإخبار بنهاية القصة، من موت يُوشيا إلى الدمار والنّفي، بشكلٍ مُقتضبٍ وسريع، الثَّاني؛ كان لا بُدَّ من إيجاد معنى لكُلِّ القصة، يُمكن من خلاله تفسير كيف أمكن التوفيق بين وَعَدِ الله الأبدى وغير المشروط لداود، ودمار أُورشليم (القُدس) والهيكلم، وإنهاء حُكْمِ المُلُوكِ الدَّاودِيّين، بل؛ لقد كان هناك مشكلة لاهوتيّة خاصّة أكبر: كيف أمكن لاستقامة يُوشيا وتقواه الشديديّين أن يكونا بلا تأثير، ويقفا عاجزين عن الحيلولة دون تجنّب أُورشليم (القُدس) ذلك الدمار والغزو الدّموي العنيف؟

هكذا برز الإصدار الجديد المتميِّز الذي عُرف عند العُلَماء باسم سفر الثَّانية 2، الذي تروي آياته الختامية (سفر المُلُوكِ الثَّاني 25/27 - 30) إطلاق سراح يَهُويَّاكِين من السّجن في بابل سنة 560 ق.م، (وهذا يعني - بالطبع - أن تاريخ 560 ق.م، هو أبكر تاريخ مُحتمل لتأليف النسخة الجديدة من سفر الثَّانية). تُشبه مُعالجة هذه النسخة الجديدة لسفر الثَّانية، لموت

يُوشِيَا، ولِحُكْمٍ آخِرٍ أُرْبَعَةَ مَلُوكٍ دَاوُدِيِّينَ، ودمار أُورُشَلِيمِ (الْقُدْسِ)، وَالنَّفْيِ، رِسَالَتِ  
 الرِّبِّيَّاتِ فِي اخْتِصَارِهَا وَاقْتِضَابِهَا (سَفَرُ الْمَلُوكِ الثَّانِي 26/23 - 21/25). إِنَّ التَّغْيِيرَاتِ الْآخِثِرَ  
 وَضُوحًا هِيَ تِلْكَ الَّتِي تُوضِّحُ لِمَاذَا كَانَ دِمَارُ أُورُشَلِيمِ (الْقُدْسِ) حَتْمِيًّا، عَلَي الرِّغْمِ مِنْ أَنَّ  
 الْأَمَالَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي وَضَعَتْ فِي الْمَلِكِ يُوشِيَا. لَقَدْ قَامَ مُؤَلِّفُ النُّسخةِ الثَّانِيَةِ مِنْ سَفَرِ الثَّنِيَّةِ  
 بِإِقْحَامِ وَإِضَافَةِ شَرْطٍ إِلَى الْوَعْدِ، الَّذِي كَانَ فِي النُّسخةِ الْأُولَى لِسَفَرِ الثَّنِيَّةِ وَعَدًّا غَيْرِ  
 مَشْرُوطٍ، لِدَاوُدِ (سَفَرُ الْمَلُوكِ الْأَوَّلِ 4/2، 25/8، 9/4 - 9)، وَأَدْخَلَ إِشَارَاتٍ تَشَاوُؤِمِيَّةً إِلَى  
 حَتْمِيَّةِ الدَّمَارِ وَالنَّفْيِ فِي كَافَّةِ أَنْحَاءِ النَّصِّ السَّابِقِ (عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ؛ سَفَرُ الْمَلُوكِ الثَّانِي 17/20  
 18). وَالْأَكْثَرُ أَهْمِيَّةً، أَنَّهُ أَنْحَى بِاللَّائِمَةِ عَلَي مَنَسَى، الْعَدُوَّ اللَّدُودَ لِلْحَرَكَةِ التَّشْوِيَّةِ، الَّذِي  
 حَكَمَ بَيْنَ الْمَلِكَيْنِ الْمُسْتَقِيمَيْنِ "حَزَقِيَّا" وَ"يُوشِيَا"، وَالَّذِي صُوِّرَ كَأَكْثَرِ مَلُوكٍ يَهُودًا فُسَقًا وَكُفْرًا:

[10] وَقَالَ الرَّبُّ عَنْ يَدِ عَبِيدِهِ الْأَنْبِيَاءِ: 11 (مَنْ أَجَلَ أَنْ مَنَسَى مَلِكُ يَهُودًا قَدْ عَمَلَ هَذِهِ  
 الْأَرْجَاسَ، وَأَسَاءَ أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ الَّذِي عَمَلَهُ الْأُمُورِيُّونَ الَّذِينَ قَبْلَهُ، وَجَعَلَ - أَيْضًا - يَهُودًا  
 يُخْطِئُ بِأَصْنَاتِهِ، 12 لِذَلِكَ هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ: هِنْتَدَا جَالِبُ شَرًّا عَلَي أُورُشَلِيمِ  
 وَيَهُودَا، حَتَّى أَنْ كُلُّ مَنْ يَسْمَعُ بِهِ تَطِنُّ أذْنَاهُ، 13 وَأَمْدُ عَلَي أُورُشَلِيمِ خِيَطُ السَّامِرَةِ وَمَطْمَارُ  
 بَيْتِ أَخَابَ، وَأَمْسَحُ أُورُشَلِيمَ كَمَا يَمْسَحُ وَاحِدُ الصَّخْنِ. يَمْسَحُهُ وَيَقْلِبُهُ عَلَي وَجْهِهِ. 14  
 وَأَرْفُضُ بَقِيَّةَ مِيرَاتِي، وَأَدْفَعُهُمْ إِلَى أَيْدِي أَعْدَائِهِمْ، فَيَكُونُونَ غَنِيمَةً وَتَهْبًا لْجَمِيعِ أَعْدَائِهِمْ، 15  
 لِأَنَّهُمْ عَمَلُوا الشَّرَّ فِي عَيْنِي، وَصَارُوا يَغِيظُونَنِي مِنَ الْيَوْمِ الَّذِي فِيهِ خَرَجَ آبَاؤُهُمْ مِنْ مِصْرَ إِلَى  
 هَذَا الْيَوْمِ). [سَفَرُ الْمَلُوكِ الثَّانِي 10 - 15].

بِالإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ؛ تَطْرَحُ النُّسخةُ الْجَدِيدَةُ لِسَفَرِ الثَّنِيَّةِ تَبْدِيلًا لَاهُوتِيًّا شَدِيدًا. لَقَدْ  
 وَصَفَتْ اسْتِقَامَةَ يُوشِيَا أَنَّهَا أَفَادَتْ فِي تَأْخِيرِ الدَّمَارِ الْحَتْمِيِّ لِأُورُشَلِيمِ (الْقُدْسِ)، بَدَلًا مِنْ  
 جَلْبِ الصَّلَاحِ الْآخِرِ وَالتَّهَانِي لِإِسْرَائِيلِ. وَضَعَتْ نُبُوَّةَ نُبُوَّةٍ مُخِيفَةً عَلَي قَمِ "خَلْدَةَ"، الثَّنِيَّةِ،  
 الَّتِي بَعَثَ إِلَيْهَا يُوشِيَا بَعْضَ خَدَمِهِ لِلِاسْتَفْسَارِ:

[18] وَأَمَّا مَلِكُ يَهُودَا الَّذِي أَرْسَلَكُمْ لِتَسْأَلُوا الرَّبَّ فَهَكَذَا تَقُولُونَ لَهُ: هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلَهُ  
 إِسْرَائِيلَ مِنْ جِهَةِ الْكَلَامِ الَّذِي سَمِعْتَ: 19 مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ قَدْ رَفَقَ قَلْبُكَ وَتَوَاضَعْتَ أَمَامَ الرَّبِّ  
 حِينَ سَمِعْتَ مَا تَكَلَّمْتُ بِهِ عَلَي هَذَا الْمَوْضِعِ وَعَلَي سَكَّانِهِ أَنَّهُمْ بِصَيْرُونِ دَهْشًا وَكَمَنَةً، وَمَزَقَتْ

ثِيَابَكَ وَيَكْبِتُ أَمَامِي . قَدْ سَمَعْتُ أَنَا . أَيْضاً . يَقُولُ الرَّبُّ . 20 لَذَلِكَ هَتَدَا أَسْمُكَ إِلَى آبَائِكَ ، فَتَضَمُّهُ إِلَى قَبْرِكَ بِسَلَامٍ ، وَلَا تَرَى عَيْنَاكَ كُلَّ الشَّرِّ الَّذِي أَنَا جَابِلُهُ عَلَيَّ هَذَا الْمَوْضِعِ . [سفر الملوك الثاني 22 / 18 - 20] .

إن استقامة وصلاح ملك داودي واحد لم تعد كافية لضمان قَدَرِ إسرائيل . لقد كان يُوشيا تقيًا ، ولذلك أنقذه الله من رؤية سقوط أورشليم القدس ، ولكن استقامة كُلِّ الشَّعْبِ - الذي يَبِينُ سفر التثنية حَقُوقَهُ الْقَرْدِيَّةَ وواجباته - أصبحت - الآن - هي العامل الحاسم في مستقبل شعب إسرائيل . وهكذا ربطَ سفر التثنية - الذي أُعيدَت كتابتهُ بِخَوْبَارِعِ - تنفيذ العهد مع داود ، بِإِجْازِ شعب إسرائيل للعهد بينه وبين الله في سيناء<sup>(1)</sup> . وهكذا سيُصبح لإسرائيل - من الآن فصاعداً - هدف وهوية حتى في غياب ملك .

ولكن ؛ مع كُلِّ تلك التبدلات والتفسيرات ، لم يكن باستطاعة النسخة الثانية من سفر التثنية أن تُنهي القصة بمُستقبل يائس . لذلك ؛ فإنه أنهى تأليف الكُتُبِ (الأسفار) السبعة التي تحكي تاريخ إسرائيل بسجلٍ مُوجزٍ لِإِطْلَاقِ سِراحِ يَهُوْيَاكِينِ من سجن بابل :

[ وفي السنة السابعة والثلاثين لسبي يهوياكين ملك يهوذا ، في الشهر الثاني عشرَ من السابع والعشرين من الشهر ، رَفَعَ أُوَيْلُ مَرُودَخُ مَلِكُ بَابِلَ فِي سَنَةِ تَمَلُّكِهِ رَأْسَ يَهُوْيَاكِينِ مَلِكِ يَهُوذا مِنْ السَّجْنِ ، 28 وَكَلَّمَهُ بِخَيْرٍ ، وَجَعَلَ كُرْسِيَهُ فَوْقَ كُرَاسِي الْمُلُوكِ الَّذِينَ مَعَهُ فِي بَابِلَ . 29 وَغَيَّرَ ثِيَابَ سِجْنِهِ . وَكَانَ يَأْكُلُ دَائِمًا الْخَبِزَ أَمَامَهُ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِهِ . 30 وَوَطِيفَتُهُ وَطِيفَةُ دَائِمَةً تُعْطَى لَهُ مِنْ عِنْدِ الْمَلِكِ أَمْرٌ كُلَّ يَوْمٍ بِيَوْمِهِ كُلِّ أَيَّامِ حَيَاتِهِ . ] [سفر الملوك الثاني 25 / 27 - 30] .

الملك الأخير من نَسَبِ داود ، من السُّلَالَةِ التي صَنَعَتِ الصَّلَاةَ مع الأرض ، العاصمة والهيكل ، ماتزال حيَّة . إذا التزم شعب إسرائيل بيهودته ، فإنَّ الوعد المُعطى لداود يُمكن إحيائه من جديد .

(1) بل هذا هو النقص القويم والصحيح ، لأنَّ وَعْدَ اللهِ لَا يُمكن أَنْ تكون مُطلقاً بلا قيد ولا شرط ، وإلا لكان الله - تنزه عن ذلك - مُحَابِيًا لِأُمَّةٍ دُونَ أُمَّةٍ ، وبناءً عليه ؛ وبما أنَّ شعب إسرائيل أخلف وعده مع الله فكَدَّبَ آيَاتِهِ ، وقتل بعضهم ، وحاول قتل آخرين ، وحرف كتابه ، وشوه تعاليمه ، فجعلها تعاليم عُصْرِيَّةٍ لَا إِنْسَانِيَّةٍ ، فلم يعد شعباً مُختاراً مُفضَّلاً ، ولم يعد مُستحقاً لتطبيق أيِّ وعدٍ من وَعْدِ اللهِ الْقَدِيمَةِ ، اللَّهُمَّ سَوِّ الوعدَ بِالغَضَبِ الإلهي عليه على تحريفه وتكذيبه ! . (الترجم) .

أولئك الذين بقوا:

في الأيام الأولى للبحث الآثاري كان هناك ظنٌ بأنَّ عمليَّة النقي كانت شاملة تقريباً، وأنَّ أغلب سُكَّان "يهودا" تمَّ إبعادهم . لقد اعتقد أنَّ يهودا أفرغت من سُكَّانها، وترك الريفُ خاوياً مقفراً. لقد قبلَ العديد من العلماء رواية الكتاب المقدَّس العبري بأنَّ كامل الطبقة العلية ليهودا- العائلة المالكة، كهنة الهيكل، الؤرراء، والتُّجَّار البارزون- نسوا، وأنَّ الذين بقوا في يهوذا كانوا طبقة الفلَّاحين الأشدَّ فقراً فقط .

اليوم؛ بعد أن ازدادت معرفتنا كثيراً عن سُكَّان "يهودا"، تُبيِّن أنَّ إعادة بناء التاريخ هذه خاطئة. دعنا- في البداية- ندرس الأعداد المذكورة. يذكر سفر الملوك الثاني 14/24 أنَّ عدد المنفيين في الحُمَّة البابليَّة الأولى (عام 597 ق.م، في أيام "يهويآكين") كان عشرة آلاف، في حين تذكر الآية 16 في الإصحاح نفسه أنَّ العدد ثمانية آلاف منفي . وعلى الرَّغم من أنَّ رواية سفر الملوك لا تُزودنا بعدد دقيق للمنفين الذين تمَّ إبعادهم من "يهودا" في زمن دمار أورشليم (القُدس) عام 586 ق.م، إلاَّ أنَّها تذكر أنَّه بعد قتل "جدليا" ومذبحة الحامية البابليَّة في مصفاة، هربَ كلُّ النَّاسِ إلى مصر (سفر الملوك الثاني 25/26)، تاركين- افتراضاً- ريفَ يهوذا مهجوراً ومقفراً كلياً.

هناك تخمين مُختلف تماماً عن عدد المنفيين يُنسبُ إلى النبي إرميا . الذي روي أنَّه بقي مع "جدليا" في "مصفاة" حتَّى هُرُوب النَّاسِ إلى مصر، وبالتالي؛ كان شاهد عيان على الأحداث.. يروي سفر إرميا 52/28 - 30 تقارير تُفيد أنَّ مجموع الإبعادات البابليَّة بلغَ 4600 مُبعداً. على الرَّغم من أنَّ هذا الرقم تقريبيٌّ جداً أيضاً، يعتقد أكثر العلماء أنَّه -بشكلٍ أساسي- معقول؛ لأنَّ مجاميعه الفرعيَّة مُحددةٌ تماماً، وهو- احتمالاً- أكثر دقَّةً من الأعداد التَّربيعيَّة المذكورة في سفر الملوك الثاني .

إلاَّ أنَّنا لا نجدُ لا في سفر الملوك ولا في سفر إرميا ما يبيِّن لنا فيما إذا كانت تلك الأرقام تُمثِّلُ العدد الكليَّ لجميع المُبعدين، أو تُمثِّلُ عدد الرؤساء الذُّكور للأسر (وهو نظام للعدِّ كان شائعاً جداً في العالم القديم). إذا أخذنا هذه الشُّكوك التَّراكيبة بعين الاعتبار، فأكثر ما يُمكن

أن نقوله - بنحو معقول - أننا بصدد عدد إجمالي للمنتفين يتراوح بين بضعة آلاف، وربما خمسة عشر، أو عشرين ألفاً، على أقصى تقدير.

إذا قارناً هذا العدد مع مجموع سُكَّانِ "يهودا" في أواخر القرن السابع، قبل دمار أُورشليم (القُدس)، يُمكننا أن نأخذ فكرة عن حجم عمليات الإبعاد. يُمكن تقدير عدد سُكَّانِ "يهودا" بنحو دقيق تماماً من خلال البيانات التي يتم تجميعها أثناء عمليات البحث والتنقيبات المكثفة، بنحو خمسة وسبعين ألفاً (تمتلك أُورشليم (القُدس) عشرين بالمائة على الأقل من ذلك العدد - أي خمسة عشر ألفاً - مع حوالي خمسة عشر ألفاً آخرين يسكنون - احتمالاً - المناطق الزراعيّة المجاورة). وعليه؛ فتحّى لو قلنا بأعلى رقم مُمكن لعدد المنتفين (عشرون ألفاً)، فإنّه يبدو أنّهم لا يشملون - على أقصى تقدير - سوى ربع سُكَّانِ الدّولة اليهوديّة. وهذا يعني أن حوالي خمساً وسبعين بالمائة - على الأقل - من السُّكَّان بقوا في البلاد.

ماذا نعرف عن هذه الاكثريّة الواسعة من اليهودويين الذين لم يذهبوا إلى المنفى؟ تترشح إشارات متناثرة في نصوص نبويّة، أنّهم استمروا في طريقة عيشهم الزراعيّة تماماً كما كانوا عليه من قبل. كانت مدينة "مصفاة" شمال أُورشليم (القُدس) إحدى المُدن المتعددة التي بقيت. كان هناك تردّد على خرابات الهيكل (المعبد) في أُورشليم (القُدس) أيضاً؛ حيث تواصل هناك نوع من النشاط العباديّ (إزمياً 5/41). ويجب ملاحظة أنّ هذه الجالية تضمّنت ليس - فقط - قرويين فقراء، ولكن؛ أيضاً صنّاع، وكُتّاب، وكهنة، وأنبياء. جزء مهم من التأليف النبويّ الخاصّ بذلك الزمن، خصوصاً سفرَيّ "حجّي" و"زكريّا"، ألّف في يهودا.

أظهرت التنقيبات المركزيّة في كافّة أنحاء أُورشليم (القُدس) أنّ المدينة - في الحقيقة - دُمّرت بشكل منظم - من قبل البابليين. يبدو أنّ الحريق كان عاماً. عندما استؤنفت النشاط على حافة مدينة داود في الفترة الفارسيّة، فإنّ الصّواحي الجديدة على التلّ الغربي التي ازدهرت منذ وقت "حزقيّا" على الأقل، لم تُسكن من جديد. ربّما يُمثّل غار اللدّفن، وحيد، يعود للقرن السادس ق. م، ووجد غرب المدينة، عائلة انتقلت إلى مكان استيطان قريب، لكنّها واصلت دفن موتاهها في مقبرة أسلافها.



رغم ذلك؛ هناك دليل على استمرار سَكَن النَّاسِ شمالَ أُورُشَلِيمِ (القُدْس) وجنوبها على حدٍّ سواء. ويبدو أنَّ نوعاً من الحُكْمِ الذَّاتِي تَواصَلَ في "مَصفاة" على هضبة بنيامين، حوالي ثمانية أميال شمالَ أُورُشَلِيمِ (القُدْس). ويبدو أنَّ الحَاكِمَ "جَدكَلِيَا"، الذي اغتيل بعد فترة قصيرة جداً، كان - احتمالاً - مسؤولاً رفيع المستوى في الإدارة اليَهُودِيَّةَ قَبْلَ الدَّمَارِ. هُنَاكَ عِدَّةُ مَوْشُرَاتٍ (رَمَياً 37 / 12 - 13 / 38) أنَّ المِنطَقةَ شَمَالِ أُورُشَلِيمِ (القُدْس) اسْتَسَلَمَتِ لِلْبَابِلِيِّينَ دُونَ قِتَالٍ، والشَّوَاهِدُ الأَثَارِيَّةُ تُؤَيِّدُ هَذِهِ النِّظَرِيَّةَ.

أظهر البحث الأكثر شمولاً الذي أجراه "عُدِيد لِيَشِيْتِس" Oded Lipschits من جامعة تلّ أبيب، عن موضوع التواجد السكّاني في يهوذا في الفترة البابليّة، أنّ موقع "تلّ النصبّة" قُرْبَ رَامِ اللهِ الحَدِيثَةِ - والذي طابقه العلماء على مدينة "مَصفاة" التوراتيّة - لم يَدْمَرْ في الحِمْلَةِ البَابِلِيَّةِ، وبأنّه كَانَ - في الحقيقة - المُستوطنة الأكثر أهميّةً في المِنطَقة في القَرْنِ السَّادِسِ ق. م. . . والمواقع الأخرى شمالَ أُورُشَلِيمِ (القُدْس) مثل "بيت إيل" و"جبعون" استمرت في كونها مَسْكُونَةً، في العَصْرِ نَفْسِهِ. في المِنطَقة إلى جنوب أُورُشَلِيمِ (القُدْس)، حول بيت لحم، يبدو بأنّه كَانَ هُنَاكَ استمراريّة هَامَةٌ من العَصْرِ المَلَكِي المُتَأخِّرِ إلى الفِترَةِ البَابِلِيَّةِ. وهكذا، في كلا شمال و جنوب أُورُشَلِيمِ (القُدْس)، استمرت الحياة دُونَ انقِطَاعٍ قَرِيباً.

يُنَاقِضُ كُلَّ مِنَ النُّصِّ والمُكْتَشَفَاتِ الأَثَارِيَّةِ الفِكرَةَ القَائِلَةَ بأنّه بَيْنَ دِمَارِ أُورُشَلِيمِ (القُدْس) سنة 586 ق. م.، وعودة المنفيين بعد إعلان كُورَش سنة 538 ق. م.، كَانَتْ يَهُودًا فِي حَالَةِ خِرَابٍ كَامِلٍ وَغَيْرِ مَاهُولَةٍ بِالسُّكَّانِ. ثُمَّ غَيَّرَتِ السَّيْطَرَةَ الفَارِسِيَّةَ وعودة عدد مُعَيَّنٍ مِنَ المُنْفِيينَ الَّذِينَ كَانُوا مَدْعُومِينَ مِنْ قِبَلِ الحُكُومَةِ الفَارِسِيَّةِ، حَالَةَ الاستيطان هُنَاكَ.

بَدَأَتِ الحَيَاةُ الحَضَرِيَّةُ فِي أُورُشَلِيمِ (القُدْس) بِالانتعاش، واستقرّ العديد من العائدين في التلال اليَهُودِيَّةِ. تَبَلَّغَ قِوَامِ العائدين لِلوَطَنِ فِي "عَزْرَا" / 2، وَنَحْمِيَا / 7، خَمْسِينَ أَلْفَ شَخْصٍ قَرِيباً. مِنْ غَيْرِ الوَاضِحِ فِيمَا إِذَا كَانَ هَذَا العَدَدُ الهَامُّ يُمَثِّلُ العَدَدَ المُتْرَاكِمَ مِنَ المِوجَاتِ المُتَعَابِقَةِ لِلْمُنْفِيينَ الَّذِي رَجَعُوا عَلَى مَدَارٍ أَكْثَرَ مِنْ مِثْلَةِ سَنَةٍ، أَو العَدَدَ الكُلِّيَّ لِسُكَّانِ مُحَافِظَةِ يَهُودَا، بَمَنْ فِي ذَلِكَ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ بَقُوا. وَأَيّاً كَانَ الأَمْرُ، فَقَدْ أَظْهَرَ البَحْثُ الأَثَارِيَّ أَنَّ هَذَا

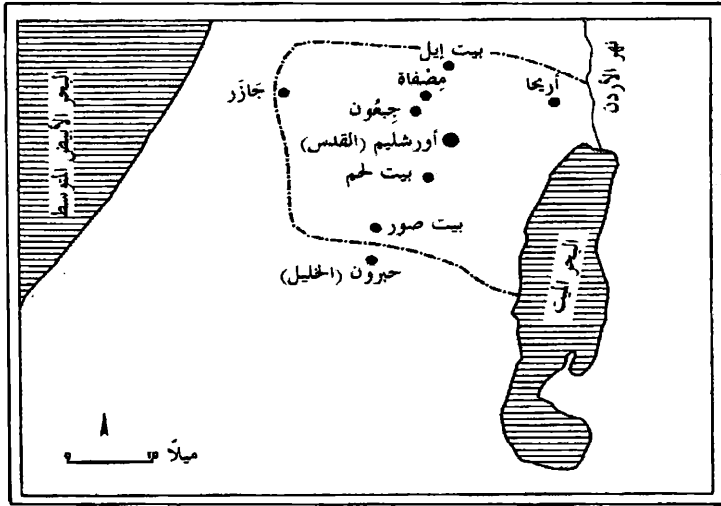
الرَّقْمُ مُبَالِغٌ بِهِ جِدًّا. تُعْطِينَا الْبَيَانَاتِ النَّاتِجَةَ عَنْ مَسْحِ كُلِّ مَرَاكِزِ الْإِسْتِيطَانِ السُّكَّانِيِّ فِي يَهُودَا فِي الْقَرْنَيْنِ الْخَامِسِ وَالرَّابِعِ ق. م، عِدَدًا يُقَارِبُ الثَّلَاثِينَ أَلْفَ نَسْمَةٍ. (انظُرْ بِالنَّسْبَةِ لِحُدُودِ دَوْلَةِ يَهُودَا الْمُلْحَقِ ز' وَالشُّكْلَ 29). شَكَّلَ هَذَا الْعِدَدُ الصَّغِيرَ جَالِيَةً مَا بَعْدَ النَّفْسِيِّ فِي زَمَنِ "عَزْرَا" وَتَحْمِيًّا، وَهِيَ جَالِيَةٌ ذَاتُ تَأْتِيرٍ هَامٌ جِدًّا فِي تَشْكِيلِ الدِّيَانَةِ الْيَهُودِيَّةِ التَّالِيَةِ.

من المُلُوكِ إِلَى الْكَهَنَةِ:

من الصَّعْبِ تَصَوُّرُ أَنْ مَرْسُومَ كُورَشِ الْكَبِيرِ بِالسَّمَاخِ لِمَجْمُوعَةٍ مِنَ الْيَهُودَؤِيِّينَ الْمُنْفِيِّينَ بِالْعُودَةِ إِلَى أُورُشَلِيمِ (الْقُدْسِ) كَانَ دَافِعَهُ الْعُطْفَ عَلَى الْأَهَالِيِّينَ الَّذِينَ بَقُوا فِي يَهُودَا، أَوْ التَّعَاطُفَ مَعَ مُعَانَاةِ الْمُنْفِيِّينَ. يَجِبُ -بِالْأَحْرَى- أَنْ يُنظَرَ إِلَى ذَلِكَ الْقَرَارِ كَسِيَاسَةٍ مَحْسُوبَةٍ بِشَكْلٍ جَيِّدٍ، هَدَفَتْ لِحُدُومَةِ مَصَالِحِ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ الْفَارْسِيَّةِ. لَقَدْ تَسَامَحَ الْفُرسُ، بِلِ رُوجُوعِ لِلطُّوَلَانِ الْحَلِيَّةِ كَطَّرِيقِ لِضْمَانِ وِلَايَةِ الْمَجْمُوعَاتِ الْحَلِيَّةِ لِلْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ الْأَوْسَعِ؛ وَدَعَمَ كُلَّ مَنْ "كُورَش" وَابْنَهُ "قَمْبِيز" بِنَاءِ الْمَعَابِدِ الْحَلِيَّةِ، وَشَجَّعُوا عُودَةَ السُّكَّانِ الْمُرْحَلِينَ فِي الْأَمَاكِنِ الْآخَرَى مِنْ إِمْبِرَاطُورِيَّتِهِمُ الْوَاسِعَةِ. كَانَتْ سِيَاسَتُهُمْ تَقُومُ عَلَى مَنَحِ حُكْمٍ ذَاتِي اللَّتَّخَبِ الْحَلِيَّةِ الْمُوَالِيَةِ.

يَتَمَعُّ الْعَدِيدُ مِنَ الْعُلَمَاءِ عَلَى فِكْرَةِ أَنَّ مُلُوكَ فَارِسِ شَجَّعُوا صُعُودَ نُخْبَةٍ مُوَالِيَةٍ فِي يَهُودَا، بِسَبَبِ مَوْقِعِ الْمُحَافَظَةِ الْإِسْتِرَاطِيْجِيِّ وَالْحَسَّاسِ عَلَى حُدُودِ مِصْرَ. وَقَدْ جُنَّدَتْ تِلْكَ النُّخْبَةُ الْمُوَالِيَةُ مِنَ الْجَالِيَةِ الْيَهُودِيَّةِ الْمُنْفِيَّةِ فِي بِلَادِ بَابِلَ، وَكَانَتْ تَحْتَ قِيَادَةِ وَجْهَاءِ كَانُوا عَلَى صِلَةٍ وَثِيقَةٍ بِالْإِدَارَةِ الْفَارْسِيَّةِ. وَكَانُوا -بِشَكْلِ رِئِيسِي- أَفْرَادًا ذَوِي مَنْزِلَةٍ إِجْتِمَاعِيَّةٍ وَاقْتِصَادِيَّةٍ عَالِيَةٍ، مِنْ الْعَائِلَاتِ الَّتِي قَامَتْ لِالِاسْتِيعَابِ، وَالتِّي كَانَتْ فِي الْإِحْتِمَالِ الْغَالِبِ -قَرِيبَةً مِنَ الْأَفْكَارِ التَّشْتَوِيَّةِ. وَرِغْمَ أَنَّ الْعَائِلَيْنِ كَانُوا أَقْلِيَّةً فِي دَوْلَةِ 'يَهُودَا'، إِلَّا أَنَّ مَنْزِلَتَهُمُ السِّيَاسِيَّةِ وَالْإِجْتِمَاعِيَّةِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ وَالدِّيْنِيَّةِ، وَتَرَكُّزَهُمْ فِي أُورُشَلِيمِ (الْقُدْسِ) وَحَوْلِهَا، أَعْطَاهُمْ قُوَّةً أَكْبَرَ بِكَثِيرٍ مِنْ عِدَدِهِمْ. كَانُوا -إِحْتِمَالًا- مَدْعُومِينَ -أَيْضًا- مِنْ قِبَلِ النَّاسِ الْحَلِيِّيِّينَ، الَّذِينَ كَانُوا يَتَعَاطَفُونَ مَعَ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ التَّشْتَوِيَّةِ، الَّتِي كَانَتْ تُشَرِّ وَيُدْعَى إِلَيْهَا مِنْذُ قَرْنٍ قَبْلَ ذَلِكَ. تَمَكَّنَ الْعَائِلُونَ -بِمُسَاعَدَةِ مَجْمُوعَةٍ غَنِيَّةٍ مِنَ التَّالِيفَاتِ التَّارِيخِيَّةِ الْأَدْبِيَّةِ وَالْأَعْمَالِ النَّبَوِيَّةِ وَشَعْبِيَّةِ الْهَيْكَلِ الَّذِي سَيَطَرُوا عَلَيْهِ- مِنْ تَأْسِيسِ سُلْطَنَتِهِمْ عَلَى سُكَّانِ مُحَافَظَةِ يَهُودَا. فِي الْوَاقِعِ؛ كَانَ الشَّيْءُ الَّذِي حَفِظَ لَهُمْ هَذَا الْيَوْمَ، وَمَكَّنَهُمْ مِنَ التَّطْوِيرِ الْمُسْتَقْبَلِيِّ لِلدِّيَانَةِ الْيَهُودِيَّةِ أَنَّهُ (عَلَى

خلاف سياسة الآشوريين في المملكة الشماليّة قبل قرن من الزمن) لم يُقم البابليون بإعادة توطين يهودا المَهْوَرة بأناس أجنبيّ.



الشكل 29 : محافظة يهودا في الفترة الفارسيّة.

لكن؛ كيف اخضعت السلالة الداودية من المشهد فجأة؟ لماذا لم تتم إعادة تأسيس الحكم الملكي من جديد، بشخصية من العائلة المالكة يحكمكم كملك؟ طبقاً لسفر 'عزرا'، الشخصيتان الأوليّتان اللتان قادتا العائدين للوطن كانتا 'شيشبصر' و'زرئابل'، وكلاهما وُصف كـ'حاكم يهودا (عزرا 5/14، حجّي 1/1)'. 'شيشبصر'، الشخص الذي أعاد الكنوز القديمة للهيكل، والذي وُضع أساس الهيكل الجديد، شخصية مبهم. وقد دُعي 'أمير يهودا' (عزرا 8/1)، ولذلك رَبطه العديد من العلماء بـ'ششأصر' المذكور في سفر أخبار الأيام الأوّل 3/18، الذي كان أحد ورثة العرش الداودي، ولربّما حتّى كان ابن 'يهويّاكين'. أمّا 'زرئابل'، الذي أكمل بناء الهيكل عام 516 ق.م؛ فقد جاء أيضاً، على ما يبدو، من نسب داودي، إلاّ أنّه لم يعمل وحده، بل بالتعاون مع الكاهن يشوع. وإنّه لرد مغزى ودلالة هامة أن يختفي 'زرئابل' من الرواية التوراتية

بعد إكمال بناء الهيكل . من المُحتمل أن نَسَبَهُ الدَّوْدِي حَرَكًا آمالاً مَسِيحَانِيَّةً فِي يَهُودَا (حَجِّي 2/ 20- 23) مِمَّا حَدا بِالسُّلْطَاتِ الْفَارَسِيَّةِ أَنْ يَسْتَدْعُوهُ إِلَى طَرَفِهِمْ عَلَى خَلْفِيَّاتٍ سِيَاسِيَّةٍ .

من هذه النُّقْطَةِ فِصَاعِداً ، لَمْ تَعُدْ الْعَائِلَةُ الدَّوْدِيَّةُ تَلْعَبُ أَيَّ دَوْرٍ فِي تَارِيخِ يَهُودَا . فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ ، احْتَفِظَ رِجَالُ الدِّينِ (الْكَهَنَةُ) ، الَّذِينَ ارْتَقَوْا لِمَوْجِ الْقِيَادَةِ فِي النِّفْسِ ، وَالَّذِينَ لَعَبُوا دَوْرًا مَهْمًا - أَيْضًا - بَيْنَ أَوْلِيَاءِكَ الَّذِينَ بَقُوا فِي يَهُودَا ، بِأَهْمِيَّتِهِمْ ؛ بِسَبَبِ قُدْرَتِهِمْ عَلَى حَفْظِ هُوِيَّةِ الْجَمَاعَةِ ، لِذَا ؛ أَصْبَحَ شَعْبُ 'يَهُودَا' فِي الْعُقُودِ التَّالِيَةِ ، تَحْتَ قِيَادَةِ نِظَامِ ثُنَائِيٍّ : سِيَاسِيٍّ ، يُدِيرُهُ الْحُكَّامُ الَّذِينَ كَانَتْ تُعَيِّنُهُمُ السُّلْطَةُ الْفَارَسِيَّةُ ، وَالَّذِينَ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ اتِّصَالٌ بِالْعَائِلَةِ الدَّوْدِيَّةِ الْمَالِكَةِ ؛ وَدِينِيٍّ ، يُدِيرُهُ الْكَهَنَةُ (رِجَالُ الدِّينِ) . وَلِفَقْدَانِ الْمَوْسَسَةِ الْمَلِكِيَّةِ ، تَحَوَّلَ الْهَيْكَلُ (الْمَعْبَدُ) إِلَى مَرْكَزِ هُوِيَّةِ شَعْبِ 'يَهُودَا' . كَانَتْ هَذِهِ نُقْطَةُ التَّحَوُّلِ الْأَكْثَرِ أَهْمِيَّةً وَحَسْمًا فِي التَّارِيخِ الْيَهُودِيِّ .

إِعَادَةُ تَشْكِيلِ تَارِيخِ إِسْرَائِيلِ:

كَانَتْ إِحْدَى الْوِظَانِفِ الرَّئِيسِيَّةِ لِلنُّخْبَةِ الْكَهَنُوتِيَّةِ فِي أُورُشَلِيمِ (الْقُدْسِ) مَا بَعْدَ النَّفْيِ - عِلَاوَةً عَلَى إِدَارَةِ عِبَادَاتِ تَقْدِيمِ الْقَرَابِينَ الْمَجْدُدَةِ وَطَقُوسِ التَّطَهِيرِ - الْإِنْتِاجِ الْمُسْتَمْرِّ لِلْأَدَبِ وَالْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ لِلْحِفَاظِ عَلَى وَحْدَةِ الْجَمَاعَةِ الْيَهُودِيَّةِ وَتَمَاسِكِهَا ، وَلتَحْدِيدِ نِظْمِهَا وَقَوَانِينِهَا فِي مُقَابِلِ كُلِّ النَّاسِ الْغُرَبَاءِ الَّذِينَ مِنْ حَوْلِهَا .

لَا حِظَّ الْعُلَمَاءُ لِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ بِأَنَّ الْمَصْدَرِ الْكَهَنُوتِيَّ فِي التَّوْرَةِ ، هُوَ - فِي مُعْظَمِهِ - مُدَوَّنٌ بَعْدَ النَّفْيِ . وَهُوَ يَتَعَلَّقُ بِمِرْزُزِ الْكَهَنَةِ وَعُلُوِّ شَأْنِهِمْ فِي جَالِيَةِ الْهَيْكَلِ (الْمَعْبَدِ) فِي أُورُشَلِيمِ (الْقُدْسِ) . وَلَا يَقُلُ أَهْمِيَّةً عَنِ ذَلِكَ ، أَنَّ التَّنْقِيحَ النَّهَائِيَّ لِلتَّوْرَةِ يُرْجَى - أَيْضًا - إِلَى هَذِهِ الْفِتْرَةِ ، بَلْ ذَهَبَ الْعَالَمُ التَّوْرَاتِيَّ رِيْتشارْد فَرِيدْمَانِ Richard Friedman أبعد من ذلك ، حِينَ اقْتَرَحَ أَنَّ الْمُنْتَقَحَ الَّذِي أُعْطِيَ الشَّكْلَ النَّهَائِيَّ لـ 'شَرِيعَةِ مُوسَى' كَانَ 'عَزْرًا' ، الَّذِي يُوصَفُ بِشَكْلٍ مُعَدَّدٍ - كَمَا كَتَبَ شَرِيعَةَ إِلَهِ السَّمَاءِ 'عَزْرًا' (7/ 12) .

عِنْدَمَا عَادَ كِتَابُ مَا بَعْدَ النَّفْيِ ، إِلَى أُورُشَلِيمِ (الْقُدْسِ) ، لَمْ يَكُونُوا فِي حَاجَةٍ لِتَوْضِيحِ سَبَبِ الذَّمَّارِ الْبَابِلِيِّ لِأُورُشَلِيمِ (الْقُدْسِ) فَحَسَبِ ، بَلْ - أَيْضًا - لِإِعَادَةِ تَوْحِيدِ جَالِيَةِ 'يَهُودَا'

حول الهيكل (المعبد) الجديد. كانوا في حاجة لإعطاء الناس أملاً بالأفضل، أملاً بمستقبل أكثر نجاحاً؛ وللمعالجة مُشكلة العلاقة مع المجموعات المُجاورة، خُصُوصاً في الشَّمال والجنوب؛ وللمعالجة الأسئلة المُتعلِّقة بالمشاكل المحليَّة للجماعة. من تلك الجهات، كانت حاجات جماعة 'يهودا' بعد النَّفي مُشابهة لضرورات دولة يهوذا الملكِيَّة المُتأخِّرة. كلتاها كانتا جماعتين صغيرتين، سكتتا أرضاً محدودة لا تُشكِّل إلا جزءاً - فقط - من الأرض المُوعودة، لكنَّها ذات أهمية كبيرة كمركز رُوحى وسياسى للإسرائيليين.

كلتا الجماعتين أُحيطتا بجيران مُعادينٍ أجنب. كلتاها تدعيان ملكيَّتهما لأرضٍ كانت خارج مملكتهما. كلتاها واجهتا مشاكلَ مع الأجنب في الدَّاخل والخارج، وكانتا مُهتَمَّتين بمشاكل الحفاظ على هويَّة الجماعة ومُنعمها من الاستيعاب والدَّويان. لذلك، لم تكن العديد من تعليمات يهوذا في الفترة الملكِيَّة المُتأخِّرة غريبةً على أذان النَّاس في أُورشليم (القُدس) في فترة ما بعد النَّفي. فكرة مركزية يهوذا وتوقُّفها على جيرانها كانتا مُجددان صدهما - بالتأكيد - في وحي جالية أُورشليم (القُدس) في أواخر القرن السَّادس والقرن الخامس ق. م. . . لكنَّ الظُّروف الأخرى - مثل سُقوط بيت داود والحياة تحت حُكم دولة إمبراطورية - أُجبرت كُتاب ما بعد النَّفي، الأوائل، على القيام بإعادة صياغة مُجدَّدة للأفكار القديمة.

واجهت قصَّة الخُرُوج الجماعى أهميةً بالغةً في فترة النَّفي وفترة ما بعد النَّفي. قصَّة التحرير العظيم من العبودية لأبد وأن كان لها أثرها القوي لدى المنفيين في بابل. كما أشار العالم التوراتى ديفيد كلاين David Clines قائلاً: "العبودية في مصر هي عبوديتهم الخاصَّة في بابل، والخُرُوج الجماعى الماضى أصبح خُرُوجهم الخاص الذى ينتظرون حُصوله". فى الحقيقة؛ التشابه المُميز بين مواضع قصَّة الخُرُوج الجماعى من مصر وذكريات العودة من المنفى لربما أثار على تشكيل كلا القصتين. لدى قراءتهم لقصَّة الخُرُوج الجماعى، وجد العائدون من النَّفى مرَّة لمحتهم أنفسهم. طبقاً للعالم التوراتى 'ياير هوفمان' Yair Hoffman، من جامعة تل أبيب، كلتا القصتين تُخبراننا كيف ترك الإسرائيليون أرضهم إلى بلاد أجنبية؛ وكيف أن أرض إسرائيل عدت أنها ملك لأولئك الذين غادروها، وكان يُنتظر منهم أن يعودوا إليها بناءً على وعدٍ إلهي؛ وكيف أنه بعد فترة صعبة فى المنفى، عاد النَّاس الذين كانوا غادروا الأرض

إلى وِطْنِهِمْ ؛ وكيف أَنَّهُمْ فِي طَرِيقِ عَوْدَتِهِمْ كَانُوا عَلَى الْعَائِدِينَ أَنْ يَعْبُرُوا صَحْرَاءَ خَطَرَةٍ ؛  
 وَكَيْفَ أَنْ الْعَوْدَةَ إِلَى الْوَطَنِ اسْتَدْعَتْ نِزَاعَاتٍ مَعَ السُّكَّانِ الْمَحَلِّيِّينَ ؛ وَكَيْفَ اسْتَطَاعَ الْعَائِدُونَ أَنْ  
 يَحْتَلُّوا جِزَاءً - فَقَطْ - مِنْ وَطْنِهِمْ الْمَوْعُودِ ؛ وَكَيْفَ اتَّخَذَ زُعَمَاءُ الْعَائِدِينَ تَدَابِيرَ مُعَيَّنَةٍ لِلْحَلِيلَةِ  
 دُونَ ذِيانِ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ وَاسْتِعْبَاهِهِمْ ضَمَّنَ سُكَّانِ الْأَرْضِ .

على التَّمَطِّ نَفْسَهُ ، مِمَّا لَا رَيْبَ فِيهِ أَنَّ قِصَّةَ هِجْرَةِ إِبْرَاهِيمَ مِنْ بِلَادِ مَا بَيْنَ الشَّهْرَيْنِ إِلَى  
 الْأَرْضِ الْمَوْعُودَةِ فِي كَنْعَانَ ، وَصِرْوَرَتِهِ رَجُلًا عَظِيمًا ، وَتَأْسِيسِهِ لِأُمَّةٍ نَاجِحَةٍ هُنَاكَ ، لَقِيتَ  
 صِدْقًا كَبِيرًا فِي نَفْسِ الْيَهُودِيِّينَ ؛ سِوَاءِ أَثْنَاءِ النَّبِيِّ أَوْ فِي فِتْرَةٍ مَا بَعْدَ النَّبِيِّ . الرَّسَالَةُ الْقَوِيَّةُ  
 حَوْلَ اقْتِرَاقِ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ وَانْفِصَالِهِمْ عَنِ الْكَنْعَانِيِّينَ فِي قِصَصِ الْآبَاءِ لَاءَمَتِ - أَيْضًا - مَوَاقِفَ  
 يَهُودًا مَا بَعْدَ النَّبِيِّ .

رَغْمَ ذَلِكَ ، مِنْ الزَّوَايَةِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْعِرْقِيَّةِ ، كَانَتْ مُشْكَلَةٌ جَمَاعَةٌ مَا بَعْدَ النَّبِيِّ الْأَكْثَرُ حُدَّةً  
 تَكْمُنُ فِي الْجَنُوبِ . بَعْدَ دِمَارِ يَهُودَا ، اسْتَقَرَّ الْأُدُومِيُّونَ فِي الْأَجْزَاءِ الْجَنُوبِيَّةِ لِلْمَمْلَكَةِ الْقَهُورَةِ ، فِي  
 وَادِي بَثْرَسِيعٍ وَفِي تَلَالِ حَبْرُونَ (الْحَلِيلِ) ، مَنطِقَةٌ سُرْعَانَ مَا عُرِّقَتْ بِإِيدِ مِوِيَا Idumea ؛ أَيْ  
 أَرْضِ الْأُدُومِيِّينَ . كَانُوا لِرَسْمِ الْحَدِّ الْفَصْلِيِّ بَيْنَنَا (جَالِيَةً مَا بَعْدَ النَّبِيِّ فِي مُحَافِظَةِ يَهُودَا) وَبَيْنَهُمْ  
 (الْأُدُومِيِّينَ فِي مَنطِقَةِ التَّلَالِ الْجَنُوبِيَّةِ) أَمَمِيَّةً بِالغَةِ . لِذَا ؛ كَانُوا لَا يُبَدُّونَ إِظْهَارًا أَنَّ يَهُودًا كَانَتْ  
 الْمَرْكَزَ الْمُنْفُوقَ ، وَأَنَّ أَدُومَ كَانَتْ ثَانَوِيَّةً وَغَيْرَ مُتَحَضَّرَةٍ - تَمَامًا كَمَا تُقْبَلُ قِصَّةُ يَعْقُوبَ وَعِيسُو - .

يَجِبُ أَنْ يُفْهَمَ التَّقْلِيدُ النَّصِّي الْقَائِلُ أَنَّ قُبُورَ الْآبَاءِ فِي كَهْفِ فِي حَبْرُونَ (الْحَلِيلِ) ، وَالَّذِي  
 يَنْتَمِي لِصَلْبِ كَهْنُوتِي عَلَى ضَوْءِ هَذِهِ الْخَلْفِيَّةِ أَيْضًا . سَيَطَّرَتْ جَمَاعَةُ يَهُودَا عَلَى الْجِزَاءِ الْوَحِيدِ  
 مِنْ أَرْضِ الْمَمْلَكَةِ الْيَهُودِيَّةِ الْمُدَمَّرَةِ ، وَالآنَ ؛ كَانَتْ الْحُدُودُ الْجَنُوبِيَّةُ لِيَهُودَا عَمْرِيًّا بِلَدَاتِ بَيْتِ  
 صُورَ وَحَبْرُونَ (الْحَلِيلِ) ، وَالْأَخِيرَةَ مِنْهُمَا كَانَتْ خَارِجَ حُدُودِهَا . بِنَدْرِكُهُمْ لِأَمَمِيَّةِ حَبْرُونَ  
 (الْحَلِيلِ) أَثْنَاءَ الْحُكْمِ الْمَلَكِيِّ ، لَا يُبَدُّ يَكُونُ شَعْبُ يَهُودَا قَدْ أَسْفَافًا مَرَّةً لِحَقِيقَةِ أَنَّ تِلْكَ الْمَدِينَةَ  
 - فِي عَهْدِهِمُ الْحَالِيِّ - لَمْ تَعُدْ مَلَكًا لَهُمْ . لِأَنَّ تَقْلِيدًا يَضَعُ قُبُورَ الْآبَاءِ ، مُؤَسَّسِي الْأُمَّةِ ،  
 فِي حَبْرُونَ (الْحَلِيلِ) ، سَيُعَمِّقُ ارْتِبَاطَهُمُ الْقَوِيَّ بِمَنطِقَةِ التَّلَالِ الْجَنُوبِيَّةِ . سِوَاءِ كَانَتْ الْقِصَّةُ قَدِيمَةً  
 أَوْ لَمْ تَكُنْ ، وَكَانَ التَّقْلِيدُ حَقِيقِيًّا أَوْ لَمْ يَكُنْ ، فَإِنَّهُ كَانَ مُغْرِبًا جَدًّا لِمَوْلَفِي الْمَصْدَرِ الْكَهْنُوتِيِّ ،  
 وَلِلذَلِكَ أَكَّدَ هَذَا الْمَوْضُوعَ مِنْ قَبْلِهِمْ فِي قِصَصِ الْآبَاءِ .

على أيّة حال؛ لم يكتف المحرّرون الأخيرون لسفر التكوين بالاستعارة المُجرّدة. لقد أرادوا أن يظهر وكيف أنّ أصول شعب إسرائيل تُوجد في قلب العالم المُحضّر ذاته. وعليه؛ على خلاف الشعوب الأقلّ شأنًا، والتي برزت في مناطق جاهلة مُتخلّفة حولهم، لُح مُحرّرو سفر التكوين إلى أنّ الأب العظيم لشعب إسرائيل جاء من المدينة المشهورة العالمية "أور". لقد ذُكرت أصول إبراهيم في مدينة "أور" في آيَّتين مُنجزلتين (تكوين 11/ 28 و 31، وثيقة كهنوتية)، بينما تبدو قصّته مُتمركزة أكثر بكثير حول مدينة حاران السُوربة الشماليّة الأراميّة، لكن؛ حتّى تلك الإشارة القصيرة كانت كافية. كانت "أور" - كمسقط رأس إبراهيم - ستُمنح سُمعة كبيرة عن الوطن الأصلي لسكّفي قوميّ مشهور. لم تكن "أور" مشهورة كموقع عريق وعلمي حضاري جدًّا فحسب، بل اكتسبت - كذلك - سُمعة وثقودًا عظيمين في كافّة أنحاء المنطقة أثناء فترة إعادة تأسيسها كمركز ديني من قِبَل ملك البابليين، أو الكلدانيين: نابونيدوس Nabonidus في مُنتصف القرن السادس ق. م. . وهكذا؛ فإنّ الإشارة إلى أصل إبراهيم في "أور" كانت ستُقدّم لليهود نسبًا وأصالة ثقافيّة بارزة وقديمة.

باختصار؛ إنّ مرحلة ما بعد النّفي، في تحرير الكتاب المقدّس العبريّ أعادت تلخيص العديد من المواضيع المُفتاحية لفترة القرن السّابع السّابقة التي سبّقت وناقشناها في مُعظم هذا الكتاب. وهذا يعود للحقائق المُتشابهة والحاجات المُتشابهة لكلا الفترتين الزّمنيّتين. مرّة ثانية؛ تركز الإسرائيليّون في أورشليم (القدس)، وسط حيرة وعدم اطمئنان كبيرين، دُون السيطرة على مُعظم الأرض التي عدّوها ملكهم طبقًا لوعده إلهي. مرّة ثانية؛ احتاجت السُلطة مركزية إلى كمّ شَمَل السكّان وتوحيدهم. ومرّة ثانية؛ فعَلت ذلك عن طريق إعادة صياغة بارعة للقلب التاريخي للكتاب المقدّس العبريّ بنحو كان يُمكنه أن يُخدّم كمصدرٍ أساسيٍّ للهويّة، ومرسيٍّ روحيًّا لشعب إسرائيل وهو يواجه الكوارث العديدة، والتّحدّيات الدّينيّة، والتّحوّلات السياسيّة للقَدَر الذي كان ينتظره.

## الخاتمة

### مستقبل إسرائيل التوراتية

بقيت يهودا بأيدي الفُرس لمدة قرنين، حتى فتحها الإسكندر الأكبر عام 332 ق.م. ثم ضُمَّت بعد ذلك - إلى الإمبراطوريات التي أنشأها خلفاء الإسكندر: أولاً مملكة البطالمة في مصر، ثم مملكة السلوقيين في سوريا. لأكثر من مئة وخمسين عاماً بعد فتح الإسكندر، حافظ الزعماء الكهنوتيون للمقاطعة (أو الولاية)، التي أصبحت - الآن - تُعرف باسم "اليهودية"، على طقوسهم، واتبعوا التشريعات التي صيغت لأول مرة في عهد الملك يوشيا، ثم أُعيدت صياغتها وهُدِّبت في فترتي النفي وما بعد النفي.

في الواقع؛ نحصلُ على أول وصفٍ موسَّعٍ لتشريعات الكتاب المقدس العبري وطقوسه من مرآب خارجي، لأول مرة في الفترة الهيلينية عام 330 ق.م، يُروِّدنا الكاتب الإغريقي 'هيكاتاوس العبديري' HECATAEUS OF ABDERA، الذي سافر إلى الشرق الأدنى بعد فترة ليست طويلة من موت الإسكندر، بلمحة عن مرحلة من التقليد اليهودي، تغلب فيها نفوذ وتأثير طبقة رجال الدين وسلطة التشريعات الاجتماعية لسفر التثنية - بنحو كامل - على التقاليد الملكية. يقول 'هيكاتاوس'، متحدثاً عن تشريعات وضعها [رجل اسمه 'موسى' بارز في حكمته وشجاعته]: ((لقد اختار رجالاً من أكثر الناس نقاءً وقوةً لرتاسة كل أمته، وعينهم كهنة؛ وأمرهم أن يكرسوا أنفسهم للعمل بالهيكل (المعبد)، والقيام على التعظيمات والقرابين التي تُقدِّمُ إلى إلههم. وعين هؤلاء الرجال أنفسهم كي يكونوا قضاة في كل النزاعات الرئيسية، واتمنهم على حراسة التشريعات والتقاليد، لذا؛ لم يكن لدى اليهود ملك أبداً)).

أصبح اليهوديون، أو اليهود، معروفين في كافة أنحاء البحر الأبيض المتوسط كجالية ذات ولاء فريد لإلهها. لم يكن في قلبها مجرد أحكام شرعية مشتركة وقواعد تقديم القرابين، بل - أيضاً - قصة تاريخ قومي تبدأ بدعوة إبراهيم في أور البعيدة، وتنتهي بإعادة



إحياء جماعة الهيكل من قِبَل "عزرا" و"نَحَمِيَا" في فترة ما بعد النُفي . بعد التَّخْلِي عن الحُكْم الملكيِّ وَتَبَعُثُ اليهود في كافة أنحاء العالم الإغريقي . الروماني ، أخذ النَّصُّ المُقدَّسُ للتَّوراة أو الكتاب المُقدَّس العِبْرِيّ ، في القَرْنَيْنِ الثَّالثِ والثَّانِي ق . م ، يُترجمُ -تدرجياً- إلى اللُّغة اليونانيَّة ، ليُصبح المصدرُ الرَّئيسيُّ لهوِيَّةُ الطائفة ، ومُرشداً هادياً لكلِّ أوْلك الأَعْضاء من بني إسرائيل الذين عاشوا بعيداً عن الجوارِ المُباشر لهيكل أُورشليم (القُدس) . لقد قَدِّمَت قصَّة الخُرُوجِ العظيمة ، وقصَّة فَتْحِ أرض الميعاد ، رؤيا مُشتركة من التَّضامن والأمل لكلِّ فرد في الطائفة ، بِنحوِّ لم يكن مُمكناً لأيِّ أساطير ملكيَّة أو بَطُولِيَّة أن تفعله .

وحدَّثت تغيُّرات فجائيَّة في المُواجهة بين الزعامة الكهنوتيَّة ليهودا والديِن والثقافة الهيلينيَّة في القرن الثاني ق . م ، وَتَبَجَّحت حركة المُقاومة المكَّابَّة الراديكاليَّة (الجذريَّة) -التي تُعدُّ وريثاً في العقيدة من عدَّة نواحٍ للحركة التَّشويَّة أيام الملك "يُوشيا" - في فَتْحِ جُزءٍ عظيم من أرض إسرائيل وتطبيق الشريعة التَّوراتيَّة على سَكَّانها . إلاَّ أنَّ التَّأثيرَ الأعظم للكتاب المُقدَّس العِبْرِيّ ليس مُنحصراً بكونه مُرشداً للفتوحات العسكريَّة أو الانتصارات السياسيَّة ، التي يُقصد منها زيادة ثروة حاكم مُعيَّن ، أو أسرة حاكمة خاصَّة .

في القرن الأوَّل ق . م ، عندما هبطَ المُلُوك الحشمونيُّون ، ذُو النَّسَبِ المكَّابي -في النِّهاية- إلى مُستوى التَّشاجر بين أفراد الأسرة الحاكمة ، واستلم السُّلطة في "اليهوديَّة" الملك هيرود عميل الرومان ، برَّرَ الكتاب المُقدَّس العِبْرِيّ كقُوَّة توحيد وكتَلَبٍ دينيٍّ للطائفة التي كانت تمرُّ بصُعوبات شديدة . لقد أعطت قِصصَ التحرير وفتوحات "يُوشيا" دَفْعاً عاطفياً خاصَّاً لِحركات المُقاومة الشَّبيبيَّة ضدَّ الطَّغاة المحلِّيِّين والأساد الرومان طوال مُدَّة القرن الأوَّل ق . م ، والقَرْنَيْنِ المِلاديَّين الأوَّل والثَّانِي . لم يحدث أن نَمَّت صياغة مثل هذه القِصَّة العظيمة المُشتركة : فاللاحم والأساطير اليونانيَّة لا تتكلَّم إلاَّ بلُغة الاستعارة والمثال ؛ في حين تُقدِّم الملاحم الدينيَّة ما بين التَّهريبيَّة والفارسيَّة أسراراً كونيَّة ، ولكن ؛ لا تُقدِّم لا تاريخاً دُنيوياً ولا دليلاً عملياً للحياة . أمَّا الكتاب المُقدَّس العِبْرِيّ ؛ فإنَّه قدَّم الأمرين كليهما ؛ حيث قدَّم إطاراً قِصصياً يُمكن لكلِّ يهودي أن يُميِّز فيه تاريخ أسرته وتاريخه القومي . وباختصار ؛ أصبحت قصَّة إسرائيل التي تبلورت أوَّل مرَّة في عهد "يُوشيا" ، أوَّل ميثاق مُفصَّل كامل اجتماعيٍّ وقوميٍّ في العالم ، يشمل الرِّجال ، والنِّساء ، والأطفال ، والأغنياء ، والفقراء ، وكلِّ المحرومين والمُعْدِمين في الطائفة كُلِّها .

ومع دمار الهيكل الثاني عام 70م، ويزور المسيحية، أثبتت القوة المستقلة للكتاب المقدس العبري نفسها كدستور مُشكّل، وليس كمجرد عمل أدبي بارع، أو مجموعة تشريعاتٍ وحكمٍ قديمةٍ.

لقد كان ذلك الكتابُ أساسَ كُلِّ الشُّرُوحاتِ دائمة التوسُّعِ في الـ"ميشنا" Mishnah و"التلمود" الخاصينِ بيهوديةِ الرِّبَّيْنِ<sup>(1)</sup>، ونُظِمَ ذلك الكتابُ المقدسُ وعُرفَ باسمِ "العهد القديم" في المسيحيةِ المُشكَّلة. لقد أصبح الوعي بالتحدُّرِ الروحي من إبراهيم والتجربة المُشتركة للخروج الجماعي من العبودية تفكيراً مُشترِكاً لدى شبكات الجماعات المُتزايدة على الدوام في كافة أنحاء الإمبراطورية الرومانية وعالم البحر الأبيض المتوسط. لقد تمَّ الحفاظ على الأمل بالإصلاح والتسديد المُستقبلي حياً، رغم أنَّه لم يعد يُربط بسُلالة داود الملكية المُتفرضة؛ حيث ظلَّ هذا الأمل موجوداً في التوقُّعات النبوية والمسيحانية لليهودية، وفي اعتقاد المسيحية أن يسوع ينتمي للخطِّ الدَّاودي. إنَّ الموت المُحزن لـ"يوشيا" الذي كان سيعدُّ المسيح المُنتظر، قبل قُرُونٍ عديدة، وضع النموذج الذي سيبقى طوال التاريخ. إنَّ الكتاب المقدس العبري يُقدِّم منبعاً فريداً للتضامن والهوية لأعداد لا تُحصَى من الجاليات والجماعات في القُرُون التي تَلَتْ. تمتلك تفاصيل قصصه، التي أخذت من كنزٍ من الذكريات القديمة، والتواريخ المُتجزئة وأساطير أُعيدت كتابتها، قوةً وتأثيراً ليس كسجلٍ موضوعيٍّ لأحداثٍ وقَعَتْ في أرضٍ صغيرةٍ على الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، بل كتمبيرٍ خالدٍ يتجاوز حُدُود الزمان والمكان عمّاً يمكن أن يكون عليه المصير المقدس لشعب. مثلما كان أتباع شارلمان يُقدِّمون له قُرُوض الولاء كداودٍ فاتحٍ جديدٍ. وأتباع السُلطان سُلَيْمَانَ العُثماني رأوا فيه حكمة سُلَيْمَانَ. فإنَّ الكثير من الجماعات الأخرى في بيئات ثقافيةٍ مُختلفةٍ جداً، رَتَّطَتْ كفاحها الخاص بكفاح إسرائيل التوراتية.

نَهَضَتْ وَبَرَزَتْ جماعات من الفلاحين الأوروبيين في القُرُون الوُسْطَى، في انتفاضاتٍ إيحائيةٍ تحمل صُورَ وأبطال الكتاب المقدس العبري شعاعاً وراياتٍ لمعاركها، بل؛ لقد ذهب المُستوطنون التَّطهْرِيُّونَ (البيوريتانيون) الذين استقروا في نيو إنغلند (في العالم الجديد) إلى حدِّ

(1) يُطلق اليهود على أحبارهم اسم "رأبي"، واستخدم القرآن الكريم هذا التعبير في تسمية أحبارهم "رَبِّيْنِ" أو "رَبَّانِيْنِ". (المترجم).

تخيل أنفسهم إسرائيليين تائبين في البرية وجدوا أرض الميعاد - بمدنها مثل سالم، حبرون، غوشيم، وكنعان الجديدة - في المروج والغابات الجديدة التي وجدوها، ولم يشك أحد منهم بأن القصة التوراتية كانت حقيقية.

ولكن؛ عندما بدأ الكتاب المقدس العبري يُشرح ويُدرس بمعزل عن وظيفة تأثيره القوي في حياة الجماعة، بدأ علماء اللاهوت وعلماء الكتاب المقدس يطلبون منه ما ليس فيه. ومنذ القرن الثامن عشر، في المسعى التنويري للبحث عن التاريخ الدقيق والقابل للإثبات، أصبحت الحقيقة الواقعية التاريخية للكتاب المقدس - كما بقيت إلى اليوم - موضع نقاش مثير. وعندما أدرك العلماء أن الخلق في سبعة أيام والمعجزات التلقائية لا يمكن أن تُفسر بنحو مرضي تفسيراً علمياً وعقلياً، بدؤوا في انتقاء ما وجدوه تاريخياً في الكتاب المقدس العبري، وما لم يجدوه كذلك. وظهرت نظريات وقرصيات حول المصادر المختلفة المتضمنة في نص الكتاب المقدس العبري، وجادل علماء الآثار حول الدليل الذي يُثبت - أو ينفي - الثقة التاريخية لهذا القطع المُعين من الكتاب المقدس، أو ذاك.

ومع ذلك؛ فإن سلامة الكتاب المقدس - وفي الواقع؛ تاريخيته - لا تعتمد على البرهان التاريخي الطبع لأي من أحداثه المُعينة، أو شخصياته، مثل انفلاق البحر الأحمر، أو أصوات الأبواق التي أسقطت أسوار أريحا، أو قتل داود لجالوت بضربة واحدة من مقلاعه، بل تنجم قوة القصة التوراتية من كونها تعبيراً قصصياً مُنعماً ومُتماسكاً عن موضوعات خالدة تتجاوز حدود الزمان، تتحدث عن تحرر شعب، وعن المقاومة المتواصلة ضد الظلم، وعن السعي لأجل المساواة الاجتماعية. إنه يُعبر - بشكل بليغ - عن الإحساس المتجذّر بالأصول والتجارب المشتركة، والمصير الذي تحتاجه كل جماعة بشرية لتبقى وتواصل حياتها.

وإذا استخدمنا المصطلحات التاريخية الخاصة نقول: إننا نعرف اليوم أن قصة الكتاب المقدس العظيمة الملحمية، ظهرت أولاً، كرد فعل على الضغوطات والصعوبات، والتحديات، والآمال، التي واجهها شعب مملكة يهوذا الصغيرة جداً في العقود التي سبقت دمارها، والتي واجهتها الجماعة الأصغر للهيكل الجديد في أورشليم (القدس) في فترة ما بعد التني.

في الواقع؛ إنَّ أعظم مُساهمة قدَّمها علم الآثار لفَهْمنا للكتاب المُقدَّس، قد تكون إدراكنا أنَّ مثل تلك المُجتمعات الصَّغيرة، والفقيرة نسبياً، كيهودا في الفترة المملَكِيَّة المتأخِّرة، ومُحافظة 'يهودا' في فترة ما بعد النَّفي، كان يُمكنها أن تُنتج الخطُوط العريضة الرئيسيَّة لهذه المُلحمة الخالدة في مثل هذه الفترة الزَّمنيَّة القصيرة. مثل هذا الإدراك يُعدُّ أمراً حاسماً، لأننا فقط عندما نعرف ونُدرك أنَّه متى ولماذا تمَّ حَبْكُ وتأليف الأفكار والصُّور والأحداث التي يصفها الكتاب المُقدَّس العبري بنحو بارع مع بعضها البعض؛ يُمكننا أن نبدأ - أخيراً - بتقدير العبقرية الحقيقيَّة والقوَّة المُستمرَّة لهذا النَّصِّ الأدبي والخلق الروحي الأكثر تأثيراً في تاريخ البشريَّة.

## الملحق أ:

### نظريات تاريخية عهد الآباء

#### الفرضية العمورية:

أصبح من الواضح -اليوم- بفضل تطوّر علم الآثار الحديث في أرض الكتاب المقدّس العبري، أنّ كنعان الألفية الثالثة ق. م -العصر البرونزي المبكر- كانت تتمتع بحياة حضريّة متطوّرة بشكل كامل. كان من البديهي أنّ هذه الحقيقة لا تتلاءم مع الخلفية التاريخية لقصص رحلات الآباء التي لم يكن فيها إلاّ بضعة لقاءات حضريّة. في هذه الفترة الحضريّة الأولى للعصر البرونزي تطوّرت مدُن كبيرة، وصكّت مساحة بعضها إلى خمسين هكتاراً، وضمت عدّة آلاف من السكّان، في السهول السفلى. وكانت مُحاطة بتحصينات رائعة قويّة، واحتوت على قُصور ومعابد. على الرّغم من أنّه ليس لدينا نُصوص تعود لتلك الحقبة، تقترح مقارنة الوضع في الألفية الثالثة ق. م، بالوضع في الفترة الحضريّة الثانية (في الألفية الثانية ق. م، التي تمتلك نُصوصاً عنها) أنّ المدُن الكبرى كانت عواصم لدُول مدُن، وأنّ السكّان الريفيّين كانوا تابعين لتلك المراكز. كانت الحضارة الماديّة حضارة مننظمة -بتحو كبير- لأناس يعيشون بتحو مُقيم دائم، ولكن؛ في نهاية الألفية الثالثة؛ انهار ذلك النظام الحضري المزدهر. دُمّرت المدُن، وأصبح الكثير منها أنقاضاً خربة، ولم تتعافَ -بعد ذلك- من الصدمة أبداً. كما هُجرت الكثير من مراكز الاستيطان الريفيّ حول تلك المدُن. والذي تلا كان فترة من عدّة قُرُون في أواخر الألفية الثالثة، وربما أوائل الألفية الثانية لثقافة مُختلفة جداً، ليس فيها مدُن كبيرة؛ أيّ ليس فيها حياة حضريّة. كان أغلب سكّان فلسطين -كما اعتقد علماء الآثار في الخمسينات والستينات (من القرن الماضي)- يُمارسون نمط حياة بدويّ رعويّ قبل أن تتعافى الحياة

الحَضْرِيَّة من جديد، وتدخل كُنَعَان الفترة الحَضْرِيَّة الثانية؛ أي العصر البرونزي الأوسط، في أوائل الألفية الثانية ق. م. .

اعتقد العالم الأمريكي وليام إف. أولبرايت William F. Albright أنه ميز الخلفية التاريخية للآباء في الفاصل البدوي بين فترتي الحياة الحَضْرِيَّة المتطورة في كُنَعَان، وهو فاصل يقع في الفترة بين 2100 - 1800 ق. م، قريباً من عهد الآباء، كما يُشير إليه التاريخ الزمني للأحداث في الكتاب المقدس العبري. دعا أولبرايت هذه الفترة بالعهد البرونزي المتوسط الأول (في حين دعاه علماء آخرون - بشكل أصح - بالعهد البرونزي الوسيط؛ لأنه كان فترة بين عصرين حَضْرِيَّين). جادل أولبرايت وعلماء آخرون معاصرون أن انهيار الحضارة الحَضْرِيَّة للعصر البرونزي الباكر كان انهياراً مفاجئاً وكان نتيجة لغزو، أو هجرة بدو رعاة من المنطقة الشمالية الشرقية. وقد طابقت الفُزاة على شعب يُدعى Amurru، العموريون (حرفياً، "الغربيون") الذين تحدث عنهم نصوص ما بين نهريَّة. وذهب أولبرايت وأتباعه خطوة إلى الأمام، وطابقوا الآباء على العموريين، وأرخوا حادثة إبراهيم في قصص التكوين إلى هذه المرحلة من تاريخ كُنَعَان. طبقاً لإعادة البناء هذه؛ كان إبراهيم عمورياً، تاجراً، هاجر من الشمال، وتجوَّز في كافة أنحاء مرتفعات كُنَعَان الوسطى، وكذلك في النقب.

وماذا كان السبب التاريخي لهجرة إبراهيم؟ اقترح أولبرايت أن إبراهيم، تاجر قافلة ذائع الصيت شارك في الشبكة التجارية العظيمة للقرن التاسع عشر ق. م. . وتشهد نصوص تعود لذلك الزمن وُجِدَت قرب "قيصري" Kayseri في وسط تركيا على علاقة تجارية ناجحة بين بلاد ما بين النهرين وشمال سوريا (وهذا يتفق مع حركة إبراهيم في سفر التكوين من أور إلى حاران)، وتزودنا رسمة على قبر في مصر، تعود لنفس الفترة الزمنية بشاهد على تجارة قوافل بين عبر الأردن ومصر (كما تصفه قصة يوسف في سفر التكوين). في الحالتين؛ استعملت الحمير كدواب لحمل الأثقال. وهكذا أوجد أولبرايت صلة بين ظاهرتين - الطبيعة الرعوية لعصر الآباء وتجارة قوافل الحمير في القرن التاسع عشر - باستدلاله على أن العصر البرونزي المتوسط استمر حتى حوالي 1800 ق. م. . وقد قدم عالم الآثار الأمريكي نيلسون غلويك Nilson Glueck إباناً يدعم ظاهراً هذه النظرية. لقد كشفت استطلاعاته في جنوب عبر

الأردن وصحراء النقب عن مئات المواقع التي تعود لنفس الفترة الزمنية. اعتمد أولبرايت أن هذه المواقع تُروِّدنا بالخلفية التاريخية لقصص نشاط إبراهيم في النقب ودمار مُدُن البحر الميت.

رغم ذلك؛ لم تدمِ القِراصية العمورية طويلاً. على أثر المزيد من التنقيبات في مواقع متعدّدة في كافة أنحاء البلاد، استنتج معظم العلماء أن النظام الحضري للعصر البرونزي الباكر لم ينهار بين عشية وضحاها، بل أخذ بالانحطاط. بنحو تدريجيّ. خلال عدّة عقود، لأسباب تعود لتقلبات اقتصادية واجتماعية محلية ضمن كُنَعان أكثر من عودتها لغزاة خارجيين. وفي هذه الأثناء؛ تَلقت النظرية العمورية ضربة من جهة أخرى؛ إذ تبين أن اصطلاح العموريين لم يكن مُقتصراً على الشعوب الرعوية، فلقد سُميت مجتمعات قروية في شمال سوريا في أوائل الألفية الثانية بالعموريين أيضاً. وبالتالي؛ لم يعد من المُحتمل أن يكون إبراهيم قد أتى إلى البلاد كجزء من موجة غزوٍ قادم من الخارج.

علاوة على ذلك؛ لقد ثبت أن التشابه الظاهري بين طريقة الحياة الرعوية في المرحلة التالية من تاريخ البلاد وأوصاف أسلوب حياة إبراهيم البدوية لم يكن سوى وهم. فقد أصبح الآن - واضحاً أن العصر البرونزي الوسيط لم يكن فترة بدوية بشكل كامل. صحيح أنه لم تكن هناك مُدُن كبيرة في ذلك الوقت، وأن نسبة البدو الرعاة إلى عامة السكّان كانت تنمو بشكل ملحوظ، لكن معظم السكّان بقوا مقيمين، يعيشون في قرى ومُدُن. وفي تناقض حادّ مع نظرية الهجرة العظيمة لجماعات من البدو من الشمال، تقترح استمرارية النمط المعماري، والأساليب الفخارية، ونماذج الاستيطان، أن سكّان كُنَعان - في تلك المرحلة بين الفترتين الحَضريّتين - كانوا - بالدرجة الأولى - سكّاناً أصليين. كان السكّان يتحدرون من الشعب الذي كان قد عاش في المُدُن الكبيرة قبل بضعة أجيال. ونفس هؤلاء الناس هم الذين أعادوا تأسيس حياة حَضرية في كُنَعان في مُدُن العصر البرونزي المُتوسّط.

ولا يقل أهمية عن ذلك، حقيقة أن بعض المواقع الرئيسية المذكورة في قصص الآباء - مثل شكيم (نابلس)، بئر سبع، وحبرون (الخليل) - لم تُقدّم لنا أيّ اكتشافات من العصر البرونزي الوسيط؛ لأنها - ببساطة - لم تكن مسكونة في ذلك الوقت.

## الآباء في العصر البرونزي الأوسط:

رَبَّطتْ نَظَرِيَّةُ أُخْرَى عَصْرَ الآبَاءِ بِالْعَصْرِ الْبَرُونَزِيِّ الْأَوْسَطِ، الَّذِي يُمَثِّلُ قَمَّةَ الْحَيَاةِ الْحَضَرِيَّةِ فِي النِّصْفِ الْأَوَّلِ مِنَ الْأَلْفِيَّةِ الثَّانِيَةِ ق. م. . . لقد استدلَّ العُلَمَاءُ المُدَاعِفُونَ عَنْ هَذَا الرَّأْيِ، كَالْعَالِمِ الْفَرَنْسِيِّ الْمُتَخَصِّصِ بِالْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ "زُولاند دي فو"، بِأَنَّ طَبِيعَةَ الْعَصْرِ الْبَرُونَزِيِّ الْأَوْسَطِ، طَبَقاً لِمَا يَتَرَشَّحُ مِنَ النُّصُوصِ وَعِلْمِ الْأَثَارِ يَنْطَبِقُ - بِنَحْوِ أَفْضَلِ - عَلَى الْوَصْفِ التُّورَاتِيِّ، خَاصَّةً لِكُونَ الآبَاءِ وَصَفُوا - أحياناً - عَلَى أَنَّهُمْ يَعِيشُونَ فِي خِيَامٍ قُرْبَ الْمُدُنِ. مِنْ نَاحِيَةِ عِلْمِ الْأَثَارِ؛ كُلُّ الْمُدُنِ الْكَبِيرَى الْمَذْكُورَةِ فِي سَفَرِ التَّكْوِينِ - شَكِيم (نابلس)، بَيْت إيل، حبرون (الخليل)، وَجَرَّار - كَانَتْ قِلاعاً مُحصَّنةً فِي الْعَصْرِ الْبَرُونَزِيِّ الْأَوْسَطِ. وَنَصباً؛ هُنَاكَ تَصْدِيقٌ قَوِيٌّ لِتِلْكَ الْعِلاَقَةِ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَالْحَيْمَةِ فِي الْأَرشِيفَاتِ الْمَكشُفَةِ فِي خِرَابَاتِ مَدِينَةِ مَارِي الشَّهِيرَةِ الَّتِي تَعُودُ إِلَى أَوَائِلِ الْأَلْفِيَّةِ الثَّانِيَةِ، عَلَى نَهْرِ الْفُرَاتِ فِي سُورِيَا. بِالإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ؛ اسْتَدلَّ مُؤَيِّدُو تَارِيخِ الْعَصْرِ الْبَرُونَزِيِّ الْأَوْسَطِ لِفَتْرَةِ الآبَاءِ بِأَنَّ أَسْمَاءَ الآبَاءِ الشَّخْصِيَّةَ تُشَابِهُ الْأَسْمَاءَ الْعَمُورِيَّةَ فِي أَوَائِلِ الْأَلْفِيَّةِ الثَّانِيَةِ ق. م.، بَيْنَمَا هِيَ بَعِيدَةٌ عَنِ الْأَسْمَاءِ الشَّاعِةِ اسْتِخْدَامُهَا فِي الْفَتْرَاتِ الزَّمْنِيَّةِ اللَّاحِقَةِ، عِنْدَمَا تَمَّتْ كِتَابَةُ مَادَّةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ. أَفْضَلُ مِثَالٍ تَمَّ تَقْدِيمُهُ كَانَ مِثَالِ يَعْقُوبَ، وَهُوَ اسْمٌ ظَهَرَ عِدَّةَ مَرَّاتٍ فِي أَوَائِلِ الْأَلْفِيَّةِ الثَّانِيَةِ ق. م. . .

أشار العالمان الأمريكيان سايروس جوردن Cyrus Gordon وأفرايم سبازير Ephraim Speiser - أيضاً - إلى التشابهات بين الممارسات الاجتماعية والقانونية في الوصف التوراتي للفترة الأبوية والممارسات الاجتماعية والقانونية في نصوص الألفية الثانية ق. م.، للشرق الأدنى. وقالوا إن مثل هذه التشابهات لا يمكن أن توجد في الفترات اللاحقة من تاريخ الشرق الأدنى القديم. أهم هذه النصوص الواح "نوزي" من شمال العراق، التي تُورخُ إلى القرن الخامس عشر ق. م. . . تُصوِّرُ مُعْظَمَ أُلُوحٍ "نوزي" - الَّتِي يَأْتِي مُعْظَمُهَا مِنْ أَرشِيفَاتِ عَائِلِيَّةٍ - عَادَاتِ الْهُورِيِّينَ، وَهُوَ شَعْبٌ غَيْرِ سَامِيٍّ أَسَّسَ دَوْلَةَ الْمِيتَانِيِّينَ الْقَوِيَّةَ فِي شِمَالِ بِلَادِ مَا بَيْنَ التَّهْرَيْنِ فِي مُنْتَصَفِ الْأَلْفِيَّةِ الثَّانِيَةِ ق. م. . . وَنَذَكَرُ لِلْإِسْتِشْهَادِ بَضْعَةَ امْثَلَةٍ، فَفِي "نوزي" كَانَ



يُطلبُ من المرأة العقيم أن تُقدِّمَ أمةً لزوجها لتحمل له الأولاد، وهو أمرٌ مشابه - بشكل واضح - لقصة سارة وهاجر التوراتية في سفر التكوين / 26. في "توزي" كان الزوجان اللذان لا يملكان أولاداً يتبنون عبيداً، وهذا يشابه تبني إبراهيم لـ "أليعازر" كوريث له (التكوين 15/ 2-3). قصة تدبير يعقوب مع (خاله لابان) في مقابل زواجه من راحيل و"ليثة" تجدد - أيضاً - موازياً لها في ألواح "توزي". لقد فهمت التشابهات بين النصوص التوزية والمواد التوراتية المتعلقة بعصر الآباء، على خلفية التأثير الثقافي القوي للهويين الذين انتشروا بعيداً نحو الجنوب حتى بلاد كنعان. ولأجل ردم الفجوة بين "توزي" والعصر البرونزي الأوسط، تم تفسير العادات التوزية على أنها تعكس ممارسات هورية أقدم تعود لأوائل الألفية الثانية.

ولكن؛ سرعان ما انهار - أيضاً - الحلُّ العصر البرونزي / "التوزي". جاءت الصعوبة، من وجهة نظر علم آثار فلسطين، بشكل رئيسي، ممَّا لا نراه أو نسمعه في النص التوراتي. كان العصر البرونزي فترة حياة حضرية متقدمة. كانت هناك مجموعة من دول المدن القوية تُهيمن على كنعان وتُحكِّم من عواصم مثل "حاصور" و"مجدو". كانت تلك المدينتان مُحصنتين بقوة بأسوارٍ طينية ضخمة ذات بوابات هائلة، كان فيها قُصورٌ عظيمة ومعابدٌ شاهقة. ولكننا لا نرى في نص الكتاب المقدس العبري أي ذكرٍ لذلك. صحيحٌ أنَّ هناك ذكرٌ لبضعة مدُن، ولكنه ليس بالضرورة للمدُن الهامة. فلا يوجد ذكرٌ لشكيم (كمدينة)، ولا لبيت إيل، ولا لأورشليم، وكلُّ الثلاثة كانت معازل قوية في العصر البرونزي الأوسط. وفي السهول كان يجب أن نسمع عن "حاصور" و"مجدو"، و"جازر"، وكيس عن "جرار". من الواضح أنَّ القصة التوراتية للآباء ليست قصة كنعان العصر البرونزي الأوسط. كما أنَّ ظاهرة البدو الذين يعيشون قُرب المدُن ليست خاصةً بذلك العصر. وأمَّا بالنسبة لأسماء الآباء؛ فإنها وُجدت - بنحو متكررٍ - في فتراتٍ لاحقة أيضاً، في العصر البرونزي المتأخَّر والعصر الحديدي، فاسم يعقوب - مثلاً - الشائع فعلاً في العصر البرونزي الأوسط، يوجد - أيضاً - في العصر البرونزي المتأخَّر، وفي القرن الخامس ق. م، وما بعده.

أمَّا بالنسبة لنصوص "توزي"؛ فقد أثبتت الدراسات اللاحقة أنَّ الممارسات الاجتماعية والقانونية، التي تُظهر تشابهات مع القصص التوراتية، لا يمكن حصرها بفترة زمنية واحدة،

بل هي شائعة في الشرق الأدنى القديم في كافة أزمنة الألفية الثانية والأولى ق. م. . بل في الواقع ، في بعض الحالات ، قد تُعطينا مواد من الألفية الأولى تشابهات أفضل . على سبيل المثال ؛ تظهر مسؤوليَّة الزوجة العقيم في تقديم أمة لزوجها لتُنجب له الولد ، في فترات لاحقة ، مثل عقود الزواج في آشوريا في القرن السابع .

### الآباء في العصر الحديدي المبكر:

عندما بدأ حلُّ الألفية الثانية مرفوضاً ، أتخذ العالم التوراتي الإسرائيلي بنيامين مازر Benjamin Mazar مساراً مختلفاً ، مُستخدماً بيانات علم الآثار ليقترح أن وصَفَ عصر الآباء يجب أن يُدرَسَ على خلفية العصر الحديدي المبكر . أشار مازر - بشكل رئيسي - إلى المفارقات التاريخية في النصِّ ، مثل ذكر الملك الفلسطيني (لجرار) والآراميين . وغني عن القول إنه لم يكن هناك فلسطينيون في كنعان لا في العصر البرونزي الأوسط ولا المتأخر . كلتا النصوص المصرية وعلم الآثار اثبتا - بدون شك - أنهم استقروا في الساحل الجنوبي لفلسطين في القرن الثاني عشر ق. م. . بدلاً من أن يرى ظهورهم هنا كإحجام متأخر (أثناء التأليف) في تقليد سابق ، استدل مزار بأن النصَّ يعكسُ معرفة عميقة بالممالك الفلسطينية في فترة سابقة بنحو مباشر لتأسيس الحكم الملكي في إسرائيل . يظهر الآراميون - أيضاً ، بوضوح - في قصص الآباء ، لكنهم - أيضاً - لم يُظهروا في ساحة الشرق الأدنى القديم قبل العصر الحديدي المبكر ، وظهرت ممالكهم في وقت متأخر - بشكل رئيسي - في القرن التاسع ق. م. . اعتقد مزار بأنَّ وصَفَ الآراميين كأناس رعوين إنما يعكسُ مرحلة مبكرة في تاريخهم ، قبل أن ينظموا دولهم الأولى . وبالتالي ؛ استنتج أن تجوُّل الآباء في منطقة التلال المركزية بين شكيم (نابلس) وحبرون (الخليل) يلائم الإطار الجغرافي للاستيطان الإسرائيلي المبكر في العصر الحديدي الأوَّل . بعض هذه التقاليد ، مثل ذلك الذي يتحدث عن بناء يعقوب مذبحاً في بيت إيل ، يُمكن أن يفهم على خلفية فترة القضاة ، بينما تلائم تقاليد أخرى ، مثل مركزية جيبورن (الخليل) ، الأيام الأولى من الحكم الملكي ، تحت حكم داود . تبني العالم التوراتي الأمريكي كايل مك كارتير Kyle McCarter وجهة نظر مماثلة جداً ، رغم أنه كان أكثر حذراً قليلاً .

لقد رأى في قصص الآباء عدّة طبقات مختلفة من التأليف ، ورأى أنّ البعض منها قد يعود إلى العصر البرونزي ، ولكن ؛ بالنسبة للموضوعات التي تتعلّق بالذّكر الخاصّ لأماكن في يهوذا في قصص الآباء . كالأهميّة التي أعطيت لشخصيّة إبراهيم وإلى قبور الآباء في حبرون (الخليل) . بنى "مك كارتز" McCarter وجهة نظر مشابهة لتلك التي اقترحها "مازر" ، لقد رأى بأن أهميّة حبرون (الخليل) في قصص الآباء يُمكن أن تُفهم - بنحو أفضل - على خلفيّة تأسيس الحكّم الملكي تحت حكم داود .

لقد كان "مازر" مُحقّقاً في ادّعائه أنّ الحقيقة وراء القصص في سفر التكوين لا يُمكن أن تُفهم على خلفيّة العصر البرونزي الأوسط ، بل يجبُ بالأحرى - تتبّع مسارها على طول حقائق العصر الحديدي ، إلاّ أنّه كان مُخطئاً من ناحية أنّ تاريخه المُفضّل في العصر الحديدي كان مبكراً جداً . لقد أظهر البحث الأثري الحديث أنّ يهوذا ؛ حيث كُتب - ظاهراً - المصدر اليهوي للتوراة ، كانت مأهولة بشكلٍ مُتناثر جداً حتّى أواخر القرن الثامن ق . م . . على المنوال نفسه ، أشار قرنٌ من التنقيبات الأثريّة في أورشليم (القدس) إلى أنّ عاصمة يهوذا نمت لتُصبح مدينة هامة في حوالي الوقت نفسه ؛ في القرن العاشر ق . م ، ولم تكن أورشليم (القدس) أكثر من قرية صغيرة . وأظهرت نتائج عُقود من التنقيبات أنّ يهوذا كمُ تصل إلى مُستوى هامٍ من معرفة القراءة والكتابة قبل أواخر القرن الثامن ق . م . . أخيراً ؛ ولي بأقلّ أهميّة عمّاً ذُكر ، إنّ قصص الآباء مملوءة بإشارات إلى حقائق ملكيّة مُتأخّرة ، وبشكلٍ رئيسي ؛ حقائق وُجِدَت في القرن السابع ق . م . .

## بَحْثٌ عَنْ سِينَاءَ

على الأقل؛ على أساس الخرائط السّياحية الحديثة لشبه جزيرة سيناء، يبدو وكأنّه لا توجد هناك صعوبَةٌ خاصّة في تمييز أهمّ الأماكن التي ذُكرت في القَصص التوراتيّة عن التيه والتجوال وإعطاء الشريعة. لقد ميّز جبل سيناء والأماكن التوراتيّة الأخرى بسهولة، وكانت تُزار منذُ العصور الوسطى، بل حتّى في وقت أسبق، في الفترة البيزنطيّة.

في الحقيقة؛ نظريّة علم الآثار المتكاملة الأولى حول طريق التجوال في الصحراء وموقع جبل سيناء تعود لحوالي ألف وخمسمئة عام تقريباً. إنّها تعود إلى التقاليد المسيحيّة القديمة المتعلّقة بالحركة الرهبانيّة، والحجّ إلى الأماكن المقدّسة في الصحراء، في القرون من الرابع إلى السادس الميلاديّة. وماتزال هذه التقاليد تُجلبُ حتّى هذا اليوم من قِبَل السّيّاح والحجّاج الذين يأتون إلى جبل سيناء وموقع الأجمة المحترقة.

في قلب المنطقة الجبليّة جنوب سيناء، يقف دير القديسة كاترين، الذي بُنيَ في القرن السادس الميلادي من قِبَل الإمبراطور البيزنطي جوستينيان، مُحاطاً بقمّم غرانيبيّة مشيرة للرهبنة، مُحياً ومذكّراً بالموقع المُفترض للأجمة المحترقة (الذي مازال يَرى للزوّار حتّى اليوم)، وقد أخذ الديرُ اسمه الحالي في العصور الوسطى. يستدعي الديرُ الذي أحيط بأسوارٍ عاليةٍ لحمايته من اللصوص - صور الأزمنا الغابرة. تنتمي كنيسته الرائعة ومُعظم تحصيناتها إلى بناء القرن السادس الأصلي نفسه. تُطلُّ قمّةُ جبل موسى كبرجٍ مشرف على الدير، وهي قمّةٌ ميّزت، منذُ حوالي الفترة البيزنطيّة، على أنّها جبل سيناء<sup>(1)</sup> نفسه. ما يزال ممكناً لكلّ شخص أن يميّز على هذه القمّة التي تُشرف على إحدى أكثر المناظر الرائعة المدهشة للصحراء آثارَ كنيسة صلاة القرن السادس. وتوجد في الجبال المحيطة بجبل موسى ودير القديسة كاترين آثارٌ أخرى، من الأديرة المنعزلة القديمة التي تضمُّ كنائس، وخطايا نساك، وتجهيزات ماء.

(1) يقصد جبل الطور الذي كلّم الله - تعالى - فيه موسى عليه السلام. (الترجم).

يُمكن أن نجد إشارات إلى بعض هذه المواقع في النصوص المعاصرة. تصف أعداد كبيرةً نسبياً من المصادر البيزنطية حياة رهبان سيناء وبناء دير الأجمة المحترقة. ولا يقل إثارة عن ذلك، النصوص التي تتعلق بالحج إلى جبل الله. الأكثر تفصيلاً من هذه النصوص وُصِف متأخر يعود للقرن الرابع يتحدث عن حاجة تُدعى «إيجيريا» Egeria، تروي كيف تسلقت هي ورفاقها جبل الله، وكيف أراها الرهبان الذين يعيشون هناك كُلاً الأماكن المذكورة في الروايات التوراتية عن جبل سيناء.

ومع ذلك؛ فإن الثقة التاريخية لهذه التقاليد موضع شك. إذا كان من المحتمل أن يكون الرهبان البيزنطيون قد حافظوا وبنوا على تقاليد أقدم، فإنه ليس لدينا أي سبيل لتحقيق تلك التقاليد القديمة؛ لأنه لا توجد هناك. بكل تأكيد. أي أثار أو بقايا قديمة من الأزمنة التوراتية في هذه المنطقة. إن التفسير الأكثر معقولةً لأصول التقاليد المسيحية القديمة في جنوب سيناء، هو موقعها العام وخصائصها البيئية. إن دير الأجمة المحترقة وجبل سيناء للرهبان البيزنطيين يقع في منطقة ذات روعة وجمال استثنائيين، في وسط منظر الجبل العظيم الذي يُمكن أن يثير الهيبة والتعظيم بسهولة لدى الرهبان والحجاج. علاوة على ذلك؛ من المحتمل أنه كان هناك سَكَن مُواصل في هذه المواقع. قَدِمَت المنطقة المحيطة بالدير فوائد فريدة للرهبان، بسبب الجمع الخاص للطقس الناعم والتشكيلات الجيولوجية. تلتقى الجبال العالية في جنوب سيناء مطراً أكثر بكثير مما تلتقاه المناطق المحيطة، والصوآن (الغرانيت) الأحمر للمنطقة غير نفاذ، ولذلك؛ يُمكن لسيلان مياه الأمطار أن يتم تجميعها في بركات وصهاريج. بالإضافة؛ تحتوي الوديان على كمية كبيرة من الماء في تربتها السفلى، التي يُمكن أن يوصل إليها بواسطة أبارٍ غير عميقة. كنتيجة لذلك؛ كان الرهبان البيزنطيون قادرين على زراعة الحبوب والساتين في الوديان الصغيرة بين الجبال (كما استمرت مجموعات بدويةً بمثل ذلك العمل حتى أوقاتنا الحالية).

ولذلك؛ فالظاهر أن اجتماع المناظر المهيبة مع الظروف البيئية المؤاتية، شجّع الحج والتقدّيس المُستمرّان لهذه المواقع في هذا الجزء من شبه جزيرة سيناء. لقد شجعت قوة القصة التوراتية عن جبل سيناء -دائماً- المحاولات الرامية لتمييز مواقع معينة. إلا أن هذا يبقى في عالم الفولكلور والتخمين الجغرافي، لا عالم علم الآثار.

## الملحق 'ج':

### النظريات البديلة للغزو والفتح الإسرائيلي

التسرب السلمي:

في العشرينات والثلاثينات، عندما أخذ أولبرايت Albright وطلابه يقتنعون. بشكل متزايد. بأنهم قد وجدوا دليلاً أثرياً على غزو يشوع، طور عالم توراتي ألماني يدعى البريخت الت' Albrecht Alt فرضيةً مختلفةً جداً. كان لدى الت'، الأستاذ في جامعة لايبزيغ Leipzig، شك كبير في أن سفر يشوع يمكن أن يُقرأ كتاريخ واقعي؛ وكان. كالعديد من زملائه الأكاديميين الألمان. من مؤيدي التعامل التقدي مع الكتاب المقدس العبري. كان مقتنعاً أن قصة الكتاب المقدس جمعت بعد قرون من وقوع الأحداث المزعومة، وأنها يجب أن تُعد أسطورة وطنية بطولية. إلا أن الت' لم يكن مستعداً لاستنتاج أنه لا يمكن الوصول لتفسير تاريخي لأصول الإسرائيليين. في حين قلل من مصداقية قصة الرواية القصصية في سفر يشوع، كان مستعداً لقبول إمكانية تاريخية الحقائق المذكورة في مصدر مُنافس: الفصل الأول من سفر القضاة.

خلال جولاته في أنحاء فلسطين في السنوات الأولى من القرن العشرين، سحر الت' بطرق العيش ونماذج استيطان البدو في المناطق السهلية في النقب وصحراء יהודה. واستناداً على معرفته بالنصوص القديمة وملاحظاته العرقية الشاملة للحياة البدوية، لاسيما علاقة البدو بالمجتمعات الريفية، صاغ نظريةً مثيرة عن أصول الإسرائيليين.

كان في صميم هذه النظرية الجديدة الإدراك بأن البدو الرعاة في الشرق الأوسط لا يتجولون بدون هدف، لكنهم يتحركون بقطعانهم حركةً روتينيةً موسميةً منتظمة. تستند تحركاتهم المعقدة على فهم دقيق للتغير المناخي الموسمي. فيما أن المطر لا يهطل إلا في الشتاء،

والمراعي الخضراء مصدر نادر خلال الصيف الطويل الجاف، فإنَّ البدو الرعاة يُجبرون على إدارة قطعانهم بنحوٍ حذرٍ جدًّا. لاحظ "الت" أنه خلال فصول الشتاء الممطرة، عندما تكون هناك مراعي كثيرة حتى في المناطق القاحلة نسبيًّا للسهول والصحراء، يتحرك البدو بعيداً عن مناطق سكنهم، منشئين مخيمات في حافة الصحراء. وعندما يأتي فصل الجفاف، وتنتهي مراعي الشتاء، تتحرك مجموعات البدو بقطعانها إلى مناطق أقرب للمناطق الزراعية الأكثر خضرة في البلاد؛ حيث يُمكن أن تُوجد أراضٍ للرعي. وكان البدو على ألفة ومعرفة بتلك المنطقة، لقد أسسوا - عبر السنوات - مجتمعات مزارع. لقد كان يُسمح لهم أن يتركوا حيواناتهم تتجول في حقول القرى الدائمة التي حصدت محاصيلها حديثاً، ليرعوا فيما تبقى من الزرع بعد الحصاد، ويسمِّدوا الأرض، ولكن؛ حتى هذا المصدر للرعي كان يُستنزف في ذروة الصيف، وتبقى عدة أشهر حتى يحين هطول أمطار الشتاء. وكانت هذه الفترة هي الأكثر حسماً لبقاء المواشي حيَّة. وفي هذه النقطة يتجه البدوي إلى المراعي الخضراء في المرتفعات؛ حيث ينتقلوا بقطعانهم بين القرى المستقرَّة وحواليها إلى حين مجيء فصل الأمطار في النهاية؛ حيث ينتقلون خارجاً من جديد نحو حافة الصحراء.

كان هذا الروتين السنوي يعتمد على التقلبات في أوقات وكميات منسوب الأمطار، ولاحظ "الت" - أيضاً - كيف أمكن للتغيرات الصارمة في المناخ أو الظروف السياسية أن تؤثر على البدو، وتجعلهم يتخلون عن طريقة عيشهم القديمة ليستقرُّوا بشكل دائم. أخذ هذا التغيير في نمط الحياة وقتاً طويلاً ليلبغ شكله النهائي. إنَّ طريقة العيش الرعوية بعاداتها وإيقاعاتها ومرونتها الهائلة هي - من عدة جهات إستراتيجية - أكثر أمناً للبقاء من مجرد زراعة قطعة واحدة من الأرض، ولكن العملية لم تكن قابلة للملاحظة أبداً، وذلك لأنَّ قطعاً صغيرة وموسمية بدأت بالظهور في مناطق محدَّدة من المراعي الصيفية؛ حيث اعتادت مجموعات البدو العودة سنة بعد سنة. بعد بذر الخنطة أو الشعير في قطع الأرض الصغيرة، كانوا يُعادرون الأرض برفقة قطعانهم، ليعودوا في وقت لاحق في الربيع التالي، في الزمن المناسب لحصاد المحصول.

في البداية؛ زرعت مجموعات صغيرة قطعاً منعزلة من الأرض، بينما واصل أصحابها تربية ورعي قطعانهم. كان ممكناً لقسم من العائلة أن يتخلَّف ويبقى قُرب الحُقُول بينما تواصل

البقيّة تحرّمها بقطعان الحَيَوَانات . مع الزّمن ؛ أخذت هذه القطع المزروعة الموسميّة تكبر أكثر شيئاً فشيئاً ، وأصبح البدو المزارعين يعتمدون عليها أكثر فأكثر ؛ لأجل الحبوب التي كانوا في السابق يُضطرّون لشراؤها من القرويين . ومع تكريس المزيد من الوقت والجهد ، بشكّل تدريجي ، للفلاحة ، أخذ عدد مواشي القطعان يتناقص ؛ لأنّ الرّعاة كانوا يُضطرّون للبقاء قُرب حُقُولهم ، ولم يعودوا قادرين على القيام برحلات بعيدة المدى . وكانت المرحلة الأخيرة في هذه العمليّة هي التّوطن الدائم ، مع بناء مساكن دائمة والتّخلّي عن تربية المواشي إلّا في الجوار المباشر للحقول . أشار "الت" إلى أنّ هذه العمليّة كانت تدريجيّة وسلميّة ، بشكّل واسع - على الأقلّ في بدايتها - لأنّ البدو استقروا ابتداءً في المناطق المأهولة بالسكّان بشكّل مُتناثر ؛ حيث كانت تُوجد المياه والأراضي بوفرة نسبيّاً ، كما أنّ ملكيّة الأرض لم تكن تحت رقابة قويّة ، ولم يحصل إلّا في مرحلة لاحقة ، أن بدأ البدو المُستقرون جديداً بالتنافس والتنازع على الأرض والماء مع سكّان القرى المُجاورة .

في ملاحظاته لعمليّة الاستقرار هذه ، أو إقامة البدو الرّعاة ، اعتقد "الت" بأنّه فهم الحالة الموصوفة في سفر القضاة ؛ صاعاً ما أصبح يُعرّفُ بنظريّة التّسرّب السّلمي لأصول الإسرائيليين . طبقاً لـ "الت" ، كان الإسرائيليون بدواً رعاةً أصلاً تجوّلوا بشكّل دوري بقطعانهم بين مناطق السّهّل في الشّرق في الشّتاء ، وفي مُرتفعات غرب كنعان في الصّيف . كلتا المناطق وُصفت في مصادر مصريّة قديمة بأنّها مأهولة بشكّل مُتناثر . رغم أنّه كان من الصعب تنظيف ومسح الأرض المُشجرة بشدّة ، وأنّ التّضاريس كانت وعرة ، كانت هناك أرضٌ حرةٌ كثيرة للزّراعة . لذلك اعتقد "الت" بأنّه في نهاية العصر البرونزي المتأخّر ، بدأت بعض مجموعات البدو الرّعاة بمزاولة زراعةٍ موسميّة قُرب مراعيها الصّيفيّة في مُرتفعات كنعان . وبدأت عمليّة التّوطن الدائم .

كما في الأزمنة الحديثة ، كانت هذه العمليّة تدريجيّة وسلميّة في البداية . رغم ذلك ؛ اقترح "الت" بأنّه عندما نمت أعداد المُستوطنين الجُدُد ، وزادت حاجتهم للمزيد من الأرض والماء ، بدأت المشاكل مع جيرانهم الكنعانيين ، خصوصاً أولئك الذين يعيشون في البلدات البعيدة والمُعزولة في المُرتفعات ، مثل أُورشليم (القُدس) ولوز (بيت إيل) . أدّت هذه التّزايدات على



الأرض وحقوق الماء - حسبما افترض "الت" - إلى المناوشات المحلية في النهاية، ونزاع مطوّل كان خلفيّة الكفاح بين الإسرائيليين وجيرانهم الكنعانيين والفلسطينيين المذكور في سفر القضاة .

رغم أن فرضيّة التسرب السلميّة كانت فرضيّة نظريّة جداً، كانت اقتراحاً مغريباً . إنّها كانت منطقية، وثلاثم الخلفيّة السكانيّة والاقتصاديّة للبلاد، وثلاثم القصص في سفر القضاة، التي - على أي حال - عدت أكثر تاريخية من روايات المعارك الملحمية لكتاب يشوع . كانت تمتلك نقطة إيجابية أخرى ؛ وهي أنّها بدت مدعومة ومؤيدة بالنصوص المصرية القديمة . وصفت ورقة بردى مصرية من أيام رمسيس الثاني في القرن الثالث عشر ق . م ، الذي كانت تُسجل مسابقة بين كاتبين على جغرافية كنعان ، وصفت مناطق التلال كمنطقة مشجرة وعرة، وفارغة تقريباً ، مُستوطنة من قبل البدو "الشوصيين" . لذا ؛ اعتقد "الت" أنّ الإسرائيليين يُمكنهم أن يكونوا - في الحقيقة - نفس أولئك "الشوصيين" . مراحلهم الأولى من الإقامة وترك الترحال في المرتفعات لم تجذب عداوة المصريين ؛ لأنّ مصر كانت مهتمة - بشكل رئيسي - بالمناطق الخصبّة على طول الساحل وفي الوديان الشماليّة، القريبة من الطرُق الإستراتيجية البريّة للتجارة الدوليّة .

في أوائل الخمسينات ؛ اعتقد يوهانان آهاروني ، أحد أكثر المؤيدين الحارّين لـ "الت" بين علماء الآثار الإسرائيليين ، أنّه وجد دليلاً قاطعاً في منطقة الجليل العليا . اسكتشف آهاروني هذه المنطقة ذات المرتفعات ، والمشجرة بشدّة في شمال البلاد ، ليجد أنّ تلك المنطقة كانت - في العصر البرونزي المتأخّر - فارغة تقريباً - من المُستوطنات الكنعانية . في فترة العصر الحديدي الأوّل التالية ، أسست هناك أعداد كبيرة - نسبياً - من المُستوطنات الفقيرة المعزولة الصّغيرة . ربط آهاروني المُستوطنين بالإسرائيليين الأوائل ، وتحديدأ شعبي قبيلتي نفتالي وأشير ، الذين روت الفصول الجغرافية لسفر يشوع أنّهم استقروا في المناطق الجبلية للجليل .

ليس ممّاجناً أنّ تتعرض استنتاجات آهاروني لتشكيك مريم من قبل ييغائيل يادين Yigael Yadin ، الذي اعتقد أنّ دليل الحرائق الهائلة لمدينة "حاصور" البرونزية المتأخّرة ، التي وصفتها سفر يشوع بأنّها رئيس كلّ تلك الممالك ، يمنع أيّ نظريّة تسرب سلمي من أي نوع .

يادين" الذي التزم بنظرية الغزو الموحدة، جادل بأنه طالما كانت مدينة "حاصور" مازال قوية، كم يكن ممكناً للإسرائيليين أن يستقروا في الجليل. في رأيه؛ المهمة الأولى في هذه القصة لا بدّ وأنها كانت دمار "حاصور" من قبل الإسرائيليين في أواخر القرن الثالث عشر ق.م. فقط عندما أصبحت "حاصور" أنقاضاً مهدمةً فُتح الباب أمام الإسرائيليين للتوطن والاستقرار في الجليل الأعلى، وفي الحقيقة؛ في خرابات "حاصور" نفسها أيضاً.

كانت إعادة بناء "أهاروني" للأحداث أقلّ بطولية، ولو أنّها ليست بأقلّ رومانسية. في رأيه؛ ظهر الإسرائيليون في المنطقة عندما كانت "حاصور" مازال مدينة قوية، وأنهم لم يختاروا الدُخول في مجابهة. بدلاً من الاستقرار على مقربة من "حاصور" واستجلاب عداوة سكّانها، وصل الإسرائيليون - بشكل تدريجي - واستقروا - بسلام - في مناطق معزولة فارغة ومشجرة في الجليل الأعلى. وهناك اختاروا الكفاح ضدّ بيئة قاسية، وضدّ أخطار الزراعة في المناطق المرتفعة، بدلاً من الدُخول في صراع مع "حاصور" القوية/ لكنّ المواجهة - في النهاية - حصلت لاحقاً، عندما - حسب رأي "أهاروني" - اكتسب الإسرائيليون القوة الكافية لشنّ هُجُوم على "حاصور". بعد تدمير المدينة فقط، قام الإسرائيليون بالتوسّع نحو المناطق الشماليّة الأغرّ والأكثر خصوبة، بما في ذلك الرأس الشمالي لوادي الأردن.

بدأت نظرية التسرب السلمية بالسيطرة في العقدين التاليين، كنتيجة لاستكشافات "أهاروني" في وادي بئر سبع، المنطقة القاحلة جنوب منطقة المرتفعات والتلال اليهودية. في الستينات والسبعينات نقّب "أهاروني" بعض المواقع الهامة في الوادي: قلعة "أراد"، البلدة القديمة لبئر سبع، وموقع العصر الحديدي المبكر الكبير جداً لتلّ ماسوس Masos، الذي يقع قُرب آبار الماء العذب في منتصف الوادي. اكتشف "أهاروني" أن تاريخ مستوطنة وادي بئر سبع كانّ مشابهاً لتاريخ الجليل الأعلى. في حين لم تكن هناك مراكز استيطان دائمة في الوادي في العصر البرونزي المتأخّر، أسست عدد من المستوطنات الصغيرة هناك في العصر الحديدي الأوّل. ربط "أهاروني" مستوطني العصر الحديدي الأوّل بأبناء قبيلة "شمعون". رغم أنّ تلك القبيلة كانت مختلفة، إلا أنّ "أهاروني" كانت مقتنعا أنّ القصة كانت نفسها: استيطان الإسرائيليّين السلمي في الأراضي الحُدُودية التي كانت فارغة من المدن الكنعانية.

## ثورة فلاحين:

على الرغم من خلفياتهم المتباعدة، ومعتقداتهم الدينية وآرائهم المتعارضة، كان هناك اعتقاد حارٌ وواحدٌ مشترك لدى كلِّ من "أولبرايت"، و"الت"، و"يادين"، و"أهاروني". افترضت كلا نظريتي الغزو العسكري والتسرب السلمي أن الإسرائيليين كانوا مجموعةً جديدةً دخلت البلاد في نهاية العصر البرونزي المتأخر. وبعض النظر عن اختلافاتهم بخصوص فهم النص التوراتي، اعتقدوا كلُّهم أن هذه المجموعة العرقية عاشت في مستوى حضاري أدنى بكثير من الكنعانيين المحليين. وصفت كلا "يادين" و"أهاروني" هؤلاء الإسرائيليين الأوائل بأنهم أنصاف بدو، واعتقداً كلاهما أن غزو كنعان، سواء بالاحتلال أو بالتسرب، كان فصلاً في النزاع الحاصل بين المزارعين البدو، بين الصحراء والمناطق الزراعية، في الشرق الأوسط.

اهتز هذا الاعتقاد الضمني - بشكل كبير - في الستينات والسبعينات، عندما أدرك علماء الإنسانيات وعلماء الآثار الذين يعملون في أجزاء أخرى من الشرق الأوسط بأن الفرضيات القديمة البالية حول التمايزات الواضحة المعالم بين عالمي البدو الرحل الرعاة، والقرويين المستقرين، كانت خاطئة وساذجة ورومانسية وتبسيطية.

كان أول وأهم هذه الافتراضات الاعتقاد السائد في القرن التاسع عشر أنه في كافة فترات العصر القديم، ضمت الصحاري السورية والعربية أعداداً واسعة من البدو المشيرين للاضطرابات، الذين كانوا يغزون الأرض المستقرة بشكل دوري. قُلبت هذه الفرضية بإجماع متزايد بين علماء الإنسانيات في الستينات الذين رأوا أن الصحاري العظيمة لم يسبق لها أن كانت قادرة على دعم أكثر من حفنة من البدو "الخُلص" قبل التدجين الواسع الانتشار للجمل، كحيوان يمكن تربيته، في آخر الألفية الثانية ق. م، إن لم يكن في وقت متأخر أكثر. منذ أن حدث هذا التطور بعد أن ظهر الإسرائيليون في كنعان، كان من البعيد للغاية أن يتم تطبيق نمط الغزو البدوي عليهم. وفقاً لذلك؛ استنتج بعض العلماء أن الإسرائيليين لم يكونوا بدواً رعاة جمال، خلصاً، بل كانوا - بشكل أساسي - مربي خراف وماعز، من النوع المعروف بتجوُّله بقطعانه، ليس في الصحراء؛ لكن؛ على حافات الأرض الصالحة للزراعة.

كما لاحظت "الت البريخت"، تزامن حصاد الحبوب الصيفي مع جفاف أراضي الرعي على حافات الصحراء، الأمر الذي يُشجع حركة العودة الطبيعية للرعاة وقطعانهم نحو المناطق

الزراعية المسقية بشكل جيد، بل يستوجب، التعاون بين المجموعتين. أو على الأقل، قد يستأجر الرعاة كمعمال زراعيين موسمين، وقد يُسمح لقطعانهم بالرعي في ما يبقى من الزرع بعد حصاد الحبوب، لكن؛ في الكثير من الحالات قد يكون الرعاة والمزارعون أعضاء جماعة واحدة، يبتعد أعضاؤها البدويون إلى السهول الصحراوية في الشتاء، بينما يتخلف الأعضاء المقيمون لتحضير وزراعة حقول القرية.

يقترح البحث في طبيعة البداوة الرعوية أن الافتراضات القديمة حول تحول الإسرائيليين القدماء التدريجي من بدو إلى مزارعين يجب قلبها رأساً على عقب. من وجهة نظر أثرولوجية (علم إنسانية)، ينتمي الإسرائيليون الرعاة والمزارعون الكنعانيون إلى نفس النظام الاقتصادي. إذا كان هناك أي تحركات سكانية هامة، كان يمكن أن يكون مصدرها المناطق المستقرة فقط، وكانت ستكون. كما تصفها كلمات المؤرخ 'جون لوك' John Luke: نحو السهول والصحراء، وليس خارج الصحراء نحو الأراضي البدوية.

ثم جاء 'جورج ميندينهال' George Mendenhall، العالم التوراتي ذو المعنويات العالية من جامعة ميشيغان Michigan، ليرفض كلتا نظرتي غزو وهجرة المستوطنين الإسرائيليين بنفس درجة الازدراء. كان 'ميندينهال' - لسنوات عديدة - صوتاً فريداً في وادي الثقافة التوراتية، مدعياً أن بروز الدين الإسرائيلي والاتحاد العشائري يمكن أن يوضحاً فقط على أساس التنمية الاجتماعية الداخلية في كنعان خلال العصر البرونزي المتأخر. منذ عهد مبكر في عام 1947، راجع دليل رسائل تل العمارنة، وكان أحد أول من استنتج أن 'الأبيرو'، الذين اعتبرهم بعض العلماء عبرانيين Hebrews، لم يكونوا مجموعة عرقية مطلقاً، بل طبقة اجتماعية واضحة المعالم.

أثبت 'ميندينهال' أن دول مدن العصر البرونزي المتأخر في كنعان نُظمت كمجتمعات طبقية لحداً كبير، يتربع الملك أو رئيس البلدية على قمة الهرم، ويأتي تحته مباشرة كبار المسؤولين، والأمراء، وحاشية الملك ويطانته، وقادة العرَبات الحربية، ثم يأتي الفلاحون الرقيقون في القاعدة. كان 'الأبيرو' - على ما يبدو - خارج هذا المخطط التنظيمي، ويبدو أنهم هدّدوا النظام الاجتماعي في عدد من الطرق. أشار 'ميندينهال' وآخرون إلى أن 'الأبيرو'،

رغم أنهم كانوا - في الأصل - مُقيمين ، انسحبوا من النظام الحَضْرِي - الرِّيفِي ، للعمَل - أحياناً - كَمُرْتزقة لكن يُقدّم لهم أجراً أعلى ، وعندما كان ذلك العمل لا يتوفّر ، كان بعض "الأبيرو" يُسجّعون الفلّاحين - بنشاط - على الثورة .

ويؤكد "ميندينهال" أن سياق هذا الاضطراب الاجتماعي لم يكن نزاعاً بين البدو والسكّان المقيمين ، بل بين سكّان الأرياف وحكّام دول المدُن . تُزوّدنا رسائل تلّ العمارنة بدليل على المشقّات والمصاعب والفُرُوض الثقيلة جداً ، التي كان يفرضها الملوك والسادة الكبار المصريون ، على الإنتاج الزراعي والرّعوي . فلم يكن عجباً أن ينجح "الأبيرو" نجاحاً عظيماً في إثارة الفلّاحين ، وأن تُخرّب العديد من المدُن الكنعانيّة في ذلك الوقت . لم تكن مدُن العصر البرونزي المتأخّر لكتعان تزيد على مراكز إداريّة من النُظُم الإقطاعيّة الإقليميّة . وبالتالي ؛ لم يكن دمارها نصراً عسكرياً فقط ، إنّه كان - أيضاً - إنهاءً فعّالاً للنظام الاقتصادي الذي حافظت عليه المدينة .

(تمثّل كلا موادّ العمارنة والأحداث التوراتيّة نفس العمليّة السياسيّة) ، كتّبت "ميندينهال"

عام 1970 :

أقصد ، الانسحاب ، ليس جسدياً وجغرافياً ، ولكن ؛ سياسياً وشخصياً ، لمجموعات سكّانيّة كبيرة من أيّ التزام تجاه النُظُم السياسيّة الحاليّة ، وبالتالي ؛ التنازل عن أيّ حماية من قِبَل هذه المصادر . وبعبارة أخرى ؛ لم يكن هناك - إحصائياً - غزو مهمّ لفلسطين في بداية نظام قبائل إسرائيل الاثني عشر . لم تحصل هناك إزاحة جذريّة للسكّان ، لم تكن هناك إبادة جماعيّة ، لم يكن هناك طردٌ واسع النطاق للسكّان ، فقط للإدرايين الملكيين (بالضرورة) . والحالصة ؛ ما كان هناك غزو حقيقيّ لفلسطين ، بالمعنى المفهوم عادة ؛ بل الذي حدث بدلاً من ذلك يمكن تسميته ، من وجهة نظر المؤرّخ العلماني الذي يهتم فقط بالعمليّات السياسيّة الاجتماعيّة ، ثورة فلّاحين ضدّ شبكة دول المدُن الكنعانيّة المتشابكة .

في قلب نظريّة ثورة الفلّاحين كان هناك تفسير مُبتكرٌ لكيفيّة بدء الدين الإسرائيلي . زعم "ميندينهال" أن "الأبيرو" والفلّاحين المؤيدين لهم لم يكونوا - أبداً - ليمكّنوا من التغلّب على الهيمنة الإقطاعيّة الكنعانيّة بدون عقيدة مهمّة مُنقّنة . وقد اعتقد أن عقيدتهم - عبادة الإله الواحد المتعال "يهوه" - كانت ردّاً رائعاً على دين الملوك الكنعانيين . بدلاً من الاعتماد على

هيكلي مكرسٍ لجميع الآلهة، وعلى طُقوس الخُصُوبة المُفصَّلة (التي لا يمكن أن تُؤدَّى إلا بواسطة الملك وكهنته الرُسميَّة فقط)، وَضَعَت الحُرُكة الدِّينيَّة الجديدةَ إيمانها في الله الواحد الذي أسَّسَ قوانينَ مُساواةٍ عادلةٍ للسلُوك الاجتماعي، وأبلغها -مباشرة- لكلِّ عَضُو في الجماعة. وهكذا؛ فإنَّ قبضة المُلُوك على النَّاس انكسرت عَمَلِيًّا بانتشار هذا الإيمان الجديد. وبالتالي لمؤيدي نظريَّة ثورة الفلَّاحين، أُعْجِزَ الغزو الإسرائيلي الحقيقي بَدْون احتلال أو هجرة عندما أسَقَطَت الأعداد الكبيرة من الفلَّاحين الكُنْعانيِّين، سادَتهم، وأصبَحوا إسرائيليِّين.

في عام 1979، تَبَيَّنَ نُورمان ك. غُوْتُوَالْدُ Norman K. Gottwald، عالم توراتي أمريكي آخر، نظريَّات ميندينهال، ووسَّعها في كتابه: 'قبائل يَهُوَّة'، لكنَّهُ دَهَبَ خُطوةً للأمام أيضاً؛ وهاجَمَ الدَّلِيلَ الأثاريَّ مُباشرةً. بَيْنما رَفَضَ ميندينهالَ كُلَّ كَلامٍ حول توطُّن واستقرار أنصاف البدو في منطقة التلال والمُرتفعات وعلى حافَّات الصَّحراء، اعتقدَ غُوْتُوَالْدُ أنَّهُ هذه المواقع كانت. في الحقيقة -إسرائيلية-، لكنَّهُ أتى بهذا التعريف لأسبابٍ مُختلفةٍ جداً. لقد فَسَّرَ الحالة بأنَّ الحُدُودَ البعيدةَ ومناطق الغابات كانت ذات جَدْبٍ طبيعيٍّ لأعضاء حُرُكة الاستقلال الذين هربوا من السُّهُولِ والوُدَيان المأهولة بِشَكْلِ كَثيفٍ بالسُّكَّانِ، (والمُسيطرَ عليها بِشَكْلِ مُباشرٍ أكثر)، ليُؤسِّسوا لأنفسهم طريقة حياة جديدة. اقترحَ غُوْتُوَالْدُ أنَّهُ استيطانهم في هذه المناطق الصَّخريَّة والفقرية بالماء كانَ مُمكنًا -بشَكْلِ رئيسيٍّ- بسبب التَطوُّر التكنُولُوجي: الأدوات الحديديَّة لحَفْرِ الصَّهاريِّج في قلب الصَّخَر، واللُّصاق ضدَّ الماء لسدِّ جُدُران الصَّهاريِّج وإنشاء مصاطب وشُرُفات مُسطَّحة على مُنحدرات المُرتفعات.

وعلى الصَّعيد الاجتماعي؛ أضافَ غُوْتُوَالْدُ أنَّهُ الإسرائيليِّين أسَّسوا في مواطنهم الجديدة، مُجتمعاً أكثر مُساواةً؛ حيثُ وسائل الإنتاج مُتاحةٌ للكُلِّ. وعلى المُستوى الفكري؛ اقترحَ بأنَّ الأفكار الجديدةَ للمُساواة استُورِدَت إلى كُنْعان بواسطة مجموعة صغيرة من النَّاس جاؤوا من مصر، واستقرُّوا في المُرتفعات. قد تكون هذه المجموعة تأثَّرتُ بالأفكار المصريَّة غير التقلَّديَّة عن الدِّين، كتلك التي حفَّزَت ثورةَ 'أخناتين' Akhenaten التي طرحت أفكار القرن الرَّابع عشر، التي كانت أقرب إلى المفهوم الذي ظهر بعد زمن طويلٍ للتوحيد. لذا؛ كانت هذه المجموعة الجديدة الثَّوَّة التي تبلورَ حولها المُستوطنون الجُدُد في المُرتفعات.

قدّم عالم الآثار الأمريكي 'وليام ديفر' William Dever سياقاً تاريخياً واضحاً تماماً لنظرية ثورة الفلاحين مقترحاً تفسيراً جديداً للاكتشافات التي ظهرت في التقيبات السابقة، لقد استدلّ بأنّ الفخاريّات والهندسة المعماريّة للمستوطنات الجديدة في المرتفعات في العصر الحديدي الأوّل كانت مشابهة لتقاليد البناء والحزف لسكّان السهول في العصر البرونزي المتأخّر مقترحاً - بناء على ذلك - أنّ الإسرائيليين الأوائل جاؤوا من جاليات كنعانيّة مقيّمة. اقترح 'ديفر' Dever، موافقاً 'غوتوالد' Gottwald، أنّ العصر الحديدي الأوّل كان المرّة الأولى التي أصبحت فيها مناطق التلال والمرتفعات مكتنّزة بالسكّان، وهذا يعود - في جزء كبير منه - إلى إبداعيين تقنيين جديدين. كان الأوّل منهما معرفة حفر وتجصيص صهاريج خزن الماء في سرير الصخر (التي مكّنت السكّان الجُدّد من تأسيس مُستوطناتٍ بعيداً عن الينابيع والآبار الدائمة)، والثاني تقنيّات بناء شرفات (مصطبات) زراعيّة على سُفوح التلال الحادّة (التي فُتحت الطريق أمام استفلال أكثر كثافة لمنطقة التلال والمرتفعات، بما في ذلك التخصّص في الكروم وبساتين الزيتون، التي أدت تبعاً إلى الإنتاج الشامل للخمر وزيت الزيتون). طبقاً لـ 'ديفر' Dever كلا الاختراعين 'لابدّ وأنّه نشأ في مجتمع معقّد متطوّر تقنياً، أي السكّان المقيّمون في كنعان.

كانت نظرية ثورة الفلاحين أو قرصية الثورة الاجتماعية جذابة جداً، وحازت على دعمٍ عدد كبيرٍ من العلماء التوراتيين وعلماء الآثار. بدت ملائمة للحقائق الاجتماعية للعصر البرونزي المتأخّر لكنعان، كما بدت موصّحة لانحطاط نظام الاستيطان البرونزي المتأخّر في السهول وبروز نظام المرتفعات في العصر الحديدي الأوّل، وهو أمرٌ كان متناقضاً جداً مع الاتجاه السياسي الجذري للحياة الأكاديميّة الأمريكيّة والأوروبيّة في ذلك الوقت. كما تطابق - أيضاً - مع مذهب الشكّ المتزايد في البحث التوراتي بخصوص القيمة التاريخيّة لكلّي سفر يشوع وسفر القضاة، لكنّها كانت نظريّة خاطئة. في الواقع؛ لقد تمّ التخلّي عنها بنفس سرعة تبنيها سابقاً تقريباً، ما السبب؟ السبب أنّها كانت قرصية تخمينيّة ونظريّة لحدّ بعيد، ولم يكن لديها إلاّ دعمٌ ضئيل من علم الآثار، بل؛ في الواقع، لقد شهد علم الآثار ضدها.

كما جاءت - أيضاً - في الوقت الخطأ. في الثمانينات كان علماء الإنسانيات وعلماء الآثار قد أصبحوا شكّاكين أكثر فأكثر بشأن احتمال كون الفخاريّات وأنماط الفنّ المعماري يُمكن أن

تُكشَف الانتماء العرقي أو الأصل الجغرافي للشعوب القديمة . مثل عناصر الحضارة المادية هذه ، يُمكن أن تُكوِّن مقلِّدةً بسهولة ، أو مُستعارةً لمُجتمع من مُجتمع آخر . في الواقع ؛ أغلب الاكتشافات التي ذُكرها "ديفر" Dever إنما اكتُشفت في قرى تُمثِّل المرحلة الثانية للتوطن في المرتفعات ، لذا ؛ قد تُشير التشابهات مع مكتشفات العصر البرونزي المتأخر ، إلى الارتباطات التجارية أو الاقتصادية لمستوطني العصر الحديدي الأول مع شعوب السهول بدلاً من أن تكون تلك الشعوب هي أصلها ، وذلك لأنه كانت هناك استمرارية ثقافية واضحة في السهول من العصر البرونزي المتأخر إلى العصر الحديدي الأول . والأكثر أهمية ، في السبعينات وأوائل الثمانينات ، بدأت تصبُّ من الحقل بيانات صلبة عن قرى العصر الحديدي الأول ، وناقضت هذه الأدلة الجديدة نظرية الثورة الاجتماعية بشكل واضح .

أولاً ، وقبل كل شيء ، أظهرت البيانات الجديدة أن العصر الحديدي الأول لم يكن الفترة الأولى لنشاط الاستيطان المُركَّز في المرتفعات ، وأن الإبداعين التقنيين الجديدين إنما عرفا - واستخدما - قبل قرون من بروز إسرائيل المبكرة . بكلمة أخرى ؛ كان استخدام شق الصخور ، وتجسيص الصحاريح ، وبناء المصاطب المسطحة في سفوح التلال نتائج مميزة للنشاط الاستيطاني القوي في منطقة التلال والمرتفعات ، وليس المحرك الأساسي خلف حدوث هذا الاستيطان . وكذلك لا يدعم الدليل الأثاري من السهول - أيضاً - نظرية الثورة الاجتماعية . أصبح واضحاً في السنوات الأخيرة أنه مع نهاية العصر البرونزي ، كان القطع الريفي للمجتمع الكنعاني قد سبق وأصبح مُستنفذاً ، ولم يكن ممكناً له أن يزود لا القوة البشرية ولا الطاقة اللازمة لموجة الاستيطان الجديدة في المرتفعات . علاوة على ذلك ؛ أنتج العمل الأثاري في المرتفعات في الثمانينات والتسعينات بعض الإشارات المميزة على أن أغلب المستوطنين في العصر الحديدي هناك إنما جاؤوا من خلفية رعوية بدلاً من خلفية مقيمة .

كلُّ النظريات الثلاثة - الغزو الإسرائيلي الموحد ، التسرب السلمي ، والثورة الاجتماعية - يُصادق على الفكرة التوراتية المحورية التي تؤكد أن بروز إسرائيل المبكرة كان ظاهرة مُعقدة فريدة في تاريخ البلاد ، لكن الاكتشافات الأثرية الجديدة في العقود الأخيرة حطمت تلك الفكرة .



## المُلحق د':

لَمَ كانَ علمُ الأثارِ التَّقليديِّ حولَ الفِترَةِ الدَّاوديَّةِ والسُّليمانِيَّةِ خاطِئاً؟

الفُتُوحاتِ الدَّاوديَّةِ: سِرابٌ خَزَفِيٌّ

كَانَ الدَّلِيلُ الأثاريُّ الأهمُّ الَّذي اسْتُخِدمَ لِربطِ طبقاتِ الدِّمارِ بِفُتُوحاتِ داودَ، هُوَ الفِخَّاريَّاتُ الفِلسطِينِيَّةُ المُزَيَّبَةُ، الَّتِي أرَخَها عُلَماءُ الأثارِ إلى الفِترَةِ من بَدايَةِ القَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ حَتَّى حِوَالِي القَرْنِ العاشِرِ ق. م. . . وأرَخَتِ أوَّلُ طبقةٍ لَمَ تَتضمَّنُ هَذا الأَسلوبَ المُتميِّزَ (لِلفِخَّاريَّاتِ) إلى القَرْنِ العاشِرِ، أي إلى وَقْتِ الحُكْمِ المَلِكِي المُتَّحِدِ، لَكِنَّ هَذا التَّاريخُ اسْتندَ كُليًّا على التَّسلسلِ التَّاريخيِّ التُّوراتيِّ للأحداثِ، وَلِذلكَ كانَ اسْتدلالاً دَورِيًّا<sup>(1)</sup>؛ لِأنَّ التَّاريخَ الأَدنَى لِهَذهِ الطَّبقاتِ ذاتِ الفِخَّاريَّاتِ، إنَّما تمَّ تحديدهُ طبقاً لِلفِترَةِ المُتَرضَةِ لِفُتُوحاتِ داودَ حِوَالِي 1000 ق. م. . في الوَاقِعِ؛ لَمَ يَكُنْ هُنَاكَ دَليلٌ واضِحٌ على التَّاريخِ الدَّقِيقِ لِلانْتقالِ مِنَ النَّمطِ الفِلسطِينيِّ إلى الأنماطِ الأُخرى.

عِلاوَةً على ذلكَ؛ لَقَدَ أجدِثتِ الدَّراساتُ الأَخيرةُ ثَورَةً في تَاريخِ الفِخَّاريَّاتِ الفِلسطِينِيَّةِ. في العُقُودِ الأَخيرةِ، تمَّ تَقيبُ العَديدِ مِنَ المُدُنِ الكَبيِرةِ في السَّهْلِ السَّاحليِّ الجَنُوبِيِّ لِإِسْرائِيلِ، أي مَنتقَةَ الحُضُورِ المِصرِيِّ القَويِّ في القَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ ق. م.، وَمَنتقَةَ اسْتِقرارِ واسْتِيطانِ الفِلسطِينِيِّينَ. شَمَلتِ هَذهِ المَناطقُ ثَلاثَ مُدُنٍ مذكُورَةٍ في الكِتابِ المُقدَّسِ كَمَحُورِ الحِياةِ الفِلسطِينِيَّةِ: أَشدُود Ashdod، عَشْقلون Ashkelon، وِعَقْرُونَ Ekron (تَلَّ مِيقنة Miqne)، بِالإِضافةِ إلى عِدَّةِ مَواقِعَ عَمَلتْ كَحُصُونِ مِصرِيَّةٍ. كَشَفَتْ تَلكَ التَّقبِياتِ عَن

(1) البُرْهانُ الدَّورِيُّ أو "الدَّور" هُوَ أن يَستَخدِمَ الإنسانُ الفِضِيَّةَ<sup>1</sup> في اسْتدلالِهِ لِإثباتِ الفِضِيَّةِ<sup>2</sup> ذاتِها، أو لِإثباتِ فِضِيَّةٍ بِتَوقُّفِ وِجُودِها على<sup>1</sup>، وَهُوَ اسْتدلالٌ باطلٌ؛ إذ كِيفَ يَستَخدِمُ<sup>1</sup> في اسْتدلالِهِ، مَعَ أنَّها لَمَ تَبُتْ بَعْدَ، بَلْ هِيَ الَّتِي يُرادُ مِنْهَ إِثباتُها؟. (المُترجم).

معلومات عن الحضارة المادية المصرية - الكنعانية في العقود الأخيرة للهيمنة المصرية في كنعان .  
فقد تضمنت اكتشافاتهم نقوشاً مصرية تتعلق بالإدارة الإمبراطورية لكنعان بالإضافة إلى  
كميات كبيرة من الأواني المصرية المصنعة محلياً . تُورخُ بعض النقوش إلى عهد حكم رمسيس  
الثالث ، الفرعون الذي قاتل الفلسطينيين ، ومن المفترض أنه وطنهم في حصونه في جنوب  
كنعان .

كانت المفاجأة أن تلك الطبقات التي تمثل المراحل الأخيرة للهيمنة المصرية على كنعان  
تحت حكم رمسيس الثالث لم تكشف الأنواع المبكرة للأواني الفلسطينية المزينة ، ولم تكشف  
الطبقات الفلسطينية السابقة أي إشارة لحضور مصري ، ولا حتى إناء مصري واحد . بدلاً من  
ذلك ، كانت الطبقات منفصلة تماماً . علاوة على ذلك ؛ في بضعة مواقع ، استبدلت الحصون  
المصرية لمعهد رمسيس الثالث بالمستوطنات الفلسطينية الأولى . من ناحية التسلسل التاريخي  
للأحداث ، لم يكن من الممكن حدوث هذا قبل انهيار الهيمنة المصرية في كنعان في منتصف  
القرن الثاني عشر ق . م . . نتائج هذا الإحياء لعلم الآثار المتعلقة بالحكم الملكي المتحد يخلق  
نوعاً من تأثير لعبة 'الدومينو' : إن المجموعة الكاملة للأساليب الفخارية دُفعت للأمام بحوالي  
نصف قرن ؛ وهذا يتضمن الانتقال من الأساليب الفلسطينية إلى الأساليب ما بعد الفلسطينية .

يجيء نوع آخر من الأدلة من الطبقة السابعة في 'مجدو' ، التي تمثل المرحلة الأخيرة  
للحضارة المادية الكنعانية في الشمال . أُرخت هذه الطبقة دائماً إلى القرن الحادي عشر ق . م ،  
واعتمد بأنها كانت قد حطمت من قِبَل الملك داود . لاءمت هذه الفرضية العقيدة التوراتية  
بشكل مثالي : أباد الملك العتيقُ داودُ المعقل الأخير الباقي للحضارة الكنعانية . لما كانت تلك  
الطبقة قد حطمت بقسوة بالنار ، فقد سُحقت مئات الأواني الفخارية الكاملة بانهيار الحيطان  
والسقوف . في الحقيقة ؛ اكتشف عدد كبير من الأواني عبر التنقيبات التي قام بها المعهد  
الشرقي ، والحفريات التي قامت بها - أخيراً - جامعة تل أبيب في 'مجدو' . رغم ذلك لم تُوجد  
أي أمثلة للأسلوب الفلسطيني المزين . إنه - بناء على ذلك - من المستحيل تحديد تاريخ هذه  
المدنية إلى القرن الحادي عشر ، وهي فترة زمنية وُجدت فيها الفخاريات الفلسطينية المزينة بنحو  
مُشترك و شائع في جميع أنحاء البلاد ، بما في ذلك المواقع المجاورة في وادي يزرعيل . في

الحقيقة؛ هناك أواني فلسطينية في 'مجدو' نفسها، لكنها تأتي كلها من الطبقة السابقة. هذا يعني أن المدينة الأخيرة في 'مجدو' التي تُعرض بقايا الحضارة المادية الكنعانية، لا يمكن أن تكون قد حطمت من قِبَل الملك داود حوالي عام 1000 ق.م. . . كلا دليل الحزف ودليل الكربون 14. يُتراحان بأن تلك الحضارة المادية كانت مازال موجودة حتى بعد بضعة عقود من القرن العاشر ق.م. . .

إعادة النَّظَر بشأن 'مجدو': التَّوَارِيخ، الفُخَّارِيَّات، وأنماط الضَّنِّ المعماري

حاول 'يغائيل يادين' Yigael Yadin أن يُثبِتَ أن مُحدِثَ هَوِيَّةِ المُدُنِ السُّلَيْمَانِيَّةِ كَانَ مُسْتَنَدًا إِلَى عِلْمِ رَسْمِ الطَّبَقَاتِ Stratigraphy، والفُخَّارِيَّاتِ، والكَتَابِ المُقَدَّسِ، وَلَكِنْ عِلْمِ الطَّبَقَاتِ وَالْفُخَّارِيَّاتِ لَا يُزَوِّدُ إِلَّا بِتَارِيخٍ نَسْبِيٍّ لِلأَحْدَاثِ التَّارِيخِيَّةِ. وَبِنَاءِ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ مِنَ الوَاضِحِ أَنَّ كُلَّ فِكْرَةِ عِلْمِ آثَارِ المَمْلَكَةِ المُتَّحِدَةِ، وَمُسَوِّدَةِ تَخْطِيطِ المَدِينَةِ لِمَعْمَارِيِّ سُلَيْمَانَ، وَعَظَمَةِ القُصُورِ السُّلَيْمَانِيَّةِ، تَعْتَمِدُ كُلُّهَا عَلَى آيَةِ وَاحِدَةٍ فِي الكِتَابِ المُقَدَّسِ، فِي سَفَرِ المُلُوكِ الأَوَّلِ: 15/9<sup>(1)</sup>. عَلَيْنَا أَنْ نُكْرِّرَ هَذَا مَرَّةً ثَانِيَّةً: إِنَّ كُلَّ إِعَادَةِ البِنَاءِ التَّقْلِيدِيَّةِ لِطَبِيعَةِ الحُكْمِ المَلِكِيِّ المُتَّحِدِ لِإِسْرَائِيلِ - تَوْسَعُهَا الإِقْلِيمِيَّةُ، حَضَارَتُهَا المَادِّيَّةُ، عِلَاقَتُهَا مَعَ دُولِ الجَوَارِ - تَعْتَمِدُ عَلَى تَفْسِيرِ آيَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الكِتَابِ المُقَدَّسِ! وَهَذِهِ الآيَةُ مِنَ الآيَاتِ المُشْكَلَةِ جَدًّا، لِأَنَّهَا لَا نَعْرِفُ مَا إِذَا كَانَتْ مُسْتَنَدَةً إِلَى مَصَادِرٍ أُصْلِيَّةٍ مِنْ وَقْتِ سُلَيْمَانَ، أَوْ إِلَى حِقَاقِقِ حَدَثَتْ فِي زَمَنِ تَالٍ. كَمَا أَنَّنَا لَا نَعْرِفُ بِالضَّبْطِ مَعْنَاهَا الدَّقِيقَ: هَلْ تَعْنِي كَلِمَةُ بَيْتِي "أَنَّ سُلَيْمَانَ أُسِّسَ مُدُنًا جَدِيدَةً؟ أَمْ أَنَّهُ قَامَ بِتَحْصِينِ مُدُنٍ مَوْجُودَةٍ مِنَ الأَصْلِ فَقَطْ؟ هَلْ أَنَّ المُدُنَ الثَّلَاثَةَ المَذْكُورَةَ - "حَاصُورُ" وَ"مَجْدُو" وَ"جَازَرُ" - هِيَ - بِالنِّسْبَةِ لِكِتَابِ سَفَرِ المُلُوكِ - مُجَرَّدُ رَمَزٍ لِلْمُدُنِ الإِدَارِيَّةِ الرَّئِيسِيَّةِ الثَّلَاثَةَ لِإِسْرَائِيلِ الشَّمَالِيَّةِ؟ هَلْ يَسْقُطُ مُؤَلَّفُ سَفَرِ المُلُوكِ البِنَاءِ العَظِيمِ فِي السَّنَوَاتِ اللَّاحِقَةِ فِي تِلْكَ المُدُنِ عَلَى الأَيَّامِ القَدِيمَةِ السَّابِقَةِ الخَاصَّةِ بِعَهْدِ سُلَيْمَانَ.

دَعْنَا نَبْدَأُ بِالبُوبَةِ ذَاتِ العُرْفِ السَّتَّةِ؛ أَوَّلًا، لَقَدْ تَمَّ التَّشْكِيكُ بِفِكْرَةِ أَنَّ بُوبَةَ "مَجْدُو" يَعودُ تَارِيخُهَا لَزَمَنِ القُصُورِ المَبْنِيَّةِ مِنَ الحِجَرِ المَنْحُوتِ، وَذَلِكَ، بِشَكْلِ رَئِيسِيٍّ، لِأَنَّ البُوبَةَ مُرتَبِطَةٌ

(1) ونص الآية هو: [أما خدمةُ التَّنْخِيرِ الَّتِي قَرَضَهَا سُلَيْمَانُ، فَكَانَتْ بِدَاعِيِ بِنَاءِ هَيْكَلِ الرَّبِّ، وَقَضَرَ سُلَيْمَانَ، وَسُورَ أُورُشَلِيمَ، وَحَاصُورَ وَمَجْدُو وَجَازَرَ.]. (الترجم).

بالجدار أو السور الهائل الذي يُحيط بالقصرين. وبعبارة أخرى؛ هناك سبب جيّد للاعتقاد بأنّ البوابة هي - أيضاً - متأخرة عن القصور. علاوة على ذلك، أظهرت التّقيبات الأخيرة بأنّ هذا النوع من البوابات كان يُستخدم خارج حدود المملكة المتحدة وأنّ بوابات مشابهة كانت قد بُنيت في مراحل لاحقة في العصر الحديدي، وحتى القرن السابع ق. م. . لذا؛ الأساس الوحيد الذي يعتمد عليه كلُّ البناء تبيّن أنّه أساس مهزوز أيضاً. ولكن؛ ليس هذا كلُّ ما في الأمر.

يأتي الدليل الآخر من موقع "يزرعيل" القريب، الذي يقع على أقلّ من عشرة أميال شرق "مجدو". قام ديفيد أوسيشكين David Ussishkin من جامعة تل أبيب و"جون وودهيد" John Woodhead من المدرسة البريطانية لعلم الآثار في أورشليم (القدس)، بتقيب الموقع في التسعينات. لقد اكتشفوا منطقة مغلقة ومُحصنة طابقوها على القصر الذي بناه "آخاب" في النصف الأوّل من القرن التاسع ق. م. . لقد دُمّر هذا الأكروبوليس acropolis (القلعة المرتفعة) الواسعة بعد فترة قصيرة من بنائه. من المُفترض أنّ هذا الحادّ تمّ إمّا أثناء الثورة ضدّ أسرة العُمريّين تحت قيادة الملك الإسرائيليّ المُستقبليّ "ياهو" أو كنتيجة للحملة العسكرية لـ "حزائيل"، ملك دمشق، في شمال إسرائيل. في كلتا الحالتين، سيقع تاريخ ترك المنطقة المُسوّرة في "يزرعيل" في زمن يقع في حوالي مُنتصف القرن التاسع ق. م. . كانت المفاجأة أنّ الفخاريّات التي وُجِدَت في المنطقة المُسوّرة في "يزرعيل" كانت مُتطابقة مع الفخاريّات الموجودة في مدينة القصور في "مجدو"، ولكنّ الأخيرة كان المُفترض أنّها دُمّرت من قِبَل الفرعون "شيشانق" قبل حوالي قرن! كيف نردم هذه الفجوة؟ هناك إمكانيّتان وحيدتان: إمّا أن نسحب بناء "يزرعيل" إلى الورا ونعوّد به إلى زمن سلیمان، أو أن ندفع قُصور "مجدو" إلى الأمام إلى زمن حكم أسرة "آخاب". من البديهيّ أنّ في هذه الحالة، هناك حلٌّ واحد فقط، وذلك لأنّه ليس هناك سجلّ لاحتلال سلیمان لـ "يزرعيل"، ولأنّ مُجمّع "يزرعيل" يُماثل في تخطيطه الأكروبوليس acropolis (القلعة المرتفعة) في السامرة، عاصمة المملكة الشماليّة، التي لا شكّ أنّها كانت قد بُنيت من قِبَل الـ "عُمريّين". لقد دُمّرت مدينة القصور المبنية من الصّخر المنحوت في "مجدو" في مُنتصف القرن التاسع - احتمالاً من قِبَل "حزائيل"، وليس في عام 926 ق. م.، من قِبَل "شيشانق".

ولكن؛ هل هناك أي دليل مباشر آخر حول تاريخ مدينة القصور في "مجدو" بالإضافة إلى تأثير الدومينو الذي أشرنا إليه أعلاه؟ وبعبارة أخرى؛ هل مازال من المحتمل أن تكون قد بُنيت في زمن سليمان في القرن العاشر ق. م، ولم تُدمر إلا في القرن التاسع؟ إن الجواب سلبى على ما يبدو، لسببين؛ يأتي الدليل الأول من السامرة، عاصمة المملكة الشمالية لإسرائيل، التي بُنيت في أوائل القرن التاسع. هناك تشابهات واضحة في طُرُق بناء قصر السامرة وقصور "مجدو" ذات الصّفين، وبالتالي؛ يبدو، أنها بُنيت في نفس الزمن. هنا - أيضاً - نواجه خيارين: إما أن نثبت أن قصر السامرة والأكروبوليس acropolis (القلعة المرتفعة) الملكيّ كلاًهما بُني من قبل سليمان، أو أن نثبت أن قصور "مجدو" بُنيت في فترة لاحقة لعهد سليمان. لا يمكن أن نقبل الخيار الأول، لأنه بالكاد هناك شك في أن قصر السامرة وكامل الأكروبوليس acropolis (القلعة المرتفعة) إنما بُنيا من قبل "عُمري" و"آخاب" في أوائل القرن التاسع.

ولابد من كلمة تُقال هنا حول معالجة المواد التوراتية. يتساءل البعض من زُملائنا كيف يُمكننا أن نرفض الصفة التاريخية لآية واحدة في الكتاب المقدس العبري (سفر الملوك الأول 15/9)، ونقبل الصفة التاريخية لآيات أخرى، التي تتعلق ببناء "آخاب" للقصر في "يزرعيل" (سفر الملوك الأول 1/21) وبناء "عُمري" لقصر السامرة (سفر الملوك الأول 24/16). إن الإجابة لها علاقة بعلم المنهج. لا يمكن اعتبار المادة التوراتية كتلة واحدة مترابطة ذات انسجام كليّ. ولذلك؛ فهي لا تتطلب موقفاً يعتمد إما أخذ الكلّ أو ترك الكلّ. لقد أظهر لنا قرنان من الدراسات الحديثة للكتاب المقدس العبري أن المادة التوراتية يجب أن تُقيم فصلاً فصلاً، وأحياناً؛ آية آية. إن الكتاب المقدس يتضمن مواد تاريخية، وغير تاريخية، وشبه تاريخية، تظهر أحياناً قريبة جداً من أحدها الآخر في النصّ. إن أساس جوهر العلم بالكتاب المقدس العبري هو أن تفصل الأجزاء التاريخية عن بقية النصّ طبقاً لاعتبارات أدبية، ولغوية، ومعلومات تاريخية من خارج الكتاب المقدس، لذا؛ نعم؛ يمكن أن تُشكك في الصفة التاريخية لآية، وأن تقبل بصحة آية أخرى، خاصة في حالة "عُمري" و"آخاب"، التي وُصفت مملكتهما في النصوص الآشورية، والمؤابية، والآرامية المعاصرة.

## تَمييز عصر 'مَنَسَى' في السَّجَلِ الأَثَارِي

ليس من السَّهْلِ أَنْ نُحَدِّدَ 'مَنَسَى' من النَّاحِيَةِ الأَثَارِيَّةِ، بِدَقَّةٍ، أَيَّ أَنْ نُعَيِّرَ الطَّبَقَاتِ الخَاصَّةَ لِأَيِّ مَدِينَةٍ مُحَدَّدَةٍ بُنِيَتْ فِي عَهْدِهِ فِي مَوَاقِعٍ مُخْتَلِفَةٍ فِي كَأَنَّهُ أُنْحَاءَ يَهُوذَا. بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ فِخَّارِيَّاتٍ أَوْ آخِرَ العَصْرِ الحَدِيدِي الثَّانِي فِي يَهُوذَا تُعْرَفُ بِشَكْلِ أَفْضَلٍ - مِنْ تِلْكَ الَّتِي تَنْتَمِي لِأَيِّ مَرِحَلَةٍ أُخْرَى مِنْ العَصْرِ الحَدِيدِي، إِلَّا أَنَّ تَارِيخَهَا لَيْسَ دَقِيقًا بِمَا فِيهِ الكِفَايَةُ لِتَمييزِ أُسَالِيبِ جِيلٍ مُعَيَّنٍ. إِنَّ السَّبَبَ الرَّئِيسِي لِهَذِهِ الحَالَةِ الَّتِي هِيَ أَقْلٌ مِنَ المَطْلُوبَةِ، هُوَ أَنَّهُ لَكِي نَسْتَطِيعُ أَنْ نُحَدِّدَ تَارِيخَ مَجْمُوعَاتِ فِخَّارِيَّةٍ عَلَى نَحْوِ دَقِيقٍ، نَحْتَاجُ لِكَشْفِ طَبَقَاتِ الدَّمَارِ الَّتِي يُمَكِّنُ تَخْصِيصَهَا بِاطْمَئِنَّانٍ بِحَدَثِ تَارِيخِي مُعَيَّنٍ، لِذَا؛ فَإِنَّ كَامِلَ التَّسْلُسِلِ الزَّمَنِي التَّارِيخِي الفِخَّارِي لِلْمَرِحَلَةِ الأَخِيرَةِ مِنْ تَارِيخِ يَهُوذَا بَعْدَ سُقُوطِ إِسْرَائِيلِ إِنَّمَا يَسْتَنْدُ إِلَى مَوْقِعٍ وَاحِدٍ: هُوَ 'لِخَيْش' فِي 'شَفَلَةَ'، الَّذِي يُزَوِّدُنَا مَرَّتَيْنِ بِهَذَا الجَمْعِ بَيْنَ طَبَقَةِ دِمَارِ آثَارِيَّةٍ وَاضِحَةٍ ذَاتِ مَكْتَشَفَاتٍ غَنِيَّةٍ وَبَيْنَ المَصْدَرِ التَّارِيخِي المَوْثُوقِ. أَوَّلًا، لَا تَتْرَكَ السَّجَلَاتُ الأَشُورِيَّةُ، وَلِوَحَةِ النَّقْشِ النَّافِرَةِ فِي نِينَوَى، وَالكِتَابِ المُقَدَّسِ أَيَّ شَكٍّ فِي أَنَّ المَدِينَةَ دُمِّرَتْ مِنْ قَبْلِ 'سَنَحَارِب' فِي 701 ق.م. . ثَانِيًا، تُزَوِّدُنَا إِشَارَةَ الكِتَابِ المُقَدَّسِ إِلَى 'عَزِيقَةَ' وَ'لِخَيْش' كَأَخْرَ مَعْقِلٍ لِمُقاوِمَةِ الهُجُومِ البَابِلِي (إرْميا 7/34)، وَالَّتِي تُؤَكِّدُهَا رِقاَئِقُ فِخَّارِيَّةٍ مَكْتُوبَةٌ وَجُدَّتْ فِي المَوْقِعِ بِدَلِيلٍ وَاضِحٍ عَلَى أَنَّ 'لِخَيْش' أُبِيدَتْ - أَيْضًا. مِنْ قَبْلِ البَابِلِيِّينَ فِي 586/587 ق.م. .

رُبَّمَا هَذَانِ الدَّمَارَانِ لـ 'لِخَيْش' - بِنِهَايَةِ الطَّبَقَةِ الثَّالِثَةِ وَطَبَقَةِ الثَّانِيَةِ فِي المَوْقِعِ. بِالمُقَارَنَةِ بَيْنَ مَجْمُوعَاتِ (الفِخَّارِيَّاتِ) الَّتِي تَعُودُ إِلَى أَوَاخِرِ العَصْرِ الحَدِيدِي الثَّانِي وَالَّتِي كَشَفَتْ فِي مَوَاقِعٍ أُخْرَى فِي يَهُوذَا وَبَيْنَ مَجْمُوعَتِي الفِخَّارِيَّاتِ الغَنِيِّينَ وَالمُورَخْتَيْنِ بِشَكْلِ جَيِّدٍ فِي 'لِخَيْش'، تَمَكَّنَ العُلَمَاءُ مِنْ تَمييزِ أَفْقَيْنِ فِي يَهُوذَا فِي القَرْنَيْنِ الثَّامِنِ وَالسَّابِعِ ق.م. : المَوَاقِعِ الَّتِي

دُمِّرَتْ من قِبَلِ الأَشُورِيِّينَ في آخِرِ القَرْنِ الثَّامِنِ ق. م. ، وتلك التي دَمَرها البابليُّون في بداية القرن السَّادس .

يقع عهدُ مَنَسَّى -بَيْنَ هَذِهِ الأَفَقَيْنِ . لَمَّا كانَ مَنَسَّى -تابعاً مُوالياً للإمبراطوريَّةِ الأَشُوريَّةِ ، لم تكن هُنَاكَ حُرُوبٌ في عهده ؛ ولم يحدث دمارٌ عظيمٌ . كانت أَيَّامه فترةً سَلْمِيَّةً في "يهودا" . رغم ذلك ؛ فَإِنَّ ما كانَ جَيِّداً للشعبِ يَهُوداً ، كان ، من سُخْرِيَةِ القَدَرِ ، سَيِّئاً لِعَلَماءِ الأَثار . فنحنُ لا نملكُ حتَّى طبقةً واحدةً يُمكنُ تَاريخُها -باطمثنان- إلى أَيَّامه . بَقِيَتِ المَدُنُ التي أسَّسَها مَنَسَّى حتَّى السُّقُوطِ النَّهائِيِّ لِيَهُوداً ، ولذا ؛ فَإِنَّ طبقاتِ دمارها إِنما تعكسُ الحضارةَ المادِيَّةَ لسنواتها الأَخيرةَ بَدَلاً من أَيَّامها الباكِرةِ الأُولى . لذلك ؛ فَإِنَّ الطَّرِيقَ الوَحيدَ لِتَحديدِ مَنَسَّى -بِدَقَّةٍ ، هي أَنْ يَتِمَّ رَسْمُ المِخْطَطِ العامِّ لِلإِسْطِيانِ والاتِّجاهاتِ الدِّيُومِوِغرافيَّةِ (السُّكَّانِيَّةِ الجُغرافيَّةِ) في يَهُودا بَيْنَ 701 ق. م. ، وأواخرِ القَرْنِ السَّابِعِ . مع الأَخْذِ بعينِ الاعتبارِ أَنَّ عهْدَ حُكْمِ مَنَسَّى يَأْتِي مُباشرةً بعدَ حَمَلَةِ سَنَحارِبِ ، ويُمثِّلُ فترةً مُهمَّةً من الانتعاشِ الاقتصاديِّ ، وهذه المَعلُومَاتُ ولو كانت عامَّةً جداً إلاَّ أَنَّها ذاتُ قِيَمَةٍ كَبيرةٍ .

## كَمْ كَانَتْ سَعَةُ مَمْلَكَةِ يُوشِيَا؟

يَقْتَرِحُ سَفَرُ أَخْبَارِ الْأَيَّامِ أَنَّ حَمْلَةَ يُوشِيَا لِتَطْهِيرِ الْعِبَادَةِ وَالْغَزْوِ الْإِقْلِيمِيِّ وَصَلَتْ بَعِيداً إِلَى الشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ، إِلَى (مُدُنٍ مَسَى وَأَفْرَايِمَ وَشَمْعُونَ إِلَى نَقْتَالِي مَعَ خَرَائِبِهَا حَوْلَهَا) (سَفَرُ أَخْبَارِ الْأَيَّامِ الثَّانِي 6/34). وَفَقاً لِذَلِكَ، أَخَذَ الْعَدِيدُ مِنْ عُلَمَاءِ الْأَثَارِ التَّوْرَاتِيِّينَ، مُدَّةً طَوِيلَةً، بِظَاهِرِ تَقْرِيرِ سَفَرِ أَخْبَارِ الْأَيَّامِ، وَاعْتَدُوا بِأَنَّ مَمْلَكَةَ يُوشِيَا امْتَدَّتْ إِلَى أَغْلَبِ أَرْضِ فِلَسْطِينَ الْغَرْبِيَّةِ، مِنْ مَرْتَفَعَاتِ النَّقْبِ فِي الْجَنُوبِ إِلَى الْجَلِيلِ فِي الشَّمَالِ. طَبَقاً لَوُجْهِةِ النَّظَرِ هَذِهِ، سَيَطِرُ يُوشِيَا عَلَى أَجْزَاءٍ كَبِيرَةٍ مِنْ أَرْضِي الْمَمْلَكَةِ الشَّمَالِيَّةِ السَّابِقَةِ، كَمَا تَوْسَعُ - أَيْضاً - إِلَى الْجَنُوبِ وَالْغَرْبِ، إِلَى الْمَنَاطِقِ الَّتِي لَمْ يَسْبِقْ أَنْ كَانَتْ تَحْتَ سَيِّطَرَةِ أُورُشَلِيمَ (الْقُدْسِ). رِغْمَ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ التَّحْلِيلَ الْأَثَارِي الْجَدِيدَ يَقْتَرِحُ أَنَّ التَّقْدِمَ الْإِقْلِيمِي لِيُوشِيَا كَانَتْ مَحْدُوداً أَكْثَرَ بِكثِيرٍ.

اسْتَنْدَتْ وَجْهَةَ النَّظَرِ التَّوَسُّعِيَّةِ الْأَقْدَمِ، بِخُصُوصِ الْحُدُودِ الشَّمَالِيَّةِ لِيَهُودَا أثنَاءِ يُوشِيَا، عَلَى الْاِكْتِشَافَاتِ فِي 'مَجْدُو'. بِسُقُوطِ الْمَمْلَكَةِ الشَّمَالِيَّةِ، جَعَلَ الْأَشُورِيُّونَ 'مَجْدُو' عَاصِمَةً مُحَافَظَتِهِمْ فِي الْوُدْيَانِ الشَّمَالِيَّةِ وَالْجَلِيلِ. أَعَادُوا بِنَاءَ الْمَدِينَةِ فِي تَخْطِيطِ جَدِيدٍ جَدِداً، بِقَصْرَتَيْنِ أَشُورِيَّيْنِ نَمَطِيَّيْنِ، وَمَفْهُومِ جَدِيدٍ لِمَدِينَةٍ مُتَعَامِدَةٍ ذَاتِ مَجْمُوعَاتٍ مِنَ الشُّوَارِعِ الْمُتَوَازِيَةِ يَقْطَعُ أَحَدُهَا الْآخَرَ بِزَاوِيَةٍ قَائِمَةٍ. الطَّبَقَةُ الثَّالِثَةُ لِهَذِهِ الْمَدِينَةِ أَفْضَلُ مِثَالِ آثَارِيٍّ لِمَرْكَزِ حُكُومِيٍّ أَشُورِيٍّ فِي الْمَحَافِظَاتِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْ إِمْبِرَاطُورِيَّتِهِمْ. وَبِقِيَّتِ تَعْمَلُ حَتَّى الْانْسِحَابِ الْأَشُورِيِّ مِنْ فِلَسْطِينَ نَحْوِ نَهَايَةِ الْقَرْنِ السَّابِعِ ق. م. .

إِنَّ الطَّبَقَةَ الثَّالِثَةَ فِي 'مَجْدُو'؛ أَيْ الطَّبَقَةَ الثَّانِيَةَ، هِيَ - فِي الْعَدِيدِ مِنْ أَجْزَاءِ التُّلِّ، بِبَسَاطَةٍ - اسْتِمْرَارٌ لِلْمَدِينَةِ السَّابِقَةِ، مَعَ إِعَادَةِ بِنَاءِ وَإِضَافَاتٍ قَلِيلَةٍ جَدِداً، لَكِنْ؛ هُنَاكَ اخْتِلَافَانِ رِئِيسِيَّانِ بَيْنَ مُدُنِ الطَّبَقَةِ الثَّالِثَةِ وَالطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ: فِي الْمُسْتَوَى الثَّالِثِي، خَرَجَ سُورُ الْمَدِينَةِ عَنِ الْاسْتِعْمَالِ،



وأنشئت بناية هائلة، ميزها فريق جامعة شيكاغو أنها حصن، على الجانب الشرقي للتل. كان يُسيطر من هناك على الوادي وعلى الطريق الدولي السريع من مصر إلى بلاد ما بين النهرين. نُسبت الطبقة الثانية من قبل نفس المُتقنين إلى 'يُوشياً' (في جُهوده لتوحيد المملكتين)، كما نُسب دمارها الجزئي إلى المُواجهة التي أودت بحياة يُوشياً في النهاية.

من المُفترض - بناء عليه - أن يكون حصن 'مجدو' قد زودنا بالحلقة المفقودة لتفسير المُواجهة مع نكا (نخاو). لقد اقترح أن 'يُوشياً' استولى على كامل أراضي ريف المُرتفعات للمملكة الشماليّة السابقة، ثمّ توسّع أكثر، شمالاً، حتّى 'مجدو'، ليجعلها مخفره الشماليّ الاستراتيجي. لقد مكّن التّحكّم بكلّ المنطقة: من أورشليم القُدس إلى وادي يزرعيل، مكّن 'يُوشياً' من التّقدّم بجيشه نحو 'مجدو' في مُحاوله - احتمالاً - كنعن نكا (نخاو) من دَعَم ومُساعدة الجيش الآشوري ضدّ البابليين. أمّا بالنسبة للحدود الغربيّة المُفترضة لمملكة يهوذا زَمَن 'يُوشياً'؛ فإنّ الاكتشاف السّارّ لفريق التّوسّعيين كان مُساعد هَشَفياهُو Mesad Hashavyahu: موقعٌ صغيرٌ على السّاحل، حوالي خمسة عشر ميلاً جنوب تل أبيب. قدّم هذا البناء البسيط، الذي ميز كحصن (حيث كلمة ميساعيا في العبريّة مرادف لـ 'حصن')، اكتشافين مُثيرين: أولاً؛ مجموعة فخاريّات، تُورّخ - بنحو جيّد - إلى القرن السّابع ق. م، وتضمّنّت فخاريّات يونانيّة مُستوردة، الثّاني؛ وجد في الموقع عدداً من الرّقاق الفخاريّة كُتب عليها باللُغة العبريّة التّوراتيّة، تذكر الكتابة أسماء يهوئيّة Yahwistic تنتهي بكلمة ياهو: مثل هوشاياهُو Hoshayahu، عبدياهو Obadjahu، هَشَفياهُو Hashavyahu. ولذلك؛ فُسّر الموقع على أنّه حصنٌ بناه 'يُوشياً' على السّاحل بهدف إعطاء 'يهوذا' مَنفذاً إلى البحر. كان الحصن مُجهزاً بقائد يهوّدويّ ومُرتزقة يونانيّين كانوا يخدمون في الجيش اليهودويّ، في حجم مُشابه لدورهم في الجيش المصريّ في ذلك الوقت. وتبدو الرّقاق الفخاريّة المكتوبة المُحصّرة التي اكتشفتُ في حصن 'أراد' اليهودويّ في وادي بئر سبع مؤيدةً لهذه الفكرة. تذكّر هذه الرّقاق تخصيص مُونة الغذاء لشعبٍ يُسمّى 'قتيم'، وهو اصطلاح تُرجم بـ 'اليونانيّين'؛ أيّ كتيبة مُرتزقة يونانيّين في الجيش اليهودويّ.

ركّزت مناقشة حُدود مملكة 'يُوشياً' في الجنوب على حصنين كبيرين للقرن السّابع - قادش برنعيّا وحسيفا - اللّذين نقبهُما عالم الآثار الإسرائيليّ رُودولف كُوَهِين في الصّحراء بعيداً إلى

جنوب الخطّ الجنوبيّ لمدن "يهودا" في وادي بئر سبع . يُشرفُ حصن "قادش بَرْنِيعا" على أكبر واحة تقعُ على الطريق التجاريّ المهمّ من جنوب فلسطين على رأس خليج العقبة، ونحو الجنوب أكثر حتى بلاد العرب . طبقاً للمُنقَّب ، لقد تمّ بناء سلسلة من الحصون اليهوديّة في هذا الموقع . بُنيت السلسلة الأخيرة في عهد "يوشيا" ، ودمرها البابليّون عام 586 ق.م . وقد تمّ تمييز هذا البناء الأخير على أنّه حصن يهوديّ ، بسبب بعض التشابهات مع الحصن اليهوديّ في وادي بئر سبع ، وبسبب بضعة ألواح فخاريّة مكتوبة باللّغة العبريّة اكتشفتُ هناك ، وبسبب التقسيم التاريخيّ العامّ لحكم "يوشيا" الذي يفتّرح احتمال توسّع دولة "يهودا" حتى هذه المنطقة . في "حسيفا" ، حوالي عشرين ميلاً جنوب البحر الميت ، أُرخّ بناء ملجأ مُرّع قوي ، حجمه حوالي هكتاران ونصف ، مُزوّد ببوابة ذات أربع عُرف مُتقنة ، إلى القرينين التاسع والثامن ق.م . . وقد حلّ محلّه حصن أصغر . لحدّ ما - في أواخر القرن السابع ق.م ، مُرتبط بنشاطات "يوشيا" . كما أُرخت ذخيرة من أواني العبادة الأدوميّة المُحطّمة التي وُجدت مدفونة في حفرة قُرب الحصن إلى القرن السابع أيضاً ، ورُبطت بمشروع إصلاح العبادة الذي قام به "يوشيا" .

على الرّغم من هذه الإشارات الأثاريّة الظاهرة للتوسّع اليوشيّ ، كان هناك بعض العلماء ممن اعتقد أنّ بعض الموادّ الجغرافيّة في الكتاب المقدّس العبريّ تُشيرُ بشكل واضح - إلى أنّ مكاسب يوشيا الإقليميّة كانت ضئيلة . إنّ المصدر الأهمّ هو قوائم البلدات القبائليّة في يشوع 15 - 19 ، التي اقترح العالم التوراتيّ الألمانيّ "البريخت الت" أنّ بعضها يجب أن يُورخَ إلى القرن السابع . واقترح - بشكل خاصّ - أنّ قوائم بلدات "يهودا" : بنيامين ، ودان ، وشمعون ، تعكس القسم الإداريّ ليهودا في عهد "يوشيا" . في ذلك الوقت ؛ كانت المملكة مُقسّمة إلى اثنتي عشرة منطقة ، شملت المنطقة من وادي بئر سبع في الجنوب إلى هضبة بنيامين في الشمال ، بما في ذلك شرق "شَفَلَة" . جاءت الإشارة الأخرى في قوائم العائدين من المنفى البابلي ، التي تُظهرُ في سفريّ عزرا ونحميا . تتضمن هذه القوائم - على ما يبدو - الأماكن التي كانت ضمن حدود "يهودا" قبل دمار عام 586 ق.م . .

أضاف المؤرّخ التوراتيّ الإسرائيليّ بنيامين مازر أنّ وصف الحدود الجغرافيّة للإصلاح الدينيّ ليوشيا في سفر الملوك الثاني 23/8 يكشفُ حدود دولته أيضاً : [8 وجاء بجميع الكهنة

من مُدُن يهوذا، وَنَجَسَ المُرْتَفَعَاتِ حَيْثُ كَانَ الكَهَنَةُ يُوقِدُونَ مِنْ جَنَبِ إِلَى بَثْرَ سَبْعِ [ . طابق 'مَارَزْرُ' جَنَبٌ هَذِهِ عَلَى مَوْقِعٍ يَقَعُ حِوَالِي خَمْسَةِ عَشْرَ مِيلاً شِمَالاً أَوْرَشَلِيمَ (الْقُدْسَ) . إِنَّ مَعْنَى كُلِّ مَا سَبَقَ ، أَنَّهُ يَدُو أَنْ تَوْسَعُ يَوْشِيَا فِي الشَّمَالِ كَانَ ضَيْبَالاً ، وَيَشْمَلُ مَنطِقَةَ مَرْكَزِ العِبَادَةِ المَكْرُوهِ جَدًّا فِي 'بَيْتِ إِيل' فَحَسَبَ .

فِي الوَاقِعِ ؛ يُمَكِّنُ أَنْ تُفَسَّرَ المَكْتَشَفَاتِ الأَثَارِيَّةُ الَّتِي اسْتَعْمَدَهَا التَّوَسُّعِيُّونَ بِطَرِيقٍ مُخْتَلِفَةٍ جَدًّا . دَعْنَا نَبْدَأُ مِنْ 'مَجْدُو' فِي الشَّمَالِ ؛ حَيْثُ لَا يُوجَدُ أَيُّ دَلِيلٍ عَلَى نِسْبَةِ حِصْنِ الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ إِلَى 'يَوْشِيَا' . لَمْ يَتِمَّ اكْتِشَافُ حَتَّى مَادَّةٍ يَهُودِيَّةٍ وَاحِدَةٍ تَعُودُ لِلقَرْنِ السَّابِعِ (الَّذِي سَنَصِفُهُ أَدْنَاهُ) فِي 'مَجْدُو' . يُمَكِّنُنَا -بِاطْمِئْنَانٍ- أَنْ نَقْبِلَ وَجْهَةَ النِّظَرِ البَدِيلَةَ ، الَّتِي تَرَى أَنَّ الطَّبَقَةَ الثَّانِيَةَ فِي 'مَجْدُو' تُمَثِّلُ احْتِلَالاً لِمَسَلِمًا مِنْ قَبْلِ المَصْرِيِّينَ . وَاصِلَتِ القُصُورُ الأَشُورِيَّةُ -احتمالاً- عَمَلُهَا فِي خِدْمَةِ الإِدَارَةِ المَصْرِيَّةِ ، كَمَا تَمَّ بِنَاءُ حِصْنٍ فِي الحَافَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ التَّلِّ ، لَكِنَّ هَذَا التَّفْسِيرُ يَثِيرُ -نوعاً ما- مُشْكَلَةً مُشَابِهَةً ، وَهِيَ أَنَّ الطَّبَقَةَ الثَّانِيَةَ فِي 'مَجْدُو' لَا تُقَدِّمُ لَنَا أَيَّ مَكْتَشَفَاتٍ مَصْرِيَّةٍ ، وَلَكِنَّ الحُكْمَ المَصْرِيَّ فِي فِلَسْطِينَ فِي القَرْنِ السَّابِعِ كَانَ قَصِيراً جَدًّا ، تَرَاوَحَتْ مَدَّتُهُ بَيْنَ عَشْرَةِ وَعِشْرِينَ سَنَةً ؛ لَمَّا يَتْرَكُ العَدِيدُ مِنَ المَكْتَشَفَاتِ حَتَّى فِي السَّهْلِ السَّاحِلِيِّ الجَنُوبِيِّ .

أَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى 'مَسْعَادِ هَشْفِيَاهُو' فِي الغَرْبِ ؛ فَإِنَّ الفَخَّارِيَّاتِ اليُونَانِيَّةَ الَّتِي وُجِدَتْ هُنَاكَ أَصْبَحَتْ -الآن- مَعْرُوفَةٌ فِي عَدَدٍ مِنَ المَوَاقِعِ فِي السَّهْلِ السَّاحِلِيِّ الجَنُوبِيِّ وَوَادِي بَثْرَ سَبْعِ . إِنَّ السُّؤَالَ هُوَ : هَلْ يَجِبُ أَنْ نَعْتَمِدَ هَذِهِ الفَخَّارِيَّاتِ كَتَمَثِيلٍ لِلحُضُورِ الجَسْمِيِّ الفِعْلِيِّ لِلشُّجَارِ أَوْ المُرْتَزَقَةِ اليُونَانِيَّةِ ، أَوْ أَنَّهَا تُمَثِّلُ -فقط- عِلَاقَاتِ تِجَارِيَّةٍ مَعَ الغَرْبِ ؟ عَمُومًا ؛ تَعْتَمِدُ الإِجَابَةُ عَلَى مِثْلِ هَذَا السُّؤَالَ ، مِنْ بَيْنِ عِدَّةِ عَوَامِلَ ، عَلَى كَمِّيَّةِ الفَخَّارِيَّاتِ المَوْجُودَةِ فِي مَوْقِعٍ مُحَدَّدٍ . إِنَّ النِّسْبَةَ العَالِيَةَ نَسْبِيًّا لِهَذِهِ الفَخَّارِيَّاتِ فِي 'مَسْعَادِ هَشْفِيَاهُو' قَدْ تُشِيرُ -فِعلاً- لِحُضُورِ فِعْلِيٍّ لِّلْيُونَانِيِّينَ . وَإِذَا كَانَ المَوْقِعُ حِصْنًا فِعلاً ؛ فَإِنَّا نَتَعَامَلُ مَعَ مُرْتَزَقَةٍ . السُّؤَالَ التَّالِيَّ سَيَكُونُ : فِي أَيِّ جَيْشٍ خَدَمُوا ؟ يُخْبِرُنَا المُؤَرِّخُ اليُونَانِيُّ 'هَيْرُودُوتُس' أَنَّ المُرْتَزَقَةَ اليُونَانِيَّةَ خَدَمُوا فِي جَيْشِ بَسَنْتَاكِ الأَوَّلِ ، مَلِكِ مِصْرَ ، وَبِأَنَّهُمْ وَضَعُوا فِي قَلَاعِهِ الحُدُودِيَّةَ . هَذَا الأَمْرُ أَكَّدَتْهُ التَّفْتِيحَاتُ فِي مِصْرَ ، بِمَا فِي ذَلِكَ حَفَرٍ إِحْدَى الأَمَاكِنِ الَّتِي ذَكَرَهَا 'هَيْرُودُوتُس' بِشَكْلِ مُحَدَّدٍ . لِذَلِكَ ؛ يُمَكِّنُنَا أَنْ نَقْبِلَ -بِاطْمِئْنَانٍ كَامِلٍ- النِّظَرِيَّةَ الَّتِي تَقُولُ : إِنَّ 'مَسْعَادِ هَشْفِيَاهُو' كَانَتْ مَخْفِزًا أَمَامِيًّا سَاحِلِيًّا مِصْرِيًّا ، يَقُومُ بِشَأْنِهِ فَرِيقٌ مِنَ النَّاسِ ، مِنْ جُمْلَتِهِمْ مُرْتَزَقَةٌ يُونَانِيَّةٌ .

ولكن؛ ألا يمكن أن يكون المرتزقة اليونانيون قد خدموا - أيضاً - في جيش يهودوي؟ من الجدير أن نذكر ثانية في هذا الصدد: الـ 'قتيم' المذكورين في بعض الرقائق الفخارية المكتوبة العائدة لأواخر القرن السابع، والتي اكتشفت في حصن 'أراد' جنوب 'يهودا'. أمر قائد الحصن بتجهيزهم بمؤونة الطعام. اقترح أهاروني الذي نقب 'أراد'، مستنداً إلى الكتاب المقدس العبري، الذي يعرف 'القتيم' بأنهم يونانيين أو قبارصة، وإلى الفخاريات اليونانية التي وجدت في 'مسعاد هسفاهاو' (المفترض أنه قلعة يهودوية من عهد يوشيا)، أن 'القتيم' كانوا مرتزقة يونانيين أو قبارصة خدموا في جيش يهودوي، ولكن؛ هناك تفسيرات أخرى ليست بأقل معقولة. اقترح 'نداف نعمان' أن الرقائق الفخارية في 'أراد' يجب أن تفهم على أنها أوامر أعطيت لقادة يهودويين تأمرهم بتزويد مؤونة الطعام لمرتزقة يونانيين يعملون في الجيش المصري، الذي كان - في ذلك الوقت - يسيطر على 'يهودا'. اقترح مؤرخ توراتي آخر هو 'أسون ريني' Rainey بأن 'القتيم' لم يكونوا مرتزقة، بل تجاراً نشؤوا في بلدة قتيون Kition في قبرص.

على أي حال؛ بالنسبة إلى 'مسعاد هسفاهاو' لا يكاد يوجد شك في أن مصر، التي توسعت في آخر القرن السابع على طول ساحل المشرق، كانت قوية بما فيه الكفاية لمنع 'يوشيا' من بناء حصن مزوّل وسط المنطقة التي كان لمصر فيها مصالح استراتيجية قوية.

إذا كانت 'مسعاد هسفاهاو' حصناً مصرياً، فيجب أن نسأل، ماذا كان يفعل يهودويون - أي أشخاص يحملون أسماء يهوية - هناك؟ يُخبرنا سفر إرميا (1 / 44، 14 / 46) أنه في زمنه كان يهودويون يعيشون في عدة أماكن في مصر، فإذا جمعنا الاكتشافات في جزيرة فيلي في النيل، في مصر العليا، إلى الإشارات المذكورة في الكتاب المقدس العبري عن 'سيانا' (أسوان)، أمكننا أن نفترض أن يهودويين عملوا كمرتزقة في الجيش المصري في حدود الفترة الملكية المتأخرة. وبناءً عليه؛ فإنه من المنطقي جداً أن تتضمن الوحدة العسكرية المصرية المتمركزة في حصن 'مسعاد هسفاهاو' المصري مرتزقة يهودويين. اقترح 'نعمان' أن بعض أولئك اليهودويين ربما كانوا عمال سُخرة أرسلوا إلى هنالك كجزء من التزام يهودا التابعة لمصر. وهكذا لا يوجد سبب مقنع لمطّ وتوسعة أرض 'يوشيا' غرباً حتى الساحل.

الآن؛ إلى الجنوب. لقد تم اعتبار حصن القرون السابع في الجنوب البعيد - قادش برئيعا في الغرب و'حسيفا' في الشرق - حصنين يهودويين طبقاً لبعض أنماط الفخاريات و(بالنسبة للحصن

الأول) بعض الرقائق الفخارية المكتوبة بالعبرية، ولكن؛ بشكل أساسي، استند هذا الاعتبار على فكرة توسع دولة 'يهودا' الكبير في عهد 'يوشيا'، ولكن؛ هناك بديل ليس بأقل جاذبة، وهو الذي اقترحه 'ثومان' قائلاً إن الحصنين بُنِيا في أوائل القرن السابع تحت الرعاية الآشورية بمساعدة الدولتين المحليتين التابعتين للآشوريين - يهوذا (تحت حكم 'منسى') و'أوم' - وأنهما كانا يُداران بواسطة قوات تابعة محلية. كما اقترح - أيضاً - أن الرقائق الفخارية المكتوبة باللغة الهيبرية المصرية، والتي اكتُشفت في قادش برنعا، تُشير إلى أنه في أواخر القرن السابع تم تسليم الموقع للمصريين. في الواقع؛ يبدو الحصنان، خاصةً حصن حسيفا الضخم (و الذي يعود زمنه - احتمالاً - إلى القرن السابع) مختلفاً نوعاً ما. عن الحصون اليهودية في وادي بئر سبع.

حتى الآن استخدمنا دليلاً سلبياً، لكن؛ هل نملك أدلة إيجابية؟ أي هل توجد اكتشافات أثرية يُمكن أن تُساعدنا على تحديد حدود دولة 'يهودا' في عهد 'يوشيا'؟ كان للحضارة المادية ليهودا في أواخر القرن السابع عدّة خصائص واضحة، يسهل - نسبياً - تتبعها في السجل الآثاري. إنها تتمثل في سمات مختلفة للحياة في 'يهودا' في القرن السابع - التجارة، العبادة، الإدارة، والحياة اليومية.. إذا حططنا توزيع تلك السمات على خريطة أمكننا تمييز حدود 'يهودا'. رغم أن بعض تلك السمات بدأت بالظهور لأول مرة قبل عقود قليلة من عهد 'يوشيا'، إلا أنها لا بُد وأن تكون قد استمرت سارية ومُستخدمة، حتى بلغت ذروة شعبيتها في أواخر القرن السابع. بعبارة أخرى؛ يُمكننا أن نُخمن أنه إذا وسع يوشيا حدود 'يهودا'، فلا بُد أن تتوسع اكتشافات يهودية نمطية أيضاً - بشكل تدريجي - إلى الأراضي الجديدة.

إن المميزات الأولى لآثار 'يهودا' في القرن السابع أوزان مكتوبة صغيرة صُنعت من أحجار كلسية (جيرية). يبدو أنها كانت تُستخدم ضمن نشاط تجاري خاص يومي. تظهر هذه الأوزان - بشكل رئيسي - في وسط 'يهودا'، من وادي بئر سبع في الجنوب إلى المنطقة الواقعة شمال أورشليم (القدس) فحسب. كما وُجدت - أيضاً - بكميات كبيرة في شرق 'شَفَلَة'. أما خارج هذه الحدود التقليدية ليهودا؛ فلا تُوجد تلك الأوزان بكميات ذات أهمية إلا في الغرب فقط، أي في 'شَفَلَة' السملى والسهل الساحلي، لكن؛ هذا يُمكن أن يكون نتيجة للنشاط التجاري القوي بين يهوذا وهذه المنطقة.

أحد المكتشفات المميزة النمطية الأخرى لآخر القرن السابع في 'يهودا' هو دُمَعَاتُ خنم على شكل وَرْدَةٍ، وُجِدَتْ على مَقَابِضِ جِرَاتِ الحَزْنِ. كعبت هذه الأختام - احتمالاً - دوراً ما، لَمْ يُعْهَمَ - لِحَدِّ الآن، بِشَكْلِ كَامِلٍ - فِي إِدَارَةِ يَهُودَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ. يَشْمَلُ تَوْزِعُهَا مَرْتَفَعَاتُ يَهُودَا، مِنْ وَادِي بَرَسِيعِ فِي الْجَنُوبِ إِلَى الْمُنْطَقَةِ الَّتِي تَقَعُ إِلَى الشَّمَالِ قَلِيلاً مِنْ أُورُشَلِيمِ (الْقُدْسِ)، مَعَ تَرْكِيزٍ رَئِيسِيٍّ فِي مَنطِقَةِ الْعَاصِمَةِ.

تُوجَدُ - أَيْضاً - فِي يَهُودَا الْعَصْرَ الْمَلِكِي الْمَتَأَخِّرِ، وَبِكَمِّيَّاتٍ كَبِيرَةٍ، تَمَائِيلُ امْرَأَةٍ وَاقْفَةُ تَحْمَلُ صَدْرَهَا بِيَدَيْهَا. وَيُمْكِنُ تَمْيِيزُهَا عَنِ تَمَائِيلِ مُشَابِهَةٍ تَظْهَرُ فِي الْمَنَاطِقِ الْمُجَاوِرَةِ. وَجِدَتْ كُلُّهَا - تَقْرِيباً - فِي وَسْطِ يَهُودَا، بَيْنَ بَرَسِيعِ وَبَيْتِ إِيلِ. وَتَظْهَرُ فِي الْغَرْبِ بِأَعْدَادٍ كَبِيرَةٍ حَتَّى خَطَّ لَخَيْشٍ وَبَيْتِ شَمِشٍ غَرْباً. هُنَاكَ تَمَائِلٌ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ، يُصَوِّرُ حِصَاناً وَفَارِساً، كَانَتْ لَهَا شَعْبِيَّةٌ - أَيْضاً - فِي الْعَصْرِ الْحَدِيدِيِّ الْمَتَأَخِّرِ الثَّانِي فِي الْمَنطِقَةِ. فِي هَذِهِ الْحَالَةِ - أَيْضاً - يُمَكِّنُ لِلنَّسْخَةِ الْيَهُودَوِيَّةِ لِهَذَا التَّمَائِلِ أَنْ تُعْرَفَ. وَجِدَتْ كُلُّ تَمَائِيلِ هَذَا النَّوْعِ الْآخِيرِ - تَقْرِيباً - ضَمْنِ حُدُودِ يَهُودَا الْأَصْلِيَّةِ.

وهكذا في جميع الحالات، نجد هذه التماثيل وأنواع الفخاريات اليهودوية النمطية التي تعود لأواخر القرن السابع - بشكل رئيسي - في وسط المملكة الجنوبية. وتَهْبِطُ أَعْدَادُهَا كُلَّمَا ذَهَبْنَا غَرْباً وَشَمَالاً، وَهِيَ مَازَلَتْ بِكَمِّيَّةِ ذَاتِ أَهْمِيَّةٍ عَلَى هَضْبَةِ بَيْتِ إِيلِ، لَكِنْ؛ إِذَا بَعَدْنَا شَمَالاً فَإِنَّهَا تَشْتَرِكُ جَمِيعاً بِانْحِدَارِ عِدَدِ مَجْمُوعَاتِهَا.

عندما نَحْطُ كُلُّهُ هَذِهِ الْمَوَادِّ بِشَكْلِ مُنْفَرِدٍ عَلَى الْخَرِيطَةِ، نُلَاحِظُ أَنَّ تَوْزِعَهَا مُتَمَائِلٌ جَدّاً. إِنَّهُ يَمْتَدُّ مِنْ وَادِي 'بَرَسِيعِ' إِلَى هَضْبَةِ 'بَيْتِ إِيلِ' شَمَالِ أُورُشَلِيمِ (الْقُدْسِ)، وَمِنْ الْبَحْرِ الْمَيْتِ وَوَادِي الْأُرْدُنِّ إِلَى 'شَفَلَةَ' الْعَلْيَا. إِنَّ السُّؤَالَ هُوَ: هَلْ كَانَتْ هَذِهِ هِيَ حُدُودُ يَهُودَا الْحَقِيقِيَّةِ؛ بَحِثْ تُشِيرُ إِلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ تَوْسِعٌ بَنَحْوِ إِضَافِيٍّ شَمَالاً؟ أَمْ أَنَّهَا تُمَثِّلُ فَقط الْأَرْضَ الرَّئِيسِيَّةَ لِلْمَمْلَكَةِ؟ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ - أَيْضاً - يَجِبُ أَنْ نَتَذَكَّرَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ الْإِنْدِفَاعُ نَحْوَ الشَّمَالِ قَصِيرَ الْأَجْلِ، فَإِنَّ هَذَا يُعَسِّرُ لِمَاذَا لَمْ يَنْعَكَسْ - بَنَحْوِ كَافٍ - فِي السَّجَلِ الْأَثَارِيِّ، لَكِنْ الضَّمُّ وَالْإِحَاقُ الدَّائِمُ وَالبَعِيدُ الْمَدَى لِأَرْضِ جَدِيدَةٍ إِلَى مَمْلَكَةِ 'يَهُودَا'، لَا تُقِيدُهُ - بِبَسَاطَةٍ - الْمَكْتَشَفَاتُ الْأَثَرِيَّةُ.

## حدود محافظة 'يهودا' Yehud

احتفظ ملوك فارس بالتقسيم الإداري العام للشرق الأدنى، الذي كانت قد أسسته الإمبراطوريتان السابقتان الآشورية والبابلية. قُسمت الأراضي الواسعة للمنطقة تحت حكم الفرس - إلى ولايات فارسية، وقُسمت كل ولاية فارسية إلى محافظات يُديرها حكام. بُعثت فلسطين لولاية فارسية دُعيت 'ما وراء النهر' (أي: غرب الفرات)، التي - طبقاً لهيرودوتس Herodotus - المُرُخ اليوناني العظيم - تضمّت مناطق: سوريا، وفينيقية، وقبرص، وفلسطين.

تأتي بيانات أراضي محافظة 'يهودا' في فترة ما بعد النفي، الأكثر تفصيلاً، من نصّ الكتاب المقدّس العبري، من قائمة المنفيين الذي عادوا من بلاد بابل (عزرا 2؛ نَحْميا 7) ومن قائمة بناء أسوار أورشليم (القدّس) (نَحْميا 3). في الجنوب، كان الحدّ بين محافظة 'يهودا' وأرض الأدوميين يمرّ من جنوب بيت صُور تماماً، تاركاً حبرون (الخليل) - البلدة الثانية الأكثر أهميّة في المرتفعات في الأوقات الملكيّة المتأخّرة، وموقع قبور الآباء - خارج أرض العائدين إلى الوطن. في الشمال، توافقت حدود محافظة 'يهودا' مع حدود الفترة الأخيرة للحكم الملكي في 'يهودا' أواخر القرن السابع، مارّة من شمال 'مصفاة' وبيت إيل. في الشرق، ضُمّت أريحا إلى 'يهودا'. في الغرب، ذُكرت منطقة اللُدّ Lod، شمال 'شفلة' في قائمة المنفيين العائدين من بابل، ولكن؛ ليس هناك إجماع بين العلماء حول ما إذا كانت - فعلاً - مشمولة ضمن المحافظة. وبناء عليه؛ كانت 'يهودا' محافظة صغيرة تُغطّي - بشكل رئيسي - مرتفعات 'يهودا' التي تقع حوالي 15 ميلاً شمال وجنوب أورشليم (القدّس)، وهي رُفعة لا تزيد مساحتها على ثمانمئة ميل مرّعب، وهذه المساحة من الأرض أصغر حتّى من المساحة المحدودة لدولة 'يهودا' في أواخر القرن السابع ق.م، فهي (أي: محافظة 'يهودا') لم تتضمّن مرتفعات

حبرون (الخليل) الجنوبية، ولا وادي بئر سبع، ولا جزءاً كبيراً من منطقة "شَفَلَة". ويبدو أنَّ المحافظة قسّمت أقساماً فرعيةً إلى مناطق؛ تذكر قائمة بنائِي السُّور (نَحْمِيَا 3) بضعة بلدات من بينها بلدة "مصفاة" في الشمال وبيت صُور في الجنوب، اللتان عملتا كمراكز إدارية ضمن محافظة "يهودا".

إعادة البناء النَّصبيَّة هذه لحدود محافظة "يهودا" أكدتها الاكتشافات الأثرية. أكثر تلك الاكتشافات دلالةً، طبعات (دمغات) ختم مختلفة، وُجِدَتْ على الأواني الفخَّارية للفترة الفارسية، تحمل حُرُوفاً آراميةً أو عبريةً، تُوضِّح الاسم الآرامي لمحافظة "يهودا". وقد وُجِدَتْ عدَّة مئات من هذه التماذج حتَّى الآن. ويتطابق توزُّعها - على الأقلُّ - بالكميَّات ذات الأهميَّة، مع حدود محافظة "يهودا" كما بيَّنت أعلاه: من منطقة "مصفاة" في الشمال إلى "بيت صُور" في الجنوب، ومن "أريحا" في الشرق إلى "جازر" (قُرْب اللُد) في الغرب.

في الواقع، وُجِدَتْ جميع آثار الختم (الدمغات) - تقريباً - في أُورشليم (القُدس)، وفي المواقع التي تقع في شمالها وجنوبها مباشرة. أحد أنواع هذه الدمغات يحمل - علاوةً على اسم المحافظة - اسماً شخصياً ولقب: "الحاكم". ميَّز أغلبُ العلماء مثل هذه الأسماء الشَّخصية على أنَّها أسماءُ لحُكَّام مجهولين حكَّموا محافظة "يهودا"؛ أي بمعنى آخر، هي أسماءُ لمسؤولين كان لهم نفس مركز نَحْمِيَا.



## تَبَّتُ المَرَاجعُ والمَصَادِرُ

مُلاحظة من المُؤَلِّف: على الرَّغم من أنَّ هُنَاكَ مجموعة غنيَّة من المُؤلِّفات والإنتاج العلمي، باللُّغات العبريَّة والألمانيَّة والفرنسيَّة ولُّغات أُورُوبيَّة أُخرى، حول الموضوعات التي يُغطِّيها هذا الكتاب، إلَّا أنَّنا اخترنا المصادر الرئيسيَّة في هذه "البيبلوغرافيا" (مراجع ومصادر فُصُول الكتاب) من المُؤلِّفات المكتوبة باللُّغة الإنجليزيَّة فقط. ومع ذلك؛ فقد ذكرنا - في حالات نادرة - مصادر ألمانيَّة وفرنسيَّة؛ حيثُ كانت هي المصدر الوحيد للفصل أو الفقرة قُيدَ البحث.

المُقدِّمة: علم الآثار والتَّوراة

الموسوعات المرجعيَّة

I. المواقع الأثاريَّة الرئيسيَّة في إسرائيل والأردُن

Stern, E. (editor). *The New Encyclopedia of Archaeological Excavations in the Holy Land*. Jerusalem.

II. مداخل التَّوراة (الكتاب المُقدَّس)

Freedman, D. N. (editor). 1992. *The Anchor Bible Dictionary*. New York.

III. الشَّرق الأدنى القديم

Meyers, E. M. (editor). 1997. *The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East*. New York.

Sasson, J. M. (editor). ( *Civilizations of the Ancient Near East*. London.

حول الجغرافيا السياسيَّة لكِنْعَانَ/ إسرائيل

Orni, E. and Efrat, E. 1971. *Geography of Israel*. Jerusalem.

حول منهج علم الآثار

Renfrew, C. and Bahn, P. 1991. *Archaeology: Theories, Methods and Practice*. London.

## حول تاريخ أبحاث علم الآثار في فلسطين

Silberman, N. A. 1982. Digging for God and Country: Exploration in the Holy Land 1799 - 1917. New York.

## كُتُب مُقدِّمة لعلم الآثار في المشرق

Ben-Tor, A. (editor). 1992. The Archaeology of Ancient Israel. New Haven.

Levy, T. E. (editor). 1995. The Archaeology of Society in the Holy Land. London.

Mazar, A. 1990. Archaeology of the Land of the Bible 10.000 - 586 B. CE. New York.

Stern, E. 2001, Archaeology of the Land of the Bible, Vol. II: The Assyrian, Babylonian, and Persian Periods 732-332 BCE. New York.

## حول الجغرافيا التاريخية لأرض إسرائيل

Aharoni, Y. 1979. The Land of the Bible: A Historical Geography Philadelphia. Translation of ancient Near Eastern texts.

Pritchard, J. B. 1969. Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament. Princeton.

## حول أسفار موسى الخمسة (التوراة)

Blenkinsopp, J. 1992. The Pentateuch: An introduction to the First Five Books of the Bible. New York.

Friedman, R E. 1987. Who Wrote the Bible? New York.

Gunkel, H. 1964. The Legends of Genesis. New York.

Noth, M. 1981. A History of Pentateuchal Traditions. Sheffield.

Van Seters, J. 1999. The Pentateuch: A Social-Science Commentary. Sheffield.

Welhausen, J. 1957. Prolegomena to the History of Ancient Israel. New York.

Whybray, RN. 1987. The Making of the Pentateuch. Sheffield.

## حول التاريخ الشتوي

I . عام

McKenzie, S. L. and Graham, M. P. (editors). 1994. The History of Israel's Traditions: The Heritage of Martin Noth. Sheffield.

Knoppers, G.N. and Mc Conville, J. G. (editors). 2000. Reconsidering Israel and Judah: Recent Studies on the Deuteronomistic History. Winona Lake.

**Rofe, A. 1991. Ephraimite versus Deuteronomistic History. In: Garrone, D. and Felice, I. (editors). Storia e tradizioni di Israele.**

II . المدرسة الألمانية (مارتن نوث)

**Noth, M. 1981. The Deuteronomistic History Sheffield.**

III . مدرسة هارفرد (فرانك م. كروس)

**Cross, F.M. 1973. Canaanite Myth and Hebrew Epic. Cambridge, Mass.: 274 288.**

**Halpern, B. and Vanderhooff, D. 1991. The Editions of Kings in the 7th-6th Centuries B.C.E. Hebrew Union College Annual 62: 179 244.**

**McKenzie. S. L. 1991. The Trouble with King's: The Composition of the Book of Kings in the Deuteronomistic History. Leiden.**

**Nelson, R D. 1981. The Double Redaction of the Deuteronomistic History. Sheffield.**

حول سفرَي أخبار الأيام

**Japhet, S. 5993. 1 & 2 Chronicles: A Commentary. London.**

**Noth, M. 1987**

**Williamson, H. G. M. 5982.1 and 2 Chronicles. London.**

حول التصوير التاريخي في الكتاب المقدس

**Brettler, M. Z. The Creation of History in Ancient Israel London.**

**Halpern, B. 1988. The First Historians: The Hebrew Bible and History. San Francisco.**

**Ancient Israelite Historiography. Winona Lake.**

**Van Seters, J. 1983. In Search of History: Historiography in the Ancient World and the Origins of Biblical History New Haven.**

حول جدول التسلسل الزمني التوراتي للأحداث التاريخية

**Cogan, M. 0992. Chronology Anchor Bible Dictionary. New York**

**Galil, G. 1996. The Chronology of the Kings of Israel and Judah. Leiden.**

حول تاريخ إسرائيل

I . الدراسات العامة :

**Alt, A. 1966. Essays on Old Testament History and Religion. Oxford.**

**Noth, M. 1965. The History of Israel. London .**

**Hayes, J. H. and Miller, M. J. Israelite and Judaean History. London.**

Miller, M. J. and Hayes, J. H. 0986. A History of Ancient Israel and Judah. London.

De Vaux, R. 1978. The Early History of Israel. Philadelphia.

. II المقارنة التلخيصية :

Davies, P. 0992. In Search of Ancient Israel. Sheffield.

Lemche, N. P. 0994. Is it Still Possible to Write a History of Ancient Israel? Scandinavian Journal of Old Testament 8/ 165-190.

Thompson, T. L. 0992. Early History of the Israelite People. Leiden.

Thompson, T. L. 1999. The Mythic Past. New York.

مدرسة سرد الأحداث سرداً عاماً

Braudel, F. 0980. On History London.

Febvre, L. 1973. A New Kind of History and Other Studies. New York.

الفصل الأول: البحث عن الآباء

حول سفر التكوين

See items in the Pentateuch bibliography to the Introduction.

Sarna, N. M. 1966. Understanding Genesis. New York.

Speiser, E. A. 0964. Genesis: Introduction, Translation, and Notes. Garden City.

حول المصدر اليهودي

See items in the Pentateuch bibliography to the Introduction.

Friedman, R. E. The Hidden Book in the Bible. San Francisco.

Van Seters, J. 1992. Prologue to History: The Yahwist as Historian in Genesis. Louisville.

حول المصدر الإيلوهي

Jenks, A. W. 0977. The Elohist and North Israelite Traditions. Missoula.

حول المصدر الكهنوتي

Haran, M. 1981. Behind the Scenes of History: Determining the Date of the Priestly Source.

Journal of Biblical Literature 100: 321 333.

Hurvitz, A. 1988. Dating the Priestly Source in Light of the Historical Study of Biblical Hebrew a Century after Welhausen. Beihefte zur Zeitschrift für die alttestamentliche Wissenschaft 100: 88-99.

## المراجعات العامة للتقاليد الأبوية

Dever, W. G. and Clark, M. W. 1977. The Patriarchal Traditions. In: Hayes and Miller in the bibliography to the introduction: 70 148.

Hendel, R. S. 1995. Finding Historical Memories in the Patriarchal Narratives. *Biblical Archaeology Review* 21/4: 52 - 59, 70 71.

McCarter, P. K. 1999. The Patriarchal Age: Abraham, Isaac and Jacob. In: Shanks, H. (editor).

Ancient Israel From Abraham to the Roman Destruction of the Temple. Washington, D.C.: 1 31.

### النظريات القديمة حول تاريخية التقاليد (أي النصوص التقليدية) الأبوية

Albright, W. F. 1961. Abraham the Hebrew. A New Archaeological Interpretation. *Bulletin of the American Schools of Oriental Research* 163: 36 54.

Gordon, C. H. 1964. Biblical Customs and the Nuzi Tablets. In: Campbell, E. F. and Freedman, D. N. (editors). *The Biblical Archaeology. ct Reader. Volume II.* Garden City: 21 33.

Mazar, B. 1986. The Early Biblical Period: Historical Studies. Jerusalem: 49 62.

De Vaux, R. 161 - 187. See the bibliography to the Introduction.

### الدراسات النقدية للتقاليد (أي النصوص التقليدية) الأبوية

Thompson, T. L. 1974. The Historicity of the Patriarchal Narratives: The quests for the Historical Abraham. Berlin.

Van Seters, J. 1975. Abraham in History and Tradition. New Haven.

Redford, D. B. 1970. A Study of the Biblical Joseph Story. Leiden.

### حول علم آثار عبر الأردن

Bienkowski, P. (editor). 1992. Early Edom and Moab: The Beginning of the Iron Age in Southern Jordan. Sheffield.

McDonald, B. and Younker, R.W. (editors). 1999. Ancient Ammon. Leiden.

### حول العرب الأوائل

Ephal, I. 1982. The Ancient Arabs. Jerusalem.

### الفصل الثاني: هل حدثت الخروج الجماعي؟

### حول النظرية التقليدية للخروج في العصر البرونزي المتأخر

Frerichs, E. S. and Lesko, L. H. (editors). 1997. Exodus: The Egyptian Evidence. Winona Lake.

Sarna, N. M. 1999. Israel in Egypt: The Egyptian Sojourn and the Exodus. In: Shanks, H. (editor). Ancient Israel From Abraham to the Roman Destruction of the Temple. Washington: 33-54.

حول كنعان في العصر البرونزي المتأخر

Leonard, A. 1989. The Late Bronze Age. *Biblical Archaeologist* 52: 4-39.

Singer, I. Egyptians, Canaanites and Philistines in the Period of the Emergence of Israel. In: Finkelstein, I. and Naaman, N. (editors). From Nomadism to Monarchy: Archaeological and Historical Aspects of Early Israel. Jerusalem: 282-338.

Weinstein, J. M. 1981. The Egyptian Empire In Palestine: A Reassessment. *Bulletin of the American Schools of Oriental Research* 241: 1-28.

حول الاستطلاعات على طول الطريق الدولي شمال سيناء

Oren, E. D. 1987 (editor). Egypt, Israel, Sinai: Archaeological and Historical Relationships in the Biblical Period. Tel Aviv: 69-119.

حول دلنا النيل، وعهد الهكسوس، والخروج

Bietak, M. 1996. Avaris the Capital of the Hyksos: Recent Excavations at Tell el-Daba. London.

Redford, D. B. 1987. An Egyptological Perspective on the Exodus Narrative. In: Rainey, A. F. (editor). Egypt, Israel Sinai: Archaeological and Historical Relationships in the Biblical Period Tel Aviv: 137-161.

Redford, D. B. 1992. Egypt, Canaan and Israel in Ancient Times. Princeton: 98-122.

حول الدلتا في عهد السيتيين وقصة الخروج التقليدية

See Redford, above: 408-469.

تعليقات وتفسيرات على حادثة الخروج

Propp, W. H. C. 1999. Exodus 1-18. New York.

Sarna, N.M. 1986, Exploring Exodus. New York.

الفصل الثالث: غزو كنعان

حول نظرية الغزو العسكري

Albright, W. F. 1939. The Israelite Conquest of Canaan in the Light of Archaeology *Bulletin of the American Schools of Oriental Research* 74: 11-23.

Kaufman, Y. 1953. The Biblical Account of the Conquest of Palestine. Jerusalem.

Malamat, A: 1976. Conquest of Canaan: Israelite Conduct of War according to Biblical Tradition. Encyclopedia Judaica Year Book 1975/6: 166 182.

Wright, G. E. 1940. Epic of Conquest. Biblical Archaeologist 3: 25 40.

Yadin, Y. 1979 The Transition from a Semi-Nomadic to a Sedentary Society in the Twelfth Century BCE. In: Cross, EM. (editor). Symposia Celebrating the Seventy-Fifth Anniversary of the Foundation of the American Schools of Oriental Research (1900-1975) Cambridge: 57 68.

Yadin, Y. 1982. Is the Biblical Account of the Israelite Conquest of Canaan Historically Reliable? Biblical Archaeology Review 8:16-23.

حول التفتيات الأثرية الحالية في "حاصور"

Ben-Tor, A. 1998

Questions.

In: Gitin, S., Mazar, A. and Stern, E. 1998. Mediterranean Peoples in Transition: Thirteenth to Early Tenth Centuries BCE. Jerusalem: 456 467.

نقد نظرية الغزو العسكري

Finkestein, I. 1988. The Archaeology of the Israelite Settlement. Jerusalem: 295 302.

حول القصص التفسيرية لأموث مشاهدة في سفر يشوع

Noth, M. 1935. Bethel und Al. Paldstinajahrbuch 31: 7 29.

Noth, M. Die fünf Konige in der Hühle von Makkeda. Paldstinajahrbuch 33: 22 36.

عقلنة الدليل السلبي حول غزو وقتح كنعان

Albright, above: 16.

Glueck, N.1995. Rivers in the Desert. New York: 114.

حول الرواية التوراتية للغزو والفتح

Nelson, R. D. 1997. Joshua: A Commentary. Louisville.

Nelson, R. D. 1981. Josiah in the Book of Joshua. Journal of Biblical literature 100: 531 540.

حول شعوب الأرض

Dothan, T. 1982. The Philistines and Their Material Culture. Jerusalem.

Dothan, T. and Dothan, M. 0992. People of the Sea. New York.

Oren, E. D. (editor). 2000. *The Sea Peoples and Their World: A Reassessment*. Philadelphia.

Singer, in the bibliography to Chapter 2.

Stager, L. E. 1995. *The Impact of the Sea Peoples (1185-1050 BCE)*. In: Levy, T. E. *The Archaeology of Society in the Holy Land*. London: 332 - 348.

حول تاريخ انتهاء العصر البرونزي المتأخر

Ussishkin, D. 1985. *Levels VII and VI at Tel Lachish and the End of the Late Bronze Age in Canaan*. In: Tubb, J. N. (editor). *Palestine in the Bronze and Iron Ages: Papers in Honour of Olga Tufnell*. London: 213 - 228.

Ussishkin, D. 1995

*Bronze Age and Its Historical Significance*. Tel Aviv 22: 240 - 267.

حول سنوات الأزمة في نهاية العصر البرونزي المتأخر

Gitin, S., Mazar, A. and Stern, E. 1998. *Mediterranean Peoples in Transition: Thirteenth to Early Tenth Centuries BCE*. Jerusalem.

Ward, W. A. and Sharp Joukowsky, M. (editors). 1992. *The Crisis Years: The 12th Century B.C. From Beyond the Danube to the Tigris*. Dubuque.

حول كنعان وفترة "العمارة" بشكل خاص والعصر البرونزي المتأخر بشكل عام

See above, in the bibliography to Chapter 2.

Finkelstein, I. 1996. *The Territorio-Political System of Canaan in the Late Bronze Age*, *Ugarit Forschungen* 28: 221 - 255.

Naaman, N. *The Network of Canaanite Late Bronze Kingdoms and the City of Ashdod*, *Ugarit-Forschungen* 29: 599 - 626.

Singer in the bibliography to Chapter 2.

الفصل الرابع: مَنْ كان الإسرائيليون؟

حول نظرية التسرب السلمي

Alt, A. 1966. *Essays on Old Testament History and Religion*. Oxford:

Alt, A. *Kleine Schriften zur Geschichte des Volkes Israel, I*. Munchen: 256 - 273.

Aharoni, Y. 1976. *Nothing Early and Nothing Late. Re-writing Israel Conquest*. *Biblical Archaeologist* 39: 55 - 76.

حول نظرية ثورة الفلاحين

Mendenhall, G. E. 1962. *The Hebrew Conquest of Palestine*. *Biblical Archaeologist* 25: 66 - 87.

Gottwald, N. K. 1979. *The Tribes of Yahweh*. New York.



## الآراء المعاصرة حول صعود إسرائيل المبكرة

Coote, R. B. and Whitelam, K. W. 1987. The Emergence of Early Israel in Historical Perspective. Sheffield.

Dever, W. G. 1955

Origins. Biblical Archaeologist 58: 200 13.

Finkelstein in the bibliography to Chapter 3, The Archaeology.

Highlands Frontiers and the Rise of the Territorial States. In: Levy, T. E. (editor). The Archaeology of Society in the Holy Land. London: 349 365.

Finkelstein, I. 1996. Ethnicity and Origin of the Iron I Settlers in the Highlands of Canaan: Can the Real Israel Stand Up? Biblical Archaeologist 59: 198 212.

Finkelstein, I. and Naaman, N. (editors). 1994. From Nomadism to Monarchy: Archaeological and Historical Aspects of Early Israel. Jerusalem.

Lemche, N. P. 1985. Early Israel. Leiden.

Stager, L. E. 1985. The Archaeology of the Family in Ancient Israel. Bulletin of the American Schools of Oriental Research 260: 1- 35.

## حول الأبيرو والشووصيين

Giveon, R. 1971

Greenberg, M. 1955. The Hab/piriu. New Haven.

Rowton, M. B. 1976. Dimorphic Structure and the Problem of the Apiru-Ibrim. Journal of Near Eastern Studies 35:13 20.

Naaman, N. 1986. Habiru and Hebrews: The Transfer of a Social Term to the Literary Sphere. Journal of Near Eastern Studies 24: 271 288.

Rainey, A. E. 1995. Unruly Elements in Late Bronze Canaanite Society. In: Wright, D.P., Freedman, D.N. and Hurvitz, A. (editors). Pomegranates and Golden Bells. Winona Lake: 481 496.

Ward, W. A. 1972

Journal of the Economy and Social History of the Orient 15: 35 60.

## تفسير وشرح سفر القضاة

Boling, R. G. 1975. Judges. New York.

## الفصل الخامس: ذكريات عصر ذهبي

### شروح (تفسير) لسفري صموئيل وسفر الملوك الأول

McCarter, K. P. 5980. I Samuel. Garden City.

McCarter, K. P. 1984. II Samuel. Garden City.

Gray, J. 1970. I and II Kings, A Commentary. London.

حول الدولة الملكيّة المتّحدة، داود وسليمان

Fritz, V. and Davies, P. 1996. The Origins of the Ancient Israelite States. Sheffield.

King. Grand Rapids.

Handy, L. K. (editor) 5997. The Age of Solomon. Leiden.

Knauf, E. A. 1991

(editor). Phoenicia and the Bible. Leuven: 167 186.

Niemann, H. M. 2000. Megiddo and Solomon - A Biblical Investigation in Relation to Archaeology. Tel Aviv 27: 59 72.

الرأي التقليصي بشأن الدولة الملكيّة المتّحدة

See in the bibliography to the Introduction.

النظريّة التقليديّة حول علم آثار الدولة الملكيّة المتّحدة

Dover, W. G. 5990. Recent Archaeological Discoveries and Biblical Research. Seattle: 85 117.

Kenyon, K. 1971. Royal Cities of the Old Testament. New York: 53 - 70 .

Mazar, A. 1997. Iron Age Chronology: A Reply to I. Finkelstein. Levant 29: 155-165.

Ussishkin, D. 1973 36: 78  
505.

Yadin, Y. 1970. Megiddo of the Kings of Israel. Biblical Archaeologist 33: 66 96.

Yadin, Y. 1972. Hazor. London: 147 164.

Yadin, Y. 1975 Hazor: The Discovery of a Great Citadel of the Bible. London: 147 248.

حول التسلسل الزمني الأدنى لطبقة العصر الحديدي

Finkelstein, I. 1996. The Archaeology of the United Monarchy: An Alternative View. Levant 28: 577 587.

Finkelstein, I. 1998. Bible Archaeology or Archaeology of Palestine in the Iron Age? A Rejoinder. Levant 30: 167 174.

حول نماذج الاستيطان في يهودا

Ofer, A. 1994  
a Prosperous Monarchy. In: Finkelstein, I. and Naaman, N; (editors). From

nomadism to Monarchy Archaeological and Historical Aspects of Early Israel. Jerusalem: 92 121.

### حول أورشليم (القدس) في عصر المملكة المتحدة

- Cahill, J. 1998  
Archaeological Evidence Proves it. Biblical Archaeology Review 24/4:34 41.  
Steiner, M. 1998  
Archaeology Proves a Negative. Biblical Archaeology Review 24/4: 26 - 33, 62.

on the Ground. Tel Aviv.

- Knauf, E. A. 2000. Jerusalem in the Late Bronze and Early Iron Periods: A Proposal. Tel Aviv 27: 73 89.

### حول نقش تلّ دان

- Biran, A. and Naveh, J. The Tel Dan Inscription: A New Fragment. Israel Exploration Journal 45: 1 18.

- Halpern, B. 1994. The Stela from Dan: Epigraphic and Historical Considerations. Bulletin of the American Schools of Oriental Research 296: 63 80.

- Lemaire, A. 1998. The Tel Dan Stela as a Piece of Royal Historiography. Journal for the Study of the Old Testament 81: 3 14.

- Schniedewind, W. M. 1996. Tel Dan Stela: New Light on Aramaic and f Oriental Research 302:75 90.

- Yamada, S. 1995. Aram-Israel Relations as Reflected in the Aramaic Inscription from Tel Dan. Ugarit-Forschungen 27:611 625.

### حول الفلسطينيين

See bibliography on the Sea Peoples in Chapter 3 above.

### الفصل السادس: دولة واحدة وأمة واحدة وشعب واحد!

حول الشمال في مقابل الجنوب في منطقة المرتفعات المركزية خلال الألفية

See Finkelstein 1995 in the bibliography to Chapter 4.

### حول منطقة المرتفعات في فترة العمارة

See Finkelstein 1996 and Naaman 1997 in the bibliography to Chapter 3 above.

- Naaman, N. 1992. Canaanite Jerusalem and its Central Hill Country Neighbors in the Second Millennium B.C.E. Ugarit-Forschungen 24: 277 291.

### حول تشكيل الدولة في المشرق

Finkelstein, I. 1999. State Formation in Israel and Judah: A Contrast in Context, A Contrast in Trajectory. *Near Eastern Archaeology* 62: 35 52.

Marfoe, L. 1979. The Integrative Transformation: Patterns of Socio-political Organization in Southern Syria. *Bulletin of the American Schools of Oriental Research* 234: 1 42.

### حول حملة الفرعون شيشانق

Kitchen, K. A. 1973. The Third Intermediate Period in Egypt. Warminster: 293 300.

Mazar in the bibliography to Chapter 1: 139 150.

### الفصل السابع: مملكة إسرائيل الأولى المنسية

#### شرح (تفسير) سفر الملوك الثاني

Cogan, M. and Tadmor, H. 1988. *II Kings*. Garden City.

### حول مسألة ميشا

Dearman, J. A. (editor). 1989. *Studies in the Mesha Inscription and Moab*. Atlanta.

Naanian, N. 1997. King Mesha and the Foundation of the Moabite Monarchy. *Israel Exploration Journal* 47: 83 92.

Smelik, K. A. D. 1992. *Converting the Past, Studies in Ancient Israelite and Moabite Historiography*. Leiden: 59 92.

### حول نقش تلّ دان

See the bibliography to Chapters.

### حول السامرة

See Kenyon, *Royal Cities*, the bibliography to Chapters.

### حول 'مجدو' و'حاصور' في القرن التاسع

### حول نظام المياه في العصر الحديدي الثاني

Shioh, Y. 1992. Underground Water Systems in the Land of Israel in the Iron Age. In: Kempinski, A. and Reich, R. (editors). *The Architecture of Ancient Israel from the Prehistoric to the Persian Periods*. Jerusalem: 275 293.

### حول قصور بيت حيلاني

See Ussishkin, *King Solomon's Palaces*, in the bibliography to Chapters.

## حول يزرعيل

Naaman, N. 1997. Historical and Literary Notes on the Excavations of Tel Jezreel. Tel Aviv 24: 122 128.

Ussishkin, D. and Woodhead, J. 1992. Excavations at Tel Jezreel 1990 - 1991: Preliminary Report, Tel Aviv 19: 3 56.

Ussishkin, D. and Woodhead, J. Excavations at Tel Jezreel 1992 - 1993: Second Preliminary Report, Levant 26: 1 71.

Ussishkin, D. and Woodhead, J. 1997. Excavations at Tel Jezreel 1994 - 1996: Third Preliminary Report, Tel Aviv 24: 6-72.

Williamson, H. C. M. 1991. Jezreel in the Biblical Texts. Tel Aviv 18: 72 92.

Zimhoni, O. 1997. Studies in the Iron Age Pottery of Israel Typological Archaeological and Chronological Aspects. Tel Aviv: 13 56.

## حول رؤوس العواميد من النَّمط - العولسي

Shiloh, Y. 1979. The Proto-Aeolic Capital and Israelite Ashlar Masonry (Qedem II). Jerusalem.

## حول دولة العُمريين

Olivier, H. 1983. In Search of a Capital for the Northern Kingdom, Journal of Northwest Semitic Languages II: 117 132.

Schulte, H. The End of the Omride Dynasty: Social-Ethical Observations on the Subject of Power and Violence. In: Knight, D. A. (editor). Ethics and Politics in the Hebrew Bible. Atlanta: 133 148.

Timm, S. 1982. Die Dynastie Qmri. Gottingen.

Williamson, H. G. M. 1996. Tel Jezreel and the Dynasty of Omri, Palestine Exploration Quarterly 128: 41 51.

## حول تمثيل العُمريين في التاريخ التَّشوي

Ishida, T The House of Ahab, Israel Exploration Journal 25: 135 - 137 .

Whitley C. E 1952. The Deuteronomic Presentation of the House of Omri, Vetus Testamentum 2: 137 152.

## الفصل الثَّامن: في ظلِّ إمبراطوريَّة

## حول آرام دمشق والآراميين

Dion, P.-E. 5997

Lipinski, E. 2000. The Arameans: Their Ancient History Culture, Religion. Leuven.

Pitard, W. T. 1987. Ancient Damascus. Winona Lake.

حول 'حزائيل' وحره ضد إسرائيل

Lemaire, A. 1991

Joannes, F. (editors). Marchands, diplomates etempereurs. Paris: 91 108.

See bibliography on the Dan Stele in Chapters.

حول 'حاصور' والشمال في العصر الحديدي الثاني

Finkelstein, I. 1999. Hazor and the North in the Iron Age: A Low Chronology Perspective. Bulletin of the American Schools of Oriental Research 314: 55 70.

حول التقييات في دان وبيت صيدا

Biran, A. 1994. Biblical Dan. Jerusalem.

Arav, R., Freund, R.A. and Shroder, J.F. 2000. Bethsaida Rediscovered: Long Lost City Found North of Galilee Shore. Biblical Archaeology Review 26/1: 45 56.

حول رقائى الفخاريات المكتوبة في السامرة

Lemaire, A. 1977. Inscriptions hebraiques I : Les ostraca. Paris.

Rainey, A. F. 1967. The Samaria Ostraca in the Light of Fresh Evidence. Palestine Exploration Quarterly 99: 32 41.

Shea, WH. 1977. The Date and Significance of the Samaria Ostraca. Israel Exploration Journal 27: 16 27.

حول عدد سكان يهودا وإسرائيل في العصر الحديدي الثاني

Broshi, M. and Finkelstein, I. 1992. The Population of Palestine in Iron Age II. Bulletin of the American Schools of Oriental Research 287: 47 60.

حول إسطبلات 'مجدو'

Davies, A. I. 1988. Solomonic Stables at Megiddo After All? Palestine Exploration Quarterly 120: 130-141.

Herr, L. G. 1988. Tripartite Pillared Buildings and the Market Place in Iron Age Palestine. Bulletin of the American Schools of Oriental Research 272: 47 67.

Herzog, Z. 0973. The Storehouses. In: Aharoni, Y. (editor). Beer-sheba I. Tel Aviv: 23 30.

Pritchard, J. B. 1970. The Megiddo Stables: A Reassessment. In: Sanders, J. A. (editor). Near Eastern Archaeology in the Twentieth Century Garden City: 268 275.

Yadin, Y. 0976. The Megiddo Stables. Magnalia Dei: the Mighty Acts of God. Essays on the Bible and Archaeology in Memory of G.E. Wright. Garden City: 249-252.

### حول قوائم الحَيُول الأَشُورِيَّة

Dalley, S. 1985. Foreign Chariotry and Cavalry in the Armies of Tiglath-pileser III and Sargon II. Iraq 47: 31 48.

### حول قطع العاج في السَّامِرة

Crowfoot, J. W. and Crowfoot, G. M. 1938. Early Ivories from Samaria. London.

### حول الحملات الأَشُورِيَّة

Tadmor, H. 1966. Philistia under Assyrian Rule. Biblical Archaeologist 29: 86 102.

### حول سَقُوط السَّامِرة

Becking, B. 1992 The Fall of Samaria. Leiden.

Naainan, N. 1990. The Historical Background to the Conquest of Samaria (720 BC). Biblica 71: 206 225.

### حول ترحيل الإِسْرَائِيلِيِّين

Naaman, N. 1993. Population Changes in Palestine Following Assyrian Deportations. Tel Aviv 20: 104 124.

Oded, B. 1979. Mass Deportations and Deportees in the Neo-Assyrian Empire. Wiesbaden.

Younger, L. K. 1998. The Deportations of the Israelites. Journal of Biblical Literature 117: 201 227.

### الفَصْلُ التَّاسِعُ : تحوُّلُ يَهُودَا

### حول صُعُود يَهُودَا فِي القَرْنِ الثَّامِنِ

Jamieson-Drakc, D. W 1991. Scribes and Schools in Monarchic Judah: A Socio-Archaeological Approach. Sheffield.

Finkelstein 1999 in the bibliography to Chapter 6.

Finkelstein, I. 2001. The Rise of Jerusalem and Judah: The Missing Link. Levant 33: 105 115.

### حول "أحاز" فِي التَّارِيخِ (الفِعْلِيِّ) وَالتَّارِيخِ التَّنَوِي

Naaman, N. 1995. The Deuteronomist and Voluntary Servitude to Foreign Powers. Journal for the Study of the Old Testament 65: 37 53.

Nelson, R. D. 1986. The Altar of Ahaz: A Revisionist View. Hebrew Annual Review 10: 267 - 276.

Smelik, K. A. D. The New Altar of King Ahaz (a Kings 16); Deuteronomistic Reinterpretation of a Cult Reform. In: Vervenne, M. and Lust, J. (editors). Deuteronomy and Deuteronomic Literature. Leuven: 263 - 278.

Tadmor, H. and Cogan, M. 1979. Ahaz and Tiglath-Pileser in the Book of Kings: Historiographic Considerations. Biblica 60: 491 - 508.

حول قوائم المُدُن المُحصَّنة من قِبَل رَحَّبام

Naaman, N. 1986  
Bulletin of the American Schools of Oriental Research 261: 5 - 21.

Fritz, V. 1981  
2 Chr. II: 5-12 -A  
Document from the Time of Josiah. Eretz-Israel 15: 46 - 53.

حول نُقُوش العصر الحديدي الثاني بما في ذلك الأختام

Avigad, N. and Sass, B. 1997. Corpus of West Semitic Stamp Seals. Jerusalem.

McCarter, K P 1996. Ancient Inscriptions: Voices from the Biblical world Washington.

Naveh, J. 1982. Early History of the Alpha bet. Leiden.

حول الإنتاج الشامل للفخاريات في يهوذا في العصر الحديدي الثاني

Zimhoni, Studies in Iron Age Pottery in the bibliography to Chapter 7 57  
178.

حول تاريخ الاستيطان في يهوذا

Offer in the bibliography to Chapters.

حول التشابه بين أورشليم العصر البرونزي المتأخر وأورشليم العصر الحديدي الباكر

Naaman, N. 1996. The Contribution of the Amarna Letters to the Debate  
letin of the  
American Schools of Oriental Research 304:17 - 27.

حول الدِّين في 'يهوذا'

Ackerman, S. 1992. Under Every Green Tree: Popular Religion in Sixth Century Judah. Atlanta.

Alberty, R. 1994. A History of Israelite Religion in the Old Testament Period. Louisville.

Miller, P. D. 2000. Israelite Religion and Biblical Theology. Sheffield.



Smith, M. 1971. *Palestinian Parties and Politics that Shaped the Old Testament*. New York.

حول توسع أورشليم (القدس) في القرن الثامن

Avigad, N. 1984. *Discovering Jerusalem*. Oxford: 31 60.

Broshi, M. 1974. The Expansion of Jerusalem in the Reigns of Hezekiah and Manasseh. *Israel Exploration Journal*: 24: 21-26.

حول مقابر أورشليم (القدس) في العصر الحديدي الثاني

Barkay, G. and Kloner, A. 1986. Jerusalem Tombs from the Days of the First Temple. *Biblical Archaeology Review* 12/2: 22 39.

Ussishkin, D. 1993. The Village of Silwan: The Necropolis from the Period of the Judean Kingdom. *Jerusalem*.

حول الإصلاح الديني لـ 'حزقيا'

Naaman, N. 1995. The Debated Historici Light of Historical and Archaeological Research. *Zeitschrift fur die alttestamentliche wissenschaft* 107: 179 195.

Rosenbaum, J. 1979 *Tradition*. Harvard Theological Review 72: 23 43.

حول إمكانية كتابة تاريخ تشوي باكر في عهد 'حزقيا'

Halpern and Vanderhooft in the bibliography to the introduction.

Provan, I. W. 1988. *Hezekiah and the Books of Kings: A Contribution to the Debate about the Composition of the Deuteronomistic History*. Berlin.

الفصل العاشر: بين الحرب والبقاء

حول ثورة 'حزقيا'

Halpern, B. 1991. *Jerusalem and the Lineages in the Seventh Century BCE: Kinship and the Rise of Individual Moral Liability*. In: Halpern, B. and Monarchic Israel Sheffield: 11

107.

Naaman, N. 5994. *Hezekiah and the Kings of Assyria*. Tel Aviv 21: 235 254.

حول العلاقات الخارجية ليهودا في أيام 'حزقيا' و'منسى'

Evans, C. D. 1980  
Evans, C. D., Hallo, W. W. and White, J. B. (editors). *Scripture in Context: Essays on the Comparative Method*. Pittsburgh: 157 178.

Nelson, R. 1983. Realpolitik in Judah (687 - 609 B.C.E.). In: Hallo, W. W., Moyer, J. C. and Perdue, L. G. (editors). Scripture in Context II: More Essays on the Comparative Method. Winona Lake: 177 189.

حول توسع أُورشليم (القدس) غرباً

See Avigad and Broshi in the bibliography to Chapter 9.

حول "لخيش" وفتحها من قِبَل "سَنحاريب"

Ussishkin, D. 1982. The Conquest of Lachish by Sennacherib. Tel Aviv.

حول جرار التّخزين المدموغ عليه "الملك" وإدارة "حزقيّا"

Naaman, N. 1979

LMLK Stamps. *Vetus Tejmentum* 29: 61-86.

Ussishkin, D. 1977. The Destruction of Lachish by Sennacherib and the Dating of the Royal Judean Storage Jars. Tel Aviv 4: 28 60.

Vaughn, A. G. 1999. Theology History and Archaeology in the

حول أَيّام "مَنسّى"

Finkelstein, I. 1994. The Archaeology of the Days of Manasseh. In: Coogan, M.D., Exum, J. C. and Stager, L. E. (editors), Scripture and Other Artifacts: Essays on the Bible and Archaeology in Honor of Philip J. King. Louisville: 169 187.

حول التّقييم التّوراتي لـ "مَنسّى"

Ben-Zvi, E. 1991. The Account of the Reign of Manasseh in II Reg 21: 1 - 18 and the Redactional History of the Book o  
*alttestamentliche Wissenschaft* 103: 355 - 374.

Eynikel, E. 1997. The Portrait of Manasseh and the Deuteronomistic Histry In: Vervene, M. and Lust, J. (editors). Deuteronomy and Deuteronomic Literature. Leuven: 233 261.

Halpern, B. 1998. Why Manasseh was Blamed for the Babylonian Exile: The Revolution of a Biblical Tradition. *Vetus Testamentum* 48: 473 - 514.

Schniedewind, W. M. 1991. The Source Citations of Manasseh: King Manasseh in History and Homily. *Vents Testamentum* 41: 450 461.

Van Keulen, P. 1996. Manasseh through the Eyes of the Deuteronomists. Leiden.

حول الازدهار في الجنوب في القرن السابع

Finkelstein, I. Horvat Qitmit and the Southern Trade in the Late Iron Age II. *Zeitschrift des Deutschen Palastina-Vereins* 108: 156 - 170.

Bienkowski, in the bibliography to Chapter 1, various articles.

حول إنتاج زيت الزيتون في تل ميقنة

Eitam, D. and Shomroni, A. 1987. Research of the Oil Industry during the Iron Age at Tel Mique. In: Heltzer, M. and Eitam, D. (editors). *Olive Oil in Antiquity Haifa*: 37 - 56.

Gitin, S. 1987. Tel Mique-Ekron in the 7th C. BC: City Plan, Development and the Oil Industry In: Heltzer, M. and Eitam, D. (editors). *Olive Oil in Antiquity. Haifa*: 81 - 97.

حول تقسيم ملوك يهوذا في الأزمنة الملكية المتأخرة

Naaman 1994 above.

Schniedewind, W. 1999. *Society and the Promise to David Oxford*.

الفصل الحادي عشر: في أيام الملك يوشيا

حول يوشيا وإصلاحه في التاريخ التثوي

Eynikel, E. 1996. *The Reform of King Josiah and the Composition of the Deuteronomistic History. Leiden*.

Laato, A. 1992. *Josiah and David Redivivus: The Historical Josiah and the Messianic Expectations of Exilic and Postexilic Times. Stockholm*.

Lohfink, N. 1987. The Cult Reform of Josiah: 2.Kings 22 - 23 as a Source for the History of Israelite Religion. In: Miller, P. D., Hanson, P. D. and McBride, S. D. (editors) *Ancient Israelite Religion. Philadelphia*: 459 - 475.

Naaman, N. *The Kingdom of Judah under Josiah. Tel Aviv* 18 :3 - 71.

Taishir, Z. 1996. The Three Deaths of Josiah and the Strata of Biblical Historiography (2 Kings XXIII 29 - 30; a Chronicles XXXV 20 - 5; I Esdras I 23 - 31). *Vetus Testamentum* 46: 213 - 236.

حول سفر التثنية

Tigay, J. 1996. *Deuteronomy. Philadelphia*.

Von Rad in the bibliography to the Introduction.

Von Rad, G. 1966. *Deuteronomy: A Commentary. London*.

Weinfeld, M. 1972. *Deuteronomy and the Deuteronomist School. Oxford*.

حول المسرح الدولي في العقود الأخيرة من تاريخ 'يهودا'

Malamat, A. 1973

Near Eastern Society. 5: 267 279.

Malamat, A. 1988. The Kingdom of Judah between Egypt and Babylon: A Small State within a Great Power Confrontation. In: Classen, W. (editor). Text and Context. Sheffield: 117 129.

حول مصر والمشرق في أيام الأسرة المالكة السادسة والعشرين

Redford, Egypt and Canaan, in the bibliography to Chapter 2.

حول النسخة الأولى من سفر التثنية

See bibliography to the Introduction.

حول الاهتمام بالأيقونات ومعادة الأيقونات في إسرائيل القديمة

Keel, O. and Uehlinger, C. 1998. Gods, Goddesses, and Images of God in Ancient Israel. Edinburgh.

Mettinger, T. 1995. No Graven Image? Israelite Aniconisin in Its Ancient Near Eastern Context. Lund.

الفصل الثاني عشر: النفي والعودة

حول الجزء الثاني (أو النسخة الثانية) من سفر التثنية

See bibliography on the Deuteronomistic History (the Harvard School) in the introduction, especially Halpern and Vanderhooff.

See the items on King Manassch in the bibliography to Chapter so.

الفترة البابلية

Lipschits O. Forthcoming. The Fall and Rise of Jerusalem.

Vanderhooff, D. S. 1999. The Neo-Babylonian Empire and Babylon in the Latter Prophets. Atlanta.

حول الآيات الأربعة الأخيرة من سفر الملوك (إطلاق سراح يهوياكين من السجن)

Becking, B. 990

Kings 25, 27 - 30. In: Brekelmans, C. and Lust, J. (editors). Pentateuchal and Deuteronomistic Studies. Leuven: 283 293.

Levenson, J. D. 1984. The Last Four Verses in Kings. Journal of Biblical Literature. 103: 353 - 361. Von Rad in the bibliography to the introduction.

حول أسطورة الأرض الخالية والاستيطان والجغرافيا السكانية في محافظة 'يهود'

Barstad, H. M. 1996. The Myth of the Empty Land. Oslo.

Carter, C. E. 1999. *The Emergence of Yehud in the Persian Period*. Sheffield.

حول محافظة 'يهود' وبروز يهودية الهيكل الثاني

Berquist, J. L. 1995

Davies, P. R. (editor). 1991 *Second Temple Studies I. The Persian Period*. Sheffield. Eskenazi, T. C. and Richards, K. H. (editors). *Second Temple Studies 2. Temple and Community in the Persian Period*. Sheffield.

Hanson, P. D. 1987. *Israelite Religion in the Early Postexilic Period*. In: Miller, P. D., Hanson, P. D. and McBride, S. D. (editors). *Ancient Israelite Religion*. Philadelphia: 485 - 508.

Williamson, H. 1998. *Judah and the Jews*. In: Brosius, M. and Kuhrt, A. (editors). *Studies in Persian History: Essays in Memory of David M Lewis*. Leiden: 145 - 163.

حول الحضارة المادية للفترة الفارسية بشكل عام وفي محافظة 'يهود' بشكل خاص

Stern, E. 1982. *Material Culture of the Land of the Bible in the Persian Period*, 538 - 332 B. C Warminster.

حول حقائق 'النفي' وما بعد 'النفي' خلف قصص أسفار موسى الخمسة (التوراة)

Clines, D. J. A. 1997. *The Theme of the Pentateuch*. Sheffield.

Hoffman, Y. 1998. *The Exodus - Tradition and Reality. The Status of the Exodus Tradition in Ancient Israel*. In: Shirun-Grumach, I. (editor). *Jerusalem Studies in Egyptology*. Wiesbaden: 193 - 202.

Van Seters 1975, in the bibliography for Chapter 1.

## المؤلفان والمترجم في سطور

د. إزرايل (إسرائيلي) فنكلششتاين: Israel Finkelstein

رئيس قسم علم الآثار في جامعة تل أبيب في إسرائيل (فلسطين المحتلة)، وبروفسور - حالياً - في ذلك القسم . إسرائيلي من أصل ألماني، حائز على الماجستير (1978)، ثم الدكتوراه (1983) في علم الآثار من جامعة تل أبيب، بأطروحة عنوانها [التنقيبات في عزبت سرتاح Izbet Sartah والاستيطان الإسرائيلي في منطقة التلال (المرتفعات)]. شغل منصب مدير أو مدير مشارك للعديد من أعمال التنقيب الأثرية في مناطق مختلفة من فلسطين منذ عام 1971، وحتى اليوم، آخرها رئاسته المشتركة - حالياً - لمشروع أعمال التنقيب الأثرية في "مجدو".

بالإضافة إلى كتابه الحالي، الذي هو آخر تأليفاته، صدر له عدة كتب بالتعاون مع مؤلفين آخرين، أهمها:

- 1- "العيش على الحافة: علم الآثار وتاريخ النقب وسيناء والمناطق المجاورة في العصور البرونزية والحديدية" (1995، شيفيلد).
- 2- "من البدوية إلى الملكية: الجوانب علم الآثار لإسرائيل القديمة" (1994، القدس).
- 3- "مرتفعات الحضارات المتعددة: استطلاع السامرة الجنوبية" (1993، تل أبيب).
- 4- "المسوحات الأثرية في ريف التلال والمرتفعات في بنيامين" (1993، القدس).
- 5- "علم آثار المواقع التوراتية" (1993، شيلوح).

نشر، وما يزال ينشر، العديد من المقالات حول موضوعات علم آثارية في العديد من المجلات والحواليات المهمة بعلم الآثار والدراسات التاريخية؛ مثل: "مجلة المعاهد الأمريكية للدراسات الشرقية"، و"المجلة الأمريكية لعلم الآثار".

بريده الإلكتروني : fink2@post.tau.ac.il

- نيل إشر سيلبرمان Neil Asher Silberman

مؤلف ومؤرخ (أمريكي يهودي الأصل) ذو اهتمام خاص بالتاريخ، وعلم الآثار، والتفسيرات العامة. زميل سابق لـ "غوغنهايم" Guggenheim وخريج جامعة "يزيليان" Wesleyan في الولايات المتحدة، مؤلف لتسعة كتب في مواضيع أثرية. ومحرر مساهم في مجلة "علم الآثار" Archaeology Magazine الأمريكية، ومساهم بشكل متكرر. في عدة نشرات ودوريات علم أثرية وذات اهتمام عام، ولديه خبرة خاصة في إيصال الاكتشافات الأثرية والرؤى الناجمة عنها لعامة الناس. كتبه (علاوة على كتابه الحالي):

- 1- "سلطات سماوية" (بنجوان بوتنام، 1998)؛
- 2- "وراثة المملكة" (مع ريتشارد أي. هورسلي Horsley، بوتنام، 1997)؛
- 3- "علم آثار إسرائيل" (مع ديفيد أ. سمول، شيفيلد، 1995)؛
- 4- "أمريكا غير المرئية" (مع مارك ب. ليون، هولت، 1995)؛
- 5- "اللقائف المخفية" (بوتنام، 1994)؛
- 6- "نبي من بينكم: حياة ييغائيل يادين Yigael Yadin (أديسون وزلي، 1993)؛
- 7- "بين الماضي والحاضر" (هولت، 1989)؛
- 8- "الحفريات لأجل الله والبلاد" (نوف، 1982).

عضو هيئة "مركز لينيم" Ename Center منذ عام 1998، يعمل في مشاريع دولية مختلفة في علم الآثار وتفسير التراث. يُمكن مراسلته بالبريد الإلكتروني على العنوان التالي:

neil.silberman@ename974.org

المُترجم: سعد رُستُم:

باحث ومُترجم، من حلب، في سوريا، مُتخصِّص بالدراسات الإسلاميَّة ومُقارنة الأديان.

بدأ دراسته الجامعيَّة بدراسة الطبِّ البشري عام 1976، في جامعة حلب، لينتقل عام 1980، إلى دراسة العلوم الإسلاميَّة، مُبتدئاً بالدراسة على الطَّريقة التقليديَّة في إيران/ قُم (1981 - 1985)؛ ليصل للمراحل الأخيرة من السُّطوح، ثمَّ ينتقل إلى الدراسة الجامعيَّة الأكاديميَّة في باكستان من عام 1985، وحتى 1992؛ حيثُ نال البكالوريوس، ثمَّ الماجستير في الدراسات الإسلاميَّة من جامعة البنجاب/ لاهور (1987 و 1989)، ثمَّ ماجستير في التفسير والحديث من الجامعة الإسلاميَّة العالميَّة/ إسلام آباد (1990)، وأخيراً؛ ماجستير فلسفة (M. Phil.) بالدراسات الإسلاميَّة وطُرق البحث بدرجة مُمتاز مع الشُّرف، من جامعة العلَّامة إقبال المفتوحة في إسلام آباد (1992).

يُتقن أربع لغات هي: الفرنسيَّة والإنجليزيَّة والفارسيَّة والأردنيَّة مع إلمام بسيط بالتركيَّة. عمل بالصحافة فترة، ثمَّ درَّس العلوم الدينيَّة لعقد ونصف، ويُدَرِّس - حالياً - اللُغة الفارسيَّة في معهد اللُغات في جامعة حلب، وقد أتجَّه للتأليف والترجمة منذُ عدَّة سنوات، فصَدَرَ له عدَّة مؤلَّفات أو كُتُب مُترجمة عن الإنجليزيَّة والفارسيَّة. من مؤلَّفاته التي طُبِّعت:

1- "الذات الإلهيَّة والمجازات القرآنيَّة والنَّبويَّة: إزالة شُبْهة التشبيه والتجسيم من أساسها"، (دار الأوائل، دمشق، 2002).

2- "التوحيد في الأناجيل الأربعة وفي رسائل القديسين بولس ويوحنا"، (دار الأوائل، دمشق، 2002).

3- "المسيحيَّة وأساطير التَّجسُّد في الشُّرق الأدنى القديم"، (دانييل إ. باسوك، ترجمة عن الإنجليزيَّة)، (دار الأوائل، دمشق، 2002).



4- 'أمريكا - إسرائيل و11 أيلول 2001'، ديفيد ديوك، (ترجمة عن الإنجليزية)، (دار الأوائل، دمشق، 2002).

5- 'حلُّ الاختلاف بين الشيعة والسنة في مسألة الإمامة'، (ترجمة عن الفارسية)، (دار الأوائل، دمشق، 2002).

6- 'مناقب آل سيدنا مُحَمَّد (صلى الله عليه وآله وسلّم): عليّ وفاطمة والحسن والحسين'، (دار القلم العربي/ حلب، 2003).

7- 'عليّ والخلفاء دُرُوس وَعَبَر'، (دار الكوثر/ دمشق، 2003).

8- 'الفرق والمذاهب الإسلامية منذُ البدايات: النشأة - التاريخ - العقيدة - التوزع الجغرافي'، (دار الأوائل، دمشق، 2004).

9- 'الفرق والمذاهب المسيحية منذُ ظهور الإسلام وحتى اليوم'، (دار الأوائل، دمشق، 2004).

يمكن - لمن أراد - مُراسلة المُترجم على بريده الإلكتروني : [saadrstm@scs-net.org](mailto:saadrstm@scs-net.org)

